التاريخ الإسلامي
الوجيز

بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ الإسلامي
الوجيز

(يتناول الكتاب الجانب السياسي بصورة أكثر)

تأليف

الدكتور محمد سهيل طقوش

دار النفائس

التاريخ الإسلامي الوجيز

تاليف: د. محمد سهيل طقوش

الطبعة الخامسة: 1432هـ - 2011م

ISBN 978 - 9953 - 18 - 064 - 9

Publisher	نــشـــر

DAR AN-NAFAES
Printing-Publishing-distribution
Verdun Str - Safiedine bldg.
P.o.Box 14-5152
Zip code 1105-2020
Fax: 009611 861367
Tel: 00961 1 803152 - 810194.
Beirut - Lebanon

دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان - بناية الصباح
وصفي الدين - ص.ب 5152 - 14
الرمز البريدي: 2020 - 1105
فاكس: 009611861367
هاتف: 803152 - 009611810194
بيروت - لبنان

Email: alnafaes@alnafaes.com

Web Site: WWW.alnafaes.com

تقديم الناشر

تخلو المكتبة العربية من كتاب حديث مختصر، يؤرخ لدول المسلمين، من بداية ظهور الإسلام وحتى الانقلاب على الخلافة رسمياً وإنهاء دورها سنة ١٩٢٤م، على أيدي جمعية الاتحاد والترقي التي كان يسيِّرها يهود الدونما، ليكون عوناً للقارئ يسهل عليه الإلمام بالتاريخ الإسلامي، والوصول إلى معرفة زمن حدث يفتقده، أو معلومة فاتتهُ، بسهولة ويسر.

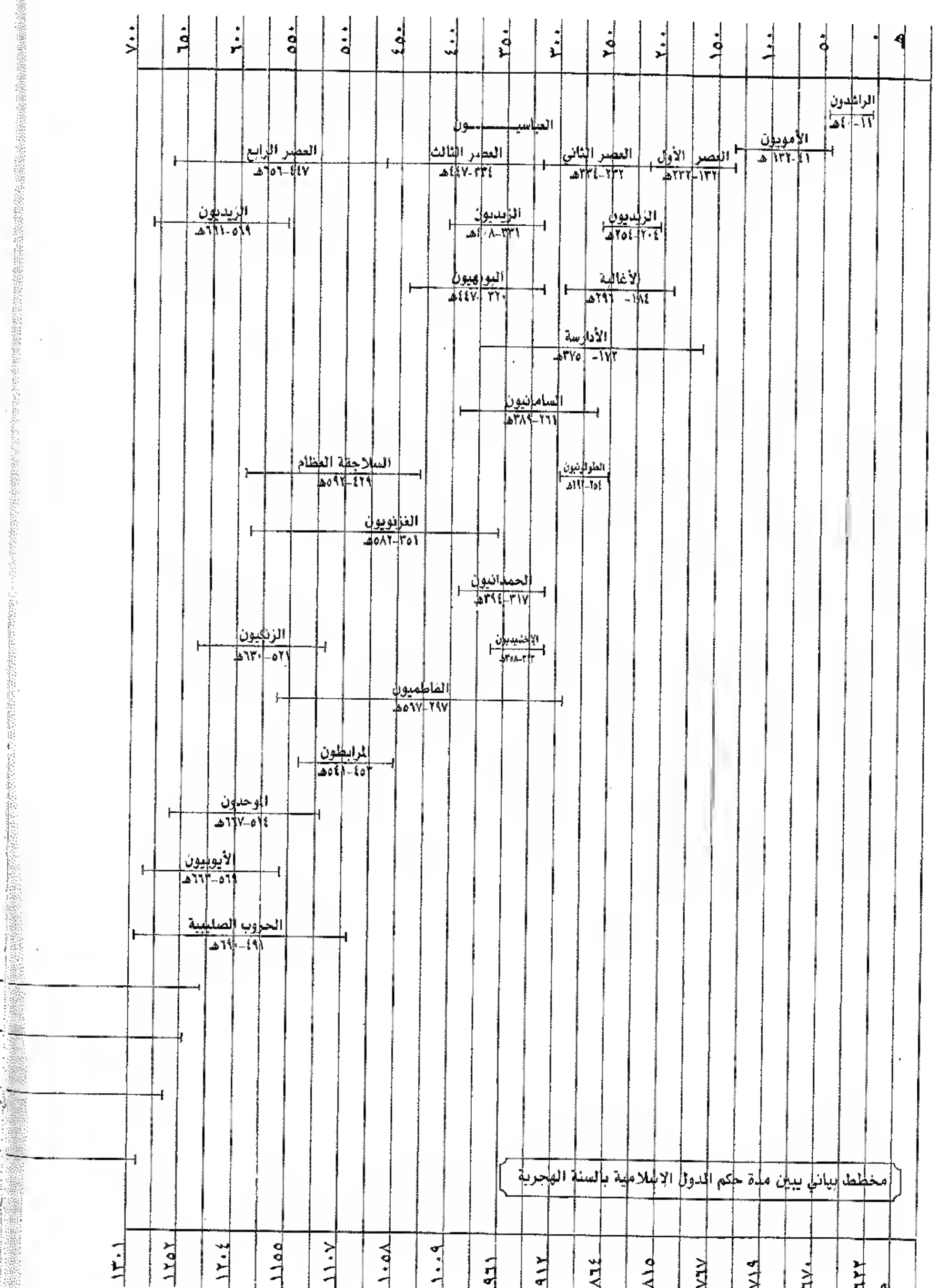
وأحببت أن يكون لي شرف تأليفه لرغبتي في تنمية معلوماتي التاريخية ولوجود تصور له في ذهني، توصلت إليه من خلال دراساتي وعملي، ولكن شؤون دار النفائس الإدارية، واضطراري للاطلاع على ما يُعرض عليها من كتب للنشر، أخَّرت إنجاز هذا العمل سنوات.

ولما تعارفت والأستاذ الفاضل الدكتور محمد سهيل طقوش، من خلال نشر مؤلفاته، وأدركت رهافة حسِّه التاريخي، وعمق دراساته في التاريخ الإسلامي بعامة، والتاريخ العثماني بخاصة، شرحت له فكرتي، وتمنَّيت عليه وضع هذا الكتاب، فاستجاب لطلبي مشكوراً.

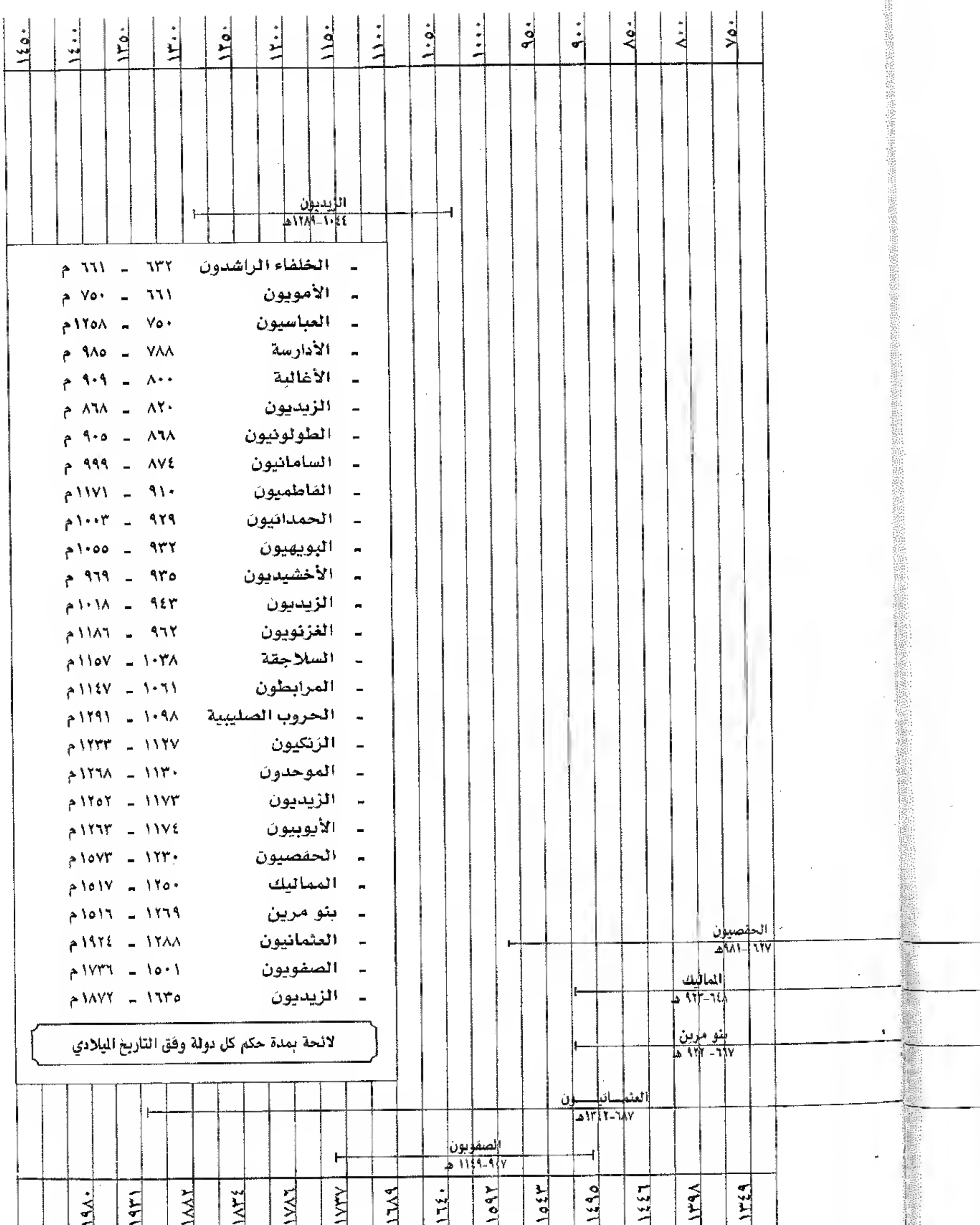
ولدى الاطلاع على ما كتب وجدته أقرب ما يكون إلى ما يدور في ذهني، وأغتنم الفرصة لشكره على تحمله مراجعاتي وتدخلي في شؤون هو أدرى مني بها.

وفي أثناء مراجعتي الكتاب خطر لي أن تزويده بخرائط مفصَّلة يغني عن سرد الكثير من المعلومات، فاخترت مجموعة من الخرائط، بعضها كنت قد نشرتها سابقاً في عدد من الكتب التاريخية، وبعضها اخترته من كتب أخرى، وبخاصة من أطلس الفتوحات الإسلامية، وأدخلت بعض التعديلات التي تتلاءم وهدف الكتاب.

ثم بدا لي أن أضع مخططاً بيانيًّا، يوضِّح تاريخ بداية عهد كل دولة ونهايتها، بطريقة تسهل على القارئ رؤية أزمنة الدول المتداخلة أو «المتعاصرة»، وهي كثيرة،



مخطط بياني يبين مدة حكم الدول الإسلامية بالسنة الهجرية



- الخلفاء الراشدون ٦٣٢ - ٦٦١ م
- الأمويون ٦٦١ - ٧٥٠ م
- العباسيون ٧٥٠ - ١٢٥٨م
- الأدارسة ٧٨٨ - ٩٨٥ م
- الأغالبة ٨٠٠ - ٩٠٩ م
- الزيديون ٨٢٠ - ٨٦٨ م
- الطولونيون ٨٦٨ - ٩٠٥ م
- السامانيون ٨٧٤ - ٩٩٩ م
- الفاطميون ٩١٠ - ١١٧١م
- الحمدانيون ٩٢٩ - ١٠٠٣م
- البويهيون ٩٣٢ - ١٠٥٥م
- الأخشيديون ٩٣٥ - ٩٦٩ م
- الزيديون ٩٤٣ - ١٠١٨م
- الغزنويون ٩٦٢ - ١١٨٦م
- السلاجقة ١٠٣٨ - ١١٥٧م
- المرابطون ١٠٦١ - ١١٤٧م
- الحروب الصليبية ١٠٩٨ - ١٢٩١م
- الزنكيون ١١٢٧ - ١٢٣٣م
- الموحدون ١١٣٠ - ١٢٦٨م
- الزيديون ١١٧٣ - ١٢٥٢م
- الأيوبيون ١١٧٤ - ١٢٦٣م
- الحفصيون ١٢٣٠ - ١٥٧٣م
- المماليك ١٢٥٠ - ١٥١٧م
- بنو مرين ١٢٦٩ - ١٥١٦م
- العثمانيون ١٢٨٨ - ١٩٢٤م
- الصفويون ١٥٠١ - ١٧٣٦م
- الزيديون ١٦٣٥ - ١٨٧٢م

لائحة بمدة حكم كل دولة وفق التاريخ الميلادي

وبخاصة في العهد العباسي، ووضعت هذا المخطط في أول الكتاب، بينما وضعت في آخره جدولاً بأهم أحداث التاريخ الإسلامي.

ويستطيع عشّاق التاريخ، والراغبون في الاستزادة والتفصيل من تاريخ أي دولة، الرجوع إلى دليل المصادر والمراجع في آخر الكتاب، ففيه ما يسدُّ حاجة كل مستزيد.

وختاماً، أسأل الله العلي القدير أن أكون وُفِّقْت في تقديم كتاب موجز يفيد القارئ المعاصر، الذي لم يعد وقته يسمح بقراءة المطوَّلات، وأن يسدَّ هذا الكتاب ثغرة في المكتبة العربية. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أحمد راتب عرموش

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصَّلاة والسَّلام على سيدنا محمَّد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

يمكن لأي كتاب ألا يعبِّر عن موضوعه فقط، بل عن مرحلة كتابته أيضاً، «وهذا الكتاب يتناول تاريخ العالم الإسلامي في آسيا وإفريقية وأوروبة، من جانبه السياسي بين (١ ـ ١٣٤٢هـ/ ٦٢٢ ـ ١٩٢٤م)» وقد لاحظت بعد قراءته أن أحداثه، باستثناء عصر الرسالة، تسير وفق خط سير محدَّد، انطلاقاً من ولادة الدولة، مروراً بالنشأة، وصعوداً نحو القمة، ثم السقوط، وفقاً لنظرية ابن خلدون المتعلقة بأعمار الدول. وهي تحمل في طيَّاتها البذرة الجنينية للانحلال التي لن تلبث أن تنمو وتستفحل لتقضي عليها، وتبقى مآثرها تُذكِّر بها، كما يبقى تاريخها عبرة للأجيال اللاحقة. وفي هذا الكتاب سأوجز مسيرة ثمانية عصور إسلامية بعد أن أمهِّد بلمحة عن العصر الجاهلي.

ولئن كان عصر الرسالة قد وضع الأُسس العقيدية للدين الإسلامي، وحدَّد النهج، ووحَّد أجزاء الجزيرة العربية تحت قيادة سياسية ودينية واحدة، فإن سيرة النبي محمَّد ﷺ تبقى غنيَّة بمعطياتها، وهي أهدى سبيل يُتَّبع. ففيها من الكمال ما ينبغي أن يلقِّنها الآباء للأبناء، بل هي المَثل الأعلى للكمال الإنساني في كل ما تتَّسع له طاقة الإنسان.

اتَّصف النبي محمَّد ﷺ بكل صفات السمو والكمال الخلقي، والعقلي، والنفسي. «أدَّبه ربُّه فأحسن تأديبه، وجعله مثالاً حيّاً للشخصية القوية، التي تستطيع أن تصلح بإيمانها ما أفسده الدهر». فاستطاع أن يغيِّر عادات قومه، وأفكارهم، وأن يقوِّم ما اعوجَّ من أخلاقهم، وأن يدفعهم بقوة في طريق المثل الأعلى، ويرفعهم إلى مستوى من الحياة أسمى وأزكى. «كانت حياته درساً عملياً للذين يشقُّون طريقهم بقوة إيمانهم.»

ويُعد العصر الراشدي (١١ ـ ٤٠هـ/ ٦٣٢ ـ ٦٦١م) امتداداً لعصر الرسالة انطلاقاً من أن الخلفاء الراشدين كانوا شديدي الصلة بالنبي محمَّد ﷺ، وساروا على خطاه مع فارق يتعلَّق بالوحي الذي اختص به النبي ﷺ، مع ما يترتب على ذلك من نتائج.

وشهدت خلافة أبي بكر الصدِّيق (١١ ـ ١٣هـ/ ٦٣٢ ـ ٦٣٤م) القصيرة أحداثاً جساماً، هدَّدت كيان الدولة الإسلامية الناشئة، وتمثَّلت بارتداد بعض القبائل، وتفشِّي ظاهرة التنبؤ الكاذب. وبعد القضاء على المرتدِّين والمتنبئين، ابتدأت الفتوح الإسلامية خارج الجزيرة العربية.

واستكمل عمر بن الخطَّاب (١٣ ـ ٢٣هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م) الفتوح الإسلامية حتى توسعت الدولة فشملت بلاد الشام ومصر والعراق وفارس، ودخلت شعوب البلاد المفتوحة في الإسلام. وإذا كان بعضهم لم يتجذَّر الإسلام في قلوبهم، كما كان إسلام بعضهم تمويهاً وتغطية وتحيُّناً للفرص، فقد ذهب عمر ضحية هذا الشعور العنصري.

وكان عهد عثمان بن عفان، (٢٤ ـ ٣٥هـ/ ٦٤٤ ـ ٦٥٦م) فاتحة الاضطرابات السياسية في الدولة الإسلامية، حتى ذهب هو ضحيتها.

وتنامت الفتن في عهد علي بن أَبي طالب (٣٦ ـ ٤٠هـ/ ٦٥٦ ـ ٦٦١م) وتعدَّدت الفرق الإسلامية، وتشعَّبت النظرة السياسية في صفوف المسلمين وشابها التضارب في المصالح الخاصَّة، وقد ذهب علي بن أَبي طالب، ضحية ذلك كله.

وشكَّلت الدولة الأموية (٤١ ـ ١٣٢هـ/ ٦٦١ ـ ٧٥٠م)، التي قامت بعد انتهاء العصر الراشدي، منذ نشأتها وحتى زوالها، لغزاً ومشكلة بالنسبة إلى معظم المؤرخين، وتحوَّلت في كتاباتهم إلى مادة مصبوغة بألوان قاتمة. ومما زاد الصورة ظلاماً الأحداث الجسام التي وقعت في العهد الأموي، وهزَّت مشاعر المسلمين، مثل حادثة كربلاء، ومهاجمة مكَّة والمدينة، مما انعكس سلباً على سمعة الأمويين. وتعدَّد أعداء هؤلاء بتعدُّد الفئات والجماعات الإسلامية التي برزت على الساحة السياسية، بعد مقتل عثمان بن عفَّان ومعركة صفِّين، من الشيعة والخوارج، والطامعين في الحكم، والكارهين لهم. وفي المقابل خلَّف الأمويون مآثر مادية وسياسية واجتماعية تنفي عنهم أنَّهم كانوا مجرد طامعين بالسلطة، وقاموا بأدوار بارزة في رفع راية التوحيد والجهاد. ولا يمكن فصل الانتصارات التي حقَّقوها، ولا الأمجاد التي بنوها، عن المبادىء الإسلامية التي كانت المحرِّك الأوَّل للمسلمين منذ عصر الرسالة.

أما أحداث التاريخ العباسي، فهي معقَّدة ومتشابكة، ومتشعبة، وذات تكوينات سياسية متعدِّدة. وتُعدُّ العصور العباسية امتداداً للعصر الأموي، ولكن تفاعلت فيها عناصر مختلفة عربية وفارسية وتركية. وشكَّل انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين انقلاباً شاملاً، ومنعطفاً مهماً في مسيرة التطور الإسلامي، غيَّر بشكل جذري المجتمع الإسلامي، وترك بصماته على جميع نواحي الحياة، وفتح أمام المسلمين من غير العرب باب الظهور على الساحة السياسية، وتأدية دور مهم في توجيه الأحداث بل في قيادة المسلمين.

وعالجت أحداث العصر العباسي الأول (١٣٢ ـ ٢٣٢هـ/ ٧٥٠ ـ ٨٤٧م) من خلال أعمال خلفاء بني العباس. أما أحداث العصور العباسية المتأخِّرة (٢٣٢ ـ ٦٥٦هـ/ ٨٤٧ ـ ١٢٥٨م)، فقد تناولتها من خلال أعمال الدول التي قامت في كنف الخلافة العباسية التي تولَّت مسؤولية الدفاع عن العالم الإسلامي أمام تراجع قوة الخلافة السياسي.

وتُعدُّ أحداث التاريخ الأَندلسي (٩٥ ـ ٨٩٧هـ/ ٧١٣ ـ ١٤٩٢م) من أبرز ما سطَّره المسلمون، وأكثرها أهمية بفعل ما احتوت من تألُّق وازدهار وتعثُّر وتراجع. ومن البديهي أن فتح الأَندلس كان امتداداً طبيعياً لفتح المغرب، فقد ارتبط كل منهما بالآخر، ووحَّدت بينهما الظروف السياسية. وعَرفت الأَندلس عصرها الذهبي في عهد الولاية الأموية، ثم الخلافة الأموية. وشهدت البلاد بعد ذلك تراجعاً في ظل انقسام المجتمع الأَندلسي إلى طوائف متنازعة، مما سهَّل للإسبان خوض عمليات الاسترداد بشكل ناجح.

ومررت بتاريخ الدولة العبيدية (الفاطمية) (٢٩٧ ـ ٥٦٧هـ/ ٩١٠ ـ ١١٧١م) التي قامت في المغرب ثم انتقلت إلى مصر لتنافس دولة الخلافة العباسية في المشرق، على النفوذ، بفعل اختلاف المذهب. وتحدثت عن الأدوار التي مرَّت بها هذه الدولة منذ تأسيسها حتى زوالها على يد صلاح الدين الأيوبي.

وبعد سقوط الخلافة العباسية تحت ضربات المغول في عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، تسلَّم الأتراك المماليك الذين نشأوا في كنف الدولة الأيوبية، قيادة العالم الإسلامي على مدى قرنين ونصف من الزمن (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)، وقد قدَّموا تضحيات كثيرة في سبيل المحافظة على الإرث الإسلامي. فأوقفوا تقدُّم المغول الجارف على العالم الإسلامي، وطردوا بقايا الصليبيين من منطقة الشرق العربي الإسلامي، وأحيوا الخلافة العباسية في القاهرة؛ على الرغم مما شاب وضعهم الداخلي من اضطراب.

ثم سقط المماليك تحت ضربات العثمانيين (٦٩٨ ـ ١٣٤٢هـ/ ١٢٩٩ ـ ١٩٢٤م) في أوائل القرن السادس عشر الميلادي. وقد ورث هؤلاء، المكتسبات الإسلامية، فحافظوا عليها، وضمُّوا بعض البلاد الإسلامية في آسيا وشمالي إفريقية التي وقفت حائلاً دون تحقيق الوحدة الإسلامية الشاملة، أو التي تعرَّضت لتهديد الأوروبيين. وتوسَّعوا في الغرب على حساب القوى الأوروبية، فمدُّوا رقعة العالم الإسلامي إلى أراضٍ لم يدخل الإسلام إليها من قبل.

لكن هذه الدولة العثمانية شهدت تراجعاً مطرداً بدأ مع وفاة السلطان سليمان القانوني عام (٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م)، بفعل حالة الاسترخاء التي كان يمر بها المجتمع العثماني والأجهزة الحاكمة من جهة، والوثبة الأوروبية نحو عصر جديد من التطور من جهة أخرى.

وأخذت الدولة تفقد أطرافها رويداً رويداً في القارات الثلاث. وشكل مؤتمر برلين الذي انعقد في عام (١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م) بداية النهاية بالنسبة إليها. وقد سقطت أخيراً تحت ضربات الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، بفعل تدخل الدول الأوروبية والصهيونية من جهة، والسياسة غير المدروسة للعسكريين الذين تسلَّموا الحكم بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني، من جهة أخرى، وقامت على أنقاضها تركيا الحديثة.

ومن الملاحظ أن المكتبة العربية تفتقر إلى دراسة علمية متخصِّصة تعالج تاريخ العصور الإسلامية بأسلوب شامل. وقد اعتمدت هذا النهج الشمولي بهدف إفساح المجال أمام القارىء العربي والمسلم للاطلاع على التاريخ الإسلامي بعامة مع تجنُّب الغوص في التفاصيل التي لا غنى عنها للباحث الذي يرغب في الاطلاع على دقائق هذا التاريخ.

وأنا على ثقة بأن القارىء سيجد في هذه الدراسة الموجزة متعة وفائدة، كما سيلمس فيها حياداً في معالجة أحداثها، والله أسأل أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم وأن ينفع بها القارىء العربي والمسلم، إنه سميع مجيب.

بيروت في ١/٤/٢٠٠١

د. محمَّد سهيل طقوش

الفَصْل الأوَّل

العصر الجاهلي(١)

تمهيد

من المفيد قبل دراسة تاريخ الدول الإسلامية أن نلمَّ بتاريخ العصر السابق للإسلام، وبخاصة تاريخ الشعوب العربية، وأوضاع الدولتين المجاورتين لهم، وأعني بهما الأمبراطورية الفارسية، والأمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية).

ويعود السبب في ذلك إلى أن هذا العصر يتضمَّن المنابت الأولى لتاريخ هذه الشعوب، قبل أن توحدها العقيدة الإسلامية، ولنقف على ما عانته الشعوب المجاورة من نير الحُكمين الفارسي والبيزنطي التي استقبلت الفاتحين المسلمين مخلِّصين، كما دخل بعضها في الإسلام.

وإذا كنا ندخل عصر الجاهلية، في موضوع بحثنا، كنقطة ابتداء، فإن المنطلق المباشر لذلك هو محاولة استجلاء الأصول الأولية للأشكال التي عبَّر بها سكان الجزيرة العربية عن تصوراتهم في مختلف مجالات الحياة، بفعل أن تلك الأصول عوامل محرِّكة لمسار التطور التاريخي لهؤلاء.

والواضح أن تاريخ العرب قبل الإسلام يتألَّف من مرحلتين زمنيتين، ويكاد أن يكون متفقاً عليه بين المؤرخين أن حدود المرحلة الأخيرة لا تمتد في زمن الجاهلية إلى ما قبل القرنين الخامس والسادس الميلاديين.

ولما كانت الأصول الأولية لهذه الأشكال، والظاهرات التي تجلَّت بها مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالبيئة الجغرافية التي ولدت ونشأت فيها، لذلك سنبدأ بحثنا بالكلام على البيئة الجغرافية للجزيرة العربية.

---

(١) اعتاد المؤرخون أن يطلقوا على تاريخ العرب قبل الإسلام «تاريخ الجاهلية»، والجاهلية اصطلاح مستحدث ظهر بظهور الإسلام، وقد أُطلق على حالة العرب قبل الإسلام تمييزاً وتفريقاً عن الحالة التي تحوَّل إليها هؤلاء بعد ظهور الإسلام. علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ١، ص ٣٧.

البيئة الجغرافية

أدَّت البيئة الجغرافية للجزيرة العربية دوراً بارزاً في تطور مسار التاريخ الجاهلي من خلال تأثيرها على الجغرافية البشرية لسكَّان الجزيرة. فالإنسان دائماً وليد بيئته، وإذا كانت بيئته تختلف اختلافاً بيِّناً من مكان إلى آخر، نتج عن ذلك بالضرورة اختلاف تطوره في المناطق المختلفة. وسنحاول الإلمام في الفقرات التالية بجغرافية الجزيرة العربية، وأقسامها الطبيعية من حيث: الوضع الجغرافي، التركيب والبنية، والوضع الطبيعي.

الوضع الجغرافي

الجزيرة العربية رقعة جغرافية مترامية الأطراف، تقع في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا، تبلغ مساحتها ثلاثة ملايين كيلومتر مربع، ويحيط بها الماء من ثلاث جهات. يحدُّها الخليج العربي من الشرق، والمحيط الهندي من الجنوب، والبحر الأحمر من الغرب، أما حدُّها الشمالي فهو خط يمتد من خليج العقبة حتى مصب شط العرب، ويكوِّن الحدود التي تفصلها عن الهلال الخصيب[1]. «ويطلق علماء العرب على بلادهم اسم الجزيرة تجوُّزاً[2]».

التركيب والبنية

أما من حيث التركيب والبنية، فإن أغلب أراضي الجزيرة العربية تتكوَّن من بوادٍ وسهول غلبت عليها الطبيعة الصحراوية، مع اختلاف في طبيعة سطحها. إذ أن بعضه مغطى بالكثبان الرملية، وبعضه الآخر عبارة عن جبال، وآكام، وأغوار منخفضة، بالإضافة إلى نجد مرتفع. وتطلعنا الدراسة الجغرافية، من حيث التركيب والبنية أن الجزيرة العربية تنقسم إلى الأنواع التالية:

النفود: امتداد صحراوي واسع تكوَّن بفعل تفتت أحجار الغرانيت. يقع في شمالي الجزيرة العربية بين نجد وبادية الشام، وبين نجد والإحساء[3].

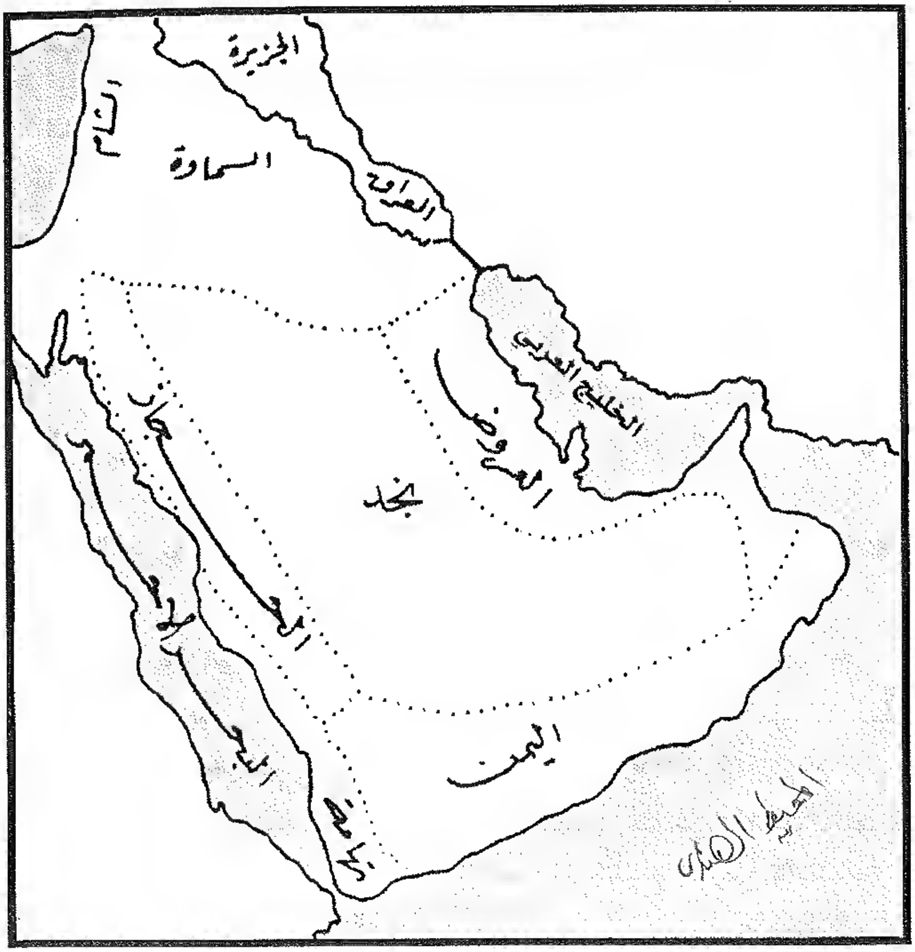
الحرار: الحرة هضبة بركانية تغطيها أحجار سوداء. تقع حرار الجزيرة العربية على امتداد المنطقة الغربية، كما توجد في بعض المناطق الوسطى والشرقية الجنوبية

---

(١) الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمَّد الفارسي: كتاب المسالك والممالك ص ٢١. وقارن بـ الهمذاني، أبو محمَّد الحسن بن أحمد: صفة جزيرة العرب ص ١.

(٢) الحموي، ياقوت: معجم البلدان جـ ٢ ص ١٣٧.

(٣) علي: جـ ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٣.



شبه جزيرة العرب

من نجد، بالإضافة إلى المناطق الجنوبية في الربع الخالي، منها حرة تبوك، حرة النار قرب خيبر[١].

الدهناء: إنها مساحات من الأراضي ذات رمال حمراء، تمتد من النفود في الشمال إلى حضرموت ومهرة في الجنوب، واليمن في الغرب، وعمان في الشرق. تسمى الأقسام الجنوبية منها بالربع الخالي، ويطلق على القسم الغربي منها اسم الأحقاف[٢].

الدارات: إنها أراضٍ سهلة على شيء من الاستدارة تحيط بها التلال، وتحتوي على قدر من المياه الجوفية. تنبت فيها الأعشاب، والنباتات الصحراوية[٣].

السهول: يلف الجزيرة العربية شريط من السهول الضيقة، أشهرها سهول: تهامة، حضرموت، وأراضي عمان الساحلية.

الجبال: ترتفع الجبال وراء السهول الساحلية، أشهرها: جبال السراة المطلة على البحر الأحمر، الجبال الجنوبية.

الهضاب: تقع الهضاب وراء الجبال: أشهرها هضبة نجد.

الأنهار والأودية: لا يوجد في الجزيرة العربية أنهار كبيرة ولا بحيرات، لذلك تميَّز، بوجه عام، بأنَّها إقليم حار جاف ناري، غير أنها كثيرة الأودية.

الأمطار: الأمطار قليلة في الجزيرة العربية على الرغم من أن الماء يحيط بها من ثلاث جهات، إلَّا أن كلاً من البحر الأحمر والخليج العربي لا يساعدان، لضيقهما، على أن يحدّا من قوَّة الجفاف. أما المحيط الهندي، فإن رطوبته تساعد على سقوط الأمطار الموسمية في الصيف بانتظام، في الأماكن القريبة من الشاطىء. أما الأقسام الوسطى فيسقط المطر من الغيوم المتبخرة في الخليج العربي، ويكثر في أعالي جبل شمر. ويشهد الحجاز مواسم جفاف قد تستمر ثلاث سنوات، ومع ذلك فقد ينهمر المطر على مكة والمدينة في فصل الشتاء فيشكِّل سيولاً تنحدر من الجبال إلى الوديان والشعاب، وكثيراً ما جرف الكعبة.

نتيجة لتوزع الأمطار على هذا النحو، نشأت بعض عوامل التمييز بين سكَّان الجزيرة العربية. ففي الشمال، حيث الأمطار غير منتظمة، لم تتولَّد حياة زراعية

(١) الحموي: جـ ٢ ص ٢٤٥.

(٢) Philpy, H: The Empty Quarter in the Geographical Journal. 81. PP 1 - 26.

(٣) علي: جـ ١ ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

مستقرة وإنما تنبت فيها المراعي التي يعيش عليها أهل البادية، فتميزت الحياة فيها بالرعي والتنقل. أما في الجنوب، فقد نشأت مجتمعات مستقرة اعتمدت على الزراعة نظراً لانتظام سقوط الأمطار.

المناخ: مناخ الجزيرة العربية شديد الحرارة بعامَّة. وتكثر في نجد رياح السموم التي تهب صيفاً، وألطف رياحها الرياح الشرقية، ويسمونها الصَّبا. أما الرياح الشمالية فباردة، وبخاصة في الشرق إذ تتحوَّل إلى صقيع في كثير من الأحيان.

الوضع الطبيعي

تختلف تقسيمات الوضع الطبيعي للجزيرة العربية باختلاف نظرة الجغرافيين. فقد قسَّمها جغرافيو اليونان والرومان إلى ثلاثة أقسام، آخذين بعين الاعتبار، بالإضافة إلى التضاريس الطبيعية، الوضعين السياسي والاقتصادي في القرن الأول للميلاد. وهذه الأقسام هي:

العربية السعيدة: وتشمل الحجاز واليمن ونجد.

العربية الصخرية: وتشمل شبه جزيرة سيناء والمملكة النبطية.

العربية الصحراوية: وتشمل بادية الشام.

أما الجغرافيون العرب، فقد انطلقوا من الوضع الطبيعي المحض عاكسين تصور سكان الجزيرة العربية لهذا التقسيم في العصر السابق للإسلام، فقسَّموا الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام هي[١]:

تهامة: وهي المنطقة الساحلية الضيقة المطلَّة على البحر الأحمر من ينبع إلى نجران في اليمن. وتسمى في الجنوب تهامة اليمن.

الحجاز: جبال تمتد شرقي تهامة من الشمال إلى الجنوب مشكِّلة سلسلة جبال السراة وفاصلة بين تهامة وبين هضبة نجد، ويمتد إقليم الحجاز حتى حدود الشام عند العقبة. وتكثر في هذا الإقليم الأودية والأراضي البركانية، والحرات. وإذا توفرت المياه (آبار، ينابيع) قامت القرى الكبيرة مثل يثرب (المدينة)، ووادي القرى.

نجد: وينبسط الحجاز شرقاً في هضبة نجد الواسعة التي تكوِّن قلب الجزيرة، وتنحدر من الغرب إلى الشرق حتى تتصل بأرض العروض. وتقع في شمالي نجد صحراء النفود التي تبتدىء من واحة تيماء وتمتد شرقاً نحو ثلاثمائة ميل، وتزخر بالكثبان الرملية، وتتخلَّلها مراعٍ واسعة.

---

(١) الحموي: جـ ٢ ص ١٣٧ ـ ١٣٨. علي: جـ ١ ص ١٦٣ ـ ١٨١.

العروض: يشمل إقليم العروض اليمامة والبحرين وما يتبعهما. وعدَّ ياقوت اليمامة من نجد.

اليمن: يطلق على الجنوب كله، ويشمل حضرموت ومهرة والشِّحر، وقد يطلق على الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة وهو المشهور الآن. وتتألَّف اليمن من ثلاثة أقسام طبيعية: ساحل ضيِّق خصب هو تهامة اليمن، وجبال موازية للساحل هي امتداد لسلسلة جبال السراة، ثم هضبة تؤدي إلى نجد والربع الخالي. وفي اليمن أودية كثيرة، وسهول غنية بالزراعة.

الشعوب العربية

يصنِّف مؤرِّخو العربِ، العربَ قبل الإسلام، ثلاث طبقات هي:

العرب البائدة: وهم القبائل القديمة التي بادت قبل الإسلام، وأشهرها: عاد، ثمود، طسم، جديس والعماليق.

العرب العاربة: وهم شعب قحطان، وموطنهم الأصلي بلاد اليمن، وأشهر قبائلهم: جرهم ويعرب.

العرب المستعربة: وهم العدنانيُّون أبناء عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل. وإسماعيل هو أول من نزل منهم جزيرة العرب، وسكن مكة. وقد سموا بذلك لأن إسماعيل كان يتكلم العبرانية أو السريانية، فلما نزلت قبيلة جرهم في مكة، وسكن أفرادها مع إسماعيل وأمه، تزوج إسماعيل منهم وتعلَّم العربية. وهم جمهور العرب من البدو والحضر.

أوضاع العرب قبل الإسلام

الوضع الاقتصادي

تأثَّر العرب بالبيئة التي عاشوا فيها، فاعتمد سكَّان المناطق الصحراوية، بشكل رئيس، على الرعي المتنقل لأنعامهم ومواشيهم وعلى التجارة، في حين اعتمد سكَّان المناطق الخصبة على الزراعة، ولم يهملوا التجارة، كما كان عندهم إلمام بالصناعة، فكانوا أَوفر حظاً من البدو.

وتبرز في الوضع الاقتصادي للجزيرة العربية ظاهرة واضحة هي تنوُّع الموارد، نتيجة عاملين:

الأول: تنوع طبيعة الأرض والمناخ، وانعكس ذلك في:

- المناطق الصحراوية التي لا تصلح إلَّا للرعي المتنقل.

ـ مناطق أقل قسوة في طبيعتها، حيث يكثر العشب، ويستمر مدة طويلة نسبياً، ومن ثمَّ يقترب أهل البادية من الرعاة إلى صفة الإقامة الثابتة في المناطق التي توجد فيها مراعيهم، مثل المناطق الواقعة على حافة الهلال الخصيب.

ـ مناطق تكثر فيها الواحات التي احتوت على بعض الينابيع التي تسمح بقدر من الزراعة، مثل بعض الواحات الموجودة في نجد والحجاز.

ـ مناطق حظيت بتربة خصبة نتيجة هطول الأمطار الموسمية بغزارة وانتظام، مثل القسم الجنوبي من الجزيرة العربية.

الثاني: الموقع الجغرافي للجزيرة العربية برّاً وبحراً بين مناطق الشرقين الأدنى والأقصى من جهة وبين المناطق المطلّة على البحر الأبيض المتوسط في الغرب من جهة أخرى، والتي تجعل منها معبراً ومنطلقاً لقوافل التجارة البرية والبحرية بين المنطقتين.

انطلاقاً من الظروف الطبيعية والسكّانية، نرى سكّان الجزيرة العربية في مرحلة الجاهلية الأخيرة ينقسمون إلى ثلاث فئات:

ـ فئة غير مستقرة تطلب العيش بالترحل والرعي.

ـ فئة مستقرة تعمل في الزراعة.

ـ فئة بين الاستقرار والترحل.

وقد نتج عن هذا التقسيم نشوء عدة ظواهر لعل أهمها:

الرعي: شكّل الرعي، بنوعيه الثابت والمتنقل، المورد الاقتصادي الأساسي لرعاة البادية في القسم الأكبر من الجزيرة العربية، وذلك بفعل الطبيعة الجغرافية للمنطقة، وأساسه رعي الإبل، لأن الجمل يتمتع بصفات تلائم حياة هذه الطبيعة الجغرافية أكثر من غيره. أما المناطق الغنية بالعشب فيكثر فيها رعي الغنم، والخيول، والماشية، أحياناً. وأراضي المراعي مشاعٌ بين القبيلة، لكن ذلك لم يمنع من وجود أراضٍ منها تدخل في نطاق الملكية الفردية، التي يتوقف استمرارها على وجود الماء والعشب.

الغزو: واعتمد الرعاة على مصدر آخر عماده التمر الذي ينتجه النخيل في الواحات، وذلك عن طريق الغزو.

عائدات مرور القوافل: استفاد البدو من مرور القوافل التجارية في أراضيهم، فتحصل القبيلة على أجر معلوم لقاء إرشادها، وتقديم الخدمات لها، على طول الطريق التي تقع عبر أراضيها.

الوساطة: كان الرعاة يقومون بالوساطة بين البادية والحضر، وبخاصة في المناطق التي تتاخم المناطق السهلية الواسعة الخصبة، كما في وادي الرافدين، والمنطقة السورية، وذلك لقاء أجر، كما كان يُسمح لهؤلاء البدو القيام بنوع من التبادل التجاري مع المدن الحدودية.

الزراعة: شكّلت الزراعة مصدراً أساسياً آخر للعرب، فهي عماد ثروة اليمن والأماكن التي تتوافر فيها المياه. وتعدَّدت أنواع المحاصيل الزراعية من فواكه وحبوب وخضراوات، واشتهرت منها ثلاثة أنواع، بشكل خاص، هي: النخيل، والأعناب، والحبوب، هذا إلى جانب المحاصيل الطبيعية من توابل وطيوب. ففي الجنوب والشرق وقرى الحجاز واليمامة كثرت الزروع والثمار وبعض الفواكه. واشتهرت اليمن بأشجار اللبان، والطيب، والبخور، والطائف بالكرمة، والنخلة أهم الأشجار في الجزيرة العربية كلها.

التجارة: أدَّت التجارة دوراً أساسياً في حياة العرب الاقتصادية، وذلك لتداخلها مع الحياة الاجتماعية، والسياسية، والدينية. وارتكزت تجارة العربي على:

- الطيوب والتوابل التي تنبت في جنوب الجزيرة العربية والتي كانت تصدَّر إلى الخارج.
- موقع الجزيرة العربية، بين الشرق والغرب، حيث تخترقه الخطوط التجارية البرية، وتمر بسواحله الطرق البحرية عبر البحر الأحمر، مما جعل الجزيرة العربية بعامة والحجاز بخاصة جسراً يربط بين بلاد الشام، وحوض البحر المتوسط الشرقي، باليمن والحبشة، والصومال، والسواحل المطلة على المحيط الهندي. وقد استفادت المناطق التي تقع على هذه الخطوط التجارية، مادياً، ونشأت عليها قرى كبيرة مثل مكَّة، ومدن كما في اليمن، جعلت منها سُبُلاً عامة سلكها التجَّار والمسافرون، وأضحت بلاد العرب ملتقى أهم طرق التجارة العالمية التي تربط الشرق بالغرب.

استتبع العمل التجاري والصناعي قيام أسواق موسمية تُعقد في مواسم معينة أشهرها أسواق: عكاظ، وذي المجنَّة، وذي المجاز، وأسواق ثابتة في أماكن السكن.

الوضع الاجتماعي

تكوَّن المجتمع العربي من بدو وحضر. فالبدو هم سكان البادية يعيشون على ألبان الإبل ولحومها، منتجعين منابت الماء والكلأ، أما الحضر فهم سكان الحواضر والقرى، يعيشون على الزراعة، والتجارة، والصناعة، وغيرها، ويعرفون البيوت

والمساكن الثابتة. والحد الفاصل بين البداوة والحضارة هو طراز الحياة ونوعها»[1].

ولما كانت طبيعة الجفاف هي الغالبة على جزيرة العرب، غلبت البداوة على الاستقرار، وأثَّرت في النُّظم الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، وغيرها. واشترك المجتمعان: البدوي والحضري، في عاملين هما عامل الوحدة وعامل الانقسام الطبقي[2].

فقد حفل المجتمع العربي بظواهر اجتماعية معينة ساعدت على توحيد أفراده ضمن القبيلة الواحدة، ودفعت القبائل إلى نوع من التفكير باتجاه الوحدة والتماسك، على صعيد العلاقات القبلية، منها:

ـ **العصبية والثأر**: اللَّذان أدَّيا في مناسبات كثيرة إلى الصراع العسكري بين القبائل فيما عُرف بأيام العرب، أشهرها حرب البسوس[3]، حرب داحس والغبراء[4]، وحروب الفجار[5]. ومن جهة أخرى، قامت العصبية على أساس رابطة النسب، أو الدم، حيث كانت وسيلة للتكتل، وجمع الشتات، في ظل غياب وسائل أخرى تدعو إلى ذلك. «فالقبيلة عماد الحياة في البادية، يحتمي الأعرابي بها للدفاع عن نفسه وماله، كما يفديها بماله ودمه. ولم يفهم العربي الدولة إلَّا على أنها دولة القبيلة». ويرتبط بالقبيلة حاجة الأعراب إلى الأحلاف، بفعل تفاوت قدرة القبائل على دفع الغزو، وحماية النفس، والمال، وكبح جماح المعتدين، فتشكلت أحلاف دفاعية، كما وُجدت أحلاف لأغراض هجومية. أما الحضر فاحتموا بأرضهم، وفي طبيعة الحياة التي يعيشونها، مما خفَّف من حاجتهم إلى الأحلاف.

ـ **المشاعية**: لقد فرضت ظروف البادية على المجتمع العربي، من حيث هو ضرورة اقتصادية، الاشتراك في الماء والكلأ، وهي ذات قيمة حيوية للقبيلة، تدفع أفرادها إلى التكتل، والتضامن، والالتفاف بعضهم حول بعض.

---

(1) علي، جـ ٤ ص ٢٧٠.

(2) يحيى، لطفي عبد الوهَّاب: العرب في العصور القديمة ص ٣٧١.

(3) حرب البسوس: نشبت بين بكر وتغلب، ودامت أربعين سنة، وسببها مقتل ناقة تملكها امرأة من بكر تدعى البسوس.

(4) حرب داحس والغبراء: نشبت بين عبس وذبيان، ودامت أربعين سنة، وسببها السباق الشهير بين داحس وهي فرس لقيس بن زهير، والغبراء وهي فرس لحذيفة بن بدر.

(5) حروب الفجار: وقعت في الأشهر الحرم، ومن أجل ذلك سميت فجاراً. نشبت بين بعض القبائل العربية، واشتركت قريش فيها. وكانت هذه الحروب أربعاً، آخرها فجار البراض المشهور.

ـ وعرف المجتمع العربي بعض جوانب من الحياة الاقتصادية التي تدفعه إلى التماسك منها: **الملكية الجماعية**، بين أفراد من الأسرة الواحدة، على الأقل.

« ـ وحصلت في مرحلة الجاهلية الأخيرة بعض الأحداث السياسية والعسكرية التي ساعدت على التفكير في تغيير الواقع الاجتماعي نحو الوحدة. ونذكر في هذا السياق حادثين تاريخيين، شهدتهما الجزيرة العربية، في زمنين متقاربين سبقا ظهور الإسلام.

أولهما: الصراع السياسي في اليمن الذي اتَّخذ، بعد حملة أبرهة الفاشلة على مكَّة، مضموناً تاريخياً حدَّد وجهته كصراع بين القوى صاحبة البلاد، وقوى خارجية تحتل البلاد (الأحباش) أو تطمع في احتلالها (الفرس). وقد خلق هذا الصراع شعوراً عربياً مشتركاً، حيث يذكر المؤرخون أن عبد المطلب بن هاشم وَفَدَ في ركب من قريش على سيف بن ذي يزن الحميري بعد انتصاره على الحبشة، للتهنئة بهذا النصر، كما أنشد الشعراء العرب مثل «أبو الصلت بن أبي ربيعة الثقفي» وفي رواية «أمية بن أَبي الصلت»، و«عدي بن زيد» شعراً بهذه المناسبة[1].

ثانيهما: معركة ذي قار الشهيرة (٦٠٩م)، وكانت التعبير الناضج عن ذلك الشعور المشترك بالحاجة إلى نمط جديد في العلاقات بين مختلف القبائل، في الجزيرة العربية، ولا سيما القبائل المتاخمة لمناطق الحدود مع الدولتين: الفارسية، والبيزنطية. وقد وصف النبي محمَّد ﷺ هذا اليوم بأنه «أول يوم انتصف العرب من العجم...»[2] ويضفي هذا التعبير، الذي شكَّل فيه كل من العرب والعجم فريقاً في المعركة؛ على الحادث معناه التاريخي الذي استمده من طبيعة تلك المتغيرات على صعيد العلاقات الداخلية بين القبائل[3]. »

ومن حيث عامل الانقسام، فقد وُجدت في المجتمع العربي، بنوعيه البدوي والحضري، عوامل انقسام داخل التكتلات الاجتماعية. ففي المجتمع القبلي، تفاوت حماس بعض أفراد القبيلة للاستجابة لنداء العصبية، كما كان العرف القبلي يضع حواجز بين بعض فئاته. فالعبيد الذين حُرِّروا لا يصبحون أبناء القبيلة، وإنما يتحوَّلون إلى موالي، أو أتباع، وكذلك الغريب الذي يلجأ إلى القبيلة لسبب أو لآخر. وهكذا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام من كتاب الروض الأنف لأبي القاسم عبد الرحمن الخثعمي السهيلي: جـ ١ ص ٨٣ ـ ٨٥، ١٦١ ـ ١٦٢.

(٢) الطبري، أَبو جعفر محمَّد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك جـ ٢ ص ١٩٣.

(٣) مروة، حسين: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية جـ ١ ص ٣١٤.

تتكوَّن داخل كل قبيلة فئة، أَو طبقة، لا تشعر بالانتماء الكامل إليها، ويمكن أن تصبح عامل انقسام[(١)].

وبالإضافة إلى ذلك، فقد انقسم المجتمع إلى طبقات، على رأسها شيخ القبيلة، وهي لا تخرج عن رأيه، يساعده مجلس من رجال القبيلة، أكثر أعضائه من المسنين من ذوي الخبرة والتجربة.

ونتيجة لهذا الانقسام الطبقي داخل القبيلة، فإن أفرادها الذين يُفترض بهم أن يكونوا متساوين، لم يكونوا كلهم راضين عن معاملة القبيلة لهم، لشعور بعضهم بعدم المساواة.

وعرف المجتمع العربي في اليمن هذه الظاهرة من عدم المساواة بفعل التفاوت في توزيع الثروة. فهناك الأثرياء، وأبناء الطبقة الحاكمة الذين شكَّلوا فئة متميِّزة احتكرت وظائف الدولة، كما كان هناك الفلاَّحون، والحرفيون، والعاملون في جمع الطيوب. وهذا التصنيف الطبقي ثابت لا يتغيَّر، يتوارثه الأبناء عن الآباء. ولم يكن باستطاعة أحد الأفراد أن يغيِّر مهنته، وينتقل من فئة إلى أخرى.

وشاعت في المجتمع الجاهلي بعض الآفات الاجتماعية مثل شرب الخمر، والميسر، واستباحة النساء. والنساء نوعان: إماء وحرائر. والإماء كثيرات، وكنَّ في منزلة وضيعة. وكان العربي إذا استولد أمة لا ينسب أولادها إلى نفسه إلَّا إذا أظهروا بسالة.

وأصاب المرأة حيف وغبن، فكانت تُعْضَل (تمنع) بعد الطلاق من أن تنكح زوجاً ترضاه، وتورَّث كما يورَّث المشاع. ومن جهة أخرى تمتعت المرأة لا سيما الشريفة بقسط وافر من الحرية، فكانت تستشار في بعض الأمور، وتشارك الرجل في كثير من أعماله.

وكانت العلاقة الزوجية على درجة من الرقي. وللزواج نظام ثابت، حيث يقترن الرجل بالمرأة بعد رضاء أهلها واستشارتها وموافقتها، وهو الزواج الشرعي. ومع ذلك عرف العرب أنواعاً أخرى من النِّكاح لم يستحسنه جمهورهم مع ما عُرف عنهم من غيرة على الأهل ومحافظة على الشرف[(٢)].

---

(١) يحيى: ص ٣٨٤ ـ ٣٨٧.

(٢) من أنواع النكاح الذي عرفه العرب الجاهليون: نكاح الاستبضاع، ونكاح البغايا، ونكاح آخر وهو أنه كان يجتمع الرهط دون العشرة، فيدخلون على المرأة كل يصيبها، وبعد أن تضع حملها تجمعهم وتحدد الوالد من بينهم، ونكاح الخدن، والمتعة، والبدل، والشغار. انظر: الألوسي، محمَّد شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب جـ ٢ ص ٣ ـ ٥.

وتفشَّت في المجتمع الجاهلي عادة وأد البنات، عند بعض القبائل، والتطير بهن، مخافة المذلة أو العار، وخشية الفقر.

وانتشر الرق عند العرب قبل الإسلام انتشاراً واسعاً، فلما جاء الإسلام وضع نظاماً يحقِّق إلغاءه مع الزَّمن. فحرَّمه بين المسلمين، وشجَّع على العتق. وهكذا «ضيَّق المدخل ووسَّع المخرج».

الوضع الديني

أ ـ ظهور الشرك

كان العرب قبل الإسلام على دين واحد هو دين إبراهيم، دين الحنيفية، ودين التوحيد، الذي تجسَّد في الإسلام، إنما ضلوا الطريق، فتفشى الشرك فيهم بأشكال متعددة، بفعل تطور واقعهم الاجتماعي، وصلتهم بجيرانهم فمنهم من:

ـ آمن بالله، والتوحيد.

ـ آمن بالله، وعبد الأصنام. إذ زعموا أنَّها تقرِّبهم إليه، وأنَّها تنفع وتضر.

ـ دان باليهودية أو النصرانية أو المجوسية.

ـ لم يعتقد بشيء، وتوقف عند ذلك.

ـ آمن بتحكُّم الآلهة في الإنسان في هذه الحياة، وبطلان كل شيء بعد الموت، فلا حساب، ولا نشور، ولا كتاب.

وفي القرآن الكريم إشارات إلى أنواع الشرك الذي كان عليه الجاهليون، منها:

ـ عبادة الأصنام المصنوعة من الحجارة أو الخشب أو المعدن، مما لا روح فيه، بالإضافة إلى أشجار محدَّدة اتخذوها أولياء من دون الله لتقربهم إلى الله زلفى(١).

ـ عبادة القوى الطبيعية مثل الكواكب، التي عرفتها العربية الجنوبية بوجه خاص، وهذه الكواكب هي الثالوث الذي يمثله القمر والشمس والزهرة.

ـ واعتقد بعض العرب بأن الجن شركاء الله(٢)، وكذلك الملائكة، هم شركاؤه وبناته(٣).

ـ وفي آيات أخرى أن من الشرك اتخاذ آلهة أخرى مع الله(٤).

ـ ومن العبادات ما اصطلح علماء الأديان على تسميتها بمسميات حديثة، مثل الطوطمية. إنها عقائد دينية بدائية رسخت في النفوس وفي القلوب، تقوم على أساس

---

(١) راجع: سورة الزمر آية ٣.

(٢) راجع: سورة الأنعام آية ١٠٠.

(٣) راجع: سورة سبأ آية ٤٠.

(٤) راجع: سورة الأنبياء آية ٢٤.

الجماعة أو القبيلة، يرتبط أفرادها برباط ديني مقدَّس هو رباط الطوطم، رمز الجماعة. فالعرب كانوا يتسمَّون بأسماء حيوانات مثل بنو أسد، وأسماء حيوانات مائية مثل قريش، وأسماء نباتات مثل حنظلة، وأسماء طيور مثل نسر. وتشير هذه التسميات، وإن كانت من قبيل التفاؤل، إلى تقديس العرب للحيوانات والنباتات[١].

وهناك روايتان عن مصدر عبادة الأصنام، الأولى: ترى أنَّها وافدة على يد عمرو بن لحي الخزاعي، والثانية: تقول بأنها نشأت نشأة محلية نتيجة تطور الحياة الجاهلية[٢].

ب ـ الاتجاه نحو التوحيد

وبرزت في المرحلة القريبة من ظهور الإسلام، الوجهة التوحيدية بمفهومها اليهودي والنصراني الوافدة على المجتمع العربي في عصر الجاهلية. فانتشرت اليهودية في اليمن بوجه خاص في ظل المملكة الحميرية الثانية[٣]، ووادي القرى، وخيبر، وتيماء، ويثرب، في حين انتشرت النصرانية في قبائل تغلب، وغسان، وقضاعة، في الشمال، وفي اليمن في الجنوب، وكانت منقسمة إلى عدة مذاهب، تسرَّب منها إلى الجزيرة العربية مذهبان هما: النسطوري واليعقوبي.

وظهر في غضون ذلك، إلى جانب هذه المعبودات والديانات، ظاهرة الحنيفية. والواضح أن انتشار الديانتين اليهودية والنصرانية في الجزيرة العربية، كان عاملاً مساعداً في تغيير الوعي الديني باتجاه النظر نحو الوجود، والخلق، والألوهية، والقيامة، والبعث، من خلال التعايش زمناً طويلاً بين المفاهيم الوثنية والأفكار اليهودية والنصرانية، نتج عنه ظهور جماعة من الناس في مجتمع الجاهلية بموقف متميز تجاه كل هذه المسائل، موقف ليس بوثني، ولا يهودي، ولا نصراني، بل رؤية تأملية متفردة.

قاد هذا الوعي الديني الجديد أناسٌ مستنيرون فطنوا إلى سوء حالتهم الدينية، فحاولوا الارتقاء إلى اعتقادات أرقى منها، وذلك بفعل اختلاطهم باليهود والنصارى، وعُرفوا باسم الأحناف، نذكر منهم قس بن ساعدة الأيادي، وورقة بن نوفل، وأمية بن أبي الصلت، وعثمان بن الحويرث وغيرهم[٤].

---

(١) قارن بـ كتاب الاشتقاق لابن دريد ص ٣ وما بعدها.

(٢) انظر فيما يتعلّق بهاتين الروايتين، ابن هشام: جـ ١ ص ٩٩ ـ ١٠١.

(٣) حسن، إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي جـ ١ ص ٧٣.

(٤) ابن هشام: جـ ١ ص ٢٥٣ ـ ٢٦٣.

تميز هؤلاء الأحناف بالسمو العقلي والأخلاقي، والحنكة السياسية، والثقافة العالية نسبياً، غير أنهم لم يكونوا جميعاً متماثلين رأياً واعتقاداً، كما لم يكونوا على صلة ترابط وتلاق بينهم، وذلك يعني أن الجامع الوحيد بينهم ينحصر في مبدأ عام يلتقون عفوياً على الأخذ به، هو رفض عبادة الأصنام، وتعدد الآلهة، والإيمان بوجود إله واحد. بالإضافة إلى الجانب السلوكي الذي اشتهروا به، من تجنُّبهم للناس، وطواف بعضهم في الأرض بحثاً عن دين إبراهيم الحنيف، كما كان بينهم من قرأ الكتب اليهودية والنصرانية، ونادوا بنبذ العادات الجاهلية السيئة، كوأد البنات، وشرب الخمر، واستباحة النساء.

وقد ترافق ذلك مع حدوث تغييرات متصلة بالحركة الدينية ذاتها منها:

ـ اشتراك بعض القبائل في عبادة صنم واحد. نرى ذلك في اجتماع قبائل خثعم، وبجيلة، ودوس، ومن كان ببلادهم من العرب بـ تبالة، على الصنم المعروف باسم «ذو الخلصة»[1].

ـ قيام تنظيم عملي لأداء موسم الحج في مكَّة بعد أن انحصرت وظائف الرفادة، والحجابة، والسقاية، وغيرها من الوظائف التنظيمية لشؤون الحجِّ، في قريش، ووُزِّعت بين الزعامات المكية، وشمل ذلك التزام مختلف القبائل بموجبات أداء مراسم الحجِّ بصورة سلمية، والامتناع عن الحرب في الأشهر الحرم.

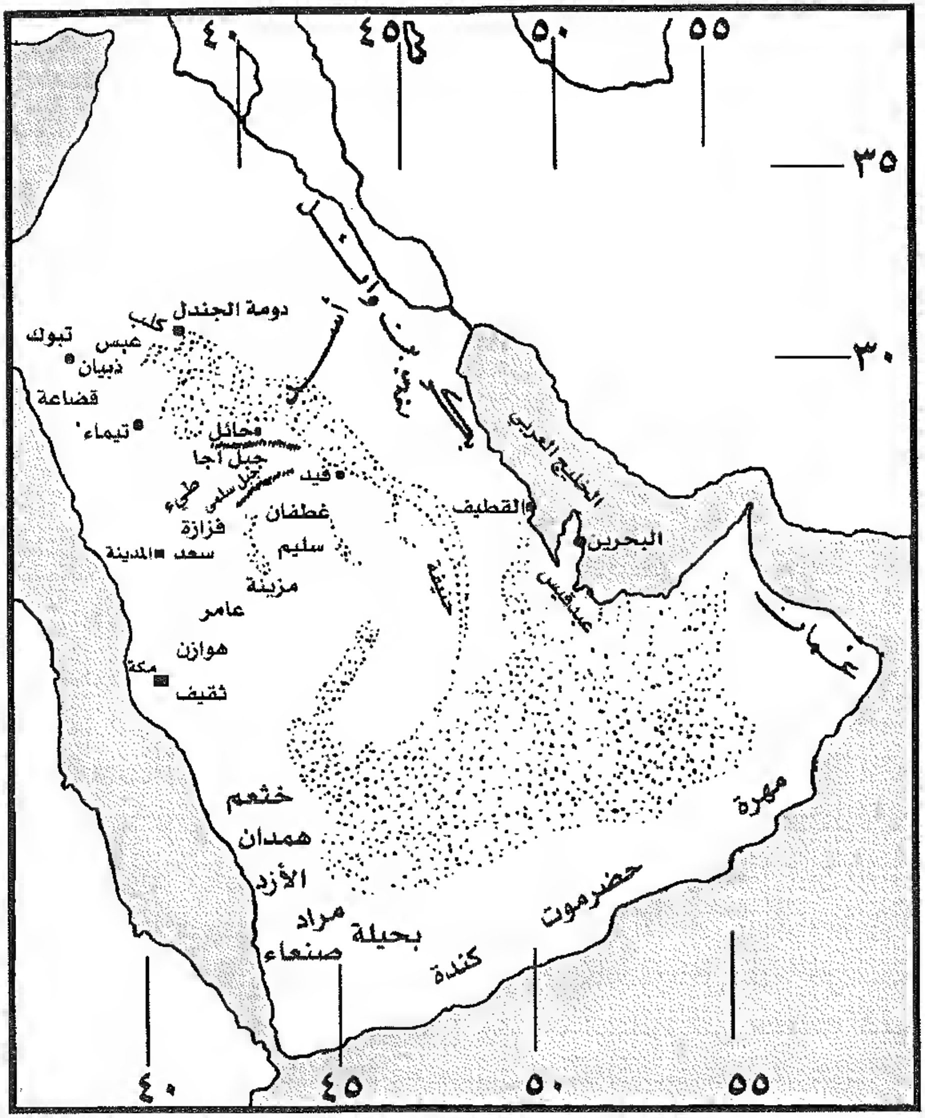
ـ انخراط تلك القبائل في عملية تداخل نتيجة الاجتماع الجماعي في الأسواق والحج، مما أوجد تفاعلاً كان يتجه نحو الوحدة.

الوضع الأدبي

الشائع بين كثير من الناس أن العرب قبل الإسلام كانوا في جهالة لا يقرأون ولا يكتبون، وأن الكتابة كانت قليلة بينهم. والواقع أن تفسير الجاهلية بالجهل الذي هو ضد العلم، تفسير مغلوط، وأن المراد من الجاهلية، السفه، والحمق، والغلظة، والغرور، وكانت تلك أبرز صفات المجتمع الجاهلي.

والواضح أن التعليم في هذا العصر لم يكن منتشراً في بلاد العرب وأخص بالذكر منطقة الحجاز، لأن العرب لم يكن لهم بالعلوم عهد، باستثناء علوم الأثر، والأنساب، والأنواء، إلَّا أنهم تباينوا في ممارسة القراءة والكتابة تبايناً يختلف باختلاف أماكنهم وحاجاتهم. فانتشرت القراءة والكتابة بين أهل الحضر، ولم تنتشر

(١) ابن هشام: جـ١ ص ١٠٧.



مواطن القبائل في شبه الجزيرة العربية

بين أهل البادية، وإنما كان الرجل يشعر بالحاجة إلى ذلك فيتعلَّمها.

وكان لاجتماع الشعراء والأدباء في مكَّة، وفي الأسواق الموسمية، أثر كبير في حياة العرب الأدبية، وبخاصة إذا علمنا أن هؤلاء كانوا يجوبون البلاد، ويختلطون بالشعوب المجاورة كالفرس والروم، فيتأثَّرون بمظاهر حضارتهم، وقد انعكس ذلك في شعرهم وفي خطبهم، وفي أقوال الحكماء.

والواقع أن عدم انتشار التعليم في بلاد العرب بعامة، لم يحل دون قيام نهضة أدبية، بدليل ازدهار الشعر الذي تناول بمضمونه الحياة العادية، والشؤون الحيوية للبدوي.

الوضع السياسي

تمهيد

لم يتضمن النظام السياسي الذي كوَّنه العرب لأنفسهم أي منهج منظم للإدارة أَو القضاء، بالمفهوم الذي نعرفه اليوم، إلَّا أن المجتمع العربي عرف بعض التكوينات السياسية لعل أهمها:

التكوين القبلي: حيث تتصرف القبيلة بوصفها تكويناً سياسياً قائماً بذاته سواء في أمورها الداخلية، أَو في علاقاتها الخارجية، وانتشر هذا النوع في البادية، وتمثِّل مكة نوعاً خاصاً في هذا التكوين، اعتمد أساساً على التجارة.

التكوين الإماراتي: إنه التكوين القائم على الإمارات أَو الممالك الصغيرة التي قامت حول مراكز تجارية، أَو عند نقطة توازن بين دولتين كبيرتين متصارعتين (الدولة الفارسية والدولة الرومانية الشرقية: البيزنطية) مثل مملكة الأنباط، ومملكة تدمر، أَو على حدود كل من هاتين الدولتين حيث تدخل في منطقة نفوذ كل منهما مثل مملكة الغساسنة التي خضعت للنفوذ البيزنطي، ومملكة المناذرة التي خضعت للنفوذ الفارسي.

التكوين الملكي: الذي شكَّلته الممالك التي قامت في الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية، وتميز بأنه كان أكثر ثباتاً واستقراراً لاعتماده على مساحات من الأراضي الخصبة، وقدراً كافياً من الأمطار الموسمية الغزيرة.

الإمارة في الحجاز

مكَّة

شهدت الأوضاع السياسية في الجزيرة العربية، اختلافاً بين منطقة وأخرى فيما يختص بالشكل السياسي ونظام الحكم. ففي غربي الجزيرة العربية حيث يقع

الحجاز، وفيه أكبر مدنه وأهمها مكة، قلب الحجاز ونقطة المركز فيه، وملتقى أكبر شبكة للتجارة العالمية، وأكبر مركز ديني للوثنية الجاهلية، تقع مكة في منتصف الطريق التجاري بين اليمن وبلاد الشام، في واد من أودية جبال السراة، تحفها الجبال الجرداء من كل جانب، وذكر القرآن الكريم أنها تقع ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾[1].

يُقسم تاريخ مكة، من حيث الامتداد الزمني ووضوح الرؤية التاريخية، إلى قسمين: يتضمن القسم الأول المدة الزمنية المنقضية قبل ظهور قصي بن كلاب، في حين يشمل القسم الثاني المدة الزمنية بعد ظهوره.

وتشير كل المعالم التي تلقي ضوءاً على تاريخها إلى أنها قديمة في الزَّمن، وأنَّها كانت تتمتع بمنزلة مقدسة بفضل وجود الكعبة، وأخذت تزدهر شيئاً فشيئاً بسبب موقعها الجغرافي كمحطة تجارية، وبفضل وجود الماء فيها (زمزم).

وتبدأ معلوماتنا عن تاريخها بالوضوح منذ أيام قصي، في أوائل القرن الخامس الميلادي، فهو الذي جمَّع قريشاً، ونظَّم شؤون المدينة بعد أن استولى على السلطة من قبيلة خزاعة اليمنية[2].

والواضح أن وضعاً جديداً أخذ بالظهور على مسرح الحياة في مكة، راح يفرض مبادىء وقيماً متميزة لتولي السلطة، يقوم على كثرة المال الناتج عن نمو التجارة وعِظم الشرف. وعليه فإن انتقال الزعامة في مكة إلى قريش لم يستند إلى عُرف قبلي تقليدي، بل إلى عنصر جديد هو عنصر الثراء، وجاء نتيجة التطور الاقتصادي والاجتماعي الذي حدث في ذلك الوقت.

واستناداً إلى تنظيم قصي، انقسمت قريش اجتماعياً إلى قسمين يجمعهما نسب واحد هما:

قريش البطاح: الذين أنزلهم قصي بطحاء مكة، فانتشروا في الشعب بين جبليها وهم: هاشم، وأمية، ومخزوم، وتيم، وعدي، وجمح، وسهم، ونوفل، وزهرة. إنهم قلب قريش وأشرافها، ومركز الثقل في مكة. بنوا البيوت واستقروا كالحضر، وانصرفوا إلى العمل التجاري، وخدمة الكعبة، وملكوا الأرزاق، والأملاك، فازدادت ثروتهم، وعاشوا حياة مترفة.

قريش الظواهر: الذين أنزلهم قريش في ظاهر مكة أي خارجها، ومعهم أخلاط

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٣٧.

(٢) ابن سعد، محمَّد: كتاب الطبقات الكبير جـ ١ ص ٧٠ ـ ٧١.

من صعاليك العرب، والحلفاء، والموالي، والعبيد، فعاشوا في أطرافها حياة أعرابية، ولم يبلغوا درجة قريش البطاح في الاستقرار والغنى[١].

مارس القريشيون العمل التجاري كوسطاء في بادىء الأمر، ثم كتجار. وقد هيَّأ الصراع المستمر بين الفرس والروم (البيزنطيين) أن تزدهر التجارة في مكة. فقد كانت الطريق بين العراق والشام مقفلة بسبب العمليات العسكرية، وكانت أكثر تجارة الشمال والجنوب تنزل فيها، وكانت قوافلهم التجارية تسير آمنة مطمئنة حتى تصل إلى هدفها وذلك بفعل عاملين:

الأول: الإيلاف، وهي اتفاقيات تُعقد مع رؤساء القبائل التي ستمر قوافلهم في أراضيها، من أجل ضمان سلوكها وإيصالها إلى المكان المقصود، ومع حكّام الدول المجاورة التي تقصدها هذه القوافل.

الثاني: لأن العرب، بعامة، اعترفوا بالسيادة الدينية للقريشيين في مكة، فهم أهل حرم الله وولاة بيته.

ونظَّم القريشيون رحلتين تجاريتين في العام. ففي فصل الصيف تقصد قوافلهم بلاد الشام حاملة بضائع الهند، وتزور غزة وأيلة[٢] وبصرى[٣]، ثم تعود بعد أن تنفِّذ عملية البيع والشراء محمَّلة بالبضائع من جديد، ومنها: الحبوب، والزيت، والخمور، والأسلحة، والمنسوجات، والجواري، وتقصد قوافلهم اليمن في فصل الشتاء، أما تجارتهم مع الحبشة فكانت تجري عن طريق البحر.

استفاد القريشيون من التجارة بما فرضوا من المكوس على البضائع، والضرائب على القوافل المارَّة في أراضيهم. وقد شاركت كافة طبقات المجتمع في العمل التجاري، ومن لم يساهم بماله كان يعمل خفيراً أو دليلاً.

وقد أصاب بعض القريشيين ثروات طائلة من العمل التجاري كأبي سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة. ونتج عن العمل التجاري الرِّبا، الذي هو مظهر من مظاهر الحركة التجارية، والدَين، والرهن، وتطلَّب هذا العمل تعلم القراءة والكتابة لضبط الحسابات التجارية.

---

(١) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ ٢ ص ٣٢.

(٢) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) مما يلي الشام، وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام. الحموي: جـ ١ ص ٢٩٢١.

(٣) بصرى: مدينة من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً. المصدر نفسه ص ٤٤١.

وترافق ذلك مع حدوث تطور تنظيمي آخر، هو نتيجة حتمية لتنظيمات قصي، وتفرد قريش بالزعامة السياسية، والمكانة الدينية. وقد شكل القاعدة الأساسية لحماية المكتسبات السياسية والاقتصادية. وأهم مقومات هذا التنظيم:

الملأ: ويمثِّل المظهر الأول لتجلي سيطرة زعماء مكة السياسي، وتشكل من سادات مكة، ووجوهها، وأشرافها، وأُولي الأمر فيها. لم يكونوا كلهم أثرياء. اعتلوا هذا المنصب إما لذكائهم ورجاحة عقلهم وخبرتهم، أَو لحسبهم وشرفهم، ولا يمنع من وجود تنافس بينهم مع حرصهم على حماية مكتسباتهم. إنهم جماعة المحافظين لا يقبلون تجديداً ولا تطويراً.

الندوة: هي المظهر الثاني لتجلي سيطرة زعماء مكة السياسي من خلال ارتباطها مع هيئة الملأ. إنها دار مشورة في السلم والحرب. فكانت تجري فيها المشاورات، وجميع الشؤون العامَّة مثل عقد ألوية الحرب، خروج القوافل التجارية، إبرام عقود النِّكاح. إنَّها مقر للحكم المركزي، أنشأها قصي ليحكم قبضته على زعامة مكَّة، وحصر حق الدخول إليها والاشتراك في المناقشات لمن بلغ سن الأربعين، مع بعض الاستثناءات لهذه القاعدة[١].

الرفادة: إنها خرج تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي، فيصنع به طعاماً للحجاج[٢].

السقاية: سقاية الحجاج، فرضها قصي على قريش مع الرفادة[٣].

الحجابة: حراسة الكعبة، وهي سدانتها وتولي حفظها، والاحتفاظ بمفاتيحها.

اللواء: هو من عمل قصي، وهو الراية، لا يمسكها إلَّا صاحب الجيش المسؤول عن قيادة الجند وقت الحرب[٤].

ظهرت هذه المناصب في مكة، وتوزَّعت بين أبناء قصي، لتكون تعبيراً سلطوياً عن سيطرة قريش الاقتصادية، والسياسية على مقدرات مكة، قبل عصر الرسالة.

وعلى الرغم من ممارسة العمل التجاري وتنظيمه، ومع نمو العلاقات التجارية والاقتصادية في مكة، ظلَّ مجتمعها قبلياً لا يعدو اتحاد عشائر ارتبطت بعضها ببعض في حلف بهدف سدانة الكعبة من جهة، والقيام بالعمل التجاري من جهة أخرى، ولا

---

(١) ابن هشام: جـ١ ص ١٤٨ ـ ١٤٩.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٥٣.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٤٨.
(٤) المصدر نفسه.

نفوذ لعشيرة على عشيرة، بل تتمتع كل عشيرة بالحرية التامَّة، وتجمعهم مصلحة مشتركة. كما أن وجود الملأ لا ينقض هذه الحقيقة، إذ لم يكن عمله يعدو عمل مجالس القبائل. فقد كان في كل قبيلة مجلس يتكوَّن من رؤساء العشائر ينظر في شؤونها حسب قوانين العرف والعادة، ولكنه لم يقض على حرية الأفراد. فقد كان كل فرد يتمتع بحريته مع شعوره بحقوق الجماعة أو حقوق القبيلة. إنه نظام مشيخي يتألَّف من عشرة شيوخ هم بمثابة الأشراف، وأُولي الأمر، يشغلون المركز الأول في المدينة ويورثون مناصبهم إلى أكبر أبنائهم، أو إلى زعيم العائلة. ويمكن تسميته بحكم «دار الندوة» أو حكم «ندوة قريش» يقوم على أساس الجاه، إنه «مجمع وجوه البلاد»[١].

لكن هذا النظام ولَّد تنافساً سياسياً نرى أثره في مكة، في قيام الأحلاف. فقد شهدت هذه المدينة بعد وفاة قصي صراعاً حاداً بين عشائرها على السلطة، واقتسام المناصب الاجتماعية، ونشأت نتيجة ذلك الأحلاف التي قسمت قريش إلى قسمين متميزين، مثل حلف المطيبين، وحلف الأحلاف[٢]، ثم حلف الفضول الذي يُعدُّ امتداداً لحلف المطيبين[٣]. وكانت العشائر تنتقل من حلف إلى حلف وفقاً لتطور أوضاعها السياسية والاقتصادية. واستمر هذا التنافس السياسي ناشطاً حتى ظهور الإسلام، ويرى بعض المؤرخين عودته بعد مدة وجيزة من وفاة النبي ﷺ بدليل النزاع الذي قام بين الحسين بن علي بن أبي طالب من بني هاشم، والوليد بن عتبة من بني عبد شمس وعامل معاوية على المدينة، وتهديد الأول باللجوء إلى حلف الفضول[٤].

---

(١) علي: جـ ٤ ص ٤٨ ـ ٥٠.

(٢) نتج عن تنازع أولاد قصي بعد وفاته، بشأن إعادة توزيع المناصب السياسية والإدارية والاجتماعية في مكة، أن انقسم هؤلاء إلى فريقين متنازعين. فقد قرَّر بنو عبد مناف بن قصي، وهم عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل، وكانوا بقيادة عبد شمس، أن ينتزعوا ما بأيدي بني عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، وكانوا بقيادة عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، فتفرقت قريش تبعاً لذلك. فكانت طائفة مع بني عبد مناف، وطائفة أخرى مع بني عبد الدار. وأخرج بنو عبد مناف وحلفاؤهم جفنة مملوءة طيباً ووضعوها عند الكعبة، وغمسوا أيديهم فيها، فسمُّوا المطيبين، بينما تعاهد بنو عبد الدار، وحلفاؤهم على النصرة والمعاضدة وعدم التخاذل، فسموا الأحلاف. انظر: ابن هشام جـ ١ ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٣) عُقد حلف الفضول قبل مبعث النبي بعشرين عاماً. السهيلي: جـ ١ ص ١٥٦.

(٤) ابن هشام: جـ ١ ص ١٥٣ ـ ١٥٦.

يثرب

تقع يثرب على بُعد نحو ثلاثمائة ميل إلى الشمال من مكَّة، وهي تقوم في وادٍ خصب محاط بمرتفعات يعلو بعضها بعضاً، تكثر فيه الآبار والينابيع، مما سمح بأن يصبح واحة غنَّاء بالنخيل والأشجار والزروع، مع الجو المعتدل، إلَّا في بعض أوقات الصيف، إذ تشتد الحرارة، ولكنها لا تبلغ درجة حرارة مكة القاسية.

ويذكر الرواة أن العماليق هم أول من سكن يثرب، وظلوا بها حتى نزلها اليهود في القرن الثاني الميلادي، على أثر اضطهاد الرومان لهم في فلسطين[1]، ثم وفدت عليهم قبائل الأوس والخزرج الأزدية، من الجنوب، على أثر حادثة سيل العرم وسيطروا عليها، وأصبحوا سادتها الحقيقيين. وكانوا وثنيين يحجُّون إلى مكة ويقدسون أصنامها، واعتمدوا على الزراعة بسبب خصب الأرض، لكن حياتهم لم تختلف في شيء عن حياة البدو مع أنهم سكنوا أطام يثرب. ويبدو أن النصرانية كانت معروفة فيها.

وكان اليهود يعملون على الوقيعة بين هاتين القبيلتين حتى يشغلوهما عنهم، فجرت بينهما حروب متطاولة، وغدا كأنه من المستحيل عليهم أن يكفُّوا عن هذه الأيام والحروب، لولا أن نزل الرَّسول بينهم، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً.

الطائف

تقع الطائف إلى الجنوب الشرقي من مكَّة، على بُعد خمسة وسبعين ميلاً، وعلى ارتفاع يبلغ نحو ستة آلاف قدم، وسط بساتين تجعلها أشبه ما تكون بقطعة من أرض الشام. وأتاح لها ارتفاعها أن تكون طيبة الهواء، فكان القريشيون يصطافون فيها، وتنزلها قبيلة ثقيف. وتعدُّ الطائف المدينة الثانية في الحجاز من حيث الأهمية الاقتصادية والدينية بعد مكَّة.

الممالك في الشمال

مملكة الأنباط

قامت هذه المملكة في القسم الشمالي الغربي من الجزيرة العربية، في القرن

(١) لقد دمَّر القائد الروماني تيطس بيت المقدس وأحرق الهيكل في عام ٧٠ م على أثر الثورة اليهودية ضد الوجود الروماني في فلسطين وحذا حذوه القائد الروماني هادريان سنة ١٣٥م على أثر الثورات اليهودية المتجددة فدمر البلاد وشرَّد اليهود الذين انتشروا في البلدان المجاورة ومنها الجزيرة العربية، وهذا هو النفي الأخير قبل أن يعودوا إلى فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين.

السادس قبل الميلاد تقريباً حول عاصمتها البتراء الواقعة على الخط التجاري الذي يصل بين سبأ والمناطق المجاورة في جنوبي الجزيرة العربية، وبين موانيء بلاد الشام في الشمال، وتميزت بازدهار اقتصادي بارز مكّن حكّامها من توسيع حدود مملكتهم، على حساب جيرانهم، مما ضايق الأمبراطورية الرومانية التي دخلت في صراع معها. واتخذ الأنباط اللغة الآرامية لغة للكتابة النبطية[١].

وحضارة الأنباط مركّبة، فهي عربية في لغتها، آرامية في كتابتها، وسامية في ديانتها، ويونانية ـ رومانية في فنّها وهندستها المعمارية، ولكنها مع ذلك عربية في جوهرها.

شارك الأنباط العرب في عبادة الأصنام المعروفة في الحجاز في العصر الجاهلي مثل ذي الشرى، وهو الإله الرئيسي عندهم ويتمثّل في كتلة من الصخر أو عمود صخري. إنه إله الشمس. ومن آلهتهم اللات، إلهة القمر، ومناة، وهبل وغيرها.

وأشهر ملوك الأنباط: الحارث الأول (١٦٩ ـ ١٤٦ق.م)، الحارث الثاني (١١٠ ـ ١٠٦ق.م)، الحارث الثالث (٨٧ ـ ٦٢ق.م)، وآخرهم مالك الثالث (١٠١ ـ ١٠٦م). وفي عهده قضى الأمبراطور الروماني تراجان على مملكة الأنباط[٢].

مملكة تدمر

يعود الفضل في قيام مملكة تدمر وازدهارها إلى موقعها الذي يتحكّم في خط تجاري شمالي بين العراق والشام من جهة، ويشغل منطقة حدودية هامّة في مجال التوازن بين القوتين الكبيرتين المتصارعتين في الشرق والغرب، من جهة أخرى.

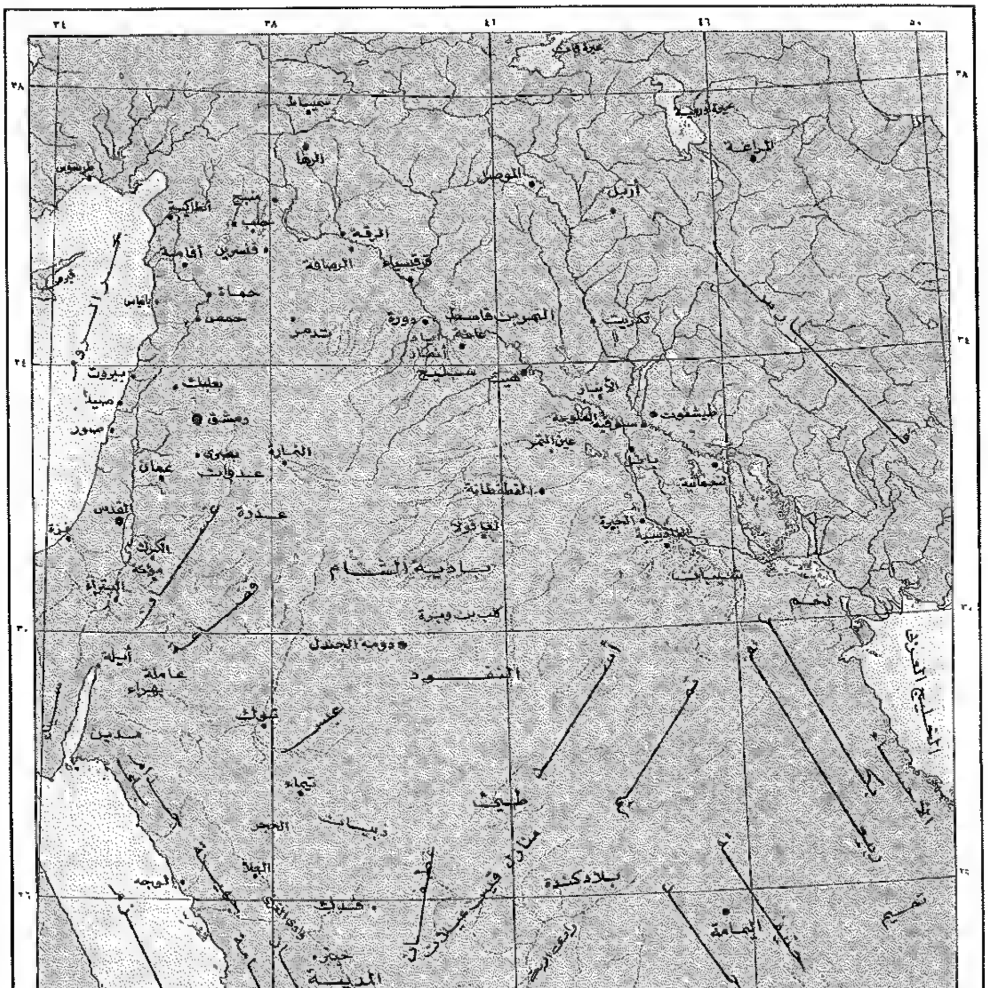
تقع آثار هذه المملكة بالقرب من حمص، وهي قديمة في الامتداد الزمني، إلّا أن شهرتها السياسية ظهرت في أوائل القرن الأول الميلادي، وقد دخلت في دائرة النفوذ الروماني وأضحت ولاية رومانية في القرن الثاني الميلادي، غير أنّها وصلت إلى قمة ازدهارها بين أعوام (١٣٠ و٢٧٠م).

أشهر ملوكها أذينة؛ وابنه وهب اللات، ثم زنوبيا. وضعت هذه الملكة، فور تسلُّمها الحكم، هدفاً سياسياً تمثَّل بتوسيع رقعة بلادها على حساب الرومان في الشمال، والاستيلاء على مصر في الجنوب، وقد حقَّقت هذا الهدف واعترف

---

(١) سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ الدولة العربية ص ١٠٢.

(٢) المرجع نفسه: ص ١١١.



منازل القبائل العربية
في وسط وشمال الجزيرة العربية
وبلاد الشام في العصر النبوي

الرومان بسيادتها على مصر. ويبدو أن هذه السياسة التوسعية، وما أُشيع عن نيتها في أن تواصل فتوحاتها حتى تصل إلى روما؛ قد أقلق الأمبراطور أورليانوس، فهاجمها في عقر دارها وانتصر عليها، واجتاحت قواته عاصمتها، ودمَّرتها في عام ٢٧٣م، ثم أخذت تتوارى تدريجياً عن المسرح السياسي الدولي بحيث لم تعد سوى قرية صغيرة، وحصناً أمامياً لسوريا. انتشرت النصرانية في تدمر في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي وأضحى لها أسقفية[١].

كانت الحضارة التدمرية خليطاً من عناصر سورية، ويونانية، وفارسيَّة، على الرغم من أن التدمريين كانوا قبائل عربية، ولغة التخاطب والكتابة عندهم لهجة من الآرامية الغربية، على أن اللغة اليونانية كانت سائدة إلى جانب الآرامية.

ومن حيث العبادة، لم يختلف الدين في تدمر عن الأديان الشائعة في سوريا الشمالية وعند قبائل العرب في البادية. أشهر آلهتهم الإله الشمس، والإله بعل، واللات، وعشتار وغيرها.

مملكة الغساسنة

الغساسنة أَو آل جفنة، عرب من اليمن، أصلهم من الأزد، هاجروا إلى الشمال قبل حادث سيل العرم في القرن الثالث الميلادي أَو بعده. أقاموا أولاً في تهامة على ماء يقال له غسان، فشربوا منه ونسبوا إليه. أما تسميتهم بآل جفنة فنسبة إلى أول ملوكهم جفنة بن عمرو مزيقياء. ثم هاجروا إلى مشارف الشام وفيها قبائل من قضاعة هم الضجاعمة من بني سليح. وسمحت لهم السلطات البيزنطية النزول في المنطقة على شرط أداء الخراج. ولما ضعف شأن الضجاعمة تمكّنت أزد غسان من إقامة دولة في الأراضي بين البلقاء وحوران متخذين من بصرى عاصمة لهم حيث تمتعوا باستقلال محدود، وكانوا عمالاً للبيزنطيين[٢].

وأدَّى الغساسنة الدور الذي تقتضيه تبعيتهم للأمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية)، فدافعوا عن حدودها ضد غارات البدو، وساعدوها في حروبها ضد الفرس ومن كان يؤيدهم من عرب المناذرة.

بلغت هذه المملكة درجة عالية من الحضارة، متأثِّرة بالحضارتين الساسانية

---

(١) راجع فيما يتعلّق بتاريخ هذه المملكة، سالم: ص ١١٥ ـ ١٣٦.

(٢) المسعودي: جـ ٢ ص ١٠٦ ـ ١٠٧. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمَّد: العبر وديوان المبتدأ والخبر... المعروف بتاريخ ابن خلدون جـ ٢ ص ٥٨٥. سالم: المرجع نفسه ص ١٤٣.

والبيزنطية، واشتهرت بكثرة الحصون، والبِيَع، والكنائس، والمباني الفخمة. واكتسب الغساسنة الفنون الحربية البيزنطية، وأخذوا من اللغة اليونانية كثيراً من الكلمات التي لم تكن معروفة مثل الكنيسة والراهب.

أشهر ملوك هذه المملكة، الحارث بن جبلة (٥٢٨ ـ ٥٦٩م) ويسمَّى أحياناً الحارث بن أبي شمر، وكان له دور مهم في حروب الأمبراطور جستنيان ضد الفرس، وعرب العراق، فأنعم عليه بالألقاب، واعترف بسيادته المطلقة على جميع العرب في الشام، كما اشتبك مع المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة في حروب طاحنة. ويُعدُّ عهده من أزهى العهود التي عرفها الغساسنة، بعد أن امتد سلطانهم من البتراء شمالاً إلى الرصافة شمال تدمر.

اعتنق الغساسنة الدين النصراني على المذهب «المونوفيزي»، أي مذهب الطبيعة الواحدة.

وخلف الحارث بن جبلة ابنه المنذر (٥٦٩ ـ ٥٨١م)، فنهج نهج والده في سياسته الدينية وفي حروبه مع المناذرة. فاشتبك مع قابوس ملك الحيرة منذ عام ٥٧٠م في سلسلة من المعارك أشهرها معركة عين أباغ[1] التي انتصر فيها انتصاراً حاسماً.

ثم حدث خلاف بينه وبين البيزنطيين بسبب نوازع دينية على الأغلب، أو ربما بسبب خشية البيزنطيين من أن يثور عليهم بعد تعاظم قوته؛ فحرموه من المساعدات التي كانوا يقدِّمونها إليه، ثم قبضوا عليه ونفوه إلى صقلية.

وثار أبناؤه بقيادة النعمان، غير أنَّه لقي المصير نفسه في عام ٥٨٤م. ثم تمزَّقت وحدة الغساسنة بعد هذا التاريخ، وتجزأت إمارتهم، وتوزعت على أمراء كانوا ضعافاً أحياناً، كان آخرهم جبلة بن الأيهم، ثم فتح المسلمون البلاد في عام ٦٣٦م.

مملكة الحيرة[2]

قامت مملكة الحيرة التي عُرفت أيضاً بالمملكة اللخمية، ومملكة المناذرة، في الجانب الآخر، على يد مجموعة من القبائل من بني تنوخ، الذين استقروا في المنطقة

---

(١) عين أباغ: اسم لوادٍ وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام. الحموي: جـ ١ ص ١٧٥.

(٢) انظر فيما يتعلَّق بتاريخ المناذرة، علي: جـ ٣ ص ١٥٥ ـ ٣١٤. والحيرة مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف، زعموا أن بحر فارس كان يتصل به وبالحيرة الخَوَرْنَق بقرب منها مما يلي الشرق على نحو ميل، والسدير في وسط البرية التي بينها وبين الشام. كانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية من زمن نصر ثم من لخم النعمان وآبائه. الحموي: جـ ٢ ص ٣٢٨.

المتاخمة للضفة الغربية لنهر الفرات بعد هجرتهم من اليمن في أوائل القرن الثالث الميلادي.

وأسَّس عمرو بن عدي هذه المملكة متخذاً من الحيرة عاصمة له، وقد سارت في ركاب الفرس، لمجابهة البيزنطيين وعمالهم الغساسنة.

حقَّقت هذه المملكة قدراً من الاستقرار السياسي سمح لها بممارسة النشاط المعماري المتقدم. وأتاح لها موقعها على طريق القوافل أن تشكِّل مركزاً مهمَّاً للتجارة، فعاش المناذرة عيشة ترف، كما عملوا في الزراعة، ولعل ذلك ما جعل حياتهم أكثر استقراراً بالمقارنة مع حياة الغساسنة، كما جعلهم أكثر حضارة ورقياً.

وأشهر ملوك مملكة الحيرة، عمرو بن عدي بن نصر الذي نصَّبه الأمبراطور الفارسي سابور، وخلفه ابنه امرؤ القيس (٢٨٨ ـ ٣٢٨م)، ثم النعمان الأول بن امرؤ القيس (٣٩٠ ـ ٤١٨م) الذي أنشأ جيشاً قوياً يتألَّف من كتيبتين هما الشهباء والدوسر، واشتهر ببنائه قصري الخورنق والسدير. ونظراً لتنامي قوته، تدخَّل لصالح بهرام جور الذي اعتلى العرش الفارسي خلفاً لوالده يزدجرد الأول، فأعلى ذلك من شأن المناذرة.

بلغ المناذرة أزهى حياتهم أثناء حكم المنذر بن ماء السماء (٥١٤ ـ ٥٥٤م) الذي توسع حتى عُمان، وخاض منذ عام ٥٢٩م حروباً طاحنة ضد الغساسنة والبيزنطيين، انتصر في معظمها، وقُتل يوم حليمة في حربه ضد الغساسنة.

خلف المنذر ابنه عمرو بن هند (٥٥٤ ـ ٥٦٩م)، ولقَّبه العرب بالمحرِّق لأنه أحرق مائة رجل من بني تميم في يوم أوارة باليمامة، واشتبك مع تغلب وطيء. ويبدو أن نفوذه امتد على قبائل كثيرة في شرقي نجد وشمالها وغربها، وأضحت الحيرة في عهده مركزاً أدبياً مزدهراً بما كان يفد عليه من الشعراء والأدباء.

توالى على حكم الحيرة بعد عمرو عدد من الحكام، كان آخرهم المنذر بن النعمان الثالث بن المنذر الرَّابع الذي ظل في الحكم حتى فتح خالد بن الوليد الحيرة في عام ٦٣٣م.

عمل أهل الحيرة في التجارة، ولهم أثر كبير في الحضارة العربية، ومارسوا دور الوسيط في نقل المعارف إلى الجزيرة العربية ونشرها فيها.

اعتنق آل لخم النصرانية في عهد ملكهم المنذر بن امرىء القيس، المعروف بابن ماء السماء، على المذهب النسطوري، ومنهم من اعتنق المذهب اليعقوبي. ويبدو أنَّهم أرادوا أن يتخلَّصوا من سيطرة الفرس، لكن أوضاع الحيرة اضطربت واضطروا للخضوع لسيطرتهم من جديد.

الممالك في الجنوب

الدولة المعينية ١٣٠٠ ـ ٦٣٠ق.م[1]

تُعدُّ الدولة المعينية أقدم الدول العربية التي قامت في اليمن، ولم يرد ذكر لهذه الدولة في المصادر العربية، وإنما ورد ذكرها في المصادر اليونانية والرومانية. تقع معين شمالي بلاد سبأ وأرض قتبان، وظهرت في الجوف في منطقة سهلية خصبة بين نجران وحضرموت. اشتهرت بنخيلها وأخشابها ومراعيها، وعاصمتها مدينة قرنا، وعُرفت أيضاً باسم معين.

أصل المعينيين من البلاد الجنوبية، عملوا في التجارة، وامتد نفوذهم السياسي إلى ما وراء الحجاز شمالاً. أما من حيث نظام الحكم، فإن حكومة معين ملكية، وتتألَّف من مقاطعات يحكم كل واحدة منها نائب عن الملك، ولها مجلس يدير شؤونها.

الدولة السبئية ٨٠٠ ـ ١١٥ق.م[2]

تقع مملكة سبأ بين معين وقتبان. وأصل السبئيين من المناطق الشمالية، ارتحلوا إلى اليمن حوالي سنة ١٢٠٠ق.م نتيجة لضغط الآشوريين، فاستغلوا ضعف المعينيين وتوسعوا في مناطق نفوذهم، ثم قضوا على دولتهم وورثوها.

تدرج السبئيون في نظام الحكم من الإمارة البسيطة إلى الكهانة ثم الملك، واتخذوا في بادىء الأمر مدينة صرواح عاصمة لهم، ثم انتقلوا إلى مأرب. وساعد الخصب الذي امتازت به المنطقة على استقرارهم، وزادت الموارد التجارية من غناهم. وشهدت الدولة تراجعاً مطرداً نتيجة ثلاثة عوامل هي:

- تحول طرق التجارة من البر إلى البحر على يد البطالمة في مصر، واحتكارهم التجارة الشرقية.
- تصدُّع سد مأرب الذي كان ينظِّم شؤون الري.
- محاولات ملوك سبأ دمج مختلف الإمارات، فاصطدموا بالسياسة الإقطاعية لهذه الإمارات مما أدى إلى حدوث اضطرابات وثورات أضرَّت بالوضعين الاقتصادي والسياسي، فتراجعت نتيجة ذلك قوة سبأ. وكان أصحاب ريدان من حمير أقرب إلى البحر، فاشتد ساعدهم وتمكَّنوا من انتزاع العرش السبئي.

---

(١) انظر فيما يتعلَّق بتاريخ معين: علي، جواد: جـ ٢ ص ٧٣ ـ ١٢٤.

(٢) انظر فيما يتعلَّق بتاريخ الدولة السبئية: المرجع نفسه ص ٢٥٨ ـ ٣٤٧.

الدولة الحميرية ١١٥ق.م ـ ٥٢٥م[١]

يقسم تاريخ حمير إلى عصرين، تلقَّب ملوك العصر الأول (١١٥ ق.م ـ ٣٠٠م) بلقب «ملوك سبأ وذي ريدان»، في حين تلقَّب ملوك العصر الثاني (٣٠٠ ـ ٥٢٥م) بلقب «ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت» بعد ضمِّ هذه الإمارة الأخيرة إلى الدولة الحميرية.

وحمير من القبائل المعروفة في العربية الجنوبية. تقع مملكتهم بين سبأ والبحر الأحمر وتشمل الأراضي التي يطلق عليها اسم قتبان، ثم سيطرت على مملكة سبأ وذي ريدان. واتخذ الحميريون مدينة ريدان عاصمة لهم التي عرفت فيما بعد باسم ظفار.

ورث الحميريون المعينيين والسبئيين في الثقافة والتجارة، واهتمُّوا بالفتوح، ثم ضعفت حمير في أوائل القرن السادس، وفقدت السيطرة على مقاليد التجارة، فاستغل البيزنطيون ذلك وشغلوا الفراغ الذي أحدثه خروج الحميريين. ثم حدث أن تدخل الفرس في شؤون اليمن وتمكَّنوا من انتزاع الحكم، مما أدخل البلاد في دوامة الصراع بين الدولتين الكبيرتين. وظلت اليمن تحت النفوذ الفارسي بعد طرد الأحباش من البلاد وحتى ظهور الإسلام.

أوضاع الدولتين الفارسية والبيزنطية

ساد العالم آنذاك دولتان كبيرتان هما الأمبراطورية الفارسية والأمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية).

ونهل الفرس منذ زمن بعيد من الحضارة الشرقية بما فيها من شعر، وأمثال، وحِكَم، وعلوم، وعقائد تمسَّكوا بها، بدليل ظهور أثر ذلك على الفرس الذين اعتنقوا الإسلام حيث لم يتجرد كثير منهم من كل عقائدهم وتقاليدهم[٢]. إلَّا أنهم، قبل الإسلام، ابتلوا بصراعات دينية نتيجة تعدُّد المذاهب الدينية واختلاف فلسفاتها. وكان أهم تلك المذاهب التي أدَّت دوراً مؤثِّراً في التاريخ الفارسي، الزرادشتية والمانوية والمزدكية.

وكان تشيع الأكاسرة حكَّام فارس لإحدى هذه المذاهب يدفع معتنقيها إلى اضطهاد مخالفيهم، وقد أضاع هذا التناحر البلاد حيث وضعها في جو مشحون بالمنازعات. وسنلم إلمامة وجيزة بأهم مبادىء هذه المذاهب الدينية.

---

(١) انظر فيما يتعلَّق بتاريخ الدولة الحميرية: علي: جـ ٢ ص ٥١٠ ـ ٥٩٨.

(٢) أمين، أحمد: فجر الإسلام ص ٩٨.

تولى زرادشت تطهير العقائد المجوسية القائمة على الثنوية، وحملها على محمل جديد من التفسير[1]. ومن مبادىء فلسفته أن للعالم أصلين أو قوتين، الخير والشر، وهما في نزاع دائم، وأن النصر في النهاية هو لروح الخير، وذلك بما يبذله الإنسان من عمل للتغلُّب على روح الشر، لذلك حضَّ أتباعه على العمل[2].

وخالف ماني زرادشت في تعاليمه عن الخير والشر وامتزاجهما، وأمر أتباعه بالصوم والرهبنة، ودعاهم إلى تبنِّي الخصال الحميدة، كالصلاة، والزَّكاة، وتجنُّب الكذب، والقتل، والسرقة، إذ بهذه الأعمال يتخلَّص الإنسان من الشر[3].

ونافس مزدك كلاً من زرادشت وماني في تعاليمهما، وقال أيضاً بالنور والظلمة، والخير والشر، إلَّا أن المشهور من تعاليمه هو الاشتراكية، فأحلَّ النساء، وأباح الأموال، وجعل الناس شركاء فيها، كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ[4].

وحظيت دعوته بقبول كبير، وشايعها النَّاس، وبخاصة الأراذل، «فابتلي الناس بهم، وقوي أمرهم، حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره، فيغلبونه على منزله ونسائه، وأمواله، لا يستطيع الامتناع بهم... فلم يلبثوا إلَّا قليلاً حتى صاروا لا يعرف الرجل منهم ولده، ولا المولود أباه، ولا يملك الرجل شيئاً مما يتسع به»[5].

وكانت الأوضاع الداخلية للأمبراطورية على جانب كبير من التفاوت. فنظام الحكم كان فردياً، يقوم على الاعتقاد بنظرية الحق الإلٰهي المقدَّس للملوك[6]. وفصلت بين طبقات المجتمع هوة سحيقة، وذلك بما كانت تتمتع به الطبقات العليا من امتيازات خاصة[7].

وسبَّب النظام الضريبي المتعسِّف الجور، وزاد من تدهور الأوضاع الحروب الطاحنة التي خاضتها الأمبراطورية ضد البيزنطيين، بالإضافة إلى عدم الاستفادة بصورة كبيرة من الإصلاحات التي وضعها كسرى أنو شروان لعلاج أوضاع الدولة[8]. وبذلك ضعفت الأمبراطورية الفارسية، وأصابها الوهن، وظلَّت كذلك

---

(١) العقاد، عباس: الله جل جلاله. ص ١٠١. كريستنسن، آرثر: إيران في عهد الساسانيين ص ٢٠.

(٢) الشهرستاني، أبو الفتح محمَّد عبد الكريم: الملل والنحل جـ ٢ ص ٤٢. أمين: ص ١٠٢.

(٣) الشهرستاني: جـ ٢ ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٤) الشهرستاني: جـ ٢ ص ٥٤.

(٥) الطبري: جـ ٢ ص ٩٢ ـ ٩٣.

(٦) الندوي، أبو الحسن: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٤٠.

(٧) كريستنسن: ص ٨٦ ـ ٨٧، ١٠٥.

(٨) الطبري: جـ ٢ ص ٩٩. المرجع نفسه: ص ٣٥٠ ـ ٣٥١.

حتى الفتح الإسلامي.

وفي الجانب الآخر، ورث الروم البيزنطيون الحضارة الغربية بما فيها من مقومات حضارية ذات شأن، إلَّا أنهم انغمسوا في صراعات دينية مذهبية، كان أشهرها في الشرق ثلاث طوائف هي: اليعقوبية، والنسطورية، والملكانية.

واستعانت هذه الطوائف بالفلسفة اليونانية لتدعيم وجهات نظرها المختلفة في العقيدة النصرانية، وبخاصة حول طبيعة المسيح[1]. ومارست الدولة التي كانت تدين بالمذهب الملكاني، مختلف أنواع الضغوط ضد الذين خرجوا على مذهبها، فقامت الفتن وأريقت الدماء هدراً في الشوارع. ومما زاد الأمر سوءاً اختلاف العنصر السكاني في الأمبراطورية. وقد حاول الأمبراطور هرقل التوفيق بين هذه المذاهب المتناحرة وتوحيدها، إلَّا أن جهوده، لم تحل دون إراقة الدِّماء.

وإلى جانب هذا الصراع المذهبي، كان نظام الحكم فردياً، وقد جمع الأمبراطور كافة السلطات في يده، وأرهقت الدولة رعاياها بالضرائب، وفسدت الإدارة، وانتشرت الرِّشوة. وتبنَّى الأباطرة المشروعات الضخمة التي كانت تجهد الخزانة، بالإضافة إلى الحروب المدمِّرة مع الفرس.

وقد أدَّى هذا الوضع المتدهور إلى تذمر السكان، فحقدوا على حكَّامهم، وتمنوا الخلاص، بدليل ما رواه البلاذري عن موقف السكان في بلاد الشام، الرافض للحكم البيزنطي، والمرحِّب بالحكم الإسلامي والفتح الإسلامي لهذه البلاد[2].

---

(١) ابن تيمية، أبو العباس تقي الدين أحمد: الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح جـ ٣ ص ٢٢ ـ ٣٨.

(٢) البلاذري، الإمام أبو الحسن: فتوح البلدان ص ١٤٣.

الفَصْلُ الثَّانِي

عصر الرسالة

المرحلة المكِّيَّة

محمَّد قبل البعثة

شهد عام ٥٧١ للميلاد حادثين مستفيضي الشهرة في الجزيرة العربية، هما غزو الأحباش لمكَّة بهدف هدم الكعبة، ومولد النبي محمَّد ﷺ، ومع فشل حملة أبرهة تفرَّد الحدث الثاني في التأثير على أوضاع الجزيرة العربية وسكَّانها.

وُلد النبي محمَّد ﷺ لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوَّل، العشرين من شهر نيسان عام ٥٧١م، وهي السنة المعروفة بعام الفيل[١]، من أبوين فقيرين في مالهما غنيين في حسبهما وشرفهما. ينتمي أحدهما، وهو: عبد اللَّه، إلى عبد المطلب بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي، بن كلاب، بن مرة، بن كعب. والأخرى، هي: آمنة بنت وهب، بن عبد مناف، بن زهرة، بن كلاب، بن مرة، بن كعب[٢].

توفي والده وهو في بطن أمه، فكفله عند ولادته جده عبد المطلب، ثم توفيت والدته وهو في السادسة من عمره، كما توفي جده بعد مرور سنتين، فتولَّى أمره عمه أبو طالب[٣].

قضى أيامه الأولى فقيراً، واضطر إلى العمل وهو صغير، مع أبناء عمه، فكان يرعى الغنم. ولما شبَّ ضرب في الأرض متاجراً بمال غيره، فتاجر لحساب خديجة بنت خويلد، إحدى شريفات مكة.

اتَّصف بالمروءة والخلق الحسن والحسب الكريم، فكان خير قومه جواراً،

---

(١) ابن سعد: طبقات ابن سعد جـ ١ ص ١٠٠ ـ ١٠١. ابن هشام: جـ ١ ص ١٨١.

(٢) ابن هشام: المصدر نفسه ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٨٠ ـ ١٨٢، ١٩٥، ٢٠٤.

وأعظمهم حلماً وأمانة، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم عن الفحشاء التي تدنس الرجال حتى لُقِّب بـ «الأمين».

كانت نقطة التحوُّل الأولى في حياته قبل البعثة زواجه من خديجة بنت خويلد[1]. وكان الدافع بهذه السيدة إلى الإقدام على هذه الخطوة هي أمانته، وصدقه، وإخلاصه، وحسن أخلاقه، التي لمستها وشعرت بها نتيجة تعاملها التجاري معه، فلم يعد بحاجة إلى طلب الرزق، كما لم يعد يخشى الفقر. وأتاحت له حياته الجديدة أن ينصرف إلى التأمل والتفكير في حياة قومه، وفي الكون من حوله. وبدأ يميل إلى الصمت، والسكون، والابتعاد عن مخالطة الناس. وقد اتَّسمت حياته في هذه المرحلة بالخروج على عادات مجتمعه في كل جانب من جوانب حياته. فنشأ في بوتقة الشرك إلَّا أنها لم تصهره، فلم يؤمن بعبادة الأصنام، بل كان كارهاً لها كل حياته.

كانت الهوة عميقة بين بيته الطاهر، الذي عاش فيه، وبين عالمه الواسع من حوله. فكان هناك تناقض بين بيته وبين عالمه، جعل حياته تتأثَّر، وتجنح نحو الاعتزال والتأمل.

كانت الفرصة الأولى في اختبار مكانة محمَّد في مجتمعه عندما أعادت قريش بناء الكعبة[2] إذ أنه حقن الدماء وحكم بالعدل، وأنصف بين القوم، وبذلك انطلق ليتخذ له مكاناً مرموقاً باعتراف قومه بأنه من أصحاب العدل ومن دعاة الرحمة والسَّلام.

البعثة

ازداد شعور محمَّد بالعزلة، عندما بلغ سن الأربعين. فكان ينصرف إلى غار حراء، القريب من مكَّة، للتحنُّث، والانغماس في التفكير والتأمل، بعيداً عن صخب الحياة في مكة. وإنما الباعث على هذا، اشتداد وحشته من سوء أوضاع الناس، والهرب منها إلى الأُنس بالله تعالى والرجاء في هدايته إلى المخرج منها[3].

ولما أراد الله كرامته ورحمة العباد به، وكان قد هيأه لتلقي الرسالة والوحي، كانت الرؤيا الصادقة أول ما بدىء به، وهي خطوة تمهيدية لاستقبال الكلام الإلهي، ثم نزل الوحي عليه.

وكان أول من آمن بدعوته زوجته خديجة، ثم أخذت الدعوة تنتشر ببطء،

---

(١) ابن سعد: الطبقات جـ١ ص ١٣١.

(٢) انظر تفاصيل الحادثة عند ابن هشام: جـ١ ص ٢٢١ ـ ٢٢٨.

(٣) رضا، الشيخ رشيد: تفسير القرآن الحكيم جـ ١١ ص ١٩٣.

فدخل في الدين الجديد أفراد قلائل في مكَّة، منهم علي بن أَبي طالب، وكان لا يزال صغيراً لا يتجاوز العاشرة من عمره[1]، وأَبو بكر الصدِّيق، وزيد بن حارثة، مولاه ﷺ، وعثمان بن عفَّان، والزبير بن العوَّام، وعبد الرَّحمن بن عوف، وسعد بن أَبي وقَّاص وغيرهم[2]، كما انتشرت الدعوة بين النساء.

ويلاحظ أن الذين آمنوا به ينتمون إلى مختلف الطبقات والأعمار، والكثير منهم من الفقراء والمستضعفين. إذ أنهم أقبلوا على الدِّين بشغف نظراً لمبادئه القريبة من الفطرة البشرية، وقد بعثت الأمل في نفوسهم، لأنها تدعو إلى المساواة، وإلى منح الأرقاء الحقَّ في التحرر، وإلى مساعدة المحتاجين.

ولمعرفة ردود الفعل الأولية للدعوة الإسلامية، يمكن تقسيم الرعيل الأول من المسلمين إلى ثلاث فئات من حيث المكانة الاجتماعية.

تتضمَّن الفئة الأولى فتيان العائلات الكبيرة، التي تتمتع باحترام واسع في المجتمع المكي، ويمثِّل هذه الفئة خير تمثيل: خالد بن سعيد بن العاص. وهذه العائلات هي الأكثر تأثيراً في المجتمع بحكم مكانة العشائر التي تنتمي إليها. والجدير بالذكر أن الأشخاص الذين حملوا لواء المعارضة ضد النبي محمَّد ﷺ ينتمون إلى هذه الفئة.

وتتضمَّن الفئة الثانية فتيان العائلات الأخرى، التي تنتمي إلى العشائر الضعيفة نسبياً، كبني الحارث بن فهر، وبني عمير، ولا يوجد فارق كبير بين الفئتين.

وتتضمَّن الفئة الثالثة الأشخاص الذين لا يرتبطون بأي من العشائر في المجتمع المكي. إنهم خارج دائرة النظام العشائري، ويلحقون اسمياً ببعض العشائر. ويندرج ضمن هذه الفئة ما يسمى بالمستضعفين، كصهيب الرومي، وعمَّار بن ياسر، وبلال الحبشي.

ظلت الدعوة سرية مدة ثلاث سنوات، أمر الله نبيه بعدها أن يجهر بها، فعاداه قومه، ووقفوا في وجهه، وعذَّبوا من أسلم من أتباعه، كما تعرَّض هو نفسه للمضايقة والأذى. والواضح أن مبادىء الدعوة الإسلامية في مكة، أقلقت القريشيين حتى باتوا في اضطراب دائم، فخشوا على مصالحهم التجارية، والاقتصادية، والسياسية، والدينية، والاجتماعية.

---

(١) ابن هشام: جـ١ ص ٢٨٤.

(٢) انظر فيما يتعلق بإسلام الرعيل الأول: المصدر نفسه ص ٢٨٧ ـ ٢٩٤.

ولما رأى النبي محمَّد ﷺ ما يصيب أتباعه من العذاب، في الوقت الذي لا يستطيع فيه مساعدتهم، أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة، خشية الفتنة، فهاجر ثلاثة وثمانون من المسلمين إلى بلاد النجاشي في السنة السابعة من البعثة، ومعهم ثماني عشرة امرأة[1].

وحدث أن قوي ساعد المسلمين في مكَّة، واعتز الإسلام باعتناق عمر بن الخطَّاب الدِّين الجديد[2]. فقد كان عمر رجلاً شديد المراس، وجاء إسلامه في الوقت المناسب، وأبدى في خدمة الإسلام الحمية نفسها التي عارضه بها.

ولامت قريش بني هاشم لعدم ردعهم محمَّداً، فاتفق أشرافها وأولو الأمر فيها على حصارهم ومقاطعتهم اقتصادياً، واجتماعياً. استمرت المقاطعة أكثر من سنتين[3]، لم تؤد إلى نتيجة إيجابية، انطلق بعدها النبي محمَّد ﷺ إلى دعوة القبائل الوافدة إلى مكَّة في أيام الحج، بمعنويات مرتفعة.

هجرة النبي محمَّد ﷺ إلى المدينة

عندما جاء الوقت الذي وُجدت فيه التربة الصالحة لنمو المبادىء الإسلامية، كان المجتمع في يثرب يمر في حالة من التفكُّك، تمزقه نار الحرب، ولم تتح له ظروف أبنائه أن يتحدوا، لذلك كان بحاجة ماسَّة إلى تغيير جذري في مبادئه ومفاهيمه، وأُسس تركيبه، وقواعد السلوك فيه، وكان يتطلع إلى هذا التغيير منذ زمن، حتى وجده في مبادىء الدعوة الإسلامية، فاستجاب لنداء محمَّد من دون تردد.

ولا شك أن اختلاف العناصر المكونة لهذا المجتمع من عرب منقسمين على أنفسهم بين أوس وخزرج، ويشكِّلون العنصر الأكثر عدداً، ويهود ينتمون إلى ثلاث قبائل كبرى هي بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، وقبائل أخرى أقل شأناً، كان عاملاً مساعداً في انتشار المبادىء الإسلامية، وبخاصة أن العنصر اليهودي عمد، على عادته في كل زمان ومكان، إلى اتباع سياسة التفرقة بين العرب لتقوية قبضته.

وانتشر الإسلام في يثرب بين الأوس والخزرج بعد بيعتي العقبة[4]. ونصح

---

(١) انظر فيما يتعلَّق بالهجرة الأولى إلى أرض الحبشة، ابن هشام: جـ ٢ ص ٦٩ ـ ٧٦.
(٢) الطبري: جـ ٢ ص ٣٣٥.
(٣) انظر فيما يتعلَّق بالمقاطعة، ابن هشام: جـ ٢ ص ١٠١ ـ ١٠٣، ١٢٢ ـ ١٢٥.
(٤) المصدر نفسه ص ١٧٦ ـ ٢١٠.

محمَّد أتباعه بالهجرة إليها، ثم أذن له ربه بالهجرة، فخرج إليها بصحبة أَبي بكر الصدِّيق. ولما وصل إليها يوم الإثنين (لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول/ ٢٥ من شهر أيلول عام ٦٢٢م)، دخلها وسط ابتهاج المسلمين[1]، واستُبدل اسم يثرب فسميت بـ «مدينة رسول الله أَو المدينة المنوَّرة».

شكَّلت الهجرة إلى يثرب فاصلاً بين عهدين تميَّز كل منهما بمميزات من التشريع تناسبت مع المرحلة التي مرَّت بها الدعوة. ولما انتهى العهد المكي، كانت الهجرة فاتحة مرحلة أخرى ذات طابع خاص ومميزات جديدة، في العمل، والتنظيم، والتشريع، والتخطيط بلا تغيير في الهدف.

خصائص الدعوة المكية

عالج القرآن الكريم في سوره المكية قضية العقيدة، لأنها القضية الأساسية في الدِّين الجديد، والتي تتمثَّل في قاعدتها الرئيسية، الألوهية، والعبودية، وما بينهما من علاقة، إذ لم يكن من مجال لترك الوثنية على حالها، وهي تزداد يوماً عن يوم، فلا بد من المقاومة الشديدة لعبادة الأصنام وتعدُّد الأرباب. ونزلت الآيات تقاوم الوثنية وتحارب منهجها، وتهاجم تعدد الأرباب، ثم تُثبِّت بعد ذلك التوحيد المطلق لله الخالق الواحد القهَّار.

وتضمَّنت الدعوة في مكة عقيدة البعث والجزاء. فالبعث إعادة لحياة كانت، والجزاء هو النتيجة الحتمية والمنطقية للحياة الأولى. وقد أنكر بعض المكيين وجود يوم يبعث الله تعالى فيه العباد أحياء من جديد، فأثبت القرآن وجود اليوم الآخر، حيث يُجزى كل فرد بما عمل، وأبطل نظريتهم عن الحياة والموت.

وعالج القرآن المكي قضية العبادة بوصفها عملية تربط المخلوق بالخالق، وتوجهه نحو الخير.

وتطرَّق القرآن المكي، خلال معالجته قضيَّة العقيدة، إلى القِيَم والخصال التي تقرِّب من الله، ويتمحور معظمها حول الأخلاق، ومعاملة الناس بعضهم بعضاً، والمساواة بينهم، والعفو عند المقدرة، والإصلاح، والصبر، والتغلب على البغي والعدوان.

وقد جاهد النبي محمَّد ﷺ ثلاثة عشر عاماً في مكَّة من أجل زرع هذه العقيدة في التربة المكيَّة وإخراج المفاهيم الفاسدة من عقول الناس.

---

(١) ابن سعد: جـ ١ ص ٢٣٤. ابن هشام: جـ ٢ ص ٢٣٦. الطبري: جـ ٢ ص ٣٨٨، ٣٩٢. السهيلي: جـ ٢ ص ٢٤٥.

أُسس الدولة الإِسلامية

بناء المسجد

تبدأ المرحلة المدينية من حياة النبي محمَّد ﷺ بوصوله إلى قباء في واحة المدينة. وكانت الهجرة تعني نشأة أول دار للإسلام، وهي إيذان بظهور الدولة الإسلامية، ولذا كان على النبي أن يحقِّق الأمن والاستقرار في الداخل ليتفرَّغ لبناء دولة الإِسلام. وكان من أوائل أعماله بناء مسجد للمسلمين والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وتنظيم الوضع الداخلي من الناحية السياسية.

وكان المسجد، في بادىء الأمر، بسيطاً، وهو عبارة عن صحن فسيح يجاور المنزل الذي أقام فيه، وقبلته إِلى بيت المقدس. ونظراً لشدة تعرض المسلمين لحرارة الشمس أقام لهم النبي ظلة (سقف) من جذوع النخل(١).

ظل المسلمون منذ أن هاجر النبي إِلى المدينة يولون وجوههم في الصلاة شطر بيت المقدس طوال ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، ثم حُوِّلت القبلة إِلى الكعبة قبل معركة بدر بشهرين(٢). فأقام النبي ظلة جديدة إِلى الجانب القبلي من المسجد، فأصبح للمسجد ظلتان، ومن أجل ذلك سُمي بمسجد القبلتين(٣).

وتُعدُّ إقامة المسجد أول وأهم ركيزة في بناء المجتمع الإِسلامي والكيان السياسي للدولة المسلمة بوصفه المقر الرسمي لها.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

أضحى للنبي محمَّد ﷺ عند قدومه إلى المدينة أتباعٌ أقوياء، كما أضحت له مكانة سياسية بين أتباعه. وقد سمى أتباعه المكيين بالمهاجرين وأتباعه من أهل المدينة بالأنصار، ثم عمل على توحيدهم برباط الإِسلام.

بدأ بإصلاح ما بين الأوس والخزرج، فأزال من نفوسهم ما كان قد رسب فيها من العداوة القديمة، ثم وحَّد بينهم تحت اسم الأنصار الذين نصروه وأيَّدوا الدعوة الإِسلامية. ثم اتجه إِلى ربط المهاجرين والأنصار برباط الأخوة ليحل جانباً من

---

(١) السمهودي، أبو الحسن بن عبد الله: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى جـ ١ ص ٢٣٢، ٢٣٩.

(٢) انظر نص الآية رقم ١٤٤ من سورة البقرة.

(٣) ابن سعد: جـ ١ ص ٢٤٢. السمهودي: جـ ١ ص ٢٥٨.

مشكلات المهاجرين الاقتصادية، فآخى بين المسلمين جميعاً، على الحق والمؤاساة، وعلى أن يتوارثوا بينهم بعد الموت، بحيث يكون أثر الأخوة الإسلامية في ذلك أقوى من أثر قرابة الرحم(١).

وتُعدُّ المؤاخاة الأساس الثاني الذي اعتمده النبي محمَّد ﷺ في سبيل إنشاء المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية، لأن أية دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلَّا على أَساس وحدة الأمة وتساندها(٢).

الوثيقة الدستورية (الصحيفة)

تعدُّ كتابة الوثيقة بين المسلمين وغيرهم ممن يتكوَّن منهم المجتمع المديني، من أهم ما قام به النبي محمَّد ﷺ فيما يتعلَّق بالقيمة الدستورية للدولة الجديدة. فقد انهمك، خلال الأشهر الأولى من قدومه إلى المدينة، بإيجاد نظام جديد يوحِّد أهل المدينة بمختلف طوائفهم من مسلمين ويهود ومشركين. فأوجد صيغة للعلاقات بينهم وبين السلطة التي أراد تأسيسها، وجعلها الأساس الذي قامت عليه الدولة الإسلامية فيما بعد بمقوماتها التنظيمية والإدارية والسياسية والدينية، فربط أهل المدينة برباط موحد كفل لهم حرية العقيدة والعمل ضمن دائرة معينة. وقد أورد ابن إسحاق نص هذه الوثيقة من دون أن يذكر شيئاً عن الطريقة التي وصلت بها إليه(٣).

ويمكن تقسيم نص الوثيقة إلى ثلاثة أقسام:

الأول: يحدد العلاقة بين المؤمنين، حيث استطاع النبي أن يوحِّد جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، وأن يجعل منهم أمَّة واحدة تربطهم رابطة الإسلام.

الثاني: يحدِّد العلاقة مع المشركين. والواقع أن الوثيقة لم تفصِّل حقوق هؤلاء نظراً لقلة عددهم، إنما أعطتهم الامتيازات نفسها التي منحتها لباقي الطوائف.

الثالث: يحدد العلاقة مع اليهود، وكان عهداً على الموادعة والمسالمة وحرية التصرف ضمن حدود المصلحة العامة مع التسليم بالسلطة العليا لمحمَّد، والتعهد بالدفاع عن المدينة ضد قريش، وعدم مناصرة أي مهاجم لها، أَو عقد أي حلف مع المشركين المحاربين دون إذن منه، مع احتفاظهم بتنظيم شؤونهم الداخلية.

---

(١) ابن سعد: جـ ١ ص ٢٣٨. ابن كثير، الحافظ الدمشقي: البداية والنهاية جـ ٣ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٩.

(٢) البوطي، محمَّد سعيد رمضان: فقه السيرة النبوية ص ٢١٩.

(٣) ابن هشام: جـ ٢ ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢.

وبعد الانتهاء من كتابة الوثيقة وافق الجميع على مضمونها، ووقَّعها كل طرف، وتعاهدوا على العمل بتنفيذ مضمونها. وبذلك يكون النبي محمَّد ﷺ قد حصر بيده السلطتين الدينية والقضائية على المسلمين، والسلطتين السياسية والدفاعية على أهل المدينة جميعاً، وجعل من نفسه الحكم والمرجع لحل كافة النزاعات التي يمكن أن تنشأ من جراء تطبيق بنود الصحيفة. وبهذا العمل التنظيمي يكون قد تفرَّغ للأمور الخارجية.

الغزوات والسرايا الأولى[1]

كانت هجرة النبي محمَّد ﷺ إلى المدينة تحدياً لقريش، وقد خشي التجار والأغنياء في مكَّة أن يوجه إليهم جيشاً من أتباعه يغير على قوافلهم التجارية أثناء مرورها بمنعرج المدينة ليعوِّضوا بعض ما فقدوه أو تركوه بعد هجرتهم، ويشكِّل هذا العمل إذا ما تحقَّق نكبة كبيرة تصيب تجارتهم، لذلك طلبوا من كبار تجار المدينة وأغنيائها من اليهود الحماية حين تمر قوافلهم في صحراء المدينة في طريقها إلى بلاد الشام أو العودة منها.

أما النبي محمَّد ﷺ فراح يهيىء رجاله للكفاح بعد أن أذن الله له بالقتال دفاعاً عن النَّفس والعقيدة[2]، ويُعدُّهم لخوض المعارك بتدريبهم ورفع معنوياتهم فلا يتخاذلون عند اللقاء. ثم تسلَّم زمام المبادرة وبدأ يتحدى قريشاً بمهاجمة قوافلها التجارية بوصفها مصدر حياة القريشيين، وأساس قوتهم، كما استهدف عمله هذا إنذار أعداء الدولة الناشئة من غير قريش بأن المسلمين قادرون على الرد ومستعدون للتصدي لأي عدوان.

ونفَّذ المسلمون أربع غزوات وثلاث سرايا خلال الثمانية عشر شهراً الأولى بعد الهجرة[3]، أُرسلت ست منها لمهاجمة القوافل التجارية، كانت نتائجها ضئيلة نسبياً، إنما جذبت الأعراب المجاورين للمدينة، فوادعوا المسلمين، وكانت مساعدة هؤلاء ضرورية لنجاح حملاتهم العسكرية.

حصلت المواجهة المسلَّحة الأولى بين سرية إسلامية مؤلَّفة من تسعة أشخاص بقيادة عبد اللَّه بن جحش، وقافلة تجارية مكية يرافقها أربعة أشخاص بقيادة

---

(١) الغزوة: هي ما خرج فيها النبي مع المقاتلين. والسرية، أو البعث: ما لم يخرج فيها بنفسه، وقد يُطلق على السرية غزوة كما في غزوة مؤتة وغزوة ذات السلاسل.

(٢) انظر الآيتين ٣٩ ـ ٤٠ من سورة الحج.

(٣) ابن هشام: جـ ٢ ص ١٨ ـ ٢٥.

عمرو بن الحضرمي، في نخلة، نتج عنها مقتل قائد القافلة وأسر اثنين وفرار الرابع[١].

والواقع أن النبي محمَّد ﷺ أرسل عبد اللّٰه بن جحش ليترصد القوافل التجارية ولم يطلب منه مهاجمتها، لأن خروجه كان في شهر رجب وهو أحد الأشهر الحرم، لكن ابن جحش اجتهد في تقدير الموقف، فهاجم القافلة، وعاد إلى المدينة، فرفض النبي توزيع الغنيمة، ولم يقبل نصيبه من الخمس، حتى نزلت آية قرآنية برَّرت تصرُّف ابن جحش وأباحت مثل هذا العمل بعد تعدي أهل مكة على المسلمين[٢].

غزوة بدر

وقعت الغزوات والسرايا الأولى تحت سمع وبصر القريشيين الذين وجدوا أنفسهم عاجزين عن وضع حدٍ لها، إنما استغلوا حادثة سرية نخلة التي وقعت في الشهر الحرام لإثارة العرب ضد المسلمين، ومهاجمة المناطق المجاورة للمدينة، وهي الشرارة التي أشعلت الحرب بين المسلمين وقريش.

بدأ أهل مكة يشدِّدون حراستهم على قوافلهم التجارية، وعلم النبي، خلال العام الثاني من الهجرة، بقدوم قافلة كبيرة لقريش من الشام في طريقها إلى مكة بقيادة أَبي سفيان بن حرب، فقرَّر أن يضع يده عليها، وانتدب أصحابه لذلك، واستطاع أن يجنِّد ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، كانوا على درجة من الفقر بحيث لم يتمكَّنوا من توفير أكثر من سبعين بعيراً وجوادين لاستخدامهم في الحملة، خرج بهم من المدينة لثمان ليال مضت من شهر رمضان[٣].

ويبدو أن أبا سفيان علم مبكراً بخروج المسلمين، فتصرَّف على محورين:

الأول: أرسل إلى مكة يستنفر أهلها ويطلب النجدة.

الثاني: غيَّر طريقه.

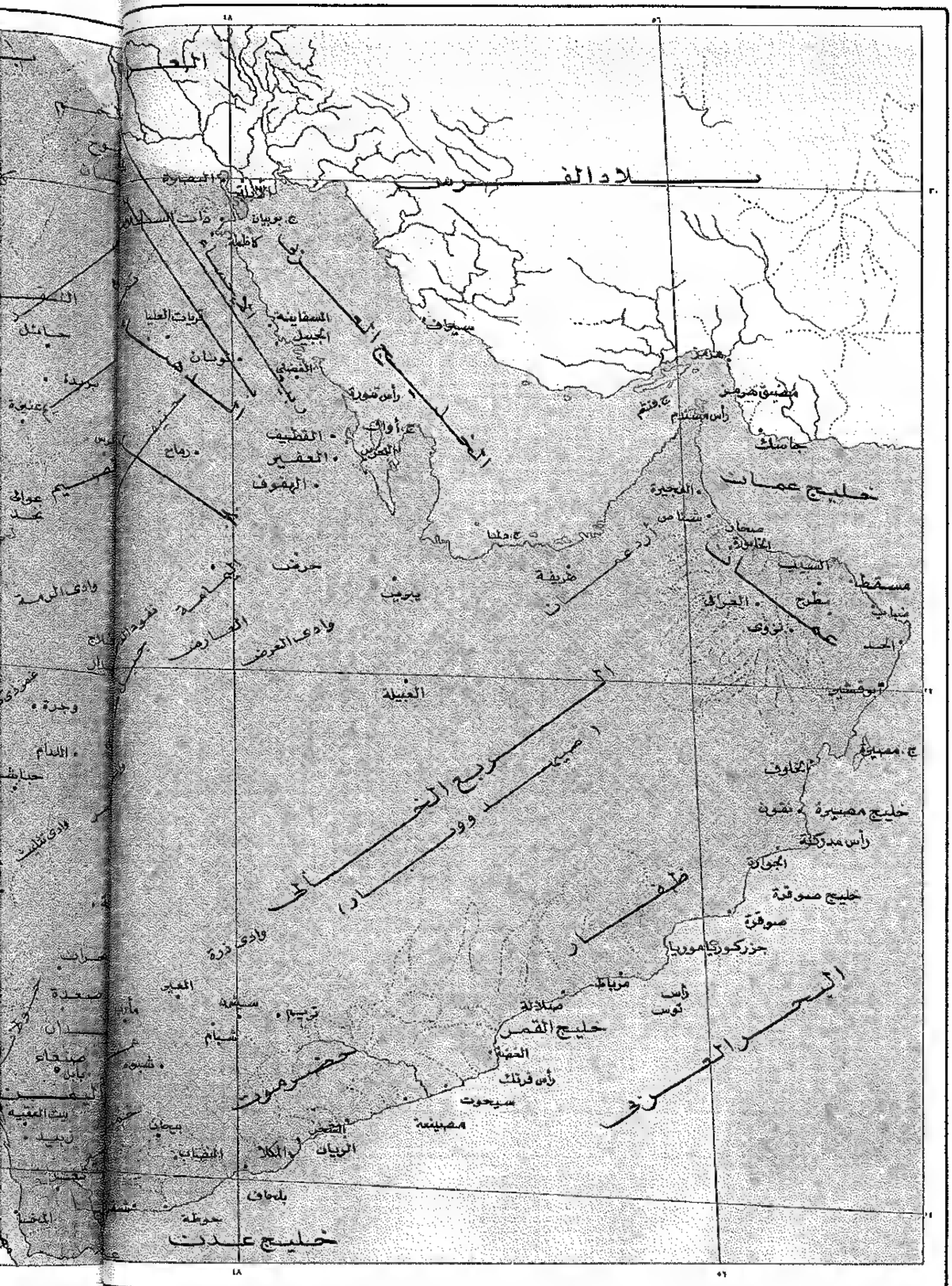
استجابت قريش لنداء أَبي سفيان، فأرسلت قوة عسكرية تضم تسعمائة وخمسين مقاتلاً بقيادة أَبي جهل. وتدل أهمية هذه القوة على أن أبا جهل أراد إلقاء الرعب في قلوب المسلمين ومنعهم من مهاجمة القوافل التجارية القريشية في المستقبل..

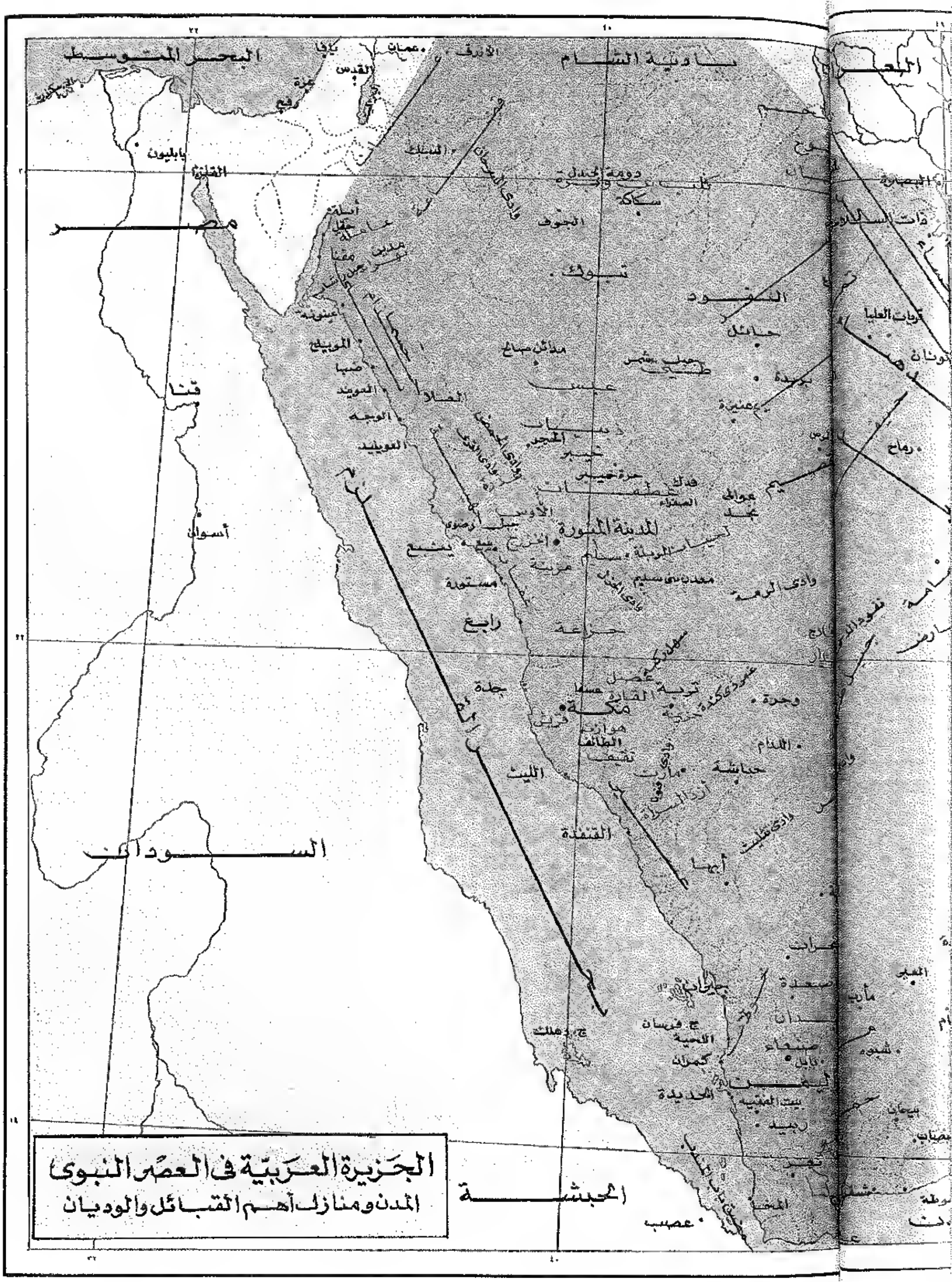
---

(١) ابن هشام: جـ ٣ ص ٢٢ ـ ٢٥. ونخلة مكان بين المدينة ومكة.

(٢) انظر الآية: ٢١٧ من سورة البقرة.

(٣) ابن هشام: جـ ٣ ص ٣٢.


بلاد الفرس
البصرة
ج. بوبيان
كاظمة
الجبيل
رأس تنورة
أوال
البحرين
القطيف
العقير
الهفوف
رماح
حرض
يبرين
ج. دلما
طريفة
قشم
مضيق هرمز
رأس مسندم
جاسك
خليج عمان
العجيرة
شناص
صحار
السيب
مسقط
مطرح
نزوى
العراقي
الحد
عمان
العبيلة
وادي العرض
صحراء الربع الخالي
ج. مصيرة
خليج مصيرة
رأس مدركة
الجوازر
خليج صوقرة
صوقرة
جزر كوريا موريا
ظفار
مرباط
صلالة
خليج القمر
رأس فرتك
سيحوت
مصينعة
الشحر
الريان
المكلا
بلحاف
حضرموت
وادي ذرة
تريم
شبام
شبوة
مأرب
صعدة
صنعاء
بيت الفقيه
زبيد
المخا
خليج عدن
البحر العربي



الجزيرة العربية في العصر النبوي
المدن ومنازل أهم القبائل والوديان

والتقى الطرفان عند وادي بدر الذي يقع على مسافة عشرين ميلاً جنوبي المدينة في (السابع عشر من شهر رمضان عام ٢هـ/ شهر آذار عام ٦٢٤م)، أسفر عن انتصار واضح للمسلمين، وخسرت قريش سبعين قتيلاً بينهم أَبي جهل بالإضافة إلى سبعين أسيراً[١].

شكَّل هذا الانتصار حجر الزاوية في التاريخ المبكر للإسلام. فقد كان أول اصطدام جدِّي مسلَّح بين المسلمين وقريش انتصر فيه المسلمون انتصاراً واضحاً على الرغم من قلَّة عددهم وعتادهم. وعاد المسلمون إلى المدينة ومعهم الأسرى والغنائم. وقَتَل النبي من هؤلاء الأسرى من كان شديد الأذى والاضطهاد للمسلمين في مكة، في حين أطلق سراح الباقي لقاء الفدية. ونجا أَبو سفيان، وعاد إلى مكة لينذِر المسلمين بالانتقام[٢].

ذيول غزوة بدر

ـ أدرك النبي محمَّد ﷺ أنه كُتب عليه القتال الشامل ضد قريش، لذلك كرَّس معظم وقته لتقوية المسلمين.

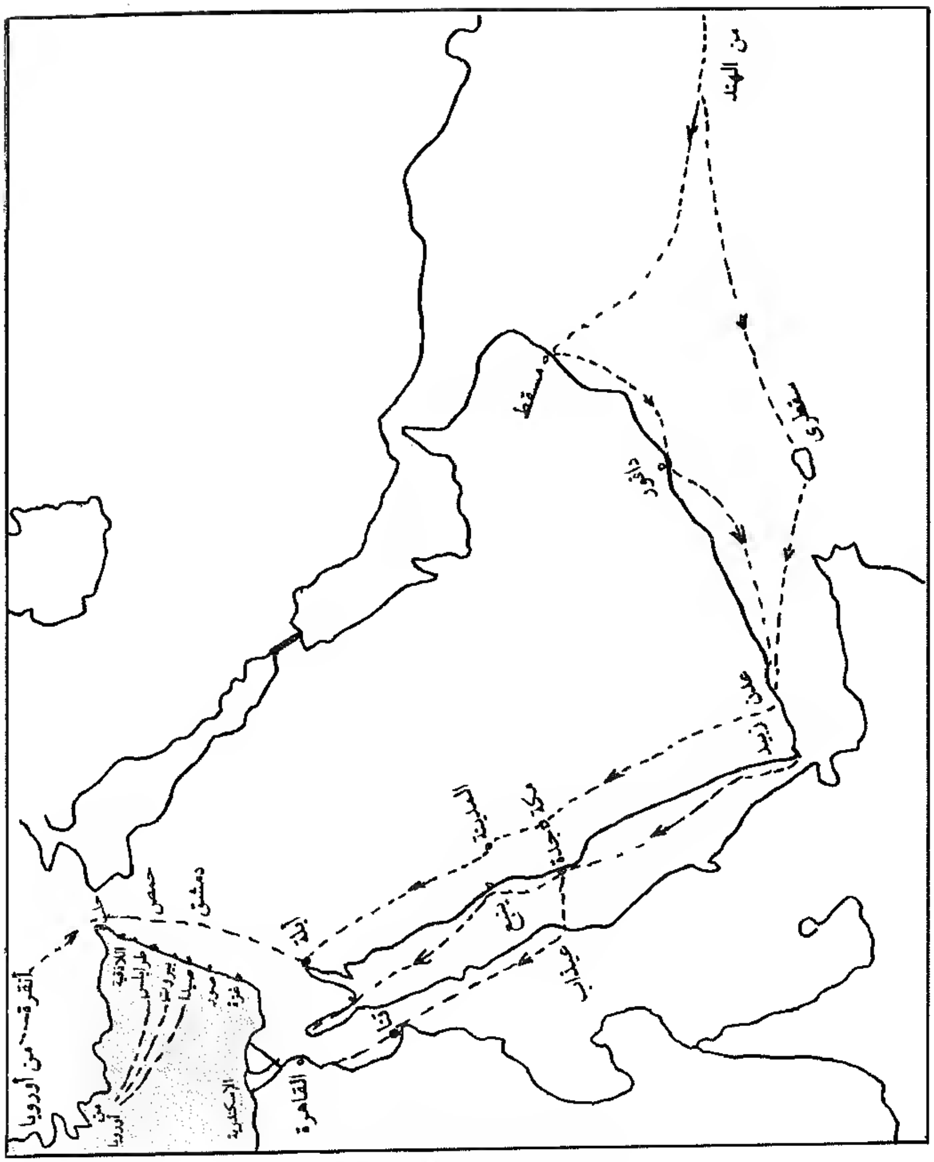
ـ تأثَّرت قريش كثيراً بفقدان معظم أشرافها. وتسلم أَبو سفيان زمام الأمور في مكة، فاتخذ قراراً أولياً بمنع الحداد مدة من الزمن كي لا يتمتع المسلمون بثمرات النصر، كما نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو المسلمين[٣].

ـ حقَّق انتصار المسلمين الغاية الاقتصادية، وهي فرض حصار اقتصادي على العدو وإرباكه وإيقاع الاضطراب في صفوفه، بدليل إقدام قريش على تغيير طريق تجارتها إلى الشام، فلم تعد تخاطر بسلوك طريق الشمال، واتخذت طريقاً جديدة تمر عبر مضارب بني سُليم، فأنذر النبي هؤلاء بعدم مساعدة قريش، فرفضوا ذلك معتمدين على هيبتهم وسمعتهم الحربية غير مبالين بتنامي قوة المسلمين، فاضطر النبي إلى غزو مضاربهم، كما غزا قبيلة غطفان[٤].

ـ استفاقت قريش بعد عدة أسابيع، من صدمتها، فقاد أَبو سفيان قوة عسكرية من مائتي مقاتل توجَّه بها إلى المدينة ليعيد الثقة إلى القريشيين وليبرَّ بقسمه، فوصل إلى ضواحيها، واستضافه سيد بني النضير، وأمدَّه بمعلومات وافية عن أوضاعها[٥].

---

(١) ابن هشام: جـ٣ ص ٣٣ ـ ٤٣.
(٢) المصدر نفسه: ص ٥٦ ـ ٦١.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٣٦.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٣٥ ـ ١٣٦.
(٥) المصدر نفسه: جـ٣ ص ١٣٦.



طريق التجارة الشرقية الجنوبي

ويبدو أنه توصَّل خلال ذلك إلى عقد محالفة مع يهود بني قينقاع بفعل المصالح المشتركة، فنقض هؤلاء ما بينهم وبين المسلمين من كتاب الموادعة. والجدير بالذكر أن هؤلاء اليهود انزعجوا من انتصار المسلمين في الوقت الذي لم يكن بوسعهم مواجهتهم عسكرياً، لذلك أخذوا يدسُّون عليهم، ثم تحدَّوا النبي الذي صبر عليهم ولكن إلى حين.

والواقع أن النبي محمَّد ﷺ حرص على ألاّ يتعرَّض لليهود حتى لا يثير حفظيتهم فيتحرَّج موقفه، إلَّا أنه لم يستطع أن يقف مكتوف اليدين تجاه تصرفاتهم العدائية ونقضهم مضمون الوثيقة، وقد توتر الجو السياسي بين الطرفين حتى وصل إلى درجة الصدام، وقد أشعله مضايقة اليهود لامرأة مسلمة في سوق بني قينقاع، وقَتْلهم رجلاً مسلماً، فجمع النبي أتباعه وألقى الحصار على حي بني قينقاع مدة خمسة عشر يوماً حتى استسلموا، فأخرجهم النبي من المدينة، فاستقروا في خيبر، وكان عددهم سبعمائة[١].

غزوة أُحُد

تمدنا المصادر بمعلومات مستفيضة، حول معركة أُحُد، وهي الموقعة الحربية التي جرت عند جبل أُحُد في (منتصف شهر شوال عام ٣هـ/ شهر نيسان عام ٦٢٥م)، وتُجمع على أنها نتيجة للهزيمة التي لحقت بقريش في معركة بدر.

فقد قاد أبو سفيان ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والأحابيش وعرب كنانة وتهامة، وخرج بهم يريد المدينة مصطحباً معه الظعن لإثارة حماس المقاتلين، ومنعهم من الفرار؛ حتى بلغ أُحُد، وهو أقرب مكان من المدينة، وخيَّم في الوادي الواسع بعينين مقابل المدينة، وأعدَّ خطة عسكرية محكمة للقضاء على قوة المسلمين النامية مستعملاً كل الأساليب الممكنة، فكان على اتصال سري مع خصوم النبي في المدينة، كما لجأ إلى الشعر للتحريض على القتال[٢].

وتلقَّى النبي رسالة من عمِّه العباس في مكة يعلمه فيها بخروج قريش، فعقد على الفور اجتماعاً مع أصحابه للتشاور. وانقسم المجتمعون إلى فريقين، فريق رأى الخروج من المدينة للقاء العدو، وهم الشباب المتحمِّس للقتال، ومن لم يشهد بدراً، وقد شكَّلوا الأكثرية العددية، وفريق آثر البقاء في المدينة للاستفادة من

(١) ابن هشام: ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٢) المصدر نفسه: جـ ٣ ص ١٤٨.

تحصيناتها ومناعتها، ومن مساعدة النساء والأطفال فيها، وهم كبار الصحابة، وكان هذا هو رأي النبي، ورأي عبد اللّه بن أُبي بن سلول[1] كبير المنافقين وأحد زعماء المدينة المشهورين.

ونزل النبي على رأي الأكثرية، فلبس لامته، وحثَّ المسلمين على الصبر والثبات. وعسكر المسلمون البالغ عددهم سبعمائة مقاتل، بعد أن انسحب عبد اللّه بن أُبي بن سلول مع أتباعه البالغ عددهم ثلاثمائة مقاتل، وفق خطة محكمة لإضعاف قوة المسلمين؛ في أقصى الوادي محتمين بجبل أُحُد[2]. وبهذا العمل التكتيكي يكون النبي قد فصل جيشه عن المدينة التي باتت معزولة.

كانت خيالة قريش تشكِّل مصدر قلق له، فاحتاط لهذا الأمر ووضع خمسين رجلاً على نقاط مختلفة من الجبل وأمرهم بأن يمنعوا فرسان قريش من الالتفاف على المسلمين، وألا يغادروا أماكنهم مهما تكن نتيجة المعركة[3].

وتعبَّأ الفريقان للقتال، وجرت بينهما معركة قاسية، وكاد انتصار المسلمين أن يكون محققاً لولا أن تغيَّر وجه المعركة فجأة. فقد ترك معظم أفراد القوة الإسلامية المتمركزين على الجبل أماكنهم، ليشاركوا في جمع الغنائم، مخالفين بذلك أوامر النبي، فاستغل خالد بن الوليد قائد ميمنة قريش هذا التصرُّف اللامسؤول، وقاد فرسانه في حركة التفاف على مؤخرة المسلمين وهم عاكفون على التقاط الغنائم. اضطرب هؤلاء لهذه المفاجأة، واختل نظامهم، بينما كرَّت قريش عليهم، وخاضت المعركة في ظروف مغايرة. ووجد المسلمون أنفسهم وقد وقعوا تحت ضربات السيوف القريشية. وقُتل حمزة عم النبي على يد وحشي، كما قُتل مصعب بن عمير، حامل اللواء، وأصيب النبي نفسه.

ويبدو أن قريشاً اكتفت من الحرب بتلك النتيجة، على الرغم من أن انتصارها لم يكن تاماً. وترك أبو سفيان أرض المعركة دون أن يستثمر انتصاره. وقد أمر النبي بجمع قتلى المسلمين البالغ عددهم سبعين قتيلاً، فصلّى عليهم ودفنهم ثم عاد إلى المدينة[4].

والواقع أن الخسارة لم تنل من قوة المسلمين، وكان للنبي دور كبير في رفع معنويات رجاله، وهي اختبار لمعرفة مدى تمسُّكهم بدينهم، وصلابتهم. وكانت

---

(١) ابن هشام: ج ٣ ص ١٤٨ ـ ١٤٩.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٥٠.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) انظر تفاصيل اللقاء العسكري بين الفريقين عند ابن هشام: ج ٣ ص ١٥٠ ـ ١٥٨.

معركة أُحُد موضوع الآيات القرآنية من سورة آل عمران من ١٢١ إلى ١٨٠، وقد نزلت بعد المعركة، وتشكل مادة تنبيه وتنوير وتوجيه في جو كتيم، تعطي المسلمين، على مر العصور، العبرة والتربية للنفس على ضوء ما كشفته من أخطاء في التصرف، واضطراب في الموقف، وكانت فرصة للارتفاع فوق مستوى الأحداث.

ذيول غزوة أُحُد

ـ أدرك أَبو سفيان وسائر الزعماء القريشيين، قبل وصولهم إلى مكة، أنهم في وضع حرج، فقد بذلوا جهداً كبيراً ولم يفوزوا بشيء، وأن الكارثة بانتظارهم، إلّا إذا استطاعوا القيام بعمل أفضل. وكانت الإمكانية الوحيدة في نظرهم هي في إعداد جيش أقوى يجابهون به قوة المسلمين، ولا يتيسر ذلك إلّا بالحصول على مساعدة بعض القبائل الكبرى الضاربة حول المدينة، لذلك كرَّسوا جهودهم بعد أُحُد من أجل هذه الغاية.

ـ استخفَّت بعض القبائل بقوة المسلمين بعد أُحُد، فتجرَّأت بالاعتداء عليهم. من ذلك ما فعلت عضل والقارة، في يوم الرجيع، من الغدر بالمسلمين[١]، وبنو سُليم في يوم بئر معونة، من قتال المسلمين[٢]. وتمثل أحداث الرجيع الظروف التي كان يعيشها النبي، وتُعدُّ حادثة بئر معونة مثالاً على الصعوبات التي كان يواجهها باستمرار. أما سياسته فقد تركَّزت على استباق كل حركة معادية له.

ـ بلغ الاستخفاف بالمسلمين أن أقدم بنو النضير على تدبير مؤامرة للتخلُّص من النبي محمَّد ﷺ، فأنذرهم بالجلاء عن المدينة، ولما رفضوا حاصرهم ست ليال، وفي رواية خمسة عشر يوماً، أعلنوا بعدها أنهم على استعداد للخضوع لشروطه، فعرض عليهم التخلِّي عن أسلحتهم ومغادرة المدينة، فخرجوا إلى خيبر، وسار بعضهم إلى الشام[٣].

غزوة الخندق (الأحزاب)

لم يكن طرد بني النضير نهاية الصِّدام بين المسلمين واليهود، فقد استمر هؤلاء في التآمر من خيبر، ونسَّقوا مع قريش، وقاموا بدور كبير في إنشاء الحلف الذي حاصر

---

(١) انظر تفاصيل يوم الرجيع عند ابن هشام: ج ٣ص٢٢٤ ـ ٢٣٠.

(٢) انظر تفاصيل يوم بئر معونة، المصدر نفسه: ص ٢٣٠ ـ ٢٣٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢. وقارن بابن كثير: البداية والنهاية ج ٤ ص ٧٥.

المدينة في (شهر شوال عام ٥هـ/ شهر آذار عام ٦٢٧م)، واستمالوا غطفان[١].

وتهيأت الأحزاب للخروج إلى المدينة بقيادة أَبي سفيان، وقد بلغ عددهم عشرة آلاف مقاتل، وجمعتهم مصلحة مشتركة، هي القضاء على قوة محمَّد النامية وتشتيت أتباعه، وعسكروا خارجها، بانتظار خروج المسلمين للاصطدام بهم[٢]. لكن النبي اتَّبع هذه المرة خطة عسكرية مختلفة بعدما أدرك أنه لا يستطيع تجنيد أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل، وبالتالي فإن التورط في صدام مسلَّح معهم قد يعيد مأساة أُحُد، فقرر اتخاذ موقف دفاعي داخل المدينة، وحفر خندقاً في منطقتها الشمالية، وفي الأماكن التي يمكن أن تتعرَّض منها لهجوم الخيالة. وتذكر الروايات التاريخية بأن سلمان الفارسي هو الذي أشار على النبي بهذا العمل الذي لم تكن العرب تعرفه[٣]. والجدير بالذكر أن الأماكن الأخرى كانت محصَّنة بالجبال والنخيل والبيوت.

وحاصرت القوَّات المتحالفة المدينة قرابة أربعين يوماً دون أن تنال منها، فمال أَبو سفيان إلى استمالة يهود بني قريظة للسماح لقوَّاته بدخول المدينة عبر حيِّهم، وجرى اتفاق بين الطرفين حدَّد دور كل منهما[٤]، وبذلك يكون يهود بني قريظة قد نقضوا وثيقة العهد مع المسلمين.

اشتد خوف المسلمين عندما علموا بهذا الاتفاق، فحاول النبي التخفيف من وطأة ذلك عليهم، فأجرى مباحثات مع غطفان للانسحاب من الحلف مقابل منحها ثلث غلة المدينة، لكن كلاً من سعد بن عبادة سيد الخزرج، وسعد بن معاذ سيد الأوس، رفضا هذه الخطة، وصمَّما على المقاومة[٥].

وقام، خلال ذلك، نعيم بن مسعود الأشجعي الذي أسلم حديثاً وكتم إسلامه عن قومه بدور كبير في إفشال اتفاق الأحزاب مع بني قريظة. وفي الوقت نفسه، تعرَّض جيش الأحزاب إلى عوامل طبيعيَّة قاسية مثل حدوث رياح شديدة، وتساقط أمطار غزيرة؛ مما فتَّ في عضدهم، وقضى على معنوياتهم، فغادروا المكان متفرقين[٦].

---

(١) الطبري: جـ ٢ ص ٥٦٤.

(٢) ابن هشام جـ ٣ ص ٢٥٩. الطبري: المصدر نفسه: ص ٥٧٠.

(٣) الطبري: المصدر نفسه ص ٥٦٦، ٥٧٠.

(٤) المصدر نفسه: ص ٥٧٠ ـ ٥٧١.

(٥) ابن هشام: جـ ٣ ص ٢٦٢.

(٦) المصدر نفسه: ص ٢٦٦.

ذيول غزوة الخندق

ـ فشلت قريش في القضاء على النبي والمسلمين، وأضحى مستقبلها مهدداً على الرغم مما بذلت من جهود، بينما قوي نفوذ النبي ﷺ في المدينة.

ـ تابع النبي سياسة تنفيد الغزوات والغارات على قوافل قريش التجارية طيلة السنة الخامسة للهجرة، واتسعت شمالاً حتى وصلت إلى الحدود البيزنطية، واستطاع من خلالها أن يُغلق طريق القوافل التجارية من مكة باتجاه الشمال، كما استخدم محالفاته مع القبائل الضاربة في الشمال لتقوية الحصار الذي فرضه على تجارة مكَّة.

ـ توقفت تجارة مكة مع بلاد الشام، وفقدت قريش الكثير من مكانتها، فلم يعد زعماؤها، أو من بقي منهم، يأملون بالاحتفاظ بثرواتهم ومكانتهم.

ـ بعدما فرغ النبي محمَّد ﷺ من أمر الأحزاب، استدار نحو بني قريظة، لمعاقبتهم على تآمرهم وعلى ما اقترفوه في حقِّ المسلمين، فحاصرهم مدة خمسة وعشرين يوماً اضطروا بعدها إلى الاستسلام، ونزلوا على حكم حليفهم السابق سعد بن معاذ، فحكم بقتل الرِّجال وتقسيم الأموال وسبي الذراري والنساء، ورضي النبي بهذا الحكم وأمر بتنفيذه[1].

غزوات المرحلة بعد حصار المدينة

تقوم أهمية هذه المرحلة الزمنية الممتدة بين نهاية حصار المدينة، وصلح الحديبية، على ظهور اتجاهات جديدة في سياسة النبي محمَّد ﷺ، وكان قد كرَّس جهده، من قبل، للنضال ضد مكَّة، بهدف القضاء على نفوذ المكيين، ولكن يبدو بوضوح بعد انتهاء حصار المدينة أن أهدافه كانت أوسع وأجدر برجل دولة. كان الجانب الديني من الأحداث رئيساً بالنسبة إليه، مدركاً في الوقت نفسه الجوانب السياسية القاضية بدعوة العرب جميعاً إلى الإسلام.

والواقع أن جزءاً من الحوادث التي وقعت في غضون ذلك جاءت نتيجة لفشل قريش في الحصار والنيل من المدينة. حدث أولاً عقاب بني قريظة كما أشرنا، كما هاجم المسلمون مضارب غطفان، وأرسل النبي عدة حملات صغيرة ضد قبائل أخرى متحالفة مع قريش، لا سيما أسد وثعلبة وبني بكر وبني كلاب وبني لحيان، بهدف إنذارها بألاّ تحاول مهاجمة المدينة من جهة أو تُجدِّد التحالف مع مكة من جهة أخرى.

---

(١) ابن هشام: جـ ٣ ص ٢٦٧ ـ ٢٧٦.

صلح الحديبية

بلغ النبي محمَّد ﷺ أن تحالفاً عسكرياً عُقد بين قريش في الجنوب ويهود خيبر في الشمال، بهدف جعل الدولة الإسلامية الناشئة بين فكي الكماشة، والإطباق عليها عندما تسمح الظروف بذلك. ولما لم يكن بمقدوره آنذاك إفشال هذا التحالف عسكرياً، فكَّر بإفشاله سياسياً عن طريق التفاهم مع أقرب العدوين إليه ألا وهو قريش. فأعلن في أواخر السنة السادسة للهجرة أنه يريد العمرة، فخرج معتمراً قاصداً مكة وساق معه الهدي. ويبدو أن القريشيين لم يقتنعوا بنيَّاته السلمية، وتجهزوا للحرب. وعسكر النبي في الحديبية الواقعة على حدود المنطقة الحرام إلى مكة، على بُعد مسيرة يوم إلى الغرب منها. وجرت مفاوضات بين الطرفين، عرض النبي خلالها عدم التعرض لقوافلهم التجارية إذا رضوا أن يؤدي شعائر العمرة. وافق القريشيون على هذا العرض، واشترطوا مضي عام من السلم قبل تنفيذه. وافق النبي من جهته على هذا الشرط، وتمَّ عقد الاتفاق على الأسس التالية:

- تضع الحرب أوزارها بين الفريقين مدة عشر سنوات.
- يعود المسلمون من مكة هذا العام دون أداء العمرة على أن يدخلوها في العام التالي.
- يردُّ النبي من يأتيه من قريش مسلماً بدون إذن وليِّه.
- لا تلزم قريش بردِّ من يأتي إليها من المسلمين.
- للقبائل حرية الدخول في عهد الطرف الذي تختاره[١].

دُهش بعض أصحاب رسول الله ﷺ لقبوله الصلح على هذا الشكل وأصيبوا بخيبة الأمل، منهم عمر بن الخطَّاب، إلَّا أن النبي عالج هذه المشكلة بحكمة وسدادة رأي، فأجاب عمر قائلاً: (أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعني)[٢].

والواقع أن هذا الصلح كان لصالح المسلمين، فهو يدل على ضعف قريش وتراجع قوتها، كما أنَّه اعتراف صريح منها بالمساواة بينها وبين المسلمين، وهذا تنازل مهم يسمح للقبائل بفسخ تحالفها مع مكة والانضمام إلى صفوف المسلمين، كما فعلت خزاعة. والنبي من جهته كان مستعداً لعقد الصلح مع قريش إذا تركت له حرية دعوة القبائل.

---

(١) ابن هشام: ج ٤ ص ٢٤ ـ ٣٣.
(٢) المصدر نفسه: ج ٤ ص ٢٨.

كانت المعاهدة، بشكل عام، تخدم سياسة النبي البعيدة المدى، وقد عدَّ بعض المؤرخين هذا الصلح فتحاً عظيماً للإسلام[1].

كُتب النبي إلى الملوك والأُمراء

أتاح صلح الحديبية للنبي حرية التحرك. ولما كانت الدعوة الإسلامية عامة، فإنه كَتَبَ إلى الملوك والأمراء المجاورين يدعوهم إلى الدخول في الإسلام، وهم هرقل أمبراطور الروم، والحارث بن أبي شمر الغساني، والنجاشي ملك الحبشة، وكسرى فارس، والمقوقس في مصر، وهوذة الحنفي أمير اليمامة، والمنذر صاحب البحرين، وجيفر وعيّاد ابنا الجلندى وهما من الأزد، ملكا عُمان.

تفاوتت ردود هؤلاء، فمنهم من أحسن الرد، كالنجاشي والمقوقس، ومنهم من أساء الرد كملك غسان وكسرى فارس[2].

غزوة خيبر

نتيجة لما آل إليه وضع يهود المدينة بخاصة، وإخفاق يهود الجزيرة العربية بعامة، من النيل من النبي محمَّد ﷺ ودعوته؛ برز يهود خيبر تدفعهم رغبة الثأر بتحريض من زعماء بني النضير، وقرَّروا الإغارة على المدينة. كان هذا سبباً كافياً حمل النبي محمَّد ﷺ على مهاجمة خيبر الواقعة إلى الشمال الشرقي من المدينة على بُعد ما يقرب من ستة أيام منها، فخرج بسرعة وسريَّة تامة، فوصل إليها في (شهر محرم عام ٧هـ/ شهر أيار عام ٦٢٨م) دون أن يشعر اليهود بذلك، وقد فوجئوا بوجود المسلمين وهم يحاصرونهم.

كانت خيبر تحتوي على عدة حصون أقيم كثير منها على رؤوس الجبال، وقد هاجمها المسلمون حصناً حصناً حتى فتحوها في ظل مقاومة عنيفة من أهلها، ثم اتفق النبي معهم على البقاء في أراضيهم وزراعتها شرط أن يعطوا نصف المحصول إلى المسلمين[3].

غزوة مؤتة

اهتمَّ النبي محمَّد ﷺ اهتماماً كبيراً بطريق الشمال التجارية وبخاصة منذ احتكاكه بقريش، وذلك لمضايقة تجارتها والانفتاح على القبائل الضاربة على هذه

---

(١) الطبري: ج ٢ ص ٦٣٨.
(٢) ابن هشام: ج ٤ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.
(٣) ابن هشام: المصدر نفسه ص ٣٩ ـ ٤٤.

الطريق، لموقعها الجغرافي المهم في سياسته من جهة، وهدفه في توحيد العرب ثم التوسُّع شمالاً خارج الجزيرة العربية من جهة أخرى.

وتدل سرية مؤتة على هذا التوجه. أما السبب المباشر لهذه الغزوة فهو إقدام شرحبيل بن عمرو الغساني على قتل رسول النبي الذي حمل كتابه إلى الغساسنة، فجهَّز النبي سرية من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة زيد بن حارثة، توجهت نحو الشمال (شهر جمادى الأولى عام ٨هـ/ شهر أيلول عام ٦٢٩م) والتقى أفرادها بجيش بيزنطي يضمِ عدداً من القبائل العربية، عند قرية مؤتة، وهي إحدى قرى البلقاء.

لم توفق الحملة في مهمتها، وهُزمت أمام الجيش البيزنطي الذي يفوقها في العدد. وقد عاد خالد بن الوليد بالحملة إلى المدينة بعد مقتل ثلاثة من قادتها هم زيد بن حارثة، وجعفر بن أَبي طالب، وعبد اللّه بن رواحة[١]، وعلى الرغم من ذلك فإن الهزيمة لم تؤثِّر في كيان المسلمين، فقد كانت الدعوة الإسلامية آخذة في الانتشار، ووفدت القبائل إلى المدينة تعلن دخولها في الإسلام[٢].

فتح مكة

شعر المكيون بعد صلح الحديبية أن مدينتهم آخذة في الزوال، وقد انقسموا إلى فريقين من حيث وضوح الرؤية السياسية: فريق يضم شيوخ مكة وأصحاب المصالح فيها، وقد أرادوا الاستمرار في النزاع مع المسلمين، وفريق يضم الشباب الذي أدرك أنَّه لا مستقبل له في مكة بعد تزايد قوة المسلمين وتراجع قوة المكيين.

وحدث في العام الثامن للهجرة أن أخلَّ القريشيون بشروط الصلح عندما ساعدوا حلفاءهم من بني بكر بالسلاح ضد بني خزاعة حلفاء النبي، ففجَّرت هذه القضية الصراع من جديد. فخرج النبي محمَّد ﷺ من المدينة في (شهر رمضان عام ٨هـ/ شهر كانون الثاني عام ٦٣٠م)، على رأس عشرة آلاف مقاتل متوجهاً إلى مكة، وتمكَّن من دخولها سلماً من أربعة محاور، باستثناء ما صادف فرقة خالد بن الوليد من المقاومة، التي سرعان ما قضى عليها.

ولما دخل النبي مكة طاف بالبيت سبعاً وأمر بإزالة الأصنام، ثم خطب خطبته المشهورة معلناً العفو العام باستثناء عدد من الأفراد نظراً لجرائمهم الكبيرة، وأقام بها خمسة عشر يوماً، أَو عشرين يوماً، رتَّب خلالها أمورها الإدارية لا سيما تحديد

(١) ابن هشام: جـ ٤ ص ٧٠ ـ ٧٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٠٣ ـ ٢٢٠.

المنطقة الحرام، وألغى كافة الامتيازات التي كانت تتمتع بها قريش[1].

غزوة حنين

استغلت هوازن ضعف سلطة قريش في مكة، فقرَّرت ملء هذا الفراغ، وقد رأت في سيطرة المسلمين على مكة تهديداً مباشراً لها، فحشدت الجيوش وزحفت باتجاهها، وناصرها بنو ثقيف الذين راودهم الأمل في الاستقلال عن قريش. ومن جهته، خرج النبي من مكة على رأس عشرة آلاف مقاتل عندما سمع بهذا الزحف. والتقى الطرفان في وادي حنين في معركة قاسية خلال (شهر شوال عام ٨هـ/ شهر شباط عام ٦٣٠م)، لاح النصر في بدايتها لهوازن، لكن النبي أعاد تنظيم صفوف قواته خلال إحدى مراحل المعركة، ونجح في تأمين النصر النهائي. وتراجعت ثقيف إلى الطائف للاحتماء بمدينتها[2].

غزوة الطائف

توجه النبي بعد انتصاره في حنين إلى الطائف وحاصرها مدة خمسة عشر يوماً، ثم فكَّ الحصار عنها لدخول الأشهر الحرم وهو عاقد العزم على العودة إليها. لكن حدث أن رأى الثقفيون أنفسهم عاجزين عن التصدي للمسلمين أو الوقوف في وجههم، وبخاصة أن معظم قبائل الجزيرة العربية قد دخلت في الإسلام، فأرسلوا وفداً إلى النبي، عارضين عليه الدخول في الإسلام[3].

غزوة تبوك

إنها محاولة للرد على الهزيمة التي لقيها المسلمون في مؤتة، ودعوة القبائل الضاربة في الشمال على الحدود البيزنطية، للدخول في الإسلام. وقد علم النبي بتجمع قوات من الروم على حدود فلسطين لقتال المسلمين، فجهَّز جيشاً سمي جيش العسرة، لأن التأهب والمسير كانا في وقت عسرة الناس وشدة الحر والجدب، فأنفق الموسرون ما يتجهز به الفقراء.

وخرج النبي من المدينة في (شهر رجب عام ٩هـ/ شهر تشرين الأول عام ٦٣٠م) على رأس الجيش حتى وصل إلى تبوك[4]، فأقام فيها أياماً وصالحه أهلها،

---

(١) ابن هشام: جـ ٤ ص ٨٤ ـ ٩٥.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٢١ ـ ١٣٨.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٤٨ ـ ١٥١.
(٤) تبوك: موضع بين وادي القرى والشام. الحموي: جـ ٢ ص ١٤.

واستقبل فيها وفود بعض القبائل من أيلة وأذرح[١] وجرباء[٢]، وأرسل خالد بن الوليد إلى أكيدر صاحب دومة الجندل[٣]، فأسره وفتح قريته.

ويبدو أن الروم علموا بوصول المسلمين إلى تبوك، فآثروا الانسحاب إلى داخل الحدود مفضِّلين قتالهم قريباً من قواعدهم، وبعيداً عن الصحراء التي هي مجال العمل العسكري للعرب.

ولما وقف النبي على انسحابهم انصرف عائداً إلى المدينة مكتفياً بفرض سلطانه الاسمي على أمراء المناطق المجاورة. وهذه الغزوة هي آخر غزواته التي خرج بها محارباً[٤].

الوفاة

خرج النبي محمَّد ﷺ في (السنة العاشرة للهجرة/ ٦٣١ للميلاد) إلى مكة لأداء مناسك الحج على رأس أكثر من مائة ألف من المسلمين، وألقى عند جبل عرفات خطبته المشهورة بخطبة الوداع التي تعدُّ دستور الإسلام، حدَّد فيها قواعد الإسلام وأُسسه ونظامه، ونادى بالمساواة بين النَّاس، ثم عاد إلى المدينة.

ولم يكد يمضي على حجة الوداع سوى ثلاثة أشهر، حتى مرض بالحمى وتوفي (يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول عام ١١هـ/ ٧ حزيران عام ٦٣٢م) وهو في الثالثة والستين من العمر، بعد أن بلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة، ودُفن في بيته الذي توفي فيه في حجرة عائشة[٥].

ترك النبي محمَّد ﷺ عند وفاته أُمَّةً موحَّدة متماسكة بعدما كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام ديناً سهلاً واضحاً قوياً لا يزال باقياً إلى يومنا هذا، وصرحاً خلقياً قوامه البسالة والعزة، واستطاع خلال جيل واحد أن ينتصر في العديد من المعارك، وأن ينشىء دولة مترامية الأطراف.

---

(١) أذرح: اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة ثم من نواحي البلقاء. المصدر نفسه: جـ ١ ص ١٢٩.

(٢) جرباء: موضع من أعمال عمان بالبلقاء في أرض الشام قرب جبال السراة من ناحية الحجاز، وهي قرية من أذرح. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ١١٨.

(٣) دومة الجندل: هي على سبع مراحل من دمشق بينها وبين المدينة. المصدر نفسه: ص ٤٨٧.

(٤) ابن هشام: جـ ٤ ص ١٧٣ ـ ١٧٩.

(٥) المصدر نفسه: ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢، ٢٤٦ ـ ٢٤٧، ٢٥٨ ـ ٢٥٩. وانظر تعليق السهيلي جـ ٤ ص ٢٧٠. الطبري: جـ ٣ ص ٢٠٠.

الَ

أبو
عم
عث
عل

ق

ق

الفصل الثالث

العصر الراشدي

١١ ـ ٤٠هـ/ ٦٣٢ ـ ٦٦١م

الخلفاء الراشدون

أبو بكر الصدِّيق	١١ ـ ١٣هـ/٦٣٢ ـ ٦٣٤م
عمر بن الخطَّاب	١٣ ـ ٢٣هـ/٦٣٤ ـ ٦٤٤م
عثمان بن عفَّان	٢٤ ـ ٣٥هـ/٦٤٤ ـ ٦٥٦م
علي بن أَبي طالب	٣٦ ـ ٤٠هـ/٦٥٦ ـ ٦٦١م

أَبو بكر الصدِّيق

١١ ـ ١٣هـ/ ٦٣٢ ـ ٦٣٤م

قضية الخلافة

الأوضاع السياسية في المدينة بعد وفاة النبي ـ انتخاب أَبي بكر الصدِّيق

أحدثت وفاة النبي محمَّد ﷺ صدمة عنيفة فاجأت المسلمين بعامة، وبرزت قضية الحفاظ على إنجازاته من دين ودولة، وبالتالي مسألة الخلافة، التي طُرحت على بساط البحث فور إعلان خبر الوفاة، ذلك أنه لم يرد في القرآن الكريم نص صريح يحدِّد أُسس انتخاب خليفة لرسول الله، لكنه دعا إِلى الشورى والعدل، وإِلى طاعة أولي الأمر. وتوافق نهج الرَّسول وسلوكه مع توجهات القرآن الكريم، فلم يضع تفاصيل خارجة عن إطار هذه المعاني، وكأنما أراد بذلك أن يترك الأمر شورى بين المسلمين ليختاروا من يصلح لاعتلاء منصب الخلافة جرياً على عادة النظام القبلي الذي ألفه العرب، وبخاصة أنَّه لم يخلف ولداً ذكراً يستخلفه من بعده.

واجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة[1] للتباحث في مسألة الخلافة، ولم تذكر المصادر من الذي دعا إلى هذا الاجتماع، ولا كيف تمَّت الدعوة، وإنما روت حصول الاجتماع في السقيفة، وقد رشحوا سعد بن عبادة زعيم الخزرج ليتولى أمر المسلمين[2]. ويبدو أنهم شعروا بالحاجة الماسَّة إلى اختيار خليفة يتولى شؤون المدينة وأمر المسلمين، وبخاصة أن مدينتهم كانت مهدَّدة من الأعراب ورجال القبائل الضاربين حولها، في ظل غياب المهاجرين الذين كانت طائفة منهم منهمكة بجهاز رسول الله ودفنه، في حين كانت طائفة أخرى لا تزال الصدمة تملأ نفوسها، ولم تفكر طائفة ثالثة في أمر اختيار خليفة والرَّسول لم يُدفن بعد[3].

وعندما بلغ خبرِ اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة كلاً من أَبي بكر الصدِّيق وعمر بن الخطَّاب، مضيا إلى هناك مسرعين، بفعل أهمية وخطر الموضوع المطروح من مشكلة الحكم، والتقيا في طريقهما أبا عبيدة عامر بن الجرَّاح، فأخذاه معهما، وشقَّ أَبو بكر طريقة إلى صدر المجتمعين، وخطب فيهم مبيِّناً وجهة نظر المهاجرين بعامة من مشكلة اختيار خليفة لرسول الله[4].

مما لا شك فيه أن الروايات التاريخية الكثيرة التي حفظتها لنا المصادر حول ما دار في اجتماع سقيفة بني ساعدة، يشوبها التضارب، ومع ذلك فهي تشترك في نقاط جوهرية، تُشكِّل أرضية صالحة، يمكن الاعتماد عليها في التأريخ لهذه الحقبة، حيث كانت مسألة خلافة الرسول مسار جدل اتسم بالحدة أحياناً. وبعد استعراض طائفة من الاقتراحات، اجتمعت كلمة المسلمين على أن يكون أَبو بكر أول خليفة للنبي، فهو خليفته في الصَّلاة، ومؤنسه في الغار، وصاحبه في الهجرة، فضلاً عن شدة إيمانه، وسمو أخلاقه، وتضحيته في سبيل الله[5].

أهم أعمال أَبي بكر الصدِّيق

بعث حملة أسامة بن زيد

كان النبي محمَّد ﷺ قد جهَّز قبل وفاته حملة عسكرية بقيادة أُسامة بن زيد

---

(١) سقيفة بني ساعدة بالمدينة، وهي ظلَّة كانوا يجلسون تحتها. وأما بنو ساعدة، الذين نُسبت السقيفة إليهم، فهم حي من الأنصار.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٢٠٠.

(٣) شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي، الخلفاء الراشدون ص ٤٩ ـ ٥١.

(٤) انظر نص الخطبة عند الطبري: ج ٣ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٥) المصدر نفسه: ص ٢٠١ ـ ٢١١، ٢١٨ ـ ٢٢٣.

لإرسالها إلى مشارف بلاد الشام بهدف الثأر لقتلى معركة مؤتة، وتأديب الغساسنة، ولما بلغ أسامة مرض النبي عسكر في مكان قريب من المدينة يقال له «ذو خشب».

ولم يكد يمضي بضعة أيام على بيعة أبي بكر حتى أمر الجيش بالتحرك إلى وجهته، غير مبالٍ بالآراء التي فضَّلت تجميد الحملة نظراً لظهور بوادر رِدَّة بين صفوف القبائل، أو استبدال قائدها نظراً لحداثة سنه. وخرج أبو بكر يودع الجيش، وأوصى أفراده بوصية تُعدُّ قانوناً أساسياً في الأخلاق والمعاملة التي يجب أن يتصرف الجند من خلالها أثناء الحرب[1].

حروب الردَّة

دوافع المرتدِّين

الحدثان البارزان في خلافة أَبي بكر القصيرة، هما الرِدَّة وبداية الفتوح الإسلامية خارج نطاق الجزيرة العربية، وكان لكل منهما تأثيره الخاص على مستقبل الدعوة الإسلامية والعرب. وتُطلق جميع المصادر على التطورات التي حصلت على أطراف الجزيرة العربية بعد وفاة النبي، وما نجم عنها من انتفاضة القبائل، بحركة الرِّدَّة أو بالارتداد عن الإسلام[2]، وقد مثَّلت تحدياً كبيراً لهيبة الدولة الإسلامية الناشئة من خلال محاولة وضع حدٍّ لنفوذها على مناطق متعددة في الجزيرة العربية.

كانت سياسة النبي العامة تتجه نحو توحيد العرب تحت راية الدين الإسلامي في مؤسسة تتخطَّى النظام القبلي، واستطاع بفضل الدعم الإلٰهي وسلوكه المثالي، تأسيس جماعة دينية ـ سياسية جسَّدت كيان دولة، فدخل العرب بعامة في هذا الدين، وانضووا تحت لوائه، ودانوا لرسوله بالزعامتين الدينية والسياسية. لكن حركة الرِّدَّة بيَّنت ضعف هذا الكيان السياسي، في الأطراف بخاصة، وهشاشة دخول القبائل العربية في الإسلام، وأن تجذُّر العادات والتقاليد القبلية في النفوس كان أقوى من رابطة الدين.

والحقيقة إن سياسة التوحيد لم تكن قد استكملت في حياة النبي، ولم يكن الدين متجذراً إلَّا بين سكان المدينة، ومكة والطائف وبعض القبائل القاطنة بجوارهم، ولم يخضع سكان المناطق الأخرى في الجزيرة لسلطان المسلمين إلَّا اسمياً وتحت وطأة الظروف السياسية، ومعنى هذا أن هؤلاء اعتنقوا الإسلام وفي قلوبهم مرض أو شيء من النفاق.

وانعكست وفاة النبي على الواقع السياسي خارج المدينة مثلما انعكست في

---

(1) الطبري: جـ ٣ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٧.
(2) المصدر نفسه: ص ٢٢٥ ـ ٢٤٢.

داخلها، حيث شعرت بعض القبائل بنوع من التحرر بعد أن ظنَّت أن قريشاً إنما سلبتهم حريتهم وأدخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين، فأرادوا التخلُّص من التزاماتهم المادية، إذ إن ما فرضه الإسلام من الزكاة على المسلمين، أوجد نوعاً من الشعور بالإذلال لم يألفوه في حياتهم، على الرغم من أن الإسلام لم يعدَّ الجزية أتاوة يدفعها المغلوب للمنتصر، فامتنعوا عن دفع الزكاة لأَبي بكر.

وبرزت العصبية القبلية بعد وفاة النبي بأوضح معانيها، عند بعض القبائل، وقد اتخذت موقفاً سياسياً معادياً من قريش بشكل خاص التي تزعمت بنظرهم جماعة المسلمين. ذلك أنها لم ترض بتفوق قريش وزعامتها عليها، ونظرت إلى هذه الزعامة، بعد وفاة النبي، كنوع من الوراثة التي لم يألفها العرب، كما لم تنسجم تماماً مع الطريقة التي تمَّ بها اختيار أَبي بكر دون أن يكون لها رأي فيه، لذلك لم تأخذ بيعة أَبي بكر طابعها الإجماعي في أوساط القبائل.

ويرتبط بالعصبية القبلية وما يتولَّد عنها من تنافس وتحاسد بين القبائل ما نلاحظه من تسابق في ادعاء النبوة، فظهر المتنبئون في أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية. وتُعدُّ هذه الظاهرة أحد الأصداء التي أحدثها نجاح النبي عقب فتح مكة وتوسيع نفوذ الدولة الإسلامية عبر توحيد مكة والمدينة.

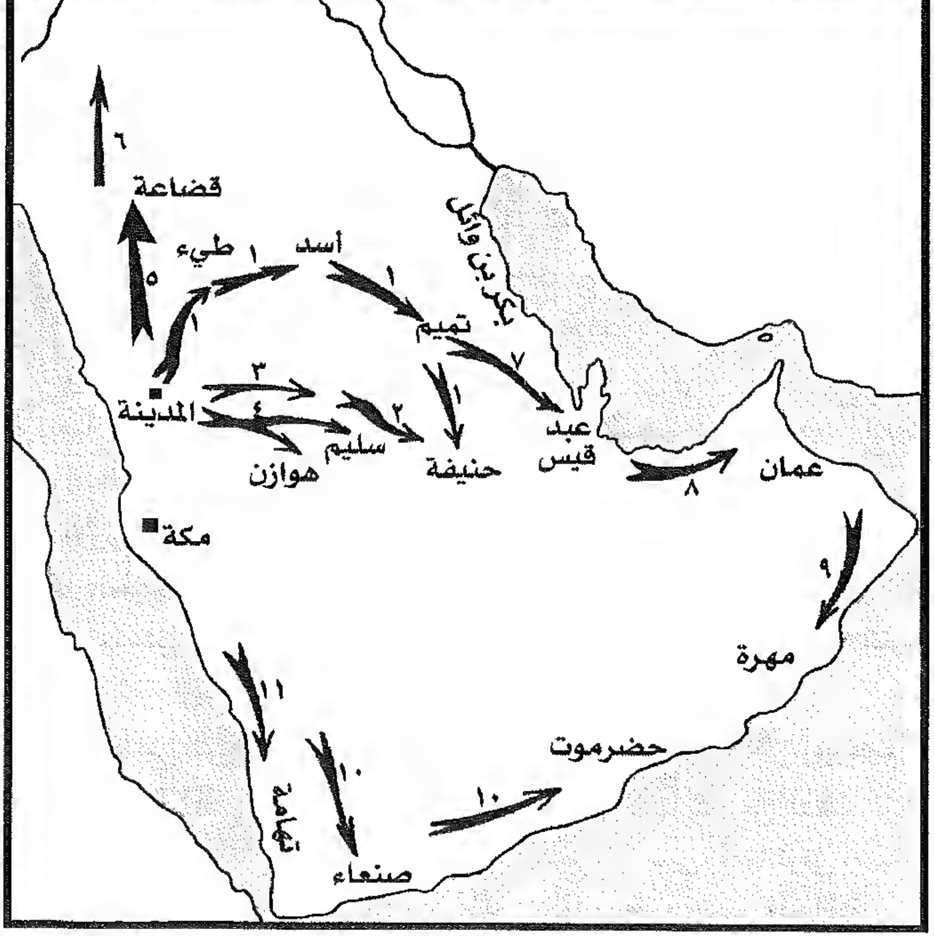
وكان لتنوع الحياة في الجزيرة العربية دور في اضطراب العرب. فحياة الحضر والبدو تتجاور مع ما بينها من تباين، مما يجعل الوحدة القومية أمراً ليس سهلاً، ثم إن طبيعة حياة البدوي لا تخضع لحاكم على النحو الذي يفهمه الحضري، كما أن حياة القبيلة في البادية تكمن في استقلالها، فتقاوم كل ما من شأنه الانتقاص أَو الحد منها. وعندما انتشر الدين الإسلامي بين العرب، وهو يدعو إلى التوحيد، خشي هؤلاء من أن تمتد وحدة الإيمان بالله إلى وحدة سياسية تقضي على استقلالية أهل البادية[1].

وكان للعامل الأجنبي دور في تحريك البواعث التي أدَّت إلى انتفاضة العرب وردَّتهم. ذلك أن إرسال النبي الكتب إلى الملوك والأمراء المجاورين، ومن بينهم عاهل الفرس وأمبراطور الروم، يدعوهم فيها إلى الإسلام، دفع هؤلاء إلى العمل على إثارة الفتنة في بلاد ليس بها من أسباب الوحدة غير الدين الجديد[2].

---

(١) هيكل، محمَّد حسين: الصدِّيق أَبو بكر ص ٩٩ ـ ١٠٠.

(٢) المرجع نفسه.



جيوش حروب الردَّة

وهكذا، أتاحت وفاة النبي الفرصة أمام ضعاف الإيمان والمنافقين وأعداء قريش من العرب؛ إظهار ما يخفون من نوايا انفصالية، ونزعات استقلالية، فكانت حركة الرِّدَّة أول صدمة للمجتمع الإسلامي الناشىء والمجابهة الأولى لأبي بكر.

ومن خلال هذه الرؤية، فإن لحركة الرِّدَّة أكثر من خلفية لا تبدو بالضرورة متجانسة، ولكنها تضافرت مع بعضها وأدَّت إلى تفجير الوضع، وهذا يعني أن الرِّدَّة بمفهومها الفقهي لا تأخذ بُعدها الشمولي لدى جميع القبائل لأن بعضها كانت تحرِّكه دوافع سياسية أو اقتصادية لم تُصب مطلقاً جوهر العقيدة[1].

ونتيجة لذلك، فإن حركة الرِّدَّة تمثِّل الجانب الديني والسياسي والاجتماعي والاقتصادي من ردود الفعل التي أحدثها فوراً موت النبي، متَّخذة الجانب الديني إطاراً، إضافة إلى الجانب السياسي، وعليه يمكن تصنيف المرتدين إلى أربع فئات:

الأولى: هي التي اعترضت على نتائج اجتماع السقيفة، مع احتفاظها بإيمانها وصلتها بالعقيدة الإسلامية، غير أنَّها وعت بعد استتباب الأمر لأبي بكر ولم ترتد عن الإسلام، وتمثل قبائل عبس وذبيان وبعض بني بكر بن وائل وقبيلة عبد القيس الكبيرة في البحرين، هذا الاتجاه.

الثانية: هي التي ارتدت عن الإسلام، ووضع زعماؤها التيجان على رؤوسهم[2].

الثالثة: هي التي رفضت دفع الزكاة إلى أبي بكر لأنها تنمُّ عن التبعية، وتقيِّد حرية واستقلال القبائل، زاعمة أنها أتاوة كانت تُدفع إلى النبي، فلما توفي أصبحت في حِلٍّ من دفعها إلى خليفته، وتمثل بنو أسد وغطفان وطيء وتميم هذه الفئة.

الرابعة: هي التي تبعت المتنبئين حين اعتقد بعض الزعماء القبليين أن ادعاء النبوة وسيلة للوصول إلى الحكم، ويمثِّل هذه الفئة طليحة الأسدي في نجد، ومسيلمة الكذَّاب في بني حنيفة في اليمامة، والأسود العنسي في اليمن.

شملت حركة الرِّدَّة معظم أنحاء الجزيرة العربية، وامتدت من البحرين وعُمان على طول ساحل الخليج العربي، ومن الشرق إلى الجنوب الشرقي، ثم إلى حضرموت واليمن في الجنوب، فاليمامة، أي أنها شكَّلت شبه نصف دائرة تحيط بالقسم الأكبر من الجزيرة العربية.

---

(١) بيضون، إبراهيم: ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) كان النعمان بن المنذر بن ساوى التميمي في البحرين قد وضع التاج على رأسه، وكذلك لقيط بن مالك ذو التاج، في عمان. انظر اليعقوبي، أحمد بن أبي يقوب: تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٣، ١٧.

مواجهة المرتدِّين

واجه أَبو بكر مواقف المرتدِّين والمتنبئين ومانعي الزكاة بشجاعة وحزم، وأثبت أمام هذا التحدي أنه رجل الدولة القوي وصاحب القرار الجريء. فقد رأى في تمرد القبائل ضربة موجهة إلى الدولة الإسلامية النامية، وإلى الدين الإسلامي عقيدة ونظاماً. فجهَّز الجيوش وأرسلها لقمع المرتدين، وأرسل إلى القبائل كتاباً بمضمون واحد يدعوهم فيه إلى العودة إلى حظيرة الدين، ويرد الشبهة التي نشأت إثر وفاة النبي، وهدَّدهم بالقتل والإحراق وسبي الذراري والنساء[١]. ونجح عسكرياً في القضاء على حركة الرِّدَّة في العام الأول من حكمه، واستعاد مركز المدينة ونفوذها على سائر الأماكن الأخرى، وحقَّق هدفه في المحافظة على هيبة الإسلام، ومركز الدولة الإسلامية الناشئة.

التوسع خارج نطاق الجزيرة العربية

عوامل حركة الفتوح

يُمثِّل التوسع خارج إطار الجزيرة العربية الحدث الثاني في خلافة أَبي بكر، ذلك أن هذا الخليفة وجَّه اهتمامه، بعد أن قضى على حركة الردَّة، إلى الخارج، بهدف نشر الدين الإسلامي في البلدان المجاورة من جهة، ومحاربة الفرس والروم البيزنطيين من جهة أخرى. فالفرس يقفون في وجه الدعوة، ويدعمون أعداءها، ويحضُّون المرتدِّين عليها، والبيزنطيون يحاربون الدعوة، وينصرون خصومها، ويحرِّضون القبائل المتنصِّرة ضدها، فكان لا بد من قتال الطرفين[٢]، فأرسل الجيوش يتلو بعضها بعضاً لفتح بلاد فارس والشام.

وتستوقفنا في هذا المجال مدرستان في تفسير حركة الفتوح والانتصارات التي حقَّقها المسلمون، هما المدرسة التقليدية ومدرسة المعاصرين. فإذا ما رجعنا إلى أخبار التقليديين من مؤرخي هذه المرحلة، نلاحظ أنها تدور حول عامل واحد دفع المسلمين إلى خارج جزيرتهم، ألا وهو العقيدة المبنية على الإيمان الراسخ والثقة بالحياة الأبدية بعد الموت.

لذلك كانت الاستجابة لدعوة أَبي بكر إلى الجهاد عفوية وسريعة من جانب المسلمين. فقد أرسل إلى «أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز

(١) انظر نص الكتاب عند الطبري ج ٣ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٢.

(٢) شاكر: ص ٨١.

يستنفرهم للجهاد ويرغِّبهم فيه وفي غنائم الروم، فسارع الناس إليه بين محتسب وطامع، وأتوا المدينة من كل أوب»[١].

تدفعنا رواية البلاذري هذه إلى جانب آخر في الإطار التقويمي لحركة الفتوح، إذا علمنا أن بعض القبائل، ممن ساهم في بادىء الأمر في هذه الحركة، لم يكن الإسلام متغلغلاً في نفوسهم وعقولهم إلى الحد الذي يدفعهم إلى خوض المهالك دون أن يكون لهم من هدف سوى فرض عقيدة الإسلام على سكان البلاد المفتوحة.

وإذا كان البلاذري قد نحى هذا الجانب من الإطار التقويمي لأسباب الفتوح، مشكِّكاً في التزام بعض القبائل بمبدأ الجهاد، فإن مقالة خالد بن الوليد بعد معركة الوَلَجَة[٢] ضد الفرس في العراق تبدو أكثر وضوحاً في إبراز العامل الاقتصادي في حركة الفتوح، على الرغم من أنها عبارات حماسية وردت في سياق الخطبة، لحثّ الجند على القتال بهدف نيل ثواب الجهاد وغنائم الأعداء. والجدير بالذكر أن الجند حتى خلافة عمر بن الخطَّاب كانوا يعتمدون على الغنائم، فلم يكن لهم عطاء على عهد النبي ولا في أيام أَبي بكر الصدِّيق «... ولو لم يكن إلَّا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولي الجوع والإقلال من تولاه ممن أثَّاقل عما أنتم عليه»[٣].

وهذا يفسِّر ما كانت تشهده الجزيرة العربية من خلل في المعادلة الاقتصادية بين كثرة السكان وقلة الطعام، ومن الجفاف المتحكِّم في مناخها الذي كان يتطلب البحث عن وفرة العيش في البلدان المجاورة الخصبة، مما دفع الناس إلى ركوب المغامرة طلباً للخلاص.

وكان للعامل السياسي دور في دفع العرب إلى خارج جزيرتهم. فقد ساعد ما وصلت إليه أوضاع الدولتين الكبيرتين آنذاك، فارس وبيزنطية، من ضعف وتفكُّك بسب الثورات الداخلية، والحروب الطويلة الأمد بينهما؛ على استنزاف مواردهما وطاقاتهما، وبالتالي شاع الاضطراب في جميع المرافق الاقتصادية، وأضحت الدولتان على وشك الإفلاس. ولتغطية هذا العجز، فرض القيِّمون على الدولتين ضرائب جديدة زادت في إرهاق السكان، وأظهرت الإدارة الحكومية عجزاً شديداً

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ١١٥.

(٢) الوَلَجة: بأرض كسكر، موضع مما يلي البر. الحموي: جـ ٥ ص ٣٨٣.

(٣) الطبري: جـ ٣ ص ٣٥٤.

في تصريف شؤون الحكم وحماية الأهالي، أدَّى كل ذلك إلى ضعف المركز السياسي لكلا الدولتين، وأصبح من المتوقع ظهور قوة سياسية أخرى تحل محلهما.

وتُعدُّ الصلات العنصرية بين المسلمين العرب وسكان الولايات من العرب، دافعاً آخر على الاندفاع خارج الجزيرة العربية، فقد سكنت بلاد الشام والعراق قبائل عربية لم تجد صعوبة في تقبُّل الحكم الإسلامي على يد العرب القادمين من الجزيرة العربية.

وكان للعامل الديني في هذه الولايات شأن في التوسع الإسلامي، فقد اضطهد الروم البيزنطيون بعض الطوائف النصرانية مثل اليعاقبة والنساطرة وغيرهما من الذين يقطنون بلاد الشام، بفعل اختلاف المذهب الديني.

وقد بنى عدد من المؤرخين المعاصرين، على هذه المؤشرات وغيرها، رأياً جازماً في تقييم حركة الفتوح دون النظر إلى العوامل الأخرى، غير أن هذا الإصرار على تقديم المسألة من جانب واحد قد حجب عن القارىء الرؤية الحقيقية، فضلاً عن إفراغ الفتوح من محتواها العقيدي والإنساني[١].

والواقع أن أي تفسير منفرد لا يصلح وحده أن يكون موضوعاً للمناقشة الموضوعية، وإن الفتوح الإسلامية كانت نتيجة دراسة متأنية جاءت بعد اجتماعات ومناقشات متكرِّرة بين أهل الحل والعقد، وعُرضت على عامة المسلمين، ثم اتُّخذت فيها القرارات الحاسمة، وقد نفَّذها جنود آمنوا بعقيدتهم، فنشروا تعاليم الإسلام في الأقطار التي فتحوها.

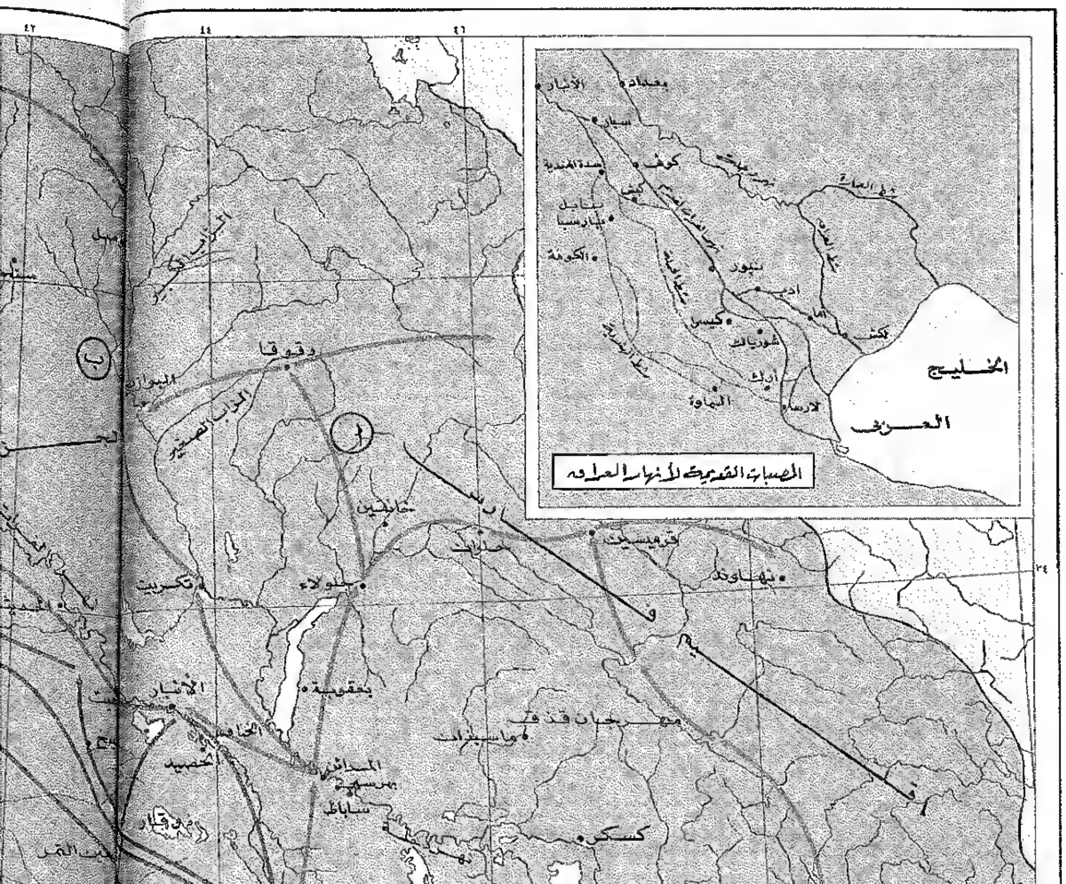
بداية فتوح العراق

معركة ذات السَّلاسل

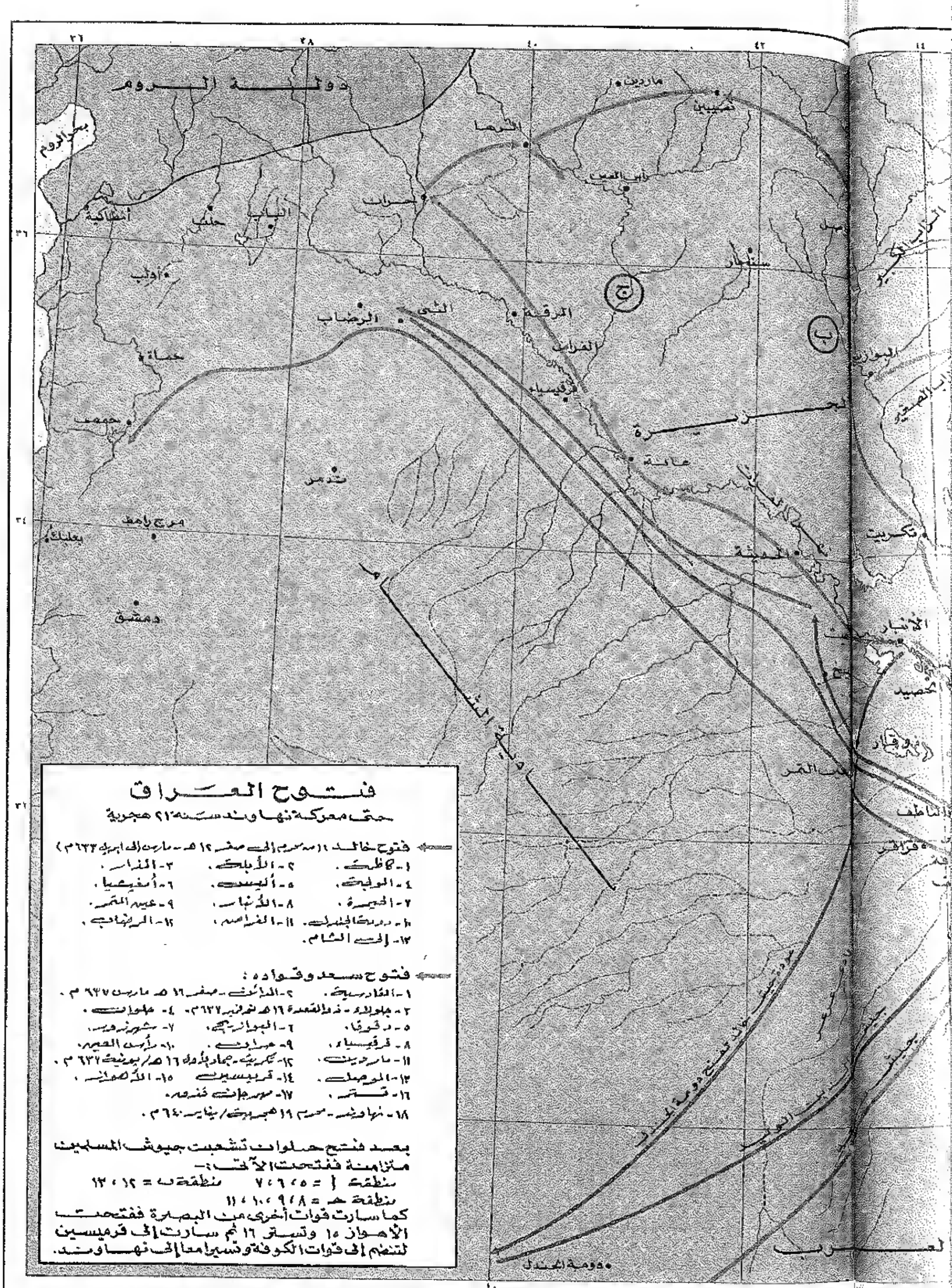
قُدِّر للأحداث العسكرية الأولى في الفتوح الإسلامية أن تقع على الجبهة العراقية بفعل أن المسلمين وجدوا أنفسهم بعد حروب الردَّة على حدود هذا البلد. وترتبط هذه الجبهة باسم المثنَّى بن حارثة الشيباني الذي بدأ نشاطه العسكري في (مطلع السنة الثانية عشرة للهجرة/ ٦٣٣ للميلاد)، بعد أن استأذن أبا بكر متَّخذاً من الحيرة مسرحاً لنشاطه. ويبدو أن مهمته اتصفت بالاستطلاعية، واقتصرت على مناوشات عادية، ولم تبدأ العمليات العسكرية الجدِّية إلَّا بعد أن أرسل أبو بكر

---

(١) Camb. Med. History vol 2 P 331. برنارد لويس: العرب في التاريخ ص ٢٨، ٧٥. أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٤٧.



المصبات القديمة لأنهار العراق
الخليج العربي
الخليج العربي
جزيرة العرب
بنو شيبان
جفان
كاظمة
الأبلة
الولجة
القادسية
السماوة
النجف
الكوفة
الحيرة
بابل
المسيب
كسكر
المدائن
الأنبار
بعقوبة
جلولاء
تكريت
دقوقا
حلوان
قرميسين
نهاوند
مهرجان قذق
الأهواز
جنديسابور
تستر


دولـة الـروم
بحر الروم
أنطاكية
الباب
حلب
أدلب
حماة
حمص
تدمر
مرج راهط
بعلبك
دمشق
الرضاب
الرقة
حران
الرها
ماردين
نصيبين
رأس العين
سنجار
ج
ب
الفرات
قرقيسياء
الجزيرة
عانة
الحديثة
تكريت
الأنبار
الحصيد
عين التمر
دومة الجندل
فتوح العراق
حتى معركة نهاوند سنة ٢١ هجرية
فتوح خالد (محرم إلى صفر ١٢ هـ - مارس إلى ابريل ٦٣٣ م)
١- كاظمة. ٢- الأبلة. ٣- المذار.
٤- الولجة. ٥- أليس. ٦- أمغيشيا.
٧- الحيرة. ٨- الأنبار. ٩- عين التمر.
١٠- دومة الجندل. ١١- الفراض. ١٢- الرضاب.
١٣- إلى الشام.
فتوح سعد وقواده:
١- القادسية. ٢- المدائن - صفر ١٦ هـ مارس ٦٣٧ م.
٣- جلولاء - ذو القعدة ١٦ هـ نوفمبر ٦٣٧ م. ٤- حلوان.
٥- دقوقا. ٦- البوازيج. ٧- شهرزور.
٨- قرقيسياء. ٩- حران. ١٠- رأس العين.
١١- ماردين. ١٢- تكريت - جمادى الأولى ١٦ هـ / يونيه ٦٣٧ م.
١٣- الموصل. ١٤- قرقيسياء. ١٥- الأهواز.
١٦- تستر. ١٧- مهرجان قذق.
١٨- نهاوند - محرم ١٩ هجرية / يناير ٦٤٠ م.
بعد فتح حلوان تشعبت جيوش المسلمين متزامنة ففتحت الآتي:
منطقة أ = ٥، ٦، ٧ منطقة ب = ١٢، ١٣
منطقة جـ = ٨، ٩، ١٠، ١١
كما سارت قوات أخرى من البصرة ففتحت الأهواز ١٥ وتستر ١٦ ثم سارت إلى قرقيسين لتنضم إلى قوات الكوفة وتسيرا معاً إلى نهاوند.

خالد بن الوليد وعياض بن غنم لفتح بلاد فارس.

حاول هرمز، الحاكم الفارسي لولاية الحيرة، أن يوقف تقدم الجيش الإسلامي، لكن خالداً ومن معه من القوات نجحوا في هزيمته في معركة ذات السلاسل في (شهر محرم عام ١٢هـ/ شهر نيسان عام ٦٣٣م)، وقد سميت هذه المعركة بهذا الاسم لأن القوات الفارسية كانت تُربط بالسلاسل خوفاً من فرارها[١].

الفتوح الأولى

أتاح انتصار المسلمين في ذات السلاسل، التوغل داخل الأراضي الفارسية في العراق حيث اصطدموا بالجيوش الفارسية التي أُرسلت على عجل للتصدي لهم، فانتصروا في المذار[٢] والوَلَجة وأُلَيّس[٣]، وفتحوا الحيرة والأنبار[٤] وعين التمر[٥] ودومة الجندل[٦].

تأتي أهمية هذه الانتصارات في أنَّها:

- فتحت الطريق أمام المسلمين لتثبيت أقدامهم في العراق.
- هيأت لهم الفرصة للانسياب إلى عمق الأراضي الفارسية.
- كانت بداية تجاربهم العسكرية المنظمة خارج الجزيرة العربية.

ويبدو أن التطورات العسكرية على الجبهة الشامية أدَّت إلى تجميد العمليات العسكرية على الجبهة العراقية، بعد أن نقل أبو بكر خالداً بن الوليد من العراق إلى الشام وعيَّنه قائداً عاماً على هذه الجبهة، في حين عاد المثنى إلى القيادة على الجبهة العراقية.

بداية فتوح الشام

الاشتباكات الأولى

بدأت خطة التحرك الإسلامي لفتح بلاد الشام بعد أحداث فتح العراق في

---

(١) الطبري: جـ٣ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(٢) المذار في ميسان بين واسط والبصرة، وهي قصبة ميسان، بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام. الحموي: جـ ٥ ص ٨٨.

(٣) أُلَيّس: تقع في أول أرض العراق من ناحية البادية، وهي قرية من قرى الأنبار. المصدر نفسه: جـ١ ص ٢٤٨.

(٤) الأنبار: مدينة على الفرات في غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ، وكانت الفرس تسميها فيروزسابور. المصدر نفسه: ص ٢٥٧.

(٥) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة، وهي على طرف البرية. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ١٧٦.

(٦) البلاذري: ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨. الطبري: جـ ٣ ص ٣٥١ ـ ٣٥٨، ٣٧٨ ـ ٣٨٠.

(أواخر عام ١٢هـ/ أوائل عام ٦٣٤م). فقد شجَّعت النتائج التي ترتبت على حملة أسامة في الشمال أبا بكر، فعقد لواءين أحدهما لخالد بن سعيد بن العاص، وسيَّره إلى مشارف الشام، والثاني لعمرو بن العاص وأرسله إلى قضاعة. ويُعَدُّ لواء خالد بن سعيد أول لواء عقده أَبو بكر إلى الشام، ولكن الخليفة لم يلبث أن عزله عن الإمارة، وولّى مكانه يزيد بن أَبي سفيان، ومع ذلك فقد جعله ردءًا (زيادة) للمسلمين في تيماء[1]، وأمره أن يقيم بها ولا يغادرها إلَّا بإذنه.

وصلت أنباء التحرك الإسلامي إلى مسامع البيزنطيين، فحشدوا حشوداً ضخمة من العرب الضاربين في جنوبي بلاد الشام، عندئذ أمر أَبو بكر خالداً بن سعيد بأن يتقدم دون أن يقتحم. فلما دنا منهم تفرَّقوا، مما دفعه إلى مواصلة تقدمه، فاعترضه أحد بطارقة البيزنطيين، ويدعى باهان، وهزمه.

كتب خالد بن سعيد إلى أَبي بكر يعلمه بما آلت إليه الأوضاع العسكرية، ويطلب منه مساعدة عاجلة، فأمدَّه أَبو بكر بذي الكلاع الحميري وبعكرمة بن أَبي جهل. ثم حدث أن واصل خالد بن سعيد زحفه إلى جنوبي البحر الميت، فاستدرجه باهان إلى مرج الصفَّر في ضواحي دمشق، وطوَّقه، واضطرَّه إلى التراجع وذلك في (٤ محرم عام ١٣هـ/ ١١ آذار عام ٦٣٤م)[2]. ومنذ ذلك الحين بدأت اهتمامات أَبي بكر بالشام، فاستنفر المسلمين للقتال ووجَّه البعوث والحملات.

معركة أجنادين

شكَّل أَبو بكر أربعة ألوية لتتولى مهمات في جهات مختلفة، بلغ تعدادها أربعة وعشرين ألف جندي، واختار لها أربعة قادة هم: خالد بن سعيد بن العاص، وقد استبدله بعد ذلك بيزيد بن أَبي سفيان كما ذكرنا، وكانت وجهته دمشق، وشرحبيل بن حسنة، وقد أرسله إلى بصرى، وأبا عبيدة عامر بن الجراح ووجهته مدينة حمص، وعمرو بن العاص وقد أرسله إلى فلسطين. وحدثت عدة اشتباكات متفرقة مع البيزنطيين أولها في داثن، إحدى قرى غزة، وانتهت بهزيمة البيزنطيين بقيادة سرجيوس حاكم فلسطين[3].

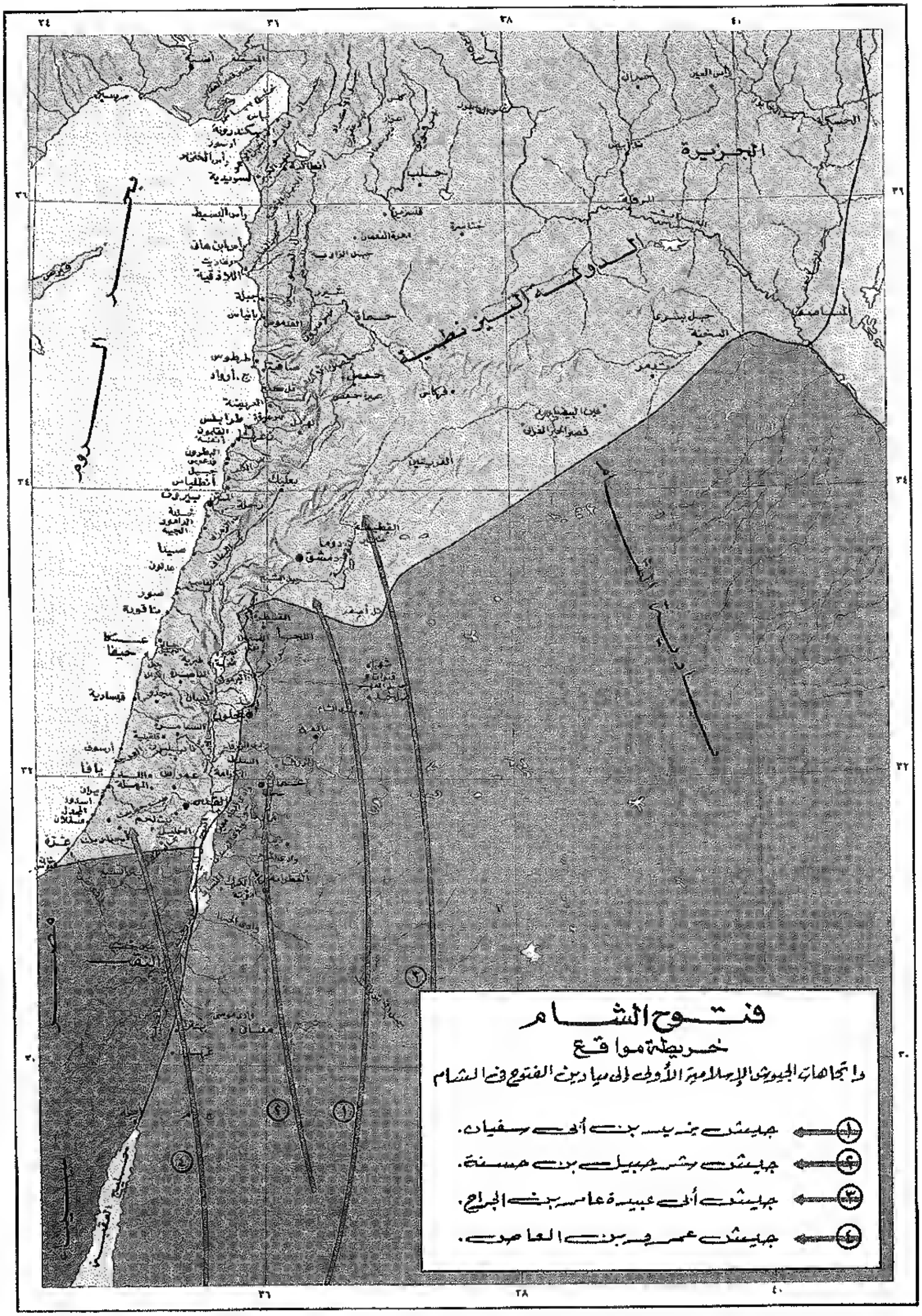
ويبدو أن هرقل علم بتحرك القوات الإسلامية فأراد أن يضربها منفردة مستفيداً

---

(١) تيماء: بلبدة في أطراف الشام بين بلاد الشام ووادي القرى على طريق حاج الشام ودمشق. الحموي: جـ ٢ ص ٦٧.

(٢) الطبري: جـ ٣ ص ٣٨٧ ـ ٣٩٢.

(٣) البلاذري: ص ١١٦.


فتوح الشام
خريطة مواقع
واتجاهات الجيوش الإسلامية الأولى إلى ميادين الفتوح في الشام
١ جيش يزيد بن أبي سفيان.
٢ جيش شرحبيل بن حسنة.
٣ جيش أبي عبيدة عامر بن الجراح.
٤ جيش عمرو بن العاص.
الدولة البيزنطية
الجزيرة
بحر الروم
حلب
دمشق
بيروت
طرابلس
حمص
حماة
بعلبك
صيدا
صور
عكا
حيفا
قيسارية
يافا
غزة
اللاذقية
أنطاكية
تدمر
الرقة
قرقيسيا

من تفرُّقها في جهات متعددة. فنزل حمص وأرسل منها جيشين كبيرين بلغ تعدادهما أكثر من مائة وخمسين ألف جندي بقيادة وردان وتذارق، وأرسلهما باتجاه الجنوب من أجل هذه الغاية(١).

تنبَّه القادة المسلمون لهذه الخطة، وقرَّروا بعد التشاور أن يجتمعوا في جوار بصرى مع تجنُّب الاشتباك بالعدو نظراً للفارق العددي؛ وكتبوا إلى أبي بكر يعلمونه بقرارهم ويطلبون موافقته. أقرَّ أبو بكر رأي القادة، وأدرك أن الوضع يحتاج إلى عدد أكبر من القوات، وإلى عقلية قيادية فذَّة، وجدها في خالد بن الوليد. فكتب إليه بأن يغادر العراق، وأن يسير إلى بلاد الشام لنجدة المسلمين، ويتولى قيادتهم مكان أبي عبيدة. امتثل خالد بن الوليد لأمر الخليفة، فغادر العراق على رأس تسعة آلاف من جنوده. ولما وصل إلى قناة بصرى اجتمع مع القادة: شرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان، وأبي عبيدة بن الجراح، وتشاوروا في الخطة العسكرية الواجب تنفيذها. وبعد أن فتحوا بصرى في (٢٥ ربيع الأول عام ١٣هـ/ ٣٠ أيار عام ٦٣٤م)، قرَّروا نجدة عمرو بن العاص الذي كان آنذاك يتراجع بمحاذاة الضفة الغربية لنهر الأردن تحت ضغط الجيش البيزنطي الذي كان يتعقبه بقيادة تذارق.

ثم حدث أن اجتمع الجيشان البيزنطيان في أجنادين، بين الرملة وبيت جبرين، كما وصلت إليها القوات الإسلامية. واشتبك الطرفان في رحى معركة عنيفة، في (شهر جمادى الأولى/ شهر تموز)، وهي أولى المعارك الكبرى بين المسلمين والبيزنطيين، وأسفر هذا اللقاء عن انتصار المسلمين(٢).

وفاة أبي بكر الصدِّيق

في الوقت الذي كان فيه خالد بن الوليد يقود المسلمين من نصرٍ إلى نصر، جاءته رسالة من المدينة تخبره بوفاة أبي بكر وتولية عمر بن الخطَّاب خلافة المسلمين، وتضمَّنت الرسالة أمراً من عمر إلى خالد بأن يتخلّى عن القيادة لأبي عبيدة(٣).

توفي أبو بكر مساء يوم الاثنين (٢٢ جمادى الآخرة عام ١٣هـ/ ٢٣ آب عام

---

(١) الطبري: جـ ٣ ص ٣٩٢.

(٢) الأزدي، محمَّد بن عبد اللَّه: تاريخ فتوح الشام ص ٨٤ ـ ٩٦. البلاذري: ص ١٢٠ ـ ١٢١.

(٣) البلاذري: المصدر نفسه: ص ١٢٢، وقارن بالطبري: جـ ٣ ص ٣٩٨، ٤٣٤ الذي يذكر أن تولية أبي عبيدة تمت أثناء معركة اليرموك في عام ١٣هـ.

٦٣٤م) إثر إصابته بالحمى، وهو ابن ثلاث وستين سنة، ودفن في بيت عائشة بجانب قبر النبي[١].

عمر بن الخطَّاب

١٣ ـ ٢٣هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م

بيعة عمر بن الخطَّاب

حينما اشتد المرض على أَبي بكر، وشعر بدنو أجله رأى أن يحسم أمر اختيار خلف له خشية انقسام المسلمين بعده، فاختار عمر بن الخطَّاب خليفة له، بعد أن استشار كبار الصحابة وعامة المسلمين، فوافق الجميع على اختياره وبايعوا عمر[٢].

فكان أَبو بكر أول من عهد بالخلافة من بعده إِلى رجل معيَّن، ونُصِّب خليفة بمقتضى ذلك.

استكمال الفتوح الإِسلامية في عهد عمر بن الخطَّاب

الجبهة الفارسية

معركة الجسر[٣]

قرَّر عمر بن الخطَّاب توجيه الإِمدادات إِلى العراق بعد أن ضعفت هذه الجبهة برحيل خالد بن الوليد، إذ لم يتمكَّن المثنى بن حارثة من الاحتفاظ بما غنمه المسلمون من سواد العراق، فارتد إِلى الحيرة وتحصَّن بها، وكتب بذلك إِلى الخليفة. وعقد عمر لأَبي عبيد بن مسعود الثقفي على خمسة آلاف مقاتل، وأمره بالسير إِلى العراق لقتال الفرس، وكتب في الوقت نفسه إِلى المثنى يأمره بالانضمام إليه بمن معه من العساكر.

وبعد عدة اصطدامات جانبية مع الفرس في أماكن متفرقة، وصل أَبو عبيد إِلى قس الناطف، وهو موضع قريب من الحيرة على الضفة الشرقية لنهر الفرات، ويعرف أيضاً بالمروحة، حيث انضم إليه المثنى مع قوَّاته. ودفع الفرس بجيش من أربعة آلاف مقاتل بقيادة ذي الحاجب بهمن جاذويه، عسكر على الجانب الآخر من النهر. ثم حدث أن عبر أَبو عبيد النهر واصطدم بالجيش الفارسي في رحى معركة عنيفة

---

(١) الطبري: جـ ٣ ص ٤١٩ ـ ٤٢٣.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٢٤ ـ ٢٦.

(٣) ويقال لها قس الناطف والمروحة والقرقس.

قتل خلالها أَبو عبيد، وتراجع المسلمون عبر الجسر تحت ضغط المعركة، لكن أحد المسلمين هدم الجسر ليحول دون انسحابهم، وكان هذا تصرفاً أحمقَ لأنه أضعف روح المسلمين المعنوية، وجعلهم عرضة للقتل بعدما اختلَّ نظام صفهم. في هذه الأثناء نفَّذ المثنى خطة تراجع منظَّمة عبر النهر وانحدر مسرعاً إلى الحيرة ومنها إلى أُلَيَّس، في حين لم يستثمر ذو الحاجب انتصاره، وقد وقعت المعركة في (شهر شعبان عام ١٣ هـ/ شهر تشرين الأول عام ٦٣٤م)[١].

معركة البويب[٢]

أضاعت معركة الجسر مكاسب المسلمين السابقة وجعلت الحرب سجالاً، وأضحى موقف المثنى دقيقاً، واستمرار الفتح مستحيلاً، من دون دخول إمدادات جديدة إلى ميدان المعركة، فكتب إلى عمر يطلب منه أن يمده بالمسلمين. تحرَّك الخليفة على وجه السرعة وجهَّز جيشاً بقيادة جرير بن عبد اللَّه البجلي، وأمره بالتوجه إلى العراق، حيث انضم إليه المثنى. وقذف الفرس، في هذه الأثناء، بجيش تعداده إثني عشر ألف مقاتل بقيادة مهران بن باذان الهمذاني للتصدي للمسلمين. واشتبك الجيشان في رحى معركة قاسية في البويب في (شهر رمضان/ شهر تشرين الثاني) أسفرت عن انتصار واضح للمسلمين الذين انتشروا بعد المعركة في السواد حتى بلغوا ساباط على مرأى من المدائن[٣].

معركة القادسية[٤]

تأثَّر الفرس بما حلَّ بهم من هزائم متكرِّرة أمام المسلمين، فثاروا على ملكتهم بوران بنت كسرى أبرويز ونصَّبوا عليهم يزدجرد بن شهريار بن كسرى، فعمل على توحيد الجبهة الفارسية واسترجاع السواد، فولى على قيادة جيوشه رستم بن هرمز القائد الفارسي المشهور.

---

(١) الطبري: جـ ٣ ص ٤٥٤ ـ ٤٦٠.

(٢) البويب: نهر كان بالعراق موضع الكوفة، يأخذ من الفرات. الحموي: جـ ١ ص ٥١٢.

(٣) الطبري: جـ ٣ ص ٤٦٠ ـ ٤٧٢. والمدائن، عاصمة ملوك الفرس. بناها أنو شروان بن قباذ في مكان يتوسط مصب نهر الفرات في دجلة، وأقام بها هو ومن جاء بعده من ملوك بني ساسان إلى أيام عمر بن الخطَّاب. واسم المدائن بالفارسية طيسفون، وهي سبع مدائن بين كل مدينة إلى الأخرى مسافة قريبة أو بعيدة. الحموي: جـ ٥ ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٤) القادسية: موضع بينه وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً، وبينه وبين العذيب أربعة أميال. الحموي: المصدر نفسه جـ ٤ ص ٢٩١.

قلق المثنى مرة أخرى، عندما ترامت إليه هذه الأنباء، فانسحب مجدداً إلى ذي قار[1] وكتب إلى عمر يشرح له الوضع العسكري، ويطلب منه مدداً. لم يتوان عمر عن تلبية النداء، فحثَّ المسلمين على التطوع. وسرعان ما جهَّز جيشاً جديداً بلغ تعداده نحو عشرين ألف مقاتل، أمَّر عليه سعد بن أبي وقاص، وأرسله إلى العراق لمواجهة الموقف المتجدِّد.

تحرَّك سعد بقوّاته وعسكر بالقادسية بعد أن انضمت إليه القوات الإسلامية الموجودة في العراق، وتوفي في هذه الأثناء المثنى بن حارثة الشيباني، ووصل في غضون ذلك الجيش الفارسي بقيادة رستم وتعداده نحو مائة وعشرين ألف مقاتل. والتحم الطرفان في رحى معركة عنيفة في (شهر شعبان ١٥هـ/ شهر أيلول ٦٣٦م) استمرت عدة أيام، وانتهت بانتصار المسلمين ومقتل رستم[2].

تُعدُّ معركة القادسية نصراً حاسماً للمسلمين في صراعهم مع الفرس، وضربة مميتة للحكم الفارسي في العراق، وتمكَّن المسلمون من تحطيم القوة الميدانية للجيش الفارسي بشكل لن تقوم له قائمة بعدها. وأدَّى مقتل رستم إلى زيادة اليأس والاضطراب في صفوف الفرس. ومن بين نتائج المعركة، عودة القبائل العربية الضاربة في الشمال إلى طاعة المسلمين، واعتنق بعضها الإسلام.

فتح المدائن

تابع المسلمون تقدُّمهم بعد المعركة باتجاه المدائن عاصمة يزدجرد وضربوا حصاراً على ضاحيتها بَهُرَسير. ولما رأى الملك الفارسي أن المسلمين أصبحوا على أبواب عاصمته عرض عليهم الصلح مقترحاً أن يجلو عن المدائن الدنيا على ضفة دجلة الغربية تاركاً المنطقة للمسلمين، شرط أن يعترفوا بالنهر حداً فاصلاً بينهم وبينه. رفض سعد هذا العرض وواصل حصاره لبَهُرَسير حتى دخلها. واندفع المسلمون، فعبروا نهر دجلة إلى المدائن ودخلوها. وأصاب المسلمون في المدائن غنائم لا حصر لها[3].

فتح جلولاء وحلوان

لم ييأس يزدجرد بعد سقوط عاصمته، وأرسل جيشاً إلى جلولاء التي تقع

(١) ذو قار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة، بينها وبين واسط. الحموي: جـ ٤ ص ٢٩٣.

(٢) البلاذري: ص ٢٥٥ ـ ٢٦٢. الطبري: جـ ٣ ص ٤٨٠ ـ ٥٧٩ حيث تفاصيل وافية.

(٣) البلاذري: المصدر نفسه ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

على مفترق الطرق إلى أذربيجان[1] والباب[2] والجبال[3] وفارس، فأرسل سعد هاشم بن عتبة على رأس قوة عسكرية، اصطدمت بالجيش الفارسي وأجلته عن المدينة. ولما بلغت يزدجر أنباء هذه الهزيمة، وكان في حلوان[4]، انسحب منها إلى الري في شمال فارس. وأتمَّ سعد فتح باقي مدن العراق مثل تكريت والموصل وماسبذان وقرقيسياء وهيت ودستميسان[5].

فتح الأهواز[6]

ارتأى عمر بن الخطَّاب أن يقف بالفتوح عند حدود العراق، غير أن الأحداث التي حصلت حملته على تعديل سياسته. ذلك أن الفرس لم يعترفوا بالهزيمة، وتمركزت قواتهم في الأهواز في الجنوب الشرقي من العراق، واتخذتها قاعدة انطلاق لشن هجمات خاطفة على المسلمين، فاضطر هؤلاء إلى فتح الأهواز ورامهرمز والسوس وتُسْتَر، لوقف الهجمات الفارسية على صفوفهم وقواعدهم[7].

معركة نهاوند

جهَّز يزدجر جيشاً جديداً أمَّر عليه الفيرزان، واصطدم بالمسلمين بقيادة النعمان بن مقرن المزني في نهاوند من بلاد الجبل جنوبي همذان، وأسفر الصدام عن انتصار المسلمين الذين خسروا قائدهم، كما قُتل القائد الفارسي. تراجعت فلول المنهزمين إلى حصن نهاوند، وامتنعوا فيه، فحاصرهم المسلمون بقيادة حذيفة بن اليمان الذي خلف النعمان، حتى استسلموا وصالح أهل الحصن المسلمين على الأمان، في (شهر محرم عام ١٩هـ/ شهر كانون الثاني عام ٦٤٠م) كما فتحوا همذان[8].

---

(١) أذربيجان: إقليم واسع، حدُّه من بَرذعة مشرقاً إلى أرزنجان مغرباً، ويتصل حدُّه من جهة الشمال ببلاد الديلم والجبل والطرَّم، من مدائنه تبريز. الحموي: جـ ١ ص ١٢٨.

(٢) الباب: يقال له أيضاً باب الأبواب، مدينة ربما أصاب ماء البحر حائطها، وفي وسطها مرسى السفن، وباب الأبواب على بحر طبرستان، وهو بحر الخزر (قزوين). المصدر نفسه: ص ٣٠٣.

(٣) الجبال: اسم علم للبلاد المعروفة باصطلاح العجم بالعراق، وهي ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٩٩.

(٤) حلوان: هي في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٢٩٠.

(٥) البلاذري: ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥، ٢٩٩.

(٦) الأهواز: سبع كور بين العراق وفارس. الحموي: جـ ١ ص ٢٨٤.

(٧) الطبري: جـ ٤ ص ٨٣ ـ ٩٣.

(٨) المصدر نفسه: ص ١١٤ ـ ١٣٩ وقارن بالبلاذري ص ٣٠٠ ـ ٣٠٦، وابن الأثير، أبو الحسن علي... المعروف بالجزري: الكامل في التاريخ: جـ ٢ ص ٣٩٠. وهمذان مدينة بالجبال.

تُعدُّ معركة نهاوند خاتمة المعارك الكبرى في تاريخ الفتوح الإسلامية في فارس، وسماها المسلمون «فتح الفتوح»[1] لأنها فتحت الطريق أمامهم للقضاء على سلطان الأكاسرة، وترتب عليها سقوط عدد من المدن منها أصفهان والري وأذربيجان والباب وخراسان، في عمليات متلاحقة[2].

ولم يلبث يزدجر حين علم بانتصار المسلمين وتوغلهم في بلاده أن عبر نهر جيحون ونزل على خاقان الترك في سمرقند لاجئاً. وبفراره تمَّ القضاء على دولة الأكاسرة من بني ساسان[3].

الجبهة الشامية

فتح فحل ودمشق وحمص

وضع عمر بن الخطَّاب خطة عسكرية لاستكمال فتوح الشام وأرسلها إلى قائده أَبي عبيدة، وتقضي بفتح دمشق وفحل وحمص. باشر أَبو عبيدة تنفيذ العمليات العسكرية التي أسفرت عن فتح فحل في (٢٨ ذي القعدة عام ١٣هـ/ ٢٣ كانون الثاني عام ٦٣٥م)[4] ودمشق في (١٥ رجب عام ١٤هـ/ ٣ أيلول عام ٦٣٥م)[5] وبعلبك في (٢٥ ربيع الأول عام ١٥هـ/ ٦ أيار عام ٦٣٦م)[6] وحمص في (٢١ شهر ربيع الآخر/ أول شهر حزيران)[7].

معركة اليرموك

بلغ المسلمين أن هرقل دفع بجيش بيزنطي آخر إلى المعركة، وهو يزحف باتجاه الجنوب، وتعداده مائة ألف مقاتل هم خليط من الروم والأرمن والعرب المتنصِّرة والروس والصقالبة والفرنجة، وأسند قيادته إلى باهان الأرميني نظراً لعبقريته في الحرب وشدة بأسه وجلده في القتال، وتمركز هذا الجيش في اليرموك وفقاً لتوجيهات هرقل، وانتشر أفراده في العمق غرباً باتجاه وادي الرقاد بحيث حصروا أنفسهم بين هذا الوادي غرباً ووادي اليرموك.

اضطر المسلمون، نتيجة هذا التحرك البيزنطي، إلى الجلاء عن المناطق

---

(١) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ٣٩٩.
(٢) البلاذري: ص ٣٠٨ ـ ٣١٦.
(٣) البلاذري: ص ٣١١ ـ ٣١٢.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٢٢، وقارن بالطبري: ج٣ ص ٤٣٤ ـ ٤٤١.
(٥) الطبري: المصدر نفسه: ص ٤٤١.
(٦) الأزدي: ص ١٤٤.
(٧) البلاذري: ص ١٣٦ ـ ١٣٧، وقارن بالطبري: ج ٣ ص ٥٩٩ ـ ٦٠١.

الشمالية، واتَّجهوا نحو الجنوب استعداداً للتصدي لهذا الجيش البيزنطي الزاحف، حتى وصلوا إلى اليرموك وتعدادهم ستة وأربعين ألف مقاتل، وفي رواية ستة وثلاثين ألفاً، وتمركزوا في مواجهة الجيش البيزنطي غربي وادي الهرير، وجعلوا أذرعات[١] خلف ظهورهم. وبعد أن تعبَّأ الجيشان التحما في رحى معركة ضارية استمرت عدة أيام، تجلّت فيها عبقرية خالد بن الوليد العسكرية، وانتهت بانتصار المسلمين، وكان تيودور أخو هرقل من بين القتلى، وقد حدثت المعركة في (شهر رجب عام ١٥هـ/ شهر آب عام ٦٣٦م)[٢].

إتمام فتوح الشام

انهار سلطان البيزنطيين بعد معركة اليرموك، وفُتحت الطريق أمام المسلمين للتوغل بعيداً في شمالي بلاد الشام مرة أخرى، بالإضافة إلى ساحلها، وتمكَّنوا من فتح حماة، وشيزر، ومعرة النعمان، وقنسرين، وحلب، وأنطاكية، ومنبج، ودلوك ورعبان، ثم عبرت جيوشهم درب بغراس من أعمال أنطاكية إلى بلاد البيزنطيين بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي وهو أول من سلك الدرب من المسلمين، وفتح خالد بن الوليد مرعش. وتوَّج المسلمون فتوحهم بفتح بيت المقدس في (شهر ربيع الآخر عام ١٦هـ/ شهر أيار عام ٦٣٧م)، وتسلمها عمر بنفسه من البطريرك صفرونيوس، ولاذ حاكمها الأرطبون بالفرار إلى مصر[٣].

وما أن انتهى المسلمون من فتح دمشق حتى وجَّه يزيد بن أَبي سفيان اهتمامه إلى فتح مدن الساحل الشامي، وساعده أخوه معاوية، ففتح صيدا وعرقة وجبيل وبيروت، وصور وعكا[٤]، وقيسارية.

أما هرقل فقد خرج من بلاد الشام عائداً إلى القسطنطينية مودعاً سوريا قائلاً «عليك السَّلام يا سوريا تسليم مودع لم يقض منك وطره، وهو عائد»[٥].

طاعون عمواس

حدث في العام (١٨هـ/ ٦٣٩م) أن انتشر وباء الطاعون بصورة مريعة في بلاد

---

(١) أذرعات: بلد في أطراف الشام، يجاور أرض البلقاء وعمّان. الحموي: جـ ١ ص ١٣٠.

(٢) الطبري: جـ ٣ ص ٣٩٤ ـ ٤٠٥، وقارن بالبلاذري: ص ١٤٠ ـ ١٤٣.

(٣) الطبري: المصدر نفسه ص ٦٠٧ ـ ٦١٣. البلاذري: المصدر نفسه ص ١٥٠ ـ ١٥٧، ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٤) الطبري: المصدر نفسه ص ٦٠٣ ـ ٦٠٤، جـ ٤ ص ١٠٢، ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٥) المصدر نفسه: جـ ٣ ص ٦٠٣.

الشام، وعُرف هذا الطاعون بطاعون عمواس، نسبة إلى قرية من قرى فلسطين. وقد تسبَّب هذا الطاعون في وفاة خمسة وعشرين ألف شخص من بينهم بعض كبار الصحابة كأَبي عبيدة، ومعاذ بن جبل، أحد بني سلمة من الخزرج، والفضل بن العبَّاس، وشرحبيل بن حسنة، وسهيل بن عمرو، ويزيد بن أَبي سفيان، وعامر بن غيلان الثقفي(١).

فتوح الجزيرة الفراتية

كانت فتوح الجزيرة ضرورة عسكرية لتأمين مكاسب فتوح الشام. فقد ولَّى عمر بن الخطَّاب عياضاً بن غنم، بعد وفاة أَبي عبيدة، حمص وقنسرين والجزيرة، وتمكَّنت جيوشه من فتح مدن هذه الأخيرة مثل: الرقَّة، والرها، وحران، وسميساط، ونصيبين، وقرقيسياء، وسنجار، وميافارقين، وآمد، وحصن كفرتوثا، وماردين، ودارا، وأرزن، وبلغت بدليس، وتجاوزت إلى خلاط حيث صالحت حاكمها. وهكذا تمَّ فتح الجزيرة بسهولة ويسر في مدة سنتين (١٨ ـ ١٩هـ/ ٦٣٩ ـ ٦٤٠م)(٢).

الجبهة المصرية

أسباب فتح مصر

تولى يزيد بن أَبي سفيان حكم ولاية الشام، ولعل ذلك ما دفع عمرو بن العاص إلى التفكير في فتح مصر ليكون والياً عليها. والحقيقة أن مصر لم تكن غريبة عليه، فقد كان ملماً بأحوالها أثناء اشتغاله بالتجارة من قبل.

كانت مصر بظروفها السياسية والدينية امتداداً طبيعياً لبلاد الشام مع بعض الاختلاف الذي يربط هذه، أَو تلك، بالحكم المركزي البيزنطي، الذي كان يدين بالمذهب الملكاني. وقامت بين مصر وبيزنطية علاقات مباشرة بواسطة حاكم بيزنطي معروف عند العرب بالمقوقس. وعانى المصريُّون الذين اعتنقوا المذهب اليعقوبي من الاضطهادات الدينية، ومعاملة البيزنطيين القاسية، مما جعلهم يساندون المسلمين عندما قدموا إلى مصر، لما سمعوا عنهم من التسامح وحسن المعاملة، كما استغل البيزنطيُّون أرض مصر لصالح دولتهم، ورافق ذلك تدهور في الوضع التجاري.

ويبدو أن خطة مهاجمة مصر ترتبط بالموقف الذي اتخذه الأرطبون، حاكم بيت المقدس السابق، عندما فرَّ مع قوَّاته إلى مصر، قبل أن يتسلمها عمر بن

---

(١) الطبري: جـ ٤ ص ٦٠ ـ ٦٦.

(٢) البلاذري: ص ١٧٦ ـ ١٨٢.

الخطاب، واتخذها مركزاً لمضايقة المسلمين، الأمر الذي دعا الخليفة إلى مطاردته بناء على اقتراح عمرو بن العاص بعد أن شرح للخليفة أهمية مصر من الناحيتين الاقتصادية، بفعل كثرة مواردها، والسياسية لتأمين الإنجازات التي حقَّقها المسلمون في بلاد الشام، بفعل موقعها المهم[1].

ويبدو أن عمراً كان متخوفاً من الدخول في مغامرة جديدة قد تنتهي بكارثة، وكان كارهاً لغزوها إشفاقاً على المسلمين. فلم يزل عمرو يُعظِّم أمرها عنده، ويُهوِّن عليه فتحها حتى أقنعه، فعقد له على ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل، وفي رواية على أربعة آلاف[2].

وهناك فريق من الرواة ينسب فكرة فتح مصر إلى عمر بن الخطَّاب، ويذكرون أنه كتب، وهو في الجابية، إلى عمرو بن العاص يأمره بالذهاب إلى مصر لفتحها، فوافاه كتابه وهو بقيسارية، في فلسطين، وأجاز له بأن يندب الناس على السير معه[3].

والحقيقة أن فكرة فتح مصر، أُثيرت لأول مرة عندما قدم عمر بن الخطَّاب إلى الجابية في عام (١٧هـ/ ٦٣٨م) للإشراف على ترتيب أوضاع البلاد المفتوحة، وقد أدرك، آنئذٍ، وهو القائد القدير، والسياسي البعيد النظر، ضرورة فتح مصر بهدف:

- نشر الدِّين الإسلامي في ربوعها.
- تجنُّب احتمال تطويق المسلمين، من جانب البيزنطيين، من جهة الجنوب والغرب، وبخاصة أن الأرطبون احتمى بهذا البلد، وراح يضايق المسلمين في بلاد الشام.
- الاستفادة من غنى مصر.
- استمرار التواصل مع بلاد الشام. والجدير بالذكر أن البلدين كانا مرتبطين، منذ القِدم، بمصالح سياسية وعسكرية وتجارية[4].

فتح حصن بابليون

تقدم عمرو بن العاص إلى الفرما، التي تعدُّ مفتاح مصر، وفتحها في عام (١٩هـ/ ٦٤٠م)[5]، وواصل تقدُّمه حتى وصل إلى بلبيس[6] وفتحها أيضاً، بعد أن

(١) ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن: فتوح مصر والمغرب ص ٨٠ ـ ٨١.
(٢) البلاذري: ص ٢١٤. اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٨. (٣) البلاذري: المصدر نفسه.
(٤) سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ الدولة العربية ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦.
(٥) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٨. ابن الأثير: جـ ٢ ص ٣٩٥. والفرما: مدينة على الساحل من ناحية مصر. الحموي: المصدر نفسه جـ ٤ ص ٢٥٥.
(٦) بلبيس: مدينة بينها وبين الفسطاط عشرة فراسخ على طريق الشام. الحموي: المصدر نفسه جـ ١ ص ٤٧٩.

اصطدم بجيش بيزنطي يقوده الأرطبون، ثم زحف إلى أم دنين[1]، والتقى فيها بجيش بيزنطي آخر، وأجبره على التراجع، والتحصُّن في بابليون[2] حيث يقيم المقوقس. وحاصر عمرو الحصن، وحاول اقتحامه، إلّا أنه فشل في ذلك، بسبب قلَّة عدد جنوده، واكتفى بعملية الحصار، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه مدداً[3].

أدرك المقوقس مدى الخطر الذي سبَّبه الحصار، فحاول التخلُّص منه، وعرض على عمرو بن العاص الانسحاب مقابل دفع بعض المال. والواقع أن الزحف الإسلامي إلى مصر كان من ضمن خطة عسكرية، دينية وسياسية، واقتصادية بهدف الاستقرار، ونشر الدين الإسلامي، ولايمكن المساومة عليها بالمال، ونتيجة لذلك باءت المفاوضات بين الطرفين بالفشل[4].

ثم حدث أن وصلت الإمدادات الإسلامية، وعلى رأسها أربعة من كبار الصحابة، هم الزُّبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، والمقداد بن الأسود، ومسلمة بن مخلد. وشدَّدت القوات الإسلامية الحصار على الحصن، واضطر المقوقس إلى قبول شروط الصلح التي فرضها المسلمون عليه والتي لم تختلف في مضمونها عما أقرَّه عمر في بلاد الشام[5]، إلّا أنه اشترط موافقة الأمبراطور البيزنطي عليها، فتطلَّب الأمر التوجه إلى القسطنطينية لعرضها على الأمبراطور والحصول على موافقته.

ويبدو أن هرقل هاله ما أقدم عليه واليه في مصر والذي يقضي بضياع هذا البلد بعد أن ضاعت بلاد الشام، فرفض شروط الصلح ولام المقوقس، وعنَّفه، وطلب إليه معاودة القتال، لكن المسلمين تمكَّنوا من فتح الحصن في (جمادى الآخرة ٢٠هـ/ حزيران ٦٤١م)، واستقر عمرو وجنوده في الفسطاط، وبعث بقوات لفتح مناطق مصر وبخاصة الإقليم الجنوبي[6].

فتح الإسكندرية

خشيت حامية الإسكندرية على نفسها بعد سقوط حصن بابليون في أيدي المسلمين. وأيقن البيزنطيون من جانبهم أنَّهم إن لم يسارعوا إلى إرسال نجدات

---

(١) أم دنين: قرية كانت بين القاهرة والنيل. الحموي: المصدر نفسه: ص ٢٥١.
(٢) بابليون: اسم عام لمصر بلغة القدماء، وقيل هو اسم لموضع الفسطاط خاصة. الحموي: جـ ١ ص ٣١١.
(٣) ابن عبد الحكم: ص ٨١. اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٨.
(٤) الطبري: جـ ٤ ص ١٠٥.
(٥) ابن عبد الحكم: ص ١٠٣.
(٦) المصدر نفسه: ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

إليها، فإنَّها سوف تسقط هي الأخرى. وتُعدُّ الإسكندرية ذات أهمية اقتصادية بالنسبة لبيزنطية، فهي مرفأ تجاري على البحر المتوسط، والعاصمة الثانية بعد القسطنطينية، وقصبة الديار المصرية، وسقوطها سوف يؤدي حتماً إلى زوال ملكهم في مصر.

فأسرع الأمبراطور البيزنطي بإرسال الجيوش إليها لحمايتها وأمر بإغلاق أبوابها في وجه المسلمين، وضرب هؤلاء الحصار عليها وفتحوها عنوة في (أواخر عام ٢٠هـ/ أواخر عام ٦٤١م)[١]. وحاول المقوقس، خلال مدة الحصار التي استمرت أربعة أشهر، أن يتوصَّل إلى عقد هدنة مع المسلمين، ولكن عمرو رفض ذلك.

وكان فتح الإسكندرية إيذاناً بسقوط مصر كلها في أيدي المسلمين الذين فتحوا مناطق الصعيد والدلتا.

استئناف التوسع نحو الغرب

تطلَّع عمرو بن العاص، بعد استقرار المسلمين في مصر، إلى خارج حدود هذا البلد، فارتأى ضرورة تأمين الغطاء الدفاعي للحدود الغربية بفتح المواقع التي تشغلها حاميات بيزنطية، في برقة وطرابلس الغرب، ونجح في ذلك في عام (٢٢هـ/ ٦٤٣م)، ثم توقفت العمليات العسكرية غرباً بفعل قرار من المدينة[٢].

مؤسسة الدولة في عهد عمر بن الخطَّاب

النِّظام السياسي

حين خرج المسلمون من جزيرتهم فاتحين، لم يكونوا قد استكملوا تطورهم نحو التنظيم السياسي والإداري الذي بلغ مستوى معيناً في البلدان المفتوحة، بالإضافة إلى أنهم لم يمارسوا، خلال تاريخ حياتهم، نوع السلطة السياسية والإدارية التي كانت سائدة في المجتمعات التي وجدوها قائمة في هذه البلدان.

والواقع أن عهد عمر كان عهد فتوح حالف النصر فيه المسلمين، فتوسعت رقعة دولتهم. وكان لا بد لهذه الدولة من تنظيم حتى تستمر، وقد استخلص عمر بن الخطَّاب القواعد العامة للشريعة الإسلامية، بالإضافة إلى اجتهاداته الجريئة، تفاصيل خطة عملية تطبيقية لسياسة القبائل وجيوش الفتح وسياسة البلدان المفتوحة، وإن

(١) ابن عبد الحكم: ص ١٠٦ ـ ١١٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢.

التطوير الذي طرأ على أجهزة الحكم في عهده يُعدُّ نقلة مهمة في إطار بناء الدولة بما يتجاوز مفهوم العرب لها.

التفت عمر، قبل كل شيء، إلى تنظيم مركز القوة الدافعة من بلاد العرب، فكانت الوحدة السياسية للعرب بعض ما شُغِل به، فأجلى نصارى نجران عن الجزيرة العربية، كما أجلى اليهود من خيبر وفدك إلى بلاد الشام، فتحقَّقت بذلك وحدة الجزيرة العربية.

وعمد عمر إلى إزالة الفوارق بين العرب، فرفع عن أهل الرِّدَّة ما كان أَبو بكر الصدِّيق قد فرضه عليهم في ألا يحاربوا في صفوف المسلمين، كما ردَّ السبي من العرب إلى عشائرهم، وأعاد إليهم حريتهم. وأملَتْ المصلحة العامة أن يجعل هجرة النبي مبدءاً للتاريخ الإسلامي[1]، كما طبَّق نظاماً سياسياً هو استمرار للأساس الذي قام عليه في عهد النبي وفي عهد أَبي بكر.

القضاء

حدّد عمر نظام القضاء وأصوله في العهد الذي ولَّى بموجبه أبا موسى الأشعري[2]، وقد استلزمت الفتوح الإسلامية التوسُّع في نظام القضاء، فكان يرسل إلى كل مصر من الأمصار قاضياً يختاره ليتولى الحكم في المسائل الدينية أَو الدنيوية بين أهل المصر، وليشرف على الفيء والغنائم، ثم خصَّص رجلاً آخر يقوم بتقسيم الغنائم. ويعدُّ عمر أول من فصل السلطة القضائية عن سلطة الحكام، فكان القضاة يعيَّنون منه مباشرة، ويتَّصلون به فيما يرونه من شؤون المسلمين، دون تدخُّل من ولاة الأقاليم[3]. وأوجد عمر إلى جانب القضاء ما يشبه ديوان المحاسبة، فكان لا يصدر قراراً بمعاقبة أحد من ولاته أَو عماله إلَّا بعد تحقيق دقيق.

تدوين الدواوين

كان الديوان سجلاً أُحصي فيه من فُرض لهم العطاء من رجال الجيش وغيرهم، ويبدو أن تدفق الأموال بكثرة على المدينة، بفعل اتساع رقعة الفتوح، دفعت عمر إلى التفكير في وضع نظام لإحصائها وتوزيعها. ويُعدُّ الديوان نقلة نوعية في مسار تطور الدولة ونموها، وهو أول أشكال الإدارة العربية الجديدة المتأثِّرة

---

(١) الطبري: جـ ٤ ص ٢٠٩.

(٢) المبرد، أَبو العباس محمَّد بن يزيد: الكامل في اللغة والأدب ص ١٦ ـ ٢٠.

(٣) الشامي، أَحمد: الخلفاء الراشدون ص ٢٦٠.

بتجارب شعوب البلاد المفتوحة، كما كان بداية التحوُّل الإداري في الانتقال من القاعدة البسيطة في المعاملات المبنية على التوزيع المباشر للموارد المالية بين المسلمين وفقاً لمضمون الآية في توزيع الغنائم، وقد ساهم في خلق إدارة مالية تعمل على تنظيم عائدات الخلافة وتوزيعها وفقاً لجداول ثابتة.

أقام عمر بن الخطَّاب تنظيم الديوان في عام (٢٠هـ/ ٦٤٠م) على ثلاثة أُسس هي:

- درجة القرابة والنَّسب من الرَّسول.
- السابقون الأوَّلون في الإسلام.
- درجة الجهاد والبلاء والشجاعة والإقدام في سبيل نشر الإسلام[١].

وأنشأ عمر بيت المال لحفظ الأموال الفائضة عن أعطيات الجند، والإنفاق الضروري منها على مصالح المسلمين، وكانت موارده متعددة الجوانب أساسها الزَّكاة والصدقات والجزية والعشور والفائض من الخراج، وأبقى على العملات المتداولة في البلاد المفتوحة، وهي كسروية في العراق وفارس، وهرقلية في بلاد الشام ومصر.

الإدارة

أبقى عمر على معظم النُّظم الإدارية التي كانت مطبَّقة في البلاد التي تمَّ فتحها، بفعل أن المسلمين الفاتحين لم يكن لهم عهد بالنُّظم الإدارية أو المالية ما يمكِّنهم من تغيير نظم البلاد المفتوحة التي سادت فيها النُّظم الفارسية والبيزنطية. لكن المسلمين أحدثوا بعض التغييرات الضئيلة الضرورية لتتماشى مع تعاليم الإسلام ومع مصلحة أهل البلاد المفتوحة. فقد حافظوا على هيكل الجهاز الحكومي، واستمر عمَّال الدواوين الذين لم يغادروا البلاد خلال الفتح، في أعمالهم، وسمح لهم بالكتابة في سجلاتهم بلغة بلادهم. وأقرَّ النُّظم الفارسية فيما يختص بالتقسيمات الإدارية في العراق وفارس التي تُعرف بالرساتيق، كما أبقى على التقسيمات البيزنطية في بلاد الشام، وكانت تسمى نظام البنود أو الثغور، وعرف هذا النظام باسم الأجناد، بالإضافة إلى ما كان في مصر من تنظيمات، وكانت تسمى الكور، مفردها كورة، ومعناها المركز.

---

(١) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم: كتاب الخراج ص ٤٢ ـ ٤٧. أبو عبيد القاسم بن سلام: كتاب الأموال ص ٢٣٥ ـ ٢٣٩.

مقتل عمر بن الخطَّاب

خرج عمر من منزله فجر يوم الأربعاء (لأربع بقين من شهر ذي الحجَّة عام ٢٣هـ/ أوائل شهر تشرين الثاني عام ٦٤٤م) ليؤم الناس لصلاة الفجر، حتى إذا انتظم جمع المصلين، دخل في تلك اللحظة رجل فظهر فجأة بجانبه وطعنه عدة طعنات بخنجر مسموم. كان هذا الرجل أبا لؤلؤة فيروز، غلام المغيرة بن شعبة، وهو من سبي فارس. وتوفي عمر بعد ثلاثة أيام، ودفن بجوار قبر أَبي بكر الصدِّيق الذي يلي قبر النبي[(١)].

والراجح أن مقتل عمر كان نتيجة مؤامرة فارسية ـ يهودية ـ نصرانية محكمة، بعد استبعاد الدافع الشخصي لأَبي لؤلؤة، إذ أن تذمره من الخراج المفروض عليه للمغيرة ومقداره درهمين لا يستحق هذه المجازفة، ولا يستطيع الباحث أن يتجاهل ربط هذه القضية بعوامل خارجية، وهي أن تكون سياسية في مضمونها، بفعل أن الفرس واليهود والنَّصارى كانت في نفوسهم حفيظة على العرب بعامة وعلى عمر بخاصة، بعد أن غلبهم المسلمون على أمرهم وتولوا حكم بلادهم.

عثمان بن عفَّان

٢٤ ـ ٣٥ هـ/ ٦٤٤ ـ ٦٥٦م

تولية عثمان بن عفَّان الخلافة

طلبت جماعة من كبار الصحابة من عمر أن يستخلف قبل وفاته، فتريَّث، وكان يقول إنه لا يريد أن يتحمَّل تبعات الخلافة حياً وميتاً[(٢)]. ويبدو أنَّه لم يكن هناك مرشَّح واضح، كما أنه كان يريد العودة إِلى نظام الانتخاب والشورى إنما بعدد محدود من الأفراد، فرشَّح ستة رجال من الصحابة كلهم من قريش لاختيار أحدهم خليفة للمسلمين، وقد استبعد الأنصار على الرغم من مآثرهم واستحقاقهم. والراجح أن الأمر كان يتعلَّق بشكل محتوم بقريشيين، منذ أيام أَبي بكر، وبقريشيين بارزين[(٣)]، وهم: علي بن أَبي طالب من بني عبد المطلب، وعثمان بن عفَّان من بني أمية، وعبد الرَّحمن بن عوف من بني زهرة، وسعد بن أَبي وقاص من بني زهرة، والزُّبير بن العوّام من بني عبد العزى بن قصي، وطلحة بن عبيد اللّه من بني تيم

---

(١) الطبري: جـ ٤ ص ١٩٠ ـ ١٩٤.

(٢) المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٣) جعيط، هشام: الفتنة ص ٥٦.

عشيرة أَبي بكر، وأشرك معهم ابنه عبد اللَّه على أن لا يكون له من الأمر شيء، وخصَّه بمهمة الاختيار من بين أعضاء المجلس في حالة تساوي عددهم بعد التصويت، مشترطاً قبول مختلف الأطراف بذلك[1]، مانحاً إيَّاه سلطة تحكيمية، غير أنه لن يظهر له أي أثر في مجرى الأحداث.

عقد مجلس الشورى اجتماعه الأول، بناء على رغبة عمر قبل وفاته، إلَّا أن أعضاءه اختلفوا فيما بينهم، ولم يتوصَّلوا إلى نتيجة تُذكر. وعُقِدَ الاجتماع الثاني بعد وفاته[2]، وأشارت الروايات إلى عدم اتفاق أعضاء مجلس الشورى على رجل منهم. فأخذ عبد الرَّحمن بن عوف زمام المبادرة بهدف حسم الأمر، فأخرج نفسه من مجال الاختيار، لكنه طلب بالمقابل أن يُعطى حق اختيار الخليفة المقبل بنفسه، وأعطاهم عهداً أن لا يميل إلى هوى، وأن يُؤثر الحق، وأن يجتهد للأمة، وأن لا يحابي ذا قرابة[3]، وحصل منهم على يمين المبايعة لمن يختار.

وحاول عبد الرَّحمن بن عوف، بعد أن انحصر الترشيح بين عثمان وعلي، معرفة رأي الأمَّة، فاستشار مختلف فئات المجتمع، فأشارت عليه الأكثرية باختيار عثمان. ويبدو أن بني أمية أدَّوا دوراً دعائياً بارزاً لترجيح انتخابه بهدف تعزيز نفوذهم الذي فقدوه بعد فتح مكة، ونجحوا في استعادته في عهد أَبي بكر وعمر[4]. واشترط على الرجلين العمل بكتاب الله وسنَّة نبيِّه وسيرة الخليفتين من بعده، وتجنُّب حمل الأقارب على رقاب الناس. فقبل عثمان ورفض علي متعللاً بأنه سوف يبذل جهده، مما دفعه وأصحاب الشورى وعامة الناس إلى اختيار عثمان[5]، والواقع أن الساحة السياسية تنازعها آنذاك تياران:

الأول: ذو ارتباط بالسابقة في الإسلام وبروابط الدم بين عشيرة النبي الأقربين الذين كان علي مرشحهم.

الثاني: قريشي متصل بالقابلية على التمثيل الأفضل لقريش وبالتالي مُقرَّب من الأمويين، وكان عثمان مرشحهم.

ونتيجة لذلك تفاوتت ردود الفعل على نتائج مجلس الشورى بين التأييد والرفض. فقد عارضها عدد من الصحابة لاعتقادهم بأن اختيار عثمان يُعدُّ تجاوزاً

(١) البلاذري: أنساب الأشراف: جـ ٦ ص ١٢٠ ـ ١٢١ الطبري: جـ ٤ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩.
(٢) الطبري: المصدر نفسه: ص ٢٢٩. (٣) المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٢٣١ ـ ٢٣٢.
(٤) الدوري، عبد العزيز: مقدمة في تاريخ الإسلام ص ٥٠.
(٥) البلاذري: جـ ٦ ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

لأحقية علي في الخلافة، ولذلك حفلت الروايات التي استعرضت مواقفهم بالإسقاطات الشيعية والعباسية الواضحة. ويلاحظ أن الشخصيات المعارضة ستؤدي دوراً ما في الفتنة من خلال معارضتها الصارمة لسياسة عثمان[١]. كان من بين هؤلاء، العبَّاس بن عبد المطلب، والمقداد بن عمرو، وأبو ذر الغفاري، وعمَّار بن ياسر. وأبرزت الروايات تأييد عدد من الصحابة لقرار مجلس الشورى بمبايعة عثمان بالخلافة، ومع أنَّها تباينت في توضيح أسباب هذا التأييد، إِلَّا أنَّها حصرتهم في أصحاب المصالح الخاصة، منهم المغيرة بن شعبة، وأقارب عثمان، مثل عبد اللّه بن أَبي ربيعة، وعبد اللّه بن أَبي سرح[٢].

وبهذا تمَّت بيعة عثمان يوم الاثنين (لليلة بقيت من شهر ذي الحجة عام ٢٣هـ/ ٥ تشرين الثاني عام ٦٤٤م) مستقبلاً بخلافته شهر محرم عام ٢٤هـ[٣].

الفتوح في عهد عثمان بن عفَّان

بلغت الدولة الإِسلامية مدى بعيداً في توسعها في عهد عمر بن الخطَّاب، فضمَّ المسلمون أجزاء واسعة من أراضي الأمبراطوريتين البيزنطية والفارسية. وعندما تولَّى عثمان سدة الخلافة، حاولت بعض الأقاليم الانتفاضة على حكم المسلمين، فأرسل عثمان الجيوش إليها، فأخضعت أهلها وأعادتهم إلى حظيرة الدولة، نذكر منها: إعادة فتح همذان، وغزو الري، وإعادة فتح الإِسكندرية وكرمان وسجستان وخراسان ونيسابور، وإخضاع الثائرين في أذربيجان وأرمينية، واستعاد المسلمون بعض مدن الساحل التي كان البيزنطيون قد استعادوها بدورهم من الحكم الإِسلامي[٤].

ومن جهة أخرى، واصل عثمان عمليات الفتوح حيث ظلت الأمصار، وبخاصة الكوفة والبصرة، تمارس مهامها بوصفها مراكز انطلاق للجيوش الإِسلامية شرقاً، ففتح المسلمون داربجرد وطبرستان، وجرجان، والجوزجان، والطالقان[٥].

أما على الجبهة الشامية فقد استمرت الجهود في مواجهة البيزنطيين، وبخاصة على طول الساحل الشامي، ففتح المسلمون أرمينية في الشمال، وقرطاجنة في

---

(١) ملحم، عدنان محمَّد: المؤرخون العرب والفتنة الكبرى ص ٩٣.

(٢) الطبري: جـ ٤ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤، ٢٣٩.

(٣) البلاذري: جـ ٦ ص ١٢٩. المصدر نفسه: جـ ٦ ص ٢٢٧ ـ ٢٤١.

(٤) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٦١ ـ ٦٤. البدء والتاريخ المنسوب إلى المقدسي، مطهر بن طاهر جـ ٥ ص ١٩٤، ١٩٨.

(٥) الطبري: جـ ٤ ص ١٧٤ ـ ١٨٦، ٢٤٦ ـ ٢٤٧، ٢٥٠.

أفريقية، وغزا معاوية بن أَبي سفيان عمورية الواقعة في قلب آسيا الصغرى، وتولى الإشراف على الغزوات الموسمية المسماة بالصوائف والشواتي[١].

ويبدو أن هذه الترتيبات لم تكن كافية لحماية بلاد الشام من الخطر البيزنطي، وكان لا بد من مواجهتهم بحرياً. ففتح معاوية جزيرة قبرص في عام (٢٨هـ/ ٦٤٨م) بتشجيع من عثمان، ثم فتح صقلية، وقاد حملة على رودس، ثم أخضع قبرص مرة أخرى. إلَّا أن المواجهة الكبرى حصلت عام (٣٤هـ/ ٦٥٥م) حينما هزم المسلمون البيزنطيين في معركة ذات الصواري في منطقة بحرية تجاه ساحل كيليا بآسيا الصغرى، حيث دارت بين الأسطولين الإسلامي والبيزنطي رحى معركة بحرية ضارية، جُرح فيها الأمبراطور البيزنطي قنسطانز، وقد سميت هذه المعركة بذات الصواري لكثرة عدد صاريات السُّفن التي اشتركت فيها[٢].

توقفت الأعمال العسكرية بعد هذه المعركة، حيث انشغل المسلمون بأحداث الفتنة وتطوراتها، وانهمك البيزنطيون بمواجهة الاضطرابات الداخلية.

أسباب الاضطرابات في الدولة الإسلامية

من التبسُّط في الأحكام تقسيم عهد عثمان، الممتد على اثني عشر عاماً، إلى مرحلتين زمنيتين، مدة كل منهما ستة أعوام. المرحلة الأولى هادئة، ساكنة ومُرضية، والمرحلة الثانية مضطربة ومتوترة تتفاقم حتى تفضي إلى مقتله. وعلى الرغم من أن لهذا التقسيم مبرراته إلَّا أن العناصر التي أثارت الأزمة كانت موجودة من قبل، منذ المرحلة الأولى، إذ أن قسماً كبيراً من الانتقادات التي استخدمت لتعبئة المجتمع ضد عثمان لها جذور في الأعوام الستة الأولى من خلافته، ولذلك فإن سلوك عثمان لم يُظهر تبدلاً مفاجئاً، إلَّا أن الاتجاه الاجتماعي العام هو الذي بلور استياء النَّاس منه منذ عام ٢٩هـ، كما لو أن تراكم الوقائع الصغيرة اتخذ اتجاهاً ومعنى، وأضحى غير قابل للتسامح[٣].

كان عثمان شيخاً مسنّاً، عندما تولى الخلافة، طيِّب القلب، حسن النيَّة، ليِّن العريكة، ويبدو أن صفاته جعلته هدفاً سهلاً للطامعين، لأن شؤون الحكم تتطلَّب، إلى جانب المرونة السياسية، الحزم مع توفير العدالة.

---

(١) خليفة بن خياط، أَبو عمرو: تاريخ خليفة بن خياط ص ٩٢.

(٢) الطبري: جـ ٤ ص ٢٥٨، ٢٨٨ ـ ٢٩٢، ٣١٧.

(٣) البلاذري: جـ ٦ ص ١٣٣. جعيط: ص ٦٥ ـ ٦٦. ملحم: ص ١٠٦.

الواقع أن عثمان حافظ على البُنى الاجتماعية والمالية المنبثقة عن الفتوح، فهنالك الأمصار بمن فيها من المحاربين المكرسين للجهاد، وهناك السلطة المركزية في المدينة مع بيت مالها وولاتها وعمَّالها، تتابع دورها الرئيس مشرفة على نشاط مقاتليها وعلاقتهم بالأرض التي يفتحونها، والشعوب التي ينتصرون عليها، وبالتالي لم يُعد النظر في شيء من هذا التوجه القيادي[١].

وشهد المجتمع الإسلامي تدفقاً للثروات على بيت المال، ترك آثاره على مختلف نواحي الحياة. إذ وجدت الثروات طريقاً لها إلى أيدي الجنود والقادة والتجار، وحتى المواطنين العاديين، وتمركزت القوة المالية والعسكرية للدولة، في الأمصار. كما تدفقت الثروات على المدينة، وتركزت فيها حيث كانت تُنقل إلى هناك في ظل ضآلة النفقات. فالعطاء لا يطال سوى بضع مئات أو آلاف من الناس لا يمكن مقارنتهم مع التجمعات الضخمة في العراق والشام، كما أن المدينة لم تكن تشارك في النفقات الإدارية والعسكرية، التي كانت تُجبى محلياً في الأمصار والولايات. ولذلك برزت مظاهر الثروة في العاصمة بشكل مثير للانتباه. ففيها تتجمع الهبات والأعطيات، وتتكدَّس الثروات، ويقيم أكثر الناس ثراء[٢]، وكأن عثمان اتبع منذ بداية عهده سياسة حرية منح الهبات، متأثِّراً بالظروف السياسية والاقتصادية والعسكرية التي رافقت تسلمه منصب الخلافة.

استعرضت المصادر الانتقادات التي وُجِّهت ضد سياسة عثمان متأثِّرة بولاءاتها السياسية وميولها المذهبية، فصبغت سياسته بألوان قاتمة، لكن القراءة الموضوعية لمختلف الروايات والمقارنة بينها توصلنا إلى الحقيقة التاريخية.

لقد شهد المجتمع الإسلامي في عهد عثمان تحولاً جذرياً في مقوماته وأُسسه وطبيعة العلاقات بين أفراده، وهي حالة طبيعية نظراً لتغيُّر الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمسلمين بعامَّة.

ومن بين المآخذ التي ذكرها المؤرخون، وعدُّوها أسباباً للاضطرابات، نذكر الظواهر التالية[٣]:

ـ سمح لجمهور الصحابة بالانسياح في الأمصار، منهياً التقليد الذي فرضه

---

(١) جعيط: المرجع نفسه ص ٦٠.

(٢) ملحم: ص ٩٧. عرموش، أحمد راتب: الفتنة ووقعة الجمل، رواية سيف بن عمر، دار النفائس، المقدمة.

(٣) انظر البلاذري: جـ ٦ ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

عمر بن الخطَّاب عليهم، لحرصهم على جمع الأموال، والوصول إلى السلطة، مما أدَّى إلى ظهور طبقة مترفة أخذت تعمل على ضمان مصالحها، وهو ما أثبتته التطورات اللاحقة. إذ لم يمض عام واحد على خلافة عثمان حتى جمع هؤلاء الثروات والأموال في الأمصار «وانقطع إليهم الناس، وثبتوا سبع سنين كل قوم يحبون أن يلي صاحبهم»، «فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام، وأول فتنة كانت في العامة...»[1].

ـ ردَّ الحكم بن العاص بن أمية إلى المدينة بعد أن كان النبي قد نفاه مع ولده إلى الطائف نظراً لإيذائه له، مبرِّراً تصرُّفه بأنه كلَّم النبي بشأنهما فوعده بأن يأذن لهما، إلَّا أن الموت حال دون أن ينفِّذ وعده[2].

ـ أبعد أبا ذر الغفاري عن المدينة إلى الربذة. كان أَبو ذر رجلاً صالحاً، زاهداً، دعا إلى عدم اكتناز الأموال، إذ أن ما أمسكه الإنسان زيادة عن حاجته هو كنز يكوي صاحبه في النار، لذلك يجب توزيع الأموال الفائضة على الفقراء. والواضح أن اجتهاد أَبي ذر وجدَّته في قضية الأموال كان مخالفاً لاجتهاد أغلب الصحابة.

وحاول عثمان وغيره من الصحابة عبثاً إقناعه بأن دعوته لا تصلح مجتمعاً ولا يقوم عليها بنيان أمة. ونتيجة لهذا التباين، استأذن أَبو ذر عثمان في الخروج من المدينة، فأذن له ونزل الربذة[3]، وكان أَبو ذر حريصاً على الوحدة والخلوة.

ـ عزل عمال عمر عن الولايات وعيَّن أقاربه بدلاً منهم، وقرَّبهم. والواقع أن سياسة التغيير أثارت جدلاً وردود فعل متباينة بين الصحابة وجمهور المسلمين. لكن الواضح أن عثمان كان لا يعزل أحداً إلَّا عن شكاة أَو استعفاء من غير شكاة[4]، وأن تقريب الأقارب ليست بدعة ابتدعها، وهو لم يستعمل إلَّا من استعمله النبي، كما أن معظم عمَّاله كانوا قد تولوا مناصب هامَّة في عهد الخليفتين الأولين، مثل سعد بن أَبي وقاص، والوليد بن عقبة، وسعيد بن العاص، وعبد اللَّه بن أَبي سرح، ومعاوية بن أَبي سفيان. والحقيقة أن أمر الولاية والعزل في عهد عثمان، كانت تخضع لمعايير الأمانة والمصلحة العامة، ولم يكن لسياسة القربى أي دور فيها.

---

(١) الطبري: جـ ٤ ص ٣٩٦ ـ ٣٩٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٤٧، ٣٩٩. البلاذري: جـ ٦ ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٣) الطبري: المصدر نفسه ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢٥٣.

ـ ويُعدُّ قرار عثمان، جمع القرآن، وتثبيت قراءته على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها، من أكثر الخطوات جرأة، وأشدها إثارة للنقد، وحجة عثمان هي اختلاف الناس في قراءته إلى درجة أن كفَّر بعضهم بعضاً حتى أوشكت الفتنة أن تقع بينهم(١). ولا شك بأن هذه الخطوة إيجابية استحسنها عامة المسلمين، وإن تعرَّض بعضهم إلى الأسلوب الذي اتَّبعه عثمان للوصول إلى هدفه، ولم يتهمه أحد بتحريف القرآن.

ـ وتعرَّضت سياسة عثمان بتوسيع الحمى للنقد، إذ أنه زاد في حمى إبل الصدقة، وإنما حمله على ذلك زيادة أعدادها، لكنه أعطى إذناً لبعض عماله ولعدد من الصحابة بالإفادة من الحمى مما عرَّضه لانتقادات بعض الصحابة(٢).

ـ وأثارت صلاة عثمان في منى في عام (٢٩هـ/ ٦٥٠م) انتقادات حادة. فقد صلَّى بالناس أربع ركعات خلافاً لما استنَّه رسول الله والخلفاء من بعده الذين صلوا ركعتين، لأن صلاتهم في منى صلاة مسافر، لكن عثمان كانت له وجهة نظره فقال: «إن بعض من حجَّ من أهل اليمن وجفاة الناس قد قالوا في عامنا الماضي: إن الصلاة للمقيم ركعتان هذا إمامكم يصلي ركعتين، وقد اتخذت بمكة أهلاً، فرأيت أن أصلي أربعاً لخوف ما أخاف على الناس...»(٣).

أحداث الفتنة ـ مقتل عثمان بن عفَّان

علَّل ابن خلدون أسباب الفتنة ضد عثمان وعماله فقال: «وكان أكثر العرب الذين نزلوا الأمصار ـ الكوفة، البصرة، مصر ـ جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي ﷺ، ولا هذَّبتهم سيرته وآدابه، ولا ارتاضوا بخلقه، مع ما كان فيهم في الجاهلية من الجفاء والعصبية والتفاخر والبعد عن سكينة الإيمان، وإذا بهم عند استفحال الدولة قد أصبحوا في ملكة المهاجرين والأنصار، من قريش وكنانة وثقيف وهذيل، وأهل الحجاز ويثرب، السابقين الأولين إلى الإيمان، فاستنكفوا عن ذلك وغصوا به لما يرون لأنفسهم من التقدُّم بأنسابهم وكثرتهم، ومصادمة فارس والروم، مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس بن ربيعة، وقبائل كندة والأزد من اليمن، وتميم وقيس من مضر، فصاروا إلى الغض من قريش والأنفة عليهم والتمريض(٤) في طاعتهم، والتعلل في ذلك بالتظلم منهم والاستعداء عليهم، والطعن فيهم بالعجز عن

---

(١) الطبري: جـ ٤ ص ٣٤٧.
(٢) المصدر نفسه. البلاذري: جـ٦ ص ١٤٩ـ١٥١.
(٣) الطبري: جـ ٤ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨.
(٤) التمريض: التوهين والإضعاف.

السوية[١]، والعدول في القسم عن التسوية، وفشت المقالة بذلك، وانتهت إلى المدينة، وهم من علمت، فأعظموه وأبلغوه عثمان، فبعث إلى الأمصار من يكشف له الخبر... فلم ينكروا على الأمراء شيئاً، ولا رأوا عليهم طعناً... فلم ينقطع الطعن من أهل الأمصار، وما زالت الشناعات تنمو... ثم جاء إلى المدينة من أهل الأمصار يسألون عزل العمال، وشكوا إلى عائشة وعلي والزبير وطلحة، وعزل لهم عثمان بعض العمال، فلم تنقطع بذلك ألسنتهم...»[٢].

حصر ابن خلدون أسباب الفتنة بالناحيتين السياسية والعصبية حيث التنافس القبلي ورفض القبائل سيطرة قريش على مقدرات المسلمين، متجاوزاً التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي كان يمر بها المجتمع الإسلامي بعد الفتوح.

والواضح أن الفتنة انطلقت من الكوفة التي كانت تعاني من فوضى اقتصادية واجتماعية نتيجة ضآلة الغنائم، بسبب محدودية الفتوح التي حقَّقها أهلها، بالمقارنة مع غيرها من الأمصار، بالإضافة إلى الإخلال في توزيعها. ولم يستطع هذا المصر أن يتخطَّى المشكلات المالية، كما لم تفلح الإدارة في مواجهتها خلال ولاية الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص. فقد اتبع الأول سياسة التقارب مع الفقراء والعبيد والطارئين وأشركهم في العطاء، مما ألَّب عليه الطبقة الخاصة من الأشراف على الرغم من أنه لم يُنقص أعطياتهم، في حين عاد الثاني إلى السياسة التقليدية، بناء على قرار الخليفة، بتقديم أهل السابقة، وإبراز قيمة مبدأ الامتياز الإسلامي بدلاً من الشرف القبلي[٣]، ومع ذلك، فقد عجزت هذه السياسة عن مواجهة ضغط التطورات الاقتصادية والاجتماعية المتلاحقة وبخاصة بعدما أدَّت سياسة الخليفة تجاه أراضي الفيء بتخصيصها للسابقين إلى تعميق الهوة بين سكان الكوفة من أهل الأيام والقادسية، ومعظمهم من القبائل اليمنية، وبين مركز الخلافة حيث رفضها هؤلاء، إذ شعروا بأن هذه السياسة قد تهدِّد مكانتهم وامتيازاتهم المتعلقة باستثمار واردات أراضي الفيء التي كانت لهم عليها حقوق وادعاءات[٤]، وتمادوا حين اعترضوا على إعطاء أهل المدينة من فيئهم ودعوا إلى توزيع واردات كل مصر على من فيه من المقاتلين بوصفه مال المسلمين، بينما كان الخليفة يرى فيه مال الله أي مال الدولة[٥].

---

(١) السوية: الاستواء والاستقامة.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ص ٣٧٩ ـ ٣٨١.

(٣) الطبري: جـ ٤ ص ٢٧٩ جعيط: ص ٨٢.

(٤) ملحم: ص ١٣٧.

(٥) الدوري: ص ٥٥.

وتفجَّر الوضع في عام (٣٣هـ/ ٦٥٣م) في إحدى جلسات سعيد بن العاص العامة الذي قال: «إنما هذا السواد بستان لقريش»، فردَّ عليه مالك بن الأشتر النخعي بقول لاذع: «أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك! والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً إلَّا أن يكون كأحدنا»[١].

ويدل جواب الأشتر، بالإضافة إلى النزاع الداخلي في الكوفة، على نزاع خارجي بين الأمصار بعامة والكوفة بخاصة، مع المدينة ودولة عثمان، الذي تبلور في مفهوم قريش. لكن أحداث الكوفة كانت حركة احتجاج عادية لا تتسم بالإجماع، احترمها الخليفة، فعزل سعيد بن العاص وولَّى أبا موسى الأشعري بناء على طلب الثائرين وعلى رأسهم مالك بن الأشتر[٢]، لكنها تدل على نزعة القبائل البدوية في كره الحكم المركزي، وعدم الرضى عن سيادة قريش[٣].

وذكر الطبري: «كان أول ما نُزِغ به بين أهل الكوفة، وهو أول مصر نزغ الشيطان بينهم»[٤].

ولئن كنتُ قد توقفت طويلاً عند أحداث الكوفة، فذلك لأنها تشكِّل جذور الفتنة.

لم تكن الحركة الاجتماعية في البصرة بالشدَّة التي عرفتها الكوفة، ويبدو أن لذلك علاقة بالمدى الذي وصلت إليه الحالة الاقتصادية من الرخاء الذي جذب إليها قبائل عبد القيس والأزد ورجال الأعمال والأعاجم من أصحاب الصنائع.

ويبدو أن والي البصرة، أبا موسى الأشعري، اتبع سياسة ضيقة أثارت بعض الزعماء فيها وعلى رأسهم غيلان بن خرشة الضبِّي، فعزله الخليفة في عام (٢٩هـ/ ٦٥٠م) وعيَّن مكانه عبد اللّه بن عامر[٥]. والواضح أن الانتقادات التي وُجِّهت إلى سياسة عثمان وعمَّاله انتشرت في الأمصار ومن بينها البصرة.

وتذاكرت مجموعة من أهل البصرة أعمال عثمان، فأرسلوا أحد النسّاك إليه ويدعى عامر بن عبد قيس التميمي ليكلمه في مآخذ الناس عليه، ولما وصل إلى المدينة دعا الخليفة إلى تقوى الله، فزجره قائلاً: «إنك لا تدري أين الله»[٦].

وكان يحكم مصر في بداية عهد عثمان أميران هما عمرو بن العاص بأسفل الأرض (الوجه البحري) وعبد اللّه بن سعد بن أبي سرح على الصعيد، وهو ابن عم

---

(١) الطبري: جـ ٤ ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٤ ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦.

(٣) الدوري: ص ١٨ ـ ٢٠.

(٤) تاريخ الرسل والملوك: جـ ٤ ص ٢٥١.

(٥) المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٢٦٤.

(٦) المصدر نفسه جـ ٤ ص ٣٣٣.

عثمان وشقيقه بالرضاعة. فأراد الأول التفرُّد في الحكم، فطلب من الخليفة عزل الثاني، فرفض عثمان طلبه، فاستعفاه عمرو، فأعفاه، وأمَّر سعد بن أَبي سرح على كل مصر[١]. وظهرت في مصر خلال ولايته الانتقادات التي أدَّت إلى الفتنة تزعمها محمَّد بن أَبي حذيفة لأسباب شخصية، بينه وبين عثمان، ومحمَّد بن أَبي بكر الذي يبدو أنه غُرِّر به فطمع، وعمّار بن ياسر الموالي لبني هاشم، والمعارض لسياسة عثمان لا سيما في تعيينه لأقاربه واستعانته بهم.

دفعت التطورات والأحداث التي حصلت في مختلف الأمصار الخليفة إلى عقد اجتماع موسَّع مع عماله، وذلك في عام (٣٤هـ/ ٦٥٤م)، تقرَّر فيه العمل على تأليف قلوب الناس بالمال لتسكينهم. لكن حدث في هذه السنة أن أشيعت الشكاوى التي ملأت الأمصار، وكان لها صدى في المدينة. فقام بعض كبار الصحابة بمسعى لدى عثمان لتذكيره بواجباته، مما دفعه إلى عقد مؤتمر ثانٍ مع عماله في عام (٣٥هـ/ ٦٥٥م) وطمأنه عماله أن الأمن مستتب في أمصارهم[٢].

في هذا الجو المحموم، حيكت المؤامرة بين قادة القوى المعارضة في الأمصار، إما بطريق تبادل الرَّسائل وإما أثناء اجتماع عُقد في الحجِّ في نهاية عام (٣٤هـ/ منتصف عام ٦٥٥م)[٣]، وفي شهر (شوال ٣٥هـ/ نيسان ٦٥٦م) عسكرت فرق عسكرية قدمت من مصر والكوفة والبصرة حول المدينة في ثلاثة أماكن متفرِّقة، وهدف قادتها الظاهري تقديم مطالبهم، وعرض مطاعنهم التي ذكرنا بعضاً منها، على الخليفة، والتي اختصروها بصيغة «بدَّلت وغيَّرت»، والطلب منه أن يعترف بخطئه، ويغيِّر سياسته انطلاقاً من ذلك، أما الهدف الباطني فهو خلع الخليفة[٤].

وتطورت الأحداث على مرحلتين، مرحلة سلمية تخلَّلها مناظرات ومفاوضات ووساطة، وافق عثمان في نهايتها على مطالب المعترضين، وبدت عندئذ القضية وكأنَّها انتهت، وعادت الوفود إلى بلادها. لكن الواقع أن موافقة عثمان على تغيير سياسته، وعودة الوفود لم تكن سوى مرحلة ظرفية، وأن الأمور جرت باتجاه الصدام

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ص ١١٨ ـ ١١٩. الكندي، أَبو عمر محمَّد بن يوسف: كتاب الولاة والقضاة ص ١١.

(٢) الطبري: جـ ٤ ص ٣٣٣ ـ ٣٣٥، ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٤٥. جعيط: ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٤) الطبري: جـ ٤ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩. البلاذري: جـ ٦ ص ١٥٧، ١٧٤.

لتبدأ المرحلة العسكرية التي انتهت بمقتل الخليفة عثمان يوم الجمعة (١٨ ذي الحجة ٣٥هـ/ ١٧ حزيران ٦٥٦هـ)، وذلك بعد أن عادت الوفود إلى المدينة وفرضت وجودها بقوة السِّلاح وحاصرت الخليفة في داره قبل أن تقتحمه[١].

علي بن أَبي طالب
٣٦ ـ ٤٠هـ/ ٦٥٦ ـ ٦٦١م

بيعة علي

كان مقتل عثمان العنيف مأساوياً وتاريخياً، حيث كانت المأساة ماثلة عندما رفض قتلته السماح بدفنه، ولم يوافقوا على ذلك إلَّا بعد أن هدَّدت إحدى بنات عمه، أم حبيبة، أرملة النبي وأم المؤمنين بفضح «ستر رسول الله ﷺ وعرضه»[٢] أمام الجميع، فجرى نقله ليلاً ودُفِن خارج أسوار البقيع[٣]. جرى ذلك في الوقت الذي كان فيه جمهور المسلمين لا يزال متمسكاً ببيعته، وولاته في الأمصار مطاعين، لكن أحداً لم ينجده باستثناء بعض الصحابة على الرغم من الأخطار والفوضى التي كانت متفشية في المدينة. أما النجدات العسكرية التي بذلها بعض ولاته، فقد تأخَّرت. وأما على المستوى التاريخي، فإن مقتل عثمان يُعدُّ فاتحة الاضطرابات والانقسامات السياسية والمذهبية في صفوف المسلمين[٤].

فرَّ الأمويون من المدينة عقب حادثة مقتل عثمان، كما غادرها أكثر الصحابة، وهرع من بقي فيها إلى علي بن أَبي طالب لمبايعته بالخلافة، إذ لا يمكن أن تبقى الأمة بلا خليفة في ظروف خطيرة ومضطربة، ولا شك بأن شخصيته كانت تناسب أصحاب الفتنة الذين سلموا بأحقية المدينة بالشرعية، وإنما تدخلوا فقط ليقفوا في وجه المعارضين، وهذا تأكيد على سيطرة أهل الأمصار على الأمور في المدينة. وانطلاقاً من ذلك لا يمكن القول بأنهم وراء العملية الانتخابية كما سيقول خصوم علي، لكن قبول التولية في ظروف كهذه يعني ضمنياً التسليم بالأمر الواقع، والتحول نسبياً إلى رهين في أيدي أصحاب الفتنة[٥]، على الرغم من أنه ـ على الأغلب ـ قبل مكرهاً تولي منصب الخلافة، خشية منه على الدين والمسلمين من الفتنة والتمزُّق،

(١) الطبري: جـ ٤ ص ٣٤٦ ـ ٣٥٥، ٣٦٧ ـ ٣٩٦، البلاذري: جـ ٦ ص ١٧٣ ـ ١٩٢، ٢٠١ ـ ٢٠٥.
(٢) البلاذري: جـ ٦ ص ٢٠٥.
(٣) الطبري: جـ ٤ ص ٤١٤.
(٤) جعيط: ص ١٢٥.
(٥) المرجع نفسه: ص ١٤١ ـ ١٤٢.

إلّا أنه اشترط أن تكون البيعة علانية في المسجد، وعن رضا من عامة المسلمين وبخاصة أهل الشورى وأهل بدر[١].

والواقع أنه لم يكن شخص علي موضع اتهام، ولا حتى عدم نظامية انتخابه هو الذي راح يشكِّل جوهر الرفض والمطالبة، ولكن الطموح، وإرادة القوة، وجرَّ الأمة إلى أشد أنواع العنف تحت شعار الطلب بدم عثمان، هو الذي أدّى إلى رفض البيعة من جانب أغلبية كبار الصحابة. فقد تردَّد بعضهم في منحه البيعة، مثل سعد بن أبي وقاص وعبد اللّٰه بن عمر، وتخلَّف حسان بن ثابت، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد الخدري، وغيرهم ممن كانوا يميلون إلى عثمان، وخشي بعض زعماء قريش، من بني أمية، مبايعته حتى لا تستمر الخلافة في ذريته من بني هاشم[٢]، واشترط عليه بعضهم أن يعفو عنهم، ويترك لهم ما بأيديهم من أموال وضياع، وأن يقتص من قتلة عثمان. وخشي بعض وجوه المسلمين من العودة إلى زمن عمر بن الخطّاب وشدَّته ودقته في الحكم بعد أن ألفوا سهولة الحياة في عهد عثمان، بفعل أن علياً يتَّصف كعمر بالشدة والحزم والإرادة الصلبة[٣].

وعليه لم يكن انتخاب علي بالإجماع بل بالأغلبية، وبويع بعد خمسة أيام من مقتل عثمان[٤].

سياسة علي بن أَبي طالب العامَّة

لم يكن لعلي، خلال الأشهر القليلة التي تلت بيعته، أعداء، بل عمَّ الاستياء والقلق أوساط المجتمع الإسلامي، ونجح في الحصول على اعتراف معظم عمال الأمصار الذين يشكِّلون قوة بالرجال والمال، إلّا أن أي مصر لم يبايع بحماس، الأمر الذي يعني أن أكثرية الأمة تستنكر مقتل عثمان، لكنها تحاول الحفاظ على وحدتها من خلال التأييد الحذر للخليفة. وكان والي الشام معاوية بن أَبي سفيان هو الوحيد الذي اتجهت إليه الأنظار، لأن الموقف في الشام كان رفض بيعة علي.

وكان يمكن للمشكلات الناتجة عن انتخاب علي أن تُسوَّى، لولا أن الخليفة قرَّر إلغاء مظاهر التجاوزات وأسبابها، فوضع سياسة جديدة للدولة مقرونة بتغييرات إدارية واقتصادية. غير أن التصدِّي لرواسب النظام السابق كان يعني المواجهة مع قوى فعَّالة في المجتمع بلغت درجة عالية من القوَّة، بالإضافة إلى الاصطدام مع

(١) الطبري: ج ٤ ص ٤٢٧ ـ ٤٣٥.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ص ٤٢٧ ـ ٤٤١.
(٤) المصدر نفسه: ص ٤٣٦.

عدد من كبار الصحابة الذين طالبوه بالثأر لمقتل عثمان، ونصحهم أن يتريَّثوا حتى تهدأ النفوس ويستتب الأمن.

والواقع أن علياً كان قلقاً لمأساة عثمان التي تغلَّبت فيها الأهواء السياسية على الميول الدينية، وحلَّت فيها المؤامرات محل الخشوع والإخلاص للدين، وبرز الاضطراب على حساب الأمن، والاحتكام للقوَّة بدلاً من العودة إلى كتاب الله.

وظهرت في غضون ذلك قضية إعادة النظر بالجهاز الإداري، وقد أصرَّ علي أن يعزل فوراً جميع ولاة عثمان من مناصبهم، ليهدِّىء النفوس من جهة، وليضمن تحقيق التعاون مع ولاة يثق بهم، من جهة أخرى، على الرغم من نصيحة بعض مقرَّبيه بألا يقدم على هذه الخطوة، أو يتريث في المسير في هذا الاتجاه، وحذَّروه من الإساءة إلى معاوية الذي كانت ولايته هي الوحيدة التي احتفظت بالهدوء، والذي كان من الولاة الذين عيَّنهم عمر لا عثمان.

ومن خلال الموقف المتصلِّب، صدر الأمر بعزل الولاة واستبدالهم بفئة جديدة غير متورطة بالأحداث، باستثناء أبي موسى الأشعري والي الكوفة[1]. لكن عملية العزل أدَّت إلى نتائج سلبية انعكست على الوضع السياسي. وانتشر في أنحاء الأمصار الشعور بالدعوة إلى الاقتصاص من قتلة عثمان، كما انتشرت الشائعات تتهم علياً بالضلوع مع القتلة. ومما زاد الوضع تأزماً، استرداد علي القطائع التي كان عثمان قد منحها من بيت المال لبعض أقاربه والمقرَّبين منه، وسوَّى الجميع في العطاء.

معركة الجمل

أدَّت التدابير الإدارية والتنظيمية التي اتَّخذها علي، بالإضافة إلى اختلاف المصالح والأهواء السياسية؛ إلى قيام معارضة مسلَّحة ضد حكمه. فقد رفض معاوية مبايعته، ولم يستقبل عامله على بلاد الشام، سهيل بن حنيف، إلَّا أنه لم تكن له الصفة الشرعية للقيام بأية مبادرة. فقد كان مجرد والٍ تحت إمرة الخليفة من الناحية التنظيمية، ولا يتحدَّث باسم الجميع، إنما وُجد على الساحة السياسية صحابة آخرون أكثر تمثيلاً منه، وهم كبار الصحابة.

لكن ردَّة الفعل الأولى على مقتل عثمان جاءت من أم المؤمنين عائشة التي أخذت المبادرة الاحتجاجية من مكَّة، يساندها اثنان من أبرز المهاجرين طلحة والزبير، اللذان استأذنا علياً بعد مقتل عثمان بأربعة أشهر للذهاب إلى مكة لأداء

---

(١) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٧٧.

العمرة. فأذن لهما، وانضما هناك إلى عائشة.

ندَّدت عائشة بمقتل عثمان، وبالطريقة التي قُتِل فيها، إذ لا شيء يبرِّر هذا العمل العدواني في بلد الله الحرام، وفي الشهر الحرام، بعدما حصل الثائرون من عثمان على وعد بالتراجع عن سياسته السابقة[1]. وشكَّلت فكرة قتل عثمان مظلوماً دعامة المطالب من جانب الأمويين، بالقصاص من قتلته وفقاً لشرع الله.

وسرعان ما تسارعت الأحداث، فقد قرَّر الحلفاء الثلاثة ومن تبعهم وكان على رأيهم، الانتقال إلى البصرة، لأن هذا المصر احتفظ، على الرغم من الانقسامات الداخلية بين صفوفه من القضية المطروحة، بالتعاطف مع عثمان، وكانوا يملكون عدالة القضية التي يدافعون عنها والسلطة المعنوية المؤثرة لأشخاصهم، على المسلمين. ولم تكن فكرة الحرب ضد علي مطروحة في بادىء الأمر، لكن والي البصرة عثمان بن حنيف قرَّر التمسُّك بولائه لعلي، وتعبئة من حوله؛ فمنع دخول أنصار الحلفاء إلى المدينة بقوة السِّلاح، وقد انحاز بعض أهل البصرة إلى صفوفهم[2].

كان علي آنذاك يتجهز للخروج إلى بلاد الشام لمعالجة الوضع المتأزِّم مع معاوية، فبلغته أنباء حشود الحلفاء، فقرَّر عندئذ معالجة هذه القضية الطارئة قبل الذهاب إلى بلاد الشام. فخرج من المدينة في الأيام الأخيرة من (شهر ربيع الآخر عام ٣٦هـ/ شهر تشرين الأول عام ٦٥٦م)، على رأس قوة عسكرية، كان من بين عديدها قاتلو عثمان، وقد ربطوا مصيرهم بمصيره، وعلى رأسهم الأشتر، وزيد بن صوحان، وعدي بن حاتم، ويزيد بن قيس وغيرهم، وشكَّل الكوفيون والبصريون معظم أفراد جيشه، وبذلك يكون الذين تآمروا على عثمان وقتلوه عماد جيشه. وعسكر علي في ذي قار التي اتخذها قاعدة تجمع لقواته، والاتصال بالكوفيين لكسبهم إلى جانبه، فجاءه سبعة آلاف ومائتا مقاتل منهم لنصرته. ثم زحف باتجاه البصرة، وقد بلغ عديد قواته ما بين اثني عشر ألفاً وعشرين ألف مقاتل، فوصل إليها غداة يوم الجمعة (لعشر خلون من جمادى الآخرة/ ٤ كانون الأول) واستقر في منطقة الزاوية بالقرب منها[3]. ومن جهة أخرى، تحركت قوات الحلفاء التي بلغ عديدها ثلاثين ألف مقاتل[4] من منطقة الزابوقة إلى منطقة الفرضة،، ثم عسكر الجيشان في منطقة الخريبة[5].

(١) الطبري: ج ٤ ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩.
(٢) المصدر نفسه: ص ٤٦١ ـ ٤٦٢.
(٣) المصدر نفسه: ص ٤٨٧، ٥٠٥.
(٤) المصدر نفسه: ص ٥٠٥.
(٥) المصدر نفسه: ص ٥٢٤.

وجرت مفاوضات بين الطرفين أسفرت عن اتفاقهما على الاقتصاص من قتلة عثمان بعد أن يستتب الهدوء، لكن قيادات القوى التي شاركت في قتل عثمان، والموجودة في جيش علي، أبدت تخوفها من إحلال الصلح بين الطرفين، فأشار الأشتر إلى قتل علي، في حين أشار غيره إلى التخلّي عنه، واقترحت فئة ثالثة دفع الطرفين للاشتباك، وذلك بالاندساس بينهم وإثارة الفتنة. وهكذا اشتعلت الحرب، وتركّز القتال حول الجمل الذي كانت تمتطيه عائشة وهي في هودجها، وقد شكّلت محور المعركة ورهانها، في حين مثّل الجمل استمرارية المعركة دفاعاً عنه أو وصولاً إليه، ومن أجل ذلك عُرفت المعركة باسم معركة الجمل. وانتهى القتال بانتصار علي ومقتل طلحة والزبير، وأعاد علي عائشة إلى المدينة معزّزة مكرّمة. واتخذ علي الكوفة عاصمة له بدلاً من المدينة، وفاء لوعد أهلها الذين ساندوه في القتال[1].

معركة صفّين ـ مقتل علي بن أبي طالب

استقرّت الأمور لعلي بعد معركة الجمل، وأضحت البصرة والكوفة ومصر واليمن والحجاز وفارس وخراسان في طاعته، باستثناء بلاد الشام حيث كان معاوية الرجل الوحيد الذي يملك سلطة وقوة لرفض البيعة، فأشار عليه بعض أصحابه أن يعجّل بالذهاب إلى بلاد الشام لإخضاعه، إلّا أنّه آثر التريث، وكتب إليه مرّة أخرى آملاً في استقطابه وإقناعه بالبيعة والطاعة والجماعة، فردّ عليه معاوية مشترطاً القصاص من قتلة عثمان، والشورى لانتخاب خليفة جديد[2].

وهكذا أثار معاوية نقطتين أساسيتين تشكّلان مضمون الصراع بينهما. الأولى ذات صلة بمقتل عثمان، والثانية متعلّقة بشرعية السلطة، مع التشديد على النقطة الأولى في هذه المرحلة من الصراع وبخاصة تجاه جماعة القرّاء، والزهّاد، والسواد الأعظم من مقاتلي الشام الأشد تأثراً بالدعوة إلى الانتقام للخليفة المقتول ظلماً[3]. أما فيما يتعلّق بالنقطة الثانية، فإن علياً هو صاحب السلطة الشرعية التي حظيت بموافقة المهاجرين والأنصار، وأن المدينة لا الأمصار هي مركز منح سلطة الخلافة، وقد جرى انتخابه في المدينة، على الرغم من أنه لم يحظ بموافقة الجميع. أما معاوية فقد وضع الصراع على مساحة قتل عثمان[4]، وتعلّل بأن البيعة تمّت في جو

(١) الطبري: ج ٤ ص ٥٠٦ ـ ٥٤٦. اليعقوبي: ج ٢ ص ٨٠ ـ ٨٢.

(٢) الطبري: المصدر نفسه: ص ٥٦١ ـ ٥٦٢. (٣) جعيط: ص ١٨٨.

(٤) المرجع نفسه: ص ١٩٠.

ساده الفوضى وسيطرة البغاة على المدينة، ولم تحظ بموافقة الصحابة كافة. وبهذا الموقف أضحى واضحاً أن لا مفر من القتال لتحديد المستقبل السياسي لكليهما.

وتمَّ اللقاء عند صفين على نهر الفرات في (شهر صفر عام ٣٧هـ/ شهر تموز عام ٦٥٧م)، ونتيجة لضراوة القتال، وضخامة المجزرة، لاحت في الأفق وفي داخل صفوف جيش الشام فكرة أن المعركة هي نهاية الإسلام والعرب لأن الأمة كلها تتقاتل وتتمزَّق دون أفق انتصار لمعسكر على آخر، فانطلقت نداءات سلمية نادت بالبقية[1]، لكن محاولات معاوية السلمية رُفِضت من جانب عسكر علي، ولعل العراقيين شعروا بأن الجيش الشامي أضحى منهكاً، وأن النصر بات قريباً، عندئذ عمد معاوية إلى مخاطبة خصومة بلغة إسلامية رمزية تمثَّلت برفع المصاحف على أسنَّة الرماح، ثم دعا العراقيين إلى كتاب الله «ليحكم بيننا وبينكم»[2]. ومن الخطأ النظر إلى هذا الأسلوب على أنه خدعة لتجنب الهزيمة، إذ لم يكن معاوية مغلوباً ولا كان على طريق الانهزام[3].

وهكذا توقف القتال حين قرَّر العراقيون الاستجابة لدعوة الكتاب. إذ أن علياً استشار أركان حربه، فأبدت جماعة منهم وقف القتال والعودة إلى كتاب الله مثل الأشعث بن قيس، وسعيد بن قيس زعيم الهمدانيين، وأغلبية رؤساء قبيلة ربيعة، وفئة كبيرة من القرَّاء الذين تأثَّروا بنداء القرآن، وقد شكَّلت هذه الجماعة نسبة عالية في الجيش. وعارضت جماعة أخرى وقف القتال مثل الأشتر وعدي بن حاتم، وهم جماعة المتآمرين على قتل عثمان، وفئة صغيرة من القرَّاء وأعني المتشددين، فأنكروا على علي القبول به وألحُّوا في أن يمضي بهم إلى القتال حتى يُنفِّذ حكم الله، وهؤلاء هم نواة الخوارج[4]. فلم يكن باستطاعة علي إلَّا أن يسير وراء السواد الأعظم من جيشه[5].

والواقع أن رغبة السَّلام كانت قوية في صفوف الجانبين، وأضحت الهدنة أمراً واقعاً. وقبل الطرفان بمبدأ التحكيم، فاختار علي أبا موسى الأشعري ليمثِّله في التحكيم، في حين اختار معاوية عمرو بن العاص، وتحدَّد لهما مدة ستة أشهر يفصلان خلالها في النزاع.

---

(١) البقية: إرث من حروب الجاهلية. فعندما كانت تتحارب قبيلتان وتتقاتلان قتالاً شديداً إلى حد الإبادة، كانوا ينادون بالبقية، أي وقف القتال خوفاً من زوال الجميع. ابن منظور: لسان العرب جـ ١٤ ص ٨٠.

(٢) الطبري: جـ ٤ ص ٥٦٩ ـ ٥٧٢. جـ ٥ ص ١٠ ـ ٤٨.

(٣) جعيط: ص ٢٠٣.

(٤) الطبري: جـ ٥ ص ٤٩ ـ ٥٤.

(٥) المصدر نفسه: ص ٤٨ ـ ٥٣.

ويبدو أن بعض الذين قبلوا وقف القتال أدركوا أنَّهم تسرعوا كثيراً في هذا الأمر الذي حمل في طياته بشائر النصر لمعاوية، مما يهدد مصالحهم بشكل أعظم من ذي قبل، لذلك أعلنوا توبتهم، وطالبوا باستئناف القتال، ومارسوا الضغوط المختلفة على علي كي يستأنف الحرب بعد أن يعلن توبته، إلَّا أن علياً رفض الإذعان، فما كان من هؤلاء إلَّا أن أعلنوا التمرد عليه[١]، وانحازوا إلى جماعة الخوارج.

نتيجة لهذا التباين في المواقف انسلخ من جيش علي اثنا عشر ألفاً، فلحقوا بحروراء[٢] واعتزلوا فيها، فعرفوا بالحرورية[٣]. وحاول علي ثنيهم عن رأيهم، وطلب منهم العودة إلى صفوفه، فطالبوه بالعودة إلى القتال، وترك التحكيم، وظلوا يعبِّرون عن رأيهم ويصيحون «لا حكم إلَّا لله»[٤].

اجتمع الحكمان مرة واحدة في أذرح، القريبة من البتراء في الأردن، بموافقة الفريقين المتخاصمين، والنتيجة المؤكدة هي أنهما لم يتفقا. فعلى امتداد المناظرة لم يتوقف عمرو بن العاص عن ترشيح موكله معاوية، في حين رشَّح أبوموسى الأشعري عبد اللّه بن عمر مدفوعاً في ذلك بدافع الحياء وكراهة الفتنة، متجاهلاً موكله علي، ثم ترك مكان الاجتماع وعاد إلى مكة لتعذر إيجاد مخرج. ويبدو أنهما، لكي ينتهيا من الأزمة، قد توصلا إلى إصدار أحكام منفصلة. فقد خلع أبو موسى الأشعري علياً ومعاوية، وترك الخلافة شورى، أما عمرو بن العاص، فقد خلع علياً وثبَّت معاوية[٥].

وما زال الخلاف محتدماً بين علي ومعاوية حتى قُتِل الأول على يد عبد الرحمن بن ملجم، وهو أحد الخوارج، (في شهر رمضان عام ٤٠هـ/ أواخر شهر كانون الثاني عام ٦٦١م)[٦]. وكان عدد منهم ارتأوا أن حل مشكلات المسلمين يكمن في القضاء على ثلاثة قدَّروا أنَّهم سبب خلاف المسلمين هم: علي، ومعاوية، وعمرو بن العاص، فقرَّروا قتل الثلاثة في ليلة واحدة، فنجح قاتل علي وفشل الآخران.

---

(١) عيسى، رياض: الحزبية السياسية منذ قيام الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية ص ٩١.
(٢) حروراء: قرية من قرى الكوفة.
(٣) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٩٢.
(٤) الطبري: جـ ٥ ص ٧٢.
(٥) المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٦٧ ـ ٧١.
(٦) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ١ ص ١٨٢. الطبري: جـ ٥ ص ١٤٣.

الفصل الرابع

العصر الأموي[1]

٤١ ـ ١٣٢هـ/ ٦٦١ ـ ٧٥٠م

الخلفاء الأمويون

معاوية بن أَبي سفيان	٤١ ـ ٦٠هـ/ ٦٦١ ـ ٦٨٠م
يزيد بن معاوية: يزيد الأوَل	٦٠ ـ ٦٤هـ/ ٦٨٠ ـ ٦٨٣م
معاوية بن يزيد: معاوية الثاني	٦٤هـ/ ٦٨٤م
مروان بن الحكم	٦٤ ـ ٦٥هـ/ ٦٨٤ ـ ٦٨٥م
عبد الملك بن مروان	٦٥ ـ ٨٦هـ/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥م
الوليد بن عبد الملك: الوليد الأوَل	٨٦ ـ ٩٦هـ/ ٧٠٥ ـ ٧١٥م
سليمان بن عبد الملك	٩٦ ـ ٩٩هـ/ ٧١٥ ـ ٧١٧م
عمر بن عبد العزيز	٩٩ ـ ١٠١هـ/ ٧١٧ ـ ٧٢٠م
يزيد بن عبد الملك: يزيد الثاني	١٠١ ـ ١٠٥هـ/ ٧٢٠ ـ ٧٢٤م
هشام بن عبد الملك	١٠٥ ـ ١٢٥هـ/ ٧٢٤ ـ ٧٤٣م
الوليد بن يزيد الثاني: الوليد الثاني	١٢٥ ـ ١٢٦هـ/ ٧٤٣ ـ ٧٤٤م
يزيد بن الوليد الأوَل: يزيد الثالث	١٢٦هـ/ ٧٤٤م
مروان بن محمَّد	١٢٧ ـ ١٣٢هـ/ ٧٤٤ ـ ٧٥٠م

(١) انظر كتابنا: تاريخ الدولة الأموية، حيث تفاصيل وافية حول أحداث التاريخ الأموي.

معاوية بن أبي سفيان

٤١ ـ ٦٠هـ/ ٦٦١ ـ ٦٨٠م

قيام دولة الخلافة الأموية

أدَّى مقتل علي إلى إزالة عقبة كبيرة من أمام معاوية لتولي الخلافة، فقد بايع الناس في الكوفة الحسن بن علي، في حين بايع أهل الشام معاوية. وتحرَّك هذا الأخير بسرعة باتجاه العراق للسيطرة عليه، فبلغ ذلك الحسن، فخرج على رأس أتباعه للتصدِّي له، لكن معاوية نجح في استقطاب قائد جيشه قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، وابن عبَّاس. ومن جهة أخرى شكَّ الحسن في ولاء أتباعه، بل إنه فَقَدَ ثقته بهم بعدما انسلخت جماعة منهم وخرجت عليه، وأدرك أن موازين القوى السياسية والعسكرية بين القوتين العراقية والشامية، لم تعد متكافئة، كما أشفق على دماء المسلمين من الفتن، لذلك، فضَّل انتهاج سياسة المفاوضات مع معاوية، وقد تقرَّر بنتيجتها أن يخلع الحسن نفسه من الخلافة، ويسلِّمها لمعاوية على أن يكون الأمر بعده شورى بين المسلمين، وفي رواية، أن يظفر الحسن بها إذا مات معاوية. ودخل معاوية الكوفة إثر هذا الصلح، وبايعه الحسن والحسين، وسمي ذلك العام (٤١هـ) بـ «عام الجماعة» لاجتماع الأمة الإسلامية على خليفة واحد، باستثناء الخوارج الذين امتنعوا عن بيعته، وبذلك قامت دولة الخلافة الأموية[١].

منهجية معاوية السياسية

كان معاوية أحد دهاة العرب، رجل دولة عاقلاً في دنياه، حليماً، قوياً، جيد السياسة، حسن التدبير، حكيماً، فصيحاً، بليغاً، يحلم في موضع الحلم، ويشتد في موضع الشدَّة، إلَّا أن الحلم كان الغالب على طبعه، كريماً باذلاً للمال، محباً للرئاسة، شغوفاً بها، اجتهد أن يقيم صرح دولته على عدة أركان بهدف استمرارية النظام الذي أنشأه، لعل أهمَّها:

ـ التغييرات في بنية النِّظام السياسي، وتتمحور حول دور الجيش الذي أسَّسه، ونظَّمه من أجل تحقيق الاستقرار في الداخل والتوسع في الخارج.

---

(١) اليعقوبي: جـ ٢ ص ١٢٢ ـ ١٢٣. الطبري جـ ٥ ص ١٦١، ١٦٣، وقارن بتاريخ خليفة بن خياط جـ ١ ص ١٨٧. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ ١ ص ١٨٤. ابن كثير: البداية والنهاية: جـ ٨ ص ١٦، ١٣٧. ابن الطقطقا، محمَّد بن علي بن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية ص ١٠٤.

ـ السياسة الداخلية، وتتناول الإدارة وتحقيق التوازن القبلي، وتأمين ولاية العهد، وإخضاع المعارضة.

ـ الإحسان إلى كبار الشخصيات الإسلامية من الصحابة وأبنائهم، بهدف استقطابهم.

ـ مباشرة أمور الدولة بنفسه.

ـ التوسع في الخارج.

أهم الأَحداث السياسية الداخلية في عهد معاوية

حركة الخوارج

كان معاوية أبغض إلى الخوارج من علي لاعتقادهم بأنه انحرف عن المسار الإسلامي، ومن جهة أخرى، فقد أقلق أمرهم الخليفة الأموي بفعل عدم تجاوبهم مع الحلول السلمية، فاضطر أن يواجههم بالعنف، وقد تركَّزوا في الكوفة والبصرة. وجرت بين الطرفين عدة اصطدامات، لم تؤد إلى نتيجة إيجابية، ولم تهدأ بلاد العراق تماماً طوال عهده رغم شدة الولاة وعنفهم[(١)].

حركة العلويين

واجه معاوية، بالإضافة إلى خطر الخوارج، خطراً آخر تمثَّل بشيعة علي بن أَبي طالب (العلويين) الذين انتشروا في الكوفة والبصرة، وقد أخذهم بالشدة بهدف تطويعهم بفعل أن العراق يمثِّل منطقة القلق بالنسبة للنظام الأموي، ولم يهدأ هؤلاء إلَّا بقدر ما كانت تفرضه ظروفهم الداخلية. فقد استغلوا سياسة والي الكوفة، المغيرة بن شعبة، اللَّيِّنة، وقاموا بنشاط معارض للنظام، وكان من العسير كبت هذه المعارضة وتحقيق الهدوء دون استعمال الشدَّة، لذلك عيَّن معاوية زياد بن أبيه والياً على الكوفة بالإضافة إلى البصرة بعد وفاة المغيرة بن شعبة في عام (٥٠هـ/ ٦٧٠م). وقد مارس هذا الوالي سياسة الشدَّة حتى ملأ قلوب أهل العراق رعباً ورهباً، فضعفت مقاومة العلويين، ولم يرتفع صوت معارض سوى صوت حجر بن عدي، الزعيم الكوفي، وكان جزاؤه الإعدام[(٢)].

---

(١) اليعقوبي: جـ٢ ص ١٢٤. خليفة بن خياط: جـ١ ص ١٨٨. الطبري: جـ٥ ص ١٦٦، ١٧٠ ـ ١٧١، ١٧٣ ـ ١٧٤، ٢١٦، ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٢٩، ٣١٢ ـ ٣١٣. ڤلهوزن، يوليوس: الدولة العربية وسقوطها: ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) خليفة بن خياط: المصدر نفسه ص ١٩٥، ١٩٩. الطبري: المصدر نفسه: ص ٢٥٣ ـ ٢٥٧. ابن الأثير: جـ٣ ص ٢٠٧.

بيعة يزيد بولاية العهد

تُعدُّ مسألة عهد معاوية بالخلافة لابنه يزيد من بعده، من أكثر المسائل التي دفعت الكثيرين للوقوف ضده، وتوجيه النقد إليه، لأنه خرج بذلك على النهج الذي اتبعه المسلمون في اختيار خليفتهم منذ خلافة أبي بكر[١].

ويبدو أن معاوية خشي انهيار الجهود التي بذلها في تأسيس دولة أموية الهوى، وبخاصة أن الصراع الدامي بين الأمويين وبين بني هاشم كان لا يزال في أوجه، وأن اختيار هاشمي للخلافة من بعده من شأنه إزاحة كل مرشح محتمل من الأمويين من الوجود، وهو أمر لا يقبله هؤلاء، لذلك رأى أن الاختيار يجب أن يظل محصوراً في بني أمية، فاختار ابنه يزيد[٢] في عام (٥٦هـ/ ٦٧٦م)، على الرغم من معارضة معظم الشخصيات الحجازية، ومعظم الأمصار؛ وسانده أهل الشام، واستطاع بالحنكة والشدَّة أن يحمل المعارضين على الاعتراف بولاية العهد ليزيد، باستثناء الحسين بن علي وعبد اللَّه بن الزبير[٣]، وقد خالف معاوية بهذا الإجراء ما طبَّقه المسلمون في العصر الراشدي، وبذلك يكون قد حوَّل الخلافة من خلافة قائمة على الشورى إلى ملكية وراثية[٤].

سياسة معاوية الخارجية

جبهة المشرق

وضع معاوية أُسساً مدروسة، وقواعد ثابتة في سياسته الخارجية، ولكن عهده لم يشهد فتوحاً على نطاق واسع على الرغم من أن المسلمين وصلوا في فتوحهم إلى السند وفتحوا كابل[٥] وبخارى[٦]، فاتجه إلى تثبيت الفتوح في المشرق، والقضاء على الحركات التمردية التي كانت تقوم بين الحين والآخر في أنحاء متفرقة من البلاد نتيجة الشعور العنصري لدى الفرس.

---

(١) عبد اللطيف، عبد الشافي: العالم الإسلامي في العصر الأموي: ص ١٢١.

(٢) خليفة بن خياط: جـ ١ ص ١٩٩.

(٣) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة جـ ١ ص ١٤٧ ـ ١٥٤.

(٤) حسن، إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام... جـ ١ ص ٢٨٤.

(٥) أرض كابل بين الهند وسجستان، وهي من ثغور طخارستان. الحموي: جـ ٤ ص ٤٢٦.

(٦) بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر، بينها وبين نهر جيحون يومان، وكانت قاعدة ملك السامانية. المصدر نفسه جـ ١ ص ٣٥٣.

الجبهة الغربية

أما في الجناح الغربي، وأعني بلاد الشام ومصر، فكانت المواجهة مع البيزنطيين بفعل تجاور الدولتين الإسلامية والبيزنطية من جهة، وتهديد البيزنطيين المستمر للدولة الإسلامية من جهة أخرى، ويرجع الفضل للخلافة الأموية بعامة، ولمعاوية بخاصة، في وضع سياسة عسكرية واضحة الأهداف والمعالم ضد الدولة البيزنطية، وتنظيم الحملات لمهاجمة القسطنطينية، بالإضافة إلى إقامة نظام ثابت لحماية المناطق الحدودية والشواطىء الإسلامية من هجمات البيزنطيين، تمثَّل في إقامة مراكز دفاعية في مناطق الحدود، وحاميات عسكرية دائمة في المعاقل الأمامية والممرات الجبلية على تخوم الدولة البيزنطية، وهي التي عرفت باسم الثغور، وارتبط هذا النِّظام الدفاعي بنظام هجومي ـ دفاعي مشترك وهو ما عُرف باسم الشواتي والصوائف. إنها حملات دورية منتظمة كانت تتوجه إلى داخل الأراضي البيزنطية بهدف السيطرة على المعاقل والحصون المهمة، والقيام بغارات ضد البيزنطيين، والتصدِّي لهم إذا ما حاولوا التقدم إلى داخل الأراضي الإسلامية. وحتى يقوِّي معاقل الحدود، فتح معاوية سميساط وملطية في إقليم الجزيرة وزبطرة، وجدَّد حصوناً أخرى[1].

وبنى معاوية البحرية الإسلامية للتفوُّق على البيزنطيين في البحر وإبعادهم عن السواحل، ونفَّذت البحرية الإسلامية سلسلة من الغارات تمهيداً لحصار القسطنطينية التي كانت هدفاً رئيسياً في سياسة الخليفة.

وحاصر المسلمون العاصمة البيزنطية مرتين، الأولى في عام (٤٩هـ/ ٦٦٩م)، والثانية في عام (٥٤هـ/ ٦٧٤م)، استمر حتى عام (٦٠هـ/ ٦٨٠م)، إلَّا أنهم فشلوا في اقتحامها نظراً لمتانة أسوارها وبفعل عوامل طبيعية تعرَّضت لها الحملتان آنذاك[2].

ثم وجد معاوية نفسه أنه بحاجة إلى هدنة طويلة مع البيزنطيين بسبب الظروف التي كان يمر بها، ونتيجة للمباحثات السياسية التي جرت بين الطرفين الإسلامي والبيزنطي تقرَّر أن:

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ١٨٨ ـ ١٨٩. وزبطرة: مدينة بين ملطية وسميساط والحدث في طرف بلد الروم. الحموي: جـ ٣ ص ١٣٠ ـ ١٣١.

(٢) خليفة بن خياط: جـ ١ ص ١٩٧. ابن الأثير: جـ ٣ ص ٥٦ ـ ٥٧، ٩١. لويس، أرشيبالد: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ص ٩٦.

- يدفع معاوية جزية سنوية للبيزنطيين مقدارها ثلاثة آلاف قطعة ذهبية وخمسين أسيراً وخمسين حصاناً.
- تستمر الهدنة مدة ثلاثين عاماً[١].

جبهة شمالي أفريقية

عيَّن معاوية في عام (٤٩هـ/ ٦٦٩م) عقبة بن نافع والياً على أفريقية، وقد بدأ نشاطه بفتح عدد من المواقع المهمَّة في المغرب الأدنى (تونس) مثل ودان، وفزان، وخاور، وغدامس[٢]، مُنفِّذاً خطة محكمة تقضي بتشكيل حاميات عسكرية في المدن والمواقع المفتوحة بهدف الاحتفاظ بمكتسبات الفتح، واختطَّ القيروان في العام التالي بهدف تأسيس قاعدة انطلاق إسلامية في شمالي أفريقية تكون رمزاً لحكم إقليمي ثابت الدعائم.

وعزل معاوية عقبة في عام (٥٥هـ/ ٦٧٥م) بسبب سياسته المتصلِّبة تجاه البربر، وعيَّن مكانه أبا المهاجر دينار الأنصاري، الذي ركَّز جهوده العسكرية ضد الوجود البيزنطي في المنطقة، واتبع سياسة مرنة لاستقطاب البربر، ثم استأنف حركة الفتوح باتجاه المغرب الأوسط (الجزائر)، واصطدم بالبربر في هذه المنطقة بزعامة كسيلة، عند تِلِمْسان[٣] وانتصر عليه وأسره. وعامله أبو المهاجر معاملة طيِّبة طمعاً في إسلامه، وفعلاً دخل كسيلة وقومه في الإسلام[٤]. وفي عام (٦٢هـ/ ٦٨٢م) عزل يزيد بن معاوية أبا المهاجر وأعاد عقبة بن نافع إلى شمالي أفريقية[٥].

سياسة معاوية الإدارية

شهدت الإدارة، أو ما عُرف بالدواوين، في عهد معاوية تطويراً متلازماً مع التغيير الذي طرأ على نظام الحكم، ذلك أنه تابع ما بدأه عمر بن الخطَّاب في نطاق الإدارة، ولكن دون أن يستكمل الشكل النهائي لها[٦].

---

(١) Canard: L'Expéditions des Arabes contre Constantinople dans l'histoire et dans la lègende J. A 1926 pp 36-80.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية ص ٢٦٤.

(٣) تِلِمْسان: بالمغرب، وهما مدينتان متجاورتان مسوَّرتان بينهما رمية حجر. الحموي: جـ ٢ ص ٤٤.

(٤) البلاذري: ص ٢٣٠. مؤنس، حسين: تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو المغولي جـ١ ص ٩١.

(٥) البلاذري: المصدر نفسه.

(٦) بيضون، إبراهيم: ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري ص ١٥١.

والواقع أن جهود معاوية انطلقت من مؤسستين، ديوان الخاتم وديوان البريد، في الوقت الذي عرف فيه المسلمون ديوان الجند وديوان الخراج وديوان الرَّسائل. وقد استعان معاوية بأشخاص من النصارى ممن عملوا في الإدارة البيزنطية، أمثال: سرجون بن منصور، وابنه منصور[1].

وفاة معاوية

توفي معاوية في (شهر رجب عام ٦٠هـ/ شهر نيسان عام ٦٨٠م) إثر مرض ألمَّ به. وكانت أشد هواجسه مبعثها أربعة من الزعماء هم عبد اللَّه بن الزبير، والحسين بن علي، وعبد اللَّه بن عمر، وعبد الرَّحمن بن أبي بكر[2].

يزيد بن معاوية

٦٠ ـ ٦٤هـ/٦٨٠ ـ ٦٨٣م

بيعة يزيد

بايع الناس يزيداً بالخلافة بعد وفاة معاوية، في حين تخلَّف عن البيعة من أهل الحجاز كل من الحسين بن علي، وعبد اللَّه بن الزبير[3]. تسلَّم يزيد الخلافة في دولة واسعة الأرجاء، غنية ومعقَّدة السياسة، لم يبذل جهداً في تشييدها. أقبل على الملك دون أن ينصرف نهائياً عن لذاته، واثقاً بأن الأمور ستجري وفق مشيئته، وكان يرى أن طاعته حق على الناس جميعاً.

الأحداث السياسية الداخلية في عهد يزيد

مأساة كربلاء[4]

واجهت يزيد، خلال مدة حكمه، ثلاث قضايا على جانب كبير من الخطورة، تمثَّلت الأولى بخروج الحسين بن علي، والثانية بخروج أهل المدينة، والثالثة بقيام ابن الزبير في مكة.

شكَّل اعتلاء يزيد سدة الخلافة صدمة عنيفة لأهل العراق الذين عانوا من وطأة الشدة في أيام معاوية، ثم بلغهم رفض الحسين بيعة يزيد، وشجَّعهم تغاضي

---

(١) حلاّق، حسّان: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية: ص ٣٤.

(٢) الدينوري: ص ١٧٢.

(٣) خليفة بن خياط: جـ ١ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٤.

(٤) كربلاء: تقع في طرف البرية عند الكوفة. الحموي: جـ ٤ ص ٤٤٥.

الوالي الأموي في الكوفة، النعمان بن بشير، فتنادوا إلى تشكيل جبهة معارضة، ثم استدعوا الحسين إلى الكوفة ليبايعوه، وقد حدَّدوا موقفهم السياسي وهو خلع يزيد، ورفض الاعتراف بالنِّظام الوراثي الذي أضحى أمراً واقعاً بعد إعلان خلافته[1].

ومالت نفس الحسين إلى تلبية الدعوة، لكنه آثر أن يستقصي أمر هؤلاء الناس، فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليتحقق بنفسه من صدق مشاعر أهلها، وليقف على حقيقة الوضع[2].

استُقبل مسلم بالحماس، لدى وصوله في (شهر شوال عام ٦٠هـ/ شهر تموز عام ٦٨٠م) وأقسم بين يديه إثنا عشر ألفاً وقيل ثمانية عشر ألفاً، إخلاصاً للحسين، حتى إذا استوثق من أهل الكوفة، وأخذ البيعة عليهم للحسين، أرسل بتقرير إلى مكَّة يحثُّ فيه الحسين على المجيء فوراً[3].

تحرَّكت السلطة الأموية، في هذه الأثناء، فعزلت النعمان بن بشير، وعيَّنت عبيد اللَّه بن زياد المتشدِّد والياً على الكوفة، بالإضافة إلى البصرة، فقضى على المعارضة، وقتل مسلم بن عقيل، وهانيء بن عروة الذي استضافه[4].

وغادر الحسين مكَّة إلى الكوفة فور تسلُّمه رسالة ابن عمه، في قلَّة من أصحابه، على الرغم من نصيحة عدد من كبار الشخصيات الإسلامية له بعدم تلبية الدعوة لأن السلطة في العراق ما زالت أموية، بالإضافة إلى أن أهله قوم غدر، ولهم سوابق في ذلك[5].

ووصلت، في غضون ذلك، تعليمات من دمشق إلى عبيد اللَّه بعدم مقاتلة الحسين إلَّا إذا بدأه بقتال[6]. ولما وصل ركب الحسين إلى كربلاء قابله عمر بن سعد بن أبي وقاص على رأس قوة عسكرية، ومعه أوامر مشدَّدة بحسم الوضع. وتلقَّى الحسين تعليمات الوالي القاضية بأن عليه أن يبايع يزيد، فعرض على عمر أحد الاقتراحات التالية:

- إما أن يرجع إلى المكان الذي أقبل منه.
- وإما أن يضع يده في يد يزيد ويعرض عليه قضيته، فيرى فيه رأيه.

---

(١) الدينوري: ص ١٧٢. ابن قتيبة: جـ ٢ ص ٤.   (٢) الطبري: جـ ٥ ص ٣٥٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٤٧. ابن الأثير: جـ ٣ ص ١٤٤ وقارن بابن قتيبة جـ ٢ ص ٥.

(٤) الدينوري: ص ١٧٦، ١٨٠.

(٥) الطبري: جـ ٥ ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤. ابن الأثير: جـ ٣ ص ١٤٥ ـ ١٤٩.

(٦) الدينوري: ص ١٨٣.

ـ وإما السماح له بالذهاب إلى أحد الثغور النائية للجهاد[1].

إلَّا أن أوامر الوالي كانت تقضي باستسلام الحسين دون أي قيد أَو شرط، أَو قتاله، ولا مجال لحل آخر.

وفي (العاشر من محرم عام ٦١هـ/ شهر تشرين الأول عام ٦٨٠م) حدث ما كان متوقعاً دون مفاجآت. وبعد معركة غير متكافئة قُتل الحسين مع اثنين وسبعين من أتباعه[2]. استاء يزيد من قتل الحسين، إلَّا أنه اطمأن لإزالة منافس هاشمي شديد الوطأة، ولم يعاقب واليه الذي خرج على طاعته؛ مظهراً بذلك سطحية في التفكير السياسي.

خروج أهل المدينة ـ وقعة الحرة

شكَّلت مأساة كربلاء صدمة لأهل الحجاز الذين عارضوا ما أحدثه معاوية من تغيير في منهجية الحكم، وما نتج عن ذلك من تطورات سياسية، وهي الشرارة التي أشعلت الحرب بينهم وبين النِّظام الأموي، وما أكثر ما تحدَّث الحجازيون في مجالسهم عن إمعان يزيد في الابتعاد عن دين الله، حتى أضحى خلعه واجباً، فخرج أهل المدينة على حكمه.

واجه يزيد هذا الموقف بالهدوء والحكمة في بادىء الأمر، إلَّا أن اشتداد حملة الانتقادات الصريحة ضد الخليفة، التي استمرت ناشطة، وقد وصلت إلى حد التجريح بشخصه، والطعن بسلوكه، أعقبها موجة من السخط استهدفت الأمويين بعامة، وانتهى الأمر بإعلان خلع يزيد ومبايعة عبد اللَّه بن حنظلة. حملت هذه الأنباء يزيد على التحرك العسكري، فأرسل حملة عسكرية بقيادة مسلم بن عقبة المرِّي، استطاعت إخضاع أهل المدينة بعد معركة الحرة في (شهر ذي الحجة عام ٦٣هـ/ شهر آب عام ٦٨٣م)[3].

حركة ابن الزبير

تُعدُّ حركة ابن الزبير امتداداً لخروج أهل المدينة. لقد استغل ابن الزبير حادثة كربلاء، وخروج أهل المدينة، والفراغ السياسي والقيادي الذي حصل بعد وفاة معاوية، والنقمة الشديدة على يزيد في العالم الإسلامي؛ ليقود حركة مسلَّحة ضد بني

---

(١) الطبري: جـ ٥ ص ٣٨٩.

(٢) ابن قتيبة: جـ ٢ ص ١٨٤ ـ ١٨٥. الطبري: المصدر نفسه ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠، ٤٠٠.

(٣) الطبري: جـ ٥ ص ٤٧٩، ٤٨٧ ـ ٤٩١. ابن كثير: جـ ٨ ص ٢١٥ ـ ٢١٦.

أمية منطلقاً من مكة، فبايعه أهل تهامة والحجاز باستثناء عبد اللَّه بن عبَّاس ومحمَّد بن الحنفية، ثم طرد عمال يزيد من مكَّة والمدينة[١].

حاول يزيد في بادىء الأمر التفاهم مع ابن الزبير، لكنه فشل في ذلك نتيجة إصرار هذا الأخير على موقفه من قضية الخلافة. عندئذ أرسل يزيد حملة عسكرية لإخضاعه بقيادة مسلم بن عقبة المرِّي، لكن هذا القائد مرض في الطريق وتوفي، فتسلَّم الحصين بن نمير القيادة، واستأنف الزحف نحو مكَّة، وحاصرها. وجاء نبأ إعلان وفاة يزيد أثناء الحصار، فاضطر الحصين إلى فك الحصار عن مكَّة، وعاد إلى دمشق بعد أن فشل في التفاهم مع ابن الزبير[٢].

الأحداث السياسية الخارجية في عهد يزيد

لم تحصل أحداث تُذكر في حقل السياسة الخارجية في عهد يزيد باستثناء ما حصل على الجبهة الأفريقية، التي شهدت تطورات سريعة ملفتة للنظر، تمثَّلت بإعادة عقبة بن نافع إلى الولاية واستئنافه حركة الجهاد، ففتح تاهرت[٣] ووصل إلى طنجة[٤] قبل أن يستشهد في معركة تهودة ضد البربر بزعامة كسيلة (أواخر عام ٦٤هـ/ ٦٨٤م)[٥]. والجدير بالذكر أن كسيلة انقلب ضد المسلمين بسبب سياسة عقبة المتشدِّدة.

وفاة يزيد

توفي يزيد بن معاوية لأربع عشرة ليلة خلت من (شهر ربيع الأول عام ٦٤هـ/ شهر تشرين الثاني عام ٦٨٣م)[٦].

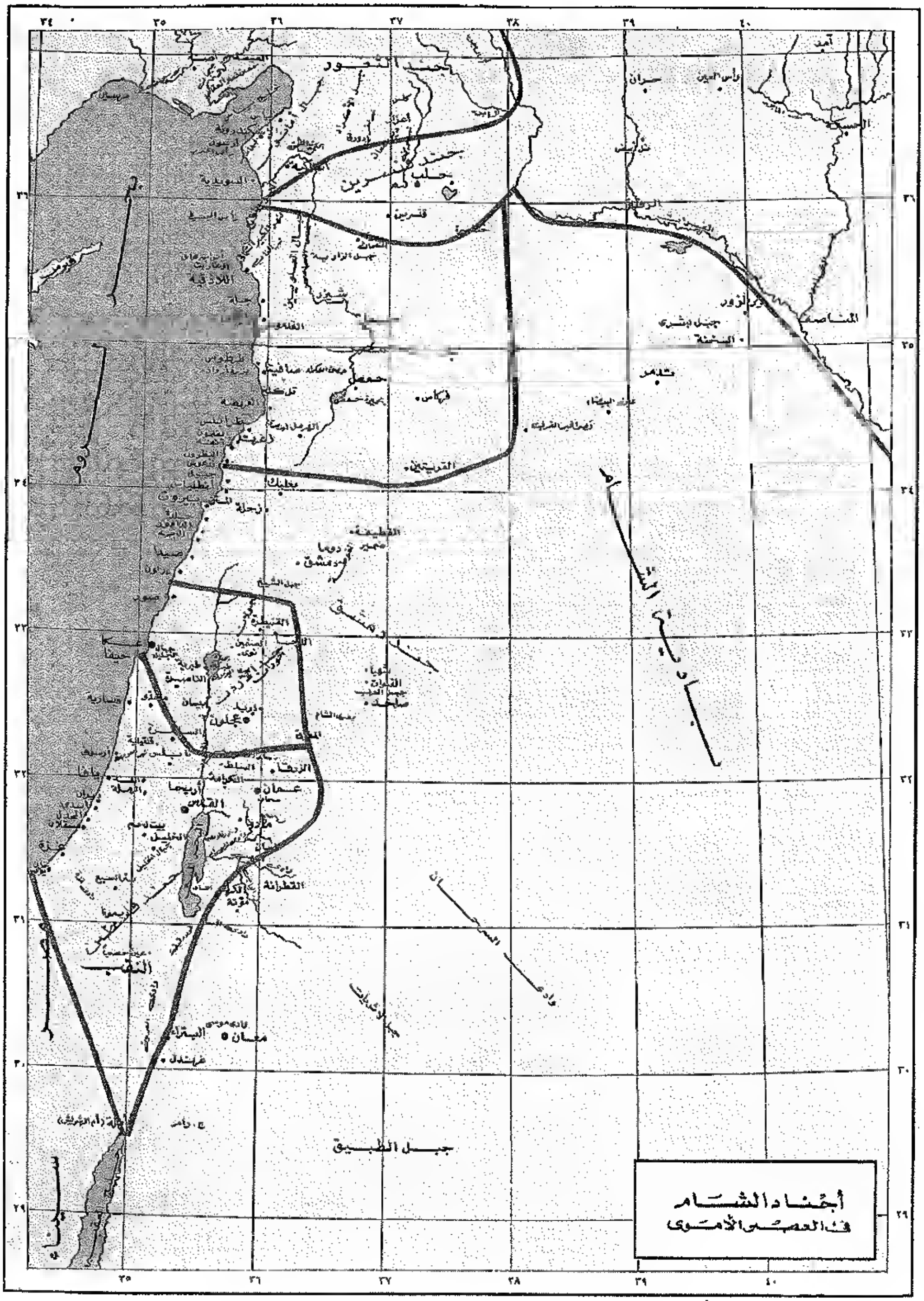
معاوية بن يزيد: معاوية الثاني

٦٤هـ/ ٦٨٤م

بعد وفاة يزيد كانت بيعتان: إحداهما في الشام لمعاوية بن يزيد، والثانية في الحجاز لعبد اللَّه بن الزبير.

---

(١) الدينوري: ص ١٩٦.
(٢) الطبري: جـ ٥ ص ٤٩٦ ـ ٤٩٧، ٥٠٢.
(٣) تاهرت: اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب بينهما وبين المسيلة ست مراحل، وهي بين تِلِمسان وقلعة بني حماد. الحموي: جـ ٢ ص ٧.
(٤) طنجة: بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٤٣.
(٥) ابن عبد الحكم: ص ٢٦٧. ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب جـ ١ ص ٢٣ ـ ٣٠.
(٦) الطبري: جـ ٥ ص ٤٩٩.



أجناد الشام في العصر الأموي

كان معاوية الثاني ظاهرة أموية فريدة، لم تحمل المصادر من أخباره إِلّا القليل، فضلاً عن حداثة سنه، ومرضه، وموقفه الخاص من الخلافة. فقد تنحَّى بعد قليل من مبايعته لعدم قدرته على لمِّ شعث المسلمين، تاركاً الأمر شورى للمسلمين، وتغيَّب في منزله، وتوفي بعد ثلاثة أشهر من خلافته[1].

مروان بن الحكم

٦٤ ـ ٦٥هـ/ ٦٨٤ ـ ٦٨٥م

وجدت الخلافة الأموية نفسها في موقف صعب، بعد أن عمَّت الفوضى أرجاء العالم الإِسلامي، فاجتمع بنو أمية في الجابية من أعمال دمشق، في ظل انقسام العالم الإِسلامي، لإِنقاذ خلافتهم المهدَّدة، وكانوا أسيري القوى القبلية المتنافسة. وتمخَّض عن الاجتماع اختيار مروان بن الحكم خليفة بإجماع الحاضرين. وبذلك انتقل الملك من الفرع السفياني إِلى الفرع المرواني. واتحدت كلمة اليمنيين في مواجهة القيسيين بزعامة الضحاك بن قيس الذي استاء من خروج الأمر من يد ابن الزبير. ولم يجد مروان الذي سانده اليمنيون صعوبة في القضاء على قوة القيسيين في معركة مرج راهط في (شهر ذي القعدة عام ٦٤هـ/ شهر حزيران عام ٦٨٤م)، وقُتل الضحاك في المعركة مع عدد كبير من أتباعه. ونتيجة لذلك بسط مروان نفوذه على بلاد الشام وفلسطين ومصر، وجهَّز جيشين، سيَّر أحدهما إِلى الحجاز للقضاء على حركة ابن الزبير، بقيادة حبيش بن وَلجة، والآخر إِلى الجزيرة، بقيادة عبيد اللّه بن زياد. ويبدو أن جيش الحجاز فشل في دخول المدينة، أما ابن زياد فقد توقف عن التحرك حين وافته أنباء نعي مروان[2].

عبد الملك بن مروان

٦٥ ـ ٨٦ هـ/٦٨٥ ـ ٧٠٥م

تولي عبد الملك الخلافة

كان مروان قد عهد بالخلافة قبل وفاته لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز، فتولى الأول الخلافة في (شهر رمضان عام ٦٥هـ/ شهر نيسان عام ٦٨٥م) في ظل انقسام

---

(١) الطبري: جـ ٥ ص ٥٠١.

(٢) المصدر نفسه: ص ٥٣٥، ٦١١. ابن الأثير: جـ ٣ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

العالم الإسلامي، فوضع نصب عينيه انتشال الدولة الأموية من الفوضى، وإعادة الوحدة إلى المسلمين[1].

الأحداث السياسية الداخلية في عهد عبد الملك

المعارضة العلوية

حركة التوَّابين

وُجدت في مستهل عهد عبد الملك أربع فئات إسلامية كانت تتنازع السيطرة على الحكم وهي:

- الأمويون الذين يسيطرون على الشام ومصر.
- عبد اللَّه بن الزبير وكان يسيطر على الحجاز والعراق.
- جماعة العلويين في العراق.
- جماعة الخوارج.

فكان لا بد للخليفة من أن يتعامل مع هذا الواقع الشاذ.

استغل جماعة من العلويين تضعضع الموقف السياسي في العالم الإسلامي وقرروا ضرب الجيش الأموي المتجه نحو الجزيرة بهدف الثأر لمقتل الحسين، وعدُّوا عبيد اللَّه بن زياد مسؤولاً عن قتله، معترفين بتقاعسهم عن نصرته، وقد تزعمهم سليمان بن صرد الخزاعي، وغلب عليهم اسم التوَّابين.

والتقى الطرفان في عين الوردة من أرض الجزيرة إلى الشمال الغربي من صفِّين، في رحى معركة ضارية أسفرت عن تدمير قوة التوَّابين. وتابع عبيد اللَّه زحفه باتجاه العراق[2].

حركة المختار بن أَبي عبيد الثقفي

تميزت هذه الحركة بمناهضتها للحكم الأموي ورفع شعار التشيع بالإضافة إلى نزعة السلطة التي لازمت زعيمها. ومن خلال هاتين النزعتين تحرَّك المختار الذي نجح في استقطاب العلويين ودخل الكوفة بعد أن تغلَّب على جيش الوالي عبد اللَّه بن مطيع[3].

والواضح أن متاعب المختار الجدِّيَّة برزت بعد السيطرة على الكوفة، ذلك أن حركته لم تحمل في طياتها عوامل الاستمرارية، وأن الاحتفاظ بالسلطة كان مصحوباً

---

(1) الطبري: جـ ٥ ص ٦١٠.
(2) المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٥٩٦ ـ ٦٠٥.
(3) الدينوري: ص ٢٩٢.

بأخطار داخلية، حيث كان التلاحم العلوي وراءه مرحلياً ومصطنعاً، كما عارضه أهل الكوفة من غير العلويين، وأخطار خارجية تمثَّلت بخطر ابن الزبير، وخطر الجيش الأموي الذي كان يزحف باتجاه العراق، على الرغم من أنه نجح في تدمير الجيش الأموي عند الخازر[١] في (١٠ محرم عام ٦٧هـ/ ٦آب عام ٦٨٦م)، وقتل قائده عبيد اللَّه بن زياد مع الحصين بن نمير، إلَّا أنه فشل أمام مصعب بن الزبير الذي قضى على حركته في معركة المذار (بين واسط والبصرة) (منتصف عام ٦٧هـ/ أوائل عام إلى ٦٨٧م). وقُتل المختار في الكوفة، وسيطر مصعب عليها[٢].

حركة ابن الزبير

أدّى زوال المختار إلى انحسار المنافسة على زعامة العالم الإسلامي بين عبد الملك بن مروان وعبد اللَّه بن الزبير. وأدرك الخليفة الأموي أن قوة خصمه تكمن في العراق، وأن القضاء عليه في هذا الإقليم سيؤدي حكماً إلى إسقاط النظام الزبيري بكامله لأن عوامل الصمود في الحجاز تكون قد فقدت الكثير من دعائمها. لذلك خرج على رأس جيش كبير إلى العراق، في حين تحرَّك مصعب بن الزبير من الكوفة باتجاه الشمال للتصدي له. والتحم الجيشان على نهر الدجيل عند دير الجاثليق بمسكن في (شهر جمادى الآخرة عام ٧٢هـ/ شهر تشرين الثاني عام ٦٩١م) في رحى معركة ضارية أسفرت عن انتصار الجيش الأموي، وقُتل مصعب في المعركة، ودخل عبد الملك الكوفة[٣].

لم يُضِعْ الخليفة المنتصر فرصة قطف ثمار انتصاره، فأسرع بإرسال جيش إلى الحجاز بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي، قضى على ابن الزبير في (شهر جمادى الأولى عام ٧٣هـ/ شهر أيلول عام ٦٩٢م)[٤]. وبهذا انتهت خلافة ابن الزبير، وخضع الحجاز لعبد الملك وتوحَّد العالم الإسلامي من جديد تحت زعامته.

الخوارج

ظل الخوارج، وهم القوة التي بقيت خارج نطاق التطاحن الدموي، يعارضون الأمويين لأنهم مغتصبين للخلافة، كما كان لحالة الاضطراب السياسي التي شهدها

---

(١) الخازر: هو نهر بين إربل والموصل ثم بين الزاب الأعلى والموصل. الحموي: جـ ٢ ص ٣٣٧.

(٢) الدينوري: ص ٣٠٨. الطبري: جـ٦ ص ١٠٥ ـ ١٠٧.

(٣) الدينوري: ص ٣١١. المسعودي: جـ ٣ ص ١٠٩.

(٤) الطبري: جـ٦ ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

العالم الإسلامي، وسياسة الحجاج القاسية في العراق؛ دور في تشجيعهم على تحدِّي الحكومة المركزية. ومن جهته، أدرك عبد الملك مدى الخطر الذي يشكِّله هؤلاء على الحكم الأموي، لذلك تفرغ لقتالهم، ونجح في القضاء عليهم في العراق واليمامة[1].

حركة ابن الأشعث

تُعد حركة عبد الرَّحمن بن الأشعث إحدى أهم الحركات التي قامت في وجه الحكم الأموي بفعل أنها هزَّت أُسس هذا الحكم وكادت أن تقوِّضه، ولم يكن نشوبها على أساس مذهبي، كما هو الحال في حركات الخوارج، بل أثارتها سياسة الحجَّاج الضيِّقة بحق أهل العراق، واستغلال ابن الأشعث العداء الذي يكنُّه هؤلاء للدولة الأموية. فقد أعدَّ الحجاج جيشاً من أهل العراق بقيادة ابن الأشعث وأرسله إلى سجستان في المشرق، وأمره بإخضاع رتبيل ملك كابل. تقدم ابن الأشعث بهذا الجيش، وهاجم معاقل رتبيل، إنما لم يتمكَّن من القضاء عليه بفعل طبيعة الأرض الجبلية الوعرة. وانتهى إلى قرار بتجميد العمليات العسكرية لمدة سنة حتى يتأقلم الجنود مع طبيعة الأرض، وكتب إلى الحجَّاج بذلك. لكن الحجَّاج، بدافع من خلفيات سياسية ضيقة، رفض اقتراح قائده، وجدَّد له الأمر بالزحف وراء القوات التركية. شعر ابن الأشعث بالإهانة، كما أثار أتباعه الذين رأوا في إبعادهم عن العراق بهذا الأسلوب، مؤامرة ضدهم للحؤول دون عودتهم. واستقر الرأي أخيراً على خلع الحجاج، فبايع الجند ابن الأشعث وزحفوا باتجاه العراق. لكن الحجاج تمكن من القضاء على هذه الحركة بعد عدة نكسات، في معركة دير الجماجم بظاهر الكوفة في (١٤ جمادى الآخرة ٨٢هـ/ تموز ٧٠١م)، وفرَّ ابن الأشعث إلى سجستان للاحتماء برتبيل وفقاً لاتفاق سابق، لكن الحجاج لم يتركه وشأنه وأجبر رتبيل على تسليمه إيَّاه، ولما علم ابن الأشعث بذلك انتحر، وانتهت حركته بموته[2].

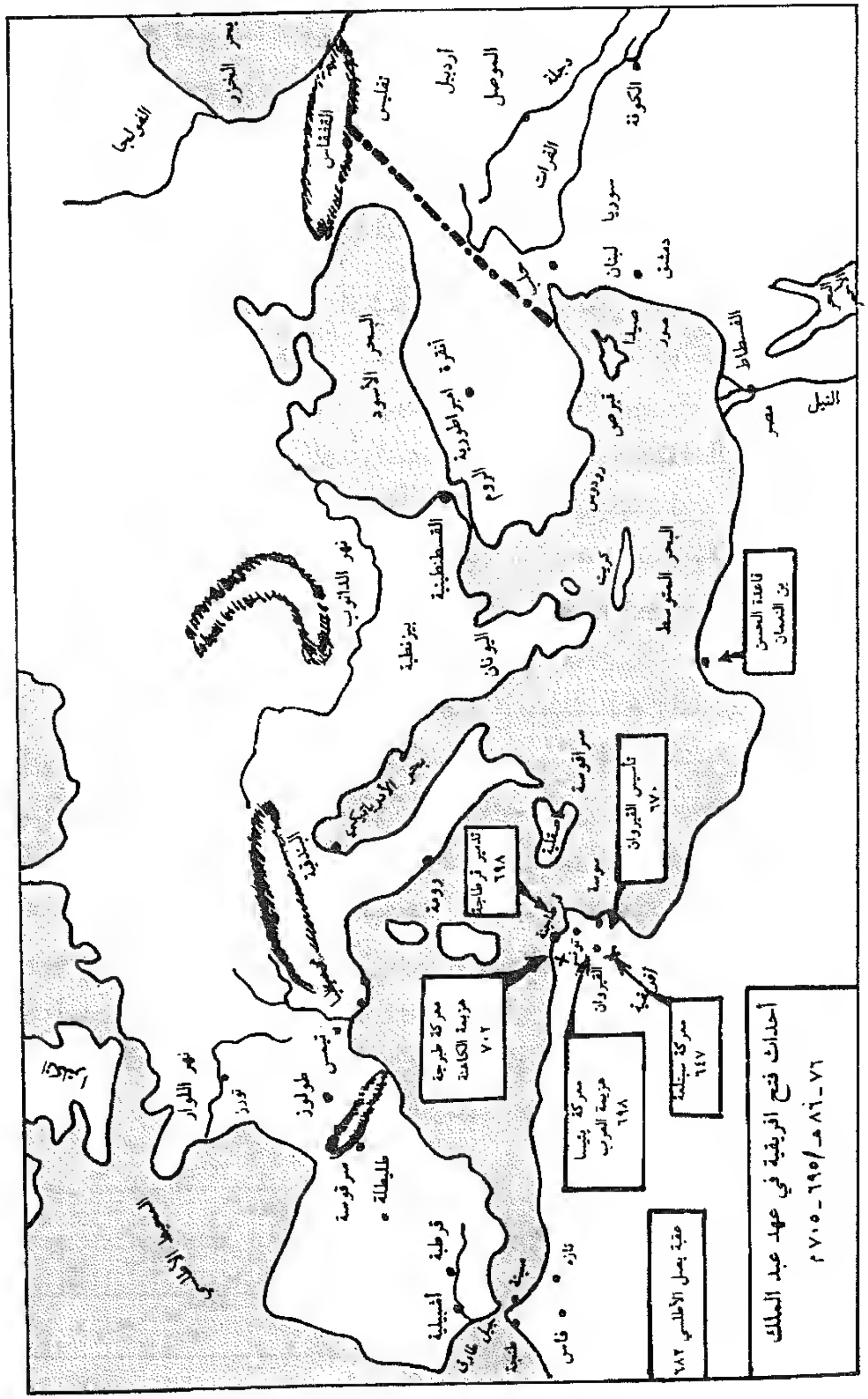
سياسة عبد الملك الخارجية

لم تسمح الاضطرابات المتلاحقة التي اجتاحت النصف الشرقي من الدولة الإسلامية، للمسلمين بالتوسع في فتوحهم. ففي الشرق غزا المسلمون مدن ما وراء

---

(١) المبرد النحوي: الكامل في اللغة والأدب جـ ٢ ص ٢٩٨ ـ ٣٠١، ٣٠٢ ـ ٣٠٦. الطبري: جـ ٦ ص ٢١١ ـ ٢٢٣، ٢٧٩ ـ ٢٨١، ٣٠٤، ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

(٢) الطبري: المصدر نفسه: ص ٣٣٦، ٣٣٩ ـ ٣٤٠، ٣٤٢، ٣٤٦ ـ ٣٥٥، ٣٥٨ ـ ٣٨٨.



أحداث فتح أفريقية في عهد عبد الملك

النهر مثل كش والختل وريخش[١]. وفي الغرب استمرت عمليات الكر والفر بين الجانبين الإسلامي والبيزنطي. واضطر عبد الملك تحت ضغط الأحداث الداخلية إلى عقد معاهدة مع الأمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني لتهدئة هذه الجبهة تعهد بموجبها بأن يدفع للأمبراطور مبلغاً سنوياً يبلغ ثلاثمائة وخمس وستين ألف قطعة ذهبية وثلاثمائة وستين عبداً، وثلاثمائة وخمسة وستين جواداً أصيلاً، مقابل وقف الغارات البيزنطية على الأراضي الإسلامية، وسَحْب المردة من منطقة شمالي الشام، على أن تستمر الهدنة مدة عشرة أعوام[٢].

أدّى انسحاب المردة إلى تدمير ذلك السور النحاسي الذي كان يحمي آسيا الصغرى من غارات المسلمين. فاستؤنفت غزوات الشواتي والصوائف، وفتح المسلمون قيسارية، وحقّقوا انتصاراً في أرمينية، وغزو ملطية وقاليقلا عند منابع نهر الفرات، في حين اقتصر ردُّ بيزنطية على مهاجمة مرعش[٣].

أما في شمالي أفريقية فقد خاض المسلمون عدة معارك ناجحة لتصفية القواعد البيزنطية على الساحل الشمالي، وفك ارتباطهم مع البربر الذين ثاروا بزعامة امرأة غامضة عُرفت في المصادر العربية باسم الكاهنة[٤] أخمد ثورتها حسان بن النعمان الغساني وقتلها.

سياسة عبد الملك الإدارية

اهتم عبد الملك اهتماماً خاصاً بإدارة شؤون الدولة، وقد تمثَّل ذلك في التحوُّل من دائرة لا تتجاوز آفاق المجتمع القبلي إلى إطار المؤسَّسات الإدارية. وترجع شهرة عبد الملك الإدارية إلى أن إصلاحاته سارت في اتجاهين، الأول: تطوير الجهاز الإداري وتنشيطه، فاتخذت الدولة في عهده شكلاً لا يبعد كثيراً عن أشكال الدول المعاصرة. وقد توزعت الإدارة في عهده على خمسة دواوين رئيسية هي: ديوان الخراج، ديوان الجند، ديوان الرسائل، ديوان الخاتم، وديوان البريد. أما الاتجاه الثاني فهو تعريب الإدارة والنقد وهو ما يُعرف بحركة التعريب[٥].

---

(١) خليفة بن خياط: جـ ١ ص ٢٧٥. ابن الأثير: جـ ٣ ص ٤٨١ ـ ٤٨٢.

(٢) Michel le Syrien: Chronique: II pp 469-470.

والمردة جماعات من النصارى كانوا يسكنون في جبال أمانوس، وقد شكَّلوا جيشاً، واتخذت منهم السلطات البيزنطية سياجاً في هذه المنطقة. وقد أطلق عليهم البلاذري اسم الجراجمة نسبة إلى مدينتهم الجرجومة. انظر فتوح البلدان: ص ٢١٧ ـ ٢٢٣.

(٣) ابن الأثير: جـ ٣ ص ٥٠٠. Theophanes: Chronographia p 802.

(٤) ابن عبد الحكم: ص ٢٦٩ ـ ٢٧١. ابن عذاري: جـ ١ ص ٣٥.

(٥) المقريزي تقي الدين أحمد: شذور العقود في ذكر النقود ص ٦. بيضون: ص ٢٧٣

وفاة عبد الملك

توفي عبد الملك يوم الخميس في (منتصف شهر شوال عام ٨٦هـ/ شهر تشرين الأول عام ٧٠٥م)[١].

الوليد بن عبد الملك

٨٦ ـ ٩٦هـ/ ٧٠٥ ـ ٧١٥م

إصلاحات الوليد الداخلية

تولى الوليد الخلافة بعهد من أبيه عبد الملك[٢]. اتسم عهده بالفتوح والرخاء بعد أن استتب الأمن والنِّظام في الداخل. كان الوليد ميالاً للعمارة، لذلك اهتم بإصلاح الطرق، وتسهيل السُّبل، وحفر الآبار، ووسَّع الحرم النبوي، والجامع الأموي، وحسَّن مدينة دمشق حيث أوصل الماء إلى كل بيت من بيوتها الكبيرة، عبر أقنية من نهر بردى.

فتح بلاد ما وراء النهر

تاخمت ممالك بلاد ما وراء النهر حدود الدولة الإسلامية في خراسان، وكان الوضع السياسي لهذه الممالك مزعزعاً بفعل النزاعات الدائمة بينها مما سمح للمسلمين بالتدخل، وقد حقَّق القائد المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي، حاكم خراسان، إنجازات مهمَّة، فأعاد فتح إقليم طخارستان، وغزا إقليم بخارى، وفتح بيكند صلحاً، وسمرقند، ومدن خوارزم، والشاش، وفرغانة، وكاشغر وهي أدنى المدائن إلى الصين[٣].

فتح بلاد السند

يقع إقليم السند في شمال غربي القارة الهندية وشرق بلاد فارس الجنوبية، وأحداث فتح هذا الإقليم، شبيهة بأحداث فتح بلاد ما وراء النهر. وقد عهد الحجَّاج إلى ابن عمه محمَّد بن القاسم بفتح هذا الإقليم، فانتقل إلى مكران، وخرج منها إلى الديبل على ساحل بحر الهند وفتحها[٤]، وهرع سكان القرى المجاورة يعرضون الصلح على المسلمين[٥]. توجَّه محمَّد بن القاسم بعد ذلك إلى البيرون فصالحه

---

(١) الطبري: جـ٦ ص ٤١٨ ـ ٤١٩.

(٢) اليعقوبي: جـ٢ ص ٢٠٤. ابن كثير: جـ٩ ص ٧٠.

(٣) الطبري: جـ٦ ص ٤٣٠ ـ ٤٣٣، ٤٤٥، ٤٦٩.

(٤) البلاذري: ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

(٥) اليعقوبي: جـ٢ ص ٢١٢.

أهلها كما صالحه سكان سربيدوس وسهبان وسدوسان، وهي مدن تقع على الضفة الشرقية لنهر السند[(١)].

الجبهة البيزنطية

انتهج الوليد سياسة الضغط على الأمبراطورية البيزنطية، وقاد حركة الجهاد على هذه الجبهة القائد الأموي مسلمة بن عبد الملك، أخو الخليفة، وتمكَّن من فتح عدة حصون ذات أهمية عسكرية، في الطريق المؤدِّي إلى القسطنطينية، أمثال طوانة وهرقلة وعمورية ودوريليوم. وحاول البيزنطيون من جانبهم إيقاف الزحف الإسلامي أو الحد من اندفاع المسلمين، فعمدوا إلى تقوية جبهة آسيا الصغرى.

جبهة شمالي أفريقية

بلغ المد التوسعي على هذه الجبهة ذروته في عهد الوليد بن عبد الملك على يد موسى بن نصير الذي عمل على تثبيت دعائم النصر الذي حقَّقه أسلافه في المغربين الأدنى والأوسط، ثم انطلق إلى إقليم السوس الأقصى في عمق المغرب، ونجح في استقطاب البربر الذين تحوَّلوا إلى الإسلام، ودخلوا في الجيوش الإسلامية كجنود محاربين، استعملهم في فتح الأندلس.

وفاة الوليد

توفي الوليد بن عبد الملك في (شهر جمادى الآخرة عام ٩٦هـ/ شهر شباط عام ٧١٥م) بدير مروان[(٢)].

سليمان بن عبد الملك

٩٦ ـ ٩٩هـ/ ٧١٥ ـ ٧١٧م

سياسة سليمان الداخلية

تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة بعد أخيه الوليد. كان ديِّناً، فصيحاً، عادلاً، محباً للغزو. استهل عهده بعزل ولاة أخيه، وعيَّن ولاة جدداً على الأقاليم[(٣)]. والراجح أن فكرة التغيير جاءت بتأثير عمر بن عبد العزيز الذي لازم الخليفة، ورجاء بن حيوة، وهي تدخل ضمن المتغيرات السياسية والعسكرية التي شهدتها

(١) البلاذري: ص ٤٢٥ ـ ٤٢٧.

(٢) الطبري: جـ٦ ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦.

(٣) البلاذري: ص ٤٢٨.

دولة الخلافة الأموية، بعد أن عمَّ الهدوء والاستقرار والسَّلام، أرجاء الدولة، فكان من الحكمة أن يتغيَّر أسلوب الحجاج في الإدارة والحكم.

وأطلق الخليفة سراح آلاف المسلمين المعارضين للحكم الأموي، من السجون، وضاعف العطاء، وخفَّف من وطأة الضائقة الاقتصادية. ولعل هذه السياسة كانت السبب في رضاء المسلمين بعامة عن سليمان، وثنائهم عليه[(١)].

سياسة سليمان الخارجية

جبهة المشرق

لم تحدث فتوح إسلامية جديدة في المشرق، لأن الظروف السياسية التي مرَّت بها الخلافة الأموية بعد عام (٩٨/ ٧١٧م) وحتى سقوطها في عام (١٣٢هـ/ ٧٥٠م) لم تكن تسمح بذلك. فقد انهمكت في إخماد الحركات المعارضة التي بدأت تبرز من جديد مثل حركة الخوارج، وحركة يزيد بن المهلب، كما أن الخلافات تجدَّدت بين العرب في خراسان، وقد استغلَّها العباسيون لصالحهم، لكن الواضح أن الأمويين استطاعوا المحافظة على المكتسبات التي تحقَّقت.

الجبهة البيزنطية

كان الحدث الكبير الذي شهده عهد سليمان على هذه الجبهة، هو حصار القسطنطينية بقيادة مسلمة بن عبد الملك، وقد حشد الخليفة تحت قيادته قواتٍ بلغت مائة وثمانين ألف جندي وألف وثمانمائة قطعة بحرية[(٢)]. تحرَّك الجيش في عام (٩٨هـ/ ٧١٧م) باتجاه الأراضي البيزنطية، وتوغل فيها، في حين أقام الخليفة في دابق، وأعطى الله عهداً أن لا ينصرف حتى يدخل الجيش القسطنطينية[(٣)].

وصلت الحملة إلى العاصمة البيزنطية وضربت الحصار عليها، في الوقت الذي حاصرها الأسطول البحري من جهة البحر. وضرب مسلمة المدينة بالمنجنيق، لكن ردَّته مناعة الأسوار ومهارة المهندسين البيزنطيين، كما أغلق الأمبراطور ليو الثالث مدخل البوسفور بسلسلة ضخمة من الحديد لمنع السفن الإسلامية من الدخول إليه، وأبعدت العواصف البحرية، التي كانت تهب بين الحين والآخر،

---

(١) الطبري: جـ ٦ ص ٥٤٦.

(٢) Diel et Marcais: Le Monde Oriental, pp 251-252.

(٣) الطبري: جـ ٦ ص ٥٣١. ودابق قرية قرب حلب من أعمال عزاز، بينها وبين حلب أربعة فراسخ. الحموي: جـ ٢ ص ٤١٦.

السفن الإسلامية عن الأسوار كما حطَّمت عدداً منها، وأحرق البيزنطيون عدداً آخر بالنار الإغريقية. وعجز المسلمون عن تطويق الجبهة الشمالية التي ظلَّت مفتوحة على العاصمة البيزنطية مما مكَّن البيزنطيين من الاتصال بسواحل البحر الأسود التي أمدتهم بحاجاتهم من الغلال والمؤن، في حين أخذت إمدادات ومؤن المسلمين بالتناقص بعد فشل وصولها من بلاد الشام بفعل مضايقة البيزنطيين. ومما زاد الأمر سوءاً ما جرى من تواطؤ البحارة النصارى، الذين يعملون في الأسطول الإسلامي، مع البيزنطيين. وتحرَّج وضع المسلمين، ولم ينقذهم سوى كتاب عمر بن عبد العزيز، الذي خلف سليمان، إلى مسلمة يأمره بفك الحصار والعودة إلى الشام[1].

يُعَدُّ هذا الهجوم، الأخير الذي قام به الأمويون لفتح القسطنطينية.

وفاة سليمان

توفي سليمان في دابق (لعشرين بقين من شهر صفر عام ٩٩هـ/ شهر أيلول عام ٧١٧م)، بعد أن عهد بالخلافة من بعده لابن عمه عمر بن عبد العزيز، ثم لأخيه يزيد بن عبد الملك[2].

عمر بن عبد العزيز
٩٩ ـ ١٠١هـ/ ٧١٧ ـ ٧٢٠م

سياسة عمر العامَّة

كانت الخلافة نقطة تحول في حياة عمر بن عبد العزيز من ناحية، وذات تأثير كبير في تاريخ دولة الخلافة الأموية بشكل خاص، والتاريخ الإسلامي بشكل عام، من ناحية أخرى.

أما أثرها في حياة عمر، فقد فصلت بين مرحلتين. اتَّسمت المرحلة الأولى بالنعومة والترف، وهي التي قضاها عمر قبل أن يلي الخلافة. أما المرحلة الثانية التي قضاها في الحكم فقد تميزت بالزهد الصادق، والبُعد عن زخرف الحَياة وزينتها، وإحساسه العميق بالمسؤولية بعيداً عن كبرياء الملوك.

أما أثر خلافة عمر في تاريخ دولة الخلافة الأموية، فإن نهج عمر في الحكم يُعدُّ خروجاً على النهج الذي اختطه معاوية بن أَبي سفيان، وسار عليه من جاء بعده

---

(١) الطبري: جـ٦ ص ٥٣٠ ـ ٥٣١.
(٢) المصدر نفسه: ص ٥٣١ ـ ٥٣٢، ٥٥٢.

يُعدُّ خروجاً على النهج الذي اختطه معاوية بن أَبي سفيان، وسار عليه من جاء بعده من الخلفاء، وهو إلى النهج الراشدي أقرب.

أما أثر خلافته في التاريخ الإسلامي، فإن عمر قدَّم الدليل الواضح على أنه إذا صحَّت عزيمة الحاكم المسلم، واستشعر بالمسؤولية أمام الله، أضحى بإمكانه أن يقوِّم الأوضاع المعوجَّة، وأن يرد المنحرفين إلى سواء السبيل[١].

أما في حقل السياسة الخارجية، فقد جمَّد عمر العمليات العسكرية، واتبع سياسة سلمية تجاه الشعوب غير الإسلامية دعاهم فيها إلى الإسلام[٢].

وتناول عمر في إصلاحاته الداخلية مختلف جوانب المجتمع الإسلامي لعل أهمها: انفتاحه على الفئات المعارضة، التسامح الديني مع غير المسلمين ودعوتهم إلى الإسلام، خلق طبقة إدارية متأثِّرة بأفكاره، واستيعاب المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أفرزتها الفتوح.

ومن أعمال عمر الإصلاحية: بناء الخانات في البلدان القاصية وعلى طريق خراسان، واستضافة المسافرين فيها يوماً وليلة. وحقَّق عمر أفكاره المثالية التي تهدف إلى نشر العدل، والرفق في جمع المال، وعدم جباية الأَموال غير الشرعية، كما منع قبول الهدايا.

وفاة عمر

توفي عمر بن عبد العزيز في (٢٥ من شهر رجب عام ١٠١هـ/ شهر شباط عام ٧٢٠م) وهو بخناصرة من دير سمعان بين حماة وحلب. ويُعدُّ عهده من أزهى عهود الخلفاء الأمويين حتى أن بعض المؤرخين رأوا أنه متمم لعهد الخلفاء الراشدين[٣].

يزيد بن عبد الملك (يزيد الثاني)

١٠١ ـ ١٠٥هـ/ ٧٢٠ ـ ٧٢٤م

الأوضاع الداخلية في عهد يزيد الثاني

خروج يزيد بن المهلب

تولَّى الخلافة، بعد وفاة عمر بن عبد العزيز، يزيد بن عبد الملك، استناداً لعهد

(١) عبد اللطيف: ص ١٧٤.
(٢) الطبري: ج ٦ ص ٥٦٨.
(٣) المصدر نفسه: ص ٥٦٥. ابن كثير: ج ٩ ص ١٩٢، ٢٠٠.

الخليفة كان أسير عصبيته التي اقترنت بالتعصُّب الشديد للحزب القيسي، وقد أدَّت إلى خروج يزيد بن المهلب اليمني الانتماء الذي استولى على البصرة والكوفة والأهواز وبعض قرى فارس، وكاد يبسط سلطانه على العراق كله، وبايعه الناس. وأظهرت التحالفات التي حظي بها، وبخاصة في العراق، نوعية التأييد لحركته فإذا هي حركة انتقامية ضد تراث الحجَّاج، وضد أهل الشام، غير أن هذه الحركة لم تكن سوى تدبير ارتجالي مؤقت، دون تخطيط، ومرتبطة بقائدها الذي كان ملاحقاً من السلطة التي تمكَّنت من تصفيته على يد مسلمة بن عبد الملك[١].

ظهور الدعوة العباسيَّة

ظهرت في عهد يزيد بن عبد الملك الدعوة العباسيَّة، ذلك أنَّه كان يرأس بني العباس، في أواخر القرن الأول الهجري، علي بن عبد اللَّه بن عباس، ويعيش في الحميمة من أرض الشراة جنوبي الأردن.

ويبدو أن عبد اللَّه بن محمَّد بن الحنفية بن علي بن أَبي طالب والملقب بأَبي هاشم، قد عاد من الشام من زيارة الخليفة سليمان بن عبد الملك، وأحسَّ بدنو أجله في الطريق، فعرَّج على ابن عمه محمَّد بن علي بن عبد اللَّه بن عباس الذي خلف أباه، وطلب منه أن يعمل للإطاحة ببني أمية[٢].

أثار كلام عبد اللَّه بن محمَّد ما في نفس محمَّد بن علي من طموح، فبدأ يعمل لذلك، ولكنه لم يدعُ لنفسه، وإنما جعل الدعوة إلى الرضا من آل محمَّد حنكة منه كي لا يفرِّق صفوف آل البيت ويُبعد الأنظار عن شخصه. وكان من الطبيعي أن ينظر آل البيت بعين الرضا إلى كل تنظيم يدعو إلى آل محمَّد، بغض النظر عن البيت الذي ينتمي إليه. وأمر الدعاة بالتركيز على خراسان، الإقليم الأكثر تشنجاً من الحكم الأموي.

سياسة يزيد الخارجية

حافظت دولة الخلافة الأموية في عهد يزيد الثاني على إحجامها في تنفيذ

---

(١) الطبري: جـ ٦ ص ٥٩٠ ـ ٥٩٧.

(٢) تذكر الروايات التاريخية أن سليمان بن عبد الملك أوعز بدسِّ السم لأَبي هاشم، فأثار ذلك نقمة بالغة في نفسه على بني أمية، والجدير بالذكر أن أبا هاشم لم يكن سيد بني هاشم، كما لم يكن أَبوه محمَّد، ولم يعده كذلك إلَّا الكيسانية أتباع المختار بن أَبي عبيد، ولكن سُلِّطت الأضواء على أَبي هاشم بعد هذه الحادثة، وعُدَّ سيد آل البيت، كما عُدَّ موته بسبب ما سقي من سم على أيدي بني أمية لأغراض سياسية. انظر: البلاذري: أنساب الأشراف جـ ٣ ص ٤٦٧ ـ ٤٦٨. شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي: الدولة العباسية جـ ٥ ص ١٥.

فتوح مهمَّة، وذلك بفعل الظروف السياسية التي كانت تمر بها، وشهدت المناطق الحدودية على كافة الجبهات، هدوءاً نسبياً.

وفاة يزيد

ولَّى يزيد بن عبد الملك أخاه هشاماً ولياً لعهده، ثم ابنه الوليد، وتوفي (لخمس بقين من شهر شعبان عام ١٠٥هـ/ شهر كانون الثاني عام ٧٢٤م) في البلقاء من أرض الشام[(١)].

هشام بن عبد الملك

١٠٥ ـ ١٢٥هـ/ ٧٢٤ ـ ٧٤٣م

الأوضاع الداخلية في عهد هشام

يُعدُّ هشام من خيار خلفاء بني أمية، اتصف بالحزم والذكاء، عاقلاً، مدبراً، بصيراً بالأمور، يقظاً، ساهراً على مصالح الأمة، استطاع أن يعيد للدولة توازنها القبلي، مما أدَّى إلى تجميد عملية التدهور مؤقتاً[(٢)].

من إصلاحاته: شق قنوات الري وحفر الآبار على طريق الحج، وحرص على تربية أولاده تربية صالحة.

خرج في عهده زيد بن علي، أحد كبار زعماء آل البيت، وهو لا يفتأ يذكر الخلافة ويتمناها، ويرى أنه أهل لها وأحق بها[(٣)]، وتعلق العلويون به، والتفَّت من حوله جموع أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان، لكن يوسف بن عمر والي العراق استطاع أن يقضي على حركته، وأصاب زيداً سهم خلال الاصطدامات فتوفي متأثراً بجراحه[(٤)].

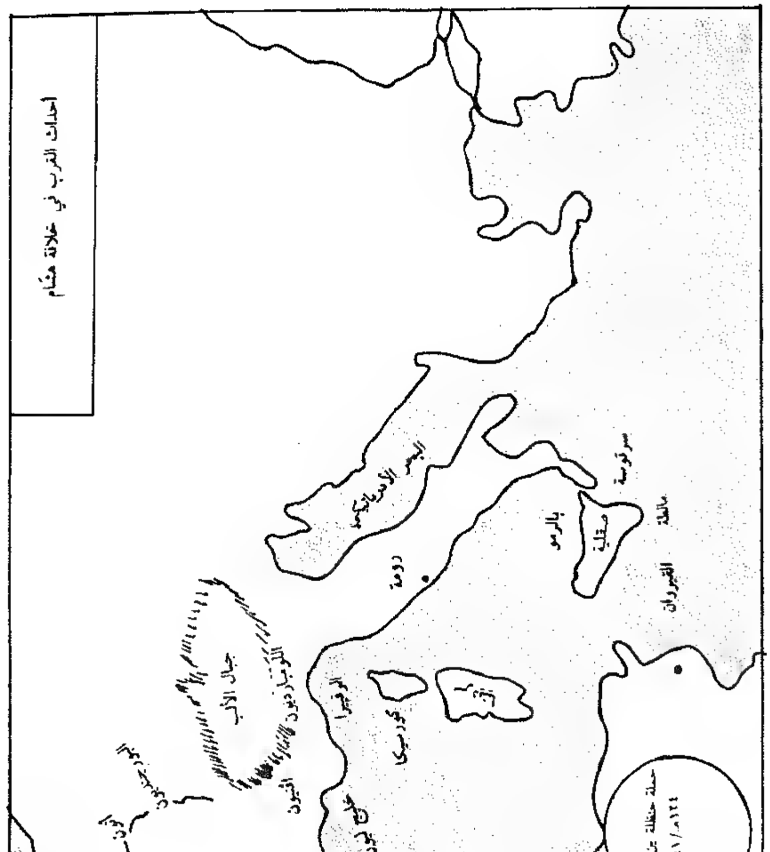
الأوضاع الخارجية في عهد هشام

جبهة المشرق

شهدت جبهة المشرق اضطرابات خطيرة في عهد هشام أدَّت إلى تقليص الممتلكات في بعض المناطق. فقد نشط الأتراك في بلاد ما وراء النهر، وبخاصة في

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٢١ ـ ٢٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٤ ص ١٦٢ ـ ١٦٣.
(٢) المسعودي: جـ ٣ ص ٢١١.
(٣) الطبري: جـ ٧ ص ١٦٥ ـ ١٦٦.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٨٢ ـ ١٨٩.



أحداث الغرب في خلافة هشام

سمرقند، لطرد المسلمين من البلاد، وساندهم السكان الذين تحوَّلوا إلى الإسلام حديثاً ورفضوا الاستمرار في دفع الجزية التي كانت مقرَّرة عليهم قبل أن يدخلوا في الإسلام. وجرت عدة اصطدامات نتج عنها انسحاب المسلمين من بعض مناطق بلاد ما وراء النهر بما فيها بخارى[١]، وقيام اضطرابات في أنحاء متفرقة من البلاد. وتمكَّن نصر بن سيار والي خراسان والعراق من حل مشكلة الخراج، فأزال بذلك شكوى مسلمي مرو من جور النظام الضريبي المفروض عليهم، وعمَّ الأمن والرخاء أرجاء خراسان.

جبهة أرمينية وأذربيجان

تعاقب على إمارة هذه الجبهة عدد من الأمراء المسلمين، وشهدت منذ عام (١٠٧هـ/ ٧٢٥م) ضغطاً عسكرياً إسلامياً، وبخاصة المنطقة المحيطة ببلاد الخزر، أدَّى إلى تحجيم قوة الأتراك وإخضاع بعض المدن والقرى منها خلاط[٢].

الجبهة البيزنطية

استمر النضال بين المسلمين والبيزنطيين في عهد هشام. واهتم هذا الخليفة ببناء الحصون في مناطق الحدود لامتصاص الغارات البيزنطية من جهة، واتخاذها قواعد انطلاق لغزو الأراضي البيزنطية من جهة أخرى. وأغار المسلمون على منطقة آسيا الصغرى بشكل دوري، وفتحوا عدة حصون منها خنجرة وخرشنة وقيصرية وصمالو، وحاصروا دوريليوم ونيقية وطوانة وبرجمة، كما نفَّذوا عدة حملات بحرية ضد الجزر القريبة مثل قبرص وصقلية[٣].

كان رد الفعل البيزنطي محدوداً نسبياً، وتُعدُّ معركة ريض أكرن التي خاضها الأمبراطور البيزنطي ليو الثالث ضد القوى الإسلامية في عام (١٢٢هـ/ ٧٤٠م)، آخر المعارك الكبرى بين الأمويين والبيزنطيين، وترتب عليها أن جلا المسلمون عن الجزء الغربي من آسيا الصغرى، وارتبطت بهذه المعركة قصة البطل التركي المعروف بعبد الله البطال الذي قتل في هذه المعركة[٤].

جبهة شمالي أفريقية

عانى الأمويون على هذه الجبهة من عداء البربر بعد أن استقطبهم الخوارج،

---

(١) بارتولد فاسيلي: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ص ٣٠٦ ـ ٣١٠.

(٢) ابن الأثير: جـ ٤ ص ١٧٨، ١٨٦، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٨ ـ ٢٠٠، ٢٢٧، ٢٣٠.

(٣) خليفة بن خياط: جـ ٢ ص ٣٤٩ ـ ٣٦٩.

(٤) ابن الأثير: جـ ٤ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ Finlay: History of the Byzantine Empire p 20.

وتطور هذا العداء إلى ثورة في عام (١٢٢هـ/ ٧٤٠م) بفعل اشتطاط والي طنجة في طلباته المالية، فأرسل الخليفة جيشاً بقيادة عامله على مصر حنظلة بن صفوان الكلبي انتصر على الثائرين في معركتي الأصنام والقرن[١].

وفاة هشام

توفي هشام بن عبد الملك يوم (الأربعاء لست خلون من شهر ربيع الآخر عام ١٢٥هـ/ شهر شباط عام ٧٤٣م)[٢].

الوليد بن يزيد (الوليد الثاني)

١٢٥ ـ ١٢٦هـ/ ٧٤٣ ـ ٧٤٤م

أعمال الوليد بن يزيد

بويع الوليد بن يزيد في دمشق بعد وفاة عمه هشام بعشرة أيام[٣]. نشأ هذا الخليفة نشأة عابثة، وتعرَّض لحملة تشهير من قبل خصومه وبخاصة من عمه هشام، لكنه كان كريماً، أراد أن يجعل عهده مناقضاً لعهد عمه، فزاد أعطيات الجند والناس، وأمر بإعطاء خادم لكل من الزمنى والمجذومين والعميان[٤].

ظل الوليد بن يزيد على سياسته العدائية تجاه أبناء عمه، وتجاه بعض الولاة من ذوي العصبية، فانتقم من كل من أعان هشاماً عليه. وأدَّت العصبية دوراً بارزاً في تكوين رأي عام معارض ضده، وهو القيسي الاتجاه والسلوك. وسرعان ما اندلعت الثورة ضد حكمه في دمشق بزعامة يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وساندته اليمنية، ونجح في الاستيلاء عليها، ثم أعدَّ جيشاً قاتل به الخليفة في البخراء على حدود تدمر، وقضى عليه[٥].

والواقع أن هذه الأحداث شكَّلت بداية النهاية للحكم الأموي بفعل انقسام البيت الأموي على نفسه، وفقدانه تأييد كتلة عربية كان لها دور كبير في تأسيس دولة الخلافة الأموية، وأعني بها الكتلة اليمنية في الشام وخراسان وقد ساندت الثورة العباسية.

---

(١) ابن عبد الحكم: ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.
(٢) الطبري: جـ٧ ص ٢٠٠.
(٣) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٦.
(٤) الطبري: جـ٧ ص ٢١٧.
(٥) المصدر نفسه: ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩، ٢٤٤.

يزيد بن الوليد الأول

١٢٦هـ/ ٧٤٤م

بويع يزيد بن الوليد الأول بالخلافة في قرية المزة من قرى دمشق، ثم دخل هذه المدينة بعد أن استولى عليها. أظهر هذا الخليفة التقوى خلال مدة حكمه، وتشبَّه بعمر بن عبد العزيز، وسمي بالناقص لأنه أنقص أُعطيات الجند والناس ما زاده الوليد الثاني[١].

تُعدُّ الأوضاع العامة في عهده استمراراً لفاتحة الاضطرابات التي ابتدأت إثر مقتل الوليد الثاني، والتي أدَّت إلى تصدُّع بني أمية ومن ثم زوال ملكهم. والواقع أن يزيد الثالث لم يكن الشخصية التي يجتمع حولها كافة أفراد البيت الأموي، فقامت المعارضة في وجهه، واشتد في هذه الأثناء أمر مروان بن محمَّد، حاكم الجزيرة وأذربيجان وأرمينية، فدخل في مفاوضات مع الخليفة لتحديد مستقبل الحكم. ولما أوشك الرجلان على الاتفاق، توفي يزيد فجأة في (شهر ذي الحجَّة عام ١٢٦هـ/ شهر أيلول عام ٧٤٤م)[٢].

مروان بن محمَّد الجعدي (مروان الثاني)

١٢٧ ـ ١٣٢هـ/ ٧٤٤ ـ ٧٥٠م

زحف مروان بن محمَّد الجعدي، بعد وفاة يزيد بن الوليد الأول، على دمشق ودخلها، وبايعه الناس بالخلافة[٣]. يُعدُّ هذا الخليفة من فرسان بني أمية وشجعانهم، إلَّا أن الظروف شاءت أن تكون نهاية دولة الخلافة الأموية في عهده، وقد لا يكون هو المسؤول عن ذلك، بفعل أن العوامل التي أدَّت إلى إضعافها وزوالها كانت تتفاعل منذ زمن بعيد. وكان قدره أن يصارع تلك الأحداث الجسام التي كانت تعمل ضده. وأضحى الحكم الأموي بعد مقتل الوليد الثاني يستند على جماعات متنافرة ليس لها هدف يجمعها ويوحِّد كلمتها، فكان من الطبيعي، أن تضعف القاعدة، وتتفكَّك، ويضطرب رأس الهرم، وتعمُّ الفوضى العاصمة المركزية وعواصم الأطراف. وانهمك مروان الثاني في إخماد الثورات التي قامت ضد حكمه في بلاد الشام وفلسطين، وقد شغلته عن الاهتمام بما كان يجري في المشرق وبخاصة في خراسان التي كانت مركزاً للدعوة العباسيَّة.

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٢٦٠ ـ ٢٦٢. (٢) المصدر نفسه: ص ٢٩٩.

(٣) المصدر نفسه: جـ ٧ ص ٣١١ ـ ٣١٢. ابن كثير: جـ ١٠ ص ٤٦ ـ ٤٧.

وزحفت الجيوش العباسيَّة باتجاه بلاد الشام، ولم يستطع ولاة مروان إيقاف زحفها. وبويع، في هذه الأثناء، عبد اللّٰه بن محمَّد العباسي في الكوفة وهو المعروف بأبي العباس السفاح، فأرسل جيشاً بقيادة عمه عبد اللّٰه بن علي الأصغر، التقى بجيش مروان الثاني على نهر الزاب، وانتصر عليه في (شهر جمادى الآخرة عام ١٣٢هـ/ شهر كانون الثاني عام ٧٥٠م). وانسحب مروان بعد المعركة باتجاه الموصل، وحرَّان، إلَّا أن الجيش العباسي ظل يطارده حتى قضى عليه في مصر في قرية بوصير الصغيرة في منطقة الفيوم[١]، وانتهت بمقتله أيام دولة الخلافة الأموية.

وهكذا أُسدل الستار على حياة أسرة حكمت البلاد الإسلامية ما يقرب من قرن من الزمن، حقَّقت فيها ما لا يمكن حصره من منجزات وعطاءات في مختلف ميادين الحياة.

أسباب سقوط دولة الخلافة الأموية

تمهيد

إن سقوط دولة الخلافة الأموية هو أمر طبيعي إذا نظرنا إلى الدول كما ننظر إلى الأفراد والكائنات الحيَّة، التي تمر في أدوار ومراحل مختلفة من نمو وقوة وضعف ثم فناء. وقد سُئِل بعض شيوخ بني أمية ومحصِّليها، عقب زوال الملك عنهم وانتقاله إلى بني العباس: «ما كان زوال ملككم؟ فقالوا: إنَّا شُغلنا بلذاتنا عن تفقُّد ما كان تفقُّده يلزمنا. فظلمنا رعيتنا، فيئسوا من إنصافنا، وتمنوا الراحة منا، وتُحومِل على أهل خراجنا فتخلُّوا عنا، وخربت ضياعنا، فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا، فآثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا، وتأخَّر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعادينا فتضافروا معهم على حربنا، وطَلَبْنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا»[٢].

والواضح أن التماسك كان لا يزال بادياً على دولة الخلافة الأموية حتى عهد هشام بن عبد الملك، وأضاع الأمويون بعد وفاته كل شيء بعدما فقدوا تماسكهم. غير أن لهذا الانحلال الذي سرى في جسم الدولة أسباباً خاصة ترجع إلى الظروف التي قامت في ظلِّها، وإلى الآثار الدينية والمعنوية التي أثارتها السياسة الأموية، بالإضافة إلى أسباب عامة تكمن في التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٤٣٧ ـ ٤٤٢.

(٢) المسعودي: جـ ٣ ص ٢٢٨.

التي برزت نتيجة التوسع في الفتوح، والاحتكاكات مع الشعوب المجاورة عسكرياً وحضارياً.

والواقع أن سقوط دولة الخلافة الأموية، لا يمكن أن يُعزى إلى حادث فرد، ولا بد أن تكون هناك جملة أسباب أدَّت إلى هذه النهاية المحتومة، كان من بينها:

أولاً: صراع الأسرة الأموية

استطاع معاوية بجهوده الشخصية أن يصل إلى الحكم بدعم مادي ومعنوي لم يأته من أسرته، وإنما أتاه من جبهة شامية، قبلية متماسكة، لذلك لم يكن لهذه الأسرة دور بارز في إدارة الدولة في عهده. إلَّا أن معاوية لم يجاف أسرته جفاء تاماً، بل استعان بالأكفاء من أفرادها، وعمد أحياناً إلى بث الفرقة والإيقاع بين رجالها البارزين الذين قد يشكِّلون خطراً على سياسته، للحد من طموحهم[1]، لكنه تمكّن من تحقيق وحدة الصف الأموي بما كان يمتلك من صفات ومؤهلات قيادية فذَّة، ويبدو أن هذه الوحدة أخذت بالتداعي حين أعلن عن نيته البيعة لابنه يزيد بولاية العهد.

وكان مروان بن الحكم الشخصية البارزة، الذي تطلع إلى الخلافة، ولكنه لم يستطع أن يُسفر عن معارضته لسياسة معاوية أثناء حياته، وكان مستعداً للتحرك بعد وفاته، إلَّا أن الظروف الداخلية والخارجية الخطيرة التي كانت تمر بها الخلافة الأموية تطلبت تضافر جهود الأمويين لمواجهتها؛ منعته من الجهر بمعارضته، واتسم موقفه من خلافة معاوية الثاني بن يزيد بالسلبية.

وحانت الفرصة لمروان بن الحكم بأن يتسلم السلطة نتيجة مقررات مؤتمر الجابية، فحصر السلطة في بيته المرواني متجاوزاً قرارات المؤتمر القاضية بوضع حد لما سنَّه معاوية من حصر السلطة في بيت واحد.

نشأ أول خلاف جدِّي بين أفراد الأسرة الأموية بعد استلام الفرع المرواني للخلافة، وتفاقم بعد ذلك، وظهرت آثاره إلى العلن. ويُعدُّ خلاف عبد الملك بن مروان مع عمرو بن سعيد، الذي امتنع عن بيعته، من أشد ما وقع من خلاف داخل الأسرة، وأدَّى إلى إراقة دم هذا الأخير، وفتح الباب مشرعاً لنزاعات كثيرة سوف يشهدها العصر الأموي. واستطاع الأول إعادة اللحمة، ولو ظاهرياً، إلى البيت الأموي، وظلَّت الأحقاد كامنة في النفوس تتحين الفرص للانتقام، وقد ساند يحيى بن سعيد، أخو عمرو، حركة ابن الزبير.

---

(١) أوقع معاوية بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص. الطبري: جـ ٥ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

وحدَّد الوليد بن عبد الملك سياسته تجاه الأسرة الأموية ضمن اتجاهين:

الأول: الاستفادة من القدرات الأموية بما لا يتعارض مع مصالحه الشخصية، ومصالح الفئة التي يمثِّلها.

الثاني: عدم السماح بقيام تكتل معارض داخل الأسرة الأموية.

ولما تولَّى سليمان بن عبد الملك الخلافة، عزل جميع ولاة الوليد وقادته، وعيَّن ولاة يثق بهم، كما ولَّى عمر بن عبد العزيز لولاية العهد، متجاوزاً التقليد الذي انتهجه من سبقه، إلَّا أنه تدارك ذلك عندما عيَّن أخاه يزيد بن عبد الملك خلفاً لعمر بن عبد العزيز. وعارض أفراد الأسرة هذا التوجه، كما عارض العبَّاس بن الوليد سياسة عمر الانفتاحية، وتطورت هذه المعارضة في اتجاه تصاعدي استهدف التخلص من الخليفة.

وبرز في عهد هشام بن عبد الملك تيار معارض تزعمه ابن أخيه وولي عهده الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ودار صراع مكشوف بين الرجلين لم ينته إلَّا بوفاة هشام. كانت علاقة الوليد بن يزيد بأبناء عمه هشام عدائية، وشجَّع هؤلاء، الناس على الفتك به[1]. ولا شك بأن الانقلاب الذي حصل ضد حكمه يدل على تناقضات كثيرة أصابت الجسم الأموي. ويُعدُّ مقتل هذا الخليفة نذيراً بنهاية الأسرة، وبخاصة أنه تمَّ على أيدي رجال من بني أمية.

وازدادت أوضاع الأسرة الأموية تدهوراً في عهد يزيد الثالث، واشتدت النزاعات والتنافسات حول السلطة، فعمَّت نتيجة ذلك الفتن، وبدأ الوهن يظهر جلياً على جسم الدولة، وأدَّت بيعة أخيه إبراهيم المزعزعة إلى مضاعفات خطيرة أهمها ازدياد التفسخ في البناء الأموي، وتنامي مطامع الأحزاب، والأشخاص الطموحين لانتزاع السلطة من الأمويين.

وعندما قرَّر مروان الثاني، آخر خليفة أموي، حسم الأمور لصالحه في ظِل تفاقم الأوضاع الداخلية والأخطار الخارجية، فشل في ذلك، وعجز عن التصدِّي للجيوش العباسية الزاحفة من المشرق، والتي قضت على الخلافة الأموية.

والحقيقة أن الأسرة الأموية لم تمتلك من الغطاء العقائدي ما يقيها خطر التمزق على الرغم من أن عمر بن عبد العزيز سعى إلى تأمين هذا الغطاء، لكن بدون نجاح له صفة الاستمرارية.

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٢٣٢.

ثانياً: تولية العهد اثنين

كانت ولاية العهد من الأسباب التي أدَّت إلى انشقاق البيت الأموي. فقد درج خلفاء بني أمية على تولية العهد اثنين يلي أحدهما الآخر، ويبدو أنهم سلكوا هذا المسلك، لتفادي نشوب الحروب الأهلية بعد وفاة الخليفة. وقد بذر هذا النهج بذور الشقاق، وأدَّى إلى المنافسة بين أفراد الأسرة، وأوردهم الحقد والبغضاء، إذ لم يكد يتم الأمر لأولهما حتى يعمل على خلع الآخر، وإحلال أحد أبنائه مكانه، مما أوغر صدور بعضهم على بعض.

وأول من سنَّ هذه السنَّة مروان بن الحكم، وسار عليها من جاء بعده دون أي اعتبار للمضاعفات التي كانت تنتج عن تطبيق هذه السنَّة. ولا شك بأن هذا الأسلوب في الحكم كان نذير الخراب الذي حل ببني أمية، فانشقَّ البيت الأموي، وتجزأت القوى التي كان يستند عليها، مما أفسح المجال لخصومهم الذين انطلقوا من المشرق مندفعين بقوَّة، وقضوا على دولتهم.

ثالثاً: الصراع القبلي

استند الحكم الأموي منذ نشأته على العصبية القبلية، وغلب عليه الطابع العربي القومي الذي لازمه حتى زواله. ذلك أن ظروف الصراع القيسي ـ اليمني، الذي حمل العرب بذوره مع انطلاقهم من الجزيرة العربية، انعكس على شخصية الدولة، وألبسها تلك الملامح القومية، بالإضافة إلى ظروف الفتوح، وما نتج عنها من اختلاط بين السكَّان، وتميُّز العنصر العربي. ويبدو أن الخلفاء الأمويين أنفسهم كانوا يستفزون هذه الخلافات، ويثيرونها أحياناً، وأحياناً أخرى كانت تُفرض عليهم نتيجة تطور الأوضاع السياسية.

لقد كان معاوية، وهو يُعدُّ خططه للسيطرة على الخلافة، يجتهد في استخدام مختلف الأسلحة من أجل الفوز بمعركة، ولهذا فرضت عليه هذه المنهجية أن يتمسَّك بالعصبية القبلية. ومن الواضح أن إحياء هذه الروح القبلية، كان في الوقت نفسه بعثاً للنظام الجاهلي القديم بما فيه من تناحر وتخاصم. ولقد وظَّف معاوية في سياسته الداخلية لعبة التحالف القبلي المتوازنة ببراعة من خلال مصاهرته لبني كلب، أقوى القبائل اليمنية في بلاد الشام. غير أن معادلة التوازن هذه اختلَّت في عهد خلفائه، ولم يتمكَّن خلفاء بني أمية بعده، من المحافظة عليها، باستثناء عمر بن عبد العزيز، بل إنهم كانوا يثيرونها أحياناً لتحقيق مصالحهم، فينضمون إلى هذا

الجانب أَو ذاك، مما أدَّى إلى حدوث اضطرابات قبلية بين الحين والآخر استنفدت قدرات الدولة، وكانت أحد أسباب تراجعها ثم سقوطها.

رابعاً: النزعة العربية عند الأمويين

سادت النزعة العربية، بشكل بارز، أوساط الأمويين الذين مالوا إلى العرب، واستعلوا على الموالي[1]، وظهر أثر ذلك في ثلاثة اتجاهات هي: الاتجاه السياسي، والاتجاه الاقتصادي، والاتجاه الاجتماعي.

ففيما يتعلَّق بالاتجاه السياسي، نلاحظ أنه دخل في الدين الإسلامي الكثير من الأعاجم إلَّا أنهم لم يحصلوا، في الواقع، على ما منحهم إياه الإسلام من مساواة سياسية تامة مع العرب، فاستُبعدوا بشكل عام، من تولي الوظائف الكبرى في الدولة[2]، وحُرموا من العطاء الذي يستحقونه نظير التحاقهم بالجيش، وفُرضت عليهم الجزية على الرغم من دخولهم في الإسلام. والثابت أن مصدر هذه التفرقة السياسية، هو الاتجاه الأموي نحو تميُّز العنصر العربي، وأيقظت هذه المعاملة الشاذَّة روح التذمر بينهم.

لقد رافق حياة الدولة الأموية، بروز حركة الموالي التي نقمت على الطبقة العربية الحاكمة، وقد نتج عن ذلك ظهور صراع جديد يحمل في طياته خلفية قومية، وشكَّل هؤلاء إحدى القوى السياسية الضاغطة التي ساهمت في سقوط الدولة الأموية، بفعل أنهم ظلوا الفئة التي تعطي أكثر بكثير مما تأخذ، وتنهض بعبء نشط في الدولة والمجتمع يؤهلها لقطف ثمرات الانتفاع على قدم المساواة مع العرب، ولم يتبلور هذا التيار السياسي الذي شكَّلوه إلَّا في إطار الدعوة العبَّاسية التي حرَّكت ما يتطلَّع إليه هؤلاء من مساواة مع العرب.

وفيما يتعلَّق بالاتجاه الاقتصادي، فقد طبَّق الأمويون سياسة اقتصادية معينة عمادها حرمان الموالي من الامتيازات الاقتصادية، وقد حقَّقت لهم بعض المكاسب الآنية، إلَّا أنها أدَّت في النهاية، إلى قيام الاضطرابات التي كانت سبباً من أسباب زوال ملكهم.

ظهر أثر هذه السياسة الاقتصادية في عهد عبد الملك بن مروان، وفي عهد

(١) الموالي هم أهالي البلاد المفتوحة الذين دخلوا في الإسلام.

(٢) كان للموالي نصيب ضيق في تولي الوظائف العامة، وبخاصة فيما يتعلَّق بالإدارة المالية، نظراً لحاجة الدولة إلى موظفين.

الحجَّاج بشكل خاص، إلَّا أن الدولة منحت الموالي مرتبات شهرية. فقد فرض معاوية لهم خمسة عشر درهماً، زادها عبد الملك إلى عشرين، وأضحت في عهد سليمان بن عبد الملك خمسة وعشرين، وارتفعت إلى ثلاثين في عهد هشام بن عبد الملك، مما يدل على استمرار تحسن أوضاعهم.

وبدا للحجَّاج أن الحركة الإسلامية النامية في البلاد المفتوحة أخذت تهدد الاقتصاد الأموي بفعل تناقص مقدار الجزية تدريجياً، مما دفعه إلى إبقائها على من أسلم. كما أن حركة الدخول في الإسلام هدَّدت موارد بيت المال الأخرى من ملكية الأرض وضريبة الخراج، لأن الأرض الخراجية يملكها المسلمون، وتتحول إلى أرض عشرية، ومعنى ذلك أن مقدار الخراج سيقل كما قلَّ مقدار الجزية[١]، فتدارك مورد الخراج بالإبقاء على ما كان عليه مثلما أبقى على الجزية، مما ولَّد سخطاً شديداً من جانب الموالي.

ثم أخذت الحركة الاقتصادية مظهراً آخر تمثَّل بالنزوح من القرى إلى المدن بهدف الحصول على العطاء أو الاستفادة من التطورات الاقتصادية الجديدة. وأنشأ المهاجرون أحياء جديدة حول المدن التي أضحت مشبعة بطبقات كبيرة من العاطلين عن العمل الساخطين على أوضاعهم مما دفعهم إلى الارتماء في أحضان العلويين والعباسيين. ووجدت الدولة الأموية نفسها مضطرَّة إلى مقاومة تيار الهجرة هذا، الذي كان يزداد باستمرار. واستغل الدعاة العباسيون سخط الموالي لصالح الدعوة العبَّاسية.

وفيما يتعلَّق بالاتجاه الاجتماعي، فقد كان الموالي يمرون بتطور اجتماعي معين في منطقة العراق وخراسان، لأن الفتح الإسلامي قضى على النِّظام الطبقي القديم وحرَّر طبقات العمَّال والصنَّاع والمزارعين الذين كانوا يعيشون في بؤس، وقد نتج عن تحررهم ودخولهم في الإسلام ظهور طبقة وسطى من بينهم، سكنت المدن واقتنت الثروات ونهلت من الثقافة الإسلامية، وسرعان ما برز بعضهم في ميدان الفقه والأدب، وإذا بهم يشعرون أنَّهم ليسوا أقل مستوى من العرب. كانت هذه الطبقة الجديدة عماد الحركة العبَّاسية، وهي التي ستوجه الحياة العبَّاسية في المستقبل[٢].

---

(١) محمود والشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص ٣٢.

(٢) المرجع السابق: ص ٤٥.

خامساً: الخلافات المذهبية

كان الخلاف حول موضوع الخلافة أحد الأسباب التي أدَّت إلى إضعاف الدولة الأموية ومن ثم زوالها. والمعروف أنه وُجدت في العصر الأموي أربع جماعات في الميدان السياسي كانت في نزاع مستمر:

الأولى: أنصار بني أمية، وأغلبيتهم من السنَّة.

الثانية: أنصار العلويين الذين حصروا الخلافة في نسل علي بن أَبي طالب، وقد حملوا لواء المعارضة طيلة العصر الأموي.

الثالثة: جماعة العبَّاسيين الذين دخلوا ميدان السياسة في أواخر العصر الأموي، لينافسوا الأمويين والعلويين.

الرابعة: جماعة الخوارج الذين لا يؤمنون بالوراثة كأساس لنظام الحكم، ويعتقدون أن الخلافة للأمة يكون الاختيار فيها هو الأساس، كما أعلنوا غضبهم واشمئزازهم من شرور الحكام ومطامعهم.

أدَّت هذه الخلافات المذهبية إلى اصطدامات دامية، شغلت جانباً كبيراً من نشاط الأمويين، وأنهكت قواهم، واستغلَّها العباسيون لتكون الواجهة الدينية للشعارات التي طرحها دعاتهم.

الفَصْلُ الخَامِسُ

العصور العباسية[1]

العصر العبَّاسي الأَول

١٣٢ ـ ٢٣٢هـ/ ٧٥٠ ـ ٨٤٧م

خلفاء العصر العبَّاسي الأول ومدة حكم كل منهم

أَبو العباس عبد اللَّه السفاح	١٣٢ ـ ١٣٦هـ/ ٧٥٠ ـ ٧٥٤م
عبد اللَّه أَبو جعفر المنصور	١٣٦ ـ ١٥٨هـ/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥م
أَبو عبد اللَّه محمَّد المهدي	١٥٨ ـ ١٦٩هـ/ ٧٧٥ ـ ٧٨٥م
أَبو محمَّد موسى الهادي	١٦٩ ـ ١٧٠هـ/ ٧٨٥ ـ ٧٨٦م
أَبو جعفر هارون الرشيد	١٧٠ ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٩م
أَبو موسى محمَّد الأمين	١٩٣ ـ ١٩٨هـ/ ٨٠٩ ـ ٨١٣م
أَبو جعفر عبد اللَّه المأمون	١٩٨ ـ ٢١٨هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣م
أَبو إسحاق محمَّد المعتصم	٢١٨ ـ ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤١م
أَبو جعفر هارون الواثق	٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ/ ٨٤١ ـ ٨٤٧م

طبيعة هذا العصر

ابتدأ هذا العصر بخلافة أَبي العبَّاس السفَّاح وانتهى بخلافة الواثق، وتميَّز بقوة الخلافة واستقلالها التام، وتركيز السلطات العليا في الدولة بيد الخلفاء الذين تمتعوا بقدرات شخصية وسياسية وإدارية فذَّة، استطاعوا من خلالها المحافظة على وحدة

(١) انظر كتابنا: تاريخ الدولة العباسية، حيث تفاصيل وافية حول أحداث التاريخ العباسي.

الدولة، وإخماد الفتن والثورات التي قامت في وجهها. تمتَّع الفرس في هذا العصر بمكانة مرموقة في الدولة، وكان لنفوذهم الواسع تأثير كبير في توجيه سياستها حتى سيطروا أخيراً على الجهازين الإداري والعسكري في بغداد والأقاليم الخاضعة لنفوذها، فكان منهم الوزراء، والكتَّاب، وحكَّام الولايات. وكان أفراد الجيش عوناً للخلافة، وأداة طيعة في يد الخلفاء الذين كانوا يقودون الجيوش بأنفسهم. ومثَّل هذا العصر كل من الخلفاء: أبو العبَّاس، المنصور، المهدي، الهادي، الرشيد، الأمين، المأمون، المعتصم، والواثق.

قيام دولة الخلافة العبَّاسية

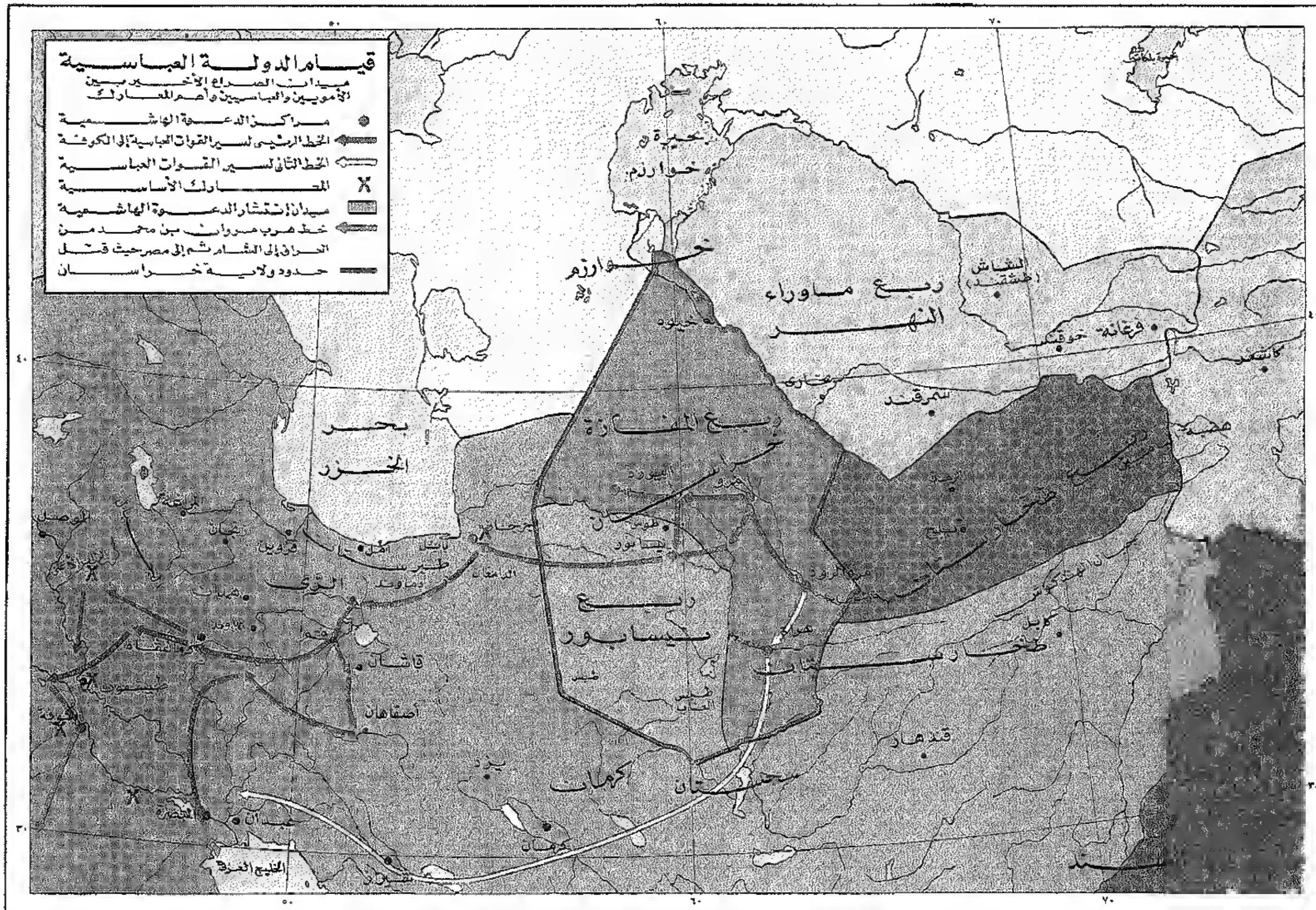
ما كادت الثورة العبَّاسية تستقر في خراسان بفضل جهود أبي مسلم الخراساني، حتى تهيأت القيادة لتسديد الضربة القاضية للدولة الأموية، ونجح الحسن بن قحطبة بن شبيب، القائد الأعلى للجيوش العبَّاسية في دخول الكوفة، واعترف بأبي سلمة الخلاَّل، رئيس دعاة العراق، وزيراً لآل محمَّد. وبعد سيطرة أنصار الثورة على العراق، حان الوقت لاختيار الشخص من آل محمَّد الذي أُعلِنت الثورة باسمه، وكان اسم إبراهيم بن محمَّد هو الشائع، لكن هذا التداول كشف الغطاء عنه، فقبض عليه مروان الثاني وقتله، وكان قد أوصى قبل وفاته إلى أخيه أبي العبَّاس عبد اللَّه بن محمَّد، فبويع له في الكوفة بعد أن انتقل إليها من الحميمة يوم الجمعة في (الثاني عشر من شهر ربيع الثاني عام ١٣٢هـ/ شهر تشرين الأول عام ٧٤٩م)[1]، لكن تاريخ خلافته يبدأ بعد مقتل مروان الثاني آخر الخلفاء الأمويين، لثلاث بقين من شهر ذي الحجة من العام الهجري المذكور، الموافق لشهر آب عام ٧٥٠م، وهو تاريخ قيام دولة الخلافة العبَّاسية.

الاتجاهات العامة لدولة الخلافة العبَّاسية

انتهجت دولة الخلافة العبَّاسية، منذ نشأتها، سياسة مشرقية واضحة، وتطلعت إلى خراسان مهد نشأتها، وجاء هذا التحول نتيجة عدة عوامل، لعل أهمها:

- مناوأة أهل الشام للعباسيين.
- انتقال العاصمة من دمشق إلى بغداد.
- التأثير الفارسي على النُّظم والحياة العباسية.
- انتعاش التجارة المشرقية.

(١) ابن كثير: جـ ١٠ ص ٥٢.


قيام الدولة العباسية
ميدان الصراع الأخير بين الأمويين والعباسيين وأهم المعارك
مراكز الدعوة الهاشمية
الخط الرئيسي لسير القوات العباسية إلى الكوفة
الخط الثاني لسير القوات العباسية
المعارك الأساسية
ميدان انتشار الدعوة الهاشمية
خط هرب مروان بن محمد من الحران إلى الشام ثم إلى مصر حيث قتل
حدود ولاية خراسان
بحيرة خوارزم
خوارزم
ربع ماوراء النهر
ربع الفازة
ربع نيسابور
بحر الخزر
سمرقند
بخارى
فرغانة
الري
قاشان
أصفهان
همذان
قزوين
كرمان
سجستان
قندهار
يزد
الكوفة
البصرة
الموصل
الخليج العربي

- ابتعاد الدولة العبَّاسية عن عالم البحر الأبيض المتوسط.
- عدم اهتمام العبَّاسيين بإنشاء أسطول بحري في المتوسط يضارع الأسطول الأموي.

تقسيم تاريخ دولة الخلافة العبَّاسية

اصطلح المؤرخون على تقسيم تاريخ دولة الخلافة العبَّاسية إلى أربعة عصور، وفقاً لقدرات الخلافة، وتطور أوضاعها السياسية، وازدهار الحياة الثقافية والفكرية وهي: عصر القوة والتوسع والازدهار، عصر النفوذ التركي، عصر النفوذ البويهي الفارسي، وعصر النفوذ السلجوقي التركي.

عصر القوة والتوسع
أَبو العبَّاس عبد اللَّه السفَّاح
١٣٢ ـ ١٣٦هـ/٧٥٠ ـ ٧٥٤م

الأوضاع الداخلية في عهد أَبي العبَّاس السفَّاح

كان أَبو العبَّاس كريماً، وقوراً، عاقلاً، كثير الحياء، حسن الأخلاق، يحب مسامرة الرجال، ومجالسة العلماء، يشجع الأدب والغناء، وأجزل العطاء للشعراء والمغنين[(١)]، ولقِّب بالسفَّاح لكرمه[(٢)]. شغل خلال مدة حكمه بتصفية الجيوب الأموية، فقضى عدة أشهر في عمليات عسكرية مستمرة قبل أن ينجح في القضاء على الحركات المعارضة لحكمه، وإخضاع المدن الثائرة، وقضى على منافسه السياسي أبي سلمة الخلاَّل الذي أراده أن يملك ولا يحكم[(٣)].

الأوضاع الخارجية في عهد أَبي العبَّاس السفَّاح

جبهة المشرق

تعرَّضت بلاد ما وراء النهر لخطر كبير من جانب الصينيين الذين استغلوا تضعضع أوضاع المسلمين، والفراغ الذي أحدثه سقوط دولة الأتراك الغربية؛ لبسط سلطانهم على هذه المنطقة. والواقع أن الصراع الإسلامي ـ الصيني كانت تحرِّكه

---

(١) ابن الطقطقا: ص ١٢٤.
(٢) العبادي، عبد الحميد: صور وبحوث من التاريخ الإسلامي جـ ٢ ص ٧٠.
(٣) الجهشياري، محمَّد بن عبدوس: الوزراء والكتَّاب: ص ٩٠.

آنذاك دوافع دينية وحضارية وتجارية. ونجح الصينيون في بسط سيطرتهم المؤقتة على المنطقة، وظهروا أمام فرغانة وهاجموا الشاش، ثم حدث أن تعرَّضت الصين لمشكلات داخلية بفعل الصراع على العرش، مما صرف الصينيين عن التدخل في شؤون بلاد ما وراء النهر. وتُعدُّ معركة طراز التي جرت بين الطرفين في (شهر ذي الحجة عام ١٣٣هـ/ شهر تموز عام ٧٥١م)، نهاية التدخل الصيني في المنطقة التي نعمت في ظل الحكم العبَّاسي بعهد طويل من الرخاء[(١)].

الجبهة البيزنطية

استفادت الدولة البيزنطية من الاضطرابات التي سادت الدولة الإسلامية نتيجة انتقال الحكم من الأمويين إلى العبَّاسيين، ونقل العاصمة من دمشق؛ فهاجمت مناطق الحدود الشمالية. وأغار الأمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس على مناطق الثغور الشامية والجزرية واستولى على مدنها وقلاعها، كما هاجم أرمينية واستولى على أرضروم وكماخ الواقعة على نهر الفرات، والحدث، وملطية، وخرَّب حصن سميساط[(٢)]، فهدَّد بذلك نظام الثغور الإسلامي. وظهرت حركة الاستجابة الإسلامية بالرد على الهجمات البيزنطية مع اقتراب استقرار أوضاع الخلافة، فاستؤنفت حركة الصوائف والشواتي[(٣)]. وبشكل عام يمكن وصف المناوشات العسكرية بين الطرفين في ذلك الوقت بحرب الحدود[(٤)].

الوزارة في عهد أَبي العبَّاس السفَّاح

استُحدث منصب الوزير مباشرة بعد انتصار الجيوش العباسية على الجيوش الأموية، وقبل مبايعة أَبي العبَّاس بالخلافة، وهذا المنصب هو نظام فارسي قديم[(٥)]. ويبدو أن أبا العبَّاس حين أقرَّ نظام الوزارة راعى تطور الدولة واتجاهاتها نحو المركزية وتوزيع السلطات، وقد تمَّ ذلك بتحريض من الفرس.

وفاة أَبي العبَّاس السفَّاح

عهد أَبو العبَّاس في عام (١٣٦هـ/ ٧٥٤م) لأخيه أَبي جعفر المنصور بالخلافة من

---

(١) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٤٠. بارتولد: ص ٣١٤ ـ ٣١٦.

(٢) خليفة بن خياط: جـ ٢ ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦.

(٣) علي، محمَّدكرد: خطط الشام جـ ٥ ص ١٦.

(٤) Ostrogorsky: History of Byzantine States: p 167.

(٥) أمين، أَحمد: ضحى الإسلام: جـ ١ ص ١٦٥. الصالح، الشيخ صبحي: النُّظم الإسلامية ص ٢٩٦.

بعده، ثم لعيسى بن موسى بن محمَّد. أُصيب الخليفة بمرض الجدري وهو بالأنبار، وتوفي في (١٣ ذي الحجَّة عام ١٣٦هـ/ ٩ حزيران عام ٧٥٤م) ودفن في قصره بالأنبار[١].

عبد اللَّه أَبو جعفر المنصور

١٣٦ ـ ١٥٨هـ/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥م

الأوضاع الداخلية في عهد المنصور

عصيان عبد اللَّه بن علي

تولى أَبو جعفر المنصور الخلافة، ولم تكن دعائمها قد توطَّدت بعد، وقد خشي من منافسة عمه عبد اللَّه بن علي الذي كان يطالب بالخلافة، كما انتابه الخوف من تعاظم نفوذ أَبي مسلم الخراساني، ومن خروج بني عمه آل علي بن أَبي طالب على حكمه.

واجه المنصور، الذي كان يجمع الجرأة وبُعد الهمَّة والمكر والدهاء، هذه المشكلات بعزم، وقرَّر ضرب أعدائه حتى تخلو له الساحة السياسية.

كان عبد اللَّه بن علي على رأس الجيش الذي أرسله أَبو العبَّاس إِلى آسيا الصغرى لمقاتلة البيزنطيين، ولما وصل إِلى دلوك، بنواحي حلب، علم بوفاة الخليفة، فتوقف عن الزحف، وارتد إِلى حرَّان، وبايعه الجند بالخلافة، ثم زحف نحو الجزيرة. ندب المنصور أبا مسلم لقتاله، ونجح هذا القائد في التغلب عليه قرب نصيبين، وقُبض على عبد اللَّه، وسُجِن، ثم قتله المنصور في عام (١٤٧هـ/ ٧٦٤م)[٢].

نهاية أَبي مسلم الخراساني

كان أَبو مسلم الخراساني يشعر بأنه المؤسس الحقيقي لدولة الخلافة العبَّاسية، وراودته أحلام وطموحات شخصية من تفرد بحكم خراسان وبلاد فارس كلها، ونزعات استقلالية. وقد ثقلت وطأته على أَبي العبَّاس من قبل، لكن الخليفة لم يتخلَّص منه بفعل بلائه في خدمة العبَّاسيين. أما المنصور، فقد نظر إِلى أَبي مسلم من وجهة نظر مختلفة، وقد خشي من طموحاته بعد أن أضحى رمزاً للعناصر

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٤٧٠ ـ ٤٧١.

(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٠٢. الطبري: جـ ٧ ص ٤٧٤، جـ ٨ ص ٧ ـ ٩.

الفارسية التي بدأت تُبدي تباعداً واضحاً عن الدولة، وأضحت تشكِّل مصدر قلق لها. ولجأ المنصور إلى أسلوب الدهاء، فأوقع بأبي مسلم وقتله في (٢٥ شعبان عام ١٣٧هـ/ ١٣ شباط عام ٧٥٥م)[١].

ذيول مقتل أَبي مسلم

بقيت ذكرى أبي مسلم حيَّة بين الفرس. وظهرت في خراسان بعد مقتله، حركات دينية، سياسية، وقومية غريبة عن الإسلام، أظهر أصحابها الإسلام، وأبطنوا أهدافهم الدينية المجوسية، والسياسية الهدَّامة، والعنصرية الفارسية، واتخذوا من أبي مسلم، رمزاً ووسيلة للتعبير عن معارضتهم للسلطة العبَّاسية، والتنفيس عما في نفوسهم، ومنفذاً لتحقيق آمالهم وأهدافهم. نذكر من هذه الحركات: حركة سنباذ، والحركة الراوندية، وحركة أستاذسيس، وقد جهد المنصور في القضاء عليها، ونجح في ذلك[٢].

العلاقة مع العلويين

لم ينس العلويون حقهم في الخلافة منذ مقتل الحسين في كربلاء. ولما قامت الدعوة العبَّاسية، انخرط بعضهم فيها ظناً منهم بأنها طالبية. وعندما انتهت الثورة بانتقال الخلافة إلى آل العبَّاس، رأى هؤلاء، وبخاصة الفرع الحسني، أن العبَّاسيين خدعوهم، واستأثروا بالخلافة مع أنهم أحق بها. وحاول العبَّاسيون من جانبهم، في مستهل حياتهم السياسية، أن يتعاونوا مع العلويين لإعطاء دولتهم الناشئة الفرصة لتثبيت أقدامها، ثم بدأ الفريقان في التباعد شيئاً فشيئاً. والواقع أن أول الخارجين من العلويين على حكم العبَّاسيين، كان محمَّد بن عبد اللَّه بن الحسن المعروف بالنفس الزكية، وقد انطلق من المدينة، ثم أخوه إبراهيم الذي خرج في المشرق، ودانت له الأهواز وفارس والمدائن، في حين ركن الإمام جعفر الصادق، وهو من الفرع الحسيني، إلى المهادنة. واستطاع المنصور أن يقضي على محمَّد في (شهر رجب عام ١٤٥هـ/ شهر تشرين الأول عام ٧٦٢م)، وعلى إبراهيم في باخمرا، وهي إحدى قرى الكوفة في (شهر ذي القعدة عام ١٤٥هـ/ شهر كانون الثاني عام ٧٦٣م)[٣].

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٤٩٠ ـ ٤٩١.

(٢) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٦٦ ـ ٦٧، ٨٦ ـ ٨٧، ١٦٢ ـ ١٦٤.

(٣) الطبري: جـ ٧ ص ٥٩٦، ٦٤٦ ـ ٦٤٧. الأصفهاني: مقاتل الطالبيين ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

الأوضاع الخارجية في عهد المنصور

العلاقة مع البيزنطيين

اتسمت الحروب بين المسلمين والبيزنطيين، في عهد أَبي جعفر المنصور، بالمهادنة، إذ لم تتعدَّ المناوشات الحدودية المحدودة، وذلك يعود إلى اهتمام العبَّاسيين بتدعيم مركزهم الداخلي. وبالمقابل انصرف الأمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس إلى قتال البلغار في البلقان من جهة، ومواجهة مشكلة عبادة الأيقونات من جهة أخرى. استغل أَبو جعفر المنصور هذه الفرصة وأعاد بناء ما تهدَّم من حصون وثغور.

بناء مدينة بغداد

كان من بين أهم الأعمال التي قام بها الخليفة أَبو جعفر المنصور، وتركت أثرها على مستقبل دولة الخلافة العبَّاسية، بناؤه مدينة بغداد، في موضع عند التقاء نهر الصراة بنهر دجلة، مدفوعاً بعدة عوامل سياسية وعسكرية واقتصادية ومناخية[1].

شرع المنصور في بناء عاصمته في عام (١٤٥هـ/ ٧٦٢م)، واستغرق بناؤها أربعة أعوام، انتهى في عام (١٤٩هـ/ ٧٦٦م)، وظلت بغداد عاصمة للعباسيين حتى سقوطها على يد المغول في عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م).

وفاة المنصور

توفي أَبو جعفر المنصور (ليلة السبت لست مضين من ذي الحجّة عام ١٥٨هـ/ ٧ تشرين الأول عام ٧٧٥م) وهو في طريقه إلى مكَّة لأداء فريضة الحج. وكان قد عزل ابن أخيه عيسى بن موسى من ولاية العهد، وبايع لابنه المهدي[2].

أَبو عبد اللّه محمَّد المهدي

١٥٨ ـ ١٦٩هـ/ ٧٧٥ ـ ٧٨٥م

إصلاحات المهدي

تعدُّ خلافة محمَّد المهدي مرحلة انتقال بين عهد الشدة والقمع الذي ساد عهد من سبقه من خلفاء بني العبَّاس، وعهد الاعتدال واللِّين. استهل المهدي خلافته

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٦١٦ ـ ٦١٧. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ ١ ص ٢٥ ـ ٢٦، ٦٦ ـ ٦٧، ٧٧ ـ ٨٢. الحموي، ياقوت: معجم البلدان جـ ١ ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧. دائرة المعارف الإسلامية جـ ٤ ص ٣ ـ ٤.

(٢) الطبري: جـ ٧ ص ٥٧٧، جـ ٨ ص ٦٠.

باسترضاء الناس، فردَّ الأموال التي صودرت في عهد أبيه إلى أصحابها، وأطلق سراح السجناء السياسيين، وحاول استرضاء أهل الحجاز، فسمح بإعادة الغلال والحبوب الواردة من بلاد الشام ومصر، إليهم، بعد أن كان قد قطعها أبو جعفر المنصور، وعمل على اكتساب مودة أهل الشام، فزار دمشق، وبيت المقدس، وأقام المحطات على طريق مكة، وبنى الأحواض لسقاية القوافل، وأجرى على المجذومين، وأهل السجون، وبنى المدارس والمستشفيات. واهتم بالتجارة، فأنشأ شبكة من الطرق التجارية جعلت بغداد مركزاً تجارياً عالمياً. وغدت الموسيقى والحكمة والأدب من مميزات هذا العهد، وسنَّ سنَّة كسوة الكعبة بحلة جديدة كل عام، وكان يجلس للمظالم، واتَّخذ غرفة لها نافذة تطرح فيها عرائض الشكايات(١).

الحركات المعادية في عهد المهدي

حركات الزنادقة

انتشرت في المجتمع الإسلامي منذ العصر الأموي ظاهرة الزندقة، وازدادت حدَّة ونشاطاً في العصر العبَّاسي الأول. وقد أطلقت الكلمة في الأصل على أتباع الديانات المجوسية، ثم تدرَّجت فشملت الملحدين، والمتشككين في الدين، ثم اتسع مدلولها ليشمل الشعوبية، واستخدمت السلطة العبَّاسية هذا المدلول الاصطلاحي لضرب خصومها السياسيين والدينيين، وأُطلقت أخيراً على بعض الخلعاء والمجَّان والظرفاء(٢).

والحقيقة أن الزندقة حركة سياسية مغلَّفة بإطار فكري ديني منظَّم، ينادي أتباعها بنشر مذهب المانوية بكل ما يحويه من عقيدة دينية وتراث فكري، كبديل للتراث الإسلامي ـ العربي، وهي ثورة مجوسية ترمي إلى هدم الدولة الإسلامية من أساسها، وإقامة الدولة الفارسية مكانها(٣).

أدرك المهدي مدى الخطر الذي يشكِّله الزنادقة على الدين والدولة، فتتبَّعهم في سائر الآفاق من خلال حملات منظَّمة، وقتلهم صبراً، وأنشأ ديواناً خاصاً بهم سماه «ديوان الزنادقة» وأمر المتكلمين بالرد عليهم(٤).

---

(١) الطبري: جـ ٨ ص ١١٨ ـ ١١٩، ١٥٦. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٨. ابن الطقطقا: ص ١٧٩.

(٢) عمر، فاروق: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين ص ١١٣ ـ ١١٤.

(٣) العقاد، عباس محمود: التفكير فريضة إسلامية ص ٦٧.

(٤) الجهشياري، محمَّد بن عبدوس: كتاب الوزراء والكتَّاب ص ١٦٥. ابن كثير: جـ ١٠ ص ١٤٩. عمر: ص ١١٩ ـ ١٢٢.

حركة المقنَّع

استمرت الموجة الإلحادية ناشطة، في عهد المهدي، فقامت حركات معادية لا تختلف في أهدافها عن سابقاتها، من بينها حركة المقنَّع الخراساني الذي خرج في ناحية مرو بهدف تقويض الحكم الإسلامي ـ العربي، وإقامة الدولة الفارسية، فتصدَّى له المهدي، وقضى على حركته. أما المقنع فقد أحرق نفسه قبل القبض عليه.

وشهد عهد المهدي قيام حركات أخرى مشابهة لهذه الحركة من حيث الأهداف، استطاع أن يقضي عليها، نذكر منها حركة يوسف البرم في خراسان(١).

العلاقة مع البيزنطيين

استمرت حرب الحدود بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية ناشطة في عهد المهدي، وقام الطرفان بغارات متبادلة، لم تغيِّر من الوضع الجغرافي على الأرض. وفي خطوة ملفتة، استغل المهدي الفوضى التي أعقبت وفاة الأمبراطور ليو الرابع واعتلاء زوجته إيرين عرش الأمبراطورية في عام (١٦٤هـ/ ٧٨١م)، فجهَّز حملة عسكرية ضخمة عهد بقيادتها إلى ابنه هارون، وأمره بمهاجمة القسطنطينية. توغل هارون في عمق الأراضي البيزنطية حتى بلغ خليج القسطنطينية، وهدَّد العاصمة البيزنطية، فاضطرت الأمبراطورة إيرين التي رأت نفسها في موقف حرج لا يتيح لها التصدي للتوغل الإسلامي، أو المساومة؛ للخضوع لشروط هارون بدفع الجزية وتبادل الأسرى، على أن يستمر الصلح مدة ثلاثة أعوام(٢).

وفاة المهدي

توفي محمَّد المهدي في (شهر محرم عام ١٦٩هـ/ شهر آب عام ٧٨٥م)، وكان قد عهد إلى ولديه من بعده وهما الهادي ثم هارون الرشيد(٣).

---

(١) الطبري: جـ٨ ص ١٢٤، ١٣٥. ابن الأثير: جـ٥ ص ٢١١ ـ ٢١٢، ٢١٦.

(٢) خليفة بن خياط: جـ٢ ص ٤٧١. الطبري: جـ٨ ص ١٥٢ ـ ١٥٣. رستم، أسد: الروم في سياستهم وثقافتهم ودينهم جـ١ ص ٢٩٥. Theophanes: P 920

(٣) الطبري: جـ٨ ص ١٦٨ ـ ١٧٠.

أَبو محمَّد موسى الهادي

١٦٩ ـ ١٧٠هـ/ ٧٨٥ ـ ٧٨٦م

علاقة الهادي بالعلويين

لم تستمر السياسة السلمية التي انتهجها المهدي مع العلويين مدة طويلة، إذ انتهت بوفاته. وشدَّد الهادي على هذه الجماعة، وقسا على أصحابها، وقطع الصلات والأرزاق عنهم، وراح يتجسَّس عليهم، وأمر ولاته بمراقبة تحركاتهم والتضييق عليهم، حتى أضحى العلويون في الحجاز في وضع سيء، فالتفوا حول الحسين بن علي بن الحسن الذي ترأسهم وقاد حركة مناهضة للنظام في (١٣ ذي القعدة ١٦٩هـ/ ١٥ أيار ٧٨٦م)، لكن المهدي تمكَّن من قمع حركتهم في معركة فخ وقضى على الحسين وأتباعه[١]، واقتدى المهدي بوالده في التنكيل بالزنادقة.

وفاة الهادي

توفي الهادي في بغداد (لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول عام ١٧٠هـ/ ٩ أيلول عام ٧٨٦م)[٢].

أَبو جعفر هارون الرَّشيد

١٧٠ ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٩م

صفات الرَّشيد

يُعدُّ الرَّشيد من أوسع الخلفاء العبَّاسيين شهرة، وقد تجاوزت شهرته الشرق ووصلت إلى الغرب حيث تناولها المجتمع الغربي بالتحليل والدراسة؛ وحاول بعض ملوك أوروبا التقرب منه واكتساب مودته. اتَّصف الرَّشيد بمجموعة من الصفات الشديدة الاختلاف، فهو سياسي بارع، فيه حزم المنصور وعنفه مع مرونة واضحة وسخاء بالمال لاصطفاء الناس، شديد الاهتمام بشؤون الرعية، مرهف الإحساس، حاد المزاج، سريع التأثر، يثور غضباً، ويفرط في الانتقام، وقد ترق عواطفه فيبكي، ويظهر رحمة متناهية، متديناً، ورعاً، فهو بين حج وغزو، يحب الشعر والأدب والفقه، ويُعَدُّ عصره العصر الذهبي لدولة الخلافة العبَّاسية.

---

(١) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩. الأصفهاني: ص ٣٦٦.

(٢) الطبري: جـ ٨ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

الأوضاع الداخلية في عهد الرَّشيد

العلاقة مع العلويين

أراد الرَّشيد، في مستهل حياته السياسية، أن يستقطب العلويين عن طريق الرفق بهم، فتعاطف معهم، وبذل لهم الأمان، لكن هؤلاء لم يعدِّلوا اعتقادهم الراسخ بأحقيتهم بالخلافة، ولم يتوقفوا عن النضال في سبيل الوصول إليها، ومن أجل ذلك، عاد الصراع عنيفاً بين الجانبين. وكان قد نجا اثنان من زعماء العلويين من معركة فخ هما إدريس بن عبد اللَّه بن الحسن وأخوه يحيى، وقد ذهب الأول إلى أفريقية، واستقر في إقليم طنجة، وأقام لنفسه دولة مستقلة هي دولة الأدارسة، ويمَّم الثاني وجهه شطر بلاد الديلم في المشرق، فاشتدت شوكته، وقوي أمره بمن التفَّ حوله من الأتباع، ثم أعلن خروجه في عام (١٧٦هـ/ ٧٩٢م)، وقرَّر الرَّشيد القضاء على الأخوين، ونجح في التخلص منهما، إلَّا أنه لم يتمكَّن من القضاء على دولة الأدارسة[١].

حركة الخوارج

نشط الخوارج في منطقة الجزيرة، في عهد الرَّشيد، وقد أنكروا على الخلفاء العبَّاسيين استبدادهم وخروجهم على الأحكام الشرعية. اهتم الرَّشيد بأمر هذه الجماعة، فأرسل قوة عسكرية في عام (١٧٩هـ/ ٧٩٥م) بقيادة يزيد بن مزيد الشيباني، اصطدمت بهم في حديثة الفرات وقضت عليهم[٢].

الاضطرابات في شمالي أفريقية

سادت الاضطرابات في شمالي أفريقية اعتباراً من عام (١٧١هـ/ ٧٨٧م) بفعل خروج الخوارج وقادة الجند والبربر، فأرسل الرَّشيد هرثمة بن أعين، وأمره بقمع الانتفاضات وتوطيد الأمن، فنجح في مهمته. إلَّا أن تجدُّد الانتفاضات على الحكم المركزي، دفعت الرَّشيد إلى تولية إبراهيم بن الأغلب، عامل الزاب، والياً على أفريقية في عام (١٨٤هـ/ ٨٠٠م). نجح ابن الأغلب في التغلب على الصعوبات التي اعترضت حكمه، ثم مهَّد لقيام دولة الأغالبة التي ما لبثت أن استقلَّت عن الإدارة المركزية، واتخذت القيروان حاضرة لها[٣].

---

(١) الأصفهاني: ص ٤٠١ ـ ٤٠٤، ٤٠٧ ـ ٤٠٨. (٢) الطبري: جـ ٨ ص ٢٥٦.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣١٤. ابن الأثير جـ ٥ ص ٩ ـ ١٠.

الاضطرابات في المشرق

قامت الانتفاضات الشعبية في بلاد المشرق نتيجة تصرفات ولاة الرَّشيد السيئة. وخرج رافع بن الليث بن نصر بن سيار على الحكومة المركزية بسبب دوافع شخصية على الأغلب، وتبعه سكان خراسان وبلاد ما وراء النهر، بسبب كراهيتهم لسياسة العبَّاسيين، واضطر الرَّشيد أن يخرج بنفسه إلى خراسان لوضع حد للاضطرابات فيها، إلَّا أن المنية وافته وهو في الطريق[١].

نكبة البرامكة

تنتسب أسرة البرامكة الفارسية العريقة إلى جدها برمك، وهو لقب أُطلق على سادن معبد النوبهار في مدينة بلخ[٢]. وبرز من هذه الأسرة في أوائل عهد الدولة العبَّاسية خالد بن برمك، فقلَّده أَبو العبَّاس ديوان الخراج وديوان الجند[٣]، كما تولى وزارة التنفيذ بعد مصرع أَبي سلمة الخلاَّل، وعمل مستشاراً للمنصور. أنجب خالد ولداً هو يحيى الذي ارتبط تاريخه بتاريخ هارون الرَّشيد، وقد أدَّى دوراً بارزاً في تأمين ولاية العهد له في مواجهة الضغوط الكبيرة التي مارسها عليه الهادي بهدف تنحيته عن ولاية العهد، وتولية ابنه جعفر بدلاً منه. وحفظ الرَّشيد فضل يحيى عليه، فولاَّه الكتابة والنيابة عنه ووزارته[٤]، ومنحه سلطات مطلقة، فكانت الدواوين كلها بيده[٥]. واستطاع يحيى من خلال ابنيه الفضل وجعفر من إدارة الدولة محقِّقاً بذلك نظرية المشاركة الكاملة في الحكم.

وأحاط البرامكة بالرَّشيد يتحكَّمون به، ويتحرَّك من خلالهم، كما أن معظم الرجال البارزين في الدولة كانوا من صنائعهم وأتباعهم لدرجة أن الرَّشيد وجد صعوبة كبرى في العثور على رجال لم تكن لهم صلة بهم، ليتولوا بعض شؤون الدولة[٦].

ويبدو أن هذا التطور السياسي للأسرة مدروس ومخطَّط له لتحقيق تطلعات سياسية كامنة في نفوس أفراد الأسرة لإحياء الإرث الفارسي المندثر. وبلغ أوج هذه الأسرة في حياة الخيزران والدة الرَّشيد، فلما توفيت في عام (١٧٣هـ/ ٧٨٩م) بدأت ثقة الخليفة بأفرادها تهتز حتى نكَّل بهم.

---

(١) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٨٦. الطبري: جـ ٨ ص ٣١٥ ـ ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٤٣ ـ ٣٤٤.
(٢) البلخي: البدء والتاريخ جـ ٦ ص ١٠٤.
(٣) الجهشياري: ص ٨٧ ـ ٨٩.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٧٧.
(٥) الطبري: جـ ٨ ص ٢٣٥.
(٦) الجهشياري: ص ٢٥٤.

والراجح أن سبب التنكيل يعود إلى دافعين: سياسي ومالي. فقد اتضح للرشيد، بعد مضي سنين على ظهورهم، أن البرامكة أضحوا يشكلون خطراً فعلياً على دولته، وقد كوَّن هذا الانطباع بفعل عدة عوامل لعل أبرزها ميلهم إلى الطالبيين وميولهم العنصرية[1]. ومن جهة أخرى، استبدَّ البرامكة بمالية الدولة حتى قيل إن الرَّشيد «يحتاج إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه»[2] في الوقت الذي كان البرامكة يسرفون في النفقات، وقد قيَّدوا الخليفة في هذا التصرف المالي، كما كبَّلوه في تصرفه السياسي. وأدَّت الوشاية، من قِبل خصومهم، دوراً آخر في التأثير على الرَّشيد، فقتل جعفراً في (أول صفر ١٨٧هـ/ آخر كانون الأول عام ٨٠٢م)، وسجن يحيى وأبناءه وصادر ممتلكاتهم وأموالهم[3].

العلاقات الخارجية في عهد الرَّشيد

العلاقة مع البيزنطيين

استمر الصراع بين المسلمين والبيزنطيين في عهد الرَّشيد، الذي عمد إلى تحصين المناطق الحدودية وتقوية الجيش المرابط فيها، وقد حرص على الجمع بين سياستين متوازيتين: هجومية ودفاعية. فوضع لمناطق الحدود نظامين: نظام أمامي يضم ثغور الجزيرة وبلاد الشام، ونظام خلفي يضم الأقاليم الخلفية والحصون الجنوبية وسمَّاه العواصم، ويمتد من أنطاكية إلى الفرات[4].

وأنشأ البيزنطيون من جانبهم خطاً دفاعياً لمواجهة الثغور الإسلامية ويضم سلسلتي جبال طوروس ويمتد من الفرات حتى كيليكية.

بعد الانتهاء من إنجازات التحصين والدعم ابتدأت العمليات العسكرية، ونجح الرَّشيد في إجبار الأمبراطورة إيرين على القبول بشروط الصلح التي فرضها عليها. وفي عام (١٨٧هـ/ ٨٠٣م) خُلعت إيرين عن العرش البيزنطي وتولاَّه نقفور الأول، وقد نقض الصلح مع المسلمين، وطالب الرَّشيد بإعادة ما دفعته إيرين من الجزية، وجاء الرد الإسلامي سريعاً وحاسماً. ويبدو أن الأمبراطور البيزنطي أساء تقدير الموقف العسكري، وشعر بعجزه عن الوقوف في وجه المسلمين. وللخروج

---

(١) العمرو، عبد الرحمن: أثر الفرس السياسي في العصر العباسي الأول ص ٢٣٦ وما بعدها.

(٢) الجهشياري: ص ٢٤٦. الطبري: جـ ٨ ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

(٣) الطبري: المصدر نفسه ص ٣٤١. ابن كثير: جـ ١٠ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٤) عبد الله، وديع فتحي: العلاقات السياسية بين بيزنطية والشرق الأدنى الإسلامي ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

من هذا المأزق عرض على الرَّشيد السَّلام والتزم بدفع الجزية، والامتناع عن ترميم الحصون التي هدمها المسلمون، على أن تستمر الهدنة مدة ثلاث سنوات(١).

أدرك نقفور بعد قليل من الوقت أن منطقة جنوبي آسيا الصغرى أضحت منطقة نفوذ للمسلمين الذين سيطروا على الطرق المؤدية إلى النقاط البيزنطية المهمة، وشعر بالمهانة حين قبل دفع الجزية، لذلك قرَّر نقض الهدنة. وعندما علم الرَّشيد بذلك استأنف النشاط الجهادي. ثم حدث أن تفرغ الرَّشيد للاهتمام بحل المشكلات التي استجدت في خراسان، ولم تتهيأ له بعد ذلك ظروف مناسبة لمتابعة نشاطه الجهادي على الجبهة البيزنطية(٢).

العلاقة مع الفرنجة

كانت مطامع الفرنجة الكارولنجيين في أوروبا بعيدة عن تطلعاتهم الشرقية، مما أتاح فرصة ملائمة لقيام علاقات سياسية بين الجانبين العباسي والفرنجي. هذا ولم تشر المصادر الشرقية إلى هذه العلاقات، وانفردت المصادر اللاتينية بذكر الصلة التي ربطت هارون الرَّشيد بشارلمان ملك الفرنجة، لكنها تبدو مضطربة وغامضة مما يقلِّل ثقة المؤرخين بها.

واستناداً إلى هذه المصادر، فقد ابتدأت العلاقات بين العاهلين في عام (١٨١هـ/ ٧٩٧م)، وتبادلا الوفود والهدايا، لكنها لم تسفر عن قيام تحالف سياسي. والراجح وجود نوع من العلاقات التجارية والسياسية التي لم تأخذ شكلاً من أشكال التحالف السياسي، وأن المسؤول عنها هم التجار اليهود الذين كانوا حلقة الوصل بين الشرق والغرب، وبخاصة أن أساليب التجَّار آنئذ أن يدَّعوا بأنَّهم سفراء لتسهيل مصالحهم(٣).

وفاة الرَّشيد

اختار الرَّشيد أبناءه محمَّد الأمين وعبد اللَّه المأمون والمؤتمن، على التوالي، لولاية العهد من بعده، وتوفي في طوس بخراسان ليلة السبت (لثلاث خلون من جمادى الآخرة عام ١٩٣هـ/ ٢٥ آذار عام ٨٠٩م)، وكان قد خرج إلى خراسان بصحبة المأمون لوضع حد لثورة رافع بن الليث(٤).

---

(١) Theophanes: P 969. Ostrogorsky: A History of Byzantine States I P 156.
الطبري: جـ ٨ ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٢) Theophanes: Ibid.

(٣) Runciman, S: Charlemagne and Palestine I P 607. Einhard: The Life of Charlemagne P 42.

(٤) الطبري: جـ ٨ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١، ٢٦٩، ٢٧٥، ٣٤٢ ـ ٣٤٦.

أبو موسى محمَّد الأمين

(١٩٣ ـ ١٩٨هـ/ ٨٠٩ ـ ٨١٣م)

أسباب النزاع بين الأَمين والمأمون

ترجع جذور النزاع بين الأخوين الأَمين والمأمون إلى ثلاثة أسباب هي: مشكلة ولاية العهد، صراع العنصرين العربي والفارسي، أطماع الحاشية.

مشكلة ولاية العهد

تُعدُّ إحدى أقوى الأسباب بفعل الطموح إلى السلطان، بالإضافة إلى العوامل النفسية التي انتابت الأَمين تجاه أخويه، فكان البادىء بنقض بنود العهد الذي أخذه والدهم عليهم؛ وحاول بسط نفوذه على ولايات أخويه، ثم قدَّم ابنه موسى عليهما؛ مما تسبَّب في تفجير الوضع. وظل المأمون قابعاً في خراسان لم يبرحها، وخشي الأَمين عاقبة هذا الاعتكاف، فكان طبيعياً أن تسوء ظنون الأخوين أحدهما بالآخر[١].

صراع العنصرين العربي والفارسي

أخذت ملامح الدور السياسي الذي أدَّاه كل من الفضل بن سهل، كاتب المأمون ومدبِّره، الذي مثَّل العنصرية الفارسية في الإدارة العبَّاسية، والفضل بن الربيع، الذي مثَّل التطلعات العربية؛ تظهر بشكل سافر، وانكشفت نوايا الطرفين بعد وفاة الرَّشيد، وظهر التناقض بينهما في وجهات النظر السياسية. وهكذا اتَّخذت قضية النزاع بُعداً شعوبياً بين العرب والفرس[٢].

أطماع الحاشية

ساند الفضل بن سهل المأمون وشجَّعه على البقاء في خراسان رافضاً طلب الأَمين بعودته إلى بغداد، ساعياً لإيصال صاحبه إلى منصب الخلافة، في حين ساند الفضل بن الربيع، وعلي بن عيسى بن ماهان، الأَمين ودفعاه إلى نكث العهد. وهكذا أدَّى تدخل رجال الحاشية إلى تأجيج النزاع الذي وصل إلى حد اللاعودة عن الصدام[٣].

---

(١) الجهشياري: ص ٢٢٢، ٢٩٢. الطبري: جـ ٨ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥، ٣٩٩.

(٢) المصدران نفساهما: ص ٢٧٧، ٢٨٠. ص٣٦١ ـ ٣٧٢.

(٣) المصدران نفساهما: ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠. ص ٣٧٤.

الصدام بين الأخوين

اتخذ النزاع في بادىء الأمر شكل سفارات ومراسلات متبادلة بين الأخوين حول قضية ولاية العهد والصلاحيات الخاصة بالخليفة[1]، واتخذ الأَمين من التدابير ما جعل حق أخيه في الوراثة يأتي في المرتبة الثانية بعد ابنه، كما نهج السلوك السياسي المخادع لاستمالة أخيه. ويبدو أن المأمون مال إلى إجابة طلب أخيه بالقدوم إلى بغداد، وكاد أن ينخدع لولا تحذير وزيره الفضل بن سهل له[2]. وتطورت العلاقات بين الأخوين إلى جفاء ثم إلى توتر، وأُغلقت الحدود بين مناطق نفوذ كل منهما. وتفاقم النزاع مع مرور الأيام، فسيَّر الأَمين جيشاً إلى خراسان بقيادة علي بن عيسى بن ماهان، اصطدم بجيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين، وأسفر الصدام عن انتصار جيش المأمون ومقتل علي بن عيسى بن ماهان[3].

بايع الناس في مرو، إثر هذا الانتصار، المأمون بالخلافة[4]. وجهَّز الأَمين جيشاً آخر بقيادة عبد الرَّحمن بن جبلة الأنصاري للتصدي لزحف طاهر[5]. ووقعت المعركة الثانية بين القوتين في همذان، وأسفرت عن انتصار جيش المأمون أيضاً، الذي واصل أفراده تقدمهم، وحاصروا بغداد، وتمكَّنت قوة خراسانية من دخول المدينة، وأسرت الأَمين، وأعلنت خلعه، في (٢٥ محرم ١٩٨هـ/ ٢٥ أيلول ٨١٣م)، ثم تمَّ إعدامه على يد طاهر[6].

أَبو جعفر عبد الله المأمون

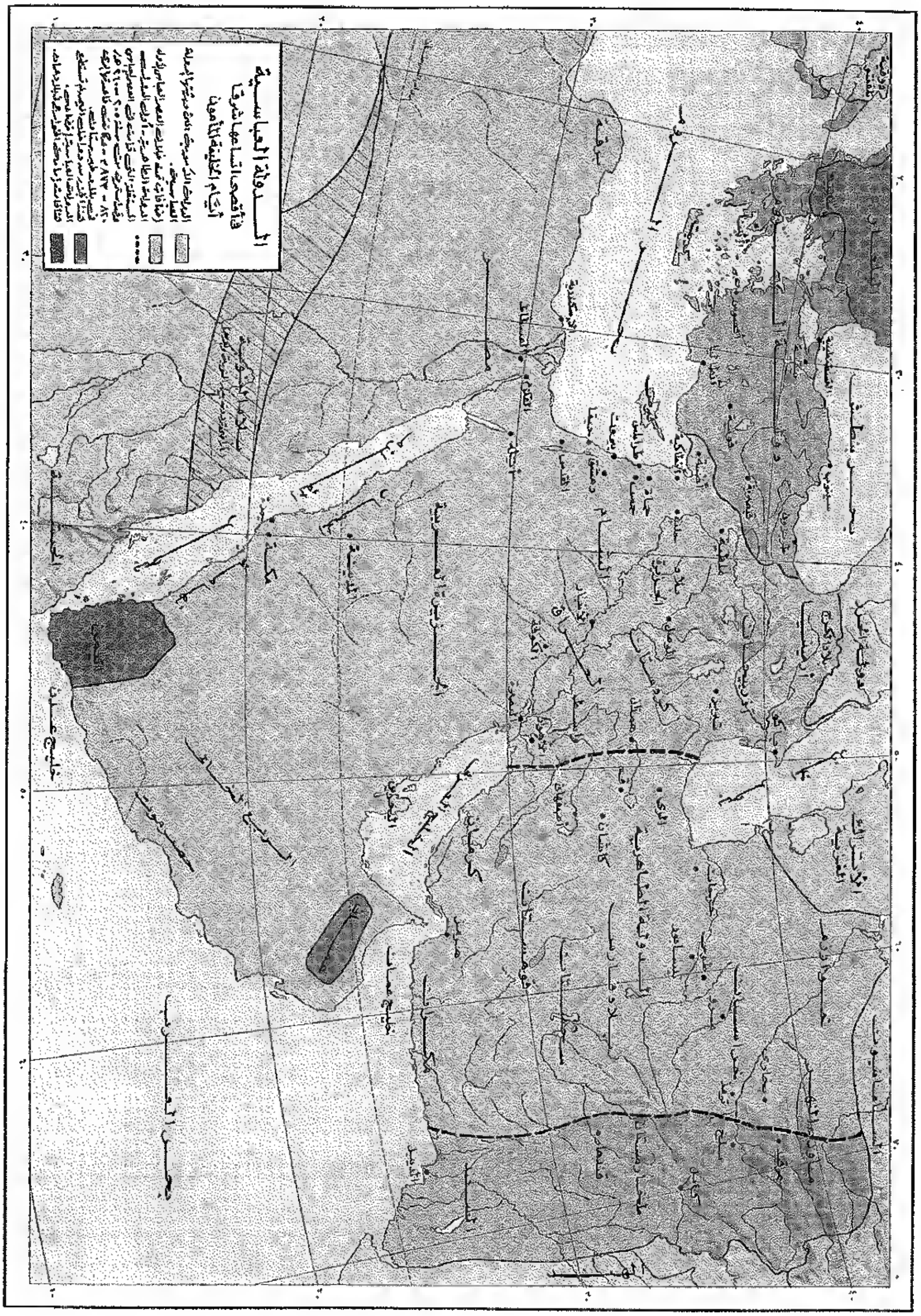
(١٩٨ ـ ٢١٨هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣م)

الأوضاع الداخلية في عهد المأمون

أراد الفضل بن سهل أن يقطف ثمار انتصاره، فنصح الخليفة بإحداث تغييرات في الإدارة تتماشى مع الوضع الجديد، وقد هدف إلى التفرد بحكم العراق. استجاب المأمون لنصيحة وزيره، فعزل القائد طاهر بن الحسين عن العراق، وعيَّن الحسن بن سهل أخا الفضل والياً على هذا البلد، كما عيَّن هرثمة بن أعين والياً على خراسان،

---

(١) أوردها الطبري مفصلة: جـ ٨ ص ٣٧٤ وما بعدها.
(٢) الطبري: المصدر نفسه ص ٣٧٢.
(٣) الجهشياري: ص ٢٩٣. المصدر نفسه ص ٤٩١.
(٤) المصدران نفساهما.
(٥) الطبري: جـ٨ ص ٤١٣ ـ ٤١٤.
(٦) انظر تفاصيل هذه الأحداث في المصدر نفسه: ص ٤٧٢ ـ ٤٨٩.



الدولة العباسية في أقصى اتساعها شرقاً أيام الخليفة المأمون

وقد أدّى ابتعاد هذين القائدين عن العراق إلى انتشار الاضطرابات في هذا البلد[١].

ومن وجهة أخرى كافأ المأمون وزيره، فخلع عليه لقباً جديداً هو «ذو الرئاستين» أي رئاسة السيف ورئاسة القلم، وهذه خاصية تدل على مدى النفوذ الواسع الذي وصل إليه هذا الرجل الفارسي.

سبَّب هذا التصرف سخط العناصر العربية. واستاء بنو هاشم من ميل المأمون إلى العلويين حيث لبس الثياب الخضراء، شعارهم، وطرح السواد شعار العبَّاسيين، وصاهر علي الرضا، الإمام الثامن عند الشيعة الإمامية، واختاره لولاية العهد من بعده[٢]، فنشبت الفتن في بغداد، وبايع سكانها المنصور بن المهدي عم المأمون، الذي اكتفى بحكم مدينة بغداد، كما عمَّت الاضطرابات باقي الأمصار[٣].

حجب الفضل بن سهل أخبار هذه التطورات السياسية السلبية عن المأمون، وقد أطلعه عليها علي الرضا، فأدرك عند ذلك خطأ بقائه في خراسان، وأن بغداد لا تستطيع أن تعيش بدون خليفة، وقرَّر العودة. ويبدو أنه شعر بعدم رضى وزيره، ورأى من خلال تصرفاته أنه يخطط لكي يسيطر على الدولة العبَّاسية من داخلها، فتخلَّص منه في (شهر شعبان عام ٢٠٢هـ/ شهر شباط عام ٨١٨م). ولما وصل إلى طوس توفي علي الرضا فجأة. وواصل المأمون رحلة العودة إلى بغداد ودخلها في (شهر ذي الحجة عام ٢٠٣هـ/ شهر حزيران عام ٨١٩م)، فطرح شعار العلويين وعاد إلى لبس السواد، وبايعه الناس[٤].

الحركات المناهضة للدولة في عهد المأمون

الحركات العلوية

انتهز العلويون حالة عدم الاستقرار السياسي التي مرَّت بها دولة الخلافة العبَّاسية نتيجة الصراع بين الأمين والمأمون، فقاموا بعدة حركات مناهضة في العراق والحجاز واليمن، وبخاصة بعد أن اتهموا المأمون بأنَّه تخلَّص من علي الرِّضا بدس السم له. نذكر من هذه الحركات: حركة أَبي السرايا، وحركة محمَّد الديباج بن جعفر الصادق الذي بويع له في مكَّة. وقد تمكَّن المأمون من القضاء عليهما؛ فقتل أبا

---

(١) الطبري: جـ ٨ ص ٥٢٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٥٥٤ ـ ٥٥٥. الأَصفهاني: ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥. ابن الطقطقا: ص ٢١٧.

(٣) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣. الأَصفهاني: المصدر نفسه ص ٤٥٦.

(٤) الطبري: جـ ٨ ص ٥٧٤ ـ ٥٧٥.

السرايا، واضطر محمَّد الديباج إلى خلع نفسه[١].

الحركات غير العلوية

خرج في أواخر عام (١٩٨هـ/ ٨١٤م) الزعيم العربي نصر بن شبث على حكم المأمون متهماً إيَّاه بميله إلى الخراسانيين، وسيطر على منطقة شمال حلب، وشايعه كثير من العرب.[٢] ندب المأمون طاهر بن الحسين لمحاربته، ثم ابنه عبد اللّه بن طاهر، الذي اضطره إلى طلب الصلح[٣].

وقام الزط بانتفاضة عاتية في جنوبي العراق بنواحي البصرة، وهم قوم من أخلاط الناس المعروفين بالنَوَر، وسيطروا على طريق البصرة، وقطعوا الاتصالات بين البصرة وبغداد، فأرسل إليهم المأمون عدة حملات عسكرية لقمعهم، إلَّا أنه لم يتمكَّن من القضاء عليهم[٤]، وظل الزط شوكة في جنب الدولة العبَّاسية إلى أيام المعتصم الذي سيقضي على حركتهم.

وتأثَّرت الأوضاع السياسية في مصر بالنزاع الذي جرى بين الأَمين والمأمون، وظهرت فيها تباشير حركة استقلالية بزعامة السري بن الحكم في عام (٢٠٦هـ/ ٨٢١م)، كما ثارت القبائل العربية في مصر السفلى في عام (٢١٤هـ/ ٨٢٩م) بسبب سياسة الولاة التعسفية. تصدَّى المأمون لهذه الحركات والثورات المعادية ونجح في القضاء عليها[٥].

وواجه المأمون أخطر حركة دينية المظهر، سياسية الهدف، عرفتها دولة الخلافة العباسية منذ قيامها، وقد شكَّلت ذروة التآمر الفارسي المسلَّح ضد السلطة العربية العبَّاسية، ألا وهي حركة بابك الخرَّمي. وصادف بابك نجاحاً في الأقاليم الشرقية، واستمر في نجاح مطَّرد بفعل غياب القوة العبَّاسية المنهمكة بالنزاعات الداخلية، وإخماد الحركات المعادية. واتبع سياسة عسكرية قائمة على هدم الحصون وتخريبها حتى يضعف دفاعات العباسيين. وجَّه إليه المأمون عدة حملات عسكرية فشلت في القضاء عليه، وأضحى بابك يشكِّل قوة خطيرة ضد الدولة[٦].

---

(١) الطبري: جـ ٨ ص ٥٢٨ ـ ٥٣٠، ٥٣٤ ـ ٥٣٦، ٥٣٨ ـ ٥٣٩.

(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٩٨.

(٣) الطبري: جـ ٨ ص ٥٧٩ ـ ٥٨٠، ٥٩٨ ـ ٦٠١.

(٤) المصدر نفسه: ص ٥٨٠.

(٥) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٢٣ ـ ٤٢٥.

(٦) الدينوري: ص ٢٨٠. اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤١٩. البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٥٢، ٢٦٨.

العلم في عهد المأمون

اقترن اسم المأمون بتلك النهضة العلمية التي ازدهرت في العصر العبَّاسي الأول بوجه عام، وفي عهده بوجه خاص. وقُدِّر له أن يخدم الثقافة الإسلامية عن طريق اهتمامه الشخصي بجمع تراث الأمم القديمة، وبخاصة التراث اليوناني. وأنشأ بيت الحكمة في عام (٢١٥هـ/ ٨٣٠م)، ويُعدُّ هذا البيت بمثابة معهد علمي، يضم مكتبة لنسخ الكتب الأجنبية، وداراً لتعريبها ودرسها، ويحتوي على مرصد فلكي. وعكف المعرِّبون على تعريب أمهات الكتب من اللغات السنسكريتية، والفهلوية، واليونانية، والسريانية، وبرز منهم حنين بن إسحاق، وابنه إسحاق. واعتنق المأمون عقيدة المعتزلة المتعلقة بخلق القرآن[١].

العلاقات الخارجية مع البيزنطيين

كادت الحرب أن تضع أوزارها بين المسلمين والبيزنطيين في عهد المأمون، بسبب الظروف التي كانت تمر بها الخلافة، لذلك شهدت الجبهة ركوداً يكاد يكون تاماً. وتعاون البيزنطيون مع الخرَّميين في تنفيذ هجمات على الأراضي الإسلامية، وبخاصة مدينة زبطرة، وفي المقابل تعاون المأمون مع الثائر البيزنطي توماس الصقلبي. وتمكَّن المأمون وابنه العباس من فتح عدة حصون في منطقة كبادوكية، واستردَّا هرقلة ولؤلؤة[٢].

وفاة المأمون

توفي المأمون في البذندون، في شمال بلاد الشام، وهو يغزو بلاد البيزنطيين، (لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب عام ٢١٨هـ/ ٨ آب عام ٨٣٣م)، وحُمل إلى طرسوس ودُفن فيها، وكان قد عهد قبل وفاته إلى أخيه المعتصم[٣].

أبو إسحاق محمد المعتصم

(٢١٨ ـ ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤١م)

الأوضاع الداخلية في عهد المعتصم

حكم المعتصم الدولة العبَّاسية حكماً استبدادياً مقروناً بشيء من العطف

---

(١) ابن النديم. الفهرست ص ١٤٧، ٣٥٦، ٣٥٩ ـ ٣٦٠. أمين، أحمد: ضحى الإسلام جـ١ ص ٢٧٧.

(٢) الطبري: جـ٨ ص ٦٢٣ ـ ٦٢٤، ٦٢٩. (٣) المصدر نفسه: ص ٦٥٠.

وحسن التدبير. اتصف بالشجاعة والإقدام، ولم تكن سياسته تجاه العلويين أقل شدَّة من سياسة من سبقه من الخلفاء باستثناء المأمون. خرج في عهده محمَّد بن القاسم بن عليٍ الزيدي في عام (٢١٩هـ/ ٨٣٤م) في مدينة الطالقان بخراسان، لكن حركته لم تشكل أي خطر جدِّي على الدولة[١]. وقضى المعتصم على حركة الزط، ونفى أتباعها إلى عين زربة[٢]، كما قضى على حركة بابك الخرَّمي بعد عدة حملات عسكرية وجهها إلى مناطق نفوذه، وجيء ببابك إلى سامراء في شهر (صفر عام ٢٢٣هـ/ شهر كانون الثاني عام ٨٣٨م) ومعه أخاه عبد اللّه، فقتلهما المعتصم[٣].

ظهور العنصر التركي

ظهر في أيام المعتصم العنصر التركي في ظل ظروف من الصراع العنيف بين العرب والفرس، واختلال في التوازنات بين العناصر التي تكوَّنت منها الدولة العبَّاسية. ذلك أن هذا الخليفة لم يركن إلى العنصر العربي، ولم يثق بالعرب نظراً لكثرة تقلبهم، وقيامهم ضد الخلفاء، كما أن هؤلاء فقدوا كثيراً من مقومات قوتهم السياسية والعسكرية، كما ضعفت ثقة المعتصم بالفرس بعد استحالة التوفيق بين تطلعاتهم ومصالح العبَّاسيين. حملت هذه المعطيات الخليفة المعتصم على أن يوكل أمر سلامته الشخصية إلى فرقة من العنصر التركي، جلبهم من أقاليم بلاد ما وراء النهر، إما عن طريق النخاسة أَو عن طريق الأسر في الحروب، ومكَّن لهم في الأرض، وخصَّهم بالنفوذ، وقلَّدهم قيادة الجيوش، وجعل لهم مركزاً متقدِّماً في مجال السياسة، وأسكنهم سامراء التي بناها خصيصاً لهم؛ مما سيكون له أثر في مستقبل هؤلاء ومستقبل الخلافة العبَّاسية.

العلاقات الخارجية مع البيزنطيين

توقف القتال بين المسلمين والبيزنطيين في السنوات الأولى لخلافة المعتصم نتيجة انهماك الخليفة بالقضاء على ثورة بابك الخرَّمي، وفي المقابل، انصرف الأمبراطور البيزنطي ثيوفيل إلى التخطيط لاستعادة جزيرة صقلية من المسلمين، فشهدت المناطق الحدودية هدوءاً شبه تام. ثم حدث أن استؤنفت العمليات

---

(١) الأصفهاني: ص ٤٧٢، المسعودي: جـ ٣ ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥.

(٢) الطبري: جـ ٩ ص ٨ ـ ٩. وعين زربة بلد بالثغر من نواحي المصيصة. الحموي: جـ ٤ ص ١٧٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ٥٤ ـ ٥٥.

العسكرية بعد أربع سنوات حين رأى ثيوفيل أن يعود لحرب المسلمين، وشجعه على ذلك نجاح المفاوضات التي أجراها مع بابك للتعاون بين الجانبين، فأغار على منطقة الفرات ليؤمن اتصالاً مع بابك في أرمينية وأذربيجان، واستولى في طريقه على زبطرة، مسقط رأس والدة الخليفة، وأسر من فيها من المسلمين، ومثَّل بهم، وسبى المسلمات، كما هاجم سميساط وملطية وأحرقهما[1].

رأى المعتصم في هذه الغارات تحدياً شخصياً له، وعزم على الثأر لزبطرة. فما كاد ينتهي من إخماد ثورة بابك حتى جهَّز جيشاً كبيراً خرج هو على رأسه متوجهاً صوب عمورية مسقط رأس أسرة الأمبراطور ثيوفيل وهو عازم على تدميرها وتقع في عمق آسيا الصغرى[2]، ودخل المنطقة من ثلاثة محاور، ثم اجتمعت الجيوش الإسلامية بأقسامها الثلاثة أمام أنقرة وأنزلت بها الخراب والدمار[3]. ولما حاول الأمبراطور التصدي لإحدى فرق الجيش الإسلامي مُني بهزيمة منكرة، وتراجع إلى نهر هاليس، وأرسل إلى الخليفة يطلب الصلح معتذراً عن تدمير زبطرة، ومتعهداً بإعادة بنائها. رفض الخليفة عرض الصلح، وتقدَّم باتجاه عمورية وحاصرها، ثم دخلها في (شهر رمضان عام ٢٢٣هـ/ شهر آب عام ٨٣٨م) ودمَّر أسوارها، وأمر بالمقابل بترميم زبطرة وتحصينها[4]. ثم تقرَّرت الهدنة بين الجانبين في عام (٢٢٧هـ/ ٨٤٢م)[5]، وتوفي كل من المعتصم وثيوفيل في العام نفسه[6].

أبو جعفر هارون الواثق

(٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ/ ٨٤١ ـ ٨٤٧م)

تولى الواثق الخلافة بعهد من أبيه المعتصم، ويُعدُّ عهده مرحلة انتقال بين عصرين مختلفين من عصور دولة الخلافة العبَّاسية. تصدَّى الواثق في بداية عهده لحركات الأعراب من بني سليم وغيرهم الذين عاثوا فساداً في جهات المدينة، وفرض الأمن على الطرقات التجارية في شمال الجزيرة العربية[7].

اعتنق الواثق عقيدة المعتزلة المتعلقة بخلق القرآن، ودافع عنها، وتشدَّد في فرض آرائه الدينية على النَّاس مما أدَّى إلى ظهور حركة تذمر من قِبل العامة

---

(١) الطبري: جـ ٩ ص ٥٦.
(٢) المصدر نفسه: ص ٥٧.
(٣) المصدر نفسه: ص ٦١ ـ ٦٢. Bury: History of the Later Roman Empire p 265.
(٤) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧.
(٥) Camb Med Hist IV P 130.
(٦) الطبري: جـ ٩ ص ١١٨ ـ ١١٩.
(٧) الطبري: جـ ٩ ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

والفقهاء، فتآمر عليه أهل بغداد، وتنادوا إلى عزله، ويبدو أنه تراجع عن عقيدته قبل وفاته[١].

اعترى إدارة الواثق الضعف، وتفشَّت الرشوة في عهده، وكثر الفساد، وتمتَّع ولاة الأقاليم بنفوذ كبير[٢].

توفي الواثق بمرض الاستسقاء (لست بقين من شهر ذي الحجة عام ٢٣٢هـ/ ١١ آب عام ٨٤٧م) دون أن يولي أحداً من بعده[٣].

---

(١) ابن كثير: جـ ١٠ ص ٣٠٩.

(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٤١. الطبري: جـ ٩ ص ١٢٥ ـ ١٢٨، ١٣١.

(٣) الطبري: المصدر نفسه ص ١٥٠ ـ ١٥١.

العصر العباسي الثاني

٢٣٢ ـ ٣٣٤هـ/ ٨٤٧ ـ ٩٤٥م

عصر النفوذ التركي

خلفاء العصر العباسي الثاني ومدة حكم كل منهم

أَبو الفضل جعفر المتوكل	٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ ـ ٨٦١م
أَبو جعفر محمَّد المنتصر	٢٤٧ ـ ٢٤٨هـ/ ٨٦١ ـ ٨٦٢م
أَبو العبَّاس أَحمد المستعين	٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ/ ٨٦٢ ـ ٨٦٦م
أَبو عبد اللَّه محمَّد المعتز	٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ/ ٨٦٦ ـ ٨٦٩م
أَبو إِسحاق محمَّد المهتدي	٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ/ ٨٦٩ ـ ٨٧٠م
أَحمد المعتمد	٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢م
أَبو العبَّاس أَحمد المعتضد	٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ/ ٨٩٢ ـ ٩٠٢م
أَبو محمَّد المكتفي	٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ/ ٩٠٢ ـ ٩٠٨م
أَبو الفضل جعفر المقتدر	٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ/ ٩٠٨ ـ ٩٣٢م
أَبو منصور محمَّد القاهر	٣٢٠ ـ ٣٢٢هـ/ ٩٣٢ ـ ٩٣٤م
أَبو العبَّاس أَحمد الراضي	٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٠م
أَبو إِسحاق جعفر المتقي	٣٢٩ ـ ٣٣٣هـ/ ٩٤٠ ـ ٩٤٤م
أَبو القاسم عبد اللَّه المستكفي	٣٣٣ ـ ٣٣٤هـ/ ٩٤٤ ـ ٩٤٥م

طبيعة هذا العصر

ابتدأ هذا العصر بخلافة المتوكل وانتهى بخلافة المستكفي، وتميَّز بضعف الخلافة وسقوط هيبتها شيئاً فشيئاً حتى تجرَّأ أمراء الأطراف على الانفصال عنها،

وأحكم الأتراك قبضتهم على أجهزة الدولة. ومنذ عهد المتوكل بدأ الانحلال يتسرَّب إلى جسمها بفعل ازدياد نفوذهم. تقلَّصت نتيجة ذلك رقعة الدولة، فاقتصر حكم الخلفاء على العراق وبعض مناطق فارس والأهواز، وتولت الدول الانفصالية مسؤولية الدفاع عن العالم الإسلامي كل في ناحيتها، وتبقى مناطق الثغور كوحدات تقوى وتضعف وفقاً لتطور العالم الإسلامي. إلَّا أن الخلافة استعادت قدراً كبيراً من سلطتها بين عامي (٢٥٦ ـ ٢٩٥هـ/ ٨٧٠ ـ ٩٠٨م) وتشمل عهود الخلفاء: المعتمد، والمعتضد، والمكتفي، وقد أُطلق على هذه المرحلة اسم «صحوة الخلافة»، مثَّل هذا العصر كل من الخلفاء: المتوكل، المنتصر، المستعين، المعتز، المهتدي، المعتمد، المعتضد، المكتفي، المقتدر، القاهر، الراضي، المتقي، والمستكفي الذي ملك بنو بويه في عهده.

الأوضاع الداخلية

العلاقة مع الأتراك

انتقلت عاصمة الخلافة من بغداد إلى سامراء التي أضحت مقراً للعصبية التركية الجديدة ما يقرب من خمسين عاماً، وأصبح الخليفة خاضعاً لقواته التركية الجديدة التي سرعان ما أدركت هذا الوضع. وبدأ القادة الأتراك يتجهون إلى تكوين كيانات خاصة بهم، كما طمع بعضهم في الاستئثار بشؤون الحكم في العاصمة، فاضطر الواثق أن يخلع على أشناس لقب «السلطان» معترفاً له بحقوق تتجاوز نطاق المهام العسكرية[١]، وأحكموا قبضتهم على دار الخلافة، فأحاطوا بالخليفة يراقبون تحركاته، ويشاركون في صنع القرارات السياسية[٢]، ويتدخَّلون في اختيار الخلفاء وتوليتهم وعزلهم حتى أضحى قادتهم أهل الحل والعقد.

لم يخضع الخلفاء للنفوذ التركي بسهولة، بل قاوموه، وحاولوا التخلص من «صانعي الخلفاء»، لكن لم يكن لديهم القوة اللازمة لمجابهة نفوذهم الطاغي.

خلافة المتوكل

تولى المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ ـ ٨٦١م) الخلافة بقوة الأتراك. وشعر هؤلاء بأن الخلافة عاجزة عن الاستغناء عن خدماتهم، مما ساقهم إلى مزيد من

---

(١) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص ٣٤٠.

(٢) المسعودي: جـ ٤ ص ٣.

العنفوان. ولم يلبث هذا الخليفة أن أدرك حقيقة موقفهم الضاغط، وشعر باستبدادهم، وقلّة احترامهم لشخصه؛ فقرَّر تحجيم قوتهم، إلَّا أن الأتراك ثاروا عليه، وتخلَّصوا منه بمعاونة ابنه المنتصر[١].

خلافة المنتصر

كان من الطبيعي أن يكون المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨هـ/ ٨٦١ ـ ٨٦٢م) الذي بايعه الأتراك بالخلافة، خاضعاً لنفوذهم، لكنه أدرك بدوره خطورة التسلط التركي، فحاول التخلص من زعمائهم. تنبَّه الأتراك لهذا الخطر فتخلَّصوا من الخليفة ونصَّبوا أَحمد بن محمَّد بن المعتصم مكانه ولقَّبوه بـ المستعين[٢].

خلافة المستعين

برزت في عهد المستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ/ ٨٦٢ ـ ٨٦٦م) ظاهرة انشقاق الأتراك على أنفسهم، فاستغل الخليفة هذه الخلافات وراح يتخلَّص من زعمائهم. وغادر سامراء إلى بغداد محتمياً بأهلها، عند ذلك، خلعه الأتراك، وبايعوا المعتز ابن المتوكل. ونشبت الحرب بين الطرفين، فكانت بغداد مسرحاً لها. ونجح الأتراك في استعادة وحدتهم، كما انفضَّ أمير بغداد عبد اللّه بن طاهر عن المستعين، فاضطر هذا إلى التنازل عن الخلافة على الرغم من مساندة العامة له[٣].

خلافة المعتز

لم تكن ظروف الخلافة في عهد المعتز (٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ/ ٨٦٦ ـ ٨٦٩م) بأفضل حالاً. ذلك أن هذا الخليفة عاد إلى سامراء، ووقع تحت تأثير النفوذ التركي، ولما حاول التخلُّص من قادتهم أرغموه على خلع نفسه، وأسندوا الخلافة إلى محمَّد بن الواثق ولقَّبوه بـ المهتدي[٤].

خلافة المهتدي

كان المهتدي (٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ/ ٨٦٩ ـ ٨٧٠م) ورعاً، تقياً، شديد الرغبة في الإصلاح، لكن اعترضته قوة الأتراك، ولما عزم على القضاء على نفوذهم، اتَّفقت

---

(١) الطبري: جـ ٩ ص ١٦٨ ـ ١٦٩، ١٧٥ ـ ١٨٠، ٢١٠.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٤٤، ٢٥١، ٢٥٦ ـ ٢٥٨.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٥٩، ٢٦٣ ـ ٢٦٤، ٢٧٨ ـ ٢٨١. المسعودي: جـ ٤ ص ٧٩.

(٤) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٦٨ ـ ٤٧٠. الطبري: المصدر نفسه ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

كلمتهم على التخلُّص منه، وبايعوا أبا العبَّاس أحمد بن المتوكل ولقَّبوه بـ المعتمد[1].

خلافة المعتمد

ابتدأت قوة الأتراك بالتراجع في عهد المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢م) نتيجة ازدياد الخلافات بينهم حتى أنهم طلبوا من الخليفة أن يولي أحد إخوته إمرة الجيش، فولى أخاه أبا أحمد الموفق طلحة. عمل الموفق على انتعاش الخلافة بعد أن جمع الأمور كلها في يده، فانكسرت بذلك شوكة الأتراك. لكن الموفق توفي فجأة في عام (٢٧٨هـ/ ٨٩١م) قبل أن يعيد هيبة الخلافة بشكل جذري، فعيَّن الخليفة ابنه أبا العبَّاس المعتضد ولياً للعهد، ثم ما لبث الخليفة أن توفي بعد عدة أشهر[2].

خلافة المعتضد

انتهج المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ/ ٨٩٢ ـ ٩٠٢م) نهج والده في حروبه وأعماله من أجل انتعاش الخلافة واستعادة هيبتها، واستمر في عهده تراجع نفوذ الأتراك.

خلافة المكتفي

خلف المعتضد بعد وفاته ابنه المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ/ ٩٠٢ ـ ٩٠٨م)[3]، وتفاقمت في عهده الحركات الانفصالية والثورية. وعادت الخلافة بعد وفاته إلى ضعفها، بسبب الخلافات الأسرية، وتعاظم نفوذ الدول الانفصالية، مما أتاح للأتراك استعادة قوتهم، وعادوا إلى نهجهم السابق في اختيار خلفاء ضعاف لاستمرار نفوذهم، فاختاروا أبا الفضل جعفر بن المعتضد، ولقَّبوه بـ المقتدر، وكان عمره آنذاك ثلاثة عشر عاماً[4].

خلافة المقتدر

لم يكن المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ/ ٩٠٨ ـ ٩٣٢م) على مستوى الأحداث الشائكة التي أحاطت به. ولما شبَّ عكف على لذاته، وترك تصريف شؤون الدولة

---

(١) الطبري: جـ ٩ ص ٤٥٦ ـ ٤٦٩. ابن عمراني، محمَّد بن علي بن محمَّد: الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ٩٨. المسعودي: جـ ٤ ص ٩٦.

(٢) الطبري: جـ ١٠ ص ٢٠ ـ ٢٢. المسعودي: جـ ٤ ص ١٤٢.

(٣) الطبري: المصدر نفسه ص ٨٧.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٣٩.

لمؤنس الخادم. وانتشرت في أيامه الفتن في الداخل والخارج، فثار عليه رجال الجيش، وخلعوه عن العرش وبايعوا عبد اللَّه بن المعتز، ولقَّبوه بـ الراضي[١]. ويبدو أن بعض القادة الأتراك ظلوا على ولائهم للمقتدر، ونجحوا في إعادته إلى السلطة[٢].

عادت الأمور إلى ما كانت عليه من الفوضى، كما ازداد تدخل النساء في الشؤون العامة، فاشتكى الجيش من هذه الحالة. كما وقعت الوحشة بين الخليفة والقائد التركي مؤنس الخادم، وانتهى الأمر بقتل الأول واختيار محمَّد بن المعتضد لمنصب الخلافة ولُقِّب بـ القاهر[٣].

خلافة القاهر

لم تكن خلافة القاهر (٣٢٠ ـ ٣٢٢هـ/ ٩٣٢ ـ ٩٣٤م) خيراً من خلافة المقتدر. فقد استمر شغب الجند، وغدا منصب الخلافة مرة أخرى هدفاً للازدراء، وحاول الخليفة التخلُّص من القادة الأتراك، إلَّا أنه فشل في ذلك، فقبضوا عليه، وسملوا عينيه، وبايعوا الراضي[٣] (٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٠م).

خلافة الراضي: نظام إمرة الأمراء

شهد نظام الحكم تطوراً آخر في عهد الراضي حين بذلت الخلافة محاولة أخيرة لإنقاذ سلطتها المقيَّدة، تناولت مركز الخلافة والوزارة ووضع الأتراك، وانتهى هذا التطور بظهور منصب أمير الأمراء الذي سيطر متقلِّده على شؤون الحكم، وامتدت صلاحياته إلى الضرائب والإدارة، فهيمن على الخلافة حتى أضحى الخليفة مجرد رمز، ولم يعد له من صلاحيات فعلية في ممارسة الحكم، كما أزال نفوذ الوزراء. وتوقف الصراع بين الخلافة والأتراك.

ظهر هذا المنصب في عام (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م) على حساب منصب الوزارة بفعل وجود وزراء ضعاف عجزوا عن النهوض بأعباء الوزارة، في الوقت الذي تراجع فيه نفوذ الأتراك بفعل التفكُّك الذي ساد صفوفهم، وتنافسهم على مركز الصدارة.

تطلعت الخلافة نتيجة ذلك إلى حكام الولايات لتستعين بهم في إنقاذ

---

(١) الطبري: جـ ١٠ ص ١٤١. المسعودي: جـ ٤ ص ٢١٤.

(٢) ابن عمراني: ص ١٢١ ـ ١٢٢.

(٣) المسعودي: جـ ٤ ص ٢٢١، ٢٣١. مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٨٦ ـ ٢٩١.

الموقف، فاستدعى الخليفة الراضي محمَّد بن رائق أمير واسط والبصرة، وسلَّمه مقاليد الأمور، وأطلق يده في سلطات الدولة كلها، ولقَّبه أمير الأمراء[1].

أدَّى خلق هذا المنصب إلى حدوث تنافس بين الولاة، كل يريد اعتلاءه. ففي عام (٣٢٦هـ/ ٩٣٨م) ضعف نفوذ ابن رائق، فخرج عليه أحد قادته ويدعى بجكم، فطرده من الحكم وتولى إمرة الأمراء في العام التالي، ونافسه أَبو عبد اللَّه البريدي حاكم الأهواز.

خلافة المتقي

اختار أعيان الدولة وأفراد البيت العبَّاسي، بعد وفاة الراضي، جعفر بن المقتدر لاعتلاء منصب الخلافة، ولقَّبوه بـ المتقي[2]، ثم حدث أن قُتل بجكم بعد أربعة أشهر بيد أحد الأتراك[3].

كان المتقي (٣٢٩ ـ ٣٣٣هـ/ ٩٤٠ ـ ٩٤٤م) مجرد ألعوبة في أيدي القادة المتنافسين على السلطة، وانتقلت في عهده صلاحيات منصب أمير الأمراء إلى يد البريدي[4]؛ ويبدو أنه عجز عن تلبية حاجات الجند ومطالبهم المتزايدة، وأضحى هدفاً لدسائسهم، فاضطربت الأمور في بغداد، واضطر إلى مغادرتها[5]، فتقلَّد ابن رائق المنصب مرة ثانية[6].

خلافة المستكفي

ونتيجة لتجدُّد خلافاته مع ابن رائق، عيَّن الخليفة المتقي ناصر الدولة الحمداني أميراً للأمراء في عام (٣٣٠هـ/ ٩٤٢م)، ثم توزون التركي[7]، وخشي هذا من تقارب قد يحدث بين الخليفة وبين الطولونيين في مصر، فقبض عليه، وأجبره على خلع نفسه وعيَّن مكانه عبد اللَّه بن المكتفي، ولقَّبه بـ المستكفي[8]. استبدَّ توزون بالسلطة، ثم خلفه ابن شيرزاد الذي ظل يشغل هذا المنصب حتى استولى معز الدولة بن بويه على بغداد، وألغى منصب أمير الأمراء[9].

---

(١) مسكويه: جـ١ ص ٣٥١ ـ ٣٥٢.
(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص ٩١، ٩٣ ـ ٩٤.
(٣) مسكويه: جـ٢ ص ٩ ـ ١٠.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٣.
(٥) ابن عمراني: ص ١٣٤.
(٦) مسكويه: جـ٢ ص ٢٢.
(٧) المصدر نفسه: ص ٢٨، ٤٤.
(٨) ابن عمراني: ص ١٤١.
(٩) مسكويه: جـ٢ ص ٨١ ـ ٨٢، ٨٤ ـ ٨٥.

حركة الزَّنْج

أنهكت حركة الزَّنج دولة الخلافة العبَّاسية قبل أن تقضي الخلافة عليها بعد مرور أكثر من أربعة عشر عاماً على قيامها (٢٥٥ _ ٢٧٠هـ/ ٨٦٩ _ ٨٨٣م). والواقع أن عماد هذه الحركة تمثَّل، في بادىء الأمر، ببعض العرب المغامرين من المهالبة والهمدانيين وغيرهم، أما الفئات التي شاركت فيها فهي متنوعة: الزَّنج، أهل القرى، العرب الضعفاء، عشائر عربية ثائرة على السلطة. أما الشخصية التي قادت هذا الجمع، فهو علي بن محمَّد، الفارسي الأصل، وهو شخصية متقلبة اتصف بأنه رجل طموح، وموهوب جداً، بعيد عن الزهد. استغل الأوضاع المضطربة داخل المجتمع الإسلامي لتحقيق طموحه السلطوي. ادَّعى نسباً علوياً لاستقطاب العلويين على الرغم من تعارض أفكاره عن الخلافة مع مفهوم هؤلاء، وتبنَّى رأي الخوارج القائم على الشورى، وجهر في إحدى مراحل حياته بمذهبهم الذي تلائم مبادئه ميول أصحابه الشورية، واستغل ما كان يعانيه العبيد من بؤس، فادَّعى أن الله أرسله لتحريرهم كما ادَّعى العلم بالغيب، وانتحل النبوَّة[(١)]. والواضح أن التناقض في عقيدة الحركة، يُفرغها من أي صيغة عقائدية، ويجعلها حركة مسلَّحة ضد النظام ليس إلَّا، كما يجعل من قائدها رجلاً مغامراً طموحاً إلى السلطة.

وتكمن دوافع الاستجابة لحركته في ثلاث:

سياسية: بسبب تردِّي أوضاع الخلافة، نتيجة تصاعد نفوذ الأتراك إلى جانب صراع خفي بين المترفين والعبيد، وجد متنفساً له في دعوة علي بن محمد.

اقتصادية: نتيجة الأوضاع المالية المتدهورة وظاهرة التكوين الطبقي داخل المجتمع الإسلامي، من طبقة ثرية إلى طبقة تجار، فالطبقة العامة العاملة.

اجتماعية: بفعل نمط حياة فئات العبيد التي كانت تعيش في ظروف قاسية وسيئة من خلال عملها في تجفيف المستنقعات وإزالة السباخ[(٢)] عن الأراضي، ثم نقل الملح إلى حيث يُعرض ويُباع، لقاء وجبة طعام، فأرادت هذه الفئات التخلص من هذا العمل الشاق ومن ضنك العيش[(٣)].

وسيطر علي بن محمد خلال عشرة أعوام على رقعة واسعة، بين الأهواز

---

(١) الطبري: جـ ٩ ص ٤١٢.

(٢) السباخ: هو الطبقة الملحية المتسربة من مياه الخليج العربي، ويُسمى الملح المستخرج الشورج.

(٣) عمر: ص ٣٢٨.

وواسط، وهدَّد بغداد، عندئذ عهد الخليفة المعتمد إلى أخيه أبي أحمد الموفق طلحة بمحاربته، فاصطدم بجموع الزنج وقتل علي بن محمد واستسلم من بقي من أتباعه[1].

والواقع أن حركة الزِّنج[2] انطلقت من واقع الألم والاضطهاد الاجتماعي والاقتصادي بين مستنقعات البصرة وسهولها، وكانت بدايتها ناجحة انسجمت فيها أهدافها المعلنة مع أفعالها، لكن النزعة الفوضوية التي طبعتها وهي في قمة مواجهتها أدت إلى تقلُّص أبعادها الاجتماعية. وزاد من تلك النزعة افتقارها إلى برنامج ثوري يصوغ تطلعات وأهداف القائمين بها، ويوضح العلاقة بين القيادة والأتباع. كما يلاحظ أن رجالها استهدفوا الانتقام لا الإصلاح، والانقلاب الاجتماعي لا التقويم، وأن قائدها لم يستطع أن يحرر ذاته من مسألة فكرة الزعامة، بالإضافة إلى أن أُطرها الثورية كانت محلية ومحدودة، ولم تكن لديها تطلعات شاملة. وندرك، من هنا، عدم نجاح علي بن محمد في اكتساب قطاعات كبيرة من المجتمع العراقي، كالفلاحين، وكبار الملاك، والتجار، والحرفيين، وحتى القرامطة الثائرين على السلطة، فأضحى العبيد بمفردهم، ضعفاء على الرغم من كثرة أعدادهم.

ومن جهة أخرى فإن سرعة الأحداث، وتصميم العباسيين على القضاء عليها، لم يعطيا قائدها مهلة لتنظيم صفوف قواته، وتمكنه من بناء مجتمع مستقر ذي أنظمة خاصة، لذلك، كان من الطبيعي أن تفقد طابعها الإنساني والثوري، مما دفعها إلى نهايتها المحتومة، لكن قاعدتها الثورية، التي تشتَّتت استطاعت أن تُكوِّن إحدى الدعائم الأساسية التي دفعت الحركة القرمطية إلى الظهور فيما بعد[3].

العلاقة مع العلويين

قام العلويون، في هذا العصر، بعدة حركات مناهضة تمخَّض عنها انفصال كثير من أجزاء الدولة، وانتشار المبادىء العلوية في المجتمع الإسلامي، ونذكر بخاصة الإسماعيلية التي يدَّعي أفرادها الانتساب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، والقرامطة[4].

---

(١) الطبري: جـ ٩ ص ٦١٤ ـ ٦١٥، ٦٣١.

(٢) بكسر الزاي وفتحها: هم جيل من السودان.

(٣) راجع فيما يتعلَّق بأسباب فشل حركة الزَّنج: علبي، أحمد: ثورة الزنج وقائدها علي بن محمَّد ص ١٤٥ ـ ١٦٥.

(٤) تنتسب الحركة القرمطية إلى حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط.

وتكلَّلت جهود الإسماعيليين بقيام الدولة العبيدية (الفاطمية) في أفريقية في عام (٢٩٧ هـ/ ٩١٠م) على يد عبيد الله المهدي، بالإضافة إلى قيام الدولة الزيدية العلوية في طبرستان في عام (٢٥٠هـ/ ٨٦٤ م) على يد الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل[١].

العلاقات مع الدول الانفصالية

الدولة الطاهرية: (٢٠٥ ـ ٢٥٩هـ| ٨٢٠ ـ ٨٧٣ م)

نشأت الدولة الطاهرية في فارس بإرادة الخلافة. أسَّسها طاهر بن الحسين، أحد قادة المأمون الذي ولاّه على خراسان في عام (٢٠٥ هـ/ ٨٢٠ م)، وأضاف إليه أعمال المشرق كلها من بغداد حتى الحدود مع الهند، واتخذ من نيسابور عاصمة له[٢]. راودت طاهر منذ بداية توليته نزعة انفصالية، فخلع المأمون من الخلافة في عام (٢٠٧ هـ/ ٨٢٢ م)، وقطع الدعاء له، ثم طرح لبس السواد معلناً بذلك انفصاله عن بغداد[٣]، إلا أنه توفي فجأة، ولم يتمكَّن خلفاؤه من المحافظة على مكتسباته على الرغم من حرصهم على استمرار سياسة التعاون مع الخلافة، ووقفوا عاجزين أمام تفاقم الحركات العلوية حتى سقطوا أخيراً تحت ضربات الصفَّاريين.

الدولة الصفَّارية: (٢٥٤ ـ ٢٩٨ هـ| ٨٦٨ ـ ٩١١ م)

تمثل هذه الدولة امتداداً سياسياً للحركات الانفصالية التي قامت في المشرق الإسلامي في فارس. أسسها يعقوب بن الليث الصفَّار في عام (٢٥٤ هـ/ ٨٦٨ م) بعد أن استغل فرصة ضعف الخلافة المنهمكة في قتال الزَّنج، وضمَّ إليه بلاد فارس، وتوسع باتجاه خراسان بعد أن قضى على الدولة الطاهرية، وسيطر على سجستان، ووادي كابل، والسند، ومكران[٤]، وكتب إلى الخليفة بما آلت إليه الأوضاع في هذه المناطق الشرقية.

ويبدو أن الخليفة لم يرض عن تصرفات يعقوب وتوسعاته، مما أثار الزعيم الصفَّاري، فتحدى السلطة المركزية وزحف باتجاه العراق. وشعرت الخلافة بعجزها عن التصدي للزحف الصفّاري، فمالت إلى المهادنة، وأجابت يعقوباً إلى طلبه،

---

(١) إقبال، عباس: تاريخ إيران بعد الإسلام: ص ٢٠ ـ ٢١.
(٢) الطبري: جـ ٨ ص ٥٧٧، ٥٩٥. (٣) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤١٣.
(٤) المصدر نفسه: ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

فعقدت له على ولايات المشرق وشرطتي بغداد وسامراء، وأبطلت لعنه أمام الحجاج[١].

ويبدو أن الخلافة لم تركن إلى المهادنة إلا بقدر حاجتها إلى التقاط أنفاسها، وحتى تقضي على نفوذ يعقوب أقامت حكماً موالياً لها في إقليم ما وراء النهر بقيادة نصر بن أحمد الساماني.

أدرك يعقوب سياسة الخليفة العدائية تجاهه، فقرر أن يضع حداً نهائياً لهذه الحالة، إلا أنه توفي في عام (٢٦٥ هـ/ ٨٧٩ م) قبل أن يحقق هدفه[٢].

تراوحت العلاقات بين الخلافة وبين خلفائه بين التعاون والعداء وفقاً لتقلب الظروف. لكن الخلافة، وقد صمَّمت على تدمير هذه القوة الانفصالية، أرسلت الجيوش إلى الولايات الشرقية، واستطاعت القضاء على خلفاء عمرو أخي يعقوب. ونجح أحمد بن إسماعيل الساماني من السيطرة على سجستان في عام (٢٩٨ هـ/ ٩١١ م)، ومن ثم زالت الدولة الصفّارية[٣].

الدولة السامانية: (٢٦١ ـ ٣٨٩ هـ/ ٨٧٤ ـ ٩٩٩ م)

قامت الدولة السامانية في إقليم ما وراء النهر، وامتدت إلى فارس، وبسطت سلطانها على خراسان، كما ضمَّت طبرستان والري والجبل وسجستان، واتجهت إلى تبنِّي النزعات الانفصالية الفارسية بشكل أكثر بروزاً من خلال إحياء اللغة والثقافة الفارسية[٤]. والجدير بالذكر أن السامانيين ينتسبون إلى إحدى الأسر الفارسية العريقة، وحرصوا خلال حياتهم السياسية على التمسك بطاعة الخليفة. والحقيقة أن تطلعاتهم اتجهت نحو التوسع الخارجي متجنبين ما أمكن الانغماس في النزاعات الداخلية مع الدول الإسلامية الأخرى، وتركزت فتوحهم في التركستان شرقي نهر جيحون.

ومن جهتها، فقد وجدت الخلافة في السامانيين ولاة مخلصين، إلا أنهم تمتعوا داخل بلادهم بالاستقلال والسيادة التامة، وكانت تعتمد عليهم في إقرار سلطانها في المشرق.

تعرضت الدولة السامانية في أواخر أيامها إلى ضغوطات داخلية تمثلت

---

(١) الطبري: جـ ٩ ص ٥١٤، ٥١٦. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان جـ ٦ ص ٤١٣.

(٢) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٣٦٠ ـ ٣٦١.

(٣) الطبري: جـ ١٠ ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٤) Brown: Literary History of Persia I pp 356, 369, 399.

بنشوب الصراعات الأسرية بين أفراد البيت الساماني وخروج القادة وعمَّال الأقاليم، وإلى أخطار خارجية من جانب الديلم، والبويهيين وخانات الترك والغزنويين مما أدى إلى ضعفها، وطمع بها جيرانها، لينقسم ملكها أخيراً بين الغزنويين وخانات الترك[1].

ويبقى أن نذكر أن السامانيين أدَّوا دوراً حضارياً وسياسياً بارزاً، فامتاز عهدهم بنهضة علمية وأدبية رائعة بلغت ذروتها مع الفردوسي، جعلت عاصمتهم الري من أهم المراكز العلمية الإسلامية. أما من الناحية السياسية فقد دافعوا عن مناطق الثغور الشرقية، ومدُّوا النفوذ الإسلامي إلى بلاد الترك، ولم يخرجوا يوماً عن تبعية الخلافة[2].

الدولة الطولونية: (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ/ ٨٦٨ ـ ٩٠٥ م)

أسس الدولة الطولونية أحمد بن طولون، وهو من المماليك الأتراك تزوجت والدته، بعد وفاة والده، الأمير بايكباك التركي الذي عيَّنه الخليفة المعتز والياً على مصر في عام (٢٥٤ هـ/ ٨٦٨ م)، فأرسل أحمد ليتولى حكمها بالنيابة عنه، وساعدته الظروف السياسية والاقتصادية المتدهورة في تثبيت أقدامه فيها، كما أسند إليه الخليفة المهتدي ولاية الثغور الشامية على أثر وقوع الاضطرابات فيها[3]. وأضحى ابن طولون حاكم مصر من قبل الخليفة مباشرة بعد وفاة كل من بايكباك وخلفه بارجوخ في عام (٢٥٩ هـ/ ٨٧٣ م)[4].

وشرع ابن طولون في القيام بأعمال عمرانية تُعبِّر عن مدى اهتمامه الشديد بمصر، ومتطلعاً من خلالها إلى إقامة دولة خاصة به منفصلة عن الخلافة، فأسَّس ضاحية للفسطاط هي القطائع وبنى فيها مسجده المشهور الذي لا يزال قائماً إلى الآن، وقوَّى الجبهة الداخلية من خلال تنمية موارد الثروة، ومضاعفة الدخل في ميادين الإنتاج، وأصلح أقنية الري، والسدود الخربة، وحظَّر على الموظفين قبول الهدايا.

تجمَّع لابن طولون نتيجة هذه الإصلاحات أموال ضخمة أعانته على إنشاء جيش قوي يدين له بالولاء، ويساعده في تحقيق مشروعاته الانفصالية والدفاع عنها.

لعل المشكلة الكبيرة التي واجهت ابن طولون هي علاقته بأبي أَحمد الموفق

---

(١) إقبال: ص ٦٢.
(٢) ابن خلكان، جـ ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٣.
(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ ٣ ص ٧.
(٤) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٢٥٠.

طلحة الذي سيطر على الشؤون العامة في بغداد، وقاد حركة إصلاحية بهدف النهوض بالسلطة المركزية، لذلك سعى جاهداً للقضاء على الدولة الطولونية التي انفصلت عن الإدارة المركزية، وبدأت تتطلع نحو ضم بلاد الشام، لكن محاولاته باءت بالفشل. وحصل ابن طولون على تقليد من الخليفة، بفضل علاقته الحسنة به، بحكم مصر وبلاد الشام بالإضافة إلى ثغورها[١].

وحاول ابن طولون، في غمرة هذا الصراع مع الموفق، إلى نقل مقر الخلافة إلى مصر مستغلاً الجفاء الذي نشأ بين الخليفة والموفق، إلا أنه فشل في ذلك[٢]. ويبدو أن الموفق لم يركن إلى الهدوء، وسعى جاهداً إلى إزاحة خصمه، فعزله عن مصر وبلاد الشام وولّى إسحاق بن كنداج على أعماله[٣]، فتراجعت نتيجة ذلك قوة ابن طولون. ثم دخل الطرفان في مفاوضات من أجل إحلال الوفاق بينهما، لكن المنية عاجلت ابن طولون قبل أن تنتهي، وذلك في (أوائل شهر ذي القعدة عام ٢٧٠ هـ/ شهر أيار عام ٨٨٤ م)[٤]، وخلفه ابنه خمارويه الذي ورث مهمة الدفاع عن الإرث الطولوني في مصر والاحتفاظ ببلاد الشام، مع استمرار عداء الخلافة للطولونيين. وفشلت محاولات الموفق في خلعه أو التغلب عليه في ساحة القتال، وبخاصة بعد اندحاره أمام القوات الطولونية في معركة الطواحين على نهر أبي فطرس جنوبي فلسطين في عام (٢٧١ هـ/ ٨٨٤ م)[٥].

وأضحت الدولة الطولونية في عهده قوة تملأ مكانها بجدارة. وعلى الرغم من هذه الانتصارات التي حقّقها خمارويه، فقد مال إلى السلام، وبادر بطلب الصلح مفتتحاً بذلك مرحلة جديدة من العلاقات مع الخلافة العباسية. وضمنت المعاهدة التي وُقِّعت بين الجانبين، للطولونيين، الولاية على مصر وبلاد الشام والثغور طوال ثلاثين سنة مقابل دفع جزية هزيلة. وتدعَّمت هذه العلاقات الجيدة بالمصاهرة عندما تزوج الخليفة المعتضد ابنة خمارويه قطر الندى[٦].

توفي خمارويه في عام (٢٨٢ هـ/ ٨٩٥ م) مقتولاً على يد بعض غلمانه،

---

(١) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٢٥٠، ٣٥٣.

(٢) الكندي، أبو عمر محمَّد بن يوسف: كتاب الولاة والقضاة ص ٢٢٥، ٢٢٩.

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٦٩٥.

(٤) البلوي، أبو محمَّد... بن محفوظ المديني: سيرة أحمد بن طولون ص ٣٠٥. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨.

(٥) الطبري: جـ ١٠ ص ٨. ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

(٦) الطبري: المصدر نفسه ص ٢٠ ـ ٢١، ٢٩ ـ ٣٠. ابن تغري بردي: جـ ٣ ص ٥١.

فاضطربت الدولة الطولونية بعد وفاته، واستمرت بالانحدار خلال السنين العشر الأخيرة من عمرها، وذلك بسبب تدخل الجند، وتنافس الأمراء، حتى انتهت على يد الخليفة المكتفي الذي دخلت قواته إلى مصر في عام (٢٩٢ هـ/ ٩٠٥ م) فدمَّرت مدينة القطائع باستثناء الجامع، وعاد هذا البلد إلى حكم الخلافة المباشر[١].

الدولة الإخشيدية: (٣٢٣ـ٣٥٨هـ/ ٩٣٥ـ٩٦٩م)

عادت مصر إلى أحضان الخلافة العباسية، لكن هذه الخلافة أصابها الوهن مرة أخرى في عهد المقتدر، وظهر عجزها في المحافظة على سلطتها في ولاياتها ومنها مصر. وصاحب ذلك ظهور خطر خارجي تمثل في محاولات الفاطميين غزو هذا البلد، فتطلب الوضع وجود حاكم قوي يملأ الفراغ، ويتصدى للأخطار، ويجعل من مصر دولة حاجزة أمام الزحف الفاطمي، فولى الخليفة محمد بن طغج بن جف على مصر في عام (٣٢٣ هـ/ ٩٣٥ م)، وكلّفه بهذه المهمة[٢].

اهتم محمد بن طغج أولاً بتقوية مركزه في الداخل منتهجاً نهج أحمد بن طولون، ونجح في التصدي لحملات الفاطميين التي هاجمت مصر في عام (٣٢٤ هـ/ ٩٣٦ م)، وحافظ في الوقت نفسه على علاقته الطيبة مع الخلافة العباسية التي أضافت إلى أملاكه بلاد الشام، ولقَّبه الخليفة بـ «الإخشيد»[٣].

كانت الخلافة العباسية آنذاك تشهد تطورات سريعة بفعل الصراع من أجل الحصول على منصب أمير الأمراء، فدخل الإخشيد في دوامة هذا الصراع، فهزم ابن رائق في العريش في عام (٣٢٨ هـ/ ٩٤٠ م)[٤]، لكن الإخشيد آثر تقديم المصلحة العامة على مصلحته الخاصة، فعقد صلحاً مع ابن رائق تنازل له بموجبه عن الأراضي الشامية الواقعة شمالي الرملة، ثم سيطر على كامل بلاد الشام بعد وفاته في عام (٣٣٠ هـ/ ٩٤٢ م)[٥]، واعترف الخليفة المتقي بوراثية ولايته على مصر وأقرَّه على بلاد الشام[٦].

واصطدم الإخشيد بسيف الدولة الحمداني أثناء توسعه باتجاه الشمال، إلا أنه تراجع على الرغم من انتصاره لأنه أدرك ضرورة وجود قوة إسلامية في شمالي بلاد الشام كقوة الحمدانيين، للتصدي لاعتداءات البيزنطيين.

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٣ ص ١٣٤ ـ ١٤٠.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٥١.
(٣) الكندي: ص ٢٨٨. ومعنى الإخشيد بلغة أهل فرغانة «ملك الملوك».
(٤) ابن الأثير: جـ ٧ ص ١٠٤.
(٥) مسكويه: جـ ٢ ص ٢٧ ـ ٢٨.
(٦) ابن الأثير: المصدر نفسه.

وحاول الإخشيد نقل الخلافة إلى مصر مقتدياً بابن طولون، مستغلاً استبداد الأمراء الأتراك بالخليفة المتقي وإحجام الحمدانيين عن مساعدته، إلا أنه فشل في ذلك أيضاً لأن الخليفة أبى أن يترك عاصمته[1].

توفي الإخشيد في عام (٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م)[2] فاستولى كافور على زمام السلطة بوصفه وصياً على ولديه الصغيرين أنوجور وعلي، واستطاع خلال مدة وصايته الطويلة أن يحافظ على تماسك الدولة، لكن وفاته في عام (٣٥٧ هـ/ ٩٦٨ م)، واضطراب الأوضاع في مصر نتيجة ذلك؛ دفعت الفاطميين للإغارة على مصر، ونجحوا في دخولها في العام التالي، وقضوا على الحكم الإخشيدي[3].

الحمدانيون في الموصل وحلب

ينتسب الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب العربية الأصل التي أقامت بضواحي الموصل. وقام حمدان بدور هام في الحوادث السياسية التي وقعت في هذه المدينة منذ عام (٢٦٠ هـ/ ٨٧٤ م)، واستولى في عام (٢٧٧ هـ/ ٨٩٠ م) على قلعة ماردين في الجزيرة العليا عن طريق التعاون مع الخوارج، فحاربه الخليفة المعتضد في عام (٢٨١ هـ/ ٨٩٤ م)، وتغلَّب على قواته. هرب حمدان من الموصل تاركاً المدينة تحت حكم ابنه الحسين، وعلى الرغم من أنه وقع أسيراً في يد الخليفة، فقد عفا عنه بعد أن هزم ابنه الحسين الخوارج[4]. ومنذ ذلك الوقت بدأت شهرة الحمدانيين تظهر على مسرح الأحداث السياسية. ففي عام (٢٩٣ هـ/ ٩٠٦ م) قلَّد الخليفة المكتفي أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان، أخا الحسين، الموصل، كما قلَّد أخاه إبراهيم ديار ربيعة في عام (٣٠٧ هـ/ ٩١٩ م)[5].

أناب عبد الله ابنه الحسن في حكم الموصل، وتمكَّن هذا من بسط سلطانه على الجزيرة بكاملها بالإضافة إلى شمال بلاد الشام، والتجأ إليه الخليفة المتقي بعد أن تعدَّدت هجمات البريدي وإخوته على العراق فخلع عليه في (شهر شعبان عام ٣٣٠ هـ/ شهر نيسان عام ٩٤٢ م) ولقَّبه ناصر الدولة، وعيَّنه أميراً للأمراء، كما لقَّب أخاه علياً سيف الدولة[6].

---

(١) الأنطاكي، يحيى بن سعيد: تاريخ الأنطاكي ص ٤٦. ابن تغري بردي: جـ ٣ ص ٢٥٤.
(٢) ابن الأثير: جـ ٧ ص ١٦٣.
(٣) ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ١٨، ٢٤ ـ ٢٥.
(٤) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٧٧ ـ ٧٨، ٨١.
(٥) المصدر نفسه: ص ١١١.
(٦) المصدر نفسه: ص ٢٨٤.

تعرضت الأسرة إلى عداء البويهيين بعد أن احتل هؤلاء مدينة بغداد في عام (٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م). فقد شنَّ معز الدولة البويهي حرباً على الحمدانيين انتهت بإخضاعهم، وظلَّ ناصر الدولة في إمارته يدفع الجزية لهم، ويخطب باسمهم إلى أن قبض عليه ابنه أبو تغلب في عام (٣٥٦ هـ/ ٩٦٧ م) وحجر عليه وسجنه، وتسلَّم الحكم بعد صراع أسري، وقُتل أثناء صراعه مع أمير الرملة دغفل بن مفرج والفاطميين في عام (٣٦٩ هـ/ ٩٧٩ م)(١).

كان بوسع أخيه أبي طاهر إبراهيم الاحتفاظ باستقلاله بعد أن استعاد الموصل في عام (٣٧٩هـ/ ٩٨٩م)، غير أن الأكراد طمعوا في إزالة دولته، وفَقَدَ إخوته وذريته هذا الاستقلال بعد أن أخضعهم البويهيون والفاطميون لسلطانهم(٢).

والواقع أنه لن تكون لهذه الأسرة إلا مكانة متواضعة في التاريخ لولا أن أحد أفرادها وهو سيف الدولة، أخو ناصر الدولة، انتهز الظروف المواتية، فأنشأ لنفسه إمارة في شمالي بلاد الشام تتوسط الطريق بين العراق ومصر.

لقد أدرك سيف الدولة أنه يتعذر عليه التمكين لنفسه في العراق بوصفه عامل الخليفة وساعده الأيمن، في ظل صراع الأتراك وطموح البويهيين وتوثُّبهم، فولَّى وجهه شطر بلاد الشام، وسيطر على حلب في عام (٣٣٣ هـ/ ٩٤٥ م) بعد أن انتزعها من أيدي الإخشيديين. وحاول أن يبسط سلطانه على دمشق، إلا أنه اصطدم بقوة الإخشيديين بقيادة كافور ليتفرغ بعد ذلك للمشكلة التي كرَّس جهوده من أجلها أيام حكمه، وأعني النضال ضد البيزنطيين. وقد دفعه وضع إمارته الجغرافي بوصفها إمارة ثغور إلى سلوك هذا المسلك، في ظل الاستفاقة التي شهدتها الأمبراطورية البيزنطية، وأتاح لها القيام بغارات على بلاد الشام. وبعد أن اكتسحت قسماً من أرمينية وصلت إلى الحدود الممتدة بين جبال طوروس وملطية وبين أرضروم، وكان المسلمون آنذاك قد شُغلوا بنزاعاتهم الداخلية، فعجزوا عن صدِّ البيزنطيين، عندئذ تشجع الأباطرة أمثال نقفور فوكاس ويوحنا زمسكيس، فتجاوزوا آسيا الصغرى وهاجموا الممتلكات الإسلامية في كيليكية وبلاد الشام وأعالي الرافدين، فكان على سيف الدولة وحده أن يتحمل عبء القتال. وعلى الرغم من أنه لم يمتلك قوات عسكرية وفيرة العدد، إلا أنه استطاع أن يجدِّد أمجاد المسلمين الأوائل في صدامهم مع البيزنطيين، ويقاوم بيزنطية طوال عشرين عاماً، وأن يغير على أراضيها في آسيا

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٢٧٠، ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

(٢) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم: جـ ٣ ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

الصغرى في غارات بالغة الجرأة، لكن هذه الغارات لم تؤثر في قوة بيزنطية التي بقيت بمنجاة من التدمير، وسمحت لها بالرد، فاستعادت كيليكية وشمالي بلاد الشام مع أنطاكية وطرسوس في عام (٣٥٧ هـ/ ٩٦٨ م). وفي الشرق استقر الخط الفاصل بين الدولتين على تلال الضفة اليمنى لنهر العاصي، والتفَّ حول حلب شمالاً وراح يحاذي الفرات الأوسط عند السفوح الشرقية لجبال طوروس حتى بلغ ينابيع دجلة تقريباً، وألقت القوات البيزنطية الحصار على حلب التي اعترفت في إحدى مراحل الصراع بولائها لبيزنطية[١].

وبدخول الفاطميين على الخط السياسي، أعلن سيف الدولة طاعته لهم، وأيَّد محاولاتهم غزو مصر، وبالتالي فإنه اتبع مذهب العلويين، لكنه احتفظ بسيادته التامة على جميع أرجاء إمارته[٢].

إلى جانب جهاده العسكري ونضاله السياسي، اهتم سيف الدولة بالناحية الثقافية اهتماماً بالغاً. رعى الفنون والعلوم والشعر والأدب فازدهر عهده بطائفة من مشاهير العلماء والكتَّاب والشعراء كأبي الفتح بن جني النحوي، وأبي الطيب المتنبي، واشتهر كثير من الأمراء الحمدانيين بالشعر كأبي فراس ابن عم سيف الدولة، وكان سيف الدولة نفسه يجيد الشعر[٣].

توفي سيف الدولة في حلب في عام (٣٥٦ هـ/ ٩٦٧ م)، فخلفه ابنه سعد الدولة ثم حفيده سعيد الدولة اللذان احتفظا بحلب حتى عام (٣٩٢ هـ/ ١٠٠٢ م) عن طريق تحالفهما مع البيزنطيين دفعاً لخطر الفاطميين، الذين قضوا أخيراً على حكم الحمدانيين في حلب في عام (٤٠٦ هـ/ ١٠١٥ م)[٤].

---

(١) ابن العديم، عمر بن أحمد بن أبي جرادة: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ ١ ص ١١١ ـ ١٤٥. بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٤٢، العريني، السيد الباز: الدولة البيزنطية ص ٤٤٧ ـ ٤٦٠، ٤٧٢ ـ ٤٨٩.

(٢) بروكلمان: المرجع نفسه.

(٣) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك: يتيمة الدهر جـ ١ ص ٢١ ـ ٢٣.

(٤) ابن العديم: جـ ١ ص ١٤٤، ١٤٦، ١٦٨، ١٨٨. Camb. Med. Hist IV pp 147-148.

العصر العباسي الثالث

٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ/ ٩٤٥ ـ ١٠٥٥ م

عصر النفوذ البويهي

خلفاء العصر العباسي الثالث ومدة حكم كل منهم

أبو القاسم عبد الله المستكفي	٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ/ ٩٤٤ ـ ٩٤٦ م
أبو القاسم الفضل المطيع	٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ/ ٩٤٦ ـ ٩٧٤ م
أبو بكر عبد الكريم الطائع	٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ/ ٩٧٤ ـ ٩٩١ م
أبو العباس أحمد القادر	٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ/ ٩٩١ ـ ١٠٣١ م
أبو جعفر عبد الله القائم	٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٧٥ م

طبيعة هذا العصر

ابتدأ هذا العصر أثناء خلافة المستكفي وانتهى أثناء خلافة القائم، وتميز بارتباطه بتاريخ البويهيين، ومثّله كل من الخلفاء: المستكفي، المطيع، الطائع، القادر والقائم.

تأسيس الدولة البويهية

ظهر بنو بويه على مسرح الأحداث في أوائل القرن الرابع الهجري[١]، ونشأت هذه الأسرة، التي هاجرت من بلاد الديلم في الشمال، في ظل ثلاثة إخوة عملوا تحت قيادة مرداويج الزياري، واشتهرت على يد علي بن شجاع بن بويه، الذي لم يلبث أن اختلف مع مرداويج، واستولى على أصفهان وفارس، ولم يستطع الخليفة الدفاع عن هاتين الحاضرتين، فاعترف له بحكمهما، واتخذ مدينة شيراز قاعدة لحكمه[٢]، ثم سيطر الحسن، أخو علي، على منطقة الجبال بينما بسط الأخ الثالث، وهو أحمد، نفوذه على كرمان وخوزستان، فكان له منفذ على العراق. وهكذا أسّس

(١) مسكويه: جـ ١ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٩.

(٢) ابن الأثير: جـ ٧ ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

البويهيون دولاً انفصالية في فارس والأهواز وكرمان والري وأصفهان وهمذان وبسطوا هيمنة فعلية على العراق.

كان وضع الخلافة العباسية، آنذاك، حرجاً بحكم ثورات الزَّنج والقرامطة المتعاقبة، وبسبب نمو الحركات الانفصالية في الأقاليم، واختلال النظام العسكري، إلا أنها لم تقف مكتوفة اليدين تجاه هذا التوسع السياسي والعسكري والجغرافي للأسرة البويهية، لذلك حاولت استعادة الأهواز، إلا أنها فشلت في ذلك. وأتاح هذا الانتصار للبويهيين، الزحف نحو العراق المضطرب بفعل الصراعات بين الولاة وأمير الأمراء، واضطرت الخلافة إلى الاستعانة بهم لوضع حد للحالة المتردية، فدعا الخليفة المستكفي أحمد بن بويه وطلب منه دخول بغداد، فسار إليها ودخلها في عام (٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م) بعد أن خرج الأتراك منها فخلع عليه الخليفة وعيَّنه أميراً للأمراء ولقَّبه معز الدولة، ولقَّب أخاه علياً عماد الدولة، وأخاه حسناً ركن الدولة[١].

والواقع أن البويهيين الأوائل كانوا من كبار الأمراء، ولا شك بأن الحضارة المادية والروحية للإسلام في العصر الوسيط قد بلغت في عهدهم درجة عالية من النمو، فعضد الدولة نفسه كان إدارياً ممتازاً. واعتنى البويهيون بالناحية الاقتصادية، بعامة، وحققوا في بلاد فارس، بخاصة، أعمالاً متقدمة في مجالي التنمية والاستثمار. أما في المدن فقد أخضعوا لسلطانهم فئة العيارين، كما شيدوا المباني الكبرى في أصفهان وشيراز وبغداد. أما من الناحية الدينية فقد كانوا علويين غلاة. واعتنوا أيضاً بالثقافة، فبسطوا رعايتهم على الآثار والعلماء الذين يمثلون الثقافة العربية ـ الإسلامية، كما اهتموا اهتماماً كبيراً بنهضة الثقافة الفارسية، وكانت المراصد والمكتبات والمدارس والمستشفيات التي أنشؤوها مثار إعجاب الجميع.

علاقة الخلافة العباسية بالبويهيين

كان من المتوقع أن يعيد البويهيون الاستقرار والوحدة إلى أقاليم الخلافة بفرض سيطرتهم عليها وإفساح المجال كي تضطلع بمسؤولياتها، وتجنُّب إثارة الفتن المذهبية، إلا أن ذلك لم يتحقق لأنهم دخلوا بغداد يحملون روح العداء للخلفاء العباسيين المخالفين لهم في المذهب.

كان البويهيون أصحاب النفوذ الحقيقي والسلطان الفعلي في العراق، ولم يكن للخليفة إلا الاسم، وأضحى كأنه موظف عندهم يتناول منهم ما يقيم به أوده، وليس

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ١٥٧.

له حق التصرف في أي أمر من أمور الخلافة من دون الرجوع إليهم وأخذ موافقتهم. لقد فَقَدَ نفوذه في هذا العصر، يؤمر فيأتمر، ويفعل ما يُطلَب منه، وليس له عليهم من سلطان ديني لمخالفتهم له في المذهب، إنما ارتضوا ببقاء منصب الخلافة خدمة لأغراضهم. وقد فكَّر معز الدولة، بعد دخوله إلى بغداد وسيطرته على مقاليد الأمور فيها؛ في إلغاء الخلافة العباسية، وإقامة خلافة علوية على أنقاضها، وتنصيب أحد الزعماء الزيديين، وكان بإمكانه تحقيق ذلك، إلا أنه أحجم بعد استشارة أصحابه، لأن مثل هذا التغيير كان سيعرِّض العالم الإسلامي لهزات عنيفة، بالإضافة إلى زعزعة الحكم البويهي[١].

لقد ساد العهد البويهي شيء من الاستقرار السياسي من حيث مدة حكم الخلفاء، فقد تولى هؤلاء الحكم مدة طويلة قبل أن يُعزلوا، وذلك بسبب تحمُّل الأمراء البويهيين كافة تبعات الحكم.

نهاية البويهيين

والواقع أن المدة الزمنية التي شهدت ازدهار البويهيين لم تعمِّر طويلاً، وهم لا يتحمَّلون وحدهم تبعة أخطائهم، وهذا ما حدث في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي في ذلك العالم الإسلامي المنقسم على نفسه من النواحي المذهبية والاجتماعية، والعنصرية، والذي استبدت به جيوش هي نفسها منقسمة على بعضها. وعلى الرغم من أن عضد الدولة كان أحد الزعماء الذين حقَّقوا وحدة القيادة، إلا أن تنازع خلفائه قد جزَّأ الإرث البويهي، وأضعف الأسرة البويهية، فاستنجد كل أمير بطائفة اجتماعية معينة، وظهرت في الجيش تلك النزاعات التي أدَّت إلى تراجع القوة العباسية من قبل.

ترتَّب على ذلك تراجع سلطة الأمراء، وتناقص مواردهم، وانخفاض العملة، وتذمر القوات التي أصابها الغبن، وعاد أصحاب الفتن إلى الظهور.

واضطربت أوضاع البويهيين بعد وفاة بهاء الدولة في عام (٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م) بفعل تنازع أبنائه واعتمادهم على العنصر التركي الذي ازدادت قوة أفراده، مما سبَّب الكثير من المتاعب للأسرة، وأدَّى لاندلاع الثورت والحروب الأهلية. وأخيراً سقطت الدولة البويهية في العراق وفارس تحت ضربات السلاجقة الأتراك الذين دخلوا بغداد في عام (٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م)، وأنهوا الحكم البويهي[٢].

---

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص ١٦٠.

(٢) المصدر نفسه: جـ٨ ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

العصر العباسي الرابع

٤٤٧ ـ ٦٥٦هـ/ ١٠٥٥ ـ ١٢٥٨م

عصر النفوذ السلجوقي التركي

خلفاء العصر العباسي الرابع ومدة حكم كل منهم

أبو جعفر عبد الله القائم	٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٧٥ م
أبو القاسم محمد المقتدي	٤٦٧ ـ ٤٨٧ هـ/ ١٠٧٥ ـ ١٠٩٤ م
أبو العباس أحمد المستظهر	٤٨٧ ـ ٥١٢ هـ/ ١٠٩٤ ـ ١١١٨ م
أبو منصور الفضل المسترشد	٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ/ ١١١٨ ـ ١١٣٥ م
أبو جعفر منصور الراشد	٥٢٩ ـ ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ ـ ١١٣٦ م
أبو عبد الله محمد المقتفي	٥٣٠ ـ ٥٥٥ هـ/ ١١٣٦ ـ ١١٦٠ م
أبو المظفر يوسف المستنجد	٥٥٥ ـ ٥٦٦ هـ/ ١١٦٠ ـ ١١٧٠ م
أبو محمد الحسن المستضيء	٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ/ ١١٧٠ ـ ١١٨٠ م
أبو العباس أحمد الناصر	٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ/ ١١٨٠ ـ ١٢٢٥ م
أبو نصر محمد الظاهر	٦٢٢ ـ ٦٢٣ هـ/ ١٢٢٥ ـ ١٢٢٦ م
أبو جعفر منصور المستنصر	٦٢٣ ـ ٦٤٠ هـ/ ١٢٢٦ ـ ١٢٤٢ م
أبو أحمد عبد الله المستعصم	٦٤٠ ـ ٦٥٦ هـ/ ١٢٤٢ ـ ١٢٥٨ م

طبيعة هذا العصر

ابتدأ هذا العصر أثناء خلافة القائم وانتهى بوفاة المستعصم، وتميز بانتقال السلطان الفعلي إلى أيدي السلاجقة الأتراك الذين أقاموا في بلاد الجبل. لم يكن الخلفاء خلال هذا العصر على نمط واحد من القدرة والتصرف، فإنهم منذ عهد المسترشد شرعوا يستردون بعض نفوذهم المسلوب، واستقلوا بحكم بغداد

والأعمال التابعة لها منذ عهد المقتفي، كما استعادوا نفوذهم منذ عهد الناصر واستقلوا بحكم العراق، ومكثوا ستاً وستين سنة لم يخضعوا فيها لأي سلطان إلى أن قام المغول بتحركهم الواسع منطلقين نحو الغرب يحتلون الممالك، ويدمرون المدن حتى وصلوا إلى بغداد، فاحتلوها وأسقطوا الخلافة العباسية. وقد شهد هذا العصر غزواً أوروبياً واسعاً للشرق الأدنى فيما عُرف بالحروب الصليبية. ومثَّل هذا العصر كل من الخلفاء القائم، المقتدي، المستظهر، المسترشد، الراشد، المقتفي، المستنجد، المستضيء، الناصر، الظاهر، المستنصر والمستعصم.

قيام الدولة السلجوقية

تسجل المرحلة التاريخية التي ابتدأت في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي تغييراً جذرياً في جميع أرجاء العالم الإسلامي الشرقي، تجلَّى في تبوُّء العنصر التركي سدة الحكم في عملية تطور تصاعدية استمرت حتى أوائل القرن العشرين.

ينحدر السلاجقة من قبيلة قنق الغزية التركية، وينتسبون إلى جد هو سلجوق بن دقاق(١)، وهو أول من اعتنق الإسلام من أفراد عائلته. وكانت منازلهم في الصحراء الواسعة والسهوب الممتدة من الصين إلى شواطىء بحر الخزر(٢)، اعتنقوا المذهب السني ونصروه بغيرة وحماسة.

نزحوا من موطنهم الأصلي في عام (٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م) إلى بلاد ما وراء النهر وخراسان بسبب الظروف الاقتصادية السيئة، أو بسبب الحروب التي كانت تدور بين القبائل المختلفة عادة، فاصطدموا بالغزنويين. وأسس طغرلبك السلجوقي دولته في خراسان بعد انتصاره على السلطان مسعود الغزنوي في معركة داندنقان في عام (٤٣١هـ/ ١٠٤٠ م)، وهي دولة السلاجقة العظام، واعترف الخليفة العباسي به سلطاناً في العام التالي(٣).

واصل السلاجقة سياستهم التوسعية في فارس ضمن دائرة اعتراف الخلافة العباسية بهدف القضاء على قوة البويهيين، تمهيداً لمد نفوذهم إلى العراق الذي

---

(١) الحسيني، صدر الدين بن علي: أخبار الدولة السلجوقية ص ٢ ـ ٣.

(٢) فامبري، أرمينيوس: تاريخ بخارى ص ١٢٧.

(٣) الراوندي، أبو بكر محمَّد بن علي: راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

دخلوه في عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥ م) واعترف الخليفة بطغرلبك سلطاناً على جميع المناطق التي تحت يده، وأمر بأن يذكر اسمه في الخطبة[١]. وهكذا دخل العراق ضمن دائرة النفوذ السلجوقي.

العلاقة بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية

كانت أوضاع الخلافة مع السلاجقة أفضل منها مع بني بويه، لأنهم احترموا الخلفاء تديناً لأنهم من أهل السنة، وأبدوا لهم من مظاهر التعظيم والإجلال ما يقضي به منصبهم الديني. ومن جهة أخرى، استطاع السلاجقة أن يوحِّدوا المشرق الإسلامي من جديد تحت رايتهم، ويمدوا رقعته في غربي آسيا إلى حدود البوسفور، عن طريق جهاد الدولة البيزنطية، ويستولوا على معظم بلاد الشام من الفاطميين، لكن سرعان ما نشب الخلاف بين الخليفة والسلطان بسبب محاولة طغرلبك الاستئثار بجميع السلطات في العراق حتى تلك المتعلقة بالخليفة، الذي أضحى مجرداً تماماً من سلطاته.

ولما آلت سلطة السلاجقة العظام إلى ألب أرسلان في عام (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) ظلت الأوضاع كما هي عليه. وتعرَّض الخليفة في عهد خلفه ملكشاه الأول، لكثير من الامتهان، وتجرأ بعض نواب السلطان على مشاركته في بعض مظاهر سيادته الدينية كضرب الطبول على باب دورهم[٢]. وازدادت علاقة الخليفة بملكشاه الأول سوءاً حتى عزم هذا على طرده من بغداد ونقل عاصمة الخلافة إلى أصفهان، لكن القدر كان بانتظار السلطان فكفى الخليفة شر العزل.

انحطاط قوة السلاجقة

تعرضت دولة السلاجقة العظام، بعد وفاة ملكشاه في عام (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) للانقسام والضعف بسبب النزاعات التي نشبت بين أولاده، وقد انعكست سلباً على أوضاع الأسرة والخلافة، فتجزَّأت الدولة السلجوقية بسرعة بالغة إلى عدد من الدول هي: سلاجقة العراق، وسلاجقة كرمان، وسلاجقة الشام وسلاجقة الروم بالإضافة إلى السلاجقة العظام الذين تقلَّصت رقعة دولتهم. في مثل تلك الظروف كانت وساطة الخليفة هي الغاية التي يتنازعون من أجلها، وقد تصرفت الخلافة وفق ما

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٢) البنداري، الفتح بن علي بن محمَّد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٥٥.

تمليه عليها مصلحتها للانعتاق من الطوق السلجوقي، فوقفت موقف المتفرج أحياناً من هذه النزاعات، في حين تأرجحت باعترافها بين مراكز القوى أحياناً أخرى، وأحياناً كانت تمنحه لأكثر من شخص في وقت واحد، أو للغالب، في محاولة لضرب القوى السلجوقية ببعضها. فانتهز الخليفة المسترشد ومن أتى بعده، هذه الفرصة وأخذوا يعملون على استعادة ما للخلافة من سلطات[١]. ويُعدُّ عام (٥٤٣هـ/ ١١٤٨ م) البداية الفعلية لانتعاش الخلافة، وكان ذلك نتيجة عجز السلطان مسعود حاكم العراق عن إخضاع أمراء الأطراف الذين ثاروا عليه، مما أعطى الخليفة الفرصة للنهوض بالدولة، ولما توفي هذا السلطان في عام (٥٤٧هـ/ ١١٥٢ م) فقدت الدولة السلجوقية في العراق ركناً كبيراً، فأصابها الوهن، وأخذت بالتداعي، وعمَّتها الاضطرابات مما أدى إلى تقلُّص النفوذ السلجوقي في العراق شيئاً فشيئاً. وحاول خلفاء السلطان محمد الثاني في عام (٥٥٤هـ/ ١١٥٩ م) إعادة نفوذهم السابق، لكنهم جوبهوا بمعارضة الخلفاء القوية. وقد عبَّر المؤرخ السلجوقي البنداري عن هذا الموقف بقوله: «ووقفت في أنفسهم من بغداد الهيبة، ومن حصولها الخيبة، فلم يقدم ملك إليها ولا سلطان عليها»[٢].

استمر الخلفاء في النضال للتحرر من الضغط السلجوقي، حتى تحقَّق لهم الاستقلال التام عن السلاجقة في عهد الخليفة الناصر الذي كان له جيشه وحاشيته.

زالت دولة السلاجقة العظام في فارس وخراسان في عام (٥٥٢هـ/ ١١٥٧ م) بوفاة السلطان سنجر، وكان قد هُزم أمام الغز الأتراك في عام (٥٤٨هـ/ ١١٥٣ م) ووقع أسيراً في أيديهم، لكن هؤلاء عاملوه بشيء من الاحترام، ولم يستطع أن يتنقل حيث شاء حتى (شهر رمضان عام ٥٥١ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٥٦م)، حين نجح بعض أنصاره في إطلاقه، وحملوه إلى مرو حاضرة خراسان التي اتخذها حاضرة لدولته، لكنه توفي في العام التالي كمداً على ما وصلت إليه بلاده من التدهور والتخريب.

وظلَّت خوارزم في بلاد ما وراء النهر بعيدة عن منأى الحروب، بفعل الصحاري التي أحاطت بها، فلجأ إليها من بقي من أهالي المدن والمزارعين. واستغل بعض أفراد أسرة خوارزمشاه الفرصة ليؤسسوا دولة تركية في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي شبيهة بنظمها بدولة السلاجقة. واستعان الخليفة العباسي الناصر بـ تَكَش زعيم الخوارزمية للقضاء على طغرل الثالث، آخر سلطان سلجوقي

---

(١) Arnold: The Caliphate P 80. (٢) البنداري: ص ٢٦٨.

في العراق، في عام (٥٩٠هـ/ ١١٩٤ م)، ولما حاول الخوارزميون التدخل بعد ذلك في شؤون الخلافة، استعان الخليفة بالمغول للوقوف في وجههم[1].

المرحلة الأخيرة من حكم دولة الخلافة العباسية

٥٩٠ ـ ٦٥٦ هـ/ ١١٩٤ ـ ١٢٥٨ م

الدول الأتابكية

نتيجة لضعف السلاجقة، برزت في أواخر عهدهم ظاهرة قيام دول منفصلة على حسابهم، دارت في فلك دولة الخلافة العباسية، عُرفت بالدول الأتابكية، وهي ذات أصول تركية. نشأ الأتابكة في البلاط السلجوقي نتيجة للنظام الذي استحدثه السلاجقة القائم على شراء المماليك الأتراك وإدخالهم في خدمة القصور السلطانية وبخاصة فيما يتعلق بتربية أبنائهم، بالإضافة إلى تولي الوظائف العامة. وترقَّى هؤلاء في الوظائف الإدارية والعسكرية حتى وصلوا إلى المناصب القيادية، واتخذوا من نشوب النزاعات داخل البيت السلجوقي، بعد وفاة السلطان ملكشاه، فرصة لفرض سيطرتهم على المناطق التي تحت حكمهم، وتسابقوا في توسيع رقعتها كل على حساب الآخر، وبذلك نشأ نزاع أتابكي داخلي سار في خط مواز للنزاع السلجوقي الداخلي، نذكر من هذه الأتابكيات: كيفا، ماردين، دمشق، دانشمند، الموصل، الجزيرة، أذربيجان وفارس. والواقع أنه لن يكون لهذه الأتابكيات إلا دور متواضع في التاريخ لولا أن بعضها قدِّر له أن يؤدي دوراً مميزاً في جهاد الصليبيين، مثل أتابكية الموصل وحلب.

الشرق العربي الإسلامي في مواجهة الصليبيين

غزت الشرق العربي الإسلامي في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي جموع أوروبية لاتينية عُرفت بالصليبيين، فتنافست مع أمراء الأتراك وأتابكتهم في تجزئة بعض أطراف الخلافة، وطبعت المنطقة بطابع خاص طيلة قرنين من الزمن.

وإذا كان لنا أن نذكر بإيجاز طبيعة هذه الحركة الصليبية ودوافعها، نستطيع أن نقول إنها في حقيقة أمرها استمرار للصراع الطويل الذي قام منذ العصور القديمة بين الشرق والغرب، واتخذ في كل عصر شكلاً معيناً يتلاءم ومقتضيات الظروف وإن اتحد في الهدف والغاية.

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص ١٢٧ ـ ١٢٨، ٤٠٠ ـ ٤٠١. الجويني، عطا ملك: تاريخ قاهر العالم جـ١ ص ٢٧٩.

درج المؤرخون على الاهتمام بثمان حملات صليبية، أربع منها اتجهت نحو الأراضي المقدسة في فلسطين وهي الأولى والثانية والثالثة السادسة، واثنتان ضد مصر وهما الخامسة والسابعة، وواحدة ضد القسطنطينية وهي الرابعة، وأما الثامنة فقد نزلت في شمالي أفريقية.

بعد إعلان مولد الحركة الصليبية في كليرمونت على يد البابا أوربان الثاني، في أواخر عام ١٠٩٥ م، بدأت استعدادات التنفيذ. فخرجت الحملة الأولى من أوروبا إلى الشرق العربي الإسلامي، ونجح أفرادها في تأسيس أربع إمارات صليبية في الرها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس، وأخطأ المسلمون في التقدير حين توهموا الصليبيين على شاكلة الروم البيزنطيين.

استغلَّ الصليبيون تدهور أوضاع المسلمين وانقسامهم فسعوا إلى توسيع رقعة نفوذهم، فكانت سراياهم تبلغ «آمد، ونصيبين، ورأس العين، وأما الرقة وحران فكانتا تعيشان على الخوف من استضعاف الفرنج وهجماتهم، وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا الرحبة وبادية الشام، فكان التجار والمسافرون يلقون من المجازفة وركوب المفازة تعباً ومشقة، ويخاطرون بالقرب من الأعراب، بأموالهم وأنفسهم، ثم زاد الأمر، فجعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً وأتاوة يأخذونها منهم ليكفُّوا أيديهم عنهم... وأما حلب فإنهم أخذوا مناصفة أعمالها، وأما باقي بلاد الشام فكان حالها أشد من حال هذه البلاد. وكان ملوك المسلمين عاجزين عن نصرة دينهم»[١] حتى خيِّل للناس ولمن يرقبون تطور الأحداث في بلاد الشام أن الوضع قد صفا للصليبيين.

وظلَّ شريط المدن الكبرى المتاخمة لبلاد الشام في أيدي المسلمين، وتبين لهم على مرِّ الزمن أن المنافذ البحرية التي نزل فيها الصليبيون لا تخلو من الأهمية الاقتصادية، كما أدركوا أن هؤلاء الدخلاء لا يرغبون في الاندماج داخل البيئة المحلية، وأنهم يعاودون القتال بين الحين والآخر، ولم يمارسوا مطلقاً سياسة التسامح.

نتيجة لذلك، أخذت فكرة المقاومة والجهاد تُبعث من جديد، واتسع انتشارها بين عامة المسلمين الذين تألموا مما يشاهدون حولهم من فتور وانقسام سياسي، يحول دون النضال ضد الصليبيين. ومن البديهي ألا يستطيع المسلمون في بلاد الشام مكافحة الصليبيين دون إشراك المسلمين في منطقة الجزيرة والموصل، وهي غنية بالرجال والموارد. وشيئاً فشيئاً انطلقت فكرة الجهاد من الموصل وحلب ثم

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية في الموصل ص ٣٢ ـ ٣٣.

دمشق، وغدت الظروف السياسية والعسكرية تحتم ظهور أمير قوي يتمكَّن من القضاء على تنازع الأمراء المحليين ويوحِّد إماراتهم في جبهة إسلامية واحدة، ثم يتصدَّى للصليبيين، وقد تيسَّر لأتابكة الموصل أن يقوموا بهذا الدور.

الزنكيون والصليبيون[1]

انطلقت أسرة آل زنكي، بقيادة عماد الدين، من الموصل ثم حلب ودمشق، في الربع الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي. فقد ولاَّه السلطان السلجوقي محمَّد في عام (٥٢١هـ/ ١١٢٧ م) الموصل والجزيرة وما يفتحه من بلاد الشام[2].

كان عماد الدين زنكي في بداية حياته أتابكاً، أي مؤدباً، للأميرين السلجوقيين ألب أرسلان وفروخشاه، واتصف بأنه جندي بارع وسياسي لبق، وإداري ممتاز، فاستفاد من هذه الصفات خلال ممارسته الحكم. وبعد أن ثبَّت أقدامه في الجزيرة وشمالي بلاد الشام بضم حلب، ووحَّد بعض أجزاء العالم الإسلامي، هاجم إمارة الرها الصليبية بفعل مجاورتها لإمارة الموصل، ونجح في فتحها، واستعادها من الصليبيين في (شهر جمادى الآخرة عام ٥٣٩ هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٤٤ م)، محققاً بذلك أهم إنجازاته، وعُدَّ هذا الفتح نصراً كبيراً للإسلام[3]. وجرى تطهير الطرق الممتدة بين الموصل وحلب من الوجود الصليبي، وغيَّر هذا الفتح موازين القوى في منطقة الشرق العربي الإسلامي، ودفع المسلمين إلى محاولة استعادة أراضيهم بعدما لمسوا ضعف الكيان الصليبي. شكَّل هذا الفتح صدمة كبيرة للعالم النصراني الغربي. ثم حدث أن قُتل عماد الدين زنكي على يد أحد غلمانه في (شهر ربيع الآخر عام ٥٤١ هـ/ شهر أيلول عام ١١٤٦ م) وهو يحاصر قلعة جَعبر الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الفرات، وكانت في حوزة العقيليين[4].

كان عماد الدين زنكي رؤوفاً برعيته، معنياً بمصالحهم، كما كان محط أنظار الضعفاء لينصرهم على حكامهم المتعسفين. وساد العدل في أيامه، واطمأن الناس إلى سلامتهم الشخصية.

اقتسم ابنا عماد الدين زنكي وهما: سيف الدين غازي ونور الدين محمود،

---

(١) انظر فيما يتعلَّق بالعلاقات الزنكية ـ الصليبية بخاصة، وتاريخ الزنكيين بعامة كتابنا: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٩ ص ٧ ـ ٨. (٣) ابن الأثير: الباهر ص ٦٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ٩ ص ١٤٢.

إرث والدهما، فحكم الأول القسم الشرقي ومقره الموصل، وحكم الثاني القسم الغربي متخذاً من مدينة حلب قاعدة لحكمه[١]، وقد ورث المشكلتين الكبيرتين اللتين صرف عماد الدين زنكي معظم أيامه في معالجتهما، وهما قضية دمشق التي كان يحكمها البوريون المتعاونون مع الصليبيين، والإمارات اللاتينية المختلفة.

اتسم نور الدين محمود، في نظر معاصريه وعند الأجيال اللاحقة، بسمة كبرى هي حميته الدينية المتأججة التي استطاع أن يبثها بين المسلمين، وصمَّم إلى جانب هذه الحمية، على إعادة الوحدة الروحية للإسلام وذلك بتعزيز المدارس السنية، وأعلن أن النصر مرهون بوحدة المسلمين السياسية، وهذا معناه عزل الأمراء المتقاعسين عن الجهاد أو المتعاونين مع الصليبيين. وكانت أتابكية دمشق تقف حجر عثرة أمام محاولاته لتحقيق الوحدة الإسلامية. ونجح بعد عدة محاولات في ضمِّ دمشق في عام (٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م)[٢] محققاً بذلك وحدة المسلمين في بلاد الشام تحت زعامته، وشكل ذلك أمراً بالغ الخطورة على أوضاع الصليبيين في بيت المقدس بشكل خاص. ثم التفت إلى تصفية الإمارات الصليبية، بعد أن صدَّ الحملة الصليبية الثانية التي قدمت إلى الشرق نتيجة سقوط إمارة الرها، ففتح عدة مدن في بلاد الشام، وحصر الصليبيين داخل المنطقة الجبلية الواقعة إلى الغرب من الأردن والعاصي[٢].

ودخل نور الدين محمود في صراع دام مع إمارة بيت المقدس حول مصر التي كانت تتخبط، في هذه الأثناء، في الفوضى والاضطراب بفعل التنازع على منصب الوزارة في ظل ضعف الحكام الفاطميين. وقد هدف نور الدين محمود إلى تحقيق غايتين: سياسية واقتصادية، ذلك أن ضمَّ مصر إلى بلاد الشام سيتيح له حصار مملكة بيت المقدس من الشمال والجنوب، وفي المقابل فإن وقوعها في أيدي ملك بيت المقدس عموري الأول من شأنه أن يحاصر بلاد الشام من الجنوب والشمال، مما يشكل تهديداً خطيراً لحركة الوحدة الإسلامية. بالإضافة إلى ذلك، فإنه لم يغب عن تفكيره تجارة مصر الضخمة وميناء الإسكندرية الكبير وحركة التجارة العالمية التي تمر عبر هذا البلد الذي يتحكم في أقصر وأفضل طرق التجارة بين الشرق والغرب[٣].

برزت في هذا الصراع الأسرة الأيوبية التي عملت في خدمة عماد الدين زنكي

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٣ ـ ١٤.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص ١٠٧.

(٣) Stevenson: The Crusaders in the East pp 185-186. Ehrenkreuz, A. S: Saladin pp 17-18. Elisseéff: Nour Addin: II P 585.

وابنه نور الدين محمود، وهي عشيرة كردية، قُدِّر لها أن تبلغ من القوة ما مكَّنها من أداء دور مهم في الصراع الإسلامي ـ الصليبي في المشرق العربي على يد أشهر رجالها صلاح الدين، وقد صحب عمه أسد الدين شيركوه في حملاته على مصر، وكان نور الدين محمود قد أرسله إليها لضمِّها إلى الدولة الزنكية.

نجح أسد الدين شيركوه في السيطرة على مصر وتولى وزارتها، وخلفه صلاح الدين بعد وفاته، فقضى على الدولة الفاطمية بناء على إلحاح نور الدين محمود، وقطع الخطبة للعاضد الفاطمي في أول جمعة من (شهر محرم عام ٥٦٧ هـ/ شهر أيلول عام ١١٧١ م)، وأقامها للخليفة العباسي المستضيء[١].

كان صلاح الدين ذا نزعات استقلالية، فأراد أن ينفرد بحكم مصر، مما أدخله في حالة من الجفاء مع نور الدين محمود الذي عدَّه نائباً عنه في حكم مصر. وتوفي نور الدين محمود في (شهر شوال عام ٥٦٩ هـ/ شهر أيار عام ١١٧٤ م)، وخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل، وكان قاصراً، فخشي صلاح الدين أن تؤول الأمور إلى الوصي عليه، ورأى أنه أحق بالوصية[٢]، لذلك خرج إلى بلاد الشام لضمِّها إلى مصر منتهجاً سياسة عماد الدين زنكي ونور الدين محمود في توحيد العالم الإسلامي، والتصدي للصليبيين بهدف إخراجهم من المنطقة، ونجح في تحقيق الشق الأول من خطته بعد وفاة الصالح إسماعيل في عام (٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م)[٣]، واتجه إلى تحقيق الشق الثاني.

الأيوبيون والصليبيون

عرف الغرب الأوروبي شخصية صلاح الدين معرفة جيدة بعد أن أتاحت الحملة الصليبية الثالثة لصلاح الدين أن يتقابل مع الملك الفرنسي فيليب أوغست والملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد. ولعل شخصية صلاح الدين كانت أكثر جاذبية من شخصية نور الدين محمود، حتى أنها حجبتها أحياناً عن الأجيال اللاحقة، إلا أن الرجلين انتهجا سياسة متشابهة، بل إن صلاح الدين هو الذي اقتدى بنور الدين محمود وذهب إلى أبعد مما ذهب إليه.

كان الصليبيون يعتدون باستمرار على مناطق الحدود الإسلامية في بلاد الشام،

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٣٦٤. ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب جـ ١ ص ١٦٣. ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٣٤١.

(٢) ابن واصل جـ ٢ ص ٧، ١٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٤٥٤.

فحاول صلاح الدين أن يوقف تقدمهم في فلسطين، لكنه مُني بهزيمة قرب تل الجزر إلى الجنوب الشرقي من الرملة في (شهر جمادى الأولى عام ٥٧٣ هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١١٧٧ م)(١)، ولم يستطع أن يثأر لنفسه إلا بعد سنتين، إذ انتصر على الملك بلدوين الرابع في معركة قرب تل القاضي في سهل مرجعيون بين نهر الليطاني والمجرى الأعلى لنهر الأردن في (شهر ذي الحجة ٥٧٤ هـ/ شهر أيار عام ١١٧٩ م)(٢).

ولم يسع الملك بلدوين الرابع، نتيجة انتصارات صلاح الدين المتلاحقة، سوى أن يطلب عقد هدنة لمدة سنتين، فوافق صلاح الدين على ذلك في (شهر ذي الحجة عام ٥٧٥ هـ/ شهر أيار عام ١١٨٠ م)(٣).

كان لزاماً على مملكة بيت المقدس، التي كانت تمر في وضع حرج، نتيجة ما وقع من شجار بين صغار الأمراء الصليبيين، أن تحافظ على الهدنة، غير أن رينولد شاتيون حاكم الكرك لم يكن بوسعه أن يفهم كل سياسة تتعارض مع رغباته، وساءه أن يرى القوافل التجارية الإسلامية تسير مطمئنة قرب إقطاعه، فراح يهاجمها ناقضاً بذلك شروط الهدنة، وتمادى في تصرفاته حتى أنه قام في عام (٥٧٨هـ/ ١١٨٢ م) بتنفيذ مشروع لمهاجمة مكة والمدينة(٤).

لم يكن باستطاعة صلاح الدين أن يغض الطرف عن هذا كله، فعزم في أوائل عام (٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م) أن يهاجم المعتدين. واستطاع رينولد شاتيون وأصحابه أن يقنعوا جاي لوزينان ملك بيت المقدس بحشد الجيش الملكي في إقليم ما وراء نهر الأردن للانقضاض على صلاح الدين عند قدومه من مصر.

والتقى الطرفان في سهل حطين قرب طبرية، وهناك أنزل صلاح الدين بالجيوش الصليبية هزيمة قاضية في (شهر ربيع الآخر عام ٥٨٣ هـ/ شهر تموز عام ١١٨٧ م)، وأسر جاي لوزينان ملك بيت المقدس، ورينولد شاتيون، وكثيراً من الأمراء الصليبيين(٥)، ومن ثم تساقطت حصون الصليبيين في أيدي المسلمين بعد أن

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٤١ ـ ١٤٢.

(٢) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية جـ ٢ ص ١٠ ـ ١١.

(٣) وليم الصوري: تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار جـ ٢ ص ١٠١٧.

(٤) أبو شامة: جـ ٢ ص ٧٥. ابن واصل: جـ ٢ ص ١٢٧ ـ ١٣٠. المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك جـ ١ ص ٧٩.

(٥) ابن الأثير جـ ١٠ ص ٢٤ ـ ٢٦.

أخلتها حامياتها، ووصل صلاح الدين وجنوده إلى أبواب بيت المقدس التي اضطرت إلى الاستسلام في (شهر رجب/ شهر أيلول)، ثم تابع عمله الجهادي للقضاء على آخر آثار الحكم الصليبي في المشرق العربي الإسلامي، لكن صمدت صور وطرابلس في وجهه[(١)].

أحيى سقوط بيت المقدس، في أوروبا الغربية، فكرة إرسال حملة إلى الشرق، فحمل الصليب كل من فريدريك الأول بربروسا ملك ألمانيا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا، لكن هذه الحملة الصليبية الثالثة لم تحقق إنجازات تذكر، وانتهى الأمر باتفاق صلح الرملة الذي عقد في (شهر شعبان عام ٥٨٨ هـ/ شهر أيلول عام ١١٩٢ م)، احتفظ صلاح الدين بموجبه بفتوحه حتى اللد والرملة وعسقلان، وسمح للنصارى بزيارة القدس حجاجاً عزّلاً من السلاح، ولم يترك للصليبيين سوى بعض التحصينات الساحلية[(٢)].

لم ينعم صلاح الدين بهذا الصلح، فقد توفي بعد بضعة أشهر في (شهر صفر عام ٥٨٩ هـ/ شهر شباط عام ١١٩٣ م)[(٣)]، وكان قد قسَّم دولته قبل وفاته بين أولاده وأخيه العادل. ولم تكد تنقضي سنة واحدة على وفاته حتى دبَّ الخلاف بين هؤلاء الورثة، واستطاع أخوه القضاء على أولاده واحداً بعد آخر. وقُدِّر لذرية صلاح الدين في حلب البقاء حتى الغزو المغولي في عام (٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م).

ونجح الملك العادل في توحيد معظم أجزاء الإرث الأيوبي، واستطاع الأيوبيون على الرغم من هذه القلاقل أن يحافظوا على البلاد في حوزتهم من عدوان الصليبيين، وينتهجوا معهم سياسة سلمية. فقد أظهرت الحملات الصليبية اللاحقة قوة مقاومة اللاتين، كذلك تأثر السكان بفوائد العلاقات التجارية السلمية. ولئن نُقض الصلح أحياناً، فقد كان ذلك بمبادرة من الغرب الأوروبي الذي أراد أن ينتزع بيت المقدس من المسلمين.

وانتقل مركز الثقل في العالم الإسلامي آنذاك إلى الديار المصرية التي انطلقت منها حملات صلاح الدين ضد الصليبيين، لذلك كانت هدفاً لهؤلاء، وقد أغارت عليها الحملة الصليبية الخامسة في عام (٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م) بقيادة الملك يوحنا بريين، ونزل أفرادها في دمياط، ثم اضطروا إلى الانسحاب تحت وطأة الضغط

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣١ ـ ٣٢.

(٢) المصدر نفسه: جـ ١٠ ص ١١١ ـ ١١٢. أبو شامة: جـ ٢ ص ٢٠٣. ابن واصل: جـ ٢ ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ١١٨.

العسكري الإسلامي، ومات الملك العادل كمداً، قبل ذلك[١].

ورغب الملك الكامل بن العادل الأيوبي في تحقيق السلام، وقد صادفت هذه الفكرة تأييداً من فريدريك الثاني ملك صقلية وأمبراطور ألمانيا الذي قدم إلى الشرق على رأس حملة عسكرية في عام (٦٢٥ هـ/ ١٢٢٨ م). وبلغت هذه الرغبة من القوة أن أعاد الكامل إلى الأمبراطور الألماني بيت المقدس، وبيت لحم، والناصرة، وممرين يوصلان إلى كل من يافا وصيدا، مشترطاً مقابل ذلك نزع السلاح فيها، وضمان حرية ممارسة الشعائر الدينية، وتعهَّد الصليبيون باحترام ممتلكاته في بلاد الشام[٢]، على أن يستمر هذا التدبير ما دامت الهدنة قائمة.

استفاد الكامل من الصلح الذي دفع ثمنه في فلسطين، فانصرف إلى نشر سلطانه في الشمال على حساب دولة سلاجقة الروم التي قامت في الأناضول، فأثار بذلك حفيظة أخيه الملك الأشرف في دمشق[٣]. ولما وصل الكامل إلى أبواب دمشق لمحاربة أخيه توفي الأشرف، ولم يلبث الكامل أن توفي هو الآخر في عام (٦٣٥ هـ/ ١٢٣٨ م)، فخلفه ابنه الملك العادل الثاني. ولم تنقض سنتان حتى ثار عليه أخوه الملك الصالح أيوب، وأخرجه من مصر[٤]. ثم أن الملك الصالح استطاع بقوة من الأتراك الخوارزمية الفارين من وجه جنكيز خان أن يستعيد بيت المقدس في عام (٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م) من يد ابن عمه الناصر داوود ابن الملك المعظم أمير الكرك، وكان هذا قد سيطر عليها بعد انقضاء أجل الهدنة المعقودة مع فريدريك الثاني[٥].

وقُدِّر للملك الصالح أن يوحِّد من جديد دولة صلاح الدين بكاملها تقريباً حتى حلب والجزيرة العليا، وحفل عهده بالصراع الداخلي ضد منافسيه من البيت الأيوبي، وضد الصليبيين، بالإضافة إلى الخوارزمية المرتزقة.

وفي الوقت الذي كان فيه الملك الصالح يتجهَّز لمحاربة يوسف الثاني صاحب حلب، جاءته الأنباء بغزو الصليبيين لمصر مرة أخرى بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا المعروف بالقديس، واحتل جنوده دمياط في (شهر ربيع الأول عام ٦٤٧ هـ/ شهر تموز عام ١٢٤٩ م)[٦]، وكان الملك الصالح آنذاك مريضاً حتى إذا توفي

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٢٦.
(٢) المصدر نفسه: ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥.
(٣) ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.
(٤) المصدر نفسه: ص ٣٠٠. أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٦٨.
(٥) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣١٦.
(٦) المصدر نفسه: ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥، ٣٤٦. ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠. Joinville; p 90.

في (شهر شعبان/ شهر تشرين الثاني) كتمت امرأته شجرة الدر خبر وفاته إلى أن حضر ابنه المعظم توران شاه من الجزيرة الفراتية، مصطحباً مماليكه، ونجح في استرجاع دمياط من الصليبيين وأسر الملك لويس(١).

أثارت تصرفات توران شاه ومماليكه مماليك مصر، فقتلوه ونصبوا شجرة الدر ملكة على أن يكون عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحي، الذي لُقِّب بـ المعز، أتابك العساكر، وما لبث أن تزوج شجرة الدر التي بسطت سلطانها المطلق على مصر(٢).

وبذلك زالت الدولة الأيوبية في مصر لأن شجرة الدر حكمت في مرحلة انتقالية سيطر بعدها المماليك على مقاليد الأمور مما سنبحثه في فصل لاحق.

سقوط بغداد على يد المغول

لم يكن المغول إلا مجموعة من القبائل الرحل نشأت في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمالي صحراء جوبي، وعاشت على روافد نهر عامور، وسيطرت على الأراضي الواقعة بين بحيرة بيكال في الغرب وجبال گنجان على حدود منشوريا في الشرق(٣).

نبغ من بين أفراد المغول تيموجين، الذي اختارته القبائل المغولية أمبراطوراً عليها، واتخذ اسم جنكيزخان أي قاهر العالم. أنشأ جنكيزخان أمبراطورية مترامية الأطراف، امتدت من بلاد الصين شرقاً حتى حدود العراق وبحر الخزر وبلاد الروس غرباً، وبلاد الهند جنوباً.

واستأنف المغول، بعد وفاة أمبراطورهم في (عام ٦٢٤ هـ/ ١٢٢٧ م)، زحفهم باتجاه مناطق غربي آسيا ضمن سياسة توسعية. فقد عهد منكوخان الذي تسلم الزعامة المغولية في عام (٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م)، إلى أخيه هولاكو بقيادة حملة على فارس، وأوصاه ببسط السيادة المغولية على البلاد الممتدة من العراق حتى أقاصي مصر، وحدَّد له إطار العلاقة مع الخليفة العباسي، فإذا عصى فعليه التخلص منه(٤).

وساعدت ظروف بغداد السيئة آنذاك، بفعل تعدد مراكز القوى، وعدم جدِّية الخليفة المستعصم في إدارة الشؤون العامة(٥)، القائد المغولي من دخول المدينة في

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٧٣ ـ ٣٧٥.

(٣) الجويني: جـ ١ ص ٦٠.

(٤) رشيد الدين: جامع التواريخ، تاريخ المغول في إيران جـ ٢ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٥) ابن الطقطقا: ص ٣٣٣.

(شهر صفر عام ٦٥٦ هـ/ شهر شباط عام ١٢٥٨ م)، فهدمها وقتل الخليفة[١].

وبسقوط بغداد، ومقتل الخليفة العباسي انتهت دولة الخلافة العباسية. ويبقى أن نذكر أن هذه الأحداث جعلت منصب الخلافة شاغراً يتطلع إليه كل زعيم طموح. فلما تولى السلطان المملوكي الظاهر بيبرس عرش مصر نصَّب أحد أفراد الأسرة العباسية خليفة في مصر في عام (٦٥٩ هـ/ ١٢٦١ م)، وقد هدف إلى إضفاء الصفة الشرعية على حكمه بفضل التقليد الذي حصل عليه من الخليفة. واستمر هذا الوضع قائماً في مصر إلى أن ضمَّها السلطان سليم الأول العثماني في عام (٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م)، وأنهى هذه الظاهرة، فانتقلت الخلافة إلى بني عثمان كما سنرى.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٠١ ـ ٢٠٥.

الفصل السادس

العصر الأندلسي

(٩٥ ـ٨٩٧ هـ/ ٧١٤ ـ ١٤٩٢ م)

عهد الولاة الأمويين: ٩٥ ـ ١٣٨ هـ/٧١٤ ـ ٧٥٦ م

عهد الإمارة الأموية: ١٣٨ ـ ٣٠٠ هـ/ ٧٥٦ ـ ٩١٢ م

تمهيد

أحوال الأندلس قبل الفتح الإسلامي

كان فتح إسبانيا[١] متصلاً في كثير من جوانبه بسياسة الفتوح في المغرب، والأسباب التي دفعت المسلمين إلى عبور المضيق تتصل مباشرة بالظروف السياسية والاجتماعية والدينية التي عاشتها إسبانيا قبل الفتح.

فمن حيث الظروف السياسية، كانت إسبانيا تحت حكم القوط الغربيين منذ القرن السادس الميلادي، وعاصمتهم مدينة طليطلة. وشهدت البلاد منذ بداية القرن الثامن الميلادي تدهوراً حاداً بفعل الصراع على العرش بعد وفاة الملك غيطشة في عام (٨٩ هـ/ ٧٠٨ م)، بين ابنه أخيلا ولذريق أحد قادة الجيش الذي تمكَّن من اعتلاء العرش بمساعدة النبلاء ورجال الدين[٢]، الأمر الذي أدَّى إلى انقسام حاد في البلاد، وفقدان الوحدة السياسية والنظام مما جعلها أرضاً سهلة للفتح.

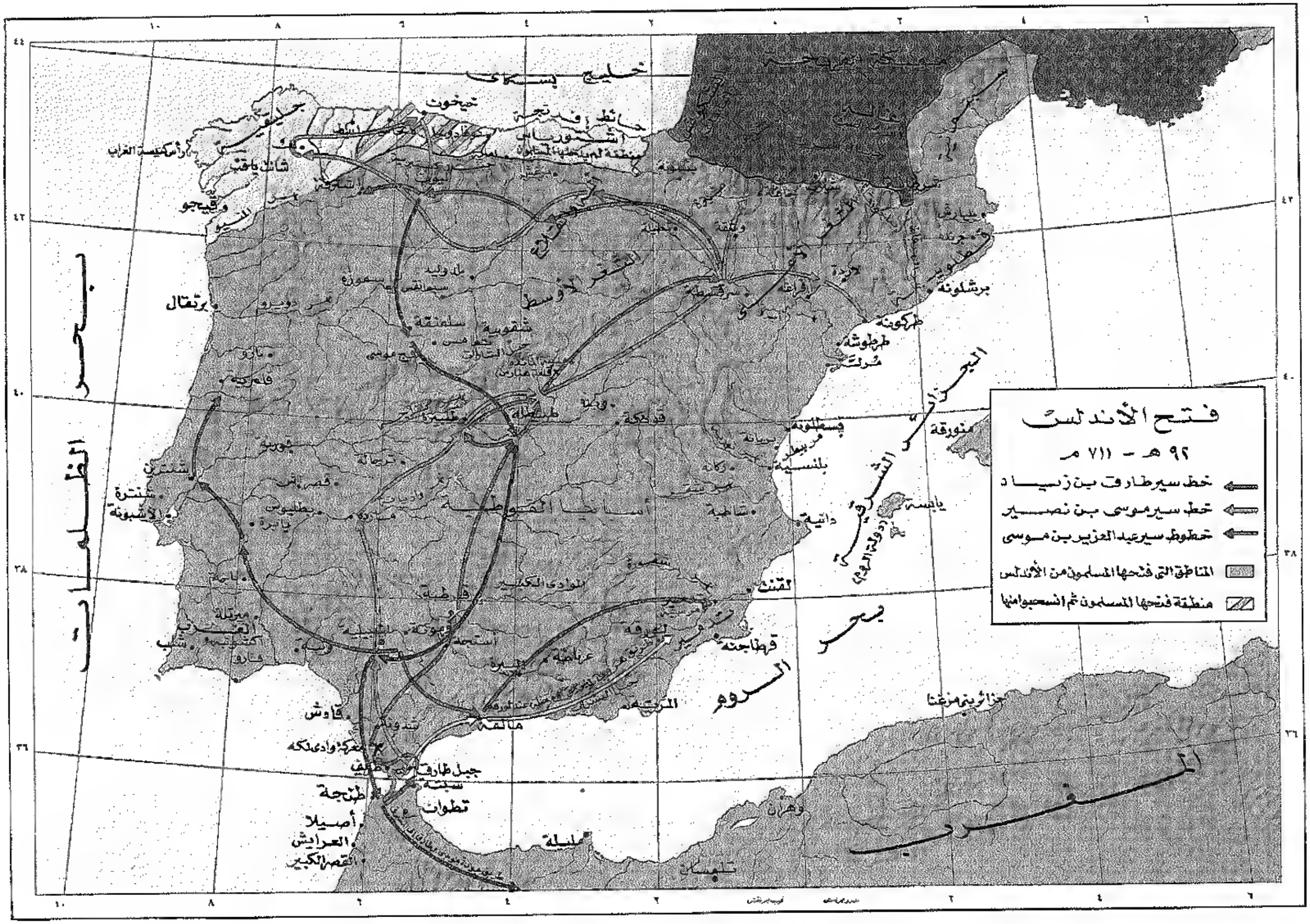
يضاف إلى هذا العامل السياسي، عامل جغرافي يتمثل بالجمع بين شاطئي المضيق من حيث البيئة بفعل أن إسبانيا أكثر انفتاحاً على المغرب.

ومن حيث الظروف الاجتماعية، فقد كانت على غاية من السوء بفعل انقسام

---

(١) أعطت قبائل الوندال الجرمانية، التي استقرت في السهل الجنوبي لإسبانيا في القرن الخامس الميلادي؛ المنطقة اسمها «ڤاندلوسيا»، وعرَّب المسلمون هذا الاسم إلى الأندلس.

(٢) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم ص ٥.



فتح الأندلس (٩٢هـ/٧١١م)

المجتمع الإسباني إلى طبقات، واستغلال الطبقة الأعلى للطبقة الأدنى منها، وفُقد الانسجام بين هذه الطبقات مما أوجد تنافراً بينها، وفشلت الطبقة الحاكمة في خلق مجتمع متجانس وطني الانتماء.

واستغلِ رجال الدين مركزهم الديني المتميز فاستمتعوا بقسط وافر من النفوذ والسلطان، وأثقلِت الطبقة الوسطى بالضرائب، وارتبطت الطبقة الدنيا من المزارعين والعبيد بالأرض.

ووجدت في المجتمع الإسباني طائفة من اليهود عمل أفرادها في الصيرفة والشؤون المالية، إلا أن أفرادها كانوا مكروهين بسبب اختلاف عقيدتهم وتقاضيهم الربا.

ومن حيث الظروف الدينية، فقد كان الشعب الإسباني، باستثناء اليهود، يدين بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي الذي فرضه رجال الدين، وحرَّموا انتشار أي مذهب آخر.

عمليات الفتح

كان الفتح الإسلامي لإسبانيا نتيجة خطة موضوعة نوقشت بين الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك وقائده على شمالي إفريقية موسى بن نصير، وقد أقرَّها الأول. ويبدو أنه كان لسياسة الدولة الإسلامية وعلاقتها بالبيزنطيين، وتأثير الحملة على هذه العلاقات، وبخاصة في المجال البحري والسيطرة على الجزر في الحوض الغربي للبحر المتوسط، تأثير على قرار الخليفة[١].

وبعد نضوج الظروف التي هيأت للمسلمين انتصاراً آخر، أرسل موسى بن نصير أحد ضباطه، ويدعى طريف بن مالك المعافري، على رأس قوة عسكرية إلى ساحل إسبانيا الجنوبي في مهمة استطلاعية وذلك في عام (٩١ هـ/ ٧١٠ م). نزل طريف في جزيرة بالوماس[٢]، وأغار على المناطق المجاورة، وأصاب سبياً كثيراً وعاد محملاً بالغنائم[٣]، وأقنعته هذه الحملة بضعف وسائل الدفاع الإسباني.

شجع نجاح طريف موسى بن نصير، فأرسل في (شهر رمضان عام ٩٢ هـ/ شهر حزيران عام ٧١١ م) قوة عسكرية قوامها سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد نائبه على طنجة[٤].

---

(١) بيضون، إبراهيم: ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.
(٢) سميت الجزيرة باسمه وأضحت تُعرف بجزيرة طريف.
(٣) أخبار مجموعة: ص ٦.
(٤) المصدر السابق.

عبر طارق المضيق ونزل تجاه الجزيرة الخضراء عند صخرة الأسد، وسيطر على الجبل الذي حمل اسمه منذ ذلك الوقت، ثم تقدم باتجاه الغرب حتى بلغ بحيرة خندة جنوبي غربي إسبانيا، التي يقطعها نهر برباط عبر وادي لكة الشهير، وعسكر هناك. وعلم بواسطة جواسيسه بأنباء الحشود الضخمة التي حشدها لذريق، والذي كان يتقدم باتجاه القوات الإسلامية للاصطدام بها، فطلب نجدة من موسى، فأمدَّه بخمسة آلاف جندي[١]. والتقى الجيشان عند وادي لكة في (شهر شوال عام ٩٢ هـ/ شهر تموز عام ٧١١ م) وجرت بينهما رحى معركة ضارية انتهت بانتصار المسلمين وتمَّ القضاء على الجيش القوطي ومعه الملك[٢].

استغل المسلمون هذا الانتصار فتوغلوا في البلاد وفتحوا قرطبة وطليطلة في أوائل عام (٩٣ هـ/ ٧١٢ م) وشذونة والبيرة وغيرها من المدن[٣]. وكتب طارق إلى موسى يخبره بما حقَّق من انتصارات، وما فتحه من مدن، مما شجَّعه على العبور هو الآخر في (شهر رمضان عام ٩٣ هـ/ شهر حزيران في ٧١٢ م)، وفتح مدناً أخرى مثل قرمونة وإشبيلية، وصالحته ماردة[٤]، وامتدت فتوحه إلى برشلونة شرقاً وأربونا في الجوف وقادش في الجنوب، وجيليقية في الشمال الغربي.

ثم اجتمع القائدان المسلمان في مدينة طلبيرة لتقويم ما تمَّ إنجازه من خطة الفتح، وما سيتم فتحه في المستقبل[٥]، واشتركا معاً في فتح مدينة سرقسطة في إقليم أراغون، وبرشلونة. واخترق موسى جبال البرينييه الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا، فغزا ولاية سبتمانيا، وفتح قرقشونة وناربون، كما غزا وادي نهر الرون في بلاد الفرنجة، ووصل إلى مدينة ليون، في حين اجتاز طارق وادي الأبرو وغزا جيليقية[٦].

وتلقَّى في هذه الأثناء، كل من موسى وطارق، أمراً من الخليفة بوقف العمليات العسكرية والعودة فوراً إلى دمشق، وعيَّن الأول قبل مغادرته ابنه عبد العزيز حاكماً على الأندلس نيابة عنه[٧].

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٧.

(٢) المصدر نفسه. ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب جـ ٢ ص ٨ ـ ٩. دوزي: المسلمون في الأندلس جـ ١ ص ٤٥.

(٣) ابن عذارى: المصدر نفسه: ص ٩ ـ ١٧.

(٤) أخبار مجموعة: ص ١٥ ـ ١٧. ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس: ص ٧٧ ـ ٧٨.

(٥) عنان، محمَّد عبد اللَّه: دولة الإسلام في الأندلس: العصر الأول، القسم الأول ص ٥٢.

(٦) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٦ ـ ١٧.

(٧) ابن القوطية: ص ٧٨.

تقسيم التاريخ الأندلسي

استناداً إلى وقائع التاريخ الأندلسي، يمكن تقسيم هذا التاريخ إلى أربعة عهود متميزة، لم تكن على مستوى واحد من القدرات السياسية والعسكرية، وتراوحت بين القوة والضعف وهي:

١ ـ عهد الولاة الأمويين: (٩٥ ـ ١٣٨ هـ/ ٧١٤ ـ ٧٥٦ م)

وهو عهد مضطرب شهد غزوات خارجية ضد جنوبي فرنسا، وفتناً داخلية بين العرب والبربر من جهة، وبين العرب أنفسهم من جهة أخرى. وكانت الأندلس آنذاك، إمارة تابعة للخلافة الأموية، يحكمها والٍ يُعرف بالأمير، يتبع أمير إفريقية من الناحية الإدارية.

٢ ـ عهد الإمارة الأموية: (١٣٨ ـ ٣٠٠ هـ/ ٧٥٦ ـ ٩١٢ م)

كانت الأندلس في هذا العهد إمارة أموية مستقلة سياسياً عن الخلافة العباسية في بغداد.

٣ ـ عهد الخلافة الأموية: (٣٠٠ ـ ٤٢٢ هـ/ ٩١٢ ـ ١٠٣١ م)

تحوَّلت الإمارة الأموية في هذا العهد إلى خلافة مستقلة روحياً عن الخلافة العباسية في بغداد.

٤ ـ عهد دول الطوائف: (٤٢٢ ـ ٨٩٧ هـ/ ١٠٣١ ـ ١٤٩٢ م)

ينقسم هذا العهد إلى ثلاث مراحل زمنية هي:

أ ـ مرحلة ملوك الطوائف: (٤٢٢ ـ ٤٧٩ هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٨٦ م).

تفككت الدولة في هذه المرحلة إلى دويلات طائفية ضعيفة ومتنازعة.

ب ـ مرحلة السيطرة المغربية: (٤٧٩ ـ ٦١٢ هـ/ ١٠٨٦ ـ ١٢١٥ م).

تحولت الأندلس خلال هذه المرحلة إلى ولاية تابعة للمغرب في عهد المرابطين والموحدين.

جـ ـ مرحلة حكم بني نصر أو بني الأحمر: (٦١٢ ـ ٨٩٧ هـ/ ١٢١٥ ـ ١٤٩٢ م).

هي آخر مرحلة إسلامية في الأندلس حيث سقطت بعدها في أيدي الإسبان.

عهد الولاة الأمويين

(٩٥ ـ ١٣٨ هـ/ ٧١٤ ـ ٧٥٦ م)

المجتمع الأندلسي بعد الفتح الإسلامي

كان الفتح الإسلامي لإسبانيا فاتحة عصر جديد في حياتها العامة وفي نظمها

الاجتماعية. وحمل الإسلام للعباد العدل والحرية والمساواة في الحقوق والواجبات، وقضى على نفوذ الطبقات العليا، وخفَّف عن كاهل الطبقات الدنيا ما كانت تنوء به من الأعباء والمغارم، وتمتَّع أهل البلاد من النصارى واليهود بالحرية الدينية لقاء دفع الجزية. والواقع أن أوضاع الذميين لم تكن مما يدعو إلى كثير من الشكوى بالمقارنة مع ما كانت عليه أوضاعهم قبل الفتح.

غير أن المجتمع الذي نشأ بعد الفتح، حمل في طياته البذرة الجنينية للخلافات الخطيرة التي شهدها هذا العهد، بما انضوى تحته من عناصر ذات أهواء وميول متنافرة.

كانت القبائل العربية لا تزال تضطرم بنار العصبية القديمة بين القيسية واليمنية، وهيمنت الروح القبلية على نفوس الذين دخلوا مع موسى بن نصير.

وكان البربر الذين تحمَّلوا العبء الأكبر في فتح إسبانيا، ويشكلون غالبية القوى المسلحة، ينفرون من قادتهم ورؤوسائهم العرب، وينقمون عليهم لاستئثارهم بالنفوذ والإقطاعات الغنية، وأدى استمرار تدفقهم من شمالي إفريقية؛ أن بدأوا يشعرون بقوتهم منذ عهد مبكر، لذلك لم يكن مستغرباً أن يقوموا بثورات ضد هذا الوضع الذي عدُّوه شاذاً.

ولم يكن المسلمون الإسبان، وهم المولدون، وحديثو عهد بالإسلام؛ على نمط واحد من التفكير، فكان فيهم من يشعر دائماً بأنه أدنى اجتماعياً من العرب، ويشكل هؤلاء أقليةٍ ضئيلة العدد، أما معظمهم فكانوا صادقي التعلُّق بالإسلام، لكن العرب كانوا يشكُّون في ولائهم، فأبعدوهم عن تولي المناصب العليا، فأنف المولدون من هذا الوضع، وكانوا يشعرون بمكانتهم، وبما لديهم من القوة المادية لأنهم يؤلفون غالبية السكان؛ مما أدَّى إلى قيامهم بثورات في جميع الولايات والمدن الكبرى.

والواقع أن السياسة القبلية، التي كان مصدرها غالباً القيروان، تحكَّمت في أحداث الأندلس، وانعكست على ما كان يجري فيها من تطورات داخلية وخارجية.

الأوضاع السياسية العامة

تسلم عبد العزيز حكم الأندلس بتكليف من والده موسى بن نصير، وأقرَّ الخليفة سليمان بن عبد الملك هذا التدبير. كان عبد العزيز حاكماً ناجحاً، رافق والده في معظم حملاته العسكرية، واكتسب منه خبرة في العمل الإداري، وأبدى حين تسلَّم الحكم رغبة صادقة في تنظيم الإدارة الجديدة، فأنشأ ديواناً لتطبيق

الأحكام الشرعية وتنسيقها لاستقطاب المسلمين من مختلف القبائل، وشجَّع الزواج بين العرب والإسبان لخلق مجتمع متجانس، فتزوج هو من إيجلونا امرأة لذريق[1]. وانتعشت في عهده الحياة الزراعية والصناعية والتجارية، بما وفد على الأندلس من المهاجرين من مصر وبلاد الشام والعراق. وعلى الرغم من ذلك فإن عبد العزيز لم يستطع أن يوفِّق بين مختلف القبائل، ولا أن يهدِّىء من تذمر الجند، واتُّهم بأنه وقع تحت تأثير زوجته، بحيث أصبحت عادات القوطيين تنعكس على معتقداته ونمط حياته، ودفعته إلى التفكير بالانفصال عن دمشق والاستقلال بالأندلس[2]، وعلى الرغم من أنه ليست لدينا أدلة قاطعة لنزعاته الاستقلالية، فإنه يبدو ممكناً في الظروف التي كانت تعيشها إسبانيا آنذاك[3]، واستنكر خصومه تصرفاته هذه ثم تمادوا فقتلوه أثناء صلاته بأحد مساجد إشبيلية في (شهر رجب عام ٩٧ هـ/ شهر آذار عام ٧١٦ م). ويبدو أنه وقع ضحية اغتيال أعدته الخلافة في دمشق، ويُفترض أن لهذا الحادث علاقة بموقف الخلافة من أبيه، والقضاء على طموح أسرته في تلك البلاد النائية[4].

كانت حادثة اغتيال عبد العزيز فاتحة عهد مضطرب ومشوش في تاريخ الولاية الأموية على مدى اثنين وأربعين عاماً، أبرز سماته عدم الاستقرار السياسي والتناقضات القبلية والعنصرية بين العرب أنفسهم، ثم بينهم وبين البربر[5]، التي وجدت طريقها إلى الانفجار بعد ذلك. والواقع أن المشكلة السياسية التي كانت تعاني منها الأندلس آنذاك تتمثَّل في انقسام المجتمع الأندلسي إلى أحزاب وتكتلات قبلية متعددة الانتماءات لا يجمع بينها سوى التنافس على الحكم.

على أثر مقتل عبد العزيز اتفق الزعماء في إشبيلية على تولية أيوب بن حبيب اللخمي، وهو ابن أخت موسى بن نصير، الذي حكم البلاد مدة ستة أشهر فقط حيث عزله محمد بن يزيد والي إفريقية، وعيَّن بدلاً منه الحر بن عبد الرحمن الثقفي. كانت فاتحة أعماله نَقْل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة، لأن موقع الأولى متطرف نحو الغرب، بينما تقع الثانية في قلب الأندلس، مما يسهل عليه ضبط البلاد. ثم

---

(١) Levi Provençal: Histoire de L'Espagne Musulman I P 33.

ابن الأثير: جـ ٤ ص ١٤٤. ابن عبد الحكم: ص ٨٣ ـ ٨٤. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٣.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه. (٣) عنان: ص ٧٢.

(٤) ابن الأثير: جـ ٤ ص ١٤٤. ابن القوطية: ص ٧٨ ـ ٧٩. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٤.

(٥) بيضون، إبراهيم: الدولة العربية في إسبانيا ص ٩٠.

انهمك في قمع الفتن والمنازعات التي كانت ناشبة بين العرب والبربر، وإصلاح الجيش، ومطاردة الخوارج، وتنظيم الإدارة، وتوطيد الأمن، قبل أن يتفرغ للفتوح الخارجية، لكن الحر فشل في مهمته. وازدادت النزاعات حدة مما دفع الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عزله في عام (١٠٠ هـ/ ٧١٩ م)، واختار بدلاً منه السمح بن مالك الخولاني، وقرَّر هذا الخليفة أن تكون الأندلس ولاية مستقلة عن إفريقية وتابعة للخلافة مباشرة، وذلك بفعل ما أدركه من أهميتها واتساع شؤونها[١].

قدم السمح إلى الأندلس مزوداً بنصائح من الخليفة، تتعلق باتباع العدل والرفق، وإعلاء كلمة الحق، وشأن الدين. وكان هذا الوالي ذا خبرة واسعة في العمل الإداري وشؤون الحكم، وعُدَّ رائداً في تنظيم جهاز الحكم على أسس جديدة ومتطورة، واتصف بالحكمة والتعقُّل، فقبض على زمام الأمور بحزم، وبادر إلى وضع حد للنزاعات، وإصلاح الإدارة والجيش، وقام بعدة إصلاحات إدارية وعمرانية واقتصادية شكلت نقطة تحول في تاريخ الأندلس، بحيث أعطتها الشخصية العربية المتميزة. واستشهد السمح في معركة مع الفرنجة بالقرب من تولوز في (شهر ذي الحجة عام ١٠٢ هـ/ شهر حزيران عام ٧٢١ م)[٢].

خلف السمح بن مالك والٍ آخر هو عنبسة بن سحيم الكلبي الذي اختاره بشر بن صفوان الكلبي والي إفريقية. والجدير بالذكر أنه بعد وفاة عمر بن عبد العزيز، أعاد خلفه يزيد بن عبد الملك إدارة الأندلس كوحدة تابعة لإفريقية كما كانت من قبل.

قدم عنبسة إلى الأندلس في (شهر صفر عام ١٠٣ هـ/ شهر آب عام ٧٢١ م)، وبذل جهداً في تنظيم الإدارة، وضبط النواحي، وإصلاح الجيش لإعداده للغزوات والفتوح. وقُتل هذا الوالي أثناء عودته من إحدى غزواته في (شعبان ١٠٧ هـ/ كانون الأول ٧٢٥م)[٣].

عمَّت الأندلس، بعد وفاة عنبسة حالة من الاضطراب، وفقدان الاستقرار، في ظل تفاقم الخلافات بين القبائل، وتمرد البربر، وتفكُّك الجيش؛ استمرت خمسة أعوام، تعاقب على الحكم خلالها ولاة معظمهم فرضته العصبية القبلية. ولم تنته هذه الحالة المضطربة إلا بتعيين عبد الرحمن الغافقي والياً على الأندلس في (شهر

---

(١) ابن القوطية: ص ٧٩ ـ ٨٠. ابن الأثير: جـ ٤ ص ١٠٩ ـ ١١٠. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٦. المقري، التلمساني: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب: جـ ١ ص ٢١٩.

(٢) أخبار مجموعة: ص ٢٤. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٦. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١١٨. التلمساني جـ ١ ص ٢١٩.

(٣) أخبار مجموعة: ص ٧٤. ابن قتيبة: جـ ٢ ص ٢٦١.

صفر عام ١١٣ هـ/ شهر نيسان عام ٧٣١ م)، وكان الجيش على ما يبدو وراء تعيينه[١].

كان الغافقي طرازاً آخر من الولاة الذين تعاقبوا على حكم الأندلس، وبدا أنه قادر على تجميد الصراعات القبيلة والحزبية، وتوحيد الجميع تحت رايته، واستخدامهم في مهمات جهادية وراء جبال البرينيه، فنظَّم شؤون الأقاليم، وعين الحكام من ذوي الكفاءة، وقمع الفتن، والمظالم، وعامل النصارى معاملة سمحة، وعدَّل الضرائب وفرضها على الجميع بالمساواة والعدل، وقضى صدر ولايته في إصلاح الإدارة، واعتنى بإصلاح الجيش، وأنشأ فرقاً خاصة من فرسان البربر بإشراف نخبة من الضباط العرب، وحصَّن القواعد والثغور الشمالية. وكان تجرده القبلي أحد أسباب النجاح الذي حقَّقه في تلك المدة، فاحترمه الجميع، والتزموا بالطاعة له. واجتاحت جيوشه وادي الرون إلى عمق فرنسا حتى نهر اللوار قبل أن يسقط شهيداً في معركة بلاط الشهداء أمام القائد الفرنجي شارل مارتل كما سنرى.

كان لمعركة بلاط الشهداء صداها المؤثر في دمشق، وقد أثارت الهزيمة الخليفة هشام بن عبد الملك، فرأى أن يعيد النظر في سياسة الأمويين في الأندلس، فاختار عبد الملك بن قطن الفهري والياً عليها[٢]، وأمره بأن يعمل على حماية مكتسبات المسلمين فيها، وتوطيد هيبتهم. عبر عبد الملك إلى الأندلس على رأس جيش من نخبة الجند، وتسلَّم الحكم.

اتصف هذا الوالي بالتعصب الشديد لقيسيته، كما كان صارماً، شديد البطش، فنفرت منه العامة والخاصة. وأدَّت سياسته إلى اختلال التوازنات القبلية، فدبَّ الخلاف بين القبائل، وظهرت على السطح السياسي بوادر فتنة. بالإضافة إلى ذلك، فإن عبد الملك لم ينجح في إخماد الثورات التي اندلعت في الولايات الشمالية ضد الحكم الإسلامي؛ مما كان دافعاً إلى عزله في (شهر رمضان عام ١١٦ هـ/ شهر تشرين الأول عام ٧٣٤ م)[٣].

اختار عبيد الله بن الحبحَّاب، عامل إفريقية، عقبة بن الحجاج السلولي والياً على الأندلس[٤]. عُرف عن عقبة جديته في الحكم، وكان على طراز عبد الرحمن

---

(١) ابن القوطية: ص ٨٠. ابن قتيبة: جـ ٢ ص ٢٦١.

(٢) ابن القوطية: ص ٨٠. ابن قتيبة: جـ ٢ ص ١٨٠.

(٣) ابن الأثير: جـ ٤ ص ٢٢٠.

(٤) أخبار مجموعة: ص ٢٤.

الغافقي، جندياً قديراً، وحاكماً بارعاً، وإدارياً نشيطاً، عادلاً، تقياً، حاول استعادة ما فقده المسلمون في جنوب فرنسا، وتثبيت أقدامهم في المقاطعات الشمالية، وتوفي عقبة في عام (١٢٣ هـ/ ٧٤١ م)(١).

نصَّب الأندلسيون بعد وفاة عقبة، عبد الملك بن قطن للمرة الثانية. ويحيط الغموض بظروف هذه التولية بحيث تشير الروايات إلى ثورة قام بها هذا الأخير ضد عقبة، وتمكَّن من أسره وقتله، وانتزع منه ولاية الأندلس(٢).

تولى عبد الملك بن قطن حكم الأندلس في المرة الثانية في ظل ثورة خطيرة قام بها البربر في عام (١٢٢ هـ/ ٧٤٠ م) في المغرب الأقصى بسبب استعلاء العنصر العربي وتفرده بالنفوذ والسلطان من جهة، واشتداد الحركات الدينية المعارضة للنظام الأموي كالخوارج من جهة ثانية.

كان من الطبيعي أن تتأثر الأندلس بثورة البربر في المغرب الأقصى، نظراً للترابط الإداري والسياسي والتاريخي بين الإقليمين الواقعين على ضفتي المضيق، والتي وجدت تشابهاً بينهما؛ فاستغل هؤلاء الأوضاع القلقة التي كانت تمر بها البلاد، وثاروا في معظم الأقاليم الشمالية حيث أماكن استقرارهم، وأعلنوا انفصالهم عن قرطبة، واستطاعوا، في بادىء الأمر، أن يتغلبوا على جميع الحملات التي وجهها إليهم عبد الملك بن قطن لإخضاعهم، ولم يتمكن هذا الوالي من قمع ثورتهم إلا بعد أن استعان بجند الشام المحاصَرين في سبتة، من قِبَل البربر، بقيادة بلج بن بشر المعتصم(٣)، وكان قد اشترط عليه أن يعود إلى شمالي إفريقية مع قواته متى استقرت الأوضاع في الأندلس، لكن بلجاً اغترَّ بقوته، فثار على عبد الملك وقتله وتولى حكم الأندلس، وذلك في (شهر ذي القعدة عام ١٢٣ هـ/ شهر أيلول عام ٧٤١ م)(٤).

ولكن الأزمة لم تنته، فقد فرَّ ابنا عبد الملك، وهما أمية وقطن، إلى الشمال، الأول إلى سرقطة، والثاني إلى ماردة(٥)، وسعيا إلى استقطاب الأنصار والمؤيدين، للانتقام من بلج، ووجدا استجابة من كل من عبد الرحمن بن حبيب الفهري، الزعيم الإفريقي المعروف بخصومته الشديدة لبلج، وعبد الرحمن بن علقمة اللخمي أمير

---

(١) ابن الأثير: جـ ٤ ص ٢٧٣. ابن عذارى جـ ٢ ص ٣٠.

(٢) أخبار مجموعة ص ٢٩. ابن عذارى: المصدر نفسه. ابن خلدون جـ ٤ ص ١١٩.

(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٩٥. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٠.

(٤) أخبار مجموعة: ص ٤٢. ابن عذارى: المصدر نفسه.

(٥) أخبار مجموعة: ص ٤١.

ناربون، بالإضافة إلى البربر الناقمين على الأوضاع السياسية.

وسرعان ما ظهر تكتلان كبيران: تكتل الشاميين المتغلبين على الحكم، وتكتل الأندلسيين من العرب والبربر المحليين الذين رأوا في الشاميين دخلاء. والتقى الطرفان على مقربة من قرطبة في (شهر شوال عام ١٢٤ هـ/ شهر آب ٧٤٢ م) ودارت بينهما معركة ضارية انتهت بانتصار الشاميين، وقُتل بلج في المعركة[١].

اختار الشاميون ثعلبة بن سلامة العاملي حاكماً على الأندلس خلفاً لبلج[٢]. وعلى الرغم من أن سياسته اتصفت بالاعتدال، إلا أن الأندلسيين استمروا على موقفهم المعادي، في الوقت الذي تضعضعت فيه سلطة الحكومة المركزية، وانقسمت الأندلس إلى مناطق نفوذ، ولم يلبث هؤلاء أن حشدوا قواتهم التي انقضَّت على قرطبة في محاولة أخرى لاستعادة حكم الإمارة من أيدي الشاميين. ونشبت بينهما معارك عدة انتهت بانتصار الشاميين، ومُني الأندلسيون بهزيمة قاسية في عام (١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م)[٣].

لكن الوضع المأساوي لم يتحسَّن، ذلك أن قرطبة كانت تعاني من الفوضى والاضطراب، وتورط المسؤولون في حرب استنزاف مريرة. وفي غمار ذلك كان لا بد من البحث عن مخرج يعيد الأمور إلى نصابها. وإذ بفريق ثالث لم يتورط في الأحداث، وخشي من عواقب الفتنة؛ يبعث بوفد إلى حنظلة بن صفوان، حاكم القيروان، يطلب منه العمل على إنقاذ الموقف المتردي في الأندلس، ووضع حد للحرب الأهلية، فسارع حنظلة إلى تعيين أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي والياً على الأندلس[٤].

دخل أبو الخطار قرطبة في (شهر رجب عام ١٢٥ هـ/ شهر أيار عام ٧٤٣ م) دون أن يصادف متاعب تذكر، وتسلَّم الحكم، وخضع الجميع لحكمه، حيث غلب الرأي المائل إلى السلام. واتبع من جهته سياسة حازمة ومعتدلة، فسوَّى بين الجميع في المعاملة، ووزع العصبيات المتناحرة على أماكن متباعدة[٥]، مما أدى إلى الهدوء والاستقرار.

لكن مدة الاستقرار هذه كانت قصيرة وعابرة، استمرت ما بقي الحكم اليمني متحرراً من عقدة العصبية، حتى إذا مال إلى قومه من اليمنيين، وقرَّبهم من مجلسه،

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٤٥. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٣٢.

(٢) ابن القوطية: ص ٨٢. ابن عذاري: المصدر نفسه.

(٣) أخبار مجموعة: ص ٤٥. ابن القوطية: ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٤) ابن القوطية: ص ٨٣.

(٥) المصدر نفسه: ص ٨٣ ـ ٨٤.

جاء رد القيسيين سريعاً، فالتفُّوا حول الصميل بن حاتم. وسرعان ما نشبت الحروب العصبية على ضفاف الوادي الكبير، انتهت بانتصار القيسيين الذين نصَّبوا ثوابة بن سلامة الجذامي أميراً على الأندلس خلفاً لأبي الخطار الذي أُسر في المعركة في (شهر رجب عام ١٢٧ هـ/ شهر نيسان عام ٧٤٥ م)، ودخل ثوابة قرطبة، وشهدت البلاد هدوءاً نسبياً لم يعكره سوى فرار أبي الخطار من سجنه، فحشد قواته وقصد قرطبة، لكن لم يحدث قتال، بفضل سياسة الصميل الذكية الذي خذَّل اليمنيين، فانفضوا من حول أبي الخطار[1].

ثم حدث أن توفي ثوابة في (شهر صفر عام ١٢٩ هـ/ شهر أيلول ٧٤٦ م)، فتجدَّد التنافس على منصب الإمارة. وكان باستطاعة الصميل تولي السلطة، إلا أنه آثر أن يبقى ظاهرياً في الظل ويحكم البلاد فعلياً من خلال والٍ اختاره هو يوسف بن عبد الرحمن الفهري، أحد زعماء القيسية، وأقنع اليمنية بقبوله مبدياً مهارة سياسية فائقة[2]، فتولى يوسف الإمارة في (شهر ربيع الثاني عام ١٢٩ هـ/ شهر كانون الثاني عام ٧٤٧ م).

وكان من المتفق عليه بين القيسيين واليمنيين أن يتعاقبا على حكم الأندلس، لكن القيسيين لم يشاؤوا أن يُمكِّنوا اليمنيين في الرئاسة مما أدى إلى عودة الاصطدامات. وتعاون أبو الخطار زعيم الكلبيين مع يحيى بن حريث زعيم جذام على حرب القيسيين، والتقى الطرفان في شقندة بالقرب من قرطبة في عام (١٣٠ هـ/ ٧٤٨ م) ودارت بينهما رحى معركة قاسية انتهت بانتصار القيسيين وأُسر الزعيمان اليمنيان وقُتلا على الفور[3].

كان يوسف بن عبد الرحمن الفهري آخر الولاة الذين حكموا الأندلس في هذا العهد، حيث سقطت في غضون ذلك الخلافة الأموية في دمشق، وتمكَّن أحد الأمراء الأمويين، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، أن ينجو من المذابح التي نفذها العباسيون بحق الأمراء الأمويين، ويمَّم وجهه شطر المغرب ثم الأندلس ليدخلها ويؤسس الدولة الأموية فيها.

الأوضاع الخارجية

كانت بدايات المرحلة الأولى من تاريخ إسبانيا الإسلامية، كولاية مرتبطة

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٥٧. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٤ ـ ٣٥. ابن القوطية: ص ٨٤.

(٢) أخبار مجموعة: المصدر نفسه. ابن القوطية: المصدر نفسه.

(٣) أخبار مجموعة: ص ٦٠.

إدارياً بالحكم المركزي في دمشق، قد اقترنت بعدة محاولات توسعية وراء جبال البرينييه حيث بلاد الفرنجة، وذلك بهدف تحقيق فتوح جديدة وحماية حدود الأندلس الشمالية الشرقية.

وتُعدُّ محاولة السمح بن مالك الخولاني في الاندفاع وراء البرينييه منذ عام (١٠٠ هـ/ ٧١٨ م)، البداية الجدِّية للحركة التوسعية. فاجتاح مقاطعة سبتمانيا بما فيها المدينة الساحلية ناربون وفتحها، ثم توغلت قواته في إقليم أكويتانيا ووصلت إلى تولوز عاصمة الإقليم، وأغارت على مقاطعة البروڤانس، واصطدمت بالدوق أودو حاكم أكويتانيا بالقرب من تولوز الذي انتصر في المعركة، وكان السمح من بين القتلى، فتولى عبد الرحمن الغافقي قيادة الجند، وقاد بنجاح عملية الانسحاب والتراجع إلى ناربون[١].

وتُعدُّ محاولة خلفه عنبسة بن سحيم الكلبي من أوسع المحاولات الإسلامية لغزو بلاد الفرنجة. فهاجم في (أواخر عام ١٠٥ هـ/ أوائل عام ٧٢٤ م) إقليم سبتمانيا بعد أن فقد المسلمون كثيراً من معاقله منذ هزيمة تولوز، وفتح قرقشونة ونيم وأوتون، الأمر الذي أتاح له حرية التحرك في وادي الرون، فهاجم إقليم البروڤانس وبرجنديا ووصل إلى حوض نهر الرون، واجتاح عدة مدن أهمها ليون وماسون وشالون وسانس التي لا تبعد أكثر من مائة ميل عن باريس. وبفضل هذه الإنجازات التي تحققت في وقت قصير بسط المسلمون نفوذهم على جنوبي فرنسا. لكن جهود عنبسة أصيبت بانتكاسة حين قطع عليه جيش من الفرنجة خط الرجعة، وأحاط بقواته وانتصر عليه واستشهد عنبسة في المعركة[٢]، وأدَّى مقتله إلى تقهقر المسلمين من جديد، ووقف تيار التوسع مدة ستة أعوام تقريباً، حتى عام (١١٣ هـ/ ٧٣١ م) عندما تولى عبد الرحمن الغافقي زمام الأمور.

يُعدُّ الغافقي من ألمع القادة المسلمين الذين تعاقبوا على حكم الأندلس في هذه المرحلة[٣]. تمتع بمواهب عسكرية كبيرة فضلاً عن مقدرته كحاكم، ونظرته المتساوية إلى المسلمين من العرب والبربر، وإنصافه النصارى في الأندلس؛ مما جعله أمل القيادات والفئات الأندلسية في تحقيق الاستقرار الداخلي والتوسع في الخارج.

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٦. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١١٨. عنان: ص ٨١.

(٢) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٧. عنان: ص ٨٢. Levi Provençal: I p 59.

(٣) انظر ترجمته عند الحميدي، أبي عبد الله محمَّد بن أبي نصر... الأزدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

وبعد أن وطَّد النظام والأمن في أرجاء البلاد، وحصَّن الثغور الشمالية، تطلع إلى الخارج، وظهر كقائد محترف استأثرت به نزعة الفتح وراء البرينييه.

والواقع أن حملته التي عبر بها هذه الجبال كانت نموذجاً مختلفاً عن الحملات السابقة في الإعداد النفسي والتجهيز المادي، والبُعد الاستراتيجي لسياسة الفتح[1].

كان الهدف الأول للغافقي القضاء على الدوق أودو أمير أكويتانيا الذي شكَّل، وفقاً لتقديراته، العقبة الرئيسية أمام التمدد الإسلامي في بلاد الفرنجة، وبخاصة بعد تحالفه مع الزعيم البربري منوسة الثائر في الشمال، ثم مع شارل بن ببين حاجب القصر في مملكة الفرنجة[2]، فهوت المدن أمامه، ودخلت جيوشه تولوز وبوردو أكبر مدن الإقليم قبل أن يصطدم بالدوق وينتصر عليه في معركة جرت على نهر الدردوني في (أوائل عام ١١٤ هـ/ ربيع عام ٧٣٢ م)، ثم طارده حتى عاصمته بوردو وفتحها، وفرَّ الدوق مع بعض أتباعه باتجاه الشمال، ملتجئاً إلى البلاط الفرنجي، وسقطت أكويتانيا كلها بيد المسلمين[3].

نتج عن هذه المعركة أن انتشر المسلمون في مقاطعة أكويتانيا، وتقدموا شمالاً حتى مدينة بواتييه وفتحوها، وانسابت قواتهم في السهل الخصيب الممتد بينها وبين تور، وأضحى جنوبي فرنسا كله تحت سيطرتهم.

كان ذلك آخر امتداد منظم لهم في أوروبا، لأن شارل خشي أن يدخل المسلمون بلاد الفرنجة، نظراً لاقترابهم من حدودها، فيقضون بذلك على دولة الفرنجة والنصارى معاً. والجدير بالذكر أن هذه المملكة كانت آنذاك أكبر قوة في أوروبا، وعدَّت نفسها حامية النصارى في الغرب.

وبدت في الأفق السياسي بوادر صراع بين الطرفين لا بد أن يكون حاسماً. وأخذ شارل يتجهز استعداداً للقتال في الوقت الذي نجح فيه الغافقي في الاقتراب من حدود مملكة الفرنجة. وحشد شارل جيشاً ضخماً من الفرنجة ومختلف القبائل الجرمانية وبخاصة اللمبارديين في شمالي إيطاليا بالإضافة إلى المرتزقة، واستولى على بعض أراضي الكنيسة لتسخير مواردها في إعداد وتجهيز الجيش. وبعد أن استكمل استعدادات التجهيز خرج على رأس هذا الجيش نحو الجنوب للتصدي للمسلمين.

---

(١) عنان: ص ٨٩. بيضون: ص ٩٧، ١٥٤.

(٢) كان ملك الفرنجة آنذاك تيودوريك الرابع، لكن ملوك الفرنجة كانوا في ذلك العصر تحت سيطرة حجَّاب القصر.

(٣) عنان: ص ٩٠ ـ ٩١.

كان الغافقي آنذاك يعاني من:
- صعوبات تموينية بفعل ابتعاده عن قواعده.
- نقص في العديد نظراً لتخلف بعض الحاميات في المدن المفتوحة عن الاشتراك في الزحف.
- عدم تجانس الجيش الذي تحكَّمت به العصبيات الأندلسية المتصارعة.
- الإنهاك الشديد الذي بدا على الجند بفعل الغزوات المتواصلة لعدة أشهر.

وفي المقابل، بدا واضحاً أن جيش الفرنجة مؤهل لتحقيق الانتصار بفعل ما توافر له من إمكانات الحرب حيث دقة التنظيم، وشدة التماسك، وكفاءة القيادة، وضخامة الجيش، والشعور بالخطر على المصير، والتصميم على وقف تيار المسلمين الجارف.

وعمد شارل إلى تنفيذ سياسة عسكرية قائمة على تأخير اللقاء مع المسلمين بهدف الاستمرار في إنهاك قواهم نتيجة انتقالهم السريع من معركة إلى معركة، ومن مكان إلى مكان، وانشغالهم بالغنائم التي لابد وأن تبطىء تقدمهم، وأخفى قواته عن أعينهم. وفعلاً عجزت عيون الغافقي عن معرفة أي شيء عن سياسته هذه، وبذلك يكون شارل قد حدَّد زمان ومكان المعركة ليضمن النصر.

وحدث اللقاء الحاسم بين الطرفين في (شهر رمضان عام ١١٤ هـ/ شهر تشرين الأول عام ٧٣٢ م) في السهل الواقع بين تور وبواتييه في المكان المعروف ببلاط الشهداء. ودارت بينهما رحى معركة ضارية استمرت مدة سبعة أيام، هي معركة التصدي بين الغافقي وشارل، وحقَّق المسلمون خلالها انتصارات أولية، لكن النتيجة الحاسمة أسفرت عن هزيمة قاسية لهم حيث نجح شارل في تحقيق الانتصار على الرغم من استبسال المسلمين في المعركة، وقُتل الغافقي بعد قتال بطولي على أثر إصابته بسهم أودى بحياته فتفرقت كلمة المسلمين، واختلف رؤوساء الجند، واضطروا إلى الانسحاب إلى قواعدهم في سبتمانيا.

وسُميت هذه الموقعة في المصادر العربية بمعركة بلاط الشهداء لكثرة ما استشهد فيها من المسلمين، ونسبة إلى طريق روماني قديم دارت عنده هذه المعركة، والبلاط في اللغة العربية هو الطريق المرصوف المبلَّط. أما المصادر الأوروبية فسمَّتها موقعة تور أو تور - بواتييه[1].

---

(١) ابن عبد الحكم: ص ٢١٦ - ٢١٧. دائرة المعارف الإسلامية جـ ٤ ص ٦٣. المقري: جـ ١ ص ١٠٩، جـ ٢ ص ٥٦.

Levi Provençal: I pp 61-62. Camb. Med. History II p 129.

تُعدُّ معركة بلاط الشهداء من المعارك الهامة في التاريخ الوسيط إذ أنها:

ـ أوقفت المدَّ الإسلامي باتجاه قلب أوروبا.

ـ قضت على تصميمهم في اجتياح هذه القارة.

ـ أقنعتهم بالاكتفاء بما حقَّقوه من إنجازات فيما وراء البرينييه.

وفي المقابل:

ـ بدَّدت مخاوف الأوروبيين من اجتياح إسلامي للقارة.

ـ أنقذت النصرانية في أوروبا الغربية من حكم إسلامي محتمل.

وأضفى هذا النصر على شارل قوة ومكانة، وبدا في نظر العالم الغربي بطل النصرانية الأول الذي حمى غربي أوروبا من الغزو الإسلامي، واستحق عن جدارة لقب المطرقة، وصار يُعرف بـ شارل مارتل، بعد أن أطلق عليه البابا غريغوري الثالث هذا اللقب.

لم يتعقَّب شارل مارتل فلول الجيش الإسلامي خشية أن يكون انسحابهم تكتيكاً للإيقاع به، بالإضافة إلى أنه مُني هو أيضاً بخسائر بالغة جعلته عاجزاً عن تنظيم عملية مطاردة، وتراجع باتجاه الشمال.

وإذا كان المؤرخون الغربيون قد اعتادوا بأن يبالغوا في قيمة هذا النصر الذي حقّقه شارل مارتل، فإن تصوراتهم قد تبدو واقعية. ذلك أن التمدد الإسلامي في عمق القارة قد وصل إلى ذروته في بواتييه، ولم يكن هناك من سبب يدعو المسلمين إلى التوقف عند هذا الحد لو انتصروا في المعركة، فكل الدلالات تشير إلى إصرارهم على المضي في الخطة التوسعية إلى النهاية[١].

والواقع أن المسلمين لم يحاولوا بعد هذه الموقعة فتح بلاد الفرنجة، إذ أن الخسارة جعلتهم أقل جرأة على غزو شمالي فرنسا، كما أن الخلافات الداخلية أثَّرت سلباً على قدراتهم العسكرية، فأخذ الصراع منحى تراجعياً منذ ذلك الحين.

لكن ذلك لم يؤد بالضرورة إلى تجميد الطموح الإسلامي وراء البرينييه، فاستأنف المسلمون نشاطهم الجهادي في العام التالي، وهدَّدوا مدن آرل وأﭬينيون وغيرهما من المدن وبخاصة إقليم البروﭬانس[٢].

وقرَّر عقبة بن الحجاج السلولي والي الأندلس، إحياء الجهاد والفتوح، وتوطيد

---

(١) بيضون: ص ١٥٩. Fichenau, H: The Carolingian Empire: pp 12-13.

(٢) Ibid.

النفوذ الإسلامي في غاليا، فحصَّن المواقع الإسلامية على ضفاف نهر الرون، واتخذ ثغر ناربون قاعدة انطلاق للغزو والجهاد. وتركزت أهم عملياته العسكرية في أقاليم برغنديا والبروڤانس والدوفينيه، وغزا في عام (١١٧ هـ/ ٧٣٥ م) مدينة آرل للمرة الثانية، وفتحها قائده عبد الرحمن بن علقمة اللخمي، لكن هذه الجهود كانت عديمة الفائدة لأن شارل مارتل ضايق المسلمين وأجبرهم على الجلاء عن إقليم البروڤانس، والارتداد إلى ما وراء نهر الرون. واستولى الفرنجة على معظم سبتمانيا، ولم يبق بيد المسلمين سوى ناربون ورقعة ضيقة من الأرض بين ناربون والبرينييه.

وكان هذا آخر عهد المسلمين واصطدامهم بالفرنجة في سهول الرون، ثم أخذوا يتراجعون منذ عام (١٢١ هـ/ ٧٣٩ م) إلى الأندلس حيث انهمكوا بالمشاكل الداخلية.

عهد الإمارة الأموية

(١٣٨ ـ ٣٠٠ هـ/ ٧٥٦ ـ ٩١٢ م)

أسماء الأمراء الأمويين في الأندلس ومدة حكم كل منهم

عبد الرحمن الأول	١٣٨ ـ ١٧٢ هـ/ ٧٥٦ ـ ٧٨٨ م
هشام الأول (الرضا)	١٧٢ ـ ١٨٠ هـ/ ٧٨٨ ـ ٧٩٦ م
الحكم الأول (الربضي)	١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ/ ٧٩٦ ـ ٨٢٢ م
عبد الرحمن الثاني أو الأوسط	٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ/ ٨٢٢ ـ ٨٥٢ م
محمد بن عبد الرحمن	٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ/ ٨٥٢ ـ ٨٨٦ م
المنذر بن محمد	٢٧٣ ـ ٢٧٥ هـ/ ٨٨٦ ـ ٨٨٨ م
عبد الله بن محمد	٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ ـ ٩١٢ م

عبد الرحمن الأول

(١٣٨ ــ ١٧٢هـ/ ٧٥٦ ــ ٧٨٨م)

إحياء الدولة الأموية في الأندلس

كانت الأندلس الولاية الأكثر تأثراً بانتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين. فقد كانت تعاني من الصراعات الحزبية والإقليمية، خلال مدة غياب السلطة المركزية التي استمرت بين أعوام (١٢٤ ـ ١٣٨ هـ/ ٧٤٢ ـ ٧٥٦ م).

سقطت في عام (١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م) دولة الخلافة الأموية على أيدي العباسيين، وأخذ الولاة العباسيون يتعقبون الأمويين ويقتلونهم، إلا أن أميراً أموياً استطاع النجاة من مطاردة هؤلاء هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، فيمَّم وجهه شطر المغرب.

اتصف عبد الرحمن بالطموح، فعزم على تأسيس دولة له في المغرب، إلا أنه اصطدم بمعارضة والي إفريقية عبد الرحمن بن حبيب الفهري، فاتجهت أنظاره نحو الأندلس التي كانت تعاني اضطراباً في أوضاعها الداخلية، حيث وجد فيها الفرصة الأكثر منالاً من المغرب.

ونجح خادمه بدر، الذي أرسله إلى هناك لدراسة الموقف، في تكوين نواة لقاعدة أموية اعتمدت على اليمنيين الذين يرتبطون عضوياً بالأسرة المروانية، وقد رحبوا بتأييد الأمير الأموي، للتحرر من قيود القيسيين الثقيلة، والأخذ بثأر قتلاهم في معركة شقندة.

وبات أنصار الأمير الأموي يمتلكون من المعطيات ما شجعهم على دعوته، فعبر المضيق في (شهر ربيع الآخر عام ١٣٨ هـ/ شهر أيلول عام ٧٥٥ م)، ونزل ضيفاً على أبي عثمان في حصن طُرُشَة[١].

كان حاكم الأندلس آنذاك يوسف بن عبد الرحمن الفهري، لكن السلطة الفعلية كانت في يد الزعيم القيسي الصميل بن حاتم، وقد أدرك الزعيمان مدى الخطر الذي يشكله عبور الأمير الأموي، على أوضاعهما وبخاصة أنه حاز على ثقة فئة كبيرة من المجتمع الأندلسي بفضل قوة شخصيته وجرأته، إذ وجدوا فيه طرازاً جديداً في الزعامة السياسية، لذلك قرَّرا التصدي له لإرغامه إما على العودة أو الخضوع لهما.

واستعد عبد الرحمن من جهته، للوقوف في وجهيهما فغادر حصن طُرشة إلى شذونة التي أعلنت تأييدها له، ثم دخل إشبيلية، وبايعه أهلها[٢]، وانضمت إليه الفرق العسكرية التي كانت قد جاءت من دمشق وحمص والأردن، ثم غادرها باتجاه قرطبة، والتقى بقوات الصميل والفهري عند المسارة في (شهر ذي الحجة عام ١٣٨ هـ/ شهر أيار عام ٧٥٦ م) وانتصر عليها، ودخل قرطبة حيث صلى بالناس صلاة

---

(١) ابن القوطية: ص ٨٦. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٤٣ ـ ٤٤. المقري: جـ ١ ص ٣٠٧.

(٢) أخبار مجموعة: ص ٨٥ ـ ٨٦.

الجمعة في مسجدها الكبير، وخطب فيهم معلناً قيام دولته الجديدة، واضطر كل من الصميل والفهري إلى الفرار[1].

وهكذا استطاع هذا الأمير الطريد أن يُحيي الدولة الأموية في الغرب التي سقطت في الشرق، وأن يجعل من الأندلس دولة مستقلة، وأول ولاية اقتُطِعت من دولة الخلافة العباسية.

المشكلات التي واجهت عبد الرحمن الداخل[2]

واجهت عبد الرحمن الداخل، خلال حياته السياسية، ثلاث قضايا كانت على جانب كبير من الخطورة، تطلبت منه العمل الدائم والدؤوب على التصدِّي لها. تتمثل الأولى في تنظيم الإدارة المحلية وتوحيد المجتمع الأندلسي بعد أن فرقته الحروب الأهلية، وتتمثل الثانية بقيام حركات ارتدادية من جانب الصميل والفهري، بينما تتمثَّل الثالثة بمحاولات الخلافة العباسية القضاء على الدولة الناشئة واستعادة سيادتها على الأندلس بعد أن ساءها أن يقتطع الأمويون جزءاً من دولة الخلافة العباسية.

ففيما يتعلق بالقضية الأولى، فقد دخل عبد الرحمن إلى الأندلس وهو لا يمتلك من الأعوان إلا القليل، ومن السلاح غير الطموح والجرأة[3]، فكان عليه أن يبني دولة ويؤمِّن لها الأجهزة البشرية، وبخاصة الجيش الذي يُعد الدعامة الأساسية لتثبيت حكمه. فاختار العناصر المخلصة له، واستقطب الأشخاص الملاحقين من قبل السلطة العباسية في المشرق، الذين تدفقوا على الأندلس، فأسس من الجميع نواة جيش قوي، واتبع سياسة قبلية قائمة على التوازن حتى تلتف حوله كافة الفئات الاجتماعية، فقضى على رواسب التعصب، وانتزع عوامل البغضاء من المجتمع الأندلسي، الذي أراده أن يكون متلاحماً، وأن يكون هو الحاكم لجميع فئاته.

وفيما يتعلق بالقضية الثانية، فقد اجتهد عبد الرحمن أن يتعقب يوسف والصميل، أقوى خصومه وأخطرهم. وكان الأول قد فرَّ بعد المسارة إلى طليطلة، وانسحب الثاني إلى جيان معقل قومه. ولم يلبث الرجلان أن تعاونا معاً لغزو قرطبة، وخرج عبد الرحمن لملاقاتهما، لكن لم يحدث اشتباك بين الطرفين لأن الصميل مال إلى المهادنة لافتقاره إلى التوازن العسكري بينه وبين خصمه القوي. وانتهى

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) لُقِّب الأمير عبد الرحمن بالداخل، أي الداخل إلى الأندلس.

(٣) بيضون: ص ١٨٦.

الأمر إلى عقد اتفاق بينهما في عام (١٤٠ هـ/ ٧٥٧ م)، وعفا عبد الرحمن عن خصميه واصطحبهما إلى قرطبة ليكونا تحت مراقبته[١].

لكن نزعة السلطة أثارت الفهري، ففرَّ إلى ماردة والتفَّ حوله ما يزيد على عشرين ألفاً من أتباعه، خرج بهم إلى إشبيلية وحاصرها، فخرج عبد الرحمن للتصدي له بعد أن اعتقل الصميل بتهمة التآمر ضده. ثم حدث أن فكَّ يوسف الفهري الحصار عن إشبيلية وتوجه نحو قرطبة، وانتهى الصراع بهزيمته وفراره، وقُتل بعد ذلك بيد أحد أعوانه. أما الصميل فقد تخلَّص عبد الرحمن منه بأن دسَّ له من خنقه في سجنه[٢].

وهكذا قضى عبد الرحمن على أخطر عدوين في الداخل، ولم يجد أدنى صعوبة في القضاء على الثورات الداخلية الأخرى التي كان يقوم بها الفهريون وأنصارهم، كثورة سعيد اليحصبي الملقب بالمطري، وثورة لبلة، وعصيان أبي الصباح، وثورة البربر في شنتبرية في إقليم أراغون[٣].

أما فيما يتعلق بالقضية الثالثة، فقد استغل الخليفة، أبو جعفر المنصور الأوضاع القلقة التي كان يمر بها عبد الرحمن الداخل، فاتصل بأحد الزعماء العرب ويدعى العلاء بن المغيث الجذامي، وحثَّه على التخلص من خصمه ووعده بإمارة الأندلس[٤]. أخذ العلاء يدعو سراً إلى طاعة الخليفة المنصور، واستغل في عام (١٤٦ هـ/ ٧٦٣ م) التقلبات السياسية لحركات الأحزاب، مركِّزاً على اليمنيين الذين بدأوا يتململون من حكم عبد الرحمن بعد أن استأثر بالسلطة دونهم. وبعد نحو عام من التحضيرات والاتصالات، أعلن العلاء ثورته على النظام الأموي، لكن عبد الرحمن تمكَّن من القضاء على حركته وقتله مع عدد من رجاله وبعث برؤوسهم إلى المنصور[٥]. وكان فشل هذه المحاولة كافياً لإقناعه بالعدول عن مشروعه، ولم يمنعه عداؤه لعبد الرحمن من الإعجاب به ولقبه بـ «صقر قريش»[٦].

استمرت العلاقات السيئة بين الخلافة المشرقية في بغداد وبين الإمارة الأموية في المغرب، في عهد المهدي الذي سلك نهج والده المنصور، إلا أن بُعد المسافة

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٩٣. Levi Provençal: I p 108.

(٢) المصدر نفسه: ص ٩٠، ٩٦ ـ ٩٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٠٧.

(٤) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٥٣. Levi Provençal: I p 108.

(٥) أخبار مجموعة: ص ١٠٣.

(٦) ابن القوطية: ص ٩١ ـ ٩٢. ابن الخطيب، لسان الدين: أعمال الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام: ص ٩ ـ ١٠.

حال دون إرسال الجيوش العباسية من أجل تحقيق هذه الغاية، لكن المهدي كان يشجع كل حركة تهدف إلى إضعاف النفوذ الأموي في الأندلس، من ذلك أنه أيَّد الثورة التي قام بها في عام (١٥٧هـ/ ٧٧٤ م) الحلف المكَّون من سليمان بن يقظان والي برشلونة، وحسين الأنصاري والي سرقسطة، وعبد الرحمن الفهري والي إفريقية، لكن المتحالفين فشلوا في تحقيق غايتهم، وكان ليقظة عبد الرحمن الداخل الفضل في إحباط المشروع[١].

الأوضاع الخارجية

شغلت الأحداث الداخلية القلقة معظم أوقات عبد الرحمن الداخل، ولم تدع له الفرصة للاهتمام بالشؤون الخارجية، مما أتاح لأعدائه المجاورين، من بقايا دولة القوط الذين اعتصموا في المناطق الجبلية في الشمال الغربي من إسبانيا؛ أن يتكتلوا، ويضعوا نواة الفكرة الوطنية لاستعادة الأرض، وطرد المسلمين منها، فإذا بهم قوة تأخذ طريقها إلى النمو في زحمة التطاحن السياسي بين المسلمين[٢].

هشام الأول «الرضا»

(١٧٢ ـ ١٨٠ هـ/ ٧٨٨ ـ ٧٩٦ م)

ترك عبد الرحمن الأول، بعد وفاته في عام (١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م)، أزمة حكم بفعل وصيته الغامضة حول ولاية العهد، مما أدى إلى تنافس أبنائه سليمان وهشام وعبد الله حول اعتلاء العرش الذي فاز به أخيراً هشام. غضب سليمان من تصرف أخيه، إذ رأى فيه اغتصاباً لحقه، لأنه أكبر إخوته، ورفض الاعتراف به على الرغم من جهود الأمير الجديد لاستمالته، وقامت الحرب بين الأخوين، وانتهت بهزيمة سليمان، ونفاه أخوه إلى المغرب في عام (١٧٤ هـ/ ٧٩١ م)[٣].

واجه هشام الأول خلال حياته السياسية ثورتين، نشبت إحداهما في الشمال بزعامة مطروح بن سليمان والي سرقسطة، وقامت الأخرى في طُرشة بقيادة سعيد بن الحسين الأنصاري. ويبدو أن هاتين الثورتين، لا تعدوان أن تكونا من بين الحركات الاستقلالية، لكن هشاماً نجح في تطويقهما وقتل زعمائهما.

---

(١) عنان جـ ١ قسم ١ ص ١٧٥ ـ ١٧٦. دايفز، كارل: شارلمان ص ١٠١.

(٢) بيضون: ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٣) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٦٢ ـ ٦٥. ابن الخطيب: ص ١٠ ـ ١١.

كان هشام الأول حاكماً عادلاً، متواضعاً، يعود المرضى، ويشهد الجنائز، مقتصداً في ملبسه، ورعاً، تقياً، شهد عهده تحولاً مذهبياً بشيوع مذهب الإمام مالك في الأندلس، وتخلى الأندلسيون عن مذهب الإمام الأوزاعي الذي كان هو المذهب الرسمي حتى ذلك الحين[١]، ويُعدُّ عهده انعكاساً لشخصيته المسالمة حيث قُدِّر للأندلس أن تنعم خلال مدة حكمه ببعض الهدوء بعد أن احتوى بطبعه الهادىء كل الزعامات القبلية.

أما على الصعيد الخارجي، فقد اتجه هشام الأول نحو محاربة النصارى في الشمال مدفوعاً في ذلك بنزعته وحماسه الديني، فحارب الإسبان في ولاية إستورقة، كما أرسل حملات صيفية ضد ولاية سبتمانيا في جنوب فرنسا التابعة للفرنجة[٢].

توفي هشام الأول في (شهر صفر عام ١٨٠ هـ/ شهر نيسان عام ٨٩٦ م) وخلفه ابنه الحكم الأول[٣].

الحكم الأول «الربضي»
(١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ/ ٧٩٦ ـ ٨٢٢ م)

الأوضاع الداخلية

واجه الحكم الأول، في بداية حياته السياسية، ثورة أعمامه الطامعين بالإمارة منذ عهد أبيه، وحاول عمَّاه سليمان وعبد الله انتزاع الملك منه. وكان الأول قد استقر بعد نفيه من قبل أخيه هشام في طنجة، والتجأ الثاني إلى تاهرت في المغرب الأوسط عند بني رستم، فلما علما بموت أخيهما هشام عبر سليمان مع جماعة من البربر إلى الأندلس محاولاً الوصول إلى قرطبة، ولكنه هُزم عدة مرات كان آخرها في ماردة، التي أودت بحياته في عام (١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م)[٤].

ودخل عبد الله بدوره إلى الأندلس، واتخذ طريقه صوب الشمال في المناطق المعادية للحكم الأموي ليمارس نشاطه من سرقسطة وبلنسية، معتقداً أنه سيجد تأييداً فيهما، لكنه فشل في كلتيهما. واضطر إلى عقد صلح مع ابن أخيه الحكم الأول الذي عفا عنه ومنحه إدارة مدينة بلنسية، ومنحه راتباً شهرياً، ومنذ ذلك الوقت أضحى يقلب بـ «البلنسي»[٥].

---

(١) ابن القوطية: ص ٩٦ ـ ٩٧.
(٢) Levi provençal: I p 143.
(٣) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣١١.
(٤) ابن الخطيب: ص ١٥.
(٥) Levi Provençal: I p 153.

ويبدو أن الثورات الخطيرة التي أقلقت الحكم الأول وكادت تطيح بإمارته هي تلك التي قام بها المولدون في طليطلة وقرطبة. نشبت الثورة في المدينة الأولى في بداية عهد الحكم الأول في عام (١٨١ هـ/ ٧٩٧ م)، بهدف التحرر من سيادة قرطبة. عالج الحكم الأول هذه القضية بمنتهى الدهاء والذكاء، فاختار أحد المولدين من مدينة وشقة، ويدعى عمروس بن يوسف، وعينه والياً على المدينة، وكلفه بمهمة إجهاض الثورة. تظاهر عمروس أمام سكان المدينة بكره بني أمية، فاستمالهم إليه، ثم بنى قلعة جديدة خارج المدينة وأقام فيها وليمة، دعا إليها جميع أعيان البلد ورؤوسائها. وإذ توافد المدعوون زرافات إلى القلعة، لم يدخلوها إلا فرادى، وكان في ساحتها حفرة أقام عمروس على حافتها سيافين يضربون عنق كل داخل، حتى قُتِل المدعوون جميعاً، وخضعت المدينة تماماً لسلطة قرطبة، وقد سُميت هذه المذبحة بوقعة الحفرة[١].

أما الثورة التي نشبت في المدينة الثانية، فكانت أخطر من الأولى، وتُعرف بثورة الربض[٢]، وسببها الرئيسي يكمن في سوء وضع المولدين بصفة عامة كطبقة اجتماعية كبيرة كانت تتجاذبها تيارات اجتماعية ودينية جديدة، وهي تسكن هذه الضاحية التي امتلأت بصنوف الناس من التجار والحرفيين والعمال، فضلاً عن عدد كبير من الفقهاء المالكيين الذين وجدوا في سياسية الحكم الأول، الرافضة لوصاية رجال الدين، تحطيماً لقوة الفقهاء، وامتيازاتهم، مركِّزين على الهوة الاقتصادية الفاصلة بين أغنياء السلطة وبين فقراء الربض المعدمين.

واجه الحكم الأول هذه الثورة التي اندلعت في عام (٢٠٢هـ/ ٨١٨م) بالشدة، فأشعل النار في الربض، وعندما رأى الثوار، النار مشتعلة في مساكنهم ومتاجرهم عادوا مسرعين لإنقاذ ذويهم وأموالهم، وهنا تدخَّل الجند الذين فتكوا بهم. وعندما انتهت الثورة أمر الحكم الأول بهدم الربض، وحرْث أرضه، وزراعتها، كما طرد من تبقَّى من الربضيين من البلاد[٣].

وبسبب هذه القسوة التي استعملها الحكم في إخضاع ثورة الربض، جعلت

---

(١) ابن القوطية: ص ٩٨ ـ ١٠٠. ابن عذاري: جـ ١ ص ٧١ ـ ٧٢. ابن الخطيب ص ١٤ ـ ١٥. ابن الأثير: جـ ٥ ص ١٢٤. دوزي: جـ ١ ص ٦٠ ـ ٦٢.

(٢) الربض كلمة تعني الضاحية.

(٣) ابن القوطية: ص ١٠١ ـ ١٠٢. ابن عذاري: جـ ١ ص ٧٧. دوزي: جـ ١ ص ٦٥ ـ ٦٨.
Levi Provençal: I p 164.

اسمه مقروناً باسم هذا المكان فسمي الحكم الربضي[١].

الأوضاع الخارجية

استمرت العلاقات العدائية بين الإمارة الأموية في الأندلس وبين الفرنجة والإسبان في عهد الحكم الأول، وكانت سياسة الفرنجة تقضي بتأمين جنوبي فرنسا من غزو المسلمين، وذلك بإنشاء إمارة نصرانية في الشمال الشرقي من الأندلس تكون حاجزاً بينهم وبين المسلمين. واستغل الفرنجة انهماك الأمير الأموي بإخضاع الثورات الداخلية، فهاجموا المناطق الحدودية، وتمكَّن لويس، أحد أبناء شارلمان، من انتزاع برشلونة في عام (١٨٥هـ/ ٨٠١م)، مسدِّداً ضربة خطيرة إلى السيادة الإسلامية في المنطقة، لكنه فشل أمام طرطوشة في عام (١٩١هـ/ ٨٠٧م)[٢].

وهاجم الإسبان، بقيادة ملكهم ألفونسو الثاني أمير جيليقية المناطق الحدودية، واتخذت هجماتهم بُعداً صليبياً ظاهراً، وتبادل الطرفان الإسلامي والإسباني الهجمات التي لم تسفر عن أي تغيير في وضع الأراضي على الرغم من توغل صائفة عبد الكريم بن مغيث في جيليقية في أقصى الشمال الغربي[٣].

توفي الحكم الأول في (شهر ذي الحجة عام ٢٠٦هـ/ شهر أيار عام ٨٢٢م)[٤]، تاركاً لابنه عبد الرحمن دولة متماسكة خاضعة تمام الخضوع لسلطان بني أمية. ويلاحظ أن الحكم الأول امتاز، على الرغم من قسوته، بالعدل، والكرم، والفصاحة، وندم في أواخر حياته على ما جرى على يديه[٥].

عبد الرَّحمن الثاني أَو الأوسط

(٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ/ ٨٢٢ ـ ٨٥٢م)

تمهيد

خلف عبد الرَّحمن الثاني أباه الحكم الأول في ظل أجواء هادئة، وعُرف

(١) العبادي، أحمد مختار: في التاريخ العباسي والأندلسي: ص ٣٣٣.

(٢) ابن عذارى: جـ ١ ص ٧١ ـ ٧٢.

(٣) ابن القوطية: ص ١٠٣.

(٤) الحميدي، أبو عبد الله محمَّد بن أبي نصر: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ص ٣٩. ابن الأبار، القضاعي: الحلة السيراء: ص ٦٩. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٢٠٣

(٥) ابن القوطية: ص ١٠٥. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٧٢، ٧٩.

بالأوسط لأنه ثاني ثلاثة سمُّوا بهذا الاسم. وتميَّز عهده الطويل بأحداث متباينة على جانب كبير من الأهمية. وهو لا يتفق مع أبيه في كثير من الصفات. إنه أقل تمسكاً بنظرية الحكم المطلق، وبالتالي فإن خلفيته الدينية كانت بارزة في البلاط. وانعكست شخصيته المثقفة، والفقهية الواسعة، وما تمتع به من إحساس فني مرهف، وذوق اجتماعي رفيع؛ على حياة الأندلس، ويعدُّ عهده بداية الانتقال الحقيقي إلى الدولة بمفهومها المحدد كمؤسسة إدارية وثقافية وعسكرية متطورة[1].

الأوضاع الداخلية

شهد عهد عبد الرَّحمن الثاني سلسلة من الثورات الداخلية ضد النظام الأموي، تمكَّن من قمعها.

فقد تمرَّد على حكمه، عمه عبد اللَّه بن عبد الرَّحمن، فغادر بلنسية إلى تدمير واتخذها مركزاً لنشاطه تمهيداً للزحف نحو قرطبة والإطاحة بالأمير الحاكم، لكن القدر كان بانتظاره، فأراح عبد الرَّحمن الثاني من هذا الخصم التقليدي في الأسرة الحاكمة بدون عناء[2].

وتحرك البربر بدورهم، وأعلنوا العصيان في منطقة الجزيرة الخضراء في عام (٢١١هـ/ ٨٢٦م)، وفي ماردة بعد عامين، لكن السلطة قمعت هاتين الثورتين[3].

وثارت مدينة طليطلة بقيادة زعيم شعبي يدعى هاشم الضرَّاب في عام (٢١٤هـ/ ٨٢٩م). والراجح أن أسباباً اجتماعية دفعته إلى الخروج على الحكم المركزي من أجل تحسين أوضاع الفئات الشعبية، ونجحت السلطة المركزية في القضاء على ثورته[4].

وشهدت السنوات الأخيرة من حكم عبد الرَّحمن الثاني محاولة نصارى قرطبة القيام بثورة ذات طابع خاص. ذلك أن المستعربين المتطرفين من سكَّان العاصمة استغلوا أجواء الاستقرار، والتعايش، والانفتاح، وحرية المعتقد، والتسامح الديني، وقاموا بتحرك ناشط ضد الدولة بزعامة راهب قرطبي يدعى إيلوخيو، وقد أثاره إقبال النصارى على الثقافة الإسلامية ـ العربية، وترك اللغة اللاتينية لغة الكتاب المقدَّس،

---

(١) بيضون: ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٢) ابن الفرضي، عبد اللَّه بن يوسف الأزدي: تاريخ علماء الأندلس ص ٢٨.

(٣) ابن القوطية: ص ١١٢. عنان: جـ ١ قسم ١ ص ٢٥٧.

(٤) ابن عذاري: جـ ١ ص ٨٣ ـ ٨٤. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٢١٩. Levi Provençal: I pp 201-202.

ويبدو أن هذه الثورة تُعدُّ مؤشراً لحركة الانعتاق الإسباني عن السيادة الإسلامية[1].

كانت الخطة تقضي بمهاجمة المقدَّسات والشعائر الإسلامية لجر السلطة والعاصمة إلى اضطرابات دموية. وساهمت النساء بدور بارز في هذه الحركة، وبرزت فلورا الفتاة المسلمة وتلميذة إيلوخيو التي تأثرت بأفكار والدتها النصرانية، فتنصَّرت ولم تتردد في التفوه بما فاه فيه إيلوخيو وجماعته من الرهبان. ولعل الشدة التي استعملتها السلطة في قرطبة ضد المتطرفين رداً على الممارسات الغريبة؛ كانت مطلباً ملحَّاً لهؤلاء[2].

أدرك عبد الرَّحمن خطورة الموقف، ورأى أن يعقد مجمعاً دينياً في قرطبة يضم جميع أساقفة الأندلس لمناقشة تطورات هذه القضية. استنكر المجتمعون مسلك المتشدِّدين باستثناء أسقف قرطبة الذي دافع عنهم، لكن البيان الاستنكاري لم يترك أثراً على إيلوخيو الذي قرَّر آنذاك الجهر بموقفه[3].

وتوفي عبد الرَّحمن الثاني دون أن يتمكَّن من وضع حد لهذه الحركة الخطيرة. والجدير بالذكر أن بعض المتشدِّدين هاجموا مسجد قرطبة قبل وفاة الأمير بأيام، فكان عقابهم الإعدام.

الأوضاع الخارجية

العلاقة مع الممالك الإسبانية في الشمال

كانت السياسة الخارجية إحدى اهتمامات عبد الرَّحمن الثاني، وساعدته الظروف الداخلية للقيام بعمليات عسكرية ضد الإستورقيين الإسبان في الشمال، فوجَّه الصوائف بدءاً من عام (٢٠٨هـ/ ٨٢٣م)، فتوغلت في إقليم إستورقة. كما شهد إقليم أراغون في الشمال الشرقي تطورات مهمَّة حين تحالف حاكم تطيلة العربي موسى بن موسى مع البشكنس (الباسك)، فقام عبد الرَّحمن الثاني بحملة تأديبية ضد حاكم تطيلة وقضى على تمرده، وتابع طريقه شمالاً، فهزم البشكنس حلفاء موسى، واضطرهم إلى عقد الصلح في عام (٢٢٨هـ/ ٨٤٢م)[4].

---

(١) دوزي: جـ ١ ص ٨٥ ـ ٩٢. Levi Provençal: I p 226.

(٢) بيضون: ص ٢٥٥. لينبول، ستانلي: العرب في إسبانيا ص ٧٧، ٧٨.

(٣) Levi Provençal: I pp 236-237.

(٤) ابن حيان القرطبي: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي: ص ٨٦ ـ ٨٧. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٨٦ ـ ٨٧. عنان: جـ ١ قسم ١ ص ٢٦٠.

العلاقات مع النورمان

شهد عهد عبد الرَّحمن الثاني غارات النورمان المنسابين من الشمال والمعروفين باسم الفايكنغ، على الشواطىء الغربية للأندلس. وقد استهوت هذه الشواطىء هؤلاء القراصنة الذين سمَّاهم المؤرخون المسلمون باسم المجوس؛ بفعل عوامل اقتصادية حيث كان ثراء الأندلس يثير جشع أولئك الغزاة، بالإضافة إلى أنَّها كانت مكشوفة وغير محصَّنة.

كانت أخطر هذه الهجمات تلك التي حدثت في أواخر عام (٢٢٩هـ/ صيف عام ٨٤٤م) فتعرَّضت مدينة إشبونة (لشبونة الحالية) لهجوم بحري عبر مصب نهر تاجة، لكن مقاومة السكان أحبطت هذه المحاولة، وأجبرت القراصنة على التراجع، فاتجهوا إلى مصب الوادي الكبير إلى الشمال من قادس، ولم يجدوا صعوبة في احتلال هذه المدينة ونهبها، ثم صعدوا بسفنهم عبر النهر واستولوا على إشبيلية وضواحيها فعاثوا فيها دماراً وتخريباً[١].

أحدثت هذه الغزوة ارتباكاً في الأوساط الحاكمة في قرطبة، لأن معظم الأسطول الأندلسي كان مرابطاً على الساحل الشرقي، واعتمد الأندلسيون في مقاومة هذا الخطر على جيوشهم البرية التي أجبرت المغيرين على التراجع[٢].

ولا شك بأن هذا الحادث الخطير قد نبَّه أذهان الحكَّام إلى ضرورة اتخاذ إجراءات دفاعية، ولهذا قام عبد الرَّحمن الثاني بعدة أعمال هامَّة في هذا السبيل منها: أنَّه أحاط مدينة إشبيلية بأسوار حجرية عالية، كما بنى في مينائها داراً لبناء السفن العسكرية، وأقام قواعد ثغرية على طول الساحل الغربي المطل على المحيط الأطلسي، وهي عبارة عن سلسلة من الحصون الدفاعية على مصبَّات الأنهار، وزودها بالسفن والرجال والعتاد، وبذلك أمكن تجميد الخطر النورماني.

العلاقة مع البيزنطيين

شهدت علاقات الأمويين في الأندلس مع الأمبراطورية البيزنطية، في عهد عبد الرَّحمن الثاني، حالة من الاتصالات السلمية. وكان من مصلحة الأمبراطور البيزنطي ثيوفيل، آنذاك، البحث عن حلفاء يؤازرونه في صراعه مع القوى الإسلامية المختلفة في الشرق والغرب، بعد الضربات التي تلقَّتها الأمبراطورية من جانب

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٨٧ ـ ٨٨. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٦٦. Levi Provençal: I pp 220-225.

(٢) ابن عذارى: المصدر نفسه.

الخلافة العبَّاسية في بغداد على يد المعتصم، وانتزاع جزيرة صقلية من قِبل الأغالبة في شمالي إفريقية، بالإضافة إلى جزيرة كريت التي انتزعها الأندلسيون الربضيون.

كل ذلك، جعل الأمبراطور البيزنطي يعتقد أنه لا قِبل له بقوة المسلمين المتزايدة في البحر المتوسط، فعزم على أن يلتمس المساعدة من الدول الأخرى، فأرسل سفارة إلى الأمبراطور الكارولنجي لويس التقي، لكن نتائجها كانت سلبية، فالتفت عندئذ إلى الأندلس لاستقطاب عبد الرَّحمن الثاني وإقناعه بالتعاون معه ضد الخليفة العبَّاسي. وعلى الرغم من أن سياسة قرطبة تجاه بيزنطية كانت آنذاك استمراراً لسياسة الأسلاف في دمشق فإن تبادل السفارات والهدايا بين الجانبين لم يخرج عن إطار الزيارات العادية[١].

مظاهر الحياة المدنية

واكب عهد عبد الرَّحمن الثاني بروز النهضة العلمية والأدبية في بغداد، مما جعل الأندلس محجة الطلاَّب من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. وكان من الطبيعي بعد الاستقرار الداخلي الذي شهدته البلاد، وبحكم طبع الأمير الأموي المفطور على الأدب والعلم، فضلاً عن مزاجه الهادىء، وإحساسه المرهف في تذوق الجمال[٢]؛ أن يتجه هذا الأمير نحو تلك الحضارة الشرقية الجديدة، ففتح أبواب الأندلس للتجارة العراقية، وغزت الفنون الشرقية الأندلس لا سيما الموسيقى، عن طريق المغني والموسيقي الشهير «زرياب» الذي وصل إلى الأندلس حاملاً معه تراث بغداد الفني، وقرَّبه الأمير الأموي من مجلسه، وأحدث هذا الرجل انقلاباً حقيقياً في الحياة الاجتماعية بعامة، استهدف كل جانب من جوانبها الكثيرة، سواء في الأطعمة، وآداب الموائد أو في مظاهر الأناقة، والتنويع في الألبسة تبعاً للفصول، مع مراعاة النوع واللون[٣].

وحفل عهد عبد الرَّحمن الثاني بالأعمال الإدارية والعمرانية التي نقلت الأندلس من طور البداوة إلى طور الحضارة. فمن الناحية الإدارية، فقد أعاد تنظيم الجهاز الحكومي، وأجرى تعديلات في الوظائف العامة لعل أهمها نظام الوزارة التي

---

(١) المقري: جـ ١ ص ٣٢٣ Bury, J. B: History of the Eastern Roman Empire p 273 .

(٢) انظر صفات الأمير عبد الرحمن الثاني ومآثره عند ابن القوطية ص ١١٤ ـ ١١٧. وابن عذارى جـ ٢ ص ٩٠ ـ ٩٣. وابن حيان: ص ٢٢٢ ـ ٢٢٥.

(٣) ابن القوطية: ص ١٠٧، ١١٢ ـ ١١٣. المقري: جـ ٤ ص ١٢٠ وما بعدها.

قسَّمها إلى عدة وزارات مختلفة متخصِّصة يرأس كلاً منها وزير، هو الحاجب ويتصل بالأمير مباشرة، ووزَّع المهام الأمنية على عدة أشخاص بعد أن كانت مركَّزة في يد شخص واحد هو صاحب السوق[١].

أما الأعمال الإنشائية التي تمَّت في عهده فهي كثيرة. فقد بنى مسجداً في إشبيلية، وأمر ببناء مسجد آخر في مدينة جيان، ووسَّع المسجد الجامع في قرطبة، وبنى مدينة مرسية، وأحاط إشبيلية بسور حجري كبير لصدِّ غارات النورمان، وأقام في قرطبة طريقاً ساحلياً على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير، وبنى قصراً له بجوار قصر الإمارة الذي حوى تطويراً فنياً ومعمارياً ملفتاً[٢].

وفاة عبد الرَّحمن الثاني

شهد أواخر عهد عبد الرَّحمن الثاني صراعاً على السلطة بين أولاده، كانت تغذيه نساؤه الكثيرات عن طريق تحريض أبنائهن[٣]. ويبدو أن الأمير الأموي شعر بهذه المشكلة بدليل أنه لم يوص لأحد من بعده، لكن كان متداولاً في الأوساط الحاكمة أن المرشح لولاية العهد هو ابنه الأكبر محمَّد.

توفي عبد الرَّحمن الثاني في (شهر ربيع الآخر عام ٢٣٨هـ/ شهر أيلول عام ٨٥٢م)[٤].

محمَّد بن عبد الرَّحمن	**٢٣٨ ـ ٢٧٣هـ/ ٨٥٢ ـ ٨٨٦م**
المنذر بن محمَّد	**٢٧٣ ـ ٢٧٥هـ/ ٨٨٦ ـ ٨٨٨م**
عبد اللّٰه بن محمَّد	**٢٧٥ ـ ٣٠٠هـ/ ٨٨٨ ـ ٩١٢م**

اضطراب الحكومة المركزية[٥]

تولى حكم الإمارة بعد وفاة عبد الرَّحمن الثاني أمراء ضعاف، فتمزَّقت الأندلس وتفجَّرت الثورات في أنحائها المختلفة، واستقلَّ الثوار بحكم المناطق التي ثاروا فيها، وتقلَّص نفوذ بني أمية، فاقتصر على قرطبة وضواحيها. وتُعدُّ المدة الزمنية بين أعوام (٢٣٨ ـ ٣٠٠هـ/ ٨٥٢ ـ ٩١٢م) بمجموعها، مضطربة سياسياً وعسكرياً،

---

(١) ابن القوطية: ص ١٠٨. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٩١.

(٢) ابن القوطية: ص ١٠٩.

(٣) انظر فيما يتعلق بهذا الصراع، المصدر نفسه: ص ١١٧ ـ ١٢٠.

(٤) ابن حيان: ص ١٥٨، ١٦٣. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٩٠.

(٥) انظر فيما يتعلَّق بأوضاع البلاد المضطربة في هذه المرحلة: ابن القوطية: ص ١٢٣ ـ ١٤١.

وتُمثِّل انتكاسة للمنجزات الكبيرة التي تحقَّقت على يد الأمراء الأوائل، وتتَّصف بأنها موحدة الملامح، متشابهة الظروف، بحيث لا يمكن أن نميِّز أي عهد منها عن الآخر، بل كانت متلاحمة، أطلق عليها المؤرِّخون اسم «دويلات الطوائف الأولى».

خلف الأمير محمَّد أباه عبد الرَّحمن الثاني[1]، وله تجربة سابقة في فن الحكم بفعل أن والده كلَّفه خلال حياته بمهمات سياسية وعسكرية، ولكن ظروف الإمارة لم تساعده على الاستمرار في تحقيق طموحات الأسرة الأموية، ولما توفي خلفه ابناه المنذر وعبد اللَّه على التوالي[2].

والواقع أن الإمارة الأموية عانت خلال عهود الأمراء الثلاثة من المتاعب السياسية والاجتماعية على الرغم من الرخاء الذي عمَّ ربوع البلاد، ذلك أن المجتمع الأندلسي لم يكن في يوم من الأيام متجانساً، وتشكَّل من شعوب متعدِّدة خضعت للسيادة الأموية إما طوعاً أو كرهاً، دون أن يجمعها قاسم مشترك، وعاشت في تنافر عنصري وديني، ولم يندمج بعضها ببعض.

شكَّل السكان الأصليون الغالبية العظمى، واعتنق بعضهم الإسلام، ثم كان هناك العرب، وهم أقلية من حيث العدد، توزعت ولاءاتهم قبلياً بين قيسي ويمني، بالإضافة إلى أقلية من البربر نازعتها مشاعر السيطرة والنفوذ.

تفرَّقت هذه الأجناس في ولايات متباعدة أو متقاربة دون أن تنصهر في بوتقة المجتمع الأندلسي، وراحت تعمل على تحقيق طموحاتها العنصرية والوطنية المختلفة، لكنها كانت تصطدم بالقوة المركزية، فتخبو إلى حين سنوح فرصة أخرى للانفجار، حتى إذا ما ضعفت الحكومة المركزية، انتفضت من جديد، وظهرت أطماعها على شكل استقلال محلي، وساعدتها طبيعة أرض الأندلس الجبلية.

ولعل أهم الحركات الاستقلالية التي قامت ضد الحكومة المركزية في قرطبة في هذه المرحلة والتي تمثل الأسر الكبيرة هي:

المولدون: أعلن بنو موسى في شمال شرقي إسبانيا، منطقة الثغر الأعلى ولاية مستقلة عاصمتها مدينة سرقسطة، واستقل بنو مروان بقيادة عبد الرَّحمن الجيليقي في بطليوس غربي إسبانيا، وامتد نفوذهم حتى جوار إشبيلية، واستقل بنو حفصون في المرتفعات الإسبانية الجنوبية الممتدة بين مالقة شرقاً ورُندة غرباً، وقاعدتهم قلعة

---

(١) ابن القوطية: ص ١١٤. ابن عذاري: جـ٢ ص ٩٣ ـ ٩٤.

(٢) ابن عذاري: جـ٢: ص ١١٣ ـ ١١٤، ١٢٠ ـ ١٢١.

بُبَشْتَر. وقد جسَّد عمر بن حفصون التطلعات الوطنية لأكثرية المولدين، وكان قد ارتد عن الإسلام واعتنق النصرانية في محاولة لتصعيد الأزمة مع قرطبة ووضعها في مأزق جديد لاستقطاب القوى النصرانية في الشمال وبخاصة الملك ألفونسو الثالث.

البربر: سيطر بنو ذي النون على طليطلة، وبنو الملاَّخ على جيان.

العرب: استقل بنو الحجاج بإشبيلية، وسعيد بن جودي السعدي بغرناطة.

ولعل من الخطأ أن نضع مسؤولية ذلك الانهيار السياسي على عاتق الأمراء محمَّد وابنيه المنذر وعبد اللَّه، لأنهم تولوا الحكم في ظروف غير عادية، وتحتاج تالياً إلى رجل فذ وحاكم غير عادي. وأدَّت التحولات الثقافية والاجتماعية، التي غيَّرت ملامح الأندلس، دوراً في هذا التمزق السياسي لتدفع البلاد إلى مرحلة جديدة في مسار التاريخ الأندلسي، فلم تعد البلاد منذ ذلك الحين تقبل الخضوع لأقلية عربية، وتطلعت مختلف الفئات إلى المشاركة في الحكم أو الاستئثار به معتمدة إما على تفوقها البشري أو على تراثها القديم[١].

---

(١) انظر الأحداث السياسية والاجتماعية التي حدثت في عهد الأمراء الثلاثة محمَّد وابنيه المنذر وعبد اللَّه: ابن القوطية ص ١٢٠ ـ ١٤١. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٩٣ ـ ١٤٩. حيث تفاصيل وافية.

الفصل السابع

العصر الأندلسي

٩٥ ـ ٨٩٧هـ/٧٣٨ ـ ١٤٩٢م

عهد الخلافة الأموية

٣٠٠ ـ ٤٢٢هـ/ ٩١٢ ـ ١٠٣١م

عهد دول الطوائف

٤٢٢ ـ ٨٩٧هـ/١٠٣١ ـ ١٤٩٢م

أسماء الخلفاء الأمويين في الأندلس ومدة خلافة كل منهم

عبد الرَّحمن الثالث: الناصر	٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١م
الحكم الثاني: المستنصر بالله	٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ/ ٩٦١ ـ ٩٧٧م
هشام الثاني: المؤيد: المرة الأولى	٣٦٦ ـ ٣٩٩هـ/ ٩٧٧ ـ ١٠٠٩م
محمَّد الثاني: المهدي	٣٩٩ ـ ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩ ـ ١٠١٠م
سليمان بن الحكم: المستعين: المرة الأولى	٤٠٠هـ/ ١٠١٠م
هشام الثاني: المؤيد: المرة الثانية	٤٠٠ ـ ٤٠٣هـ/ ١٠١٠ ـ ١٠١٣م
سليمان بن الحكم: المستعين (الظافر): المرة الثانية	٤٠٣ ـ ٤٠٧هـ/ ١٠١٣ ـ ١٠١٦م
علي بن حمود: الناصر، من أسرة الحموديين	٤٠٧ ـ ٤٠٨هـ/ ١٠١٦ ـ ١٠١٨م
عبد الرَّحمن الرابع: المرتضى	٤٠٨هـ/ ١٠١٨م
القاسم بن حمود: المرة الأولى	٤٠٨ ـ ٤١٢هـ/ ١٠١٨ ـ ١٠٢١م
يحيى بن علي: المرة الأولى	٤١٢ ـ ٤١٣هـ/ ١٠٢١ ـ ١٠٢٢م
القاسم بن حمود: المرة الثانية	٤١٣ ـ ٤١٤هـ/ ١٠٢٢ ـ ١٠٢٣م
عبد الرَّحمن الخامس: المستظهر	٤١٤هـ/ ١٠٢٤م
محمَّد الثالث: المستكفي	٤١٤ ـ ٤١٦هـ/ ١٠٢٤ ـ ١٠٢٥م
يحيى بن علي: المرة الثانية	٤١٦ ـ ٤١٨هـ/ ١٠٢٥ ـ ١٠٢٧م
هشام الثالث: المعتمد	٤١٨ ـ ٤٢٢هـ/ ١٠٢٧ ـ ١٠٣١م

عبد الرَّحمن الثالث «الناصر»

(٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١م)

تولية عبد الرَّحمن الثالث الحكم

تولى الأمير عبد الرَّحمن بن محمَّد بن عبد اللَّه الحكم وهو في الحادية والعشرين من عمره، وقد وقع الاختيار عليه في ظل ظروف صعبة ومعقَّدة. ذلك أن أعمامه كانوا أحق منه في تولي هذا الأمر، لكنهم زهدوا فيه بفعل تمزُّق البلاد، ويبدو أنهم رأوا أنفسهم عاجزين عن وضع حد لتدهور أوضاع الدولة. ومن جهة أخرى، كان عبد الرَّحمن شاباً، يتدفق حيوية ونشاطاً، طموحاً، فتعلَّقت آمال الجند به. ودفعه أعمامه إلى سدة الحكم، وفضَّلوه على أنفسهم آملين بأن يُنقذ الموقف المتدهور. وهكذا تولى الأمير عبد الرَّحمن الثالث عرش الإمارة في (شهر ربيع الأول عام ٣٠٠هـ/ شهر تشرين الأول عام ٩١٢م)[١]، دون منازع مما أتاح له حرية الحركة للتصدي للمشكلات التي تعاني منها بلاده.

الأوضاع الداخلية

إعادة الوحدة السياسية إلى البلاد

تسلم عبد الرَّحمن الثالث الحكم والأندلس قد أرهقتها الثورات والانقسامات، فرأى أنه لا بد من القضاء عليها، وإحلال السلام في ربوع البلاد، وقد هدف إلى ضمِّ كافة فئات المجتمع الأندلسي، وتحويلهم إلى أمة متَّحدة اتحاداً حقيقياً[٢].

استهل عهده بخطوة مهمة في إطار معالجة الوضع الداخلي، فأصدر برنامجاً عاماً لسياسة جديدة، تجلَّت فيه دعوة إلى الثائرين في كافة أنحاء البلاد للانفتاح والحوار، والعودة إلى الجماعة والوحدة والطاعة، كما تضمَّن في الوقت نفسه تهديداً ووعيداً بالعقاب، وأعقب ذلك بإرسال ممثلين عنه إلى الأقاليم الثائرة للتحاور[٣].

ويبدو أن هذه الخطوة جاءت في الوقت المناسب لأن الناس كانت قد سئمت الحروب الطويلة الطاحنة التي أضرَّت بأمنهم وتجارتهم، وأوقعت البلاد في فوضى حقيقية، كما أن الأمير الجديد لم يكن أسير عقدة خاصة أو اعتبارات ضيقة، بل كان

---

(١) ابن الخطيب: ص ٢٨ ـ ٢٩. ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٥٦.

(٢) ابن عذاري: المصدر نفسه ص ١٥٧. (٣) المصدر نفسه: ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

نموذجاً فريداً كرجل دولة يكرِّس كل طاقاته للعمل دون كلل أو ملل، واستطاع بما أبداه من حزم وكياسة أن يكتسب ولاء غالبية الثائرين وبخاصة في مقاطعتي حيان والبيرة، بينما تجاهلت أقلية صغيرة مثل بني حفصون نداءه، مفضِّلة البقاء خارج دائرة النفوذ الأموي وعدم التعاطف معه، فكان على عبد الرَّحمن الثالث أن يكافح ضد هذه القوى المتمرِّدة لإخضاعها.

وقد شهد إقليم ريَّة، معقل عمر بن حفصون، فاتحة نشاطه العسكري، ونجح في دخوله والسيطرة عليه، وانكفأ ابن حفصون إلى حصن بُبَشْتَر، ثم انتقل الأمير إلى إشبيلية، حيث قضى على استقلال بني الحجاج في عام (٣٠١هـ/ ٩١٤م)[١].

والواقع أن عمر بن حفصون وجد نفسه في موقف حرج بعد فشل كفاحه الطويل مع السلطة المركزية في قرطبة، وما نتج عن ذلك من تدهور اقتصادي حاد، مما أفقد حركته كثيراً من حماسها، فاضطر إلى عقد صلح مع النظام الجديد، وأرسل إلى عبد الرَّحمن الثالث عهداً بالاعتراف به، والالتزام بالولاء للسلطة المركزية، ثم زار قرطبة في عام (٣٠٣هـ/ ٩١٦م) ليقدم خضوعه للأمير الأموي[٢]، واضعاً بذلك بداية النهاية لأخطر ثورة شهدها الحكم الأموي في الأندلس، ولم يجد عبد الرَّحمن أدنى صعوبة في تصفية خلفاء عمر بن حفصون، ودخل معقلهم بُبَشْتَر في عام (٣١٥هـ/ ٩٢٨م)[٣].

كان القضاء على ثورة عمر بن حفصون كافياً لإعطاء عبد الرَّحمن الثالث الاطمئنان إلى أوضاعه، بعد أن شعر بأنه اجتاز أصعب المراحل في طريق إعادة الوحدة السياسية.

إحياء الخلافة الأموية

بعد أن استتبَّ الأمر لعبد الرَّحمن الثالث، وجد أن اللقب الذي ورثه عن أسلافه، وهو الأمير، لم يعد يتسع لطموحه الكبير، ورأى أنه أحق بألقاب الخلافة من دولة منحلة، هي دولة الخلافة العبَّاسية في بغداد، ودولة طارئة، هي الدولة الفاطمية في المغرب، فاتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين، وأمر في عام (٣١٦هـ/ ٩٢٨م) بأن تكون الدعوة له في مخاطباته والمخاطبات عنه في جميع ما يجري ذكره بـ «أمير

---

(١) ابن عذاري: ص ١٦١ ـ ١٦٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٦١، ١٦٩، ١٧١. ابن الخطيب: ص ٣٢.

(٣) أخبار مجموعة: ص ١٥٣ ـ ١٥٤. ابن الخطيب: ص ٣٣ ـ ٣٤.

المؤمنين»، لما استحقه من هذا الاسم، وتلقَّب بلقب الناصر لدين الله أمير المؤمنين، كما عُرف بعبد الرَّحمن الناصر[1].

وهكذا تحوَّل الحكم في الأندلس من إمارة إلى خلافة، واستمر لقب «خليفة» في ذرية عبد الرَّحمن الثالث حتى سقوط دولة الخلافة الأموية في عام (٤٢٢هـ/١٠٣١م).

ويبدو أن الأمير الأموي كان مدفوعاً بعدة عوامل لعل أهمها[2]:

ـ ضعف الخلافة العبَّاسية في بغداد كمؤسسة دينية وسياسية، وعجزها عن حماية العالم الإسلامي، وهيمنة الأتراك على مقدراتها وتحكُّمهم بالخلفاء، وشكَّل اغتيال الخليفة العبَّاسي المقتدر مؤشراً لاتخاذ مواقف أكثر جرأة في مناهضتها.

ـ قيام دولة فتية معادية في شمالي إفريقية، هي الدولة الفاطمية التي تطلعت نحو الأندلس لضمِّه، مما كان باعثاً للقلق الشديد لدى الأمير الأموي، واتخاذه الحيطة لصرف اهتمامها عن بلاده.

ـ كانت الوحدة السياسية للأندلس قد قطعت شوطاً بعيداً بعد إخضاع القوى الثائرة على الحكم، فكان لا بد، بعد ذلك، من رفع مكانة الأمير السياسية والدينية، وإعطاء قرطبة دوراً أكثر مركزية بحيث تشدِّد قبضتها على الأطراف.

ـ الاستجابة لرغبة الأندلسيين في أن يكون لهم خليفة.

الأوضاع الخارجية

العلاقة مع الفاطميين في شمالي أفريقية

بعد تحقيق الوحدة السياسية، واستقرار الأوضاع الداخلية، التفت عبد الرَّحمن الناصر إلى الشؤون الخارجية، يساعده في ذلك جيش مدرَّب اختار معظم عناصره من المماليك الصقالبة المتفانين في خدمته.

ولا شك بأن قيام دولتين متجاورتين مختلفتي المذهب، كان كافياً بأن يسبِّب صداماً بينهما. ونظر الفاطميون إلى الحكم الأموي في الأندلس على أنه امتداد لخلافة دمشق، وبذلك كان لهم أطماع جدِّية في الأندلس. واضطر عبد الرَّحمن الناصر أن يقوم بخطوات إيجابية لمحاربة النفوذ الفاطمي ومنع امتداده إلى بلاده، منها:

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٩٨. ابن الخطيب: ص ٢٩ ـ ٣٠. المقري: جـ ١ ص ٣٣٠.

(٢) العبادي: ص ٣٨٠.

ـ تقوية الأسطول الأندلسي، بفعل أن البحرية الأندلسية لم تكن متكافئة آنذاك مع احتياجات دولة لها شواطىء ممتدة على مسافات طويلة، بالإضافة إلى تهديد الأسطول الفاطمي القوي في البحر المتوسط الذي هاجم المرية منطلقاً من قواعده في جزيرة صقلية، فأقام المنشآت الصناعية لبناء السفن العسكرية، واهتم بإعداد أسطول بحري قوي، كما فرض حصاراً على مضيق جبل طارق لمنع وصول إمدادات الفاطميين إلى الثائر عمر بن حفصون.

ـ تحصين الثغور الأندلسية الجنوبية المواجهة للمغرب، حتى لا تتعرَّض لهجوم فاطمي مفاجىء، فأشرف بنفسه على بناء التحصينات الدفاعية في جزيرة طريف والجزيرة الخضراء.

ـ ضمُّ بعض ثغور ساحل المغرب الأقصى المواجهة لبلاده، مثل مليلة وسبتة وطنجة، وحصَّنها.

ـ استقطاب رؤوساء الدويلات وزعماء القبائل في المغربين الأوسط والأقصى، مثل دولة الأدارسة، وإمارة نكور أو بني صالح، وقبيلة زناتة البربرية، وذلك لتحقيق التوازن، ومواجهة الفاطميين المتحالفين مع قبائل كتامة ومكناسة.

ـ تأييد الثورات ودعم الحركات المعادية للحكم الفاطمي في شمالي إفريقية، مثل ثورة أبي يزيد الخارجي التي شغلت عهد القائم الفاطمي وجزءاً من عهد ابنه إسماعيل المنصور.

ـ التحالف مع أعداء الدولة الفاطمية في الشرق والغرب. فتحالف مع الأمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع الذي كان يرغب في استعادة جزيرة صقلية من يد الفاطميين، وحرص على توطيد علاقته بالإخشيديين في مصر، كما تحالف مع ملك إيطاليا هودج دي بروڤانس الذي كان على عداء مع الفاطميين.

غير أن تحوُّل السياسة الفاطمية من المغرب إلى المشرق، وهو المجال الطبيعي للطموحات الفاطمية، حيث الخلافة العبَّاسية السنيَّة في بغداد، وبخاصة بعد ضمِّ مصر؛ أنقذ الطرفين من صراع دموي طويل.

العلاقة مع الممالك الإسبانية في الشمال

عندما اعتلى عبد الرَّحمن الناصر الحكم في قرطبة وجد نفسه أمام تحالف إسباني قوي ضمَّ سانشو الأول ملك ناڤارا (نبرّة) وأردونيو الثاني ملك ليون وقشتالة، وكلاهما تجسَّدت فيه آمال الإسبان للانعتاق من الحكم الإسلامي. واستغل أردونيو الثاني حالة التفكُّك التي كانت تمر بها الأندلس واحتلَّ بعض المدن والأراضي

الإسلامية، مثل مدينة يابرة الواقعة غربي الأندلس، فخرَّبها وقتل حاكمها مروان بن عبد الملك[١].

ولعل أخطر العمليات العسكرية التي قام بها تلك التي استهدفت مدينة ماردة في عام (٣٠٥هـ/ ٩١٧م)، فقد استولى عليها، ودمَّر الجيش الأموي بقيادة أحمد بن أبي عبيدة[٢].

لم يكن باستطاعة الناصر تجاهل هذا النشاط الإسباني الواسع ضد أراضيه، وتجسَّد تصميمه على توجيه ضربة انتقامية للملك الليوني في عمق بلاده، وخاض من أجل ذلك حروباً طويلة منذ عام (٣٠٨هـ/ ٩٢٠م)، وأحرز عدة انتصارات، واستعاد عدداً من المواقع المهمَّة لا سيما أوسما وتطيلة[٣]. غير أن راميرو الثاني خليفة أردونيو الثاني، الذي اتَّصف بالنزعة الصليبية، أنزل به هزيمة في معركة جرت عند خندق مدينة شمنقة في (شوال ٣٢٧هـ/ آب ٩٣٩م)[٤].

لم تُحدث هذه المعركة أي تغيير في وضع الأراضي، كما أن استئناف العمليات العسكرية التقليدية من جانب الخلافة ضد ممالك الشمال في أعقاب الهزيمة، كان كافياً لردع أية محاولة توسعية من جانب الإسبان.

ثم ساد الهدوء هذه الجبهة في أعقاب النزاع الداخلي الذي نشَبَ بعد وفاة راميرو الثاني، بين ولديه أردونيو وسانشو، وقد فاز هذا الأخير بالحكم بمساعدة الخليفة الأندلسي، الذي أضحى آنذاك أقوى شخصيات العصر[٥].

العلاقة مع الدول الأوروبية

تستوقفنا في نطاق العلاقات بين الخلافة الأموية في الأندلس والدول الأوروبية البارزة، تلك العلاقات السياسية التي نشأت بينها وبين كل من الأمبراطورية البيزنطية، والأمبراطورية الكارولنجية، بفعل الانسجام الذي فرضته تطورات الأحداث والظروف المتشابهة[٦].

وما تعرَّضت له الدولة البيزنطية آنذاك من هجمات المسلمين في الشرق، وما

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٧٢. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٤١.

(٢) ابن عذارى: المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: جـ ٢ ص ١٧٥ ـ ١٨٠.

(٤) أخبار مجموعة: ص ١٥٥ ـ ١٥٦. ابن الخطيب: ص ٣٦ ـ ٣٧. المقري: جـ ١ ص ٣٣٢.

(٥) الحميدي: ص ٤٢.

(٦) بيضون: ص ٣١٨.

كان من نزاع وتنافس ديني وسياسي بين الأمويين في الأندلس من جهة، وبين الفاطميين والعبَّاسيين من جهة أخرى، أدَّى إلى التقارب بين قرطبة والقسطنطينية؛ فتبادل العاهلان عبد الرَّحمن الناصر وقسطنطين السابع السفارات في عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٦م)، وفي عام (٣٣٨هـ/ ٩٤٩م)(١). ولعل الأمبراطور البيزنطي ابتغى من وراء هذا التقارب، الحصول على مساعدة الخليفة الأموي في إعداد حملة كبيرة ضد جزيرة كريت، أَو ضمان حياده على الأقل(٢). بالإضافة إلى ذلك، فقد كان قسطنطين السابع شغوفاً بالعلم والتاريخ والفنون، فانتعشت الحركة العلمية في عهده، ويبدو أن اتصالاته بالخلافة الأموية في الأندلس قد تمَّت ضمن هذا الإطار الثقافي، وتستوقفنا هديته للخليفة وهي عبارة عن كتابين نفيسين، أحدهما في علم النبات والآخر في السيرة وأخبار الملوك الأقدمين(٣).

أما فيما يتعلَّق بالعلاقات السياسية التي جمعت عبد الرَّحمن الناصر وأوتو الكبير ملك الدولة الكارولنجية وأمبراطور الدولة الرومانية المقدَّسة، فيبدو أنَّها جاءت نتيجة للغارات البحرية التي كان يشنُّها الربابنة الأندلسيون على سواحل بلاده الجنوبية، فحمَّل أوتو الكبير عبد الرَّحمن الناصر مسؤولية هذه الأعمال، وأرسل إليه في عام (٣٣٩هـ/ ٩٥٠م) رسالة احتجاج ردَّ عليها الناصر برسالة مماثلة، وبعد أعوام قليلة، أي في عام (٣٤٢هـ/ ٩٥٣م)، أرسل أوتو الكبير رسالة أخرى إلى الناصر حملها إليه الأسقف جان دي جوزر، وعلى الرغم من شدة لهجة الرسالة التي تضمَّنت تجريحاً بحق النبي محمَّد ﷺ، ورفض الخليفة استلامها، وعصبية الأسقف؛ فقد أحاطه الخليفة بالتكريم، وأنزله في قصر قريب من إحدى الكنائس. وحتى يتيقَّن من أن مضمون الرسالة يُمثِّل وجهة النظر الرسمية للدولة الكارولنجية، أرسل الخليفة رسولاً إلى فرانكفورت هو المستعرب رثموندو، حيث اجتمع بأوتو الكبير، وبدَّد بحنكته سوء التفاهم الذي غمر العلاقات بين الدولتين، ولما عاد إلى قرطبة أرسل معه مبعوثاً من قِبله، استقبله الخليفة ورحَّب به. وبناء على تعليمات الأمبراطور تخلَّى الأسقف عن إصراره على تقديم الرسالة التي يحملها(٤).

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢١٣، ٢١٥.

(٢) المصدر نفسه. Camb Med. History: IV p 66.

(٣) المراكشي، عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٥٥.

(٤) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢١٨. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٤٣. المقري: جـ ١ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

إنجازات عبد الرَّحمن الناصر المدنية

تميَّز عهد عبد الرَّحمن الناصر، على تطاوله، بالاستقرار الداخلي، وشهدت الأندلس نهضة عمرانية واقتصادية أثارت إعجاب شعوب أوروبا في العصر الوسيط. وكانت قرطبة قد ضاقت بسكانها، فرأى الناصر أن يقيم مؤسَّسات حكومية تتناسب مع وضع الدولة الجديدة بعد القضاء على الثورات، وإعادة توحيد الأندلس، فبنى مدينة الزهراء في سفح جبل العروس بالقرب من قرطبة، بهدف إقامة مدينة ملكية خاصة أو داراً للخلافة السنية الجديدة التي أقامها في الأندلس، وإن كانت الروايات التاريخية تشير إلى أنه بناها كبادرة تكريم لجارية له التي تحمل الاسم نفسه[1]، وروعي في تخطيطها لتستوعب أجهزة الحكم ورجال الحاشية والجيش، وبنى فيها قصراً زخرفه حتى غدا تحفة فنية رائعة، سمَّاه قصر الخلافة.

ووسَّع الناصر مسجد قرطبة الكبير، ولعل أبرز المنشآت التي أضيفت إليه تلك المنارة المذهَّبة التي سمِّيت بمنارة الناصر، فكانت شاهقة الارتفاع، وغاية في الفخامة والدقة الفنية[2].

وازدهرت الحياة الاقتصادية في عهد الناصر، فامتلأت خزانة الدولة بالأموال المتحصِّلة من التجارة والصناعة والزراعة، وانعكس الازدهار الاقتصادي على رخاء العاصمة قرطبة، فبلغت ذروة التطور والتقدم، ونمت نمواً كبيراً لتأخذ مكانها المميز بين أعظم مدن ذلك العصر إلى جانب بغداد والقسطنطينية.

وإلى جانب الازدهار الاقتصادي، بلغت العاصمة قمة التألق الثقافي والحضاري، فزخرت مكتباتها بآلاف المخطوطات النفيسة، وغصَّت أروقة مساجدها وقصورها بالنخبة من العلماء والشعراء والمثقفين، وبلغت النهضة العلمية مرحلة النضج والعطاء في عهد الناصر.

وفاة عبد الرَّحمن الناصر

توفي الخليفة عبد الرَّحمن الناصر في (٢ رمضان ٣٥٠هـ/ ١٥ تشرين الأول ٩٦١م) في قصر الزهراء، وخلفه ابنه الحكم المستنصر بالله بعهد منه[3]، وطُوي بموته أزهى عهود التاريخ الأندلسي.

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٣١. ابن الخطيب: ص ٣٨.

(٢) ابن عذارى: المصدر نفسه: ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٣٢.

الحكم الثاني «المستنصر بالله»

(٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ/ ٩٦١ ـ ٩٧٧م)

صفات المستنصر

جاء المستنصر إلى الحكم ولديه تجربة في الشؤون الإدارية والعسكرية بما اكتسبها نتيجة مصاحبة والده، لكن دوره اقتصر على المحافظة على مكتسبات والده في الداخل، وحمايتها من غارات الإسبان في الخارج. فقد ظهر قوياً، حازماً، حكيماً، عالماً، أديباً، لكن طغت على شهرته صفاته: عالماً، أديباً، جمَّاعاً للكتب النفيسة، وكان يقضي الساعات الطوال في المكتبة بين المخطوطات، إلَّا أنه لم يكن أسير هذا النهم الثقافي والرغبة في الوصول إلى المعرفة، وإنما كان يجد من الوقت متسعاً للقيام بأعباء الدولة ومعالجة شؤونها.

الأوضاع الخارجية

العلاقة مع الممالك الإسبانية في الشمال

يبدو أن أمراء الممالك النصرانية في الشمال سئموا من تدخُّل الناصر في شؤونهم الداخلية، وهيمنته عليهم، كما لم يكونوا مخلصين فيما ارتبطوا به معه من عهود ومواثيق، فساءت العلاقات بينهم وبين المستنصر.

وخرق سانشو ملك ليون، الذي كان الناصر قد ساعده على استرداد ملكه لقاء تنازله عن بعض الحصون، عقد الهدنة، لكنه لم يذهب أبعد من ذلك في محاربة أعدائه الأمويين لأن الظروف لم تكن في صالحه، ذلك أن منافسه أردونيو المخلوع وفد على قرطبة يلتمس المساعدة لاسترداد عرشه، ويعلن خضوعه للخليفة[1]. ولما علم سانشو بالأمر خشي عاقبة عمله، لذلك أسرع إلى تصحيح موقفه بتنفيذ شروط الاتفاق المذكور، فأرسل وفداً إلى الخليفة يعرض عليه الالتزام بطاعته وتنفيذ الاتفاق المعقود مع الخليفة الراحل[2]، لكن وفاة أردونيو المفاجئة أوقفت إجراءات التنفيذ، ولم تكن النتيجة في مصلحة السلام والعلاقات الودية لأن النصارى شعروا بخطورة الوضع، وعقدوا حلفاً لمواجهة المسلمين مؤلفاً من سانشو ملك ليون وخصمه الكونت فرديناند أمير قشتالة، وغرسية سانشيز ملك نافارا وكونت برشلونة.

---

(١) ابن عذارى: ج ٢ ص ٢٣٥. ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥.

(٢) المصدران نفساهما.

ويبدو أن طموح الحلفاء قد تعثَّر أمام المبادرة السريعة التي اتخذها المستنصر بإعلانه التعبئة العامة، ومهاجمته قشتالة حيث انتصر على أميرها في عام (٣٥٢هـ/ ٩٦٣م) وأجبره على الرضوخ لشروطه واحترام سلامة الحدود، كما انتصر على قوات كل من نافارا وليون، وانتزع من أميريهما بعض الحصون[١].

وهكذا استطاع المستنصر مداهمة الإسبان في عمليات متلاحقة وسريعة منعتهم من اتخاذ أية مبادرة هجومية ضد مواقع المسلمين.

العلاقة مع البربر في المغرب الأقصى

تبنَّى المستنصر سياسة أبيه الناصر تجاه بلدان شمالي إفريقية من دون أي تعديل، ورأى، كوالده، أن الوجود الفاطمي على سواحل المغرب الأقصى المقابلة للأندلس لا يمكن إلَّا أن يشكِّل تهديداً لسلامة الخلافة الأموية في الأندلس، فكان يرسل الرسل والجواسيس ينتشرون بين قبائل البربر لاستقطابهم، ولم يجد صعوبة بما بذل من مال في استمالة بني مغراوة من قبائل زناتة.

واستغل المستنصر ولاء زناتة لتحقيق هدفين:

الأول: الاحتفاظ بالمواقع العسكرية التي كانت تحت سيطرة الأمويين على ساحل المغرب الأقصى، مثل طنجة وسبتة ومليلة.

الثاني: إضعاف الحكم الفاطمي في هذه المنطقة بتحقيق التوازن في ميزان الصراع القبلي، إلَّا أن تحولاً أساسياً طرأ على سياسة الفاطميين آنذاك، بالالتفات نحو المشرق، ولم يعد لهم في شمالي إفريقية ذلك الطابع العسكري المهدِّد لكيان الأمويين في الأندلس.

ونتيجة لهذه المتغيرات السياسية اتخذ الصراع في المغرب بُعداً داخلياً، فتمركزت قبائل صنهاجة في المغربين الأدنى والأوسط، وأهملت شؤون المغرب الأقصى، مما أتاح لسكانه من الأدارسة والزناتيين فرصة للتحرر من سيطرة الأمويين. وفي المقابل وجد المستنصر في ابتعاد صنهاجة عن المغرب الأقصى فرصة لتأكيد نفوذه في هذا الإقليم، فعمل على التوسع شرقاً انطلاقاً من سبتة وطنجة باتجاه مليلة ومناطق أخرى في الداخل، وكان رد فعل الأدارسة والزناتيين عنيفاً، فقد قاموا بثورة في عام (٣٦١هـ/ ٩٧٢م) بقيادة الحسن بن كنون، وسيطر الأدارسة على تطوان وطنجة وأصيلا، وهي مواقع مهمة[٢].

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٣٦، ٢٤٣. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٤٥.

(٢) ابن عذاري: المصدر نفسه ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦.

وشعر المستنصر بخطورة هذه التطورات، فصمَّم على اتخاذ موقف حازم يقضي على الثورة، ويؤكد نفوذه الدائم هناك، ونجح قائده غالب بن عبد الرَّحمن في تصفية المقاومة الإدريسية، وإعادة السلطة الأموية المطلقة، واستسلم الزعيم الإدريسي في (شهر جمادى الآخرة عام ٣٦٣هـ/ شهر آذار عام ٩٧٤م)(١).

العلم في عهد المستنصر

ازدهرت الحياة الثقافية في عهد المستنصر، ولا غرو في ذلك، فقد أجمع المؤرخون على تأكيد براعته في الشعر والأدب والرواية. جمع العلوم الشرعية مثل الفقه والحديث، بالإضافة إلى مختلف الفنون، وكان باحثاً عن الأنساب، مستجلباً العلماء ورواة الحديث من جميع الآفاق، يحضر مجالس العلماء، يسمع منهم ويروي عنهم، ولم يُسمع في تاريخ الإسلام بخليفة بلغ مبلغ المستنصر في اقتناء الكتب وإيثارها. اهتم بالعلم، ونوَّه بأهله، ورغَّب الناس في طلبه، ووصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية.

وأنشأ المستنصر المكتبة الأندلسية التي عُدَّتْ من بين أعظم المكتبات في العصور الوسطى، وحرص على إغنائها بالكتب الأساسية، فكان يرسل الوفود إلى مختلف أنحاء المدن المشهورة بالتقدم العلمي كبغداد والقسطنطينية لشراء المخطوطات النفيسة وبأسعار مغرية أحياناً.

واهتم المستنصر بالتعليم، فبنى عدداً من المدارس، وكانت جامعة قرطبة من أشهر جامعات العالم ومركزها المسجد الجامع، تُدرَّس فيها مختلف أنواع العلوم والمعرفة، ودرَّس فيها أساتذة على مستوى عالٍ من الشهرة أمثال أبو بكر بن معاوية القرشي أستاذ الحديث، وأَبو علي القالي، صاحب الأمالي، وكان يدرِّس تاريخ العرب قبل الإسلام، ولغتهم وشعرهم، وابن القوطية، أستاذ النحو(٢).

أما رعايته المعنوية للعلماء فكانت على قدر كبير، ففي مجلسه، وقاعات قصره، كان لهؤلاء المركز المتقدِّم، والمكانة المرموقة، يجالسونه، ويناقشونه، ويحصلون على الكثير من ماله.

توفي الحكم الثاني المستنصر في (٣ رمضان ٣٦٦هـ/ ٢٥ نيسان ٩٧٧م)(٣).

---

(١) ابن حيان: تحقيق الجمي، ص ٨٩ ـ ٩١، ١٠٢ ـ ١٠٣، ١٠٨ ـ ١١٠، ١٤٢، ١٥١. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٢) المقري: جـ ١ ص ٣٦٢.

(٣) ابن عذاري: المصدر نفسه ص ٢٥٣. ابن الخطيب: ص ٤١ ـ ٥٦.

أواخر أيام الخلافة الأموية في الأندلس
(٣٦٦ ـــ ٤٢٢هـ/ ٩٧٧ ـــ ١٠٣١م)

الأسرة العامرية
محمَّد بن أَبي عامر «المنصور»(١)

الصراع الداخلي على السلطة

نشأ بعد وفاة المستنصر صراع خطير على السلطة تمثَّل في اتجاهين:

الأول: يرفض تعيين الخليفة الطفل هشام بن الحكم، البالغ من العمر عشر سنوات، متذرعاً بصغر سنه، وعجزه عن القيام بمهام الحكم، وكان والده قد اختاره ولياً لعهده. وتألف هذا الفريق من العسكريين الصقالبة، وعلى رأسهم فائق وجوزر، خادما الخليفة، ورشح أفراده المغيرة بن عبد الرَّحمن، عم هشام.

الثاني: ساند ترشيح هشام، حيث رأى أفراده في تنصيبه ضماناً لاستمرار مصالحهم في الحكم، وتشكَّل هذا الفريق من السياسيين أصحاب الطموح وعلى رأسهم الوزير جعفر المصحفي ومحمَّد بن أَبي عامر المعافري، وغيرهما من كبار موظفي القصر.

والواقع أن قوة القصر المتمثلة بـ «صبح»، جارية المستنصر ووالدة هشام، وهي من البشكنس، رجَّحت كفة الفريق الثاني.

وبرز في هذا الصراع محمَّد بن أَبي عامر الذي نجح في التخلُّص من أعدائه من الفريق الأول، ومن حلفائه في الفريق الثاني، وأضحى القوة الوحيدة في البلاد، فاستلم منصب الحجابة، واستبد بأمور الدولة، وانفرد بها، وحجب هشاماً عن الحياة العامة، وتلقَّب بـ «المنصور».

اهتمام محمَّد بن أَبي عامر بتقوية الجيش

بعد أن قضى على منافسيه، وجَّه اهتمامه إِلى تنظيم الجيش، وعهد إِلى صديقه جعفر بن علي بن حمدون الملقب بالأندلسي، الإشراف على ذلك، فاعتمد على العناصر المغربية المدربة والمحترفة، وترك الخيار للمتطوعين.

وحتى يبتعد عن أجواء العاصمة مع ما يمكن أن يسبِّبه أنصار خصومه

---

(١) انظر ترجمته عند الحميدي: ص ٧٨ ـ ٧٩.

وأقاربهم له، بنى مدينة الزاهرة في شرقي قرطبة، وبنى فيها القصر الملكي، والمسجد، ودواوين الإدارة، ومراكز الحرس، ومخازن السِّلاح، وانتقل إليها في عام (٣٧٠هـ/ ٩٨٠م)[١]، وحلَّت محل مدينة الزهراء.

العلاقات الخارجية

العلاقة مع الممالك الإسبانية في الشمال

اهتم محمَّد بن أَبي عامر بالحركة الجهادية ضد الممالك النصرانية في الشمال بهدف إخضاعها لسلطان الخلافة. وكانت سياسة الجهاد عنده منسجمة إلى حد كبير مع المراحل التي قطعها لبلوغ قمة السلطة، فاتخذها طريقاً للقضاء على خصومه، واكتساب ثقة الشعب، بالإضافة إلى النزعة التقليدية العامة بحماية الدولة من أعدائها المتربصين بها.

اتسمت حركته الجهادية بالطابع الهجومي، وقد كفلت له النصر على أعدائه في كل المعارك التي خاضها ضد ممالك ليون وقشتالة ونافارا، وقد زادت على الخمسين[٢]، لكن كفاحه الجهادي لم يغيِّر، بشكل جذري، الوضع الجغرافي للأراضي، إنما نتج عنه كثرة السبي[٣].

العلاقة مع دول المغرب الأقصى

كانت سياسة محمَّد بن أَبي عامر في المغرب الأقصى استمراراً للسياسة الأندلسية العامة، وتُمثِّل في مضمونها صراعاً سياسياً ومذهبياً ضد القوى العلوية من الفاطميين والأدارسة، وقد أصاب نجاحاً في هذه المنطقة بفضل تحالفه مع قبيلة زناتة، وقضى على القوة الزيرية المدعومة من بقايا الأدارسة، بزعامة الحسن بن كنُّون، والتي دفعها الأمير الفاطمي العزيز لاستعادة نفوذ الفاطميين في المغرب الأقصى[٤]، مما أبقى السيادة الأموية على المغرب الأقصى قوية ونافذة حتى أواخر أيام العامريين.

وفاة محمَّد بن أَبي عامر

كان محمَّد بن أَبي عامر جزعاً على مستقبل إرثه الذي أقامه في أحضان

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٧٥. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٤٨. المقري: جـ ٢ ص ١٢١ ـ ١٢٢.
(٢) الحميدي: ص ٧٨ ـ ٧٩. ابن الخطيب: ص ٩٨.
(٣) المراكشي: ص ٢١.
(٤) ابن عذارى: المصدر السابق ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.

الخلافة الأموية، مدركاً أن مكتسباته لن تعيش طويلاً بعد غيابه لأنها ارتبطت بشخصه وبمنجزاته. وتوفي في مدينة سالم أثناء عودته من غزوة لإقليم قشتالة في (شهر رمضان عام ٣٩٢هـ/ شهر تموز عام ١٠٠٢م)[١]، إلّا أن جهوده أفرزت في النهاية حُكْماً وراثياً، فخلفه ابنه الأكبر عبد الملك المظفر، وأصدر الخليفة كتاباً بتوليته الحجابة.

عبد الملك بن محمَّد بن أَبي عامر المنصور «المظفر»

بدأ عبد الملك، الذي تلقَّب بالمظفر، حكمه بتنفيذ إصلاحات مهمَّة، وسلك نهج والده بمتابعة النضال ضد النصارى في الشمال. والواقع أنه لم يكن بعيداً عن جو الصدام، كما اكتسب مهارة قيادية عسكرية ومدنية من خلال ملازمته والده، لذلك ارتبط عهده بالسياسة الجهادية ضد الإسبان.

كانت فاتحة أعماله العسكرية اصطدامه بحاكم برشلونة، أول الخارجين على الحكم الإسلامي، وأجبره على طلب الصلح[٢]. ثم كانت الغزوة الثانية في عام (٣٩٤هـ/ ١٠٠٤م) ضد قشتالة، فاجتاح أراضيها، وأجبر حاكمها سانشو على طلب الصلح، ووفد سانشو إلى قرطبة حيث أجرى مباحثات مع المظفر وتم الاتفاق بينهما على التعاون ضد مملكة ليون وبني قومس.

ويبدو أن حادثة برشلونة أدَّت إلى تفسُّخ الجبهة الإسبانية، وبخاصة بعد أن دبَّ الخلاف بين حاكمي قشتالة وجيليقية، فاستغل المظفر هذا الخلاف لإضعاف خصومه.

والواقع أنَّه كان يقوم في كل عام بحملة عسكرية إلى ما وراء الحدود الشمالية، فبلغ عدد حملاته سبعاً. وكان انفراط عقد التحالف النصراني، وتمزُّق الجبهة السياسية في مملكة ليون زعيمة التكتل الإسباني، بالإضافة إلى براعة المظفر العسكرية، وجديته في القتال؛ كلها عوامل ساعدت على الاستقرار الداخلي، ونجاح العامريين في حكم الأندلس.

توفي المظفر في (١٦ صفر ٣٩٩هـ/ ٢١ تشرين الأول ١٠٠٨م) وهو في الطريق لتنفيذ إحدى غزواته في الشمال[٣]، وخلفه أخوه عبد الرَّحمن.

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٣٠١. (٢) ابن عذاري: جـ ٣ ص ٥ ـ ٦.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٧. ابن الخطيب: ص ٨٩.

عبد الرَّحمن بن المنصور

كان عبد الرَّحمن أضعف من أخيه عبد الملك وأقل جدِّيَّة منه، مغروراً، يميل إلى الاسترخاء في أجواء الترف، ولُقِّب بـ شنجول، وهو اسم أحد أخواله، ذلك أن والدته كانت قشتالية أُهديت إلى المنصور في إحدى غزواته للشمال(١).

أقام عبد الرَّحمن المنصور علاقة متينة مع الخليفة الذي منحه لقب المأمون ناصر الدولة، وهو من ألقاب الخلافة، وقد أثار ذلك موجة من الاستياء في قرطبة(٢)، ويبدو أنه لم يقنع بأن تكون له السلطة التنفيذية المطلقة، وطمع بالخلافة(٣).

والواقع أن تجميد صلاحيات الخلافة بالحجر على الخليفة لم يؤد بالضرورة إلى إلغاء الدور السياسي للأمويين الذين احتفظوا بمراكز النفوذ، وقد ساءهم تصرف عبد الرَّحمن المنصور فحاكوا مؤامرة للقضاء على الأسرة العامرية معتمدين على بعض فئات الجيش، وقد ترأسهم أحد أفراد هذه الأسرة ويدعى محمَّد بن هشام(٤)، فاستغلُّوا خروج عبد الرَّحمن المنصور للجهاد وانتفضوا على حكمه. وسرعان ما سيطر محمَّد بن هشام وأنصاره على مؤسَّسات الحكم، وأحرقوا مدينة الزاهرة مقر الأسرة العامرية، ولما حاول عبد الرَّحمن المنصور إنقاذ حكمه قُبض عليه وقُتل في (شهر رجب عام ٣٩٩هـ/ شهر آذار عام ١٠٠٩م)(٤).

المراحل الأخيرة من عهد دولة الخلافة الأموية

توَّج محمَّد بن هشام نفسه، خليفة بعد أن أطاح بسلفه هشام المؤيد وذلك في (١٨ جُمادى الآخرة ٣٩٩هـ/ ٥ شباط ١٠٠٩م)، وتلقَّب بلقب المهدي(٥). ويبدو أنه استمد قوته من الفئات الشعبية التي ساندته في ثورته. وبدا لأول وهلة، وكأنه الشخصية المطلوبة في تلك المرحلة لإنقاذ الخلافة الأموية التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، لكن الخليفة الجديد فشل في تحقيق التوازن القبلي والعنصري في البلاد، وهي المشكلة التي عانت منها الأندلس منذ الفتح الإسلامي.

وتلاحقت الأحداث بعد ذلك سريعة ومذهلة، ومرَّت دولة الأمويين في الأندلس بأجواء عاصفة، ومشحونة بالصراعات الدموية بين عناصر الأسرة الحاكمة، حيث اعتلى منصب الخلافة عدد من الخلفاء الذين لم يكن أحد منهم على مستوى الأحداث.

---

(١) ابن الخطيب: ص ٦٦. (٢) المصدر نفسه: ص ٩١ ـ ٩٣.

(٣) ابن عذاري: ج ٣ ص ٣٨.

(٤) المصدر نفسه: ص ٤٩، ٧٣. ابن الخطيب: ص ٩٧، ١١٣.

(٥) المصدران نفساهما: ص ٤٧. ص١٠٩.

وكانت قرطبة آنذاك مسرحاً للفوضى، وهدفاً لكل طامع في السلطة. وقُتل المهدي في (شهر ذي الحجة عام ٤٠٠هـ/ شهر تموز عام ١٠١٠م) على يد هشام المؤيد[١]، واتفق سكان قرطبة، على تجديد البيعة له، علَّه يعصمهم من تعديات البربر الذين بايعوا سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر، وتلقَّب بـ المستعين[٢].

ونجح المستعين بمساعدة البربر في الاستيلاء على قرطبة في (شهر شوال عام ٤٠٣هـ/ شهر أيار عام ١٠١٣م)، فقتل الخليفة هشام المؤيد، وتلقَّب بعد ذلك بـ الظافر بحول الله[٣]. واستقر في مدينة الزهراء، ثم قُتل على يد بني حمود، وهم من سلالة الأدارسة، بعد أن سيطروا على قرطبة في (شهر محرم ٤٠٧هـ/ شهر تموز ١٠١٦م)، واعتلى علي بن حمود منصب الخلافة تحت اسم الناصر[٤].

وتبادل الحموديون، والأمويون، منصب الخلافة حتى زالت الأسرتان عن مسرح الحياة السياسية. فانقرضت الأسرة الحمودية بوفاة الخليفة المستعلي في عام (٤٥٠هـ/ ١٠٥١م). وكان القرطبيون قد قرَّروا إلغاء الخلافة الأموية في أعقاب خلع الخليفة هشام الثالث بن محمَّد بن عبد الملك في (شهر ذي القعدة عام ٤٢٢هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١٠٣١م) والتخلص من الأمويين، ونودي في الأسواق والأرباض لا يبقى بقرطبة أحد من بني أمية ولا يكنفهم أحد، وقد تولى نفيهم أَبو الحزم بن جهور[٥].

وبذلك انتهت دولة الخلافة الأموية في الأندلس، وحكم البلاد رؤوساء الطوائف وأمراء الثغور، وانقسمت إلى دويلات صغيرة متنازعة، وابتدأ نتيجة ذلك عهد جديد هو عهد دول الطوائف.

عهد دول الطوائف

٤٢٢ ـ ٨٩٧هـ/ ١٠٣١ ـ ١٤٩٢م

مرحلة ملوك الطوائف: ٤٢٢ ـ ٤٧٩هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٨٦م

انقسمت الأندلس، بعد زوال الخلافة الأموية، إلى طوائف متنازعة يمكن تصنيفها بثلاث:

---

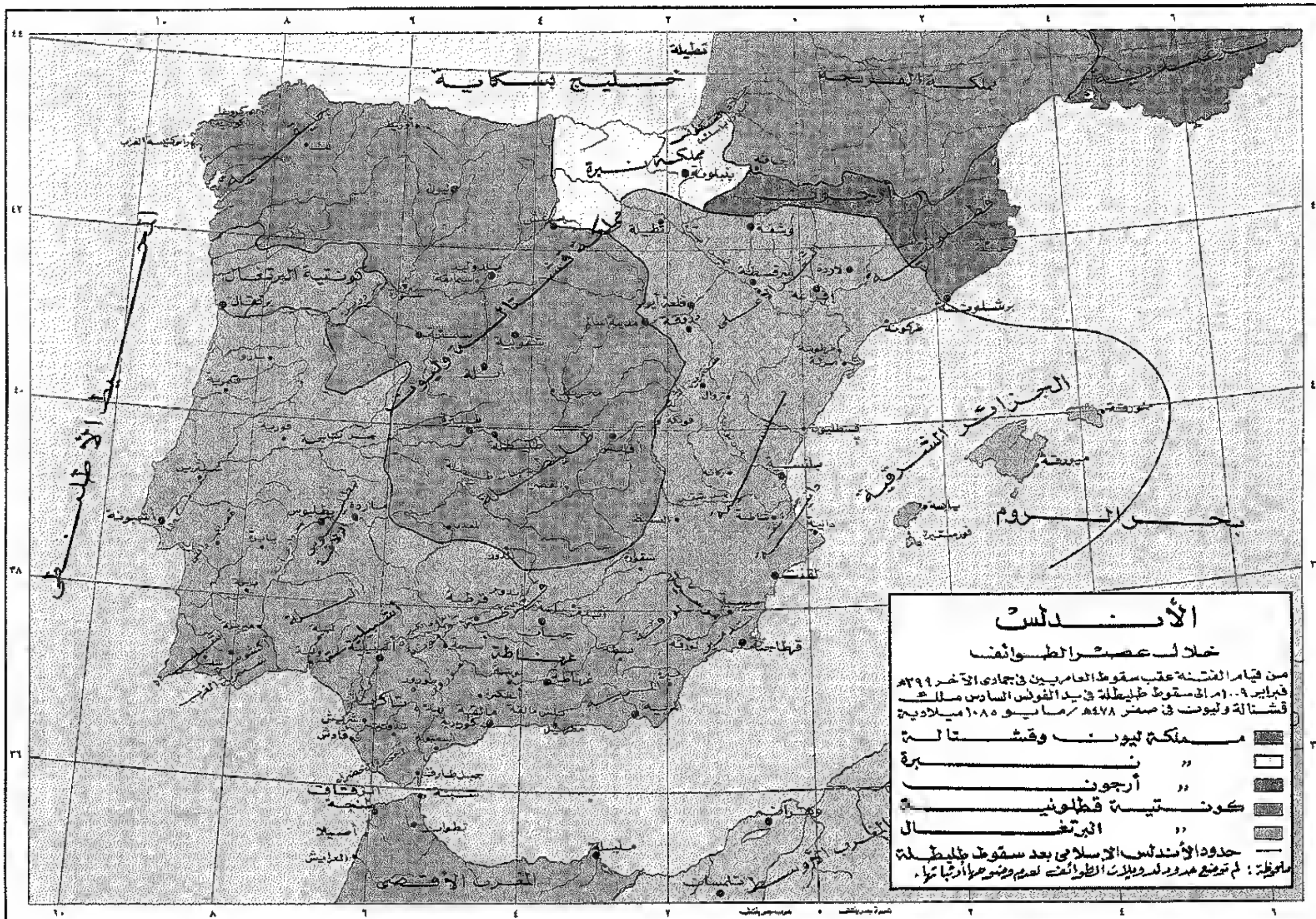
(١) الحميدي: ص ٤٩.

(٢) ابن الخطيب: ص ١١٤. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٥٠.

(٣) الحميدي: ص ٤٩.

(٤) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٥٣.

(٥) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٥١. ابن الخطيب: ص ١٣٩. الضبِّي، أحمد بن القاضي المكناسي: بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس ص ٣٦.



الأندلس خلال عصر الطوائف

الأولى: طائفة أهل الأندلس من سكان البلاد الذين استقروا فيها وانصهروا في البوتقة الأندلسية، وأضحوا أندلسيين بغض النظر عن أصلهم العربي أَو المغربي أَو الصقلبي أَو الإسباني النصراني، وقد عُرف هؤلاء بأهل الجماعة، وأشهر زعمائهم بنو عبَّاد اللخميون في إشبيلية، وبنو هود الجذاميون في الثغر الأعلى، سرقسطة، وبنو صمادح أَو بنو تجيب في المريَّة، وبنو برزال في قرمونة، والعامريون في بلنسية.

الثانية: طائفة المغاربة أَو البربر الذين وفدوا حديثاً إِلى الأندلس لا سيما الصهناجيين الذين استقروا بها في أيام المنصور العامري، ومن زعماء هذه الطائفة بنو زيري في غرناطة، وبنو حمود الأدارسة الذين تحدثنا عنهم من قبل.

الثالثة: طائفة كبار الصقالبة الذين استقروا في شرقي الأندلس، نذكر منهم مجاهد العامري الذي استقل في دانية ثم استولى على الجزر الشرقية (البليار) وغزا جزيرة سردينيا، وسواحل إيطاليا، وسيطرت أساطيله على غرب حوض البحر المتوسط.

وحاولت كل طائفة من هذه الطوائف أن تحيط نفسها بسياج روحي لتستمد منه شرعيتها، وذلك بإقامة خليفة في منطقتها.

اختار بنو عبَّاد، أقوى ملوك الطائفة الأولى، شخصاً شبيهاً بالخليفة الأموي هشام المؤيد يدعى خلف الحصري، ونصَّبوه خليفة على أنه هشام نفسه بعد أن شكُّوا في وفاته[1].

وأسَّس بنو حمود خلافة علوية مستندين إِلى أصلهم الطالبي.

ونصَّب الصقالبة خليفة قريشياً من أشراف قرطبة ينتسب إِلى الأمويين هو الفقيه أَبو عبد اللَّه بن الوليد المعيطي، ولقَّبوه بـ المستنصر بالله.

وليس في هذه الأسر واحدة جديرة بالاهتمام، وتستحق وقفة سريعة، غير بني عبَّاد أصحاب إشبيلية.

استطاع القاضي محمَّد بن عبَّاد أن يدافع عن استقلال إمارته أمام أطماح الحموديين، وأن يترك لذريته ملكاً بعد أن تغلَّب على عدد من صغار الأمراء المجاورين، وبخاصة في الغرب مثل باجة.

وخلفه في عام (٤٣٣هـ/ ١٠٤٢م) ابنه عبَّاد. وفي الوقت الذي كان فيه محمَّد حريصاً على أن يضفي الصفة الشرعية على حكمه عن طريق اعتراف أموي على يد

---

(١) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠. ابن الخطيب: ص ١٥٤.

هشام المؤيد الذي شكَّ في وفاته؛ إذا بابنه عبَّاد يُقْدِم على تلقيب نفسه بلقب المعتضد بالله على طريقة الخلفاء.

والواقع أنه قضى على خصومه بأسلوب ذكي، ووصلت إشبيلية في عهده إلى درجة عالية من القوة، ومع ذلك فقد اضطر أن يدفع الجزية إلى فرديناند الأول ملك قشتالة في عام (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م).

وتوفي المعتضد في (٢ جمادى الآخرة عام ٤٦١هـ/ ٢٩ آذار عام ١٠٦٩م) تاركاً لابنه محمَّد، الذي خلفه، دولة واسعة نسبياً تكاد تشمل القسم الجنوبي الغربي من الأندلس.

تلقَّب محمَّد بعدة ألقاب منها الظاهر، المؤيد بالله، المعتمد على الله، وهو اللقب الذي اشتهر به، ونجح في ضمِّ قرطبة إلى إمارته. وكانت الممالك النصرانية في الشمال قد استغلت سوء أوضاع الأندلس لتوجيه ضربات إلى المسلمين، وطردهم من إسبانيا، مدفوعين بشعور عدائي للإسلام. وقد بدأت هذه الحرب بدافع الدين، واتَّخذت في بعض مراحلها طابعاً عنصرياً بما سُمي بحرب الاسترداد. والملفت للنظر أن المسلمين الذين تحمَّلوا الشدة نتيجة ضربات النصارى، لم يهتموا بما يجري حولهم، وظلُّوا منغمسين في نزاعاتهم يحاربون بعضهم بعضاً، ويتحالفون مع هؤلاء بعضهم ضد بعض، ويؤدون لهم الجزية مقابل الاحتفاظ بحكمهم.

ونشطت حرب الاسترداد على يد الملك القشتالي ألفونسو السادس بن فرديناند الأول، الذي كان يرغب باسترداد كامل شبه الجزيرة الإيبرية، فاحتلَّ طليطلة في (أواخر شهر محرم عام ٤٧٨هـ/ ٢٥ أيار عام ١٠٨٥م)، واضطهد المسلمين فيها[1]. وخسر المسلمون معقلاً من أهم معاقلهم في الأندلس، وباتوا في حال من الضياع التام، وبدأ بعضهم بالنزوح من المناطق المتاخمة لسيطرة ألفونسو السادس.

أحدث سقوط طليطلة دوياً هائلاً في جميع أرجاء العالم النصراني الغربي، إذ استثار شعور الحماسة لطرد المسلمين من إسبانيا. أما في الجانب الإسلامي فإن ضياع تلك المدينة، هزَّ المسلمين جميعاً في الشرق والغرب، وجعلهم يفكرون بوسيلة فعَّالة للقضاء على الخطر النصراني من ناحية، واسترداد ما فقدوه من ناحية أخرى.

وشعر الملك القشتالي بأنه يمتلك من القوة ما يستطيع أن يتحدَّى دول

(١) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس: ص ٨٥. الضبِّي: ص ٣١.

الطوائف جميعاً والقضاء عليها، فشنَّ الغارات على جميع البلاد، ونجح بالاستيلاء على المدن والقرى الواقعة بين وادي الحجارة إلى طلبيرة، وفحص اللجج، وأعمال سنتمرية[1]، ثم ضغط على الدويلات المجاورة له وبخاصة مملكتي بطليوس وإشبيلية، ووصل في توغله إلى جزيرة طريف في أقصى جنوب الأندلس، وأرسل من هذا المكان رسالة تحدي إلى يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين في المغرب[2].

نتيجة لهذا التحدي السافر، لم يكن باستطاعة زعماء الأندلس المتفرقين الوقوف في وجه ألفونسو السادس، فاستنجدوا بالمرابطين في المغرب، وهم أقرب قوة إسلامية يمكنها أن تدفع خطر النصارى عن مسلمي الأندلس.

مرحلة السيطرة المغربية: ٤٧٩ ـ ٦١٢هـ/ ١٠٨٦ ـ ١٢١٥م

الممالك الإسبانية

عندما قدم المرابطون إلى الأندلس لنجدة دول الطوائف، وردِّ اعتداءات النصارى، كانت الممالك الإسبانية النصرانية تتألَّف من ثلاث ممالك هي:

ـ مملكة قشتالة، وهي أكبرها رقعة، وأوفرها موارد، وأكثرها قوة، ويُعدُّ ملكها ألفونسو السادس عميد الممالك الإسبانية النصرانية.

ـ مملكة أراغون.

ـ إمارة برشلونة أو قطلونيا، وهي أصغر الممالك.

وكانت مملكة ناڤارا قد اختفت مؤقتاً عن مسرح الأحداث، بعد أن اقتسم أراضيها كل من ملكي قشتالة، ألفونسو السادس، وأراغون، سانشو راميرو، في عام ١٠٧٦م.

المرابطون في الأندلس

حملة المرابطين الأولى: معركة الزلاَّقة

في الوقت الذي كان فيه ألفونسو السادس يجوس خلال الديار الأندلسية، مستغلاً ضعف ملوك الطوائف، شعر المعتمد بن عبَّاد أن الخطر يتهدَّده مباشرة، فاتفق مع صاحبي بطليوس وغرناطة، وهما أقرب جيرانه، على إرسال بعثة إلى

---

(١) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس ص ٨٧.

(٢) مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ص ٢٦ ـ ٢٧. وانظر العبادي، أحمد مختار: في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧.

يوسف بن تاشفين في المغرب تلتمس منه المساعدة العاجلة.

وافق الزعيم المرابطي على تقديم المساعدة المطلوبة واشترط أن يُمنح الجزيرة الخضراء لتكون مركز انطلاق لجيوشه. والواقع أنه حرص على امتلاك بعض ثغور الأندلس كي يسيطر على مضيق جبل طارق ويضمن حرية العبور من وإلى الأندلس، واضطر المعتمد إلى تنفيذ طلبه، وأمر ابنه الراضي بإخلائها[١].

عبر يوسف بن تاشفين بجيوشه مضيق جبل طارق ونزل في الجزيرة الخضراء، فنظَّم شؤونها وحصَّنها، ثم تابع تقدمه باتجاه إشبيلية، فأقبل عليه المعتمد والأمراء المجاورون مرحبين بقدومه[٢].

كان ألفونسو السادس آنذاك يحاصر مدينة سرقسطة[٣]، وحينما علم بأنباء الزحف الإسلامي، رفع الحصار عنها وأسرع بجيوشه نحو جيوش المسلمين من المغاربة والأندلسيين، فالتقى بهم في شمال شرقي بطليوس عند سهل الزلاَّقة. وهناك دارت بين الطرفين رحى معركة طاحنة في (شهر رجب عام ٤٧٩هـ/ شهر تشرين الأول عام ١٠٨٦م)، هُزم فيها ألفونسو السادس هزيمة شنعاء وجرح في المعركة، واضطر إلى التراجع باتجاه الشمال مخلياً إقليم بلنسية[٤].

والحقيقة أن انتصار المسلمين في الزلاَّقة أنقذ العالم الإسلامي في الأندلس من السقوط في يد النصارى كما ثبَّت أقدام المرابطين فيها.

وعاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب دون أن يستثمر انتصاره، وأوصى زعماء البلاد، قبل مغادرته، بالاتفاق والاتحاد ضد عدوهم المشترك الذي استغل تمزقهم، وترك لهم ثلاثة آلاف جندي مرابطي للدفاع عن ثغور الأندلس بقيادة سير بن أبي بكر[٥].

---

(١) ابن الخطيب: ص ٢٨٢. ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٨٦.

(٢) ابن الأبّار القضاعي: الحلة السيراء ص ٣٥٢. مؤلف مجهول: الحلل ص ٣٤. السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ١ ص ١١٤.

(٣) ابن الكردبوس: ص ٩١. السلاوي: المصدر نفسه ص١١١. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص ٩٣.

(٤) ابن الكردبوس: المصدر نفسه ص ٩٣ ـ ٩٤. مؤلف مجهول: الحلل ص ٣٥. السلاوي: جـ ١ ص ١١٧. ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٥) ابن الأبار: ص ٣٥٦. الحميدي، ابن عبد المنعم: الروض المعطار في أخبار الأقطار ـ صفة جزيرة الأندلس ص ٩٥. ابن خلكان: جـ ٧ ص ١٢٢. Camb. Med. History: VI pp 398-399 .

ويبدو أن وفاة ابنه أَبي بكر الذي استخلفه على سبتة، بالإضافة إلى اضطراب الأوضاع على حدوده الشرقية حيث تحالف بنو حماد الصنهاجيين مع عرب بني هلال وحاولوا غزو المناطق الحدودية؛ كان وراء هذه العودة.

حملة المرابطين الثانية: معركة حصن اللّيِّط

عاد الأندلسيون إلى سيرتهم الأولى بعد رحيل يوسف بن تاشفين، فاختلفوا فيما بينهم، وضايقوا القوة المغربية التي بقيت في الأندلس لحملها على مغادرة البلاد.

وتجاوز الإسبان بعد عام ذيول هزيمتهم في الزلاَّقة بفعل النجدات التي وفدت عليهم من فرنسا والبابوية، فاستأنفوا عملياتهم العسكرية، واختاروا المناطق الأكثر ضعفاً في شرق الأندلس وهي: بلنسية ومرسية ولورقة والمرية[١]، وعجزت قوة المرابطين عن صدِّهم أَو الوقوف في وجههم.

ونظراً لخطورة الوضع، قرَّر المعتمد الذهاب بنفسه إلى المغرب لطلب المساعدة من يوسف بن تاشفين. وافق الزعيم المغربي على العبور مرة ثانية إلى الأندلس لإنقاذها من براثن الخطر النصراني، والسيطرة على ملوك الطوائف، فعبر المضيق في عام (٤٨١هـ/ ١٠٨٨م) واستنفر الأندلسيين للجهاد.

وهاجم المسلمون حصن الليِّط الذي أقامه ألفونسو السادس، بين مرسية ولورقة، بعد معركة الزلاَّقة. غير أن تجدُّد الخلافات بين الأندلسيين وبخاصة بين المعتمد صاحب إشبيلية، والمعتصم صاحب المرية؛ حال دون فتحه. وعانى يوسف بن تاشفين كثيراً من هذه الخلافات، ففقد ثقته بالأندلسيين، وعاد إلى المغرب في عام (٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م)، وأخذ يستعد لتصفية أمراء الأندلس، وضمِّ هذا البلد إلى المغرب.

حملة المرابطين الثالثة: ضمُّ الأندلس إلى المغرب

عبر يوسف بن تاشفين المضيق للمرة الثالثة في عام (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م) دون طلب استغاثة، فسار مباشرة إلى طليطلة مجتاحاً أراضي قشتالة، لكنه فشل في اقتحامها، ولم يتقدَّم أحد من الزعماء الأندلسيين لمساعدته[٢]، ثم يمَّم وجهه شطر غرناطة وبها الأمير عبد اللَّه بن بلكين بن باديس بن زيري الصنهاجي، فدخلها بعد

---

(١) ابن الكردبوس: ص ٩٦. ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢) ابن أَبي زرع: ص ٩٩. السلاوي: جـ ١ ص ١٢٠.

حصار واستولى على كورها[١]، كما ضمَّ مالقة[٢]، وقاومه المعتمد بن عبَّاد، عندئذ رأى يوسف أنه من الأفضل تكليف قادته باستكمال ضمِّ الأندلس، في حين يراقب هو الوضع العسكري من المغرب. وبناء على ذلك فوَّض جميع الأمور السياسية والعسكرية إلى قائده سير بن أبي بكر، وطلب منه ضمَّ إشبيلية وبطليوس، وكلَّف ثلاثة من قادته الآخرين بمهاجمة قرطبة والمرية ورُندة، ثم عاد إلى المغرب واستقر في سبتة ليراقب نتائج أعمال هؤلاء القادة[٣].

نجح القادة الأربعة في تحقيق إنجازات مهمة كانت لصالح المرابطين. فسقطت قرطبة بيد أبي عبد الله بن محمَّد الحاج في (شهر صفر عام ٤٨٤هـ/ شهر آذار عام ١٠٩١م)، وقُتل حاكمها الفتح بن المعتمد[٤]، كما استولى المرابطون على كورها، وخضعت لسير أكثر حصون المعتمد، وتفرغ بعد ذلك لانتزاع إشبيلية.

تجاه هذه المتغيرات السياسية والعسكرية، وجد المعتمد نفسه في موقف حرج، فاستنجد بألفونسو السادس، إذ أضحى الأمل الوحيد له للبقاء في الحكم. والواقع أن الزعيم القشتالي وجدها فرصة سانحة للثأر من المرابطين، لكن المساعدة العسكرية التي دفع بها إلى ميدان القتال لقيت هزيمة قاسية في معركة جرت على مقربة من حصن المدور[٥].

وتبخَّرت آمال المعتمد بالاعتماد على المساعدة النصرانية، فقرَّر عندئذ الاعتماد على نفسه مع يقينه بأن المعركة خاسرة. وتعرَّض في هذا الوقت العصيب لخضَّة سياسية داخلية تمثَّلت بثورة العامة داخل إشبيلية. وحاول الثوَّار فتح باب المدينة للمرابطين، لكن المحاولة فشلت، غير أن هؤلاء تمكَّنوا من دخول المدينة في (٢٢ رجب عام ٤٨٤هـ/ ١٣ أيلول عام ١٠٩١م)، واستسلم لهم المعتمد بن عبَّاد[٦].

وهكذا سقطت دولة ابن عبَّاد، وانضوت تحت سيادة المرابطين، ونقله هؤلاء

---

(١) ابن الكردبوس: ص ١٠٥. (٢) السلاوي: جـ ١ ص ١٢٠.

(٣) مؤلف مجهول: ص ٥٢. ابن أبي زرع: ص ١٠٠.

(٤) ابن أبي زرع: المصدر نفسه. المراكشي، عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٣٩ ـ ١٤٠. السلاوي: المصدر نفسه. الضبِّي: ص ٣٢. تاريخ ابن خلدون: جـ ١ ص ١٨٧.

(٥) ابن أبي زرع: المصدر نفسه ص ١٠١. السلاوي: المصدر نفسه. ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٥٥.

(٦) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٣٣٩ ـ ٣٤٢.

إلى المغرب حيث أمر يوسف بن تاشفين بسجنه في أغمات[1]. ولم يكن من العسير على المرابطين أن يضمُّوا باقي أجزاء الأندلس بعد سقوط إشبيلية التي كانت أقوى دول الطوائف ولم ينجح بالاحتفاظ باستقلاله سوى المستعين أحمد بن هود صاحب سرقسطة الذي عرف كيف يكسب رضا المرابطين. والواقع أن إمارته كانت بمثابة شوكة في خاصرة النصارى الشماليين، ويبدو أن يوسف بن تاشفين أدرك مدى أهميتها العسكرية كخط دفاع أول أمام النصارى، وفي تكوين جبهة قوية للوقوف في وجههم، لذلك بقيت سرقسطة الإمارة الوحيدة التي لم يضمها المرابطون.

وعبر يوسف بن تاشفين في عام (٤٩٦هـ/ ١١٠٢م) إلى الأندلس لتنظيم شؤونها الإدارية. وأضحى هذان البلدان، المغرب والأندلس، يشكِّلان دولة واحدة عاصمتها مدينة مراكش التي بناها يوسف بن تاشفين.

توفي يوسف بن تاشفين في (شهر محرم عام ٥٠٠هـ/ شهر أيلول عام ١١٠٦م) تاركاً لابنه أبي الحسن علي أقوى دولة عرفها الغرب الإسلامي حتى ذلك الحين[2].

نهاية المرابطين في الأندلس

يبدو أن التنظيم الداخلي لدولة المرابطين المترامية الأطراف كان مزعزعاً، وشابه الفوضى والاضطراب. ولم يلبث علي أن انصرف إلى القضايا الدينية، وتمتع رجال الدين في عهده بنفوذ واسع، فكانوا شديدي الوطأة على النصارى المعاهدين الذين مثَّلوا خطراً حقيقياً على الدولة، إذ كانوا ينتهزون الفرص للاتصال بالإسبان والتنسيق معهم لحرب المسلمين، ورحَّبوا بالهجمات المتكررة التي كان يشنها أمراء الشمال، والتي نتج عنها سقوط طليطلة وسرقسطة في أيديهم.

أعطت هذه الانتصارات دفعاً قوياً جعلت النصارى، يواصلون حرب الاسترداد، ويحقِّقون أهدافهم رويداً رويداً، بينما انهمك المسلمون في نزاعات داخلية، وتوالى سقوط ما تبقَّى من قواعد الثغر الأعلى.

وتضاءلت تدريجياً هيبة المرابطين، وفقدوا ما كان لهم من شعبية في أوساط العامة، وانقسمت الأندلس مجدداً إلى دويلات طوائفية متنازعة، كانت عاجزة عن مواجهة الخطر الإسباني المتزايد. وكان الموحدون بزعامة عبد المؤمن بن علي قد

---

(١) المراكشي: ص ١٤٥. ابن أبي زرع: ص ١٠١. الضبِّي: ص ٣٢. ابن خلكان: جـ ٧ ص ١٢٣.

(٢) مؤلف مجهول: ص ٦٠. ابن أبي زرع: المصدر نفسه. ابن خلكان: المصدر نفسه.

ورثوا المرابطين بعد أن قضوا على دولتهم في المغرب، ووجهوا اهتمامهم نحو الأندلس التي عمَّتها الثورات.

الموحدون في الأندلس

اتصل الثوار في مختلف المدن بالموحدين ودعوهم إلى دخول الأندلس، وفعلاً أرسل الخليفة عبد المؤمن الموحدي جيشاً سيطر على غرب البلاد، وانتزع إشبيلية في (شهر شعبان عام ٥٤١هـ/ شهر كانون الثاني عام ١١٤٧م)، وقرطبة في (شهر شعبان عام ٥٤٣هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٤٨م)، وجيان ومالقة في عام (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م)، وصمدت غرناطة مدة سبع سنوات قبل أن تسقط في عام (٥٥١هـ/ ١١٥٦م)، كما تمكَّن من وقف الزحف القشتالي عند قرطبة[١].

توفي الخليفة عبد المؤمن في (٢٠ جمادى الآخرة عام ٥٥٨هـ/ ٢٥ أيار عام ١١٦٣م) وخلفه ابنه أَبو يعقوب يوسف[٢]، الذي أتمَّ إخضاع الأندلس، ليُقتل بعدئذ أثناء حصار شنترين في معركة ضد الأمير البرتغالي سانشو وذلك في (شهر رجب عام ٥٨٠هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٨٤م) وخلفه ابنه يعقوب الذي تلقَّب بالمنصور[٣].

استغل البرتغاليون انتصارهم في شنترين، فهاجموا غربي الأندلس، فاضطر الخليفة للعبور إلى الأندلس في (شهر ربيع الأول عام ٥٨٥هـ/ شهر نيسان عام ١١٨٩م)، وسار إلى شنترين وإشبونة ليثأر لوالده، واجتاح المنطقة، ودمر كثيراً من مدنها وقراها، ثم عاد إلى المغرب[٤]، ثم عبر مرة أخرى وانتصر على جيش قشتالي عند حصن الأرك بقيادة ألفونسو الثامن في (شهر شعبان عام ٥٩١هـ/ شهر تموز عام ١١٩٥م)[٥]، وهاجم أراضي قشتالة في عام (٥٩٣هـ/ ١١٩٧م) وتوغل فيها يدمِّر القرى ويحرق المزارع لإرهاب العدو، وحاصر طليطلة، ثم عاد إلى قرطبة ومنها إلى إشبيلية[٦].

ونظَّم يعقوب شؤون الأندلس، فعيَّن الولاة، وحصَّن الثغور والقواعد وشحنها بالحاميات. ووفدت عليه رسل ملك قشتالة طالبين الهدنة، فاستجاب لهم بشروطه

---

(١) ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.
(٢) ابن أَبي زرع: ص ٢٤٦. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٩٩.
(٣) ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.
(٤) ابن أَبي زرع: ص ٢٦٧.
(٥) ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٤٢.
(٦) المصدر نفسه: ص ٢٤٥.

وفق شريعة الإسلام، وتقرَّرت الهدنة لمدة عشر سنوات[١]. ثم غادر إشبيلية في (شهر جمادى الأولى عام ٥٩٤هـ/ شهر آذار عام ١١٩٨م) عائداً إلى مراكش، وتوفي في العام التالي، وخلفه ابنه محمَّد الناصر[٢].

وما لبثت دولة الموحدين، التي دانت لها الأمور في الأندلس وإفريقية حتى حدود مصر؛ أن أصابها الانحلال في ظل حكام ضعاف. إذ لم يكد محمَّد الناصر يعتلي سدة الخلافة حتى واجهته الثورات وبخاصة في إفريقية، ومع أنه نجح في القضاء عليها إلَّا أنه عجز عن الصمود في وجه النصارى في الأندلس.

فقد شنَّ ألفونسو الثامن ملك قشتالة في (شهر صفر عام ٦٠٩هـ/ شهر تموز عام ١٢١٢م) هجوماً على الأراضي الإسلامية ليثأر لهزيمته في الأرك، واجتياح الخليفة المنصور لأراضيه من قبل والعبث فيها، وأنزل بقوات الخليفة هزيمة منكرة عند حصن العقاب، وتكبَّد المسلمون خسائر فادحة جداً[٣]، وكانت نتائجها حاسمة بالنسبة للأندلس التي أخذت بالتداعي لتسقط في أيدي الإسبان تباعاً.

عاد محمَّد الناصر بعد المعركة إلى إشبيلية، ثم عبر إلى مراكش حيث توفي في (شهر شعبان عام ٦١٠هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٢١٤م)[٤]، مغموماً بنكبة العقاب، أما ألفونسو الثامن، فقد استغل انتصاره واستولى على الحصون القريبة.

خلف يوسف المستنصر بالله والده، وهو في السادسة عشرة من عمره[٥]. نظَّم شؤون الأندلس وعيَّن عليها الولاة. لكن النكبات توالت على هذا البلد بعد معركة العقاب، في ظل تخاذل زعماء البلاد وعجزهم عن ردِّ الاعتداءات النصرانية، وكان قصر أبي دانس من أهم المواقع التي سقطت في يد الإسبان بعد معركة فاصلة جرت في (شهر رجب عام ٦١٤هـ/ شهر تشرين الأول عام ١٢١٧م)[٦].

تلى ذلك سقوط قاصرش، شمالي ماردة، في يد ملك البرتغال في عام (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م). وتوفي الخليفة المستنصر في (شهر ذي الحجة عام ٦٢٠هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٢٢٤م)[٧]، دون وريث، فبايع الموحدون محمَّد عبد الواحد ابن الخليفة يوسف المنصور[٨]، لكن نافسه على الزعامة عبد اللَّه بن يعقوب والي مرسية

---

(١) ابن خلدون: ج ٦ ص ٢٤٥. المراكشي: ص ١٦٠.
(٢) ابن الأثير: ج ١٠ ص ١٦١.
(٣) ابن أبي زرع: ص ٢٥٨.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٦٣. مؤلف مجهول: ص ١٢١.
(٥) ابن خلدون: ج ٦ ص ٢٥٠.
(٦) ابن أبي زرع: ص ٢٧٣.
(٧) ابن خلدون: ج ٦ ص ٢٥١.
(٨) المصدر نفسه.

وأعلن نفسه خليفة وتلقَّب بلقب العادل، وذلك في (شهر صفر عام ٦٢١هـ/ شهر آذار عام ١٢٢٤م)، وبايعه ولاة الأندلس، وكانوا إخوته[١].

عيَّن العادل أخاه أبا العلاء إدريس والياً على إشبيلية، وسرعان ما نبذ هذا الوالي طاعة أخيه ودعا لنفسه وتلقَّب بلقب المأمون. ثم ثار الموحدون على العادل وقتلوه، وعيَّنوا مكانه يحيى ابن أخيه محمَّد الناصر وذلك في عام (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م)[٢] فلجأ المأمون إلى فرديناند الثالث ملك قشتالة ملتمساً مساعدته لقاء دفع مبلغ كبير من المال، ومنح النصارى امتيازات خاصة، فأمده بقوة عسكرية عبرت معه إلى المغرب، واصطدم بالخليفة يحيى وهزمه، ثم توفي في (شهر ذي الحجة عام ٦٢٩هـ/ شهر أيلول ١٢٣٢م)، فخلفه ابنه عبد الواحد وتلقَّب بـ الرشيد[٣].

نتيجة هذا الصراع الداخلي بين صفوف الموحدين، انهار حكمهم في الأندلس وبرز في هذا الصراع زعيم أندلسي هو محمَّد بن يوسف بن هود، من أحفاد حكام سرقسطة، فاستغل الأوضاع المتردية وهاجم مدينة مرسية وانتزعها من حاكمها الموحِّدي أَبي العباس، ودخلت في طاعته جيان وقرطبة وماردة وبطليوس وغرناطة، وانضمَّت إشبيلية إلى حركته وتلقَّب بلقب المتوكل على الله[٤]، وبذلك يكون قد وحَّد أهم المدن الأندلسية تحت رايته.

تصدى محمَّد بن يوسف بن هود لهجمات الإسبان، لكنه جوبه باتحاد قشتالة مع ليون بعد وفاة ألفونسو الثامن. واستأنف النصارى هجماتهم على المسلمين، فسقطت ماردة وبطليوس في يد ألفونسو التاسع ملك ليون وجيليقية، وانهزم المتوكل في فحص شريش أمام فرديناند الثالث ملك قشتالة وسقطت المدينة في عام (٦٣١هـ/ ١٢٣٤م)[٥].

سار محمَّد بن يوسف بن هود، بعد انهزامه في فحص شريش، إلى نواحي غرناطة لقتال منافسه محمَّد بن الأحمر، فاستغل القشتاليون هذه الفرصة وانقضوا على قرطبة التي كانت تعاني من الفوضى والاضطراب، ودخلوها في (شهر شوال عام ٦٣٣هـ/ شهر حزيران عام ١٢٣٦م)[٦].

وتوفي ابن هود بعد ذلك في ثغر المرية في (شهر جمادى الأولى عام

---

(١) ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.
(٢) ابن أبي زرع: ص ٢٧٤.
(٣) ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٤.
(٤) المصدر نفسه: جـ ٤ ص ١٦٨ ـ ١٧٠.
(٥) ابن أبي زرع: ص ٢٧٥.
(٦) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٦٩.

٦٣٥هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٢٣٨م)، ثم سقطت مرسية في يد فرديناند الثالث في عام (٦٤٠هـ/ ١٢٤٣م)[١].

في هذه الظروف التي كانت فيها المدن المهمَّة في الأندلس تسقط في أيدي الإسبان، قامت دولة عربية في جنوبي الأندلس تولت قيادة الجهاد الإسلامي مدة قرنين ونصف من الزمن، تلك هي مملكة غرناطة.

مرحلة حكم بني نصر أَو بني الأحمر
(٦١٢ ـ ٨٩٧هـ/ ١٢١٥ ـ ١٤٩٢م)

بنو الأَحمر في الأندلس

برز محمَّد بن يوسف بن أَحمد بن نصر الخزرجي، الذي عُرفت أسرته ببني الأَحمر، على مسرح الحياة السياسية في غمرة الصراع الإسلامي ـ النصراني في الأندلس، وأصل هذه الأسرة من أرغونة، فالتف حوله الأتباع في أرغونة والمناطق المجاورة، ودخلت جيان وبسطة ووادي آش والحصون القريبة في طاعته، وانضم إلى جيشه كثير من المسلمين الذين غادروا المناطق التي استولى عليها الإسبان، فاستطاع تجهيز جيش كبير ساعده على تنفيذ مشاريعه[٢].

توجَّه محمَّد بن الأَحمر بهذا الجيش إلى المناطق الجنوبية البعيدة عن هجمات الإسبان، وضمَّ المناطق التي كانت تحت سيطرة ابن هود، بعد وفاة هذا الأخير، وأعلن أشراف غرناطة ولاءهم له، ونبذوا طاعة عتبة بن يحيى المغيلي والي ابن هود، ثم استدعوه إلى مدينتهم، فسار إليها وتسلم حكمها في (شهر رمضان عام ٦٣٥هـ/ شهر نيسان عام ١٢٣٨م)، وأضحت منذ ذلك الوقت قاعدة لحكمه[٣].

وهكذا قامت مملكة غرناطة، نتيجة الفوضى التي سادت الأندلس في الداخل، واعتداءات النصارى في الخارج، وأضحى محمَّد ابن الأَحمر أمل الأندلسيين في إنقاذ بلادهم من الوضع المتردي الذي وصلت إليه.

عمل محمَّد بن الأَحمر على حماية ما تبقَّى من الأراضي الأندلسية من اعتداءات الإسبان، إلَّا أنه اضطر بعد اصطدامات مع فرديناند الثالث ملك قشتالة أن يهادنه، عندما رأى أنه لا طاقة له بالاستمرار في الحرب بفعل تفوق النصارى عليه، وضحَّى باستقلاله

---

(١) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٧٠.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.

السياسي لقاء الاحتفاظ بأراضيه. وتمَّ الاتفاق بين العاهلين على أن:

- يحكم محمَّد بن الأَحمر مملكته باسم ملك قشتالة.
- يؤدي جزية سنوية مقدارها ١٥٠ ألف قطعة ذهبية.
- يتنازل عن عدد من الحصون.
- يساعد الملك القشتالي في حربه ضد أعدائه من المسلمين.
- يحضر ابن الأَحمر اجتماعات قشتالة النيابية بصفته تابعاً للعرش القشتالي[١].

وتأهب فرديناند عقب توقيع المعاهدة لمهاجمة إشبيلية، وبدأ باحتلال حصونها الأمامية، ثم ضرب الحصار عليها، وأرسل إليه محمَّد بن الأَحمر قوة من الفرسان للمساعدة في عملية الحصار بصفته تابعاً له، دون تبصُّر بما قد ينتج عن هذه المساعدة، لأن الملك القشتالي لا بد وأن يرتدَّ على تابعه ابن الأَحمر بعد تصفية جيوب المقاومة الأندلسية.

وهكذا دفعت النزاعات الداخلية، وأطماع الأمراء لارتكاب فعل الخيانة، وهذه ظاهرة تفشَّت في الإمارات الأندلسية بعد سقوط دولة الخلافة الأموية.

واستسلمت إشبيلية بعد سنة ونصف من الحصار الشديد، وبعد مقاومة شجاعة، فدخلها فرديناند الثالث في (شهر رمضان عام ٦٤٦هـ/ شهر كانون الأول عام ١٢٤٨م)[٢]، وأزال معالمها الإسلامية، وحوَّل مسجدها إلى كنيسة، وتفرَّق سكانها على المدن الإسلامية الأخرى لا سيما غرناطة، وتلا سقوط إشبيلية، سقوط المناطق المجاورة لها.

انتظر الأندلسيون مساعدة من المغرب، وهذه ظاهرة أخرى حفلت بها عهود ما بعد سقوط الخلافة الأموية، حيث كانت أنظار الأندلسيين تتطلع دائماً نحو المغرب أثناء الشدائد.

وفعلاً تحرَّك بنو مرين حكام مراكش بناء على نداءات الاستغاثة الأندلسية، ودفعوا بجيش قوامه ثلاثة آلاف جندي، عدا المتطوعين، بقيادة محمَّد بن إدريس المريني، وأخيه الفارس عامر، عبر المضيق إلى الأندلس. وعند وصول هذه القوة، خشي ابن الأَحمر عاقبة أفعاله، فبدَّل موقفه، وتحوَّل إلى مهاجم للإسبان، وهزمهم في عام (٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م) بمساعدة القوة المغربية.

---

(١) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٧١. عنان: نهاية الأندلس ص ٤٣.

(٢) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٧٠ ـ ١٧١.

خشي ألفونسو العاشر ملك قشتالة من هذه الصحوة الإسلامية، فتحرك على وجه السرعة للاستيلاء على ما تبقّى من القواعد الأندلسية، فانتزع مدينة أستجة في عام (٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م)، وهاجم غرناطة نفسها، واضطر محمَّد بن الأَحمر إلى مهادنته، وتنازل له عن بعض الحصون في غربي الأندلس[١].

لم يبق بيد الأندلسيين بعد حروب الاسترداد الإسبانية سوى رقعة ضيقة حول غرناطة. وتوفي محمَّد بن يوسف في عام (٦٧١هـ/ ١٢٧٣م)، وخلفه ابنه أَبو عبد اللَّه محمَّد الملقب بـ الفقيه لعلمه. وسعى محمَّد هذا إلى التخلص من التزاماته الإقطاعية عن طريق التعاون مع بني مرين في مراكش[٢].

والواقع أن سلطان المغرب أبا يوسف يعقوب لم يتردَّد في تلبية نداء الاستغاثة والتدخل في شؤون الأندلس بعد أن تنازل له محمَّد عن الجزيرة الخضراء وجزيرة طريف، فعبرت جيوشه إلى هذه البلاد أربع مرَّات، ومع أنه استطاع أن ينتصر على النصارى، فقد عجز عن إحداث أي تغيير في وضع الأراضي.

وسرعان ما أضحى الجنود المغاربة الذين تكفَّل بنو الأَحمر بالإنفاق عليهم، عبئاً ثقيلاً على البلاد. وأخذ أَبو عبد اللَّه محمَّد بن الأَحمر يرتاب بنوايا السلطان المغربي، ومن هنا سعى إلى الاستنجاد بألفونسو العاشر ضد حليفه المريني.

ونتيجة لسياسة التقلبات السريعة التي نفَّذها بنو الأَحمر؛ استطاعوا أن يعمِّروا مائتين وخمسين سنة، بصفتهم آخر سلالة إسلامية في الأندلس، وانحصروا في الإقليم الضيق الممتد من ساحل جبل طارق حتى المرية، إلى سلسلة جبال رُندة، وجبال البيرة في الداخل.

وسقطت غرناطة، آخر المعاقل الإسلامية في الأندلس، بيد فرديناند الخامس ملك أراغون وإيزابيلا ملكة قشتالة، بعد اتحادهما، في (شهر ربيع الأول عام ٨٩٧هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٤٩٢م) في عهد آخر أمرائها محمَّد بن علي بن سعد أَبو عبد اللَّه[٣]. وبسقوطها انتهت دولة المسلمين في الأندلس.

---

(١) عنان: ص ٤٨ ـ ٤٩.
(٢) ابن خلدون: جـ ٧ ص ١٩١.
(٣) السلاوي: جـ ٤ ص ١٠٤. المقري: جـ ٦ ص ٢٧٧.

الفصل الثامن

الدولة الفاطمية

(٢٩٧ ــ ٥٦٧هـ/ ٩١٠ ــ ١١٧١م)

اسماء الحكام الفاطميين ومدة حكم كل منهم

أَبو محمَّد عُبيد الله المهدي	٢٩٧ ـ ٣٢٢هـ/ ٩١٠ ـ ٩٣٤م
أَبو القاسم محمَّد القائم	٣٢٢ ـ ٣٣٤هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٦م
أَبو طاهر إسماعيل المنصور	٣٣٤ ـ ٣٤١هـ/ ٩٤٦ ـ ٩٥٣م
أَبو تميم معد المعز	٣٤١ ـ ٣٦٥هـ/ ٩٥٣ ـ ٩٧٥م
أَبو منصور نزار العزيز	٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ/ ٩٧٥ ـ ٩٩٦م
أَبو علي المنصور الحاكم	٣٨٦ ـ ٤١١هـ/ ٩٩٦ ـ ١٠٢١م
أَبو الحسن علي الظاهر	٤١١ ـ ٤٢٧هـ/ ١٠٢١ ـ ١٠٣٦م
أَبو تميم معد المستنصر	٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٣٦ ـ ١٠٩٤م
أَبو القاسم أَحمد المستعلي	٤٨٧ ـ ٤٩٥هـ/ ١٠٩٥ ـ ١١٠١م
أَبو علي المنصور الآمر	٤٩٥ ـ ٥٢٤هـ/ ١١٠١ ـ ١١٣٠م
أَبو الميمون عبد المجيد الحافظ	٥٢٦ ـ ٥٤٤هـ/ ١١٣٢ ـ ١١٤٩م
أَبو المنصور إسماعيل الظافر	٥٤٤ ـ ٥٤٩هـ/ ١١٤٩ ـ ١١٥٤م
أَبو القاسم عيسى الفائز	٥٤٩ ـ ٥٥٥هـ/ ١١٥٤ ـ ١١٦٠م
أَبو محمَّد عبد اللَّه العاضد	٥٥٥ ـ ٥٦٧هـ/ ١١٦٠ ـ ١١٧١م

أصل الفاطميين(١)

يتطلَّب البحث التاريخي عن الدولة الفاطمية العودة إلى الجذور، ويقود إلى

(١) انظر كتابنا: تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام.

البدايات الأولى، وأبدأ بيوم السقيفة متجاوزاً الدخول في أحكام الدين والشريعة الإسلامية، لأن الإشكال يومها كان يدور حول صراع الإرث السياسي. واتفقت كلمة المسلمين على اختيار أَبي بكر الصدِّيق خليفة في اليوم الذي توفي فيه النبي في (١٢ ربيع الأول ١١هـ/ ٧ حزيران ٦٣٢م)[١]. وانتصرت مقولة «الأئمة من قريش» وأُقِرَّ مبدأ الحكم في الإِسلام وقف على قريش ومحصور بها. لم يحضر علي بن أَبي طالب وبعض الصحابة عملية الاختيار التي تمَّت على عجل، إذ كانوا منهمكين بتجهيز النبي، لكن علياً لم يلبث أن بايع أبا بكر.

وتولى عمر بن الخطاب منصب الخلافة في (شهر جمادى الآخرة ١٣هـ/ شهر آب ٦٣٤م) بعد وفاة أَبي بكر وبعهد منه. وتطور، في أيامه، المبدأ المشار إليه من قريش بعامة وانحصر الحكم في آل عبد مناف بن قصي، بني أمية وبني هاشم[٢].

وجرت نقلة نوعية فيما يتعلَّق باحتكار السلطة حين اختير عثمان بن عفان لتولي منصب الخلافة في (شهر محرم ٢٤هـ/ شهر تشرين الثاني ٦٤٤م) وذلك عندما استقر الأمر لبني أمية، ووقف بنو هاشم على رأس المعارضة[٣].

وانتخب علي بن أَبي طالب خليفة للمسلمين على أثر مقتل عثمان بن عفان في (شهر ذي الحجة ٣٥هـ/ شهر حزيران ٦٥٦م) بأغلبية المسلمين في ظروف مضطربة كانت موضوعاً لنزاع كبير[٤].

وأسفر الصراع المرير بعد الفتنة الكبرى ومعارك الحروب الأهلية ـ الجمل وصفِّين ـ عن انتصار معاوية بن أَبي سفيان وتأسيس الدولة الأموية في عام (٤١هـ/ ٦٦١م). وكان علي بن أَبي طالب قد قُتل على يد الخوارج في (شهر رمضان ٤٠هـ/ شهر كانون الثاني ٦٦١م)[٥].

وبعد وفاة علي بن أَبي طالب شعر أتباعه بالحرمان واليأس والمرارة لأنهم لم يعرفوا كيف يساندونه ويدافعون عنه، فنمت فيهم عقدة ذنب عظيمة دفعتهم إِلى الالتفاف حول شهيد من آل البيت، استمرت على امتداد تاريخهم، وعُرفوا بالعلوية أَو بشيعة علي، ورفضوا مختلف صيغ الحكم وأكدوا أن القرآن والسنَّة تضمَّنا النصوص الموجبة لتولي علي وذريته من بعده خلافة النبي الزمنية والروحية.

---

(١) الطبري: جـ٣ ص ٢٠٠ ـ ٢١١.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤١٩ ـ ٤٢٨.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٩٣، ٢٢٧ ـ ٢٤٠.

(٤) المصدر نفسه: ص ٤١٥، ٤٢٧.

(٥) المصدر نفسه: ص ١٤٣.

وغدت الإمامة ذات العلم الموروث محور العمل الشيعي. والمعروف أن حركة التشيع بدأت حركة عربية إسلامية، لكن ما لبث أن دخل فيها الكثير من غير العرب وبخاصة الفرس، وجاء هذا الدخول في كثير من المناسبات نوعاً من أنواع المعارضة الأعجمية للعروبة والإسلام[(١)].

واجتمع الشيعة المعتدلون حول أبناء فاطمة، وراحوا يعملون بحذر بما جاءت به السنَّة، في حين التفَّ المتطرفون حول محمَّد بن علي بن أَبي طالب المعروف باسم محمَّد بن الحنفية. وبدأت، منذ ذلك الوقت، الانقسامات بين صفوف الشيعة مما مكَّن الأمويين من القضاء على الحركات الشيعية الثائرة على حكمهم، وبخاصة ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي التي اتسمت بمحتواها الديني والعقائدي حين نادى بفكرة المهدي المنتظر في شخص محمَّد بن الحنفية.

ودخلت الحركة الشيعية مع أتباع جعفر الصادق، الإمام الخامس لجده الحسين، منعرجاً حاسماً في تاريخها تمثَّل في انقسامها إلى فرقتين بفعل نظرية الحق الوراثي عند الشيعة هما الإمامية الإثني عشرية والإسماعيلية، أتباع ابنه إسماعيل.

ودخل الفرس على الخط السياسي مستغلين هذا الانقسام ليوجهوا الحركة الإسماعيلية لصالحهم. وتشير أغلب المصادر إلى أن جعفر الصادق عيَّن ابنه إسماعيل خلفاً له وهو الإمام السادس، غير أن إسماعيل توفي في حياة أبيه، فحوَّلت الفرقة الأولى الإمامة إلى ابنه موسى الكاظم وهو الإمام السابع، في حين استمرت الفرقة الثانية على موقفها بالقول بإمامة إسماعيل، وتُعدُّ البداية الأولى للحركة الإسماعيلية، وانقسمت بدورها إلى طائفتين، أنكرت الأولى وفاة إسماعيل في حياة أبيه واعتقدت بأن أباه أخفاه تقية خوفاً عليه من العباسيين وأكدت أنه الإمام الحقيقي من بعده، وأنه سيعود كمهدي قائم، وعُرفت بالإسماعيلية الخالصة والإسماعيلية الواقفة[(٢)]. واعتقدت الثانية بوفاة إسماعيل في حياة أبيه، واعترفت بإمامة ابنه محمَّد إماماً سابعاً، وحجتها في ذلك عدم جواز نقل الإمامة من أخ إلى أخيه بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين، ولا تكون إلَّا في الأعقاب[(٣)].

ولحل الإشكال الذي وقع بينهما، ابتكرت الطائفة الثانية نظرية الاستقرار

---

(١) زكار، سهيل: الجامع في أخبار القرامطة جـ ١ ص ٤٢.

(٢) الشهرستاني، محمد عبد الكريم: الملل والنحل جـ ١ ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٣) عماد الدين، إدريس: عيون الأخبار، السبع الرابع ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

والاستيداع. فالإمام المستقر هو الذي يورِّث الإمامة من بعده لأنها تستقر فيه، فهو إمام حقيقي. أما المستودع فيظل إماماً طيلة حياته ولا يحق له نقل الإمامة إلى أبنائه من بعده. وبناء عليه يكون موسى الكاظم إماماً مستودعاً أما أخوه إسماعيل فهو الإمام المستقر.

نشأت الحركة الإسماعيلية كحركة اجتماعية، فلسفية وسياسية معاً. وكان إسماعيل بن جعفر الصادق أوسع نشاطاً من إخوته، وأعظمهم تأثيراً في بناء العمل السياسي للشيعة الإسماعيليين. واتبع مبدأ التقية، فعمل في خفاء تام، وأحسن اختيار دعاته، ووضع أُسس المذهب الإسماعيلي، وهو أول من أعطى الإمامة العلوية بُعداً سياسياً شبيهاً بالخلافة، ووضع الخطط السرية للوصول إلى الحكم.

وضبط ابنه محمَّد مذهب الحركة، ونظَّم الدعوة بفضل مساعدة ميمون القداح الفارسي الأصل وابنه عبد الله بن ميمون. ويبدو أنه تعرَّض للمضايقة والملاحقة من قِبل السلطة العباسية، فعمد إلى التستر والتخفي منذ عام (١٤٥هـ/ ٧٦٢م)، ولم تنته هذه الحالة إلَّا في عام (٢٩٧هـ/ ٩١٠م) بظهور المهدي في إفريقية وقيام الدولة الفاطمية.

وتُعدُّ هذه المرحلة بنظر المؤرخ، الأشد غموضاً والأكثر إثارة نظراً لما يواجهه من صعاب لإدراك الحقيقة من خلال مصادر غزيرة بقدر ما هي متناقضة. ولعل السبب الأبرز في ذلك هو ندرة المعلومات، لأن غالبية الفرق الشيعية لجأت إلى التقية والعمل السري في العصر العباسي الأول تجنباً لغضب ونقمة العباسيين. وتميزت نهاية هذه المدة بتوقف نشاط الإمامية الاثني عشرية في عام (٢٦٠هـ/ ٨٧٤م) بفعل اختفاء الإمام الثاني عشر، وتوافق هذا التاريخ مع انطلاق نشاط الدعاة الإسماعيليين الذين أضحوا يتحملون دون سواهم مهمة إذكاء الجذوة الحسينية، وتنبؤوا بظهور المهدي في القريب العاجل، ودعوا الناس إلى القتال باسمه، وتحت رايته.

إن لقب الفاطميين، الذي عُرف به خلفاء عبيد الله المهدي، يدل للوهلة الأولى على أنهم من أولاد علي بن أبي طالب وفاطمة بنت النبي، فهم علويون، على أن نسب الأسرة الفاطمية كان ولا يزال موضوعاً لم يتفق المؤرخون، لا في الماضي ولا في الحاضر، على رأي واحد فيه. فالرواية السنية تنفي النسب العلوي للأسرة، وتعزو الفاطميين إلى الفرس، وترجع نسبهم إلى ميمون القداح، وتصف عبيد الله المهدي أحياناً بأنه ابن يهودي، وعلى هذا الأساس دعت هذه المصادر الدولة الفاطمية باسم «الدولة العبيدية». وفي المقابل تؤكد مصادر أخرى، معظمها شيعية، صحة نسب الفاطميين وترجعهم إلى محمَّد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، لكن يكتنفها الغموض ويشوبها الاختلاف، وبخاصة في تسلسل أسماء الأئمة.

وهكذا طرحت قضية أصل الفاطميين على بساط البحث، وأثارت جدلاً بين المؤرخين لم يحسم إلى الآن[1].

ومن وجهة النظر التاريخية التي تهمنا في هذا البحث عن أصل الفاطميين، نجد أن العباسيين والأمويين في الأندلس ينكرون النسب العلوي للفاطميين، علماً بأنهم لم ينكروا قط شرعية غيرهم من العلويين كأمراء طبرستان في المشرق وأمراء الأدارسة في المغرب.

وفي الواقع سواء كان الحكام الفاطميون من نسل إسماعيل بن جعفر الصادق أم كانوا من نسل ميمون القداح، فقد أسَّسوا دولة مترامية الأطراف، وأنشأوا حضارة إسلامية زاهية، ولا يمكن أن تُنقص من هذه الحقيقة أن يكون نسبهم موضوعاً للجدل والريب.

تقسيم تاريخ الدولة الفاطمية

حكمت الدولة الفاطمية ما يقارب ٢٧٠ عاماً (٢٩٧ ـ ٥٦٧هـ/ ٩١٠ ـ ١١٧١م)، ابتدأت بعبيد الله المهدي وانتهت في أواخر أيام العاضد، حيث زالت على يد صلاح الدين الأيوبي. ولم تكن هذه المدة الزمنية على نمط واحد من حيث قدرات الدولة وقوة الحكَّام. ويمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل زمنية:

المرحلة الأولى: ٢٩٧ـ ٣٦٢هـ| ٩١٠ـ ٩٧٣م

هي مرحلة التأسيس والتمهيد للانتقال إلى مصر. فقد نقل الدعاة الفاطميون مركز دعوتهم من سلمية في بلاد الشام ـ إلى الشمال الشرقي من حمص ـ إلى إفريقية، واستطاع

(١) ابن النديم: الفهرست ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣. البغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمَّد: الفرق بين الفرق ص ٦٢ ـ ٦٣، ٢٨٢ ـ ٢٨٣. ابن ظافر، جمال الدين علي: أخبار الدول المنقطعة ص ١، ٢٦ ـ ٢٧. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان جـ ٣ ص ٨٢. ابن الأثير جـ ٦ ص ٥٨٠ ـ ٥٨١. ويروي هذا المؤرخ مختلف الروايات المتعلقة بنسب الفاطميين ص ٥٧٧ ـ ٥٨٣، ٥٨٧ ـ ٥٨٨. وانظر المقريزي، تقي الدين أحمد: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا جـ ١ ص ٢٢ ـ ٣٤. ابن حزم، أبو محمَّد علي بن أحمد: جمهرة أنساب العرب ص ٥٩. ابن أيبك الدواداري، أبو بكر عبد الله: كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٦ ص ١٤٧ ـ ١٤٧. ابن فهد، النجم بن محمَّد: نسب الخلفاء الفاطميين، تقديم حسين الهمذاني. عماد الدين، إدريس: عيون الأخبار وفنون الآثار، السبع الرابع ص ٣٦٣ ـ ٤٠٤. المقريزي: المصدر نفسه ص ١٦ ـ ١٧. كتاب التراتيب، من تصنيف أحد رجال الدعوة الإسماعيلية، وقد صُنِّف مبكراً. انظر سهيل زكار: الجامع في أخبار القرامطة جـ ١ ص ١٦٤.

عبيد الله أن يؤسِّس دولة فتية طموحة أخذت في النمو والتوسع. وحكم في هذه المرحلة كل من: المهدي، القائم، المنصور والمعز. وتمتاز بميزتين:

الأولى: التوسع الفاطمي على الأرض، ونشر الدعوة الإسماعيلية في شمالي إفريقية.

الثانية: إن حكام هذه المرحلة نجحوا في نشر المذهب الإسماعيلي في مصر، وانتقل المعز إليها بعد أن نجح قائده جوهر الصقلي في الاستيلاء عليها.

المرحلة الثانية: ٣٦٢ ـ ٤٨٧هـ| ٩٧٣ ـ ١٠٩٤م

هي مرحلة القوة والتوسع باتجاه الشرق الإسلامي، بلاد الشام، الحجاز، اليمن بالإضافة إلى حكم مصر وصقلية وشمالي إفريقية. وحكم في هذه المرحلة كل من: المعز، العزيز، الحاكم، الظاهر والمستنصر.

المرحلة الثالثة: ٤٨٧ ـ ٥٦٧هـ| ١٠٩٤ ـ ١١٧١م

هي مرحلة الضعف والزوال، حيث برز الوزراء على حساب الحكام الفاطميين الذين فقدوا اختصاصاتهم، وتقلّص نفوذهم حتى انحصر داخل القصر، في حين تقاسمت فرق الجند أقاليم الدولة، وحكم في هذه المرحلة كل من: المستعلي الآمر، الحافظ، الظافر، الفائز، والعاضد.

المرحلة الأولى: مرحلة التأسيس
٢٩٧ ـ ٣٦٢هـ/ ٩١٠ ـ ٩٧٣م

الوضع السياسي في شمالي أفريقية قبيل قيام الدولة الفاطمية

تقاسمت شمالي إفريقية قبيل قيام الدولة الفاطمية أربع دول هي:

١ ـ الدولة المدرارية: أو دولة بني واسول: ١٤٠ ـ ٢٩٦هـ| ٧٥٧ ـ ٩٠٨م

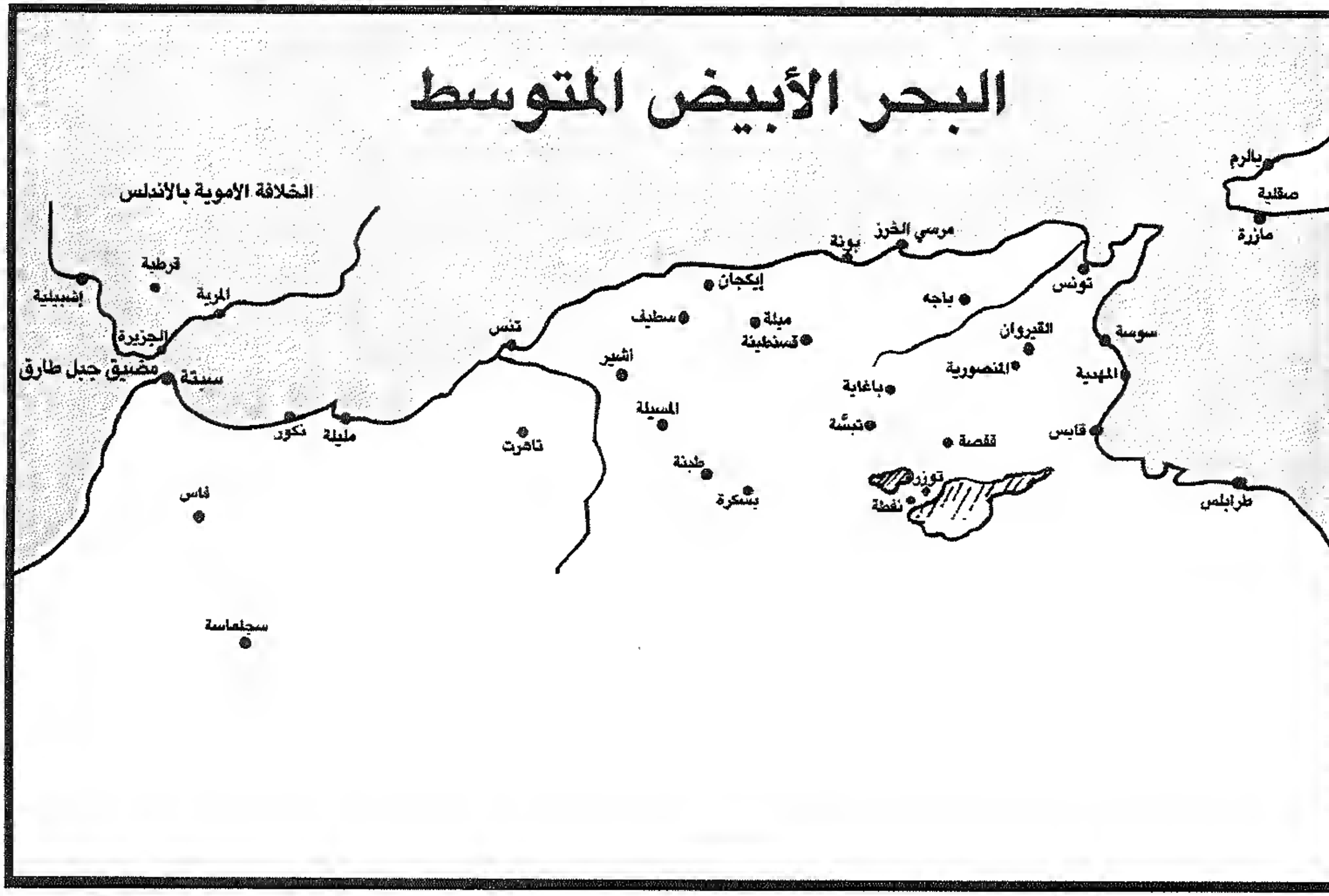
وهي دولة خارجية صفرية[١] عاصمتها مدينة سجلماسة الواقعة في جنوبي المغرب الأقصى، في طرف بلاد السودان. أسَّسها عيسى بن يزيد المكناسي[٢]، من موالي العرب[٣] والتفَّ حوله أهل تلك الصحراء من مكناسة، وكانوا يدينون بمذهب

---

(١) الخوارج الصفرية: نسبة إلى زعيمهم زياد بن الأصفر.

(٢) المكناسي: نسبة إلى مدينة مكناسة، في المغرب الأقصى، في بلاد البربر، بينها وبين مراكش أربع عشرة مرحلة نحو الشرق. الحموي: ج ٥ ص ١٨١.

(٣) القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج ٥ ص ١٥٨ ـ ١٥٩.



الدولة الفاطمية في أفريقية والمغرب

الخوارج الصفرية، فبايعوه بالإمامة[1]؛ فخلع طاعة الخلفاء العباسيين واستقل بهذه المنطقة.

وعندما استقرت الجماعة الصفرية، استدعى أَبو القاسم سمكو بن واسول قومه من المكناسيين للاستقرار فيها. ويبدو أنه كان ذا نزعات سلطوية، فتطلع إلى السلطة، وبخاصة أن هذه الهجرة منحته مركزاً متفوقاً على سائر العناصر الأخرى، ثم أخذ يتحين الفرص للتخلص من عيسى بن يزيد. ولما كانت الغلبة في هذه المجتمعات، دائماً، للعصبية، فما لبث أَبو القاسم أن عزل عيسى بن يزيد بعدما اتهمه بالاستئثار بالنفوذ والأموال، وقتله في عام (١٥٥هـ/ ٧٧٢م)[٢]، والراجح أنه كان يحقد عليه بسبب تشدُّده، وتولى الأمر، وبايعه قومه، وحوَّل الإمامة إلى إمارة وراثية في أسرته. ويُعدُّ أَبو القاسم هذا المؤسِّس الحقيقي لهذه الدولة التي سمِّيت باسمه، ولم يحفل كثيراً بتطبيق مبادىء المذهب، كما لم يهتم بالصفرية خارج بلاده[٣].

وحوَّل الصفريون هذه المنطقة، إلى منطقة زراعية، فشقوا القنوات، واستكثروا من زراعة النخيل، والشعير، والقمح، وقصب السكر. وتحوَّل السكان من حالة الرعي إلى وضع الاستقرار الزراعي. ونشطت التجارة، وازدهرت الحياة الاقتصادية. وأضحت سجلماسة بفعل موقعها سوقاً تجارياً كبيراً، وأضحت مركز دعوة إسلامية، ومستقر جماعة دينية على المذهب الصفري الخارجي[٤].

توفي أَبو القاسم سمكو في عام (١٦٨هـ/ ٧٨٤م) وخلفه ابنه إلياس الملقب بالوزير. ويبدو أن الناس لم يرضوا عن حكمه، فخلعوه بعد مرور سنتين وولوا مكانه أخاه أليسع[٥]. اتصف أليسع بالحماس الشديد للمذهب الصفري. وسَّع الدولة، وأقام علاقات حسنة مع الدولة الرستمية في تاهرت، وتوفي في عام (٢٠٨هـ/ ٨٢٣م) وخلفه ابنه مدرار وتلقب بالمنتصر، وبدأ في عهده تدهور الدولة، ولم يتمكَّن خلفاؤه من المحافظة على مكتسبات الدولة.

واشتدت في عهد أليسع بن المنتصر الذي تولى الحكم في عام (٢٧٠هـ/ ٨٨٣م) رياح الدعوة الفاطمية، فهاجم أَبو عبد اللّه الداعي الفاطمي مدينة سجلماسة

---

(١) ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٣٠.
(٢) القلقشندي: جـ ٥ ص ١٥٩ ـ ١٦٠.
(٣) مؤنس، حسين: تاريخ المغرب وحضارته جـ ١ ص ٣٤٠.
(٤) القلقشندي: جـ ٥ ص ١٥٩.
(٥) ابن عذاري: جـ ١ ص ١٥٦. ابن خلدون: المصدر السابق.

في عام (٢٩٦هـ/ ٩٠٨م) ودخلها، وفرَّ حاكمها أليسع بن مدرار[(١)].

٢ـ الدولة الرستمية: ١٤٤ـ ٢٩٦هـ/ ٧٦١ـ ٩٠٨م

قامت الدولة الرستمية في المغرب الأوسط، وهي دولة خارجية أباضية أسَّسها عبد الرَّحمن بن رستم الفارسي الأصل، عاصمتها مدينة تاهرت. أحاط بهذه الدولة الأعداء من كل جانب، الأغالبة في القيروان بما فيها الزاب، والأدارسة في فاس، وكانوا يسيطرون على تلمسان، فاضطر الرستميون إلى الاتجاه نحو الأندلس للتحالف مع الأمويين، كما تحالفوا مع الدولة المدرارية، وثبَّت هذا التحالف زواج المنتصر بن أليسع بن مدرار بأروى بنت عبد الرَّحمن الرستمي.

تعاقب على حكم هذه الدولة ستة من أفراد أسرته كان آخرهم اليقظان بن أبي اليقظان بن محمَّد، وسقطت الدولة الرستمية في عهده في عام (٢٩٦هـ/ ٩٠٨م) على يد أبي عبد اللَّه الداعي. وكان للصراع الداخلي على منصب الإمامة، والخلافات الدامية بين الإباضيين من أبرز الأسباب التي أدَّت إلى إضعاف الدولة، فوهنت قوة الإباضيين، ولم يستطيعوا الصمود أمام الاندفاع الفاطمي[(٢)].

شهدت تاهرت في عهد الرستميين نهضة علمية، وازدهاراً اقتصادياً كبيراً. فقد كرَّس أئمة الدولة حياتهم لنشر العلوم، وشاركوا فعلياً في الحركة العلمية، وكان عبد الرَّحمن من كبار علماء عصره، كما كان ابنه عبد الوهاب تواقاً للعلم، يشتري الكتب من بغداد، ولا يفتأ ينكب على قراءتها، واشتهرت تاهرت بمكتبتها التي ضمَّت نحواً من ثلاثمائة ألف مجلد.

وتوسع الرستميون في الإنتاج الزراعي بفعل توافر المياه وخصوبة الأرض، واعتمدوا على التجارة البحرية مع الأندلس، والبرية مع السودان وغانة وسجلماسة والمغرب الأقصى. واجتذبت الحياة المزدهرة الأجانب إلى تاهرت، وجنت الدولة بسبب التجارة مكاسب هائلة.

٣ـ دولة الأدارسة: ١٧٢ ـ ٣٥٧هـ/ ٧٨٨ـ ٩٨٥م

هي دولة علوية حسنية، أسَّسها إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في المغرب الأقصى في عام (١٧٢هـ/ ٧٨٨م)، وبنى عاصمتها فاس. امتد حكم الأدارسة من السوس الأقصى إلى مدينة وهران، وتعرَّض حكمهم

---

(١) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٣. ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٣٠ ـ ١٣٢.

(٢) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٥٨.

لهجمات الفاطميين، مما دفعهم إلى الانسحاب شمالاً إلى منطقة جبال الريف حيث تحصنوا في بعض القلاع مثل البصرة.

لم تتمتع دولة الأدارسة في هذه المناطق الجديدة بالاستقلال كما تمتعت به في فاس، ثم طردهم موسى بن أبي العافية، واستأثر بالنفوذ في المغربين الأوسط والأقصى، وزالت في عهد آخر أمرائها أبي القاسم بن محمَّد بن القاسم بن كنون[1].

٤ ـ الدولة الأغلبية ١٨٤ ـ ٢٩٦هـ/ ٨٠٠ ـ ٩٠٩م

قامت الدولة الأغلبية في المغرب الأدنى أو إفريقية، وقسم من المغرب الأوسط. أسَّسها إبراهيم بن الأغلب والي الزاب، نتيجة الاتفاق الذي جرى بينه وبين الخليفة العبَّاسي هارون الرشيد. وكانت تجربة جديدة في نظم الحكم في الدولة الإسلامية، وهي تجربة التخلِّي عن قسم من الدولة لصالح أسرة معينة من أهل الولاء والطاعة لقاء دفع مقدار سنوي معين من المال. وتتفق التجربة في روحها مع الحالة العامة للدولة العبَّاسية، ووفَّرت الكثير من العناء عليها مع الاحتفاظ بمظاهر السيادة المركزية.

وقد افتتح هارون الرشيد هذه السياسة الجديدة لتحقيق عدة أهداف في الولايات المغربية البعيدة عن مركز الدولة في بغداد، لعل أهمها:

- تأديب البربر وغيرهم من الخارجين.
- الوقوف في وجه الأدارسة لمنعهم من مهاجمة أراضي الدولة العبَّاسية.
- تأمين مصر، وهي ولايته الكبرى في المغرب.

كان من الطبيعي، في ظل الظروف التي نشأت فيها الدولة، أن يكون الأمراء الأغالبة عمالاً للعباسيين، فتمتَّعت الدولة باستقلال اسمي، ولكنها ما لبثت أن استقلت مع مرور الزمن، استقلالاً يكاد يكون تاماً.

اتخذ الأغالبة مدينة القيروان عاصمة رسمية لهم، كما اتخذوا مدينة رقَّادة التي تبعد أربعة أيام عن القيروان عاصمة خاصة، وامتلكوا قوة بحرية مكَّنتهم من غزو صقلية ومالطة وسواحل جنوب إيطاليا، إلَّا أن ضعفهم الداخلي كان مفككاً بسبب تنافس أمرائهم على السلطة وانغماس بعضهم في اللهو، وقيام الثورات العاتية ضد نظام الحكم؛ مما أتاح لأبي عبد اللَّه الداعي أن ينشر دعوته في المناطق الجنوبية

---

(١) ابن عذاري: جـ ١ ص ٢١٠ ـ ٢١١. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٢ ـ ١٨.

الغربية، ويقضي على دولتهم في عهد الأمير زيادة الله الثالث[1].

قيام الدولة الفاطمية

أرسل أَبو القاسم الحسن بن فرح بن حوشب الكوفي، داعي الإِسماعيليين في اليمن، أبا عبد اللَّه الداعي، وهو الحسين بن أَحمد، إلى بلاد المغرب في عام (٢٨٨هـ/ ٩٠١م) لنشر الدعوة في هذه البلاد، بعد وفاة داعيي الإسماعيلية فيها وهما أَبو سفيان الحسن بن القاسم وعبد اللَّه بن علي بن أَحمد المشهور بالحلواني.

نجح أَبو عبد اللَّه الداعي في استقطاب جماعة من حجاج كتامة من البربر، وصحبهم إلى بلاد المغرب، حيث بثَّ دعوته بين الناس، وقوي أمره بمن التفَّ حوله من الأتباع، واستولى على القيروان، وأزال الدولة الأغلبية.

وبعد أن أضحى في عام (٢٩١هـ/ ٩٠٤م) صاحب السلطان المطلق في جميع الجهات الواقعة إلى المغرب من مدينة القيروان، أرسل إلى عبيد الله المهدي في سلمية يدعوه للحضور إلى إفريقية لتسلم الأمر.

والواقع أن نجاح الداعي أبي عبد اللَّه في نشر الدعوة وسط قبيلة كتامة، وما حقَّقه من نصر على الأغالبة؛ أقنعت عبيد الله المهدي بقبول الدعوة، فترك سلمية متنكراً بزي التجار وتوجه إلى إفريقية. ولم يكد يصل إلى مدينة سجلماسة حتى انكشف أمره، فقبض عليه أميرها وسجنه، غير أن أبا عبد اللَّه الداعي أطلقه بالقوة، واصطحبه إلى مدينة رَقَّادة حيث بويع له بالخلافة في (شهر ربيع الآخر عام ٢٩٧هـ/ شهر كانون الثاني عام ٩١٠م)، وتلقَّب بلقب المهدي، واضعاً بذلك الأساس الذي قامت عليه الدولة الفاطمية[2].

والحقيقة أن عبيد الله المهدي لم يجلس على عرش الدولة الفاطمية في رَقَّادة، إلَّا بعد زوال الدولة الأغلبية في إفريقية، والدولة المدرارية في سجلماسة، والدولة الرستمية في تاهرت.

عبيد الله المهدي: ٢٩٧ ـ ٣٢٢هـ/ ٩١٠ ـ ٩٣٤م

أدرك عبيد الله المهدي أن دولته الناشئة بحاجة إلى تدعيم واستقرار داخلي، فقام بعدة أعمال كفلت له تثبيت أقدامه في الحكم، منها:

---

(١) ابن عذاري: جـ ١ ص ١٤٣ ـ ١٤٩. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٥٩٠ ـ ٥٩٦.

(٢) ابن عذاري: المصدر نفسه١ ص ١٥٢ ـ ١٥٦. ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٥٩٧ ـ ٥٩٩.

ـ وضع تنظيمات سياسية وإدارية ودينية مذهبية، تنسجم مع تطلعات الإسماعيليين في تأسيس دولة علوية قوية.

ـ تخلَّص من أَبي عبدَ اللَّه الداعي الذي كان له فضل ارتقائه الحكم، وذلك بعد بروز بوادر منافسة من جانبه على السلطة[1].

ـ بنى عاصمة جديدة هي المهدية في عام (٣٠٣هـ/ ٩١٥م) على طرف الساحل الشرقي لإفريقية بالقرب من تونس، وانتقل إليها في عام (٣٠٨هـ/ ٩٢٠م)، مدفوعاً بثلاثة عوامل:

الأول: حرص على الابتعاد عن رَقَّادة والقيروان، مركز المقاومة السنية.

الثاني: ضعف نفوذ الفاطميين في داخل البلاد.

الثالث: مواجهة البيزنطيين في البحر الذين ما برحوا يتحرَّشون بالفاطميين، منطلقين من جنوب إيطاليا.

ـ أرسل العمال إلى الولايات ليحكموا باسمه واختارهم من الأشخاص الذين يثق بهم.

ـ واجه الثورات التي قامت ضد حكمه بشجاعة وأخمدها، نذكر منها: المقاومة السنية في القصر القديم والقيروان وطرابلس، وثورة سكان صقلية، وثورة واليه على المغرب الأقصى، موسى بن أبي العافية[2].

بعد استقرار الوضع الداخلي، حاول عبيد الله المهدي أن يتوسع في اتجاهين متباعدين. ففي الشرق، طمع بامتلاك مصر، فأرسل إليها حملتين عسكريتين في عامي (٣٠١هـ/ ٩١٤م)، (٣٠٧هـ/ ٩١٩م)، جاءت نتائجهما فاشلة، لأن تلك البلاد الخاضعة للإخشيديين كانت من القوة بحيث استطاعت أن تصدهما[3]. وكانت له علاقات عدائية مع القرامطة في البحرين بسبب تحديد نوع العلاقة بين الطرفين. إذ أن عبيد الله المهدي، بوصفه الإمام الفاطمي، أخذ يملي إرادته على أتباعه، ويُشعرهم بسلطته المطلقة، ويتدخل في تعيين رؤوسائهم وعزلهم، فنتج عن هذه السياسة نفور بين فروع الدعوة في المشرق وبين القيادة في المغرب. وفي الغرب

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا جـ ١ ص ٦٧ ـ ٦٨. خطط: جـ ٢ ص ١٨٥.

(٢) القاضي النعمان: رسالة افتتاح الدعوة ص ٢٧٤. ابن عذاري: جـ ١ ص ١٦٦ ـ ١٦٨. إدريس، عماد الدين: السبع الخامس ص ١٢٢ ـ ١٢٥. حسن وشرف: عبيد اللَّه المهدي ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

(٣) الكندي، محمَّد بن يوسف: ولاة مصر: ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩، ٢٩٦، الأنطاكي، يحيى بن سعيد: تاريخ الأنطاكي ص ٦٩. إدريس، عماد الدين: المصدر نفسه ص ١٢٨، ١٣٣ ـ ١٣٥.

انطلقت القوات الفاطمية نحو المغرب الأقصى فاصطدمت بالأدارسة والصنهاجيين واستولت على عاصمتهم نكور. وعلى الرغم من ذلك، أسفرت السياسة التوسعية في المغرب الأقصى عن نتائج هزيلة، واعترضتها عقبتان هما سياسة عبد الرَّحمن الناصر الأموي في الأندلس، وتمرد الزناتيين. واضطر عبيد الله المهدي قبل وفاته، إلى قبول تمركز الخليفة الأموي في المغرب الأقصى، وبقاء محمَّد بن خزر الزناتي في المغرب الأوسط.

توفي عبيد الله المهدي، في المهدية ليلة الثلاثاء (١٥ ربيع الأول ٣٢٢هـ/ ٣ آذار ٩٣٤م)[١].

أَبو القاسم محمَّد: القائم: ٣٢٢ ـ ٣٣٤هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٦م

ولي أَبو القاسم محمَّد، بعد أبيه عبيد الله المهدي، وتلقَّب بلقب القائم بأمر الله. وقد انهمك في بداية حياته السياسية بالقضاء على ثورات الولاة الذين انتفضوا على الحكم الفاطمي وبخاصة في المغرب الأقصى، نذكر منها ثورة موسى بن أَبي العافية أمير مكناسة الذي ما إن علم بوفاة المهدي حتى جدَّد الثورة على الحكم الفاطمي، فخلع طاعتهم في مستهل عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م) ودخل في طاعة عبد الرَّحمن الناصر الأموي في الأندلس، وبسط نفوذه على إقليم فاس وما جاوره، وأغار على الأدارسة في إقليم الريف وبلاد غُمارة.

وجهَّز القائم الجيوش للقضاء على ثورة موسى، ونجح قائده ميسور من إبعاده عن المغرب الأقصى وضمَّ مدينة فاس وولَّى الأدارسة ما فتحه من بلاد بناء على أوامر القائم[٢].

وفي الوقت الذي كانت فيه جيوش الفاطميين تقاتل في المغربين الأوسط والأقصى لإقرار الأمن في ربوعهما برزت ثورة الخوارج بقيادة أَبي يزيد مخلَّد بن كيداد من قبيلة زناتة، في مدينة توزر، جنوبي تونس، وانتشرت قواته في عام (٣٣٣هـ/ ٩٤٤م) في مختلف أرجاء الولايات الفاطمية، وهدَّد مدينة المهدية[٣].

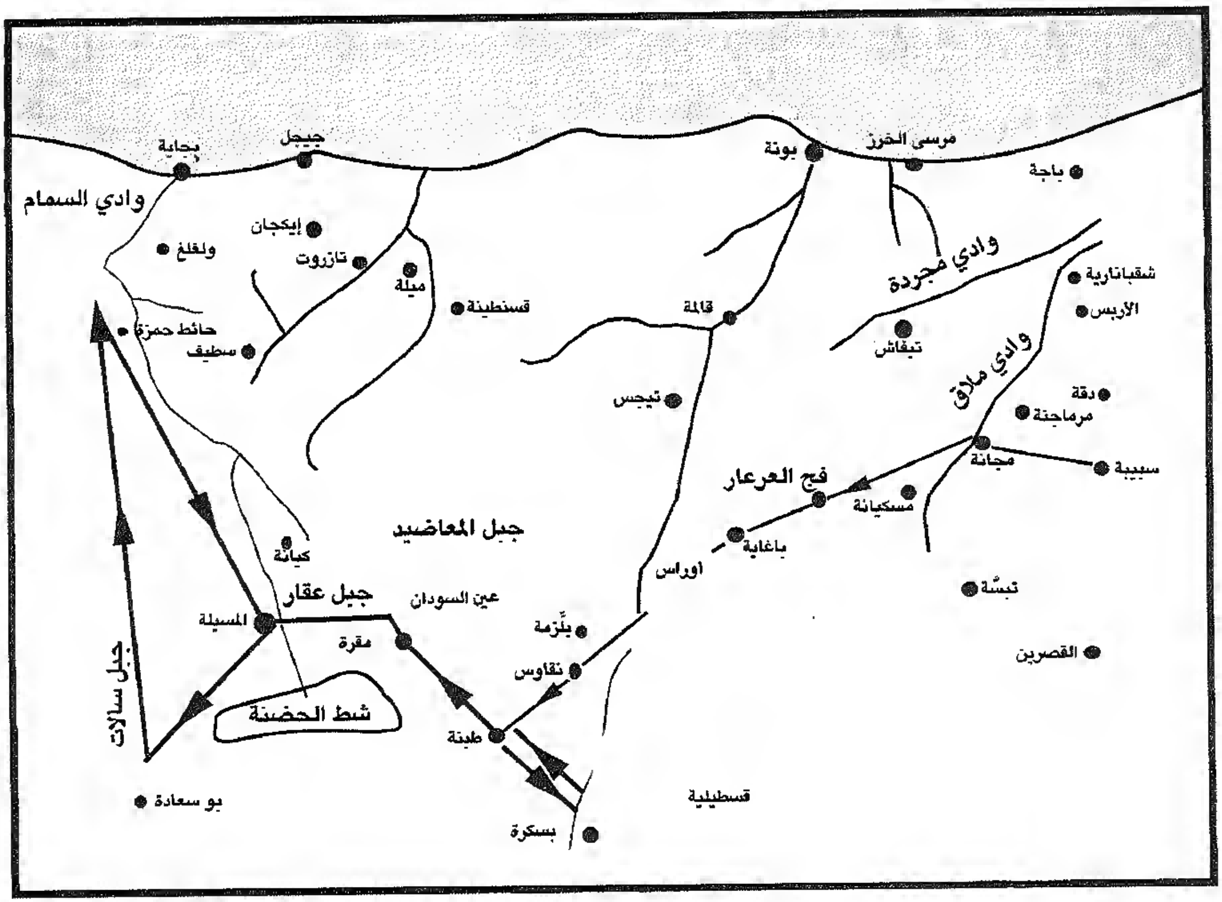
والواقع أن هذه الثورة كانت تعبيراً عن السخط الذي ملأ قلوب أهل إفريقية

---

(١) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٠٨. إدريس، عماد الدين: السبع الخامس ص ١٥٥. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٧٢، ٧٤.

(٢) ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٣) ابن الأثير: جـ ٧ ص ١٤٦ ـ ١٥١. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٧٥ وما بعدها.



مطاردة المنصور لأبي يزيد في المغرب الأوسط

من محاولات الفاطميين فرض المذهب الإسماعيلي على الناس بالإضافة إلى سياسة الفاطميين المالية المتعسفة.

وهدَّدت هذه الثورة، بشكل خطر، الدولة الفاطمية الناشئة، وتوفي القائم قبل أن يقضي عليها.

وطمع القائم بالاستيلاء على مصر، تمهيداً للتمدد نحو الشرق، فأرسل الجيوش إليها بين عامي (٣٢١ ـ ٣٢٤هـ/ ٩٣٣ ـ ٩٣٦م)، إلَّا أن محاولاته باءت بالفشل. عندئذ حاول التفاهم مع محمَّد بن طغج الإخشيد مؤسِّس الدولة الإخشيدية في مصر، وحثَّه على نشر الدعوة الفاطمية فيها. وكان الإخشيد يعاني آنذاك من ضغط أمير الأمراء ابن رائق والخلافة العبَّاسية، فوجد في الفاطميين خير معين له، فألغى الخطبة للعباسيين وأقامها للقائم الفاطمي[(١)].

إلَّا أن تلك العلاقات الودية لم تستمر طويلاً. ويبدو أن الإخشيد خشي من هجوم عباسي ـ حمداني على بلاده في الوقت الذي شعر فيه بطموح الفاطميين لامتلاك مصر، فرأى أن من الأفضل له البقاء تحت السيادة العبَّاسية، ومع ذلك فإنه لم يعلن أي عداوة للفاطميين. ثم حدث أن انهمك القائم بإخضاع الثورات الداخلية، وبخاصة ثورة أَبي يزيد، فشُغل عن غزو مصر[(٢)].

توفي القائم في (شهر رمضان عام ٣٣٤هـ/ شهر نيسان عام ٩٤٦م)[(٣)].

أَبو طاهر إسماعيل المنصور: ٣٣٤ ـ ٣٤١هـ/ ٩٤٦ ـ ٩٥٣م

خلف أَبو طاهر إسماعيل أباه القائم وتلقَّب بلقب المنصور بالله[(٤)]، واشتهر بالشجاعة ورباطة الجأش والتأثير في نفوس سامعيه، بفصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب[(٥)].

أخفى المنصور موت أبيه حتى لا يؤثِّر ذلك على معنويات جنوده المنهمكين في القضاء على ثورة أَبي يزيد الخارجي، وقد ركَّز جهوده في إخمادها مما أثر على علاقاته مع مصر التي سادها جو من الهدوء، ولم يتمكَّن من القضاء على هذه الثورة

(١) ابن سعيد، علي بن موسى المغربي: المغرب في حلى المغرب، السفر الرابع، القسم الخاص بمصر ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢) ابن خلدون: جـ ٤ ص ٣٨ ـ ٤٠.

(٣) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢١٨. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٨٢.

(٤) سيرة جذور: ص ٤٦ ـ ٤٧. المقريزي: المصدر نفسه ص ٨٩.

(٥) ابن خلكان: جـ ١ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

إلَّا بعد أن استعان بقوات صنهاجية، فقُبض على أَبي يزيد، وسيق إلى المهدية حيث مات متأثراً بجروحه في (شهر محرم عام ٣٣٦هـ/ شهر تموز ٩٤٧م)(١).

وعمد المنصور إلى تخليد انتصاره بتأسيس عاصمته الجديدة المنصورية في العام التالي، على مقربة من القيروان. وقضى ما تبقَّى من حكمه في إعادة تنظيم شؤون الدولة التي أنهكتها الثورة الخارجية، فأنشأ أسطولاً كبيراً، وتوفي في (آخر شهر شوال عام ٣٤١هـ/ شهر آذار عام ٩٥٣م)(٢).

المعزُّ لدين الله: ٣٤١ ـ ٣٦٥هـ/ ٩٥٣ ـ ٩٧٥م

هو أَبو تميم معد، المعز لدين الله. تسلم الحكم في (شهر ذي الحجة عام ٣٤١هـ/ شهر نيسان عام ٩٥٣م) خلفاً لوالده(٣). عمل على إعادة فرض النفوذ الفاطمي في المغرب الأقصى على أثر الانتفاضات المتعددة التي قامت ضد النظام، فأرسل قائده ومولاه جوهراً الصقلي إلى هناك على رأس حملة عسكرية كبيرة في عام (٣٤٧هـ/ ٩٥٨م)، دمَّر خلالها مراكز المقاومة ضد الفاطميين باستثناء المراكز التابعة للأمويين في الأندلس، فملك المغربين الأوسط والأقصى، وثبَّت نفوذ الفاطميين حتى المحيط الأطلسي، إلَّا أنه فشل في السيطرة على الثغور العسكرية الأموية المطلة على المضيق(٤).

وتطلع المعز إلى غزو الأندلس، ورأى أن احتلاله لهذا البلد سوف يجعل المغرب الإسلامي كله خاضعاً للفاطميين، وبهذا ينقسم العالم الإسلامي إلى قسمين، القسم الشرقي التابع للخلافة العباسية السنية، والقسم الغربي التابع للدولة الفاطمية الشيعية.

ويبدو أن الدعوة الفاطمية في الأندلس، لم تستقطب سوى عدد محدود من الأنصار بسبب تجذُّر المذهب السني في نفوس الأندلسيين.

على أن الحكومة الأموية في الأندلس لم تقف مكتوفة الأيدي أمام أطماع الفاطميين في المغرب والأندلس، فقاومت المد الفاطمي بتدابير سياسية وعسكرية حدَّتْ من اندفاعه.

واستغل المعز موقع جزيرة صقلية العسكري ليصدَّ جميع الحملات التي كان

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٨٢ ـ ٨٥.

(٢) ابن عذاري: جـ ١ ص ٢٢١. ابن خلكان: جـ ١ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

(٣) ابن الأثير: جـ ٧ ص ١٩٨ ـ ١٩٩. إدريس، عماد الدين: ص ٢٤٤ ـ ٢٤٩.

(٤) المقريزي: المصدر نفسه ص ٩٣ ـ ٩٤.

يوجهها الأمويون والبيزنطيون إلى إفريقية، كما أتاح له مركزه القوي في الجزيرة مهاجمة سواحل إيطاليا الجنوبية.

وبعد أن دانت بلاد المغرب للمعز، واستتبَّ الأمن في كافة أرجائها التفت إلى مصر للاستيلاء عليها مدفوعاً بعدة عوامل منها:

ـ الاستفادة من ثروتها ومواردها الاقتصادية، ذلك أن بلاد المغرب كانت لا تكفي حاجة الفاطميين الاقتصادية.

ـ أهمية موقعها الجغرافي من الناحيتين السياسية والعسكرية.

ـ قربها من بلاد الشام وفلسطين والحجاز التي كانت تابعة لمصر منذ عهد الطولونيين.

ـ إن استيلاء الفاطميين على مصر يمهد لهم الطريق لبسط نفوذهم على الحواضر الإسلامية مكة والمدينة ودمشق وبغداد.

ـ انتشار الاضطرابات والفوضى في مصر إثر وفاة كافور الإخشيدي في عام (٣٥٧هـ/ ٩٦٨م) وعدم وجود شخصية قوية تخلفه، من البيت الإخشيدي.

ـ ضعف الخلافة العبَّاسية وتراجع نفوذها في بلاد الشام ومصر.

ـ تبين للمعز أن أوضاع دولته في شمالي إفريقية ستبقى مزعزعة لأن الناس في هذه البلاد كانوا يكرهون الدولة الفاطمية، وقبيلة كتامة لم تعد على وفائها الأول للبيت الفاطمي، وسكان المغرب الأوسط ساخطون على الأسرة الفاطمية التي لم يروا منها سوى الأذى والنهب، وكان على الدولة أن تخوض صراعاً مكلفاً في المغرب الأقصى مع دولة الخلافة الأموية القوية في الأندلس.

اختار المعز أبا الحسن جوهر الصقلي لقيادة جيشه الذي أرسله إلى الشرق في (١٤ ربيع الأول عام ٣٥٨هـ/ شباط عام ٩٦٩م) فدخل مصر دون مقاومة تُذكر وتسلم الحكم في (شهر شعبان/ شهر تموز)، وأعطى الأمان لأهلها، وبذل جهداً مضنياً في استرضاء شيوخ المصريين[١].

والواقع أن استيلاء الفاطميين على مصر كان انقلاباً حقيقياً من النواحي الدينية المذهبية، والثقافية، والاجتماعية، صحبه تحول ظاهر في نظام الحكم الذي دان بالمذهب الإسماعيلي. ومع دخول الفاطميين إلى مصر، تزايد دورهم في العالم الإسلامي.

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٩٧. خطط جـ ٢ ص ١٨٨.

حكم جوهر الصقلي مصر، نيابة عن المعز الفاطمي، مدة أربع سنوات تقريباً (٣٥٨ ـ ٣٦٢هـ/ ٩٦٩ ـ ٩٧٣م)، واقترن اسمه بالمحاولات التي بذلها لبسط سلطانه على بلاد الشام، حيث أرسل قائده جعفر بن فلاح، فاستولى على الرملة، ودمشق وأقام الخطبة فيها للمعز، وواجه البيزنطيين في أنطاكية، واعترف الحمدانيون في حلب بالدولة الفاطمية[١].

ولعل أهم إنجازاته، تلك المنشآت الكبيرة التي تمَّت في عهده، وفي مقدمتها تأسيس مدينة القاهرة التي أقام فيها قصر مولاه، والجامع الأزهر[٢]. ثم أخذ ينشر المذهب الإسماعيلي بين المصريين متبعاً في ذلك الوسائل السلمية. فألغى الخطبة للخليفة العبَّاسي وأقامها للمعز، وضرب السكة باسمه، ومنع لبس السواد شعار العبَّاسيين، وفرض الملابس الخضراء شعار العلويين.

وعندما أضحت الظروف مهيأة لاستقبال المعز في القاهرة، كتب جوهر إليه للحضور إلى مصر لتولي شؤونها، فوصل إليها في (رمضان ٣٦٢هـ/ حزيران ٩٧٣م)[٣]. وبانتقال المعز إلى مصر تنتهي المرحلة الأولى من مراحل التاريخ الفاطمي.

المرحلة الثانية
مرحلة القوة والتوسع
٣٦٢ ـ ٤٨٧هـ/ ٩٧٣ ـ ١٠٩٤م

سياسة المعز الداخلية

اهتم المعز، بعد تسلمه الحكم في مصر، بنشر الدعوة الإسماعيلية بما عُرف عنه من تقوى وورع، ووضع لذلك نظاماً دقيقاً كي يسير عليه دعاته، إلَّا أنه أدرك أن مصر بما فيها من مسلمين سنة وذميين لن تكون أرضاً خصبة للتبشير، لذلك لم يعمد إلى نشر الدعوة الفاطمية إلَّا في نطاق محدود. واستعاض عن تحويل مسلمي مصر السنيين إلى المذهب الإسماعيلي، باستقطاب أهل الذمَّة، فأسند إليهم مناصب الدولة العليا. وأمعن في إظهار الشعائر الدينية المخالفة لشعائر أهل السنَّة كالأذان بـ «حي

(١) الأنطاكي: ص ١٤٣. ابن الأثير جـ ٧ ص ٢٨٠.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٣٣. خطط: جـ ٤ ص ٥١ ـ ٥٢.
(٣) ابن خلكان: جـ ٥ ص ٢٢٧. المقريزي: المصدر نفسه ص ١٣٦.

على خير العمل»، والاحتفال بيوم عاشوراء وعيد «غدير خم»، واقترن ذلك باعتداءات على أهل السنَّة الذين قاموا بإظهار شعائرهم في خطوة مضادة، وعلى الرغم من أنه لم يكن ميالاً إلى حياة الترف، إلَّا أنه يُعدُّ أول من استنَّ الفخامة والأبهة في حياة الفاطميين.

سياسة المعز الخارجية

بعد أن أصبحت القاهرة مقر الدولة، تطلع المعز إلى بسط نفوذه على بلاد الحجاز ليكسب حكمه قوة أمام العالم الإسلامي. ذلك أن السيادة على الحرمين الشريفين بمكَّة والمدينة، عُدَّتْ من مستلزمات الخلافة، وأن من يظفر بها يُعدُّ خليفة المسلمين الحقيقي. فتدخل المعز في النزاعات الداخلية التي كانت قائمة هناك، فأرسل رسولاً من قِبَله لفض الخلافات بين بني الحسن وبني جعفر بن أَبي طالب. ثم بادر حسن بن جعفر الحسني، فاستولى على مكَّة ودعا للمعز على منابرها، فبعث إليه المعز تقليداً بالحرم وأعماله. كذلك، أُقيمت الخطبة للمعز في المدينة، وحذف اسم الخليفة العبَّاسي من الخطبة في كل من المدينتين المقدستين[1].

وواجه الحكم الفاطمي في بلاد الشام ثلاثة أخطار، تمثل الأول بخروج القرامطة بعد أن استنجد بهم أهل دمشق لينتشلوهم من الحكم الفاطمي، واشتبك الحسن بن أَحمد القرمطي الملقب بالأعصم مع القائد الفاطمي جعفر بن فلاح في قرية الدكة قرب دمشق، وتغلَّب عليه وقتله، واستولى القرامطة على دمشق وأمر زعيمهم بلعن المعز، وتابع زحفه باتجاه مصر في عام (٣٦٣هـ/ ٩٧٤م)، وهدَّد القاهرة إلَّا أنه رُدَّ على أعقابه[2]. وتمثَّل الخطر الثاني بخروج أفتكين التركي من بغداد إلى دمشق لطرد الفاطميين منها، وكانوا قد أعادوا سيطرتهم عليها إثر انهزام القرامطة وانسحابهم منها، وإقامة الخطبة للخليفة العبَّاسي، ونجح في دخول المدينة بغير قتال، وخرج الفاطميون منها. أما الخطر الثالث فتمثَّل بمحاولة البيزنطيين استعادة نفوذهم في بلاد الشام، فاستغلُّوا تضعضع أوضاع هذه البلاد، فهاجموا دمشق، وانتشروا في ربوعها يسلبون ويقتلون، فصرفهم أفتكين عنها بما بذل لهم من المال[3]، كما هاجموا المدن الساحلية. وتجدَّد في ذلك الوقت خطر القرامطة،

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٣٠.

(٢) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٣١٨ ـ ٣١٩. ابن خلكان: جـ ١ ص ٣٦١.

(٣) ابن القلانسي، حمزة بن أسد بن علي بن محمَّد التميمي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢.

ويبدو أن أفتكين قد استنجد بهم لمقاومة الضغط الفاطمي المتجدِّد على دمشق. وقرَّر الطرفان طرد الفاطميين نهائياً من بلاد الشام، فهاجم القرامطة يافا وصيدا وعكا، وتفاقم خطرهم. وتوفي المعز قبل أن يتمكَّن من وضع حد لهذه الأخطار.

واهتم المعز بتقوية البحرية الفاطمية، ولا شك بأن وضعه في مصر فرض عليه أن يقوم بهذا العمل، فبنى الشواني الضخمة، والسفن الحربية المختلفة، وهو أول من وضع نظام البحرية الفاطمية في مصر(١).

توفي المعز في (٧ ربيع الآخر ٣٦٥هـ/ ١٨ كانون الأول ٩٧٥م)(٢).

أَبو منصور نزار: العزيز

٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ/ ٩٧٥ ـ ٩٩٦م

شخصية العزيز

خلف أَبو منصور نزار الملقب بـ العزيز بالله أباه المعز، وهو في الثانية والعشرين من عمره، واتبع السياسة نفسها التي انتهجها آباؤه وأجداده. ويُعدُّ عهده عهد يسر ورخاء، وإرساء دعائم الدولة الفاطمية، وذلك بفضل مساعدة جوهر الصقلي والوزير يعقوب بن كِلِّس. كان رجلاً ممتعاً يميل إلى الأبهة والترف، جواداً، حليماً، وكثيراً ما دفعه حلمه إلى الصفح عن أعدائه على الرغم من انتصاره عليهم، خبيراً بالجواهر، ابتدع نوعاً جديداً من العمائم محلاة بخيوط الذهب، شغوفاً باقتناء الطيور والحيوانات، مغرماً بالصيد، ذكياً أديباً، يجيد عدة لغات، وضع عدة تقاليد فاطمية جديدة في المظاهر والرسوم(٣).

موقف العزيز من المسلمين السُّنَّة في مصر

اعتنى العزيز بنشر المذهب الإسماعيلي في مصر، ويمتاز عهده بعدة خطوات جريئة في هذا الشأن. فأمر القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق هذا المذهب، وعيَّن الشيعة في المناصب الهامة، وأضحى لزاماً على الموظفين السنيين أن يسيروا وفقاً لأحكام المذهب الإسماعيلي وإِلَّا فقدوا وظائفهم. واتخذ من المساجد الكبرى في

---

(١) العبادي: ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩. (٢) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٣٣٨.

(٣) ابن ميسر، محمَّد بن علي بن يوسف بن جلب: أخبار مصر جـ ٢ ص ٤٧ ـ ٤٨. ابن خلكان: جـ ٥ ص ٣٧١ ـ ٣٧٢. إدريس، عماد الدين: السبع السادس ص ٢٠٥ ـ ٢١١. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٦. خطط: جـ ٤ ص ٧٠ ـ ٧١.

مصر مراكز للدعاية للمذهب، وحوَّل الجامع الأزهر إلى جامعة تقوم بتدريس الفقه الإسماعيلي، واختار جماعة من كبار الفقهاء لنشر الدعوة الفاطمية، وعمل على إبراز الشعائر العلوية مثل إضافة عبارة «حي على خير العمل» في الأذان، بالإضافة إلى الأعياد والمناسبات العلوية، مثل الاحتفال بيوم عاشوراء «وغدير خم»، وأبطل صلاة التراويح من جميع مساجد مصر[١].

موقف العزيز من أهل الذمَّة في مصر

امتاز عهد العزيز بالعطف على أهل الذمة، النصارى واليهود، ويبدو أنه كان متأثِّراً بزوجته النصرانية، فرفعهم إلى منصب الوزارة، وقلَّدهم أرفع مناصب الدولة. قلَّد يعقوب بن كِلِّس الوزارة، وكان عيسى بن نسطورس من بين الأشخاص الذين تولوا هذا المنصب، واتخذ طبيباً نصرانياً يدعى أَبو الفتح منصور بن مقشر المصري، وولَّى منشَّا بن إبراهيم الفرار اليهودي ولاية الشام[٢].

تحكَّم الوزراء والكتَّاب الذميون في معظم أعمال الدولة، واستأثروا بمعظم السلطات. وكان من أثر سياسة التسامح هذه نتيجتان:

الأولى: أنهم ملؤوا دواوين الدولة بكتَّابهم، وأوقعوا بالمسلمين وضايقوهم.

الثانية: استياء المسلمين بعامة من استئثار هؤلاء بمناصب الدولة، واحتجوا لدى العزيز.

وأدرك العزيز خطر هذه السياسة الدينية على حكمه وهيبة إمامته المذهبية، فانقلب على الذميين وطاردهم.

سياسة العزيز الخارجية

أشرنا من قبل إلى تفاقم خطر أفتكين والقرامطة في بلاد الشام، وعجز المعز عن إخضاعهما. وعندما تولى العزيز مقاليد الحكم، وبعد أن فرغ من توطيد وضعه الداخلي، التفت إلى بلاد الشام لاستردادها، فكتب إلى أفتكين في دمشق يستقطبه، ويعده حسن المكافأة إذا جلا عن دمشق، فردَّ عليه رداً جافاً، فاستاء العزيز، وأرسل حملة عسكرية إلى دمشق في عام (٣٦٥هـ/ ٩٧٦م) بقيادة جوهر الصقلي لطرده منها،

---

(١) الأنطاكي: ص ١٩٣.

(٢) ابن ظافر الأزدي: تاريخ الدول المنقطعة: ص ٣٨ ـ ٤٠. ابن العبري: تاريخ الزمان ص ٧٠. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٨١، ٢٨٣، ٢٩٢ ـ ٢٩٣. الأنطاكي: ص ١٨٢.

وتأكيد سيطرة الفاطميين. ودار قتال بين الطرفين أسفر عن انتصار جوهر، فاستنجد أفتكين بالحسن بن أَحمد القرمطي، فأمده بقوة عسكرية. أدرك جوهر أنه لا قِبَل له بمواجهة عدوين، وتحرَّج موقفه، فرأى أن يُنهي حصاره لدمشق، ويعمل على فصم عرى التحالف، فاستمال أفتكين، ثم عاد إِلى القاهرة ليشرح للعزيز حقيقة الموقف في بلاد الشام. ولم يستتب الأمر للعزيز إِلَّا بعد أن خرج بنفسه إِلى تلك البلاد وأنزل الهزيمة بقوى التحالف في (محرم ٣٦٨هـ/ آب ٩٧٨م)، وأسر أفتكين، وتمكَّن الحسن بن أَحمد من الفرار[١].

الواضح أن سياسة الدولة الفاطمية كانت تهدف إِلى السيطرة على كامل بلاد الشام وما يتبع ذلك من نشر المذهب الإسماعيلي، فكان لزاماً أن تصطدم بالقوى المختلفة التي تتنازع الحكم فيها، مثل بني الجراح في فلسطين، والحمدانيين في حلب، والدولة العبَّاسية الحريصة على مناوأة الفاطميين، والدولة البيزنطية الطامعة في استرداد بلاد الشام، فأخضع بني الجراح، وهرب زعيمهم دغفل بن مفرج الطائي إِلى أنطاكية ملتجئاً إِلى حاكمها البيزنطي[٢].

وتصدى العزيز لمحاولات البيزنطيين استعادة بلاد الشام، فتدخل في شؤون حلب الخاضعة للحمدانيين لإبعاد هؤلاء عنها، ودار صراع بين الأطراف الثلاثة. وإذ أدرك سعيد الدولة الحمداني أمير حلب أن النزاع مع العزيز سمح للبيزنطيين في التمادي في هجماتهم وطلباتهم، رأى أن يبادر إِلى مهادنة الفاطميين. وجرى الصلح بين الطرفين، وتضمنت المعاهدة اعتراف الأمير الحمداني ووصيه لؤلؤ بحكم العزيز[٣].

ترتب على هذه المعاهدة أن دعا العزيز إِلى جهاد البيزنطيين وأعد جيشاً ضخماً لمحاربتهم، وفي نيته إخضاع حلب لحكمه المباشر متجاوزاً المعاهدة التي أبرمها مع الحمدانيين، لكنه توفي قبل أن يحقِّق هذا الهدف وذلك في (٢٨ رمضان ٣٨٦هـ/ ١٤ تشرين الأول ٩٩٦م)[٤].

أما النفوذ الفاطمي في مكة والمدينة، فيبدو أنه لم يكن مستقراً طوال عهد العزيز. فقد دعا أمير حاج العراق لعضد الدولة البويهي في عام (٣٨٠هـ/ ٩٩٠ ـ

---

(١) ابن القلانسي: ص ٣٠ ـ ٣٥. الأَنطاكي: ص ١٧٩ ـ ١٨٢.

(٢) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

(٣) ابن القلانسي: ص ٧٣. الأَنطاكي: ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٤) الأَنطاكي: ص ٢٣٥. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٩١.

٩٩١م) فاضطر العزيز إلى إرسال حملة حاصرت المدينتين المقدستين وأعادت الخطبة للفاطميين، وقطعت الدعوة للعباسيين[١].

واتصفت العلاقة مع الخلافة العبَّاسية بالسياسية، وجرى تبادل الرسائل بين عضد الدولة البويهي المتغلب على مقدرات الخلافة في بغداد وبين العزيز. وأرسل هذا الأخير رسولاً إلى بغداد ولم يقم بأي محاولة للتحرش بالخلافة العبَّاسية، إلَّا أنه لم يدخر جهداً في سبيل نشر الدعوة الفاطمية في العراق، فأقيمت له الدعوة في الموصل على يد أميرها أبي الدرداء محمَّد بن المسيَّب العقيلي في عام (٣٨٢هـ/ ٩٩٢م)[٢].

أَبو علي المنصور: الحاكم

٣٨٦ ـ ٤١١هـ/ ٩٩٦ ـ ١٠٢١م

الوضع السياسي في مصر في بداية عهد الحاكم

هو أَبو علي المنصور، تلقَّب بلقب الحاكم بأمر الله. تولى الحكم في اليوم الذي توفي فيه والده العزيز، وله من العمر إحدى عشرة سنة وبضعة أشهر[٣]، فتولى الوصاية عليه مربيه وأستاذه برجوان الخادم الصقلبي[٤]، وهو أحد الشخصيات التي بلغ الخلاف بشأنها أقصاه. فقد اتهم بازدواج الشخصية، وبعدم الاستقرار العقلي والعاطفي، وبالقسوة، بالإضافة إلى تهم أخرى، لكنه وُصِف من ناحية أخرى بالمثالية والسخاء والتسامح حتى العبقرية أحياناً، والواقع أن الوصف الأفضل له هو أنه حاول أن يحافظ على سلطته وسط كثرة المشكلات الداخلية، ومعالجتها على أفضل وجه.

برز، في أوائل عهده، التنافس على النفوذ بين المغاربة والعناصر الشرقية من الديلم والأتراك الذين استعان بهم الفاطميون لإيجاد نوع من التوازن بين العناصر التي تعمل في خدمتهم.

وكان الكتاميون، وهم عصب الدولة، قد استغلوا صغر سنه وفرضوا عليه تطهير الجيش من العناصر الشرقية، وتعيين شيخ كتامة أبي محمَّد الحسن بن عمار في رتبة الوساطة، وهي أشبه بالوزارة لكن دونها رتبة[٥].

---

(١) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٠١.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٧٤.

(٣) المقريزي: المصدر نفسه ص ٢٩١ ـ ٢٩٢. (٤) المصدر نفسه.

(٥) ابن الصيرفي، أَبو القاسم علي بن منجب بن سليمان: الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٢٦. ابن القلانسي: ص ٨٠ ـ ٨١.

جاءت ردة الفعل سريعة من جانب العناصر الشرقية الذين تحالفوا مع برجوان الخادم، فخلعوا ابن عمار في شهر (رمضان ٣٨٧هـ/ تشرين الأول ٩٩٧م)، ونصَّبوا برجواناً مكانه، واضطر ابن عمار إلى الفرار[١].

استقل برجوان الخادم بأمور الدولة، وحتى يقوِّي موقفه استقطب ابن عمار والمغاربة، وكوَّن لنفسه طائفة من الجند تأتمر بأمره، كما زاد في عطاء الجيش، لكنه ما لبث أن استغل سلطته، وأخذ يظلم الرعية، واستخفَّ بالحاكم نفسه حتى أثاره[٢].

شعر الحاكم، وكان قد بلغ مرحلة الصبا وبدأ يدخل مرحلة الشباب وأشرف على الخامسة عشرة، أن سلطته مسلوبة مع وجود هذا الوسيط، فضاق به ذرعاً وقرَّر أن الوقت قد حان لممارسة سلطاته بنفسه، ونتيجة لذلك دبر مقتل برجوان في (شهر ربيع الآخر عام ٣٩٠هـ/ شهر آذار عام ١٠٠٠م)، وقضى على أعوانه من رجال الجيش والقصر[٣].

وقرَّر الحاكم المضي في خطوته هذه للتخلص من العناصر المتطلعة إلى النفوذ على حساب صلاحيات الإمام، فقتل ابن عمار في (شهر شوال عام ٣٩٠هـ/ شهر أيلول عام ١٠٠٠م) مع بعض أعوانه، مما أرهب الكتاميين[٤].

وهكذا استعاد الحاكم سلطته المسلوبة من أيدي الطامعين، ودلَّ بتصرفه على أنه يفوق أعداءه دهاءً ومكراً، وقبض على الحكم بيد من حديد، واختط منهجية خاصة في التعامل السياسي تستند على المحافظة على تفرده بالحكم، ونشر الدعوة الفاطمية في أوسع رقعة ممكنة، وتحقيق الازدهار الاقتصادي.

سياسة الحاكم العامة

أراد الحاكم أن يوفق بين حياته المتقشفة التي اختارها لنفسه بعيداً عن أبهة الملك، وبين مفاهيم عصره السياسية القائمة على حكم الفرد المطلق؛ مما أوقعه في التناقض. فهو اليوم كغيره بالأمس، وكذلك غداً، يأخذ القرار وينقضه بعد قليل. وقد يكون للصراعات على النفوذ التي شهدها في بداية حياته السياسية، وحرمانه من سلطته على يد برجوان وابن عمار، ثم نجاحه في استردادها؛ تأثير على نفسيته التي مالت إلى استخدام القتل وسيلة من وسائل الحكم للتخلص من كل مَن:

---

(١) الأنطاكي: ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٢) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ج ٣ ص ٢٢١. ابن الصيرفي: ص ٢٧.

(٣) أبو شجاع: ج ٣ ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢. ابن الصيرفي: ص ٢٧. الأنطاكي: ص ٢٤٩.

(٤) الأنطاكي: ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

ـ يشك في ولائه، مع الحرص على ألا يعلو أحد على سلطانه.

ـ يعبث بالأموال العامة، مع حرصه على إصلاح أمور الدولة بعد أن فسدت الإدارة.

أدَّى ذلك إلى أن يكون الحاكم ذلك الشخص المرهوب الجانب، فوقعت حوادث من القتل الذريع اتسمت بالعنف. والجدير بالذكر أن معظم ضحاياه كانوا من الأشخاص السياسيين النافذين في الدولة، مما يدل على أن الغاية من القتل كانت سياسية بحتة، واتخذها وسيلة من وسائل الحكم.

فبالإضافة إلى ما ذكرنا من قتل برجوان وابن عمار، نذكر من بين الذين قتلهم الحاكم:

ـ مؤدبه أبا التميم سعيد الفارقي. وكان الحاكم قد نقم عليه في (أواخر عام ٣٩١هـ/ خريف عام ١٠٠١م) بسبب تدخله في شؤون الدولة وقراءة الرقاع.

ـ الوزير فهد بن إبراهيم النصراني. قتله في شهر (جمادى الأولى ٣٩٣هـ/ آذار ١٠٠٣م)[١]. ويبدو أن الدافع لعملية القتل، امتناع فهد عن اعتناق الإسلام. وربما كان مناصرته للنصارى، وإسناد مناصب الدولة إليهم دافعاً آخر، أو أن عملية القتل كانت نتيجة سعاية بعض الكتَّاب الذين أرادوا أن يحلُّوا مكانه.

ـ القاضي الحسين بن النعمان. قتله في شهر (محرم ٣٩٥هـ/ تشرين الأول ١٠٠٤م)، بعد أن ثبت لديه أنه اختلس بعض الودائع القضائية. وكان هذا القاضي قد غدا موضع سخط الناس حتى اعتدى بعضهم عليه، واضطرب أمر القضاء في عهده. وظهرت في الأفق بوادر فتنة أشاعت الفوضى بين القضاة والمتقاضين.

ـ قائد القواد الحسين بن جوهر الصقلي. قتله في شهر (جمادى الآخرة ٤٠١هـ/ كانون الثاني ١٠١١م)، بسبب مجالس الشراب التي كان يقيمها في قصره المطل على النيل، والتي تسبَّبت في إحدى الليالي بغرق صديقه وطبيبه أبي يعقوب بن نسطاس أثناء خروجه ثملاً من عند الحسين.

ـ قاضي القضاة مالك بن سعيد الفارقي. قتله في شهر (ربيع الآخر ٤٠٥هـ/ تشرين الأول ١٠١٤م)، بسبب اتهامه بموالاة ست الملك أخت الحاكم ومراعاتها، وكان الحاكم يحقد عليها[٢].

---

(١) الأنطاكي: ص ٢٥٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣١١. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

واشتد الحاكم في مراقبة رجال الدواوين، وهم الكتَّاب، وحاسبهم على أعمالهم، وكانت غالبيتهم من أهل الذمَّة. تعرَّض الكثير منهم للقتل لاتهامهم بمخالفة الأوامر والأحكام الصارمة التي كان يصدرها الحاكم في أوقات مختلفة[١].

واستخدم الحاكم وسيلة الاستقطاب عن طريق بذل المال، ومنح الألقاب، ليتفانى رجال دولته في الإخلاص له.

وهكذا انتهج الحاكم سياسة قائمة على القتل لإرهاب كل من يتعامل معه، حتى لا يفكِّر في الخروج على حكمه، أَو انتقاد أسلوبه العام في الحكم.

نزعات الحاكم الدينية

كان الحاكم يرأس الدولة الفاطمية الإسماعيلية المذهب. واعتقد الفاطميون أن مذهبهم هو المذهب الإسلامي الصحيح، لذلك كان من الطبيعي أن يعملوا على نشره بين المصريين، وتحويل جهاز الدولة الرسمي إلى مذهبهم، فاستبدلوا التشريع السنِّي بالتشريع الإسماعيلي في القضاء والفتيا، وغيَّروا في نظام المواريث وفق المذهب الإسماعيلي، وأدخلوا بعض خصائص المذهب في المناسبات الدينية الرسمية.

ولما شعروا بتوطيد مركزهم في مصر، أخذوا ينشرون عقائدهم بين المصريين بهدف تحويلهم إلى المذهب الإسماعيلي. ويبدو أن الدافع لهذه الخطوة هو أن العبَّاسيين والقرامطة والأمويين في الأندلس، أعداء الفاطميين، كانوا يطعنونهم ويشكِّكون في نسبهم، بين المصريين، وهو الأساس الشرعي الذي قامت عليه دولتهم.

وبلغ الحماس الديني ذروته في عهد الحاكم الذي رأى نفسه مسؤولاً عن نشر المذهب داخل مصر وخارجها، فاتخذ من التشريعات الدينية الجريئة ما فاق من سبقه من الحكام والأئمة، فنظم الدعوة، واتخذ من مجالس الحكمة وسيلة لنشر المذهب، وكان يستعمل الشدة أحياناً في حمل الناس على اعتناقه أَو يتركهم أحراراً يعتقدون ما يشاؤون، أحياناً أخرى، ويأمرهم بعدم الخوض في المناقشات الدينية.

وأظهر خصائص المذهب الإسماعيلي، فأمر المؤذنين بإضافة إلى الأذان عبارة

---

(١) الأنطاكي: ص ٢٥٢، ٢٧٧.

«إن محمَّداً وعلياً خير البشر»[١]، والتثنية في الدعاء. ونظَّم أوقات الصلاة فجعلها بحسب المزولة العربية، وأبطل التوقيت الشمسي، مما أدَّى إلى تغيير أوقات الصلاة.

لم يراع الحاكم مشاعر أهل السنَّة، فأمر بسب الصحابة في عام (٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م)، وكتابة ذلك على جدران المساجد، والجامع العتيق، وأبواب الحوانيت، والدور، وأكره الناس على فعله، وكان الخطباء يلعنون الصحابة على كافة منابر مصر[٢].

ويبدو أن الثورة العنيفة التي قامت ضد حكمه في إقليم برقة بزعامة أَبي ركوة الأموي في عام (٣٩٦هـ/ ١٠٠٦م)، والتي كادت تقضي على حكمه؛ كان لها تأثير كبير في جنوحه نحو الاعتدال مع أهل السنَّة، بعد ذلك. فقد سانده سكان الفسطاط في الوقت الذي اتضح له عدم فاعلية الجيش للتصدي للثورة. واعترافاً بفضلهم ألغى سب الصحابة في العام التالي، وسمح بممارسة بعض الشعائر السنية التي حرَّمها هو وأسلافه[٣]. استمرت سياسة الاعتدال زهاء ثلاثة أعوام، إذ ما لبثت أن تبدَّلت فجأة. ففي عام (٤٠١هـ/ ١٠١١م) أمر بإضافة عبارة «حي على خير العمل» إلى الأذان كما أبطل صلاة الضحى وصلاة التراويح.

واتسمت معاملة الحاكم لأهل الذمة من النصارى واليهود بالتقلبات. فمن المعروف أنه قلَّد هؤلاء المناصب العليا في الدولة لأنه كان بحاجة إلى خبرتهم في الشؤون الإدارية، لكن منذ عام (٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م) بدأ يتشدَّد في معاملتهم التي كانت تستهدف الكنيسة الملكانية في أراضيه بشكل خاص، فصادر أملاك والدته الملكانية، وألغى الكثير من الهبات الدينية الممنوحة للكنيسة، ودبَّر في عام (٤٠٠هـ/ ١٠١٠م) أمر اغتيال خاله أرسانيوس بطريرك الإسكندرية الملكاني[٤]، وأمر بهدم كنائس النصارى، منها كنيسة القيامة في بيت المقدس حيث كان خاله الآخر أورستيس بطريركاً ملكانياً. والواضح أن هذه الخطوة في مهاجمة الملكانيين كانت تستهدف استقطاب الأكثرية القبطية في مصر. وطال التشدُّد بعد ذلك النصارى بعامة، فألزمهم بلبس الغيار الذي يفرِّقهم عن المسلمين، ومنعهم من دخول حمامات المسلمين، وأمرهم بتعليق صلبان من الخشب في أعناقهم وأن يكون الصليب ذراعاً في مثله، وزنته خمسة أرطال. كما ألزم اليهود أن يعلِّقوا قرمية في رقابهم، وخيَّر أهل الذمة،

---

(١) ماجد، عبد المنعم: الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي المفترى عليه ص ٨٦.

(٢) ابن خلكان: جـ ٥ ص ٢٩٣. المقريزي: خطط جـ ٤ ص ٧٢.

(٣) ابن خلكان: المصدر نفسه. المقريزي: المصدر نفسه ص ٧٣، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٧٨.

(٤) الأنطاكي: ص ٢٨٣.

بعامة، بين اعتناق الإسلام أو الخروج إلى بلاد البيزنطيين، ثم بدا له أن يخفِّف من تشدُّده في أواخر أيامه[1].

كانت تقوى الحاكم البالغة، وهيامه في عوالم جديدة من الفلسفة الروحية، وبخاصة في تنظيم الدعوة الفاطمية ونشرها، مما جعل أتباعه يغالون في تقديرهم لشخصه، ولم تلبث أن ظهرت آثارها المادية في صورة دعوة جريئة إلى تقديسه، وعدُّوه فوق مستوى البشر، ووصل الغلو في ذاته إلى حد التأليه.

جاء هذا الغلو من جانب بعض الغلاة الإسماعيليين الفرس الذين ظهروا في مصر منذ عام (٤٠٨هـ/ ١٠١٦م)، ونادوا بهذه الفكرة التي تقول بألوهية الحاكم، ويبدو أنه لم ينكر عليهم قولهم. والراجح أن موقفه كان تأييداً ورعاية، إذ سرَّه بأن يلتف الناس حوله، ويتوحَّدوا حول شخصه من خلال مذهب جديد عُرف باسم التوحيد، وأطلق على أتباعه اسم الموحدين. نذكر من هؤلاء الدعاة المتشدِّدين والذين كان لهم شأن كبير في تلك الحركة: حسن بن حيدرة المعروف بالأخرم، ومحمَّد بن إسماعيل أنوشتكين الدرزي، وحمزة بن علي بن أحمد اللباد الزوزني[2].

تشريعات الحاكم الاجتماعية

أصدر الحاكم عدة سجلات اجتماعية تناولت جانباً من حياة الناس، وتوافقت مع ميوله الشخصية، وتدابيره الاقتصادية والتعاليم الإسلامية. فبسبب شغفه بالتنقل ليلاً، وعقده المجالس في الليل، صدرت في عام (٣٩١هـ/ ١٠٠١م) الأوامر بتعليق المصابيح ليلاً على جميع الحوانيت، وأبواب الدور، في جميع شوارع القاهرة والفسطاط، وأصبحت جميع المعاملات والأعمال تُجرى في الليل.

نتج عن ذلك أن خرج الناس عن الحد، وبالغوا في اللهو والإسراف في المجون، مما دفع الحاكم إلى إصدار الأمر بمنع النساء من الخروج ليلاً، لكي يخفف من عوامل الفتنة والغواية، ثم منع الرجال من ارتياد الحوانيت والمقاهي ليلاً، وأبطل جميع الأعمال والمعاملات ليلاً، كما منع النساء من الخروج من منازلهن والاجتماع في المآتم، وزيارة القبور. والمعروف أن المرأة المصرية كانت آنذاك تتبع بعض العادات مثل التبرج، والكشف عن وجهها خلف الجنائز، والجلوس في الطرقات العامة أمام المنازل، والاختلاط بالرجال في الأسواق، والسهر في

---

(١) المسبِّحي، عز الملك محمَّد بن عبيد: أخبار مصر ص ٩٧. الأنطاكي: ص ٣٣٧.

(٢) الأنطاكي: ص ٣٣٤ ـ ٣٣٦، ٣٤٢.

الليل، والانصراف إلى المغاني والطرب. وأمر بمنع الغناء واللهو صوناً للأخلاق. وهوجمت أماكن البغاء، وطُهِّرت أحياء القاهرة، وأمر بتتبع الكلاب وقتلها أينما وجدت باستثناء كلاب الصيد. والواضح أن قتل الكلاب كانت تمليه بواعث صحية، بالإضافة إلى قتل الخنازير. ومنع صناعة النبيذ وبيعه، وذبح الأبقار السليمة إلَّا في أيام النحر، وذلك بهدف المحافظة على الثروة الحيوانية. كما صدرت الأوامر بتحريم بعض الأطعمة[1]، كالترمس والقرة والملوخية والسمك الذي لا صدف له.

لقد كان هدفه زيادة الموارد الغذائية اللازمة للقاهرة بخاصة، وتشجيع الإنتاج الزراعي المتدهور. وكانت زراعة الحنطة في مصر غير كافية ولا تسد حاجة السكان، وكان الخبز هو الغذاء الرئيسي، لذلك يكون من الأجدى عدم استخدام الحنطة لصناعة النبيذ المحرَّم في الإسلام، وتدمير زراعة الكرمة، وإحلال زراعة القمح بدلاً منها. ويعود سبب منع الحاكم أكل القرة والملوخية إلى الرغبة بالمحافظة على الأرض لزراعة أغذية أخرى أشد ضرورة. أما فيما يتعلَّق بالسمك الذي لا صدف له، وهو المعروف بالدلينس، فإنه يعيش في الوحول ويحفر فيها ممرات ليحيا على الترسبات في الأسفل، ولذلك فإن هذا النوع من السمك يقوم بوظيفة بيئية هي تنظيف المجاري المائية[2].

سياسة الحاكم الخارجية

العلاقة مع العبَّاسيين

على الرغم من أن البويهيين المتحكمين بمقدرات الخلافة العبَّاسية، لم يناصروا الفاطميين في بداية عهدهم، إلَّا أنهم ظلُّوا طوال مدة حكمهم للعراق يشجعون المذهب الشيعي الذي يدينون به، ولم يدخر الفاطميون من جانبهم جهداً في سبيل نشر الدعوة الفاطمية في العراق. ونجح الحاكم في استمالة قرواش العقيلي في عام (٣٨٢هـ/ ٩٩٢م) الذي آلت إليه السيادة في الموصل، فخرج على طاعة الخليفة العبَّاسي القادر في عام (٤٠١هـ/ ١٠١٠ ـ ١٠١١م)، وقام بنشر الدعوة الفاطمية في الموصل والأنبار والمدائن والكوفة، وأبطل الدعوة للخليفة العبَّاسي، وخطب للحاكم[3].

---

(١) الأنطاكي: ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤. ابن خلكان: جـ ٥ ص ٢٩٣. عنان: ص ١٣١.

(٢) شعبان، محمَّد عبد الحي محمَّد: الدولة العباسية ـ الفاطميون ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٣) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٥٧١ ـ ٥٧٢. ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

استاء الخليفة العبَّاسي القادر من انتشار الدعوة الفاطمية في بعض بلاده، وخشي من تفاقمها مما يهدِّد دولته، فتصدَّى لها على محورين:

الأول: أرسل القاضي أبا بكر الباقلاني إلى الأمير البويهي بهاء الدولة ليشرح له مدى الخطر الذي يهدِّد دولته من جانب الفاطميين، ويطلب منه العمل على مناهضتهم. استجاب الأمير البويهي لطلب الخليفة، وأرسل جيشاً إلى ابن المقلد أجبره على وقف الخطبة للحاكم وإعادتها إلى الخليفة العبَّاسي القادر(١).

الثاني: استعمل سلاح التشهير بسمعتهم في العالم الإسلامي، فعقد اجتماعاً دعا إليه الفقهاء والقضاة وبعض زعماء الشيعة، وأصدر المجتمعون محضراً يتضمن الطعن في نسب الفاطميين(٢).

العلاقة مع البيزنطيين

استمرت السيادة الفاطمية على بلاد الشام في عهد الحاكم، وتابع سياسة والده العزيز في التصدي للبيزنطيين ومنعهم من التقدم جنوباً. وتعرَّضت بلاد الشام بين عامي (٣٨٧ ـ ٣٨٩هـ/ ٩٩٧ ـ ٩٩٩م) لكثير من الاضطرابات والثورات بسبب التنافس الفاطمي ـ البيزنطي على امتلاك هذه البلاد، وساند البيزنطيون كل ثائر ضد الحكم الفاطمي. ففي عام (٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) قامت في صور حركة ترمي إلى تدمير السلطة الفاطمية بقيادة بحار اسمه علاَّقة، وأعلن استقلال مدينته، فأرسل إليه الحاكم حملة عسكرية لإخضاعه بقيادة جيش بن الصمصامة. فاستنجد علاَّقة بالأمبراطور البيزنطي باسيل الثاني، فبعث إليه إمدادات بحرية، لكن جيش بن الصمصامة، تمكَّن من دخول صور بعد أن حاصرها براً وبحراً، وقبض على علاَّقة وأرسله إلى مصر، ثم تابع زحفه شمالاً لطرد البيزنطيين من المنطقة، فاصطدم بهم في أفامية، وهي من كور حمص، وانتصر عليهم، وطاردهم حتى أنطاكية(٣).

وعندم علم الأمبراطور البيزنطي ما حلَّ بجيشه، خرج بنفسه، وأغار على الأراضي الساحلية الواقعة بين أنطاكية وبيروت، واصطدم بالجيش الفاطمي في طرابلس في شهر (محرم ٣٩٠هـ/ كانون الأول ٩٩٩م)، إلَّا أنه خسر المعركة، واضطر إلى أن يرفع الحصار عن طرابلس ويعود إلى أنطاكية(٤).

---

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص ٥٧٢.

(٢) المصدر نفسه: جـ٦ ص ٥٧٨ ـ ٥٧٩. جـ٧ ص ٥٨٥.

(٣) الأنطاكي: ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢٤٣ ـ ٢٤٦.

ثم رأى الفاطميون أن يتوقفوا عن إرسال الحملات العسكرية إلى الأراضي البيزنطية ليتفرَّغوا لمشكلاتهم الداخلية، ورحَّب الأمبراطور باسيل الثاني بهذا التوجه السلمي، وتحقَّق الصلح بين الطرفين في (أواخر عام ٣٩١هـ/ صيف عام ١٠٠١م) وفقاً للشروط التالية:

- أن تضع الحرب أوزارها بين الطرفين مدة عشر سنوات.
- يتمتع النصارى في الدولة الفاطمية بالحرية الدينية.
- يتعهد باسيل الثاني بإمداد مصر بما تحتاج إليه من الحبوب[١].

ويبدو أن تلك السياسة السلمية لم تستمر طويلاً، إذ ما لبثت أن تبدَّلت إلى علاقة عدائية عندما تناهى إلى أسماع باسيل الثاني نبأ تشدُّد الحاكم تجاه النصارى.

وظلت العلاقات بين الفاطميين والأمويين في الأندلس متوترة، وكان الأمويون يتحيَّنون الفرص للقضاء على الدولة الفاطمية في مصر، وظهر ذلك واضحاً في الثورة التي قام بها أَبو ركوة.

نهاية الحاكم

وكما كانت حياة الحاكم مليئة بالتقلبات، فإن نهايته هي الأخرى كانت لغزاً. ففي (ليلة ٢٧ شوال عام ٤١١هـ/ ١٣ شباط عام ١٠٢١م) اختفى الحاكم بطريقة يكتنفها الغموض. فقد خرج في تلك الليلة إلى المقطم، وطلب من مرافقيه أن ينتظروه، وابتعد عنهم في الجبل، ولم يُر بعد ذلك، كما لم يُعثر له على أثر، وبعد خمسة أيام وُجدت ثيابه وعليها آثار طعنات.

لقد وصلت إلينا أخبار اختفاء الحاكم من مؤرخين معاصرين، وكلهم يشيرون إلى أن أخته ست الملك، بالاتفاق مع سيف الدولة الحسين بن دوَّاس الكتامي كانا وراء عملية الاغتيال بعد أن اتهمها الحاكم في شرفها، وخشي ابن دوَّاس على نفسه من الحاكم[٢].

والراجح أن السبب في التعجيل بنهاية الحاكم تعود إلى تبنِّيه سياسة التساهل مع المبادىء الإسماعيلية. إذ أن إدراكه بكون الإسماعيليين أقلية بين المسلمين، وسعياً إلى زيادة شعبيته، بدأ منذ عام (٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م) سياسة جديدة في التساهل في تطبيق مبادىء المذهب الإسماعيلي، مما أدَّى إلى إغضاب كبار رجال الدعوة،

---

(١) الأنطاكي: ص ٢٤٨. أبو شجاع: ص ٢٣٠. ابن القلانسي: ص ٩٠.

(٢) الأنطاكي: ص ٣٥٩ ـ ٣٦١.

وإثارتهم إلى حد إعلان الثورة، لكن الحاكم واجهها بعنف، وأعدم اثنين من قادة المعارضة هما الحسين بن جوهر الصقلي، وعبد العزيز بن القاضي النعمان، وذلك في عام (٤٠١هـ/ ١٠١١م)[١].

وأصدر الحاكم في عام (٤٠٣هـ/ ١٠١٢م) بياناً في منتهى الغرابة، يعد في الواقع إلغاء لأحد أسس المذهب الإسماعيلي. فقد أمر بألا ينظر إليه إلّا كأمير المؤمنين، وأن يخاطب بهذا اللقب فقط، وهذا يعني تنازله عن منصب الإمامة، كما أمر رعاياه بالتحرر من النظر إلى أنفسهم كعبيد له[٢].

وفي عام (٤٠٤هـ/ ١٠١٣م) ازداد تباعداً عن العقيدة الإسماعيلية التي تشترط المبايعة للابن الأكبر كولي للعهد، وتجاوز هذا المبدأ الأساسي حين عيَّن ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس بن أحمد بن المهدي ولياً للعهد، وهو ابن امرأة نصرانية[٣]. وتحسباً من قيام معارضة، أخرج جماعة من حظاياه وأمهات أولاده من القصر، ومن بينهن أم ولده أبي الحسن علي، وولده نفسه، مما اضطر أخته ست الملك إلى أخذهما خوفاً عليهما وأسكنتهما بقصرها[٤].

أدَّت هذه التغيرات الجذرية إلى نشوء حالة ارتباك في الأوساط الإسماعيلية إلى حد أن بعضهم ظن أن الحاكم قد تجاوز الحد. ومما زاد الوضع اضطراباً وقف عقد الاجتماعين الأسبوعيين للتدريس والجباية[٥]. عند ذاك اغتيل الحاكم بموافقة شقيقته.

أبو الحسن علي: الظاهر

٤١١ ـ ٤٢٧هـ/ ١٠٢١ ـ ١٠٣٦م

تولية الظاهر الحكم

استولت ست الملك بعد وفاة الحاكم على مقاليد الأمور في الدولة، وكانت فاتحة أعمالها، التخلص من كل من كان على علم بمؤامرتها ضد أخيها الحاكم، وبخاصة ابن الدوَّاس الكتامي، كما قتلت ولي العهد عبد الرحيم بن إلياس، واستمالت أمراء بلاد الشام وقادة الجند. وقد هدفت إلى نقل السلطة إلى ابن الحاكم وولي عهده الشرعي أَبي الحسن، فتولى الحكم في شهر (ذي الحجة عام ٤١١هـ/

---

(١) شعبان: ص ٢٤٩.
(٢) المقريزي: خطط جـ ٤ ص ٧٥.
(٣) الأنطاكي: ص ٣٠٦. النويري: جـ ٢٨ ص ١٩٢. سيد: ص ١٠٨.
(٤) الأنطاكي: ص ٣٠٤.
(٥) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٨٢.

شهر آذار عام ١٠٢١م) وتلقب بلقب الظاهر لإعزاز دين الله، وكان عمره سبعة عشر عاماً. وقامت عمَّته بإدارة الشؤون العامَّة حتى وفاتها في (شهر ذي القعدة عام ٤١٣هـ/ شهر شباط عام ١٠٢٣م)[١].

سياسة الظاهر العامة

كان الظاهر على عكس والده، سمحاً، عاقلاً، لين العريكة، ابتعد عن ممارسة الشؤون العامة، وانهمك بلهوه، متجنباً سياسة العنف، حريصاً على أن يصلح ما فسد من الإدارة في عهد والده. اعتنى بتحسين أوضاع البلاد الاقتصادية، فتمتعت البلاد في عهده بالهدوء والطمأنينة[٢].

نزعات الظاهر الدينية

إلى جانب هذه السياسة الليِّنة، اهتم الظاهر بأمر الدعوة الفاطمية في محاولة لتجديد نشاطها، بهدف القضاء على الخلافة العبَّاسية والتفرد بحكم العالم الإسلامي الشرقي. فانتشر دعاته على امتداد الأراضي الشرقية التابعة للعباسيين والسلاجقة، وحرص على استمرار إقامة الدعوة للفاطميين في الحجاز. ونجح المؤيد في الدين الشيرازي في نشر الدعوة في شيراز وفارس والأهواز[٣].

سياسة الظاهر الخارجية

واجه الظاهر، في بداية حياته السياسية، حركة انفصالية في بلاد الشام اشترك فيها أمراء عرب الشام وهم يومئذ حسان بن المفرج بن الجراح أمير الطائيين في الرملة، وصالح بن مرداس أمير الكلابيين، وسنان بن عليان أمير الكلبيين.

واتفق هؤلاء في عام (٤١٥هـ/ ١٠٢٤م) على تقسيم بلاد الشام فيما بينهم بعد طرد الفاطميين منها، فتكون فلسطين وما يتبعها من نصيب ابن الجراح، ويستقل ابن مرداس بحلب وأعمالها، في حين يحكم ابن عليان دمشق وما يتبعها. وحتى يدعموا موقفهم حاولوا الاتصال بالأمبراطور البيزنطي باسيل الثاني لمساندتهم، لكن هذا الأمبراطور لم يستجب لهم[٤].

لم يقف الظاهر مكتوف اليدين أمام هذا التحدي الانفصالي، فأمر أنوشتكين

(١) الأنطاكي: ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

(٢) المسبِّحي: ص ٩، ١٥، ١٩ ـ ٢٠، ٣٢، ٣٨، ٤٢، ٤٥ ـ ٤٦، ٤٨، ٦١.

(٣) المصدر نفسه: ص ٧٧.

(٤) ابن العديم: جـ ١ ص ١٩٦.

الدزبري، واليه على فلسطين، بالتصدي للانفصاليين، ودارت بين الطرفين عدة معارك انتهت باستقلال المرداسيين بحكم حلب[1].

وعمل الظاهر على تحسين علاقات الفاطميين مع البيزنطيين بهدف:

- استمرار الحصول على القمح الذي يصل إليهم من القسطنطينية.
- التفرغ لمواجهة العبَّاسيين والسلاجقة.

وانتهت المفاوضات التي جرت بين الجانبين إلى توقيع هدنة في عام (٤١٨هـ/ ١٠٢٧م) تضمَّنت:

- السماح للأمبراطور البيزنطي قسطنطين الثامن بإعادة بناء كنيسة القيامة.
- الإجازة لكافة النصارى بإعادة بناء الكنائس التي هدمها الحاكم، باستثناء التي حُوِّلت إلى مساجد.
- يعين الأمبراطور البيزنطي بطريركاً على بيت المقدس.
- يمتنع الفاطميون عن القيام بعمل عدائي ضد حلب.
- تمتنع الدولة الفاطمية عن مساعدة أعداء الدولة البيزنطية، وبخاصة أهل صقلية.
- ذكر اسم الخليفة الفاطمي في الخطبة في جامع القسطنطينية.
- يطلق الأمبراطور سراح الأسرى المسلمين الذين في حوزته.
- يمتنع الأمبراطور عن تقديم المساعدة إلى حسان بن مفرج صاحب الرملة[2].

توفي الخليفة الظاهر في (منتصف شعبان عام ٤٢٧هـ/ منتصف أيار عام ١٠٣٦م)[3].

المستنصر بالله

٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٣٦ ـ ١٠٩٤م

الأوضاع الداخلية العامة

خلف أَبو تميم معد، الذي تلقَّب بلقب المستنصر بالله، والده الظاهر، وهو طفل لم يتجاوز السابعة من عمره، فتولَّت والدته الوصاية عليه وحكمت باسمه. وشهد عهده أحداثاً جساماً أثَّرت سلباً على مركز الدولة، وفقدت القاهرة مكانتها كمدينة ملكية كانت مهيأة لحكم العالم الإسلامي لمدة طويلة. ومع ذلك فقد وصلت

---

(١) المسبِّحي: ص ٣٥، ٤٤، ٤٧، ٦٤ ـ ٦٥. الأنطاكي: ص ٣٤٩ ـ ٣٨٩.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٧٦. (٣) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٧٧٥.

الدولة في عهده إلى أقصى اتساعها في العشرين سنة الأولى من حكمه حين شملت مصر وجنوبي بلاد الشام وشمالي أفريقية وصقلية والحجاز واليمن، قبل أن تهوي سريعاً بعد ذلك[1].

ويمكن تقسيم عهد المستنصر إلى مرحلتين متميزتين: تمتد المرحلة الأولى بين عامي (٤٢٧ ـ ٤٥٠هـ/ ١٠٣٦ ـ ١٠٥٨م)، وتمتاز بعظمة الدولة، واستقرار أوضاع مصر وتمتُّعها بالطمأنينة والرخاء. وقد وصف الرحالة الفارسي ناصر خسرو في كتابه سفرنامه، أثناء زيارته مصر بين عامي (٤٣٩ ـ ٤٤١هـ/ ١٠٤٧ ـ ١٠٤٩م) في أوائل حكم المستنصر، فأشاد بثروة البلاط الفاطمي وأبهته، وما كانت تتمتع فيه البلاد من يسر ورخاء[2].

ويبدو أن سبب هذا الرخاء يعود إلى براعة الوزراء الذين تولوا منصب الوزارة، وحسن سياستهم، نذكر منهم الجرجرائي، أبا سعيد التستري اليهودي، وأبا محمَّد اليازوري.

وعلى الرغم من هذا الرخاء، فقد تعرَّضت مصر في أواخر هذه المرحلة لخضَّات سياسية واقتصادية شديدة نتجت عن صراع طوائف الجند وبخاصة الأتراك والسودان، وانخفاض منسوب النيل.

وتمتد المرحلة الثانية بين عامي (٤٥٠ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٥٨ ـ ١٠٩٤م)، وتمتاز بزيادة تدخل العسكريين على حساب المدنيين، في الشؤون العامة، وكثر في هذه المرحلة تنصيب وعزل الوزراء والقضاة مما أدخل البلاد في أزمات إدارية. وترافق ذلك مع ظهور أزمة اقتصادية حادة عُرفت بـ «الشدة العظمى» حين تناقص منسوب النيل بين أعوام (٤٥٧ ـ ٤٦٤هـ/ ١٠٦٥ ـ ١٠٧٢م)، فارتفعت الأسعار، وانتشرت المجاعة، وتفشَّت الأوبئة، واقترنت بقيام الصراعات الداخلية والحروب الأهلية، وفَقَدَ المستنصر كل سيطرة على الوضع وتقلَّص نفوذه، فانحصر داخل القصر، ولم تنته هذه الأزمة إلَّا بعد أن استنجد المستنصر بوالي عكا أمير الجيوش بدر الجمالي الأرميني الأصل في عام (٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م) لإدراكه أنه لا بد من الاستعانة بقوة عسكرية قادرة على فرض النظام وحماية الدولة[3].

نجح بدر الجمالي، بما اتخذه من تدابير، في وضع حد للفوضى والحروب الأهلية، وأعاد للبلاد وحدتها وأمنها، وللدولة قوتها، وحجر على المستنصر، واستبدَّ

---

(١) سيد: ص ١٢٧.

(٢) ناصر خسرو: سفر نامه ص ١٠٦.

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر ص ٢٤ ـ ٢٦.

بالشؤون العامَّة، مما عُدَّ بداية لظهور نظام جديد في تاريخ الدولة الفاطمية اصطلح على تسميته بـ «عصر نفوذ الوزراء»[(١)].

سياسة المستنصر الخارجية

عاصر الفاطميون البويهيين في بغداد، ثم عاصروا الأَتراك السلاجقة بعد قضائهم على الدولة البويهية وسيطرتهم على بغداد مما عُدَّ تحوُّلاً هاماً في مجرى الأحداث السياسية في الشرق الإسلامي بعامة، وفي مصر بخاصة. ذلك أن السلاجقة اعتنقوا المذهب السني، فتوافقت أهدافهم مع أهداف الخلافة العباسية التي تقضي بطرد الفاطميين من بلاد الشام والقضاء على دولتهم في مصر. وحاول الطرفان حصار الفاطميين في مصر من جهتي الغرب والشمال الغربي، فاستقطبت الخلافة العباسية المعز بن باديس الزيري حاكم أفريقية، فقطع الخطبة للفاطميين في عام (٤٤١هـ/ ١٠٥٠م) وأقامها للخليفة العباسي[(٢)]. ونجح السلاجقة في تعطيل الصِلات الودية التي كانت قائمة بين البيزنطيين والفاطميين، وعقدوا مع البيزنطيين اتفاقية أنهت تموين مصر بالغلال، كما أُقيمت الخطبة للخليفة العباسي في القسطنطينية[(٣)].

نتيجة لهذا التحرك المعادي، اتجهت الدولة الفاطمية نحو سياسة الانتقام، فساندت ثورة القائد التركي أَرسلان البساسيري ضد الخلافة العباسية. ولما دخل السلطان السلجوقي طغرلبك مدينة بغداد في عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) اتصل البساسيري بالمستنصر الفاطمي وطلب منه إمداده بالرجال لضمِّ بغداد إلى الدولة الفاطمية، لكن يبدو أن المستنصر كان لا يثق بالبساسيري أكثر من ذلك، أو أنه شكَّ في قدرته على التغلب على قوة السلاجقة النامية، ولم يشأ أن يتورط بنفسه في هذا النزاع، ولعله لم يكن يملك القوة الكافية لإمداده بالرجال، لذلك اقتصرت مساعدته له على الناحية المادية فقط، أموال وسلاح[(٤)].

لكن البساسيري نجح في دخول بغداد في (شهر ذي القعدة عام ٤٥٠هـ/ شهر كانون الأول عام ١٠٥٨م) إثر خروج طغرلبك منها لقمع التمرد الذي قام به أخوه

---

(١) ابن ميسر: أخبار مصر: ص ٤٠ ـ ٤١. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣١١ ـ ٣١٢، ٣١٤، خطط جـ ٢ ص ١٩٥، ٢٤٣. ابن الصيرفي: ص ٥٦ ـ ٥٧.

(٢) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٨٠. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٨٦.

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٣ ـ ١٤. المقريزي: خطط جـ ٢ ص ١٩٥. اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٣٠.

(٤) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ١١.

إبراهيم إينال، وخطب فيها للمستنصر الفاطمي مدة عام كامل[1]. ولما انتهى طغرلبك من القضاء على التمرد عاد إلى بغداد، فهزم البساسيري وقبض عليه وقتله في عام (٤٥١هـ/ ١٠٥٩م)[2].

وفقدت الدولة الفاطمية ممتلكاتها في الغرب (شمالي أفريقية) وبعض بلاد الشام، فتبنَّت عندئذ سياسة شرقية قائمة على السيطرة على البحر الأحمر والخليج العربي لمضايقة التجارة العباسية مع الشرق الأقصى.

وتابع ألب أَرسلان السلجوقي، الذي خلف عمه طغرلبك، سياسة سلفه في محاربة النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، فزحف بجيش على هذا البلد وضمَّ حلب وكامل شمالي الشام، وأرسل أحد قادته ويدعى أتسز إلى جنوبي بلاد الشام فضمَّ الرملة وبيت المقدس باستثناء عسقلان، ثم قصد دمشق ودخلها في عام (٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م) في عهد السلطان ملكشاه الأول، وقطع الخطبة للفاطميين منها[3].

غير أن الفاطميين استعادوا بيت المقدس. ولم يمض وقت طويل حتى قامت الحروب الصليبية، ونزل الصليبيون في بلاد الشام واحتلوا سواحله، كما استولوا على بيت المقدس، فضاع النفوذ الفاطمي نهائياً من هذا البلد، وأضحى الفاطميون مهددين في مصر من جانب السلاجقة والصليبيين.

وفاة المستنصر

توفي المستنصر في (١٨ ذي الحجة عام ٤٨٧هـ/ ٢٩ كانون الأول عام ١٠٩٤م) بعد أن حكم ستين عاماً، وكان قد عيَّن الأفضل بن بدر الجمالي وزيراً له بعد وفاة والده في (شهر جمادى الأولى عام ٤٨٧هـ/ شهر أيار عام ١٠٩٤م)[4]. وبوفاة المستنصر تنتهي المرحلة الثانية من مراحل التاريخ الفاطمي.

المرحلة الثالثة
مرحلة الضعف والزوال
٤٨٧ ـ ٥٦٧هـ/١٠٩٤ ـ ١١٧١م

طغى في هذه المرحلة، نفوذ الوزراء على حساب صلاحيات الحكام

(١) البنداري: ص ١٨. الحسيني: ص ١٩. (٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٦٠ ـ ١٦١.
(٣) ابن القلانسي: ص ١٧٥.
(٤) ابن ميسر: أخبار مصر ص ٥٤. ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٣٨٣.

الفاطميين، ونهج الوزير الأفضل بن بدر الجمالي نهج والده، وتدخَّل بعد وفاة المستنصر في إقصاء ابنه الأكبر وولي عهده نزار عن العرش، ونصَّب أخاه الصغير أبا القاسم أحمد الذي لُقِّب بـ المستعلي وذلك في (١٨ ذي الحجة ٤٨٧هـ/ أول كانون الثاني ١٠٩٥م)، وكانت والدة المستعلي هذا ابنة بدر الجمالي وأخت الأفضل.

أدَّى إقصاء نزار عن الحكم إلى نتيجتين:

الأولى: حدوث اضطرابات داخلية تمثَّلت بثورة الإسكندرية، بقيادة الوالي أفتكين، على حكم المستعلي، وبايع الخارجون نزاراً، غير أن الأفضل أخمد هذه الثورة، وقتل نزاراً وأفتكين، وقبض على شؤون البلاد بيد من حديد، واستبد بالسلطة دون المستعلي[(١)].

الثانية: انقسام الدعوة الإسماعيلية إلى قسمين: **النزارية**، أتباع نزار، الذين اعتقدوا بأحقيته بالحكم، وقد تعرَّضوا لحملة اضطهادات ففروا إلى المشرق، وكان على رأسهم الحسن بن الصباح الذي أسَّس في بلاد فارس ما يُعرف بالفرقة النزارية، وغلب على أتباعه اسم الحشيشية أو الباطنية. **والمستعلية** وهم أتباع المستعلي[(٢)].

وعندما توفي المستعلي في عام (٤٩٥هـ/ ١١٠١م) أقام الوزير الأفضل ابنه أبا علي المنصور في منصب الخلافة وهو لم يتجاوز الخامسة من عمره ولقَّبه بـ الآمر بأحكام الله، فحجر عليه، واستقلَّ بتدبير أمور الدولة[(٣)]. قرَّب إليه أهل السنَّة واستخدم النصارى في وظائف الدولة، ونقل مقر الحكم من القاهرة إلى دار الملك التي بناها في جنوبي الفسطاط[(٤)].

ولما بلغ الآمر سن الرشد شعر بوطأة وزيره، وفي الوقت نفسه أثارت تصرفات الأفضل مشاعر الإسماعيلية النزارية، فتسلل بعضهم إلى مصر وقتلوه في (العاشر من ذي الحجة عام ٥١٥هـ/ أول شباط عام ١١٢٢م)، ومع ذلك فقد اتُّهم الآمر بحادثة القتل بالاشتراك مع القائد محمَّد بن فاتك البطائحي[(٥)].

---

(١) ابن ميسر: ص ٦١، ٧٠، ٩٩. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٨٥.

(٢) ابن ميسر: المصدر نفسه ص ٤٧ ـ ٤٩، ٦٢. القلقشندي: جـ ١٣ ص ٢٣٨ ـ ٢٤١.

(٣) ابن الطوير، أبو محمَّد المرتضى عبد السلام: نزهة المقلتين في أخبار الدولتين ص ٥. ابن خلكان: جـ ١ ص ١٧٨ ـ ١٨٨. جـ ٢ ص ٤٥٠. ابن خلدون: جـ ٤ ص ٦٨.

(٤) ابن الطوير: المصدر نفسه.

(٥) ابن القلانسي: ص ٣٢٣ ـ ٣٢٥. ابن الطوير: المصدر نفسه ص ٧ ـ ٨.

أما فيما يتعلَّق بسياسته الخارجية، فقد أبدى الأفضل تهاوناً في التصدي للصليبيين، مما سمح لهؤلاء بالاستيلاء على مدن بلاد الشام مثل عكا وطرابلس وجبيل وعرقة وبانياس وبيروت وصيدا وتبنين وصور، واضطر إلى مهادنة بلدوين ملك بيت المقدس الصليبي الذي قاد حملة عسكرية ضد مصر وصلت إلى الفرما، وذلك نظراً لعجزه عن الوقوف في وجهه[١].

خلف محمَّد بن فاتك الوزير الأفضل في منصبه، ولقَّبه الآمر بـ المأمون[٢]. ولعل أهم إنجازاته إنشاؤه داراً للوكالة وداراً للضرب في عام (٥١٦هـ/ ١١٢٢م)[٣]. ويُعدُّ عهد الآمر ووزارة المأمون من أزهى مراحل التاريخ الفاطمي في مصر[٤]، فقد جدَّد رسوم الدولة، وأعاد إليها بهجتها، وطوَّر الكثير من الاحتفالات الفاطمية[٥].

لم تستمر العلاقة الجيدة بين الآمر ووزيره، إذ بدأ كل منهما يستوحش من الآخر، بعد أن استبد المأمون بالسلطة، وراجت إشاعات في الدوائر الرسمية بأنه ادعى الخلافة على أساس أنه ولد نزار من جارية، فاضطر الآمر أن يتخلَّص منه، وقتله مع أخيه المؤتمن في عام (٥٢٢هـ/ ١١٢٨م)[٦].

استقل الآمر بعد ذلك بالحكم، وتمتَّعت مصر في عهده بحالة من الاستقرار الداخلي والرخاء. أما فيما يتعلَّق بسياسته الخارجية، فكانت سياسة ضعف وتهاون، وعجز عن الدفاع عن بلاد الشام ضد الغزو الصليبي، أو استعادة الممتلكات التي انتزعها السلاجقة من الفاطميين.

وقُتل الآمر على يد النزاريين في (شهر ذي القعدة عام ٥٢٤هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٣٠م)[٧].

لم يترك الآمر إثر وفاته سوى امرأة حامل، مما أدَّى إلى حدوث أزمة في ولاية العهد. وبانتظار هذا المولود، أُقيم ابن عم الآمر أبو الميمون عبد المجيد ولياً للعهد، ولم يثبت حكمه إلَّا في (شهر ربيع الآخر عام ٥٢٦هـ/ شهر شباط عام ١١٣٢م)، ولُقِّب بـ الحافظ لدين الله[٨]. ووزر له أبو علي أحمد بن الأفضل الذي استبد

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ١٧٠ ـ ١٧١.
(٢) ابن ميسر: ص ٨٨.
(٣) ابن المأمون، الأمير جمال الدين أبو علي موسى: أخبار مصر ص ٣٨ ـ ٣٩.
(٤) سيد: ص ١٧٠.
(٥) المقريزي: خطط جـ ٤ ص ٨١.
(٦) ابن ميسر: ص ١٠٧. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٢٢.
(٧) ابن القطان الكتامي: نظم الجمان ص ١٨٥ ـ ١٨٧، ٢٠٢ ـ ٢٠٤. ابن الطوير: ص ٢٤ ـ ٢٦.
(٨) ابن خلكان: جـ ٣ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

بالشؤون العامة، وقبض على الحافظ وسجنه واستولى على ثروات الفاطميين. وكان هذا الوزير ذا نزعات إمامية اثني عشرية فأسقط اسم الحافظ من الخطبة كما أسقط اسم إسماعيل بن جعفر الصادق، وأنزل من الأذان «حي على خير العمل ومحمَّد وعلي خير البشر»، ودعا للإمام المنتظر الاثني عشري[1].

أثارت سياسة أبي علي الدينية غضب الأمراء والدعاة الفاطميين، وعلى رأسهم ناصر الجيوش يانس، فتآمروا عليه وقتلوه في (١٦ محرم ٥٢٦هـ/ ٩ كانون الأول ١١٣١م) واتخذ الحافظ هذا اليوم عيداً سماه «عيد النصر»[2] ظلَّ يُحتفل به حتى نهاية العصر الفاطمي[3].

تنبَّه الحافظ لتسلط الأمراء والقادة، فحاول أن يحد من نفوذهم، فتخلَّص من بعضهم مثل يانس، إلَّا أنه وقع تحت تأثير ابنه الحسن الذي قام بثورة ضد أبيه وأجبره على تعيينه ولياً للعهد[4].

كان الحسن سيء السيرة، ضايق الأمراء المناوئين، وأراد التخلص منهم، إلَّا أنهم كانوا أسرع منه في التحرك، فضغطوا على الحافظ وأجبروه على قتله[5]، وكان قد استنجد ببهرام الأرميني والي الغربية، فلما اقترب من القاهرة، كان حسن قد قُتل، فدخلها وتولى منصب الوزارة وذلك يوم الجمعة (١٦ جمادى الأولى ٥٢٩هـ/ ٤ آذار ١١٣٥م)[6].

لم يتردد بهرام في ملء وظائف الدولة بالنصارى، وسلك مع المسلمين مسلكاً عدائياً، فصادر أموالهم، وبنى الكنائس والأديرة، مما أثار أهل مصر وأمراءها، فكتبوا إلى رضوان بن ولخشي والي الغربية يستدعونه لإنقاذهم من سيطرة النصارى، فاتجه هذا نحو القاهرة ودخلها، فاستوزره الحافظ وخرج بهرام مع أصحابه منها إلى أسوان. ويبدو أن رضوان أساء التصرف، واستاء الحافظ منه، مما دفعه إلى استدعاء بهرام مجدداً في عام (٥٣٣هـ/ ١١٣٩م) وقلَّده الأمور، وأسكنه معه في القصر يشاوره في تدبير شؤون الدولة، مما أغضب رضوان واضطره إلى الهرب. وتوفي بهرام في القصر في (٢٤ ربيع الثاني عام ٥٣٥هـ/ ٧ كانون الأول ١١٤٠م)[7].

(١) ابن الطوير: ص ٣٣. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥.
(٢) ابن الطوير: ص ٣٤ ـ ٣٥. المقريزي: خطط جـ ٢ ص ١٩٧.
(٣) ابن الطوير: ص ٣٣ ـ ٣٥.
(٤) ابن ميسر: ص ١٢٠.
(٥) ابن الطوير: ص ٣٧ ـ ٤١. ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٦ ص ٥١٤ ـ ٥١٥.
(٦) ابن الطوير: ص ٤٤. ابن ميسر: ص ١٢٢.
(٧) ابن ميسر: ص ١٢٤ ـ ١٢٦، ١٣٠ ـ ١٣١، ١٣٣.

كان رضوان أول وزير سني يتولى الوزارة الفاطمية، وأول من تلقَّب بلقب ملك، فطارد أعوان بهرام وصادر أموالهم وممتلكاتهم وقتل كثيراً منهم، ومن جهة أخرى ساند مذهب أهل السنَّة، فبنى مدرسة في الإسكندرية لتدريس المذهب المالكي[١].

واجه رضوان الخطر الصليبي، فعمل على المحافظة على ما تبقَّى من ممتلكات الفاطميين في جنوبي فلسطين، مثل عسقلان.

لكن رضوان ما لبث أن تعرَّض لمضايقة الحافظ، واضطُر إلى مغادرة مصر في (شوال ٥٣٣هـ/ حزيران ١١٣٩م)، واحتمى بأمين الدولة كمشتكين الأتابكي صاحب صلخد[٢]. واتصل أثناء وجوده في صلخد بعماد الدين زنكي وطلب منه مساعدة عسكرية تُمكِّنه من دخول القاهرة، فأمدَّه كمشتكين بقوة من الجند سيَّرهم معه إلى القاهرة، إلَّا أنهم غدروا به بعد دخوله حدود مصر، واضطر إلى طلب الأمان من الحافظ الذي اعتقله في (شهر ربيع الآخر عام ٥٣٤هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٣٩م)[٣].

ظل رضوان معتقلاً في القصر مدة ثماني سنوات نجح بعدها في الهرب، فالتف حوله بعض أعوانه، ودخل القاهرة، غير أن الحافظ أغرى طائفة من الجند السودان بالتصدِّي له، فقتلوه في (شهر ذي القعدة عام ٥٤٢هـ/ شهر نيسان عام ١١٤٨م)[٤].

امتنع الحافظ أن يتخذ وزيراً بعد رضوان بفعل ما عانى من خطر الوزراء على سلطته، وإنما اتخذ كتَّاباً، وظل يحكم البلاد بلا وزير حتى توفي في (٥ جمادى الآخرة ٥٤٤هـ/ ١ أيلول ١١٤٩م)[٥].

وبنهاية حكم الحافظ، لم يبق للخلفاء نفوذ فعلي، ودارت الصراعات بين طوائف الجند مرة أخرى، وتطلَّع حكَّام الأقاليم إلى منصب الوزارة وتنافسوا عليه.

خلف الحافظ ابنُه أبو المنصور إسماعيل، وتلقَّب بلقب الظافر بأمر الله، وعيَّن الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمَّد بن مصال وزيراً له ولقَّبه بلقب الأفضل

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٨٣.
(٢) ابن القلانسي: ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤.
(٣) المصدر نفسه. أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار ص ٤٠.
(٤) ابن القلانسي: ص ٤٦٠ ـ ٤٦١. أسامة بن منقذ: ص ٤١ ـ ٤٢.
(٥) ابن ميسر: ص ١٤٠. ابن القلانسي: ص ٤٧٨. ابن الطوير: ص ٥٣.

أمير الجيوش سعد الملك ليث الدولة(١)، ونافسه ابن السَّلار والي الإسكندرية والبحيرة، فتوجه إلى القاهرة على رأس قوة عسكرية، وأجبر الظافر على خلعه وتعيينه وزيراً بدلاً منه، واضطر ابن مصال إلى الفرار، فطارده ابن السَّلار وقضى عليه(٢).

كان ابن السَّلار شافعي المذهب، حاول أن يهيِّىء السبيل لعودة المذهب السني إلى مصر، فبنى مدرسة للشافعية في الإسكندرية، مما أدَّى إلى حقد الظافر عليه. وأدَّى التنافس على منصب الوزارة إلى تعرُّض ابن السَّلار لمؤامرة حاكها أسامة بن منقذ وعباس الصنهاجي وولده نصر، ونجح المتآمرون في قتله في (٦ محرم ٥٤٨هـ/ ٣ نيسان ١١٥٣م)(٣).

وكان ابن السَّلار قد عمل على تقوية الجيش، واهتم بتحصين عسقلان لأنها كانت محط أنظار الصليبيين في بيت المقدس. ويُعدُّ أول وزير في مصر حاول عقد اتفاق مع نور الدين محمود أمير حلب لقيام جبهة إسلامية موحَّدة في مواجهة الصليبيين(٤).

ووقف الصليبيون من جهتهم على الأوضاع المتردية في مصر، فاغتنموا الفرصة واستولوا على عسقلان في (جمادى الأولى ٥٤٨هـ/ آب ١١٥٣م)(٥)، وبذلك فقد الفاطميون آخر ممتلكاتهم في بلاد الشام.

كان من الطبيعي أن يعين الظافر عباساً الصنهاجي وزيراً، لكن المتآمرين تمادوا في مؤامرتهم، وقتلوا الظافر نفسه في (آخر محرم ٥٤٩هـ/ ١٦ نيسان ١١٥٤م)(٦) وقد برَّأ أسامة بن منقذ نفسه من هذه التهم في سيرته الذاتية(٧).

أثار مقتل الظافر، البلاط الفاطمي وأهالي القاهرة، وحاول عباس أن يبرِّىء نفسه، فأحضر طفلاً صغيراً للظافر يدعى عيسى، ونصَّبه حاكماً ولقَّبه بـ الفائز بنصر الله، وهو يناهز الثالثة من عمره(٨).

ساد الهلع والقلق البلاط الفاطمي نتيجة هذه المؤامرات الدموية، فأرسلت

---

(١) ابن الطوير: المصدر نفسه ص ٥٣ ـ ٥٥.
(٢) أسامة بن منقذ: ص ٨ ـ ٩.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٢ ـ ٢٣. ابن القلانسي: ص ٤٩٥.
(٤) سيد: ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.
(٥) وليم الصوري: تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار جـ ٢ ص ٨٢٠ ـ ٨٢٣.
(٦) أسامة بن منقذ: ص ٢٥.
(٧) المصدر نفسه: ص ٢٦ ـ ٢٧.
(٨) المصدر نفسه: ص ٢٦. ابن القلانسي: ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧.

نساء القصر إلى طلائع بن رزِّيك والي الأشمونين في الصعيد، يطلبن منه القدوم لإنقاذهن من الأخطار المحدقة بهن. لبَّى طلائع نداء الاستغاثة، فقدم إلى القاهرة مع قواته ودخلها في (شهر ربيع الأول عام ٥٤٩هـ/ شهر حزيران عام ١١٥٤م)، وخرج كل من عباس وابنه نصر وأسامة بن منقذ منها متوجهين إلى بلاد الشام[١].

تقلَّد طلائع منصب الوزارة، وتلقَّب بلقب الملك الصالح[٢]، ونجح في وضع حد للفتن التي نشبت في القاهرة، غير أنه ما لبث أن استبد بالسلطة. ويُعدُّ هذا الوزير آخر الوزراء الفاطميين الأقوياء.

وتصدَّى طلائع للصليبيين في بلاد الشام، وأدرك أن مصر لا تستطيع بمفردها مواجهتهم، فاتصل بنور الدين محمود وطلب منه توحيد جهودهما، لكن اختلاف المذهب الديني بين دمشق والقاهرة حال دون التعاون الجدِّي بينهما.

كانت محاولات الملك الصالح في التصدِّي للصليبيين هي آخر المحاولات الفاطمية في هذا الشأن، أخذ الصليبيون بعدها زمام المبادرة، وراحوا يهاجمون مصر للاستيلاء عليها مدفوعين بعاملين، اقتصادي للاستفادة من ثروات مصر، وسياسي لتطويق بلاد الشام من الجنوب، ومن الشمال من جهة، ومنع نور الدين محمود من ضمِّ مصر إلى بلاد الشام من جهة أخرى حتى لا يقعوا بين فكي الكماشة الإسلامية.

وإذا كان الصالح قد التزم بدفع جزية سنوية للصليبيين، فإنه فعل ذلك احترازاً كي لا يهاجموا مصر.

وطمع الملك الصالح في جعل الخلافة في عقبه. فعندما توفي الفائز في (١٨ رجب ٥٥٥هـ/ ٢٤ تموز ١١٦٠م) دون وريث، أقام مكانه الأمير عبد اللّه حفيد الحافظ وهو أصغر الأقارب، وكان عمره إحدى عشرة سنة، ولقَّبه بـ العاضد لدين الله، ثم زوَّجه ابنته، عسى أن ترزق منه ولداً فيجتمع لبني رزِّيك الخلافة مع الملك[٣].

وضاق العاضد بتسلط الصالح، كما استاء نساء القصر من زواج ابنته منه، فدبرت ست القصور، أخت الظافر الصغرى، أمر التخلص منه، حيث تربص له بعض الخدم في دهليز القصر وقتلوه في (١٩ رمضان ٥٥٦هـ/ ١١ أيلول ١١٦١م)[٤].

خلف الملك الصالح في منصب الوزارة ابنه رزِّيك، وتلقَّب بلقب الملك

---

(١) أسامة بن منقذ: ص ٢٩ ـ ٣٠. المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢١٥ ـ ٢٢٠.

(٢) ابن خلكان: جـ ٢ ص ٥٢٦. ابن الطوير: ص ٧٢ ـ ٧٣.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥. المقريزي: المصدر نفسه ص ٢٤٦.

(٤) ابن خلكان: المصدر نفسه ص ٥٢٨ ـ ٥٢٩.

العادل. وحاول خلال حياته السياسية إصلاح سياسة والده، لكنه استمع إلى آراء مقرَّبيه الذين حرَّضوه على إقالة شاور بن مجير الدين السعدي عن ولاية قوص حتى لا ينافسه على السلطة.

لكن شاور زحف إلى القاهرة ونجح في التغلُّب على الملك العادل، الذي قُتل على يد طيء بن شاور في (٢١ رمضان ٥٥٨هـ/ ٢٣ آب ١١٦٣م)(١).

كانت السنوات الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية عبارة عن سلسلة من الصراعات والحروب بين ولاة الأقاليم المتنافسين على السلطة، والقوى الخارجية التي استعانوا بها لتثبيت أقدامهم في الحكم، واتسمت سياسة هؤلاء الولاة بالتقلبات السريعة.

وأدَّى التنافس بين شاور وضرغام واستعانة كل منهما بالقوى الخارجية، المتمثلة بنور الدين محمود والصليبيين، إلى سلسلة من الحروب بين الطرفين على أرض مصر انتهت لصالح نور الدين محمود، وإبعاد الصليبيين نهائياً عن مصر. وتولى قائد نور الدين محمود، وهو أسد الدين شيركوه، منصب الوزارة في عام (٥٦٤هـ/ ١١٦٩م) لكنه توفي بعد عدة أسابيع، فخلفه ابن أخيه صلاح الدين الذي رافقه في حملاته، وذلك في (٢٥ جمادى الآخرة ٥٦٤هـ/ ٢٦ آذار ١١٦٩م)، ولقَّبه العاضد بـ الملك الناصر(٢).

ونفَّذ صلاح الدين سياسة تهدف إلى تثبيت مركزه في مصر، وإعادة هذا البلد إلى حظيرة الخلافة العباسية، مما أنعش المذهب السني، كما تعرَّض لإلحاح من نور الدين محمود للتعجيل بهذه الخطوة، على الرغم من أنه صادف معارضة لحكمه من جانب القوى المؤيدة للنظام الفاطمي مثل مؤتمن الخلافة، والسودان، إلَّا أنه استطاع التغلب على كافة الصعاب، ثم قطع الخطبة للعاضد الفاطمي في (شهر محرم ٥٦٧هـ/ شهر أيلول ١١٧١م) وخطب للخليفة العباسي المستضيء(٣).

ولم تكد تمضي أيام على قطع الخطبة للفاطميين حتى توفي العاضد، آخر الحكام الفاطميين في مصر(٤)، وانتهت الدولة الفاطمية بوفاته.

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩. ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٣٤٦.

(٢) أبو شامة: جـ١ ص ٤٣٩. المقريزي: المصدر نفسه ص ٣٠٩. ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية في السيرة النورية ص ١٧٩.

(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص ٣٦٤.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٦٥.

الفصل التاسع

العصر المملوكي(1)

٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م

سلاطين المماليك ومدة حكم كل منهم

المماليك البحرية

شجرة الدر	٦٤٨هـ/ ١٢٥٠
المعز عز الدين أيبك	٦٤٨ ـ ٦٥٥هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٢٥٧م
المنصور نور الدين علي	٦٥٥ ـ ٦٥٧هـ/ ١٢٥٧ ـ ١٢٥٩م
المظفر سيف الدين قطز	٦٥٧ ـ ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩ ـ ١٢٦٠م
ركن الدين بيبرس البندقداري	٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م
السعيد ناصر الدين بركة خان	٦٧٦ ـ ٦٧٨هـ/ ١٢٧٧ ـ ١٢٧٩م
العادل بدر الدين سلامش	٦٧٨هـ/ ١٢٧٩
المنصور سيف الدين قلاوون	٦٧٨ ـ ٦٨٩هـ/ ١٢٧٩ ـ ١٢٩٠م
الأشرف صلاح الدين خليل	٦٨٩ ـ ٦٩٣هـ/ ١٢٩٠ ـ ١٢٩٣م
الناصر ناصر الدين محمَّد: المرة الأولى	٦٩٣ ـ ٦٩٤هـ/ ١٢٩٣ ـ ١٢٩٤م
العادل زين الدين كتبغا	٦٩٤ ـ ٦٩٦هـ/ ١٢٩٤ ـ ١٢٩٦م
المنصور حسام الدين لاجين	٦٩٦ ـ ٦٩٨هـ/ ١٢٩٦ ـ ١٢٩٩م

(١) انظر كتابنا: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، حيث تفاصيل وافية حول أحداث التاريخ المملوكي.

الناصر ناصر الدين محمَّد: المرة الثانية	٦٩٨ ـ ٧٠٨هـ/ ١٢٩٩ ـ ١٣٠٩م
المظفر بيبرس الجاشنكير	٧٠٨ ـ ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩ ـ ١٣١٠م
الناصر ناصر الدين محمَّد: المرة الثالثة	٧٠٩ ـ ٧٤١هـ/ ١٣١٠ ـ ١٣٤٠م
المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمَّد	٧٤١ ـ ٧٤٢هـ/ ١٣٤٠ ـ ١٣٤١م
الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمَّد	٧٤٢هـ/ ١٣٤١م
الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمَّد	٧٤٢ ـ ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م
الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمَّد	٧٤٣ ـ ٧٤٦هـ/ ١٣٤٢ ـ ١٣٤٥م
الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمَّد	٧٤٦ ـ ٧٤٧هـ/ ١٣٤٥ ـ ١٣٤٦م
المظفر زين الدين حاجي بن الناصر محمَّد	٧٤٧ ـ ٧٤٨هـ/ ١٣٤٦ ـ ١٣٤٨م
الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمَّد: المرة الأولى	٧٤٨ ـ ٧٥٢هـ/ ١٣٤٨ ـ ١٣٥١م
الصالح صلاح الدين محمَّد بن الناصر محمَّد	٧٥٢ ـ ٧٥٥هـ/ ١٣٥١ ـ ١٣٥٤م
الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمَّد: المرة الثانية	٧٥٥ ـ ٧٦٢هـ/ ١٣٥٤ ـ ١٣٦١م
المنصور صلاح الدين محمَّد بن حاجي	٧٦٢ ـ ٧٦٤هـ/ ١٣٦١ ـ ١٣٦٣م
الأشرف أبو المعالي زين الدين شعبان بن حسين	٧٦٤ ـ ٧٧٨هـ/ ١٣٦٣ ـ ١٣٧٧م
المنصور علاء الدين علي بن شعبان بن حسين	٧٧٨ ـ ٧٨٣هـ/ ١٣٧٧ ـ ١٣٨١م
الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان بن حسين	٧٨٣ ـ ٧٨٤هـ/ ١٣٨١ ـ ١٣٨٢م

المماليك البرجية

الظاهر سيف الدين برقوق: المرة الأولى	٧٨٤ ـ ٧٩٠هـ/ ١٣٨٢ ـ ١٣٨٨م
الصالح حاجي بن شعبان	٧٩٠ ـ ٧٩٢هـ/ ١٣٨٨ ـ ١٣٩٠م
الظاهر سيف الدين برقوق: المرة الثانية	٧٩٢ ـ ٨٠١هـ/ ١٣٩٠ ـ ١٣٩٩م
الناصر أبو السعادات فرج بن برقوق	٨٠١ ـ ٨١٥هـ/ ١٣٩٩ ـ ١٤١٢م
الخليفة العباسي المستعين	٨١٥هـ/ ١٤١٢م
المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي	٨١٥ ـ ٨٢٤هـ/ ١٤١٢ ـ ١٤٢١م

المظفر أحمد بن شيخ	٨٢٤هـ/ ١٤٢١م
الظاهر سيف الدين ططر	٨٢٤هـ/ ١٤٢١م
محمَّد بن ططر	٨٢٤ ـ ٨٢٥هـ/ ١٤٢١ ـ ١٤٢٢م
الأشرف برسباي	٨٢٥ ـ ٨٤١هـ/ ١٤٢٢ ـ ١٤٣٨م
أبو المحاسن يوسف بن برسباي	٨٤١ ـ ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م
الظاهر جقمق	٨٤٢ ـ ٨٥٧هـ/ ١٤٣٨ ـ ١٤٥٣م
المنصور عثمان بن جقمق	٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م
الأشرف إينال	٨٥٧ ـ ٨٦٥هـ/ ١٤٥٣ ـ ١٤٦١م
المؤيد أحمد بن إينال	٨٦٥هـ/ ١٤٦١م
الظاهر خشقدم	٨٦٥ ـ ٨٧٢هـ/ ١٤٦١ ـ ١٤٦٧م
الظاهر يلباي المؤيدي	٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م
الظاهر تمربغا	٨٧٢هـ/ ١٤٦٨م
الأشرف قايتباي	٨٧٢ ـ ٩٠١هـ/ ١٤٦٨ ـ ١٤٩٦م
محمَّد بن قايتباي: المرة الأولى	٩٠١ ـ ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦ ـ ١٤٩٧م
الأشرف قانصوه خمسمائة	٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م
محمَّد بن قايتباي: المرة الثانية	٩٠٢ ـ ٩٠٤هـ/ ١٤٩٧ ـ ١٤٩٨م
الظاهر قانصوه الأشرفي	٩٠٤ ـ ٩٠٥هـ/ ١٤٩٨ ـ ١٥٠٠م
الأشرف جانبلاط	٩٠٥ ـ ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠ ـ ١٥٠١م
العادل طومان باي الأول	٩٠٦هـ/ ١٥٠١م
الأشرف قانصوه الغوري	٩٠٦ ـ ٩٢٢هـ/ ١٥٠١ ـ ١٥١٦م
الأشرف طومان باي الثاني	٩٢٢ ـ ٩٢٣هـ/ ١٥١٦ ـ ١٥١٧م

أولاً: دولة المماليك البحرية

٦٤٨ ـ ٧٨٤هـ/١٢٥٠ ـ ١٣٨٢م

عهد قيام الدولة

٦٤٨ ـ ٦٥٨هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٢٦٠م

تمهيد

أسَّس المماليك دولة إسلامية شملت مصر وبلاد الشام، وبسطوا هيمنة على الحجاز واليمن، وامتد حكمهم على مدى قرنين ونصف من الزمن، ابتدأ في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي وانتهى في أوائل القرن السادس عشر، تخلَّل هذه المدة مراحل من الجهاد الإسلامي للدفاع عن الدين والأرض ضد الأخطار التي هدَّدت منطقة الشرق الأدنى الإسلامي من جانب الصليبيين والمغول والغرب الأوروبي، وما زالت أسماء مواقع عين جالوت، ومرج الصفَّر، والمنصورة، وفارسكور، وأنطاكية، وطرابلس، وعكا؛ حيَّة في التاريخ تشهد لهم بالبطولة والشجاعة والفداء.

وإذا استطاع النظام المملوكي أن يستمر طيلة هذه المدة، فذلك بسبب الموارد الضخمة التي توفرت للمماليك نتيجة التجارة الدولية.

الجذور التاريخية

اضطر الأمراء الأَيوبيون إلى الاستعانة بالمماليك الأَتراك في ظل النزاعات والفوضى الأسرية التي عمَّت العلاقات بين مختلف المناطق التي يحكمها هؤلاء، فأكثروا من شرائهم مكوِّنين منهم عصبة تشد أزرهم، وكانت مصادرهم آنذاك بلاد ما وراء النهر.

وشيَّد لهم الصالح نجم الدين أيوب قلعة خاصة في جزيرة الروضة، وأسكنهم بها، ومن أجل ذلك عُرف هؤلاء المماليك باسم المماليك البحرية[١].

النزعات المملوكية

تلقَّى المماليك تربية متقنة في الطباق قائمة على الفروسية والنظام العسكري الصارم المرتبط بالإقطاع الحربي، مما أوجد لهم بيئة اجتماعية خاصة بهم، فلم يختلطوا بسكان مصر، ولم يتزوجوا بالنساء المصريات، وأشهر ما انفردوا به

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

ابتعادهم، وترفعهم عن الناس، وانقسامهم إلى طوائف وشيع لكل طائفة منهم زعيم. وكان رجال الدين واسطة الاتصال بينهم وبين الشعب، وكان النزاع الذي ينشب بين هذه الطوائف سبباً في تعكير صفو الحياة العامة والإدارة الحكومية. لقد فرضوا أنفسهم بقوة الجيش الذي استغل موارد البلاد بتعسف، إلَّا أنهم أنفقوا محلياً جميع الأرباح التي حقَّقوها.

واتصف المماليك بعدم عنايتهم بالوراثة، فكان الأمير الأقوى يخلف سيده على العرش، وعدُّوا التاج وقفاً عليهم، وملكاً لهم. وبكونهم أمة نجد أن ما كمن في نفوسهم من الخيانة والتآمر ضد بعضهم البعض لا يحتاج إلى استدلال وبخاصة في أواخر أيامهم، وإن ظهر بينهم حكام مستنيرون صالحون.

قيام دولة المماليك البحرية

وسرعان ما أضحى للمماليك من النفوذ ما كان له تأثير قوي في مجرى الأحداث التي تعرضت لها بلاد الشام بعامة، ومصر بخاصة. فتصدوا للحملة الصليبية التي هاجمت مصر بقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع في عام (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) ووقع هذا الملك في الأسر. كما أضحوا أصحاب الحل والعقد في مصر بعد أن قتلوا الملك الأيوبي توران شاه في (شهر محرم عام ٦٤٨هـ/ شهر أيار عام ١٢٥٠م) بسبب خشيتهم منه، واضعين بذلك نهاية للدولة الأيوبية.

كان من الطبيعي أن يطمع كل أمير في تبوء عرش السلطنة في مصر، كما وُجد الملوك الأيوبيون خارج مصر ومنهم الناصر يوسف حاكم حلب، وقد استاءوا من إقدام المماليك على قتل أحد ملوك الأيوبيين، واستئثارهم بالسلطة.

وللخروج من هذا المأزق، اختار المماليك شجرة الدر، زوجة الصالح أيوب، لاعتلاء عرش السلطنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م). كانت هذه السيدة من أصل أرميني أو تركي اشتراها الصالح أيوب، فأعتقها وتزوجها، لذلك فهي من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك، بالإضافة إلى ذلك، فإن الصلة السياسية التي ربطتها بالصالح أيوب قد انتهت بموته، وأنها أصبحت حاكمة لمصر بكونها من فئة المماليك، وعدَّها المقريزي أولى سلاطين المماليك البحرية[١].

كانت فاتحة أعمال شجرة الدر إنهاء المفاوضات التي كانت قد بدأت مع الصليبيين في دمياط على عهد توران شاه، خرج على أثرها الملك لويس التاسع من

(١) المقريزي: السلوك جـ١ ص ٣٦١.

مصر[1]. وتعرَّضت مصر في عهدها إلى ضغط الأَيوبيين في بلاد الشام الذين رفضوا الاعتراف بتغيير النظام، وعدُّوا المماليك مغتصبين. ثم إن وضعها كامرأة حاكمة صادف معارضة من قبل الخليفة العباسي في بغداد، وعامة الناس في مصر، فكان لا بد من إقامة رجل في الحكم تجتمع الكلمة عليه[2]. وللخروج من هذا الموقف الحرج تزوجت عز الدين أيبك، أتابك العساكر، ثم خلعت نفسها من الحكم[3].

واجه المعز أيبك (٦٤٨ ـ ٦٥٥هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٢٥٧م) ثلاث قضايا داخلية على شيء من الخطورة. فقد ثار العرب في مصر على حكمه، إلَّا أنه قضى على ثورتهم[4]، وتخلَّص من أقطاي الذي نافسه على السلطة، ففرَّ أتباعه إلى بلاد الشام وآسيا الصغرى، وكان من بينهم بيبرس البندقداري، وقلاوون الألفي، وسنقر الأشقر، إلَّا أنه وقع تحت ضربات زوجته شجرة الدر بعد تفاقم الخلافات الأسرية بينهما، فتخلصت منه في (شهر ربيع الأول عام ٦٥٥هـ/ شهر نيسان عام ١٢٥٧م)، ثم قُتلت بدورها على يد امرأة المعز الأولى[5].

أما في حقل السياسة الخارجية، فقد استمر النزاع في عهده مع الأَيوبيين في بلاد الشام، الذي لم يُقدَّر له أن يستمر بسبب ظهور خطر جديد هدَّد المسلمين جميعاً في المشرق العربي، وتطلَّب منهم أن يتَّحدوا، وأعني به الخطر المغولي، وتدخل الخليفة العباسي بين الطرفين وحثهما على الصلح[6].

بايع المماليك المعزية، بعد مقتل أيبك، ابنه نور الدين علي وعمره خمس عشرة سنة، (٦٥٥ ـ ٦٥٧هـ/ ١٢٥٧ ـ ١٢٥٩م). وسرعان ما ظهر التنافس بين كبار الأمراء، برز بنتيجته الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة، الذي أخذ على عاتقه توحيد صفوف المماليك من مشكلة الحكم. ونتيجة لاشتداد الخطر المغولي، وفي ظل الخطر الأَيوبي المتجدِّد، وجد قطز الفرصة سانحة لإزاحة الصبي الحاكم واعتلاء العرش، فقبض على المنصور نور الدين علي وسجنه، وتولى عرش السلطنة[7].

---

(١) المقريزي: السلوك جـ١ ص ٣٦٣. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٦٥.

(٢) المقريزي: المصدر نفسه ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩. (٣) النويري: جـ ٢٩ ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

(٤) النويري: المصدر نفسه ص ٤٢٩.

(٥) المصدر نفسه: ص ٤٥٦ ـ ٤٧٥. العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان جـ ١ ص ١٤٠ ـ ١٤٢.

(٦) النويري: المصدر نفسه ص ٣٧٨ ـ ٤٢٦. المقريزي: المصدر نفسه ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

(٧) المنصوري، بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية في الدولة التركية: ص ٢٩. ابن تغري بردي: جـ٦ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧. النويري: جـ ٢٩ ص ٤٦٨.

كان على قطز (٦٥٧_٦٥٨هـ/ ١٢٥٩_١٢٦٠م) أن يوحِّد المسلمين بمختلف فئاتهم ليواجه عدواً خارجياً شديد المراس، وأعني به المغول، فاتصل بالأيوبيين في بلاد الشام، ليحول بينهم وبين الارتماء في أحضان هؤلاء. وكان المغول بقيادة هولاكو قد واصلوا تقدمهم إلى بلاد الشام بعد أن احتلوا العراق، فدخلوا دمشق، ووصلوا في زحفهم إلى فلسطين في طريقهم إلى مصر، ووجَّه هولاكو إنذاراً إلى قطز بالاستسلام[(١)].

والحقيقة أنَّه كان من الصعب على المماليك في مصر أن يقفوا في وجه هولاكو وجيوشه الضخمة، لكن حدث في ذلك الوقت أن توفي الخان الكبير منكو، فاضطر هولاكو أن يعود إلى العاصمة المغولية قراقورم ليكون قريباً من مجرى الأحداث الداخلية، وسحب معه عدداً كبيراً من عساكره، وأسند قيادة جيوشه في بلاد الشام إلى قائده كتبغا نوين مع قوة قليلة العدد نسبياً.

نجح قطز في استقطاب كافة فئات المماليك، وبخاصة الذين فرُّوا من مصر عقب مقتل المعز أيبك، ثم تصدَّى للزحف المغولي عند عين جالوت، بين بيسان ونابلس في شهر (رمضان ٦٥٨هـ/ أيلول ١٢٦٠م)، وقاد بيبرس البندقداري طليعة القوة الإسلامية المتقدمة.

وجرت بين الطرفين رحى معركة ضارية انتصر فيها المماليك، ووقع كتبغا في الأسر، فقتله قطز[(٢)]، ولقي المغول، لأول مرة في تاريخهم في الشرق، طعم الهزيمة، وسيطر المماليك بعد المعركة على بلاد الشام حتى نهر الفرات، وشكَّل هذا الانتصار سداً منيعاً حال دون تقدم المغول إلى مصر.

استغلَّ بيبرس، بعد المعركة، مركزه المتقدم، فطلب من قطز أن يقطعه حلب جزاء ما حقَّق من نصر، حتى إذا خاب رجاؤه انقلب عليه وقتله أثناء عودته إلى مصر وتبوَّأ عرش السلطنة المملوكية[(٣)].

عهد بيبرس وأولاده

٦٥٨ ـ ٦٧٨هـ/١٢٦٠ ـ ١٢٧٩م

أقدم الظاهر بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م) على تنفيذ عدة

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ٤١٩ ـ ٤٢٠، ٤٢٧ ـ ٤٢٨. أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠. رشيد الدين، الهمذاني: جامع التواريخ، تاريخ المغول في إيران جـ ١ ص ٣١٠.

(٢) المقريزي: المصدر نفسه ص ٤٣٠ ـ ٤٣١. رشيد الدين: المصدر نفسه ص ٣١٣ ـ ٣١٤.

(٣) المقريزي: المصدر نفسه ص ٤٣٥. ابن تغري بردي: جـ ٧ ص ٨٦ ـ ٨٧.

إجراءات بهدف تثبيت أقدامه في الحكم، وتحصين دولته الناشئة، وإعطائها صفة الاستمرارية. فقد أحيا الخلافة العباسية في القاهرة في عام (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، فأكسب حكمه صفة شرعية بفضل التقليد الذي حصل عليه من الخليفة، وأحاط نفسه بسياج من التبجيل، وأثبت أحقية المماليك في تولي الحكم في مصر، فقطع الطريق على الذين يفكرون في انتزاع السلطة منهم، وأخمد الثورات التي قامت ضد حكمه، وسنَّ نظام ولاية العهد، وحصر وراثة العرش في أسرته، وطوَّر النظام الإداري، واستحدث كثيراً من الوظائف، واهتم بتنمية موارد البلاد، فحفر الترع، وأصلح الحصون، وأسَّس المعاهد، وبنى المساجد، وأدخل تعديلاً أساسياً على نظام القضاء في مصر، وأدار شؤون أعظم دولة إسلامية في ذلك الوقت بقوة وحزم. وعُرف عنه أنه رجل متدين، متمسِّك بأهداب الدين محافظ على الصلوات الخمس بأوقاتها، حارب البدع والمفاسد، وتشدد في تطبيق الشريعة الإسلامية. فحرَّم شرب الخمر وأغلق الحانات، واعتنى بإعداد جيش قوي، وأعاد بناء البحرية الإسلامية، واقتنى عدداً كبيراً من المماليك أحاط نفسه بهم، وتوَّج إصلاحاته بسن عدة قوانين تتعلَّق بتحسين سلوك المصريين.

أما في حقل السياسة الخارجية، فقد انتهج بيبرس نهج صلاح الدين الأَيوبي وخلفائه في محاربة الصليبيين في بلاد الشام وفتح معاقلهم تمهيداً لطردهم من المنطقة، ففتح قيسارية، وأرسوف، وصفد، وصافيتا، وحصن الأكراد الضخم، وقلعة الشقيف، وتبنين، ويافا، وتوَّج فتوحه بفتح أنطاكية، ثم رأى أن يهادنهم ليتفرغ للخطر المغولي المتجدِّد.

كانت معركة عين جالوت فاتحة العلاقات العدائية بين المماليك ومغول فارس، وقد قدَّر بيبرس، منذ أن تسلَّم الحكم، أن هؤلاء لا بد من أن يثأروا لهزيمتهم، فاستعدَّ لمجاهدتهم، واستغل اعتناق مغول القبجاق للإسلام[١] ليدفعهم إلى الإغارة على أملاك الإيلخانية الفارسية من الشمال، ليخفِّف الضغط عن الجبهة الجنوبية، ومن جهتهم فإن مغول فارس تحالفوا مع بعض القادة الصليبيين لمناوأة المماليك.

ولقي المغول هزيمة أخرى عند البيرة في عام (٦٧١هـ/ ١٢٧٢م)[٢]، ثم نقل

---

(١) القبجاق: هي البلاد الواقعة بين نهر أرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين، وغالب سكانها من الأتراك والتركمان.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٤٠٨. ابن تغري بردي: جـ٧ ص ١٥٩.

بيبرس الحرب إلى داخل آسيا الصغرى الرازحة تحت الحكم المغولي، وانتصر على جيش مغولي ـ سلجوقي مشترك في البستان في (شهر ذي القعدة عام ٦٧٥هـ/ شهر نيسان عام ١٢٧٧م)[١].

ووضع بيبرس حداً لنشاط الأرمن في مملكة أرمينية الصغرى الذين تحالفوا مع المغول وعرقلوا النشاط التجاري المملوكي. وتمكَّن الجيش المملوكي من دخول المدن الأرمينية ووصل إلى العاصمة سيس ونهبها[٢]. وفي الجنوب ألحق بلاد النوبة بمصر، وعقد معاهدة مع الأمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن توطدت العلاقات بنتيجتها بين الطرفين وقد جمعتهما مصلحة مشتركة هي مناهضة الصليبيين والمغول[٣]، وأقام صلات تجارية مع بعض القوى الأوروبية مثل الجمهوريات الإيطالية التجارية، وصقلية[٤].

توفي بيبرس يوم (الخميس ١٧ محرم عام ٦٧٦هـ/ ٢١ حزيران عام ١٢٧٧م)، في دمشق[٥]. ويُعدُّ المؤسِّس الحقيقي لدولة المماليك البحرية، كما يُعدُّ عهده أحد العهود الذهبية للإسلام. ونُسجت حول شخصيته مجموعة من القصص الشعبي، وهي قصص تمتزج فيها أعمال البطولة بأساطير وخرافات ذات موضوعات متنوعة.

خلف الظاهر بيبرس ابنه السعيد محمَّد بركة خان (٦٧٦ ـ ٦٧٨هـ/ ١٢٧٧ ـ ١٢٧٩م)، لكن المماليك الذين لم يؤمنوا بمبدأ الوراثة أجبروه على خلع نفسه نتيجة انتهاجه سياسة ضيِّقة تمثَّلت بإبعاد كبار الأمراء وتقريب المماليك الأحداث[٥].

ونصَّب المماليك العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس (٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م) في ظل تنافس الأمراء. وقد برز الأمير سيف الدين قلاوون الألفي كأمير قوي تطلَّع إلى منصب السلطنة، واختير أتابكاً للسلطان القاصر، فأضحى المتصرف الفعلي في أمور البلاد، ثم عزل سلامش بعد ثلاثة أشهر من توليته بحجة أنه صبي لا يستطيع النهوض بأعباء الحكم، وتولى بنفسه عرش السلطنة[٦].

---

(١) ابن عبد الظاهر: المصدر نفسه ص ٤٥٦ ـ ٤٦٢.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢٧ ـ ٣٢٩. المقريزي: جـ ١ ص ٦١٧ ـ ٦١٨.

(٣) رستم، أسد: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب جـ ٢ ص ٢١٦.

(٤) هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى جـ ٢ ص ٣٤ ـ ٣٥، ٤٢، ٧٢ ـ ٧٦. دائرة المعارف الإسلامية جـ ٤ ص ٣١٥.

(٥) النويري: جـ ٣٠ ص ٣٧٠. المنصوري: ص ٩٠.

(٦) النويري: جـ ٣١ ص ٧ ـ ٨. ابن تغري بردي: جـ ٧ ص ٢٩٢.

عهد قلاوون وأسرته

٦٧٨ ـ ٧٨٤هـ/١٢٧٩ ـ ١٣٨٢م

تعرَّض السلطان قلاوون (٦٧٨ ـ ٦٨٩هـ/ ١٢٧٩ ـ ١٢٩٠م) في أوائل حكمه إلى العقبات نفسها التي تعرَّض لها غيره من سلاطين المماليك، وأقصد بذلك خروج بعض كبار الأمراء على حكمه. ذلك أن سُنْقُر الأشقر، النائب في دمشق، لم يرض عن التغيير الذي حصل في رأس السلطة ورفض الاعتراف بالمنصور قلاوون سلطاناً، فما كان من هذا الأخير إلَّا أن جرَّد عليه حملة عسكرية أخضعته، وحملته إلى القاهرة حيث عفا عنه[١].

ويبدو أن قلاوون فَقَدَ ثقته بالمماليك الظاهرية، فأسَّس فرقة مملوكية خاصة به تساعده في توطيد حكمه في الداخل وتسانده في حروبه في الخارج، اختار أفرادها من المماليك الجراكسة، وهم من أصل قوقازي، فأنزلهم في أبراج القلعة، فعرفوا بالمماليك البرجية، وسيكون لهؤلاء شأن في تاريخ مصر كما سنرى.

ونهج قلاوون نهج بيبرس في حصر السلطة في بيته، ليحتفظ بها أعقابه طوال أربعة أجيال، كما اتبع سياسة سلفه من حيث التصدي للصليبيين والمغول، ففتح حصن المرقب الكبير التابع للأسبتارية، وهي إحدى الفرق الدينية ـ العسكرية الصليبية، وكان الصليبيون قد دأبوا على محالفة المغول واعتراض قوافل التجار المسلمين[٢]، كما فتح اللاذقية[٣] وطرابلس[٤]، ومهَّد لفتح عكا على يد خلفه.

واستمرت سياسة العداء بين المماليك والمغول في بلاد فارس بعد وفاة بيبرس. وتوجَّه في عام (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م) جيشان مغوليان إلى بلاد الشام، أحدهما بقيادة آباقا، وقد قصد الرحبة بهدف مراقبة التحركات المملوكية في بلاد الشام، والآخر بقيادة أخيه منكوتمر، قاصداً حمص للالتحام بالمماليك. لكن السلطان قلاوون أنزل به الهزيمة عند حمص، وجُرح القائد المغولي في المعركة. وطارد المماليك الجنود المغول الفارين حتى نهر الفرات الذي أضحى حداً فاصلاً بين الدولتين المملوكية والمغولية. واضطر آباقا إلى فك الحصار عن الرحبة، والعودة

---

(١) المنصوري: ص ٩٤. النويري: جـ ٣١ ص ٢١ ـ ٢٢.

(٢) المنصوري: ص ١١٣ ـ ١١٤. ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ص ٧٧ ـ ٨١.

(٣) المنصوري: ص ١١٧. ابن عبد الظاهر: المصدر نفسه ص١٤٨ ـ ١٥٣.

(٤) أبو الفداء: جـ ٧ ص ٢٩ ـ ٣٠.

إلى بلاده[1]. وما لبث آباقا أن قُتل على يد أخيه تيكودار الذي حكم إيلخانية فارس.

وحدث بعد وفاة آباقا أن بدأ المغول في فارس يتحولون إلى الإسلام، حيث استطاع الدعاة المسلمون أن يجتذبوهم إلى الدين الإسلامي. وكان تيكودار أول إيلخان اعتنق الدين الإسلامي وتسمَّى باسم أحمد. لكن هذا التحول الديني نحو الإسلام، لم يوقف سياسة العداء بين الطرفين، وذلك بفعل نزعة المغول التوسعية، وسياستهم في إخضاع المماليك، وإن شهدت العلاقات بينهما بعض الهدوء.

واستمرت في عهد قلاوون، العلاقات التجارية ناشطة مع بعض الدول الأوروبية، وارتبطت إمارتا قشتالة وأراغون بعلاقات ودية مع مصر[2]. وتأرجحت العلاقات المملوكية ـ الأرمينية بين التأزم الشديد والاصطدام، وبين الانفراج والهدوء، وفقاً لتطور الأوضاع السياسية في منطقة الشرق الأدنى، وعلاقة كل من المماليك والأرمن بالصليبيين والمغول[3]، لكن مملكة أرمينية الصغرى ظلت خاضعة للمماليك طيلة حكم المنصور قلاوون.

واستمرت العلاقات الجيدة مع البيزنطيين، وقد حرص السلطان قلاوون على تمتين أواصر السلام مع الأمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن ومع ابنه وخليفته أندرونيقوس الثاني، كما حافظ على العلاقات النامية مع مغول القبجاق، وحرص على اقتفاء أثر بيبرس في إحكام قبضته على بلاد النوبة.

توفي السلطان قلاوون في (شهر ذي القعدة عام ٦٨٩هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١٢٩٠م) وهو يتجهز لمهاجمة عكا[4].

خلف قلاوون ابنه الأشرف خليل (٦٨٩ ـ ٦٩٣هـ/ ١٢٩٠ ـ ١٢٩٣م)، وتعرَّض في بداية حكمه للمنافسة التقليدية التي تعرَّض لها من سبقه من السلاطين، من جانب كبار الأمراء، إلَّا أنه تمكَّن من التغلب على جميع الصعاب الداخلية، وتفرَّغ للمشكلة الصليبية. والواقع أنه لم يكن لوفاة قلاوون أي أثر في تبدل الموقف السياسي بين المماليك وبين ما تبقَّى من الإمارات الصليبية. وأصرَّ الأشرف خليل

---

(١) ابن كثير: جـ ١٣ ص ٢٩٥. المقريزي: جـ ١ ص ٦٩١، ٦٩٨. ابن تغري بردي: جـ ٧ ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦. رنسيمان جـ ٣ ص ٦٦٢ ـ ٦٦٣.

(٢) هايد: جـ ٢ ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٣) عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٢١٦.

(٤) المنصوري: ص ١٢٢. ابن حبيب، الحسن بن عمر: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه جـ ١ ص ١٣٥.

على تصفيتها، ففتح عكا بعد حصار شديد واصطدامات ضارية مع حاميتها[1]، كما حرَّر بيروت، وصيدا، وحيفا، وجبيل[2]، وجلت حامية أنطرطوس وعثليت عنهما لعجزهما عن الصمود، ولم يعد بحوزة الداوية، وهي إحدى الفرق الدينية العسكرية، سوى جزيرة أرواد[3]، وقد حدثت هذه الفتوح في عام (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م).

وظلَّت جيوش المماليك، بعد هذه الفتوح، تجوب الساحل من أقصاه إلى أقصاه بضعة أشهر في خطوة وقائية تدمر كل ما تعدُّه صالحاً، إذا ما حاول الصليبيون النزول إلى البر مرة أخرى، والتحصن فيها من جديد[4]. وبذلك تكاملت الفتوح في جميع البلاد الساحلية للعالم الإسلامي الشرقي، وخُتمت صفحة الحروب الصليبية في الشرق الإسلامي، باستثناء بعض الذيول التي ستُمنى بالفشل والخيبة.

واستمرت العلاقات العدائية قائمة بين المماليك ومغول فارس في عهد الأَشرف خليل، إنما لم تحدث بينهما اصطدامات تُذكر.

ويبدو أن جهاد الأَشرف خليل ضد الصليبيين، وتصفية قواعدهم لم يشفع له لدى كبار الأمراء الذين ازدادوا حنقاً لغروره واستخفافه بهم. فاتفق كل من بيدرا وحسام الدين لاجين على التخلص منه، وقتلاه يوم السبت في (١٢ محرم ٦٩٣هـ/ كانون الأول ١٢٩٣م)[5].

اختار مماليك الأَشرف خليل أخاه الناصر محمَّد خلفاً له (٦٩٣ ـ ٦٩٤هـ/ ١٢٩٣ ـ ١٢٩٤م) وكان آنذاك في التاسعة من عمره[6]، لا يستطيع أن يواجه دسائس الأمراء في الداخل وتنافسهم لاعتلاء العرش عندما تسنح لهم الفرصة، ولا الأخطار الخارجية المحدقة بمصر. وتولى الأمير زين الدين كتبغا القوي وظيفة نائب السلطنة في خطوة تمهيدية للوثوب إلى العرش، وهذه مشاهد تتكرر في دولة المماليك البحرية، وهي اختيار صبي لاعتلاء العرش على أن يستأثر بالسلطنة أمير قوي يفرض نفسه، فيعزل السلطان القاصر ويستولي على الحكم.

والواقع أنه تمحور الصراع الداخلي في سلطنة الناصر محمَّد بين ثلاثة من كبار الأمراء هم سنجر الشجاعي وكتبغا وحسام الدين لاجين، وانتهى لمصلحة الثاني الذي

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ٧٦٤ ـ ٧٦٥.

(٢) ابن يحيى، صالح: تاريخ بيروت ص ٢٤. ابن تغري بردي: جـ ٨ ص ١٠.

(٣) رنسيمان: جـ ٣ ص ٧١٢.

(٤) ابن يحيى: المصدر نفسه ص ٢٤.

(٥) المنصوري: ص ١٣٦. ابن حبيب: جـ ١ ص ١٦٧.

(٦) المنصوري: المصدر نفسه.

خلع السلطان وجلس مكانه في (شهر محرم عام ٦٩٤هـ/ شهر كانون الأول عام ١٢٩٤م)، أي بعد مرور سنة واحدة على سلطنته[١]، واستقر الناصر محمَّد في الكرك.

كان عهد السلطان كتبغا (٦٩٤ ـ ٦٩٦هـ/ ١٢٩٤ ـ ١٢٩٦م) مضطرباً. فقد اتصف هذا السلطان بقصر النظر السياسي، واتخذ عدة تدابير أدَّت إلى سوء سمعته بين الناس وكراهيتهم له، لعل أهمها: أنه ملأ مناصب الدولة بمماليكه، وأبعد الأمراء عنها وطاردهم بحجة مراسلتهم المغول، ورحَّب بالجند المغول العويراتية، الذين التجأوا إلى مصر فراراً من الإيلخان محمود غازان، وكان هؤلاء لا يزالون على وثنيتهم. وقدَّم أميرين من خاصته هم بتخاص وبكتوت الأزرق اللذين أساءا استعمال سلطتهما، وظلما الرعية، وأُصيبت البلاد في عهده بالقحط والوباء واشتداد المجاعة وارتفاع الأسعار، وانقلب عليه أمراء بلاد الشام بسبب عزله الأمير أيبك الحموي[٢].

استغل الأمير حسام الدين لاجين هذه الأوضاع القلقة، فدبَّر مؤامرة لقتل السلطان، لكن كتبغا نجا من حادثة الاغتيال، وفرَّ إلى دمشق، عندئذ أعلن لاجين نفسه سلطاناً في مصر[٣].

حاول السلطان لاجين (٦٩٦ ـ ٦٩٨هـ/ ١٢٩٦ ـ ١٢٩٩م) في مستهل حكمه إيجاد أرضية تجنِّبه خضَّات سياسية كالتي تعرض لها سلفه، وسانده الأمراء في ذلك مشترطين عليه أن يكون معهم كأحدهم، وأن لا يُقدِّم مماليكه عليهم وبخاصة الأمير منكوتمر، ولا يستبد برأيه. ولما ثبَّت أقدامه في الحكم، تجاهل هذه الشروط، فاستاء الناس من حكمه، وقُتل على يد من اصطفاهم لنفسه[٤].

وحدثت في عهد لاجين أحداث خارجية تمثَّلت بمهاجمة البلاد الأرمينية. والواقع أن الحملة التي أرسلها السلطان إلى كيليكية كانت أقرب إلى تنفيس الضغط الداخلي عن صدره بعد المعارضة الشديدة التي واجهها من قِبَل الأمراء. وفتح الجيش المملوكي قلاعاً أرمينية منها النجيمة المنيعة التحصين، ومرعش، وتل حمدون[٥].

تجدَّدت النزاعات بين الأمراء، واشتد التنافس بينهم من أجل الوثوب إلى العرش، وذلك بفعل عدم وجود شخصية قوية تستطيع أن تسيطر على الموقف وتحسم الأمور

---

(١) النويري: جـ ٣١ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٢) النويري: المصدر نفسه ص ٢٨٣. المقريزي: جـ ١ ص ٨٠٧. أبو الفداء: جـ ٤ ص ٣٣ ـ ٣٤.

(٣) المنصوري: ص ١٤٧ ـ ١٤٨. المقريزي: المصدر نفسه ص ٨١٩ ـ ٨٢٢.

(٤) أبو الفداء: المصدر نفسه ص ٣٩.

(٥) النويري: جـ ٣١ ص ٣٣٧ ـ ٣٤٣.

لصالحها، فاضطر هؤلاء، نتيجة الفراغ في رأس السلطة إلى استدعاء الناصر محمَّد من الكرك، ونصَّبوه سلطاناً للمرة الثانية، وكان عمره آنذاك أربعة عشر عاماً[1].

والواقع أن عودة الناصر إلى الحكم، تُعدُّ مرحلة انتقالية بانتظار جلاء الوضع السياسي الداخلي الذي استمر مضطرباً بسبب تنافس الأمراء. وبرز الأميران سلار وبيبرس الجاشنكير، اللذان استبدا بالسلطة، وضيَّقا على السلطان وحجرا عليه حتى عيل صبره، مما دفعه إلى التخلِّي مختاراً عن الحكم، وغادر مصر عائداً إلى الكرك، ونصَّب الأمراء بيبرس الجاشنكير سلطاناً[2].

استمرت في عهد السلطان الناصر محمَّد، المرة الثانية، العداوة التقليدية بين كل من المغول والأرمن. ونظر الإيلخان محمود غازان إلى العلاقات مع المماليك من المنظار السياسي لتحقيق تطلعات المغول السياسية منذ عهد هولاكو، وهي ضم بلاد الشام ومصر، بل إن هذا الزعيم المغولي أراد إزاحة المماليك عن صدارة العالم الإسلامي، وإحلال المغول محلهم.

وحاول قبل الإقدام على تنفيذ خطته التفاهم مع الناصر محمَّد، فتبادل الرسائل معه[3]، غير أن التصلب في المواقف السياسية حال دون حصول ذلك، وكان لا بد من الصدام لتقرير مصير زعامة العالم الإسلامي.

والتقى الجيشان المملوكي والمغولي عند مجمع المروج، شرقي حمص، في عام (٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م)، في ظل انقسام المماليك بسبب التنافس على السلطة، حيث دارت بينهما رحى معركة ضارية أسفرت عن انتصار واضح للمغول الذين سيطروا على مدن بلاد الشام. وأعطى غازان أماناً لأهل دمشق، وخطب له على منابر مساجدها، وكان ذلك إيذاناً بخضوع هذه البلاد لسيطرة المغول[4].

لكن غازان لم يحافظ على العهود، فسرعان ما دخل جنوده إلى المدينة، وعاثوا فيها فساداً، ووصلت طلائعهم إلى بيت المقدس والكرك. في هذه الأثناء، أعاد الناصر محمَّد تنظيم صفوف قواته، وخرج بهم إلى بلاد الشام ليثأر لهزيمته، والتقى بالجيش المغولي في معركة شَقْحَب وانتصر عليه، ودخل على أثرها مدينة دمشق[5].

---

(١) النويري: جـ ٣١ ص ٣٥٧ ـ ٣٦٨. المنصوري: ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٢) المنصوري: ص ١٩١. ابن حبيب: جـ ١ ص ٢٨٧.

(٣) النويري: جـ ٣١ ص ٤٢٦ ـ ٤٤١.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥، ٣٨٩ ـ ٣٩٤.

(٥) ابن كثير: جـ ١٤ ص ٢٥ ـ ٢٦. ابن حبيب: جـ ١ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦. المقريزي: جـ ١ ص ٩٧٧.

تعاون الأرمن مع المغول في مهاجمة البلاد الإسلامية، ونجح هيثوم الثاني ملك الأرمن في دخول قرية الصالحية في ضاحية دمشق على سفح جبل قاسيون، فنهبها، وأحرق مساجدها ومدارسها[١]، وتمادى حين توقف عن دفع الجزية المقررة للمماليك، مما دفع السلطان إلى التصدي له. وجاست الجيوش المملوكية ديار الأرمن تنهب وتحرق حتى ساءت أحوال المملكة بشكل واضح، ولم يستطع هيثوم الثاني تحمُّل المزيد، فتنازل عن العرش لابن أخيه ليو الرابع في عام (٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م)[٢]. وشُغل الأرمن في عهده بالنزاعات الداخلية، كما فقدوا حليفهم الطبيعي، المغول، الذين أخذوا يتحولون إلى الإسلام؛ مما أفقدهم إثارة النعرات الدينية بين الطرفين المملوكي والمغولي، وأضحت مملكة الأرمن تقف وسط محيط إسلامي، فاضطروا إلى استرضاء المماليك.

واجه السلطان بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ ـ ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩ ـ ١٣١٠م) معارضة من قِبل كبار أُمراء بلاد الشام ومصر، بالإضافة إلى العامة، الذين ساندوا السلطان الناصر محمَّد، فثاروا عليه، وأعادوا الناصر محمَّد إلى الحكم، للمرة الثالثة[٣].

تُعدُّ سلطنة الناصر محمَّد الثالثة (٧٠٩ـ٧٤١هـ/ ١٣١٠ـ١٣٤٠م)، على جانب كبير من الأهمية. فقد ظهرت فيها شخصيته التي طبعت أحداث التاريخ المملوكي بخاصة، وتاريخ المنطقة بعامة، بطابع فريد لما يقرب من إحدى وثلاثين سنة، قبض خلالها على زمام الأمور بيد من حديد، وأضحى صاحب السلطة المطلقة في البلاد، وأظهر كفاءة نادرة، ومقدرة فذَّة في إدارة الشؤون العامة، مما أضفى على حكمه مهابة كبيرة.

كانت فاتحة أعماله تعيين أعوانه الذين آزروه، في مناصب الدولة، والانتقام من الأمراء الذين سلبوه سلطته، وأذلُّوه واستخفُّوا به، وساعد الاستقرار السياسي في الداخل، والرخاء الاقتصادي الذي ساد عهده، بأن يتفرغ للمشكلات الخارجية التي واجهت دولته.

كانت علاقات السلطان الناصر محمَّد جيدة مع اليمن، وسيطر اسمياً على بلاد الحجاز، فلم يتعدَّ نفوذه ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة أحياناً، وتراوحت علاقاته بمغول فارس بين العدائية والجيدة. فقد أغار الإيلخان أُلغاتيو على الرحبة

---

(١) ابن كثير: المصدر نفسه ص ٨. المقريزي: المصدر نفسه ص ٨٩١ ـ ٨٩٢.

(٢) ابن حبيب: جـ ١ ص ٢٥٧. أبو الفداء: جـ ٧ ص ٥٦ ـ ٥٧، ٦٢. Camb. Med. Hist IV p 179.

(٣) المقريزي: جـ ٢ ص ٧١.

في عام (٧١٢هـ/ ١٣١٣م) بناء على إلحاح بعض الأمراء المماليك المنشقين على حكم الناصر محمَّد، ثم تحسَّنت العلاقات بين الطرفين في عهد الإيلخان أَبي سعيد، واستمرت جيدة حتى وفاته في عام (٧٣٦هـ/ ١٣٥٥م)، حيث تفكَّكت دولة الإيلخانيين بفعل الصراع على السلطة. واتجهت سياسة الناصر محمَّد نتيجة هذه التطورات إلى ضمِّ الإيلخانية، إلَّا أن طموحاته لم تتحقَّق، وذلك بفعل التحالفات التي حصلت بين الأمراء المتنافسين، واستمرت علاقته بمغول القبجاق قائمة. أما في الجنوب، فإن بلاد النوبة لم تعد تشكِّل خطراً على المماليك بعد الضربات التي أنزلها بها هؤلاء من جهة، واتجاه السكان نحو الدخول في الإسلام، من جهة أخرى. وأنزل السلطان ضربات موجعة بمملكة أرمينية الصغرى التي غدت في حالة تبعية تامة للسلطنة المملوكية. وكان من أثر تنامي قوة الدولة واتساع نفوذها أن تبوأت مكانة عالية بين ممالك الغرب الأوروبي، فأقامت علاقات تجارية مع مملكة أراغون، وحرصت كل من فرنسا والبابوية على ضمان حسن معاملة الرعايا النصارى في الأراضي المقدَّسة؛ فتقرَّبت من السلطان.

توفي الناصر محمَّد في عام (٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)، فختمت بوفاته مرحلة من أزهى مراحل التاريخ المملوكي، بلغت فيها الدولة ذروة قوتها وازدهارها، وأُصيب البلاط المملوكي، والدوائر الحاكمة، بفساد شديد خلال المدة الواقعة بين وفاته وبين سقوط دولة المماليك البحرية في عام (٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م). فقد تعاقب على الحكم إثنا عشر سلطاناً، ثمانية من أولاد الناصر محمَّد، وأربعة من أحفاده، اتسمت عهودهم بالبؤس والشقاء، إذ لم يكن أحد منهم على مستوى يؤهله لأن يمارس صلاحياته إلَّا بواسطة أتابكة كانوا مثالاً للشجع والفساد. وكانت حالات الفوضى، والمؤامرات التي تصاحب اعتلاء وعزل السلاطين بمثابة شواهد واضحة على ما أصاب الدولة من ضعف، ويمكن تلخيص الملامح العامة لهذه المرحلة بما يلي:

١ ـ صغر سن السلاطين الذين تعاقبوا على الحكم.

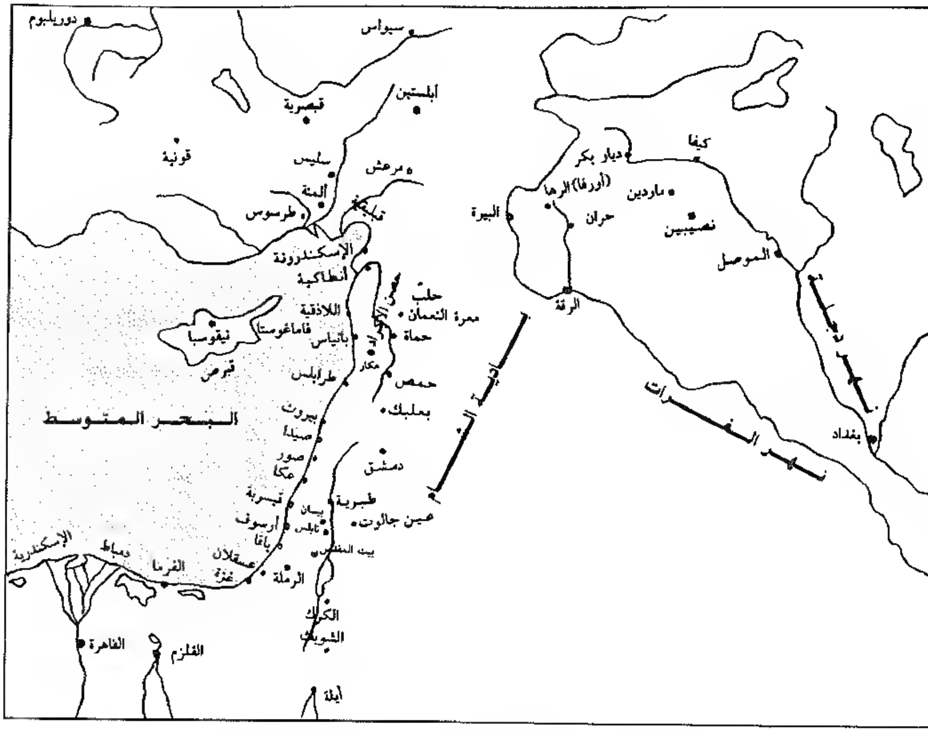
٢ ـ ازدياد نفوذ الأمراء واشتداد سطوتهم وتحكُّمهم في مصالح البلاد والعباد، وتلاعبهم بالسلاطين.

٣ ـ اشتداد الصراع بين الأمراء وازدياد التنافر والعداء بين طوائف المماليك.

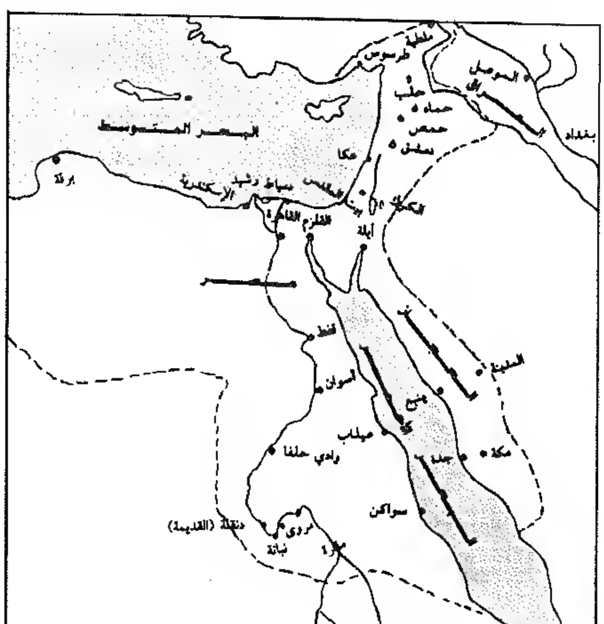
٤ ـ ازدياد نفوذ المماليك البرجية أَو الجركسية.

٥ ـ اشتداد الانحلال الخلقي.

أما على الصعيد الخارجي، فقد ظلَّت الدولة مهيبة الجانب، وأتاحت لها قوتها



الشام وآسيا الصغرى والعراق في عصر دولة المماليك



دولة المماليك في أقصى اتساعها

المختزنة بأن تتصدى للصليبيين القبارصة عندما غزوا الإسكندرية في عام (٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م)، وتقضي على مملكة أرمينية الصغرى في عام (٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م).

ثانياً: دولة المماليك البرجية

٧٨٤ ـ ٩٢٣هـ/ ١٣٨٢ ـ ١٥١٧م

ظهور المماليك البرجية

ارتبط ظهور المماليك البرجية بالسلطان قلاوون. فقد أراد هذا السلطان أن يكوِّن طائفة جديدة من المماليك ترتبط به، وتختص بالولاء له، وتختلف في أصولها عن الطوائف المملوكية الأخرى، فاختار عنصراً قوقازياً، أُطلق عليه في المصادر العربية اسم الجركس أو الشركس[١]، ومع أن هؤلاء كانوا من الجنس التركي العام إلَّا أنهم كانوا على عداء مع المماليك الأتراك، أما موطنهم فهو المرتفعات الجنوبية من بلاد القبجاق في شمالي بحر قزوين.

ويبدو أن اختياره لهذا العنصر يعود إلى ثلاثة أسباب هي:

- امتلاء أسواق الرقيق بهذا النوع، وتدني ثمنه بالمقارنة مع العناصر الأخرى.
- اشتهرت قبائل الجركس بالشجاعة والقوة.
- رواج تجارة الرقيق في مجتمعهم.

وقضت النظم المملوكية السائدة أن يلازم المماليك الجركسية، أو البرجية، أبراج القلعة بشكل دائم، إلَّا أنه كان من المتعذر الاحتفاظ بهم، بعد أن كثر عددهم، بعيدين عن الحياة العامة، لذلك سمح لهم الأشرف خليل بمغادرة أبراجهم والنزول إلى القاهرة بشرط أن يتم ذلك في النهار وأن يعودوا قبل الليل ليبيتوا فيها[٢]، وقد نتج عن ذلك ظاهرتان، **الأولى**: انغماس المماليك البرجية في الحياة العامة، **والثانية**: ازدياد تعلقهم بالأشرف خليل.

وأتاحت لهم الظروف السياسية أن يتدخَّلوا في الشؤون العامة كمنافسين للمماليك البحرية، وتمكَّنوا بعد سلسلة من الاصطدامات من القضاء على هؤلاء في عام (٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م)، ورفعوا برقوقاً إلى سدة الحكم، فانتهى بذلك ملك بيت قلاوون، كما انتهت دولة المماليك البحرية وقامت دولة المماليك البرجية.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا جـ ٤ ص ٤٥٩.

(٢) المقريزي: جـ ٢ ص ٢١٣.

مميزات دولة المماليك البرجية

ـ اشتهرت دولة المماليك البرجية بأن سلاطينها كانوا جميعاً من أصل جركسي باستثناء اثنين كانا من أصل يوناني هما خُشْقَدم وتمربغا، ومعنى ذلك أن حكام هذه الدولة اتخذوا العصبية العنصرية سلاحاً لإزاحة دولة المماليك البحرية، ثم استمرت هذه النزعة كإطار عام لسياسة السلاطين الداخلية.

ـ كان العرش المملوكي مشاعاً بين القادرين من أمراء المماليك. ففي حين نجح مبدأ الوراثة في أوقات متعددة، خلال تاريخ دولة المماليك البحرية، فقد غلب على دولة المماليك البرجية قلة احترام هذا المبدأ.

ـ كان تدبير المؤامرات وإحداث الفتن للوصول إلى الحكم، السمة البارزة خلال تاريخ دولة المماليك البرجية، وعانت البلاد كثيراً نتيجة ذلك، وسعى السلاطين إلى حصرها في دائرة ضيقة بحيث لم يسمحوا لقوة خارجية بالتدخل في شؤونهم.

ـ اعتنى أكثر سلاطين دولة المماليك البرجية بالأدب ومجالس العلم، واهتموا بإنشاء المؤسسات الخيرية من مساجد ومدارس ومستشفيات وسبل وغيرها.

ـ لم يلتفت القيّمون إلى رغبات السكان من حيث اختيار السلطان وتعيينه.

ـ كان الحصول على موافقة الخليفة والقضاة لتعيين السلطان ضرورياً، على أن يبرِّر الأُسلوب الذي سلكه لتحقيق هدفه في الوصول إلى الحكم.

عهد برقوق وخلفائه

٧٨٤ ـ ٨٢٤هـ/ ١٣٨٢ ـ ١٤٢١م

كانت أولى خطوات السلطان برقوق (٧٨٤ ـ ٧٩٠هـ/ ١٣٨٢ ـ ١٣٨٨م) تثبيت وضعه الداخلي، وترسيخ أقدامه في الحكم، معتمداً على المماليك الجراكسة. ودفعه حذره من الأتراك إلى استقدام أعداد كثيرة منهم[1]، ثم عمد إلى جركسة الدولة، فأحدث بذلك تغييرات جوهرية في تركيبة النظامين الإقطاعي والعسكري، وفي حياة المماليك الاجتماعية واتجاهاتهم السياسية.

كانت ردة الفعل التركية قوية لهذا التغيير. فقام الأتراك بانتفاضات ضد حكم السلطان برقوق لعل أهمها ثورة الطنبغا نائب البستان في عام (٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م)[2]،

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٠٧. المنهل الصافي ج ٤ ص ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) الخطيب الجوهري: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ج ١ ص ٥٤.

وانتفاضة منطاش نائب ملطية في عام (٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م)[١]. وانتقلت حمّى المنافسات إلى العنصر العربي، فقام الخليفة المتوكل بثورة في عام (٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م) بهدف الوثوب إلى الحكم[٢]، فتدهور الموقف السياسي، وتحرَّج السلطان الذي وقف عاجزاً عن وضع حد لحالة التدهور، كما فشل في دعم مركزه، واضطر إلى التنحّي عن السلطة في عام (٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م)[٣].

وكان كل من منطاش ويلبغا الناصري، نائب حلب الذي تزعم حركة الانقلاب، قد اتفقا على إعادة السلطة إلى بيت قلاوون، فنصَّبا الصالح حاجي ابن الأشرف شعبان في عام (٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م)، وتولى يلبغا أتابكية العسكر في خطوة تمهيدية للوثوب إلى السلطة[٤].

وسرعان ما دبَّ الخلاف بين الأميرين بسبب نظرة كل منهما إلى الواقع السياسي ومشكلة الحكم. فاستغل برقوق هذه الفرصة، وقاد حركة انقلابية مضادة، ونجح في اعتلاء منصب السلطنة للمرة الثانية[٥]، وبذلك بدأت مرحلة حكمه الثانية (٧٩٢ ـ ٨٠١هـ/ ١٣٩٠ ـ ١٣٩٩م) ثبَّت خلالها الحكم الجركسي بعد أن قضى على الثورات التي قامت ضده في بلاد الشام في حرب إبادة، وبخاصة ثورة منطاش، فقبض عليه وقتله[٦]، كما قتل يلبغا الناصري[٧]. توفي السلطان برقوق في (شهر شوال عام ٨٠١هـ/ شهر حزيران عام ١٣٩٩م) بعد أن عهد بالملك إلى أولاده[٨].

واجه السلطان برقوق خطرين أحدقا بدولة المماليك البرجية، هما الخطر التيموري وتنامي قوة الدولة العثمانية في آسيا الصغرى. وكان تيمورلنك، الفاتح من الطراز المغولي، قد أسَّس أمبراطورية واسعة تضارع أمبراطورية جنكيزخان، ثم تطلع نحو منطقة غربي آسيا وشرقي الأناضول في محاولة لضمهما إلى أمبراطوريته الشرقية، فضمَّ بغداد، وفرَّ حاكمها أحمد بن أويس ملتجئاً إلى السلطان المملوكي[٩].

---

(١) الخطيب الجوهري: المصدر نفسه ص ١٦٦. العسقلاني، ابن حجر: أنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ جـ ٢ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٩.

(٢) المقريزي: جـ ٣ ص ٤٩٤ ـ ٤٩٥. العسقلاني: المصدر نفسه ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٣) المقريزي: المصدر نفسه: ص ٦١١ ـ ٦١٦، ٦٣٢.

(٤) الخطيب الجوهري: جـ ١ ص ٢١٦ ـ ٢١٧، ٢٢٦.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١ ـ ٣.

(٦) الخطيب الجوهري: جـ ١ ص ٣٦٠ ـ ٣٦١.

(٧) المقريزي: جـ ٣ ص ٧٥٢ ـ ٧٥٣.

(٨) المصدر نفسه: ص ٩٣٦ ـ ٩٣٨.

(٩) العسقلاني: جـ ٣ ص ١٥٦ ـ ١٥٧، ١٩٤. ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ ١ ص ٢٢٣.

وحرص السلطان برقوق أن يستقطب الإمارات التي تاخمت حدود بلاده الشرقية والشمالية الشرقية، في الوقت الذي أخذت فيه هذه الإمارات بالانضواء تحت راية المماليك رغبة منها بالتمتع بحمايتها من الخطر التيموري، فتبادل الرسائل مع السلطان العثماني بايزيد الأول بشأن قيام جبهة موحدة تقف في وجه تيمورلنك، كما أرسل كل من القاضي برهان الدين أحمد صاحب سيواس وقرا يوسف زعيم القراقوينلو، رسائل استغاثة إلى السلطان المملوكي. وأضحت القاهرة مركز الثقل السياسي في المنطقة تتجه الأنظار إليها آملة في قيام جبهة موحدة لوقف تيمورلنك عند حده[(١)].

وحرص تيمورلنك من جهته على استفراد أعدائه وضرْبهم منفردين، وبدأ باستقطاب السلطان برقوق، فتبادل الرسائل معه بشأن قيام تحالف بينهما، إلّا أنه لم يتوصل إلى نتيجة إيجابية. ثم حدث أن واجه تيمورلنك صعوبات داخلية في أمبراطوريته، فغادر المنطقة عائداً إلى الشرق، وفتح في عام (٨٠٠هـ/ ١٣٩٨م) جبهة جديدة في الهند، مما أجَّل صدامه مع المماليك إلى وقت لاحق.

أما الدولة العثمانية الناشئة، فلم تشكِّل خطراً جدِّياً، آنذاك، على الوجود المملوكي في مناطق الحدود الشمالية، على الرغم من أن بايزيد الأول أغار في عام (٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م) على قيصرية ضمن حركته لضم الإمارات التركمانية في آسيا الصغرى إلى دولته، لكن تجدُّد خطر تيمورلنك على منطقة غربي آسيا، أجبر السلطان العثماني على الاعتذار من السلطان المملوكي[(٢)].

وتأرجحت العلاقات السياسية بين الدولة المملوكية البرجية وبين دول شمالي إفريقية، بين التعاون المثمر والفتور، خاصة مع الحفصيين في تونس. ونلمس من خلال العلاقات الجيدة بين الطرفين تكاتف المماليك مع الحفصيين لمواجهة الأخطار الأوروبية الغربية، وتبادل الهدايا والرسائل. أما من حيث فتور العلاقات بين الطرفين، فيبدو أن موضوع الخلافة هو السبب في ذلك، وكانت العلاقات التجارية بينهما جيدة[(٣)].

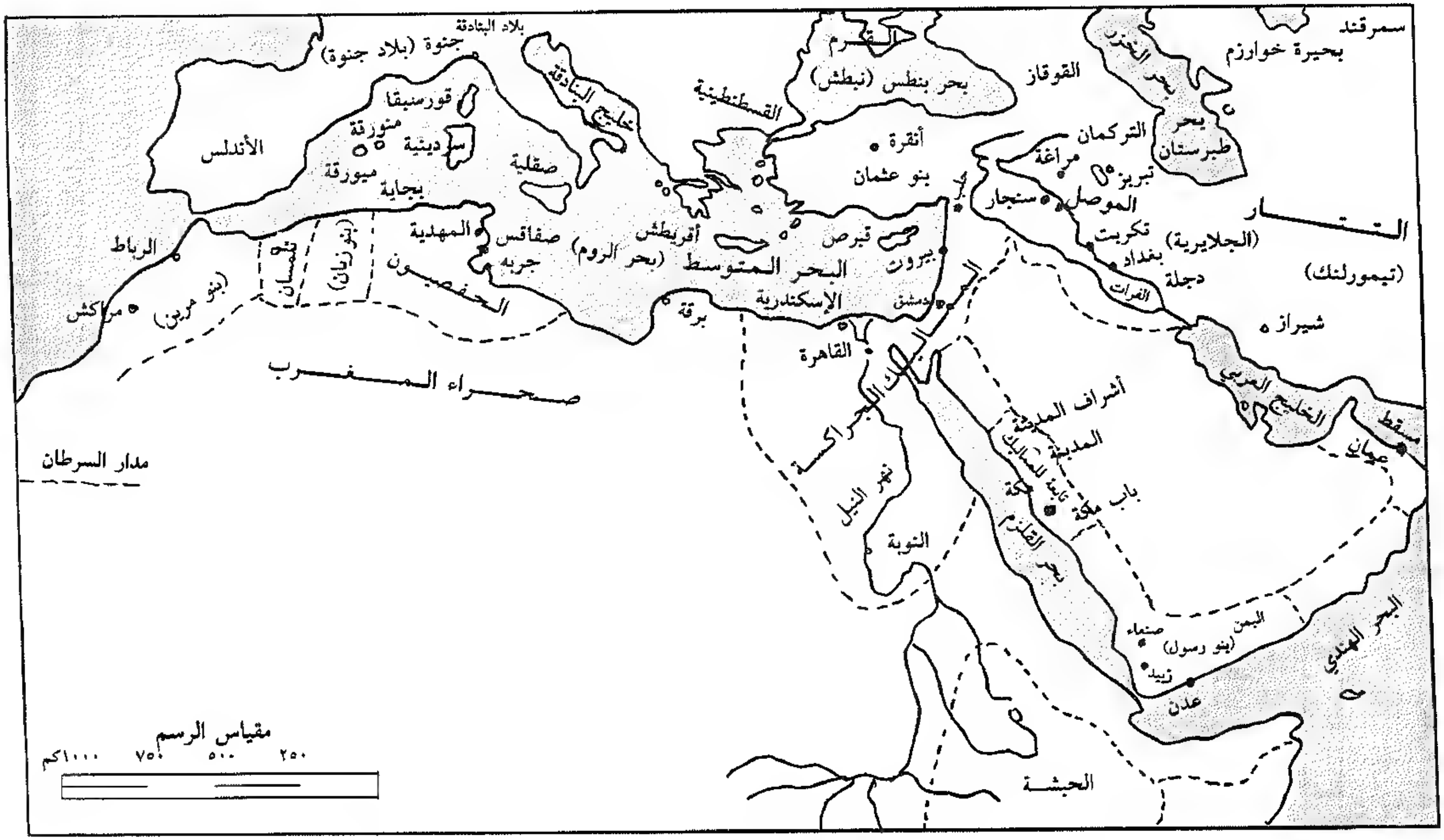
واستمرت العلاقات الجيدة مع الحجازيين واليمنيين في عهد السلطان برقوق،

---

(١) ابن عربشاه: عجائب المقدور في نوائب تيمور: ص ١٥٣، ١٥٥.

(٢) العسقلاني: جـ ٣ ص ١٥٨.

(٣) تاريخ ابن خلدون: جـ ٥ ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠، ٥٠١. القلقشندي: جـ ٧ ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨ .



جنوب غرب آسيا وشمال أفريقية (في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي)

الذي لُقِّب بسلطان مصر والحجاز.

نصَّب الأمراء بعد وفاة السلطان برقوق ابنه فرج (٨٠١ ـ ٨١٥هـ/ ١٣٩٩ ـ ١٤١٢م) وله من العمر عشر سنوات[١]. ولما كان المماليك لا يؤمنون بمبدأ الوراثة، فقد برزت بوادر صراع على السلطة بين كبار الأمراء في ظل حكم صبي قاصر، وقامت الانتفاضات ضد حكمه، وقد ضاق ذرعاً بها. ونجح الأميران نوروز وشيخ من التغلب على قوة السلطان، فخلعاه، ونصَّبا الخليفة العباسي المستعين كحل وسط نتيجة تنافسهما لاعتلاء منصب السلطنة[٢].

حدثت، خلال حكم السلطان فرج، تطورات سياسية وعسكرية ملفتة، ذلك أن تيمورلنك عاد إلى منطقة غربي آسيا للاصطدام بالمماليك والعثمانيين، واستطاع أن يستولي على مدن شمالي بلاد الشام أمثال ملطية والبهسنا وعينتاب، ثم دخل حلب واستولى على دمشق، وارتكب جنوده أعمال السلب والنهب والتدمير والقتل. ثم ترك المنطقة خاوية على عروشها وزحف باتجاه الشمال ليصطدم بالسلطان بايزيد الأول ويتغلَّب عليه في معركة أنقرة في (شهر ذي الحجة عام ٨٠٤هـ/ شهر تموز عام ١٤٠٢م) ويأخذه أسيراً[٣].

وبدأت العلاقات بين المماليك والعثمانيين في عهد فرج بالتدهور. فقد انتهز بايزيد الأول انقسام المماليك، واطمئنانه من ناحية تيمورلنك الذي ذهب يقاتل في بلاد الهند، فهاجم ملطية، واستولى على البستان، وحاصر دارندة[٤].

كان هذا الحدث كافياً لتحذير المماليك من نوايا بني عثمان، إلَّا أن خطر تيمورلنك ظل يدفع هؤلاء إلى كسب ودهم.

وغلب على العلاقات بين السلطنة المملوكية والدول الأوروبية، منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادي، الطابع التجاري، وظل التنافس محتدماً بين الجمهوريات الإيطالية، للهيمنة على التجارة الشرقية. وشهدت مصر وبلاد الشام صراعاً حاداً بين البندقية وجنوة، وتسابقاً بينهما في التقرب من المماليك. فعقدت

---

(١) العسقلاني: جـ ٤ ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١٧١ ـ ١٧٢. السخاوي، شمس الدين محمَّد بن عبد الرحمن: وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام جـ ٢ ص ٤١٩ ـ ٤٢٠.

(٣) ابن عربشاه: ص ١٩٣ ـ ١٩٤، ٢٠٥ ـ ٢٠٧، ٢٥٠، ٢٦٦ ـ ٢٧١، ٢٩٣ ـ ٢٩٤. Yazdi: Zafarnama: pp 163-165.

(٤) العسقلاني: جـ ٤ ص ١٣٥. ابن تغري بردي: جـ ١٢ ص ١٧٩. ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور جـ ١ قسم ٢ ص ٥٤٧.

البندقية اتفاقية مع السلطان فرج في عام (٨١٠هـ/ ١٤٠٧م) كما عقدت جنوة اتفاقية مماثلة في عام (٨١١هـ/ ١٤٠٨م)[١].

كان اختيار الخليفة المستعين (٨١٥هـ/ ١٤١٢م) إجراء شكلياً حتى تتوضح الرؤية السياسية الداخلية للأمراء، وتتوحد الاتجاهات لتجتمع تحت راية رجل واحد. ولما حاول الخليفة ممارسة دوره كسلطان حاكم اصطدم بطموحات الأمير شيخ الذي سرعان ما خلعه من منصب السلطنة وتولى الحكم[٢].

اعتمد المؤيد شيخ (٨١٥ ـ ٨٢٤هـ/ ١٤١٢ ـ ١٤٢١م) نهجاً جديداً في الممارسة السياسية ضد خصومه، تمثَّل بقتلهم دون سجنهم، كي لا تتجمع رواسب أحقادهم في السجن، ثم ينصرفون إلى إقلاقه. وتوفي السلطان في (شهر محرم عام ٨٢٤هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٤٢١م)[٣].

واجه في بداية حكمه معارضة من قِبل الأمير نوروز، لكنه أخضعه[٤]، كما ثار عليه بعض نواب بلاد الشام، فتمكَّن من القضاء عليهم، وحلَّ السلام في سائر نيابات السلطنة. ورغم هذه الأحداث، فإن عهده، يُعدُّ هادئاً بالمقارنة مع عهدي فرج وأبيه برقوق.

وواجه المؤيد شيخ في الخارج محاولات الإمارات التركمانية، التي عاشت على الأطراف الشمالية للسلطنة المملوكية، الانعتاق من الطوق المملوكي والتحرر من سلطة المماليك، لكن محاولاته لإخضاعهم لم تكن حاسمة مما أتاح لهؤلاء التركمان تجديد تحركاتهم المعادية للسلطنة المملوكية في عهد خلفائه.

المرحلة الأخيرة من تاريخ المماليك البرجية

٨٢٤ ـ ٩٢٣هـ/ ١٤٢١ ـ ١٥١٧م

أصيب البلاط المملوكي والدوائر الحاكمة في الدولة بفساد شديد خلال المدة الواقعة بين وفاة السلطان المؤيد شيخ وزوال الدولة. والواقع أن هذه المدة الزمنية تختلف في بعض جوانبها عن المراحل السابقة، على الرغم من تكرار مشاهد الاضطرابات والمنازعات التي تكاد لا تنقطع، إلَّا أن الظاهرة المميزة تكمن في:

---

(١) ابن يحيى: تاريخ بيروت ص ٣٢ ـ ٣٤. الخطيب الجوهري: جـ ٢ ص ١٧٩. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى: جـ ٣ ص ٣٢٧.

(٢) الخطيب الجوهري: المصدر نفسه ص ٣١٧. العسقلاني: جـ ٧ ص ٧٠.

(٣) العسقلاني: المصدر نفسه ص ٤٠٥.

(٤) المصدر نفسه: ص ٧٠ ـ ٧١.

- ازدياد ثورات المماليك الجلبان، وعجز السلاطين عن ردعهم.
- كثرة عزل وتولية السلاطين.
- التأثير السلبي للاكتشافات الجغرافية على أوضاع الدولة الداخلية.
- نمو الدولة العثمانية.

وعلى الرغم من هذه الصورة القاتمة، فإن قوة الدولة المختزنة ساعدتها على التوسع بإضافة جزيرة قبرص.

تولى منصب السلطنة، بعد وفاة المؤيد شيخ، ابنه أَحمد (٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) وكان عمره سنة وثمانية أشهر. ونصَّب ططر نفسه أتابكاً للعساكر ووصياً على السلطان الصغير[١]، وما لبث أن خلعه عن العرش وتولى الحكم مكانه (٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) لكنه لم يتمتع طويلاً بالسلطة، فقد قُتل على يد زوجته لأسباب عائلية وعهد قبل وفاته إلى ابنه محمَّد بالحكم[٢].

كان السلطان محمَّد (٨٢٤ ـ ٨٢٥هـ/ ١٤٢١ ـ ١٤٢٢م) في العاشرة من عمره[٣]، وشهد عهده تنافساً حاداً بين الأميرين جانبك، القائم بإدارة الشؤون العامة، وبرسباي، الوصي على السلطان، انتهى لمصلحة الثاني الذي خلع السلطان وتربع على دست الحكم[٤].

حكم السلطان برسباي (٨٢٥ ـ ٨٤١هـ/ ١٤٢٢ ـ ١٤٣٨م) ما يزيد على ستة عشر عاماً، امتازت بالاستقرار، وقِلَّة الاضطرابات، على الرغم مما قاساه الناس بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية، وسياسة السلطان الاحتكارية. وأتيح لبرسباي أن يوسع حدود الدولة، ففتح جزيرة قبرص، كما هاجم رودس. وتوترت في عهده العلاقات بين الدولة المملوكية والإمارات التركمانية، مما سيكون له أثر على العلاقات المملوكية ـ العثمانية. وتوفي السلطان برسباي إثر مرض ألَمَّ به[٥]، فخلفه ابنه أبو المحاسن يوسف في عام (٨٤١ ـ ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م) وكان عمره أربعة عشر عاماً وسبعة أشهر.

لم يتمكَّن هذا السلطان من أن يحمي نفسه وعرشه من أطماع الأمير جقمق،

---

(١) المقريزي: جـ ٤ ص ٥٦٣، ٥٨٢. ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ ٦ ص ٣٩٨، ٤٠١.

(٢) ابن تغري بردي: المصدر نفسه ص ٤٠٤. جـ ٨ ص ١٦ ـ ١٩.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ١٤ ص ٢٣٥. العسقلاني: جـ ٧ ص ٤٠٦، ٤١١.

(٤) ابن تغري بردي: المصدر نفسه ص ٢٣٢، ٢٤٢.

(٥) المقريزي: جـ ٤ ص ١٠٣٤ ـ ١٠٤٥، ١٠٥١. العسقلاني: جـ ٧ ص ٤١٩، ٤٢١، ٤٢٥ ـ ٤٢٦.

الوصي عليه، الذي سرعان ما خلعه عن العرش وتولى الحكم مكانه[1].

كان السلطان جقمق (٨٤٢ ـ ٨٥٧هـ/ ١٤٣٨ ـ ١٤٥٣م) معتدلاً في حكمه بالمقارنة مع حكم برسباي، كما عُرف بتدينه وورعه[2]. واجه خلال مدة حكمه انتفاضات متعددة في بلاد الشام، قمعها بالقوة، واشتهر بغزوته لجزيرة رودس. ويُعدُّ عهده من أفضل عهود دولة المماليك البرجية نتيجة ما ساده من السلم في الداخل. وخلفه في الحكم ابنه عثمان (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م) الذي اتصف بالقسوة والجشع، واستمر في عهده الصراع الداخلي بين الأمراء للاستئثار بالنفوذ. ونجح المماليك الناقمون على حكمه، في عزله، ونصَّبوا زعيمهم إينال العلائي سلطاناً[3].

تميز عهد السلطان إينال (٨٥٧ ـ ٨٦٥هـ/ ١٤٥٣ ـ ١٤٦١م) بكثرة تمرد الجلبان، واعتدائهم على الناس، ونهبهم الأسواق. ونتيجة لجهل السلطان، وعجزه عن ردعهم، أوغلت الدولة في طريق التدهور. خلف إينال بعد وفاته ابنه أحمد (٨٦٥هـ/ ١٤٦١م). اتصف هذا السلطان بالاستقامة، وحاول إصلاح الأمور في الدولة، لكنه جوبه بمعارضة المماليك بعد أن رفض تنفيذ طلباتهم المالية المتزايدة، واضطر إلى التنحي عن الحكم[4]. ونصَّب المماليك خُشْقَدم مكانه[5] (٨٦٥ ـ ٨٧٢هـ/ ١٤٦١ ـ ١٤٦٧م). يُعدُّ عهد السلطان خُشْقَدم من العهود الهادئة نسبياً، وقد حافظ على سيادته منذ بداية حكمه حتى وفاته بفعل مهارته في لعبة تكافؤ القوى بين فئات المماليك. وخلفه الأمير يلباي (٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م)[6]، لكنه لم يكن على قدر المسؤولية التي أُلقيت على عاتقه. واستفحل في عهده تنافس فئات المماليك، وهيمن خير بك، زعيم المماليك الخُشْقَدمية على مقدرات الأمور، فخلع السلطان عن العرش ونصَّب مكانه الأتابكي تمربغا (٨٧٢هـ/ ١٤٦٨م)، وهو الثاني في دولة المماليك البرجية من أصل رومي[7].

---

(١) الخطيب الجوهري: جـ ٤ ص ١٩ ـ ٢٠. ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ ٤ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣. السخاوي: وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام جـ ٢ ص ٥٦٢.

(٢) السخاوي: المصدر نفسه ص ٦٧٦.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ١٥ ص١٦، ٢٤، ٣٨، ٤٢ ـ ٤٥، ٥٣.

(٤) المصدر نفسه: جـ ١٦ ص ٢٤٠ ـ ٢٤٩. السخاوي: جـ ٢ ص ٧٣٦.

(٥) السخاوي: المصدر نفسه ص ٧٣٨. ابن إياس: جـ ٢ ص ٣٧٨.

(٦) ابن تغري بردي: جـ ١٦ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٩، ٣٥٦ ـ ٣٥٧، ٣٥٩.

(٧) المصدر نفسه: ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠، السخاوي: جـ ٢ ص ٧٩١. ابن إياس: جـ ٢ ص ٤٦٥.

اتصف هذا السلطان بالخصال الحميدة، جمع الفنون إلى جانب الفضائل، وكان على معرفة جيدة بالفقه، وله مشاركة كبيرة في التاريخ والشعر والأدب، إلَّا أنه لم يملك الوسائل التي يُرضي بها فئات المماليك الملتفة حوله، فخلعه المماليك الأجلاب الخُشْقَدمية، ونصَّبوا مكانه الأمير خيربك[(١)]، لكن الأتابك قايتباي رفض الاعتراف بهذا التغيير، وقاد حركة انتفاضة أسفرت عن اعتلائه العرش (٨٧٢ ـ ٩٠١هـ/ ١٤٦٨ ـ ١٤٩٦م)[(٢)]. يُعدُّ هذا السلطان من أبرز سلاطين دولة المماليك البرجية، أثبت خلال مدة حكمه أنه رجل كفء، سديد الرأي، يضع الأمور في نصابها، يتروَّى في اتخاذ القرارات، لكن ساد عهده بعض السلبيات التي دفعته إلى درجة اليأس من نجاحه في إصلاح الأوضاع العامة وإلى زهده في الحكم، منها كثرة الضرائب التي فرضها لإنفاقها على الحروب وفي إقامة المنشآت، وكثرة انتفاضة الجلبان. عهد السلطان قايتباي إلى ابنه محمَّد بالحكم من بعده[(٣)].

اتصف السلطان محمَّد (٩٠١ ـ ٩٠٤هـ/ ١٤٩٦ ـ ١٤٩٨م) بالفجور والخلاعة، واستبد الأتابك قانصوه خمسمائة بإدارة الشؤون العامة، ولما حاول عزله والحلول مكانه، عارضه المماليك السلطانية، ففرَّ من مصر إلى فلسطين[(٤)]. وقع السلطان محمَّد، نتيجة المنافسات السياسية، فريسة جشع المماليك فانغمس في الشهوات، والطيش، وسوء التدبير، فكان ذلك مبرراً للتلخص منه بالقتل[(٥)]. وخلفه خاله قانصوه الأشرفي (٩٠٤ ـ ٩٠٥هـ/ ١٤٩٨ ـ ١٥٠٠م)[(٦)]. ساد الهدوء عهد هذا السلطان، لكن أعوزته القوة التي يجابه بها مؤامرات الأمراء، وتمكَّن طومان باي من قيادة حركة انقلابية أطاحت به، ونصَّب مكانه الأمير جانبلاط (٩٠٥ ـ ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠ ـ ١٥٠١م)[(٧)].

ونتيجة لتمادي الأمراء في طموحاتهم للوثوب إلى العرش خُلع السلطان جانبلاط، ورُفع طومان باي الأول إلى منصب السلطنة (٩٠٦هـ/ ١٥٠١م)[(٨)]، ولم يكن مصيره بأفضل من مصير أسلافه، فقد خُلع هو الآخر عن العرش بسبب قسوته، وقُتل، ونُصِّب مكانه قانصوه الغوري[(٩)].

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ١٦ ص ٣٨٨. السخاوي: جـ ٢ ص ٧٩١.

(٢) ابن تغري بردي: المصدر نفسه ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠، ٣٩٤. السخاوي: المصدر نفسه ص ٧٩١ ـ ٧٩٢.

(٣) ابن إياس: جـ ٣ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٤٤.

(٥) المصدر نفسه: ص ٣٨٥ ـ ٣٩٢، ٤٠١ ـ ٤٠٣.

(٦) المصدر نفسه: ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥.

(٧) المصدر نفسه: ص ٤٣٩.

(٨) المصدر نفسه: ص ٤٥٣.

(٩) ابن إياس: جـ ٤ ص ٤.

أثبت هذا السلطان (٩٠٦ ـ ٩٢٢هـ/ ١٥٠١ ـ ١٥١٦م) خلال مدة حكمه أنه رجل قوي صلب. فعمل على إعادة الأمن والاستقرار إلى العاصمة بعد سلسلة الانتفاضات وما نتج عنها من خلل في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما عمل على تأمين الأموال اللازمة لتغذية الخزانة وإعداد الجيوش لمجابهة الخطر العثماني الذي أضحى داهماً، بالإضافة إلى الخطر البرتغالي الذي شكَّل عائقاً اقتصادياً أدَّى إلى إفلاس الدولة، بسبب هيمنة البرتغاليين على التجارة الشرقية مع الهند.

واستطاع العثمانيون بقيادة السلطان سليم الأول أن يتغلَّبوا على الجيش المملوكي في معركة مرج دابق، شمال حلب في عام (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)، وسيطروا على بلاد الشام وفلسطين، وزحفوا باتجاه مصر، وانتحر الغوري إثر هذه الهزيمة[١].

انتُخِب طومان باي الثاني سلطاناً على مصر خلفاً لقانصوه الغوري (٩٢٢ ـ ٩٢٣هـ/ ١٥١٦ ـ ١٥١٧م)، وقد عمل جاهداً على إيقاظ المماليك الذين اتصفوا بالكسل والتخاذل عند اللقاء، وتنبيههم إلى الخطر المحدق بهم كي يقوموا بواجب الدفاع عن الدولة، لكنه فشل في ذلك. ومن جهتهم لم يُقدِّر المماليك حرج الموقف وصعوبته، وكانت النتيجة الحتمية لذلك، نجاح السلطان العثماني سليم الأول في الانتصار عليهم في معركة الريدانية في (أواخر ذي الحجة ٩٢٢ وأوائل محرم ٩٢٣هـ/ كانون الثاني ١٥١٧م) فضم مصر وقضى على دولة المماليك البرجية، وكان قد قبض على السلطان طومان باي الثاني وشنقه[٢]. وبذلك انتهى العصر المملوكي.

(١) ابن أياس جـ ٥ ص ٧١.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٠٢ ـ ١٠٣، ١٤٤ ـ ١٤٧، ١٥٩ ـ ١٦٣، ١٧٤ ـ ١٧٦.

الفصل العاشر

العصر العثماني[1]

٦٨٧ ـ ١٣٤٣هـ/ ١٢٨٨ ـ ١٩٢٤م

أسماء السلاطين العثمانيين ومدة حكم كل منهم

عثمان الأول بن أرطغرل	٦٨٧ ـ ٧٢٦هـ/ ١٢٨٨ ـ ١٣٢٦م
أورخان بن عثمان	٧٢٦ ـ ٧٦١هـ/ ١٣٢٦ ـ ١٣٦٠م
مراد الأول بن عثمان	٧٦١ ـ ٧٩١هـ/ ١٣٦٠ ـ ١٣٨٩م
بايزيد الأول بن مراد الأول	٧٩١ ـ ٨٠٥هـ/ ١٣٨٩ ـ ١٤٠٣م
محمَّد الأول شلبي بن بايزيد الأول	٨١٦ ـ ٨٢٤هـ/ ١٤١٣ ـ ١٤٢١م
مراد الثاني بن محمَّد الأول	٨٢٤ ـ ٨٥٥هـ/ ١٤٢١ ـ ١٤٥١م
محمَّد الثاني بن مراد	٨٥٥ ـ ٨٨٦هـ/ ١٤٥١ ـ ١٤٨١م
بايزيد الثاني بن محمَّد الثاني	٨٨٦ ـ ٩١٨هـ/ ١٤٨١ ـ ١٥١٢م
سليم الأول بن بايزيد الثاني	٩١٨ ـ ٩٢٦هـ/ ١٥١٢ ـ ١٥٢٠م
سليمان الأول القانوني بن سليم الأول	٩٢٦ ـ ٩٧٤هـ/ ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦م
سليم الثاني بن سليمان الأول	٩٧٤ ـ ٩٨٢هـ/ ١٥٦٦ ـ ١٥٧٤م
مراد الثالث بن سليم الثاني	٩٨٢ ـ ١٠٠٣هـ/ ١٥٧٤ ـ ١٥٩٥م
محمَّد الثالث بن مراد الثالث	١٠٠٣ ـ ١٠١٢هـ/ ١٥٩٥ ـ ١٦٠٣م
أحمد الأول بن محمَّد الثالث	١٠١٢ ـ ١٠٢٦هـ/ ١٦٠٣ ـ ١٦١٧م

(١) راجع كتابنا: العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، فهو يتضمن تفاصيل وافية حول أحداث التاريخ العثماني.

مصطفى الأول بن محمَّد الثالث (المرة الأولى)	١٠٢٦ ـ ١٠٢٧هـ/ ١٦١٧ ـ ١٦١٨م
عثمان الثاني بن أحمد الأول	١٠٢٧ ـ ١٠٣١هـ/ ١٦١٨ ـ ١٦٢٢م
مصطفى الأول بن محمَّد الثالث (المرة الثانية)	١٠٣١ ـ ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٢ ـ ١٦٢٣م
مراد الرابع بن أحمد الأول	١٠٣٢ ـ ١٠٥٠هـ/ ١٦٢٣ ـ ١٦٤٠م
إبراهيم الأول بن أحمد الأول	١٠٥٠ ـ ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٠ ـ ١٦٤٨م
محمَّد الرابع بن إبراهيم الأول	١٠٥٨ ـ ١٠٩٨هـ/ ١٦٤٨ ـ ١٦٨٧م
سليمان الثاني بن إبراهيم الأول	١٠٩٨ ـ ١١٠٢هـ/ ١٦٨٧ ـ ١٦٩١م
أحمد الثاني بن إبراهيم الأول	١١٠٢ ـ ١١٠٦هـ/ ١٦٩١ ـ ١٦٩٥م
مصطفى الثاني بن محمَّد الرابع	١١٠٦ ـ ١١١٥هـ/ ١٦٩٥ ـ ١٧٠٣م
أحمد الثالث بن محمَّد الرابع	١١١٥ ـ ١١٤٣هـ/ ١٧٠٣ ـ ١٧٣٠م
محمود الأول بن مصطفى الثاني	١١٤٣ ـ ١١٦٧هـ/ ١٧٣٠ ـ ١٧٥٤م
عثمان الثالث	١١٦٧ ـ ١١٧٠هـ/ ١٧٥٤ ـ ١٧٥٧م
مصطفى الثالث بن أحمد الثالث	١١٧٠ ـ ١١٨٨هـ/ ١٧٥٧ ـ ١٧٧٤م
عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث	١١٨٨ ـ ١٢٠٣هـ/ ١٧٧٤ ـ ١٧٨٩م
سليم الثالث بن مصطفى الثالث	١٢٠٣ ـ ١٢٢٢هـ/ ١٧٨٩ ـ ١٨٠٧م
مصطفى الرابع بن عبد الحميد الأول	١٢٢٢ ـ ١٢٢٣هـ/ ١٨٠٧ ـ ١٨٠٨م
محمود الثاني بن عبد الحميد الأول	١٢٢٣ ـ ١٢٥٥هـ/ ١٨٠٨ ـ ١٨٣٩م
عبد المجيد الأول بن محمود الثاني	١٢٥٥ ـ ١٢٧٧هـ/ ١٨٣٩ ـ ١٨٦١م
عبد العزيز بن محمود الثاني	١٢٧٧ ـ ١٢٩٣هـ/ ١٨٦١ ـ ١٨٧٦م
مراد الخامس بن عبد المجيد الأول	١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م
عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد الأول	١٢٩٣ ـ ١٣٢٧هـ/ ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩م
محمَّد رشاد الخامس بن عبد المجيد الأول	١٣٢٧ ـ ١٣٣٦هـ/ ١٩٠٩ ـ ١٩١٨م
محمَّد وحيد الدين السادس بن مراد الخامس	١٣٣٦ ـ ١٣٤٠هـ/ ١٩١٨ ـ ١٩٢٢م
عبد المجيد الثاني بن عبد العزيز	١٣٤٠ ـ ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٢ ـ ١٩٢٤

مرحلة التأسيس

٦٨٧ ـ ٩١٨هـ/١٢٨٨ ـ ١٥١٢م

الجذور التاريخية

شهد التاريخ السلجوقي قيام دولة إسلامية خارج الأراضي المعهودة للإسلام لعبت دوراً واسعاً داخل آسيا الصغرى. والواقع أن المنازعات بين المسلمين والبيزنطيين لم تنقطع طوال قرون كاملة، وكانت الغلبة في معظمها للمسلمين، لكن لم يحقق أي من الطرفين نصراً حاسماً فيها.

وكانت قد سكنت المناطق الحدودية جماعات من المجاهدين التركمان استطاعت أن تنساب إلى داخل آسيا الصغرى بعد معركة مانزيكرت الشهيرة (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م)، التي كانت الغلبة فيها للسلطان السلجوقي ألب أرسلان على خصمه الأمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينوس، فاقتاده أسيراً، وامتلك التركمان أرمينية وأنطاكية والرها وكبادوكية[١]، وعملوا على إزالة آثار المعالم البيزنطية من الطرق الرئيسية فيها، وكذلك الإدارة المدنية في المدن، بعد أن تخلَّى السكان عن الحكم البيزنطي، واستسلموا للحكام الجدد خوفاً من المجاعة. ومع هذا، فإن التركمان تركوا المدن تحكم نفسها بنفسها، ولم يتدخَّلوا في أمورها الداخلية، إلَّا أن صورة الحياة فيها قد تغيرت عندما أخذت تصطبغ بالصبغة الإسلامية، كما أن انحسار النفوذ البيزنطي شجَّع السكان على الدخول في الإسلام دين الفاتحين الجدد. وأتاحت المنازعات الداخلية في بيزنطية للفاتحين التوغل في صميم الحياة البيزنطية بعدما استعانت بهم الأطراف المتصارعة[٢].

والواضح أن هؤلاء التركمان لم يخضعوا للسيادة السلجوقية في أواخر القرن الحادي عشر، ولم يتبنُّوا فكرة سياسية واضحة المعالم، باستثناء العثور على أراضٍ جديدة تساعدهم على العيش في ربوعها آمنين، وأن يستثمروا مواردها، لكنهم قضوا على هيكل الدولة البيزنطية.

---

(١) الفارقي؛ ابن الأزرق: تاريخ ميافارقين ص ١٨٩. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٥. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان: جـ ٨ ص ٢٧٨ ـ ٢٨٥.

Oman: A History of the Art of wav in the Middle Ages I pp 219-220.

Grousset, R: Histoire de L'Armenie pp 628-629.

(٢) Vasiliev: History of the Byzantine Empire I p 432.

ونشأت في المناطق الواقعة على الحدود في جبال طوروس وكيليكية إمارات أرمينية مستقلة، ثم شكلت مملكة أرمينية الصغرى، وفي ملطية طرد جبريل الرومي منها الحكام الأرمن المنشقين عن الحكم البيزنطي.

نتيجة لهذه التطورات السياسية والعسكرية، لم يعد بوسع الحكومة المركزية في القسطنطينية حماية مناطق الثغور، مما شجَّع الأتراك السلاجقة على شن غارات جديدة في عمق الأراضي البيزنطية. وتمكَّن سليمان بن قتلمش، أحد أنسباء ألب أرسلان، من فتح الجزء الشمالي الغربي من آسيا الصغرى، وأسَّس دولة فيها عُرفت باسم سلطنة سلاجقة الروم، وذلك في عام (٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م) واتخذ من مدينة نيقية القريبة من القسطنطينية عاصمة له[١].

ولئن تألفت قواته، في بادىء الأمر، من التركمان فقط، إلَّا أنه وأبناءه من بعده حملوا بعض المفاهيم الواضحة حول إنشاء دولة.

وقامت في الطرف الشمالي الشرقي من آسيا الصغرى، إمارة تركمانية تجمَّعت حول زعيم يدعى دانشمند، أي العالم، ويحملنا هذا اللقب على الظن بأن سلطة هذا الزعيم هي في الأصل شبه دينية. واستطاع دانشمند هذا أن يمكّن لنفسه في سيواس، وأن يبسط سلطانه في اتجاه الشمال حتى أنقرة وأماسيا ونِكسار، وفي اتجاه الجنوب حتى البستان، وانتزع ملطية من جبريل في عام (٤٩٤هـ/ ١١٠١م).

وظلَّت سواحل آسيا الصغرى الشمالية والجنوبية حتى كيليكية تحت سيطرة البيزنطيين، كما بقيت بعض المدن الداخلية في الشرق وفي بلاد الشام تابعة للأمبراطورية البيزنطية مثل الرها.

وخلع سليمان طاعة السلاجقة الكبار، وعزم على التوسع شرقاً، فضمَّ أنطاكية في عام (٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م)، لكنه اصطدم بمطامع عمه تُتُش زعيم سلاجقة الشام، لينتحر بعد ذلك في عام (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م)، خشية من الوقوع في قبضته[٢].

وخلال ثلاثة الأرباع الأولى من القرن الثاني عشر الميلادي لم يكن التاريخ السياسي في آسيا الصغرى من حيث الأساس سوى سلسلة متتابعة من المنازعات بين السلاجقة والدانشمنديين انتهت لصالح السلاجقة، وتَنافُس كل منهما مع البيزنطيين.

---

(١) Grousset: p 629. Vasiliev: I pp 432-433.

(٢) ابن القلانسي: ص ١٩٤. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٠٣. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٤٢٢. منجم باشي: صحائف الأخبار: جـ ٢ ص ٥٦٠. المستوفي القزويني: تاريخ گزيدة ص ٤٨١.
Anna Comnena: The Alexiad pp 153-154.

وسعى قلج أَرسلان الأول بن سليمان وخليفته، أن ينشىء لنفسه قاعدة جديدة في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى، بعدما استعادت بيزنطية مدينة نيقية وغربي الأناضول بمساعدة أفراد الحملة الصليبية الأولى في عام (٤٩١هـ/ ١٠٩٧م)، فاتخذ مدينة قونية حاضرة له، وانطلق منها للتوسع على حساب البيزنطيين والدانشمنديين، ولما فشل في انتزاع ملطية من هؤلاء، التفت إلى التوسع شرقاً في اتجاه الجزيرة والفرات الأعلى، فضمَّ الموصل، لكنه لقي حتفه خلال صراعه مع أميرها جاولي سقاوة، بعد أن غرق في نهر الخابور في عام (٥٠٠هـ/ ١١٠٧م)[١].

وركَّز خلفاؤه نشاطهم داخل آسيا الصغرى. والواقع أن منطقة الأناضول الخصبة بمواردها، يسَّرت لهم قاعدة لاستمرار الدولة، حتى إذا كان (أواخر عام ٥٧١هـ/ صيف عام ١١٧٦م)، توهَّم الأمبراطور مانويل كومنين أن باستطاعته أن يسترجع الأراضي التي فقدتها بيزنطية على يد الأَتراك، فألمَّت به كارثة ميريوكيفالون على يد السلطان قلج أَرسلان الثاني الذي أكرهه على الصلح[٢].

أثبتت هذه المعركة الشهيرة أن الاتجاه التاريخي الذي نتج عن معركة مانزيكرت قبل قرن من الزمن لا سبيل إلى تحويله، وأتاحت لقلج أَرسلان الثاني أن يحمي حدود بلاده من اعتداءات البيزنطيين، وأخذ السلاجقة يثبِّتون ركائز دولتهم حول عاصمتهم قونية، واستطاعوا بعد عدة اصطدامات مع الدانشمنديين من انتزاع ملطية منهم والقضاء على دولتهم في عام (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م).

والواضح أن سيطرة السلاجقة على مناطق الحدود كانت ضعيفة بفعل تمركز القبائل التركمانية الخارجة عن إرادة السلطان فيها. لكن الدولة الجديدة قامت في الأقاليم المركزية بمساعدة أهل البلاد الذين تحول قسم كبير منهم إلى الإسلام، وبمساندة الأَتراك النازحين من فارس والذين تثقَّفوا بالثقافة الفارسية، وبالتالي فقد امتزجت في هذه الدولة تقاليد عديدة، بيزنطية، وإسلامية وفارسية متأثِّرة بحضارة السلاجقة العظام، بالإضافة إلى مستحدثات مبتكرة تطلبتها واقعية الظروف التي عاشتها. وظلَّ الوضع القانوني للفئات النصرانية المحلية التي لم تدخل في الإسلام، أفضل من الناحية الفعلية.

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٥١ ـ ٢٥٣. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٣٩ ـ ٥٤١. الفارقي: ص ٢٧٣.

(٢) انظر فيما يتعلَّق بمعركة ميريوكيفالون:

Choniates, Nicetas: Historia pp 236-248.

Kinnamos, John: Epitome Historiarum: pp 292-299.

Michel Le Syrien: Chronique III pp 369-372.

ولا شك بأن سلطنة سلاجقة الروم عرفت، في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، أزهى وأجمل حقبة في تاريخها ولمدة وجيزة فقط، وذلك نتيجة تراجع قوة بيزنطية بعد أن أخضعها الصليبيون في حملتهم الرابعة على الشرق في عام (٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م)، فتحرَّرت من كل قلق واضطراب من ناحية الغرب. واستغل السلطان كيخسرو الأول وابنه كيكاوس الأول هذه الفرصة وبسطا سلطانهما على أنطاليا وسينوب، وهما ثغران هامان يقع أولهما على البحر الأبيض المتوسط وثانيهما على البحر الأسود[١]. وبذلك انفتحت سلطنتهما على حركة التجارة العالمية، واستطاعت بما توفر لها من أمن وموارد اقتصادية، ومعاهدات تجارية مع الجمهوريات الإيطالية أن تزدهر، وتيسَّر لها أن تتدخل في الشؤون السياسية للعالم الإسلامي في بلاد الشام والجزيرة الفراتية.

إلَّا أن تدفق الثروة على البلاد كان له آثار سلبية أيضاً، ذلك أن الأمراء الحاكمين انغمسوا في الملذات، فلانت نفوسهم، وابتعدوا عن الروح العسكرية التي اتصف بها أجدادهم ليتخلوا عن مهنة القتال للمرتزقة من الروم والأرمن والعرب، كما أن الفارق المتزايد بين ثقافة السلطات الحاكمة المتأثرة بالثقافة الفارسية، والتي ابتعدت بحكم ذلك عن الطابع التركي، وبين ثقافة الشعب ذات الجذور التركية، والذي ظلَّ محافظاً على أصوله؛ أخذ يتفاقم منذ مطلع القرن الثالث عشر. ففي عام (٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م)، أعلن الشعب سخطه على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية العامة، وعلى استهتار الفئات الحاكمة؛ في ثورة قادها الصوفي بابا إسحاق، لكن السلطة قمعتها بقوة السِّلاح[٢].

وحصلت آنذاك تغييرات سياسية هامة في ولايات المشرق ناتجة عن زحف المغول من أواسط آسيا باتجاه العالم الإسلامي بقيادة جنكيزخان، فقضوا على الدولة الخوارزمية في آسيا الوسطى، ووصلوا في عهد الإيلخان هولاكو إلى أبواب آسيا الصغرى، وأنزلوا بقوات السلطان كيخسرو الثاني هزيمة قاسية في كوسى داغ في عام (٦٤١هـ/ ١٢٤٣م)، وقضوا على استقلال دولة سلاجقة الروم[٣]، ودفع كيخسرو الثاني الجزية لهم رمزاً للتبعية، حتى إذا توفي في عام (٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م)، نشب النزاع بين ولديه عز الدين كيكاوس الثاني وركن الدين قلج أرسلان الرابع.

---

(١) ابن بيبي: الأوامر العلائية في الأمور العلائية ص ٣٣ ـ ٣٥، ٥٤ ـ ٥٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٢٧ ـ ٢٣٠.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٣٥ ـ ٢٤٠.

وتدخل هولاكو في هذا النزاع، فقرَّر أن يقتسم الأخوان بلاد الروم، فيحكم كيكاوس الثاني الشطر الغربي من حدود قيصرية إلى ساحل أنطاليا حتى الحدود البيزنطية، وتكون عاصمته قونية، بينما يحكم قلج أرسلان الرابع الشطر الشرقي من سيواس إلى ساحل سينوب وسمسون، ويكون مقره في توقات[1].

وحاول كيكاوس الثاني أن يتحالف مع المماليك في مصر ضد الوجود المغولي فعوقب بأن حُرم من ممتلكاته، في حين أُخضع أخوه لرقابة مغولية مشدَّدة بواسطة عامل يُعرف باسم معين الدين برواناه[2].

ويبدو أن ضعف الدولة حمل المغول بعد ذلك على استبدل الحماية بنظام إداري مباشر. أما المستفيدون من هذا النظام، فهم الولاة وكبار أعوانهم الذين اقتطعوا لأنفسهم الإمارات الواسعة في الأراضي التي تولوا إدارتها. وسرعان ما ظهرت إلى الوجود الإمارات التركمانية العشر، وكان من بينها الإمارة العثمانية التي ورثت سلطنة سلاجقة الروم بعد زوالها في عام (٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م).

قيام الدولة العثمانية

يرجع أصل العثمانيين إلى قبيلة قايى التركية، وهي إحدى عشائر الأتراك الأوغوز، نزحت من أواسط آسيا إلى أعالي الجزيرة بين دجلة والفرات، وسكنت المراعي المجاورة لمدينة خلاط. ويستفاد من المعلومات المتوافرة أن هذه العشيرة تركت منطقة خلاط حوالي عام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، تحت ضغط الأحداث العسكرية التي شهدتها المنطقة، وهبطت إلى حوض نهر دجلة، ثم هاجرت إلى أرزنجان في منطقة آسيا الصغرى بزعامة طغرل. وكانت هذه المدينة مسرحاً للقتال بين السلاجقة والخوارزميين، وساند طغرل القوات السلجوقية، فكافأه السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد الأول بأن أقطع عشيرته بعض الأراضي الخصبة قرب أنقرة[3]. وظل طغرل حليفاً للسلاجقة يحارب في صفوفهم ضد المغول والبيزنطيين حتى أقطعه السلطان منطقة أخرى تقع في أقصى الشمال الغربي من الأناضول على الحدود البيزنطية في المنطقة المعروفة بـ «سكود»، حول «إسكي شهر»، حيث بدأت العشيرة

---

(١) ابن بيبي: ص ٢٩٤. ابن العبري: تاريخ الزمان ص ٣١٤ ـ ٣١٥.

(٢) Camb. Hist. of Islam: I p 250.

(٣) سعد الدين، محمَّد: تاج التواريخ جـ ١ ص ١٣، ١٥. كوبرولي، محمَّد فؤاد: قيام الدولة العثمانية ص ١١٩، ١٢٢.

هناك حياة جديدة[١].

تميَّزت هذه الإمارة على صغرها بصفتين:

الأولى: أنها من الناحية الجغرافية كانت بعيدة عن الإمارات التركمانية القوية في جنوبي الأناضول وجنوبه الغربي، والتي قامت على أنقاض سلطنة سلاجقة الروم.

الثانية: أن إمارة طغرل هذه كانت الإمارة التركية الوحيدة التي شكَّلت رباطاً يواجه المناطق البيزنطية التي لم تُفتح بعد.

وهذا الوضع الخاص للإمارة جلب إليها أعداداً وفيرة من التركمان الطامعين في الغزو والجهاد، والمزارعين الهاربين من وجه المغول، والدراويش الباحثين عن المريدين[٢].

واكتسب طغرل لقب غازي نتيجة غزواته المستمرة ضد البيزنطيين، واستطاع أن يوسع أراضيه خلال مدة نصف قرن[٣]، وتوفي في عام (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م)[٤].

عثمان الأَول

٦٨٧ ـ ٧٢٦هـ/١٢٨٨ ـ ١٣٢٦م

خلف عثمان أباه طغرل في عام (٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م) ليؤسِّس الدولة التي حملت اسمه، وتحدَّد في عهده الوضع الديني والعسكري والسياسي للأَتراك العثمانيين.

كافح عثمان على الجبهة البيزنطية، ليوسع إمارته على حساب البيزنطيين، ففتح قلعة قره جه حصار في عام (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)، وجعلها قاعدة له، وأمر بإقامة الخطبة باسمه[٥]، كما فتح في عام (٧٠٠هـ/ ١٣٠١م) مدينة يني شهر، واتخذها عاصمة له[٦]، فحصَّنها، وانطلق منها في حملات دورية ضد القلاع البيزنطية المعزولة في آسيا الصغرى، ففتح بعضها مثل لفكة، آق حصار، وقوج حصار[٧]، وفتح جزيرة كالوليمني الواقعة على بحر مرمرة، وقلعة تريكوكا الواقعة بين بروسة

---

(١) كوبرولي: المرجع نفسه ص ١٢٢.

(٢) كولز، بول: العثمانيون في أوروبا ص ٢٦.

(٣) Camb. Med. Hist. IV p 655.

(٤) سعد الدين: جـ١ ص ١٥، ٦٥.

(٥) Inalçik, H: The Ottoman Empire p 6. Camb. Med. Hist. IV p 651.

(٦) القرماني، أَحمد: تاريخ سلاطين آل عثمان: ص ١١.

(٧) المصدر نفسه.

ونيقية، فأمَّن سيطرته على الطريق المائي الموصل بين بروسة والقسطنطينية، وأشرف على طرق المواصلات بين نيقية ونيقوميدية[١]، ثم ركَّز جهوده على المدن، ففتح ابنه أورخان مدينة بروسة في عام (٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م)[٢]، وأسرع أورخان إلى سكود لينقل الخبر إلى والده الذي ما لبث أن توفي.

تمثَّلت عبقرية عثمان في كونه وضع أُسس دولة استوحى نظمها من الدولة السلجوقية الرومية، سواء فيما يتعلَّق بالتقاليد، أَو بالتنظيمات، أَو بالحضارة الموروثة عن العالم الإسلامي.

أورخان

٧٢٦ ـ ٧٦١هـ/ ١٣٢٦ ـ ١٣٦٠م

خلف أورخان أباه عثمان، فورث عنه دولة ليست لها قوانين أَو عملة أَو حدود واضحة، يحيط بها جيران أقوى منها، فكان عليه أن يقيم دولة راسخة الأقدام، وأن يتوسع على حساب جيرانه، ويحوِّل أتباعه إلى أمة[٣].

التفت أورخان في بداية حكمه إلى سن القوانين، وإحداث التنظيمات الضرورية لحماية إمارته، فاهتم أولاً بإعادة تنظيم الجيش الذي يشكِّل عماد الدولة. فأسَّس الجيش الإنكشاري، وخصَّ فرقه بامتيازات مهمة، وأضحى هذا الجيش على مر الزمن جيشاً محترفاً أدَّى دوراً كبيراً في توسيع رقعة الدولة العثمانية، ثم نقل العاصمة إلى مدينة بروسة[٤].

وتوسع أُورخان في آسيا الصغرى وفي أوروبا. ففي آسيا الصغرى فتح شبه جزيرة بيثينية الواقعة في أقصى الشمال[٥]، وقلعتي سمندرة وأبيدوس المحصنتين[٦]، ونيقوميدية، وسقطت نيقية بيد الأمير سليمان بن أُورخان[٧]. وفتح العثمانيون قلاع كوينيك، ومودرينة، وتركجي[٨]، وضمَّ أُورخان إمارة قراسي التركمانية[٩]. ونتيجة

---

(١) Gibbons, H. A: The Foundation of the Ottoman Empire 1300-1403 p 34.

(٢) سعد الدين، محمَّد: تاج التواريخ جـ ١ ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٣) مصطفى، أحمد عبد الرحيم: في أصول التاريخ العثماني ص ٣٨.

(٤) Gibbons: pp 55-56.

(٥) Camb Med Hist. Byzantine Empire vol IV, prt I p 759.

(٦) حليم، إبراهيم بك: تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ٣٦.

(٧) سعد الدين: جـ ١ ص ٤٢ ـ ٤٣. Gibbons: pp 59-60.

(٨) سعد الدين: جـ ١ ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٩) المصدر نفسه: ص ٤٨.

لهذه الفتوحات تقلَّصت الممتلكات البيزنطية في آسيا الصغرى، وغدا العثمانيون يتحكَّمون في مضيق الدردنيل.

أما في أوروبا، فقد استغل أُورخان الصراغ الداخلي على العرش البيزنطي فأرسل قوة عسكرية بقيادة ابنه سليمان فتحت عدة قلاع مهمة منها: جنك، وغاليبولي الاستراتيجية الواقعة على شاطىء الدردنيل، وأبسالا، ورودستو، ونزلت في إقليم تراقية(١).

وتوقفت الفتوح بعد ذلك بسبب وفاة كل من سليمان في عام (٧٥٩هـ/ ١٣٥٨م)، وأُورخان في عام (٧٦١هـ/ ١٣٦٠م)(٢).

إن قيمة أُورخان هو أنه شهد أول استقرار إسلامي في أوروبا من جهة البلقان، وظهور نظام عسكري جديد سيلقي الرعب في قلوب الشعوب الأوروبية لمدة أربعة قرون متتالية، وبروز الإمارة العثمانية التي أصبحت تمتد من أنقرة إلى تراقية، وأرسى قواعد الدولة بتنظيماته الاقتصادية والاجتماعية، وأسَّس أول دار لضرب النقود، ووضع القوانين التي تنظِّم ارتداء الملابس، وتُميز طبقات الشعب، وأصحاب المناصب(٣).

مراد الأول

٧٦١ ـ ٧٩١هـ/ ١٣٦٠ ـ ١٣٨٩م

خلف مراد الأول أباه أُورخان ليواجه أعداء دولته في اتجاهين متباعدين. ففي الأناضول، ضمَّ إمارة القرمان القوية ودخل عاصمتها أنقرة، وإمارة كرميان، وإقليم الحميد، وإمارة تكة(٤).

وفي أُوروبا، توسع في إقليم تراقية، وضمَّ مدينة أدرنة المهمة في عام (٧٦٣هـ/ ١٣٦٢م) وجعلها عاصمة للدولة(٥). لم يعد بوسع الأمبراطورية البيزنطية بعد هذه الأحداث أن تقاوم العثمانيين منفردة، لذلك اعترف الأمبراطور يوحنا باليولوغوس بسيطرتهم على تراقية، ودفع لهم الجزية(٦). وبذلك تمَّ فصل

---

(١) سعد الدين: جـ ١ ص ٥٥. Inalçik: p 9.

(٢) القرماني: ص ١٣ ـ ١٤. أوزتونا، يلماز: تاريخ الدولة العثمانية جـ ١ ص ٩٦.

(٣) سعد الدين: جـ ١ ص ٣٨ ـ ٣٩. Inalçik p 8.

(٤) فريد بك، محمد: تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٢٩.
Wittek, p: The Rise of the Ottoman Empire p 44.

(٥) حليم: ص ٤٠. Pitcher, D. E: A Historical Geography of the Ottoman Empire p 42.

(٦) Vasiliev, A. A: History of the Byzantine Empire II p 624.

القسطنطينية عن الأقاليم البيزنطية الغربية في أوروبا، وأضحت هذه المدينة محاطة بالأراضي العثمانية من الجانب الأوروبي. والحقيقة أن فتح أدِرنة، واتخاذها عاصمة للدولة أمَّن المركز المسيطر إدارياً وعسكرياً على تراقية. فهي القلعة الرئيسية بين القسطنطينية والدانوب، وتتحكَّم بطريق الحملات العسكرية عبر جبال البلقان، وتكفل قدرة الاحتفاظ بالفتوح في أوروبا، كما تؤمِّن وسيلة التوسع نحو الشمال(١).

آل هذا النمو والانتشار العثماني إلى قيام تحالف جديد بين القوى النصرانية في البلقان، وترأس أوروك الخامس الصربي قوى التحالف، وسار بهم باتجاه مدينة أدِرنة لاستعادتها، لكنه مني بهزيمة قاسية على يد الجيش العثماني في شيرمن عند نهر ماريتزا في عام (٧٦٥هـ/ ١٣٦٤م)(٢).

ونتيجة لهذه المعركة فقدت الصرب ممتلكاتها في مقدونيا وساحل دلماشيا، ودخل أمراء الصرب والبلغار في طاعة الدولة العثمانية. ثم تقدم مراد الأول باتجاه غرب البلقان وفتح مدائن موناستير، وبرلبة، وأستيب، وصوفيا، وتورنوڤو، وشومن، ونيش(٣)، كما فتح سالونيك، وأسر سيسمان ملك البلغار، وضمَّ نصف بلاده(٤).

شكَّل هذا التقدم والانتشار تهديداً مباشراً لدولة الصرب التي كان يتولى أمرها آنذاك الأمير لازار، فخشي على نفسه، فنقض عهد التبعية للعثمانيين، وتصدَّى لهم في إقليم البوسنة. وجرت بين الطرفين رحى معركة ضارية عند كوسوڤو في (شهر جمادى الآخرة عام ٧٩١هـ/ شهر حزيران عام ١٣٨٩م)، انتهت بانتصار العثمانيين. وأثناء تفقد السلطان للجرحى في أرض المعركة، انقضَّ عليه جندي صربي وطعنه بخنجره طعنة قاتلة(٥).

تكمن أهمية السلطان مراد الأول في أنه تمكَّن من مد حدود الدولة العثمانية إلى شواطىء نهر الدانوب وجهات البوسنة في عمق أوروبا الشرقية، وتمَّ في عهده تحديد لون وشكل العلم العثماني، ويُعدُّ عهده نقطة تحول فاصلة في الحلقة التاريخية للانتقال إلى طور الدولة(٦).

---

(١) Shaw, S. J: History of the Ottoman Empire and Modern Turkey I pp 17-18.

(٢) فريد بك: ص ١٣٠ ـ ١٣١. Gibbons: p 121.

(٣) القرماني: ص ١٦، حليم: ص ٤١. Vasiliev: II p 624.

(٤) Gibbons: p 172. Shaw: I p 20.

(٥) Gibbons: pp 174-178. Shaw: p 21. pitcher: p 46.

(٦) أوزتونا: جـ ١ ص ١٠١. سرهنك: الميرالاي إسماعيل: تاريخ الدولة العثمانية ص ٢١. Shaw: I p 17.

بايزيد الأول

٧٩١ ـ ٨٠٥هـ/ ١٣٨٩ ـ ١٤٠٣م

تولى بايزيد الأول الحكم بعد وفاة والده مراد الأوَل، فاستغل النصر الذي حقَّقه الجيش العثماني في كوسوفو، وأخضع الصربيين وأجبرهم على دفع الجزية[١]. ثم تطلع لفتح القسطنطينية، فضمَّ مدينة آلاشهر آخر ممتلكات البيزنطيين في آسيا الصغرى[٢]، كما ضمَّ الإمارات التركمانية فيها وهي آيدين، ومنتشا، وصاروخان، وقرمان، وسيواس، وتوقات، وقسطموني[٣]، وأضحى العثمانيون يسيطرون على مجمل منطقة آسيا الصغرى، ولجأ كوتورم بايزيد، أمير قسطموني، إلى القائد المغولي تيمورلنك[٤].

واعتقد البلغار أنهم أضحوا ورثة الأمبراطورية البيزنطية، فهاجموا مدينة نيقوبوليس الواقعة على نهر الدانوب في عام (٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م)، كان بايزيد الأول آنذاك يحاصر القسطنطينية، ففكَّ الحصار عنها، وتوجه لمقابلة البلغاريين، فتغلَّب عليهم وسيطر على بلغاريا التي أضحت ولاية عثمانية[٥].

انزعج سيجسموند ملك المجر نتيجة التقدم الذي أحرزه بايزيد الأول، وخشي أن يحل ببلاده ما حلَّ ببلغاريا بعد أن تاخمت حدودها مناطق السيطرة العثمانية، فاستعان بالأمبراطورية البيزنطية والغرب الأوروبي، واصطدمت قوى التحالف بالعثمانيين عند مدينة نيقوبوليس، لكنها خسرت المعركة[٦].

كان من بين نتائج هذه المعركة أن فُتحت الطريق إلى أوروبا أمام العثمانيين، وتخلَّت الأمبراطورية البيزنطية عن آمالها بطرد الأتراك من أوروبا، واعترف الأوروبيون بظهور دولة إسلامية جديدة في آسيا الصغرى.

وأخضع بايزيد الأول إقليم المورة، وجدَّد حصاره للقسطنطينية، إلَّا أنه اضطر لفك الحصار عنها ليواجه هذه المرة، عدواً من نوع آخر هو تيمورلنك، الفاتح من الطراز المغولي الذي سيطر على بلاد المشرق، وسعى إلى أن يستعيد كامل التراث الذي خلَّفه جنكيزخان، فزحف باتجاه غربي آسيا، ووصل إلى أبواب الأناضول.

---

(١) Pitcher: pp 47-48.
(٢) فريد بك: ص ١٣٧.
(٣) سعد الدين: جـ ١ ص ١٣١ ـ ١٣٢.
(٤) المصدر نفسه: جـ ١ ص ١٣٥ ـ ١٣٦.
(٥) فريد بك: ص ١٤٠. رستم، أسد: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم جـ ٢ ص ٢٥٥.
Gibbons: pp 194-195.
(٦) Ibid: pp 215-224. Camb. Med. Hist IV p 676.

وتجاه التباين في وجهات النظر السياسية بين العاهلين، كان لا بد من الصدام، وحصل اللقاء الرهيب في سهل أنقرة في (شهر ذي الحجة عام ٨٠٤هـ/ شهر تموز عام ١٤٠٢م)، وأسفر عن انتصار تيمورلنك، ووقع بايزيد الأول في الأسر، وتفرّق أولاده[١].

والواقع أن المعركة على الرغم من قساوتها لم تكن الضربة القاضية، وقد وقعت في وقت كانت فيه الدولة العثمانية لا تزال في دور التكوين والفتوة، مما أعطاها القدرة على تلقي الضربة وامتصاصها، ثم معاودة النهوض، كما شكّل عدم اكتراث تيمورلنك الجدّي بالأناضول أو بإسقاط الدولة العثمانية عاملاً جوهرياً في الإبقاء عليها، وفي قدرتها من بعد على الظهور قوية رغم المتاعب الداخلية الشديدة التي ألمّت بها.

محمَّد شلبي: محمَّد الأول

٨١٦ ـ ٨٢٤هـ/ ١٤١٣ ـ ١٤٢١م

أتاحت وفاة تيمورلنك وتفكُّك دولته فرصة أخرى للعثمانيين للتخلص من آثار الضربات التي أنزلها بها الغازي التيموري. وقام النزاع بين أبناء بايزيد الأول حول الحكم استمرَّ أحد عشر عاماً (٨٠٥ ـ ٨١٦هـ/ ١٤٠٢ ـ ١٤١٣م) ظهرت خلالها معالم تمزق الدولة، حتى انفرد محمَّد شلبي بالحكم ليعيد تنظيم الدولة بعد فجوة السبات، ويبدأ الانطلاقة في النمو من جديد. ويُعدُّ هذا السلطان بمثابة نوح الذي حافظ على سفينة الدولة حين هدَّدها طوفان الغزوات التترية، والممهد الفعلي لنمو الدولة على يد خليفتيه ابنه مراد الثاني وحفيده محمَّد الثاني[٢].

مراد الثاني

٨٢٤ ـ ٨٥٥هـ/ ١٤٢١ ـ ١٤٥١م

خلف مراد الثاني أباه محمَّد الأول[٣]، وكان معنياً بإعداد الدولة للمهام الكبرى التي كانت مسؤولة عنها قبل نكسة أنقرة، فاهتم بإعادة تنظيم الجيش، وتقوية الاقتصاد ليواجه أوروبا المتوثبة ضده. ونجح في استرداد جميع ما كان قد فصله تيمورلنك من أقاليم عن الدولة العثمانية في آسيا الصغرى مثل قسطموني، وآيدين، وصاروخان، ومنتشا، وكرميان، وأضحى بوسعه التفرغ لأوروبا.

---

(١) ابن عربشاه، أبو العباس شهاب الدين أحمد: عجائب المقدور في نوائب تيمور ص٣٢٨ ـ ٣٣٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ ١٢ ص ٢٦٨.

(٢) Creasy, E. S: History of Ottoman Turks p 54. (٣) القرماني: ص ٢٢.

وأراد مراد الثاني أن يتوسع باتجاه الشمال، فتصدَّت له القوات المجرية التي شكَّلت خط المواجهة الأول ضد الزحف العثماني باتجاه القارة، بقيادة قائد صلب العود هو يوحنا هونيادي، لكن مراداً الثاني استطاع التغلب عليه، وأجبره على توقيع معاهدة تقضي بالتخلي عن البلاد الواقعة على الشاطىء الأيمن لنهر الدانوب، بحيث يكون هذا النهر حداً فاصلاً بين أملاك العثمانيين والمجر[1]. وأذعن جورج برانكوفيتش، ملك الصرب، بعد أن أدرك أنه لا قِبَل له بمقاومة القوات العثمانية، وقَبِلَ أن يدفع جزية سنوية للسلطان. وتنازل الأمبراطور البيزنطي يوحنا الثامن عن جميع القلاع الباقية تحت السيطرة البيزنطية على شواطىء البحر الأسود، وسواحل الروملّلي[2]. وفتح العثمانيون سالونيك، وألبانيا، ورضي أمير الأفلاق بدفع الجزية[3].

هال هذا التقدم العثماني الأمبراطور البيزنطي، فاستنجد بالغرب الأوروبي الذي شكَّل حملة صليبية ترأسها هونيادي ولاديسلاس ملك المجر. واصطدمت قوى التحالف بالجيش العثماني في مدينة نيش في (شهر شوال عام ٨٤٦هـ/ شهر شباط عام ١٤٤٣م) وتغلبت عليه، وواصلت تقدمها عبر البلقان، وبات الطريق مفتوحاً أمامها إلى أدِرنة، لكنها توقفت فجأة عن الزحف ربما لصعوبات طبيعية بفعل تراكم الثلوج في الممرات الجبلية، وسياسية نظراً لتعدُّد القيادات في الجيش الصليبي[4].

تكمن أهمية هذا الانتصار في أنه نفخ روح الحماس الديني في أوروبا، وأجبر السلطان مراد الثاني على طلب الصلح الذي تنازل بموجبه عن سيادته على الأفلاق، وأعاد بعض القلاع إلى الصرب، ووافق على أن يوقف حملاته شمال نهر الدانوب[4].

ويبدو أن القيادات النصرانية طمعت في استغلال ضعف العثمانيين، فنقضت الهدنة، وتشكَّل تحالف أوروبي جديد هدفه إخراج العثمانيين من أوروبا، فترأس مراد الثاني جيشاً عثمانياً تقدم به باتجاه العدو. وحصل اللقاء في ڤارنا الواقعة على شاطىء البحر الأسود في (شهر شعبان عام ٨٤٨هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١٤٤٤م)،

---

(١) فريد بك: ص ١٥٤.
(٢) سرهنك: ص ٣٣.
(٣) أوزتونا: جـ ١ ص ١٢٢. فريد بك: ص ١٥٥.
(٤) فريد بك: ص ١٥٧. Shaw: I p 51. Camb. Med. Hist. IV p691.

وأسفر عن انتصار واضح للسلطان[١]. وظل هونيادي يأمل بتحقيق انتصار ما على العثمانيين، فتوغل في بلاد الصرب، ورفض الصربيون التعاون معه هذه المرة، فتصدى له السلطان في سهل كوسوڤو في (شهر شعبان عام ٨٥٢هـ/ شهر تشرين الأول عام ١٤٤٨م) وانتصر عليه. كان من بين نتائج المعركة عودة البلقان إلى الحكم العثماني. وتوفي السلطان مراد الثاني في (شهر محرم عام ٨٥٥هـ/ شهر شباط عام ١٤٥١م)[٢].

محمَّد الثاني: الفاتح

٨٥٥ ـ ٨٨٦هـ/ ١٤٥١ ـ ١٤٨١م

خلف السلطان محمَّد الثاني أباه السلطان مراداً الثاني في ظل أوضاع سياسية غير متجانسة، وورث عنه دولة كانت لا تزال منقسمة إلى قسمين: الأناضول الذي أضحى بلاداً إسلامية اندمجت في حضارة الإسلام، والروملّلي التي فُتحت حديثاً ولا تزال منطقة ثغور، فكان عليه إيجاد صلة بين القسمين، وقد شكلت القسطنطينية هذه الصلة[٣]. بالإضافة إلى ذلك، فقد أدرك هذا السلطان أن فتح العاصمة البيزنطية يُعدُّ خطوة ضرورية لفتح باقي المعاقل التي لا تزال خارج إطار السيطرة العثمانية، وأن بقاءها في أيدي البيزنطيين من شأنه أن يهدِّد المواصلات بين أملاكهم الآسيوية والأوروبية، فضلاً عما يتضمنه من مغزى ديني كبير، لذلك ركَّز جهوده في بداية حياته السياسية على فتحها، وتصرَّف على محورين سياسي وعسكري، فعقد المعاهدات مع بعض القوى الأوروبية الفاعلة لتأمين حيادها[٤]، وتجهَّز عسكرياً تمهيداً لخوض عمليات الفتح، وفعلاً لم تتلقَّ بيزنطية أية مساعدات خارجية إلَّا من جنوة. أما البابا نيقولا الخامس فقد اشترط لقاء تأييده للأمبراطور اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية، غير أن تعصب الشعب قضى على هذا المشروع على الرغم من أن قسطنطين الحادي عشر كان مستعداً للقيام بهذه التضحية[٥].

(١) Diehl: Europe Orientale pp 365-366. Temperley H: Hisory of Serbia p 105.

(٢) أوزتونا: جـ ١ ص ١٢٨ ـ ١٢٩. سرهنك: ص ٣٨.

(٣) لويس، برنارد: إستانبول وحضارة الأمبراطورية البيزنطية ص ٣٦ .

(٤) الرشيدي، سالم: محمَّد الفاتح ص ٨٧. حليم: ص ٦٤. رستم: جـ ٢ ص ٢٨٨. Diehl: p 370 .

(٥) Kritovoulos: History of Mehmed the Conqueror pp 36, 39-41. Babinger, F: Mohomed II, pp 103, 108.

وحاصرت القوات العثمانية العاصمة البيزنطية براً وضربتها بالمدافع، لكن الأسوار صمدت. ولم يحسم الوضع العسكري إلَّا بعد أن أنزل العثمانيون سفناً حربية إلى داخل الميناء عن طريق البر في خطوة عُدَّت فذَّة، ودلَّت على عبقرية السلطان. ونتيجة للضرب المتواصل على الأسوار، فُتحت ثغرة اندفعت عبرها القوات العثمانية إلى داخل المدينة في (٢٠ جمادى الأولى عام ٨٥٧هـ/ ٢٩ أيار عام ١٤٥٣م) وجرى قتال في الشوارع قُتل خلاله الأمبراطور، وسيطرت القوات العثمانية على المدينة، ثم دخلها السلطان في اليوم التالي، وأصدر أمره إلى قواته بوقف القتال، وقرَّر أن يتخذها عاصمة لدولته، فاستبدل اسمها باسم إستانبول، ومعناها دار الإسلام[١]، واستحق عن جدارة لقب الفاتح.

كانت الخطوة التالية في سياسة السلطان محمَّد الفاتح، التمكين لسلطته في شمالي شبه الجزيرة البلقانية ليواجه المجر التي أثبتت خلال العهود السابقة أنها العقبة الرئيسية أمام التوسع العثماني في أوروبا، فتوغل في بلاد الصرب وفتح عدة مدن، واستعصت عليه بلغراد، كما فتح بلاد المورة، والأفلاق في شمال نهر الدانوب، والبوسنة والهرسك[٢].

تحوَّل الفاتح بعد ذلك إلى آسيا الصغرى، إذ تزعَّمت مملكة طرابزون حركة معادية، فتبنَّى حاكمها يوحنا الرابع فكرة إخراج العثمانيين من آسيا الصغرى كلها، وأغرى بعض الأمراء المجاورين له بمساندته، وهم أمراء سينوب والقرمان والكرج والأرمن، كما استمال الزعيم التركماني الطموح أوزون حسن، زعيم الآق قوينلو في ديار بكر، وقد جمع هؤلاء الحقد على الدولة العثمانية، وساندته مدينة أماستريس المستعمرة الجنوية في آسيا الصغرى.

والواقع أن الفاتح نجح في ضرب أعدائه وتغلب عليهم وسقطت مدنهم في يده، وبذلك زالت مملكة طرابزون آخر الممتلكات اليونانية في آسيا الصغرى[٣].

ترك نشاط الفاتح في المورة أسوأ الأثر في علاقاته مع البندقية حيث كان للبنادقة مراكز تجارية هامة، وخشوا أن تعرقل الدولة العثمانية النامية تجارتهم أو تقطع سبل مواصلاتهم، لذلك دخلوا في حرب طويلة معها. تركَّزت الجولة الأولى

---

(١) زادة، عاشق باشا: عاشق باشا زادة تاريخي ص ١٤٢ ـ ١٤٣. القرماني: ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) سعد الدين: جـ ١ ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥، ٤٩١ ـ ٤٩٢. زادة، صولاق: تاريخ صولاق زادة ص ٢١٦، ٢٢٦ ـ ٢٢٨. عاشق زادة: ص ١٤٩ ـ ١٥١. Kritovoulos pp 111-116, 150-158.

(٣) الرشيدي: ص ٢٣٥. عاشق زادة: ص ١٥٣ ـ ١٥٤. Kritovoulos: pp 165-167.

منها في شبه جزيرة المورة، وحقَّق العثمانيون انتصارات باهرة، فدخلوا مدينة إسبرطة، وفتحوا حصن آرغوس[١].

نتيجة لهذه الخسائر التي منيت بها البندقية، قرَّرت أن تستند على فكرة الحرب من الشرق والغرب في الوقت نفسه، ورأت في إمارة الآق قوينلو خير حليف. وقد أبدى الزعيم التركماني استعداداً لمهاجمة العثمانيين من الشرق، وهو يتحرَّق غيظاً من السلطان الفاتح الذي قضى على إمارة طرابزون التي تشده إليها روابط عائلية[٢]، بالإضافة إلى أنه قضى على الإمارة القرمانية مما أحدث خللاً في التوازن في المنطقة. وكانت المصالح التجارية دافعاً قوياً لأوزون حسن للاصطدام بالعثمانيين. ذلك أن طرابزون كانت منفذاً للتجارة الإيرانية، ومرتبطة تجارياً بعاصمته تبريز، والامتداد العثماني في الشرق سوف يقضي على مصالحه التجارية.

واتفق الطرفان على إخراج العثمانيين من أوروبا، وحصرهم في منطقة ضيقة في الأناضول، واقتسام أراضيهم، وإعادة إحياء الدولة البيزنطية.

وعلم السلطان العثماني بإجراءات الاتفاق الذي أقيم ضده، فتحرَّك بسرعة لإحباطه، فهاجم جزيرة أكريبوز، مركز مستعمرات البندقية في البحر الأبيض المتوسط، وفتحها في عام (٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م)[٣]، ودخلت جيوشه عدة جزر أخرى، فحقَّق بذلك سيطرة تامة على سواحل البحر الأبيض المتوسط، وأضحت الشواطىء الإيطالية مفتوحة أمامه.

وتحرك أوزون حسن في عام (٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م) من ديار بكر باتجاه الأراضي العثمانية، فتصدى له السلطان في مرتفعات أوتلق بلي شمال شرقي أرزنجان وانتصر عليه[٤]، ثم التفت إلى الجبهة الغربية مجدداً، فاجتازت جيوشه نهر الدانوب وأغارت على الأراضي المجرية، كما قامت بعمليات ناجحة ضد ممتلكات البندقية في ألبانيا، واستولت على الفريول، وخرَّبت سهل البندقية والجانب الشرقي من إيطاليا، ودخلت النمسا، وفتحت زغرب[٥].

اضطرت البندقية تحت ضغط الأحداث العسكرية إلى الدخول في مفاوضات

(١) الرشيدي: ص ٢٧٩ ـ ٢٨٥. ڤاتان، نيقولا: صعود العثمانيين، وهو الفصل الثالث من كتاب تاريخ الدولة العثمانية، بإشراف روبرت مانتران: جـ ١ ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٢) أورزتونا: جـ ١ ص ١٥٥. Kritovoulos: p 169. (٣) عاشق زادة:ص ١٧٠ ـ ١٧١.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٨٠، ٢٣٩ ـ ٢٤٠. أورزتونا: جـ ١ ص ١٦٣ ـ ١٦٦.

(٥) الرشيدي: ص ٣٣٤ ـ ٣٣٦.

بشأن الصلح الذي انعقد في (أواخر عام ٨٨٣هـ/ أوائل عام ١٤٧٩م)، تنازلت البندقية بموجبه عن جميع ممتلكاتها في ألبانيا بالإضافة إلى جزيرتي لمنوس وآرغوس، وجزء من المورة، وتدفع غرامة حربية وجزية سنوية[١].

التفت السلطان بعد ذلك إلى الشمال، ففتح بلاد القرم[٢]، ثم اتجه نحو الجزر الواقعة بين اليونان وإيطاليا بهدف السيطرة عليها والتمدد نحو إيطاليا نفسها، وتمكَّن في عام (٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م) من فتح زنطا وكورفو وسان موري وكفالونيا[٣]، ونزلت جيوشه في أوترانتو، وأرسل أسطولاً بحرياً لفتح جزيرة رودس.

والواقع أنه لم يرد العثمانيين عن إيطاليا سوى وفاة السلطان الفاتح في (شهر ربيع الأول عام ٨٨٦هـ/ شهر أيار عام ١٤٨١م).

تساوت عبقرية السلطان محمَّد الفاتح في التنظيم المدني مع خبرته في الأعمال العسكرية. فقد نظَّم الأوضاع الحكومية، وأطلق على الحكومة اسم الباب العالي، ورتَّب وظائف الجند، والقضاء، ووضع مبادىء القانون المدني، وقانون العقوبات، وبنى المساجد والمكاتب والمدارس والخانات والمستشفيات والحمامات والأسواق والحدائق العامة.

بايزيد الثاني

٨٨٦ ـ ٩١٨هـ/ ١٤٨١ ـ ١٥١٢م

عانت الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان محمَّد الفاتح من الحرب الأهلية، مرة أخرى. ويبدو أنه أوصى بخلافته إلى ابنه الأصغر جم الذي وجد سنداً له في الصدر الأعظم قرماني محمَّد باشا، في حين تعاطفت قطاعات معينة ومنها الجيش مع أخيه بايزيد. وأخيراً فرضت الإنكشارية مرشحها بايزيد، فتسلم الحكم في العاصمة، في حين قبع جم في بروسة، وأعلن نفسه سلطاناً، وعرض على أخيه أن يقتسما الدولة[٤].

رفض بايزيد عرض أخيه وهاجمه في بروسة، ففرَّ جم إلى القاهرة ليؤلب المماليك على أخيه، لكنه فشل في ذلك، فيمَّم وجهه شطر رودس في محاولة للاستعانة بفرسان القديس يوحنا، إلَّا أنه فشل مرة أخرى، وسلمه هؤلاء إلى البابا الذي اضطر أن يسلمه بدوره إلى ملك فرنسا الذي كان يحاصر آنذاك روما، إلَّا أن

(١) الرشيدي: ص ٣٤٤.
(٢) سعد الدين: جـ ١ ص ٥٥٥ ـ ٥٥٧.
(٣) Babinger: pp 468-470, 478.
(٤) سعد الدين: جـ ٢ ص ٩ ـ ١٠. عاشق زادة: ص ٢٢٠.

البابا دسَّ له السم قبل تسليمه، فتوفي في مدينة نابولي في عام (٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م)[١].

لم يكن السلطان بايزيد الثاني ميالاً للحرب، واشتهر بحبه للعلوم والآداب، لكن سياسة الدولة دعته إلى الالتفات نحو الحرب بفعل سياسة جيرانه العدوانية. فقد حدثت في عام (٨٩٦هـ/ ١٤٩١م) عدة اشتباكات مع المماليك على الحدود الشرقية الجنوبية انتهت إلى الصلح بعد تدخل باي تونس[٢]. وتهدَّد دولته خطر جديد في الشرق تمثَّل بقوة الدولة الصفوية النامية بزعامة الشاه إسماعيل الشيعي المذهب. أما على الجانب الأوروبي، فقد فتح العثمانيون عدة ثغور تابعة للبندقية على البحر الأدرياتيكي وفي اليونان، واضطروها إلى طلب الصلح[٣]، لكنهم فشلوا في فتح بلغراد[٤].

تميزت أيام السلطان بايزيد الثاني الأخيرة بالصراع الذي نشب بين أبنائه المتنازعين على العرش وهم أَحمد، وقورقود، وسليم الذي كتبت له الغلبة النهائية بفعل مساندة الإنكشارية له، وتمكَّن من تنحية والده عن العرش، وجلس مكانه وذلك في (شهر صفر عام ٩١٨هـ/ شهر نيسان عام ١٥١٢م)، وانسحب السلطان بايزيد الثاني من الحياة العامة للإقامة في بلدة ديموتيكا في ولاية أدِرنة، لكنه توفي في الطريق[٥].

مرحلة القوة والتوسع

٩١٨ ـ ١٠٠٣هـ/ ١٥١٢ ـ ١٥٩٥م

سليم الأول

٩١٨ ـ ٩٢٦هـ/ ١٥١٢ ـ ١٥٢٠م

العلاقة مع الصفويين

كانت فاتحة أعمال السلطان سليم الأول، قضاؤه على أخويه أَحمد وقورقود[٦]، ثم التفت إلى التصدي للخطر الزاحف من الشرق، وأعني به الخطر الصفوي. والواقع أنه حدث انقلاب في استراتيجية العثمانيين في عهده بتوقف الزحف باتجاه الغرب. وقد بدأ هذا التحول مع بداية المدِّ الشيعي باتجاه الأراضي

---

(١) سعد الدين: جـ ٢ ص ٤٠.

(٢) فريد بك: ص ١٨٢ ـ ١٨٣. أوزتونا: جـ ١ ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٣) الصباغ، ليلى: الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر جـ ١ ص ٩٠ ـ ٩١.

(٤) حليم: ص ٧٢.

(٥) سرهنك: ص ٦٣. أوزتونا: جـ ١ ص ٢١٠.

(٦) سعد الدين: جـ ٢ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦. صولاق زادة: ص ٣٥٢ ـ ٣٥٨.

العثمانية، وتوثُّب المماليك للقضاء على الدولة العثمانية الناشئة. ونتيجة لذلك قامت سياسة هذا السلطان على قاعدتين: السيطرة على طرق التجارة بين الشرق والغرب، والتوسع على حساب القوى في المشرق، لذلك عقد معاهدات سلام مع القوى الأوروبية ليتفرغ لمشكلاته الشرقية، فتصدى أولاً للخطر الصفوي.

والواقع أن الشاه إسماعيل سيطر على العراق وتطلع للزحف نحو الأناضول مدفوعاً بعوامل مذهبية بهدف نشر المذهب الشيعي بين الأتراك، وسياسية بهدف القضاء على الدولة العثمانية ووراثتها، واقتصادية بفعل الاستفادة من خصب المنطقة والسيطرة على طريق التجارة الشرقية.

كان السلطان سليم الأول شديد الحساسية لهذا التحول الشيعي، لذلك لم يتوان عن شن الهجمات ضد الشيعة في بلاده، مما جعله أمل القيادات العسكرية لوقف التمدد الشيعي. وفعلاً لم يخيِّب السلطان أمل هذه القيادات، فزحف باتجاه إيران، والتقى بالشاه في معركة رهيبة في تشالديران، شرقي تبريز في (شهر رجب عام ٩٢٠هـ/ شهر آب عام ١٥١٤م) وانتصر عليه، ودخل عاصمته تبريز[١]، وسيطر على الأناضول الشرقية والجنوبية باستثناء القسم الواقع تحت السيطرة المملوكية.

العلاقة مع المماليك

الحقيقة أن علاقة الدولة العثمانية بالدولة المملوكية كانت، حتى عام (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م)، علاقة مجاملة ومؤازرة، لكن الأوضاع تبدلت بعد ذلك. ففي هذه المرحلة كانت الدولة العثمانية قد توسعت في الأناضول والجزيرة شمالاً حتى البحر الأبيض المتوسط وجبال طوروس جنوباً، وفي الوقت نفسه، كانت دولة المماليك قد سيطرت على كيليكية. وبدأ المماليك يقابلون بشيء من الفتور تنامي العلاقات بين الدولتين، بعدما شعروا بتعاظم شعبية العثمانيين بين المسلمين، كما لاحظوا بقلق شديد، مساعي العثمانيين لتغيير نظام العلاقات بين الدولتين بعد أن أخذ البكوات حماة الحدود يتلقَّبون بألقاب السلاطين. وقد أدَّت هذه السياسة إلى تدهور حاد في العلاقات بينهما، ثم أضحى الصراع على زعامة العالم الإسلامي السبب الأساسي والرئيسي للنزاع العثماني ـ المملوكي.

كان انتصار السلطان سليم الأول على الشاه في معركة تشالديران مفاجأة غير

---

(١) صولاق زادة: ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠. أوزتونا: جـ ١ ص ٢١٥ ـ ٢١٩.

متوقعة للمماليك، بل هزيمة معنوية قاسية. وأدرك السلطان قانصوه الغوري أن المنتصر من الجانبين سيعمل على تصفية الموقف في المشرق العربي لصالحه بالاصطدام بالمماليك، لذلك التزم جانب الحياد واكتفى بإرسال قوة مراقبة إلى حلب.

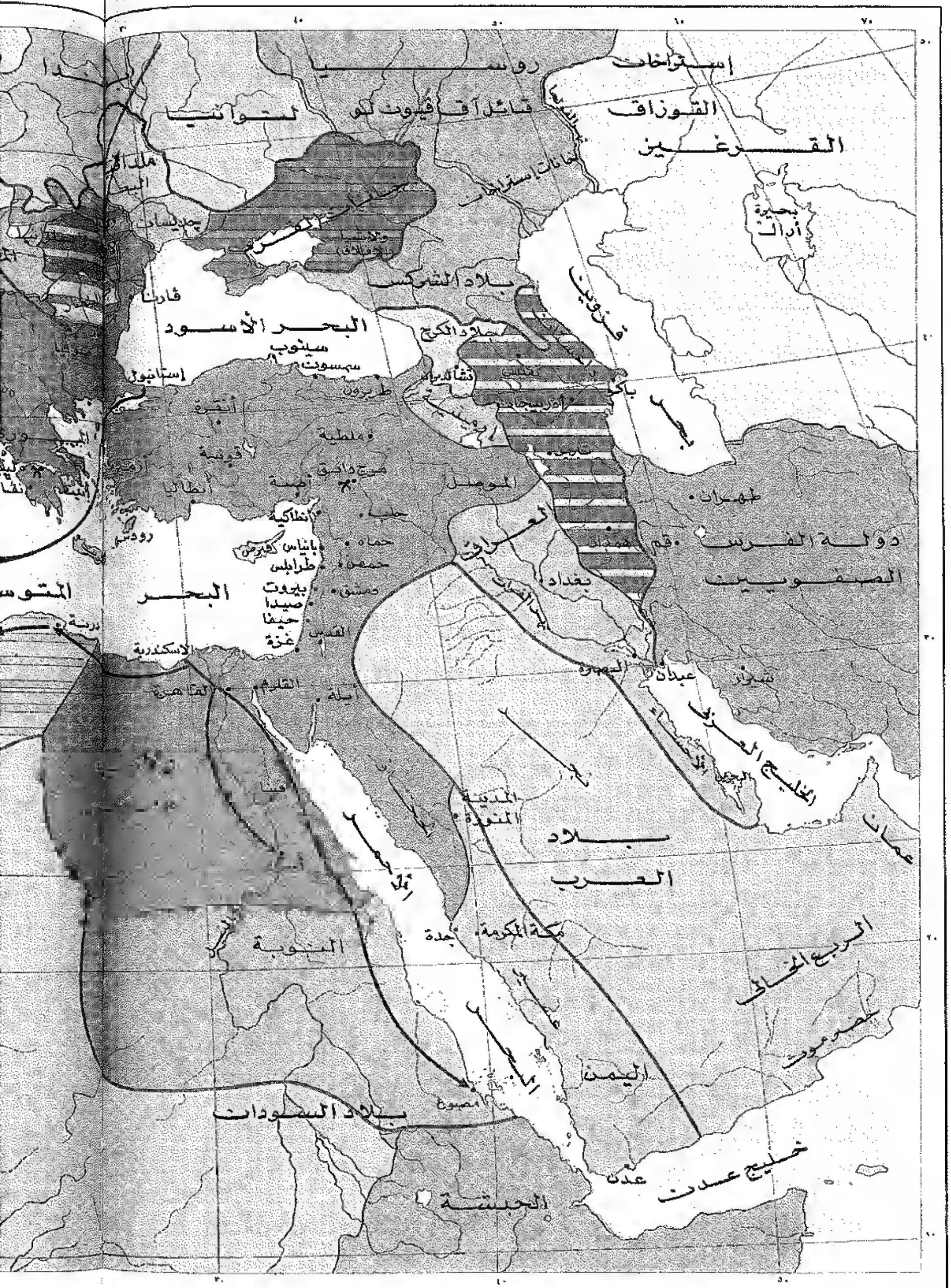
وتشير عمليات التوسع العثماني في ديار بكر وأراضي ذي القدر أن الممتلكات العثمانية لم تعد متصلة إحداها بالأخرى إلّا بالدوران حول النتوء المملوكي المتمثِّل في بلاد الرافدين العليا، وقد شكَّل ذلك عقبة استراتيجية أثارت قلق السلطان العثماني من خلال شن عمليات عسكرية على إيران. ومما زاد قلقه أن القوة المملوكية المتمركزة هناك، منعت الجيش العثماني من المرور عبر هذا النتوء في طريقه إلى إيران، وبدا واضحاً أن السلطان سليم عاد من تشالديران وهو ينوي الدخول في حرب مع الغوري.

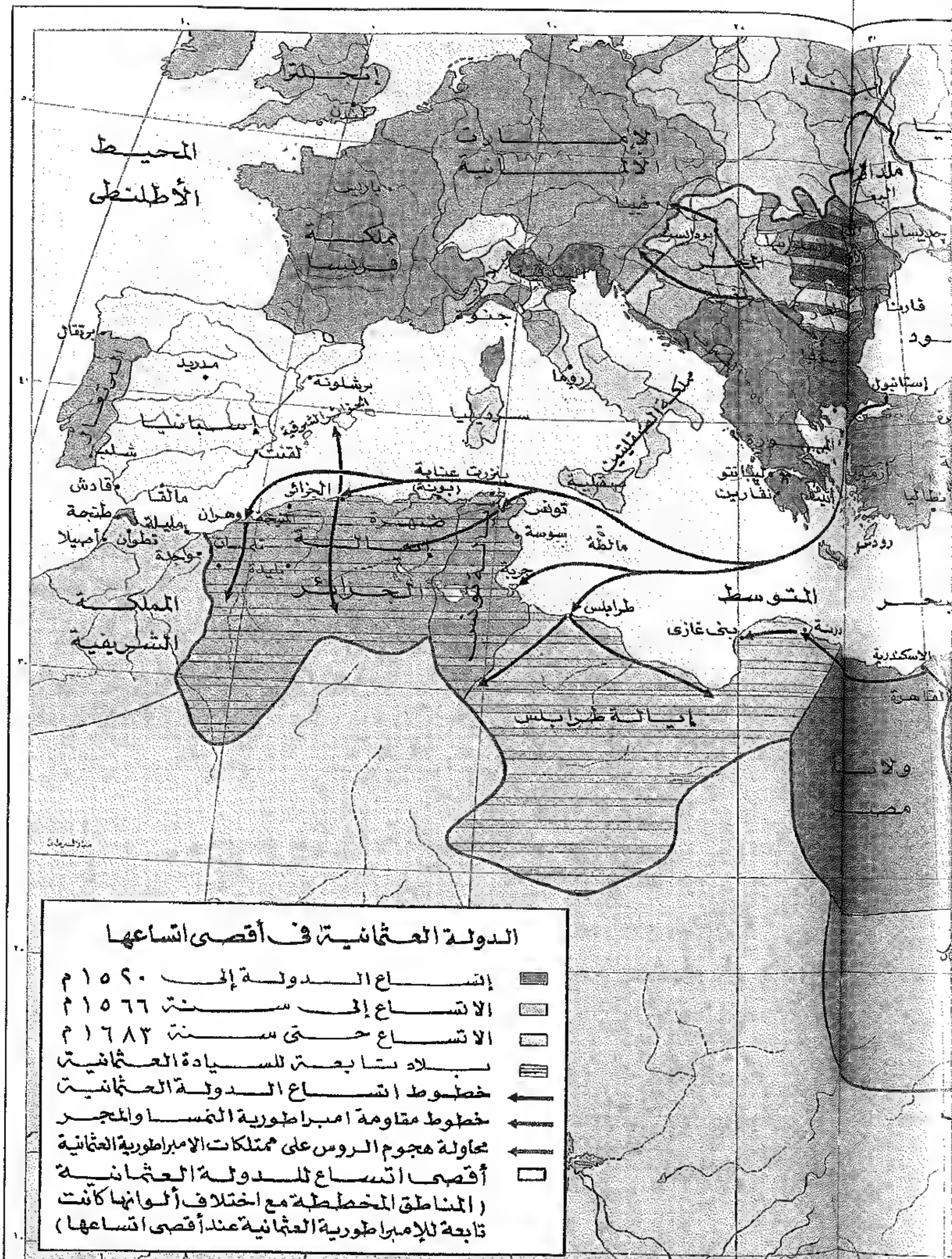
والواقع أن السلطان العثماني كان مستعداً لتنفيذ خططه الكبرى في الشرق التي وصفت، تحاملاً، بالسياسة العدوانية، لأن شعوب المشرق العربي أرادت من هذا القادم الجديد حالة خلاص على يديه تنتشلها من الحكم المملوكي المتعسف.

وتحوَّلت الإمارات الفاصلة بين ممتلكات الجانبين، كإمارة رمضان في كيليكية وإمارة ذي القدر في كبادوكية إلى ساحة رئيسية للصراع بينهما، وساد إستانبول جو محموم للحرب ضد المماليك صوَّرها العثمانيون واجباً على كل مسلم.

كان من أبرز الاتجاهات العثمانية بعد عودة السلطان سليم الأول من فارس، أنه ضمَّ إمارة ذي القدر الفاصلة بينه وبين المماليك، والمشمولة بحماية هؤلاء، ومعنى ذلك أن الطريق بات مفتوحاً أمامه لمواجهتهم.

عدَّ قانصوه الغوري تصرف سليم الأول هذا بمثابة إعلان للحرب، وقرَّر أن يستعيد هيبته في المنطقة، فأمر بالاستعداد للحرب. وما إن تأمَّنت جميع منافذ بلاد الجزيرة وشمالي العراق ومسالكهما من خلال السيطرة العثمانية، تحرَّك الجيش العثماني عبر الأَناضول بقيادة السلطان، ويمَّم وجهه شطر بلاد الشام. ولما علم الغوري بذلك، حرَّك هو الآخر جيشه الذي خرج به من القاهرة. وتبادل الرجلان الرسائل في مرج دابق شمالي حلب حيث عسكر جيشاهما، بهدف حقن دماء المسلمين. لكن المفاوضات فشلت، وأهان كل طرف رسل الطرف الآخر، وأضحت الحرب حتمية. وعبَّأ كل عاهل جيشه استعداداً للقاء الحاسم الذي بدأ في (شهر رجب عام ٩٢٢هـ/ شهر آب عام ١٥١٦م)، ودارت بينهما رحى معركة عنيفة استمرت أقل من ثماني


روسيا
إستراخان
قبائل آق قيون لو
القوزاق
القرغيز
ليتوانيا
بحيرة أرال
بلاد الشركس
البحر الأسود
قارنا
سينوب
سمسون
إستانبول
طربزون
أنقرة
ملطية
قونية
أنطاليا
تفليس
باكو
أذربيجان
تبريز
الموصل
العراق
حلب
أنطاكية
حماه
حمص
طرابلس
قبرص
رودس
بيروت
صيدا
حيفا
غزة
دمشق
القدس
بغداد
طهران
قم
دولة الفرس الصفويين
البحر المتوسط
الإسكندرية
القاهرة
القلزم
أيلة
البصرة
عبادان
شيراز
الخليج العربي
المدينة المنورة
بلاد العرب
مكة المكرمة
جدة
الربع الخالي
حضرموت
عمان
النوبة
اليمن
مصوع
بلاد السودان
عدن
خليج عدن
الحبشة



إنجلترا
لندن
المحيط الأطلنطي
الإمارات الألمانية
باريس
مملكة فرنسا
فيينا
بودابست
جنوة
برتغال
مدريد
برشلونة
روما
مملكة الصقليتين
أسبانيا
سردينيا
لقنت
شلب
قادش
مالقا
طنجة
مليلة
تطوان
أصيلا
وجدة
وهران
الجزائر
بنزرت
عنابة (بونة)
تونس
سوسة
مالطة
جربة
طرابلس
بني غازي
درنة
الإسكندرية
القاهرة
ليبانتو
إستانبول
رودس
المتوسط
المملكة الشريفية
إيالة الجزائر
إيالة طرابلس
ولاية مصر
الدولة العثمانية في أقصى اتساعها
إتساع الدولة إلى ١٥٩٠ م
الاتساع إلى سنة ١٥٦٦ م
الاتساع حتى سنة ١٦٨٣ م
بلاد تابعة للسيادة العثمانية
خطوط اتساع الدولة العثمانية
خطوط مقاومة امبراطورية النمسا والمجر
محاولة هجوم الروس على ممتلكات الامبراطورية العثمانية
أقصى اتساع للدولة العثمانية
(المناطق المخططة مع اختلاف ألوانها كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية عند أقصى اتساعها)

ساعات، أسفرت عن انتصار العثمانيين، وانتحر الغوري أمام انهزام جيشه[١]. استثمر السلطان سليم الأول انتصاره، فضمَّ حلب وحماة وحمص ودمشق[٢]، وكان راغباً في أن يدع المماليك يحكمون مصر، ففرض على طومان باي الذي خلف الغوري أن يعلن طاعته له مقابل أن يسند إليه حكم مصر[٣]، لكن السلطان المملوكي لم يقبل فكرة الهزيمة، فاضطر السلطان سليم الأول إلى نقل الحرب إلى مصر، وضمَّ خلال زحفه فلسطين، وظهرت جيوشه أمام أبواب القاهرة. ونشب القتال بين الطرفين في (أواخر شهر ذي الحجة عام ٩٢٢ وأوائل شهر محرم عام ٩٢٣هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٥١٧م)، وأنزلت مدفعيته هزيمة حاسمة بالمماليك في الريدانية[٤].

وفرَّ طومان باي بعد الهزيمة إلى الدلتا، ولكن لم يلبث أن سُلِّم غدراً إلى السلطان سليم الأول الذي أمر بشنقه[٥].

تكمن أهمية ضمِّ مصر، بالإضافة إلى التوسع العثماني على الأرض، تنازل الخليفة محمَّد المتوكل آخر الخلفاء العباسيين في مصر عن حقِّه بالخلافة إلى السلطان العثماني[٦]. وضمَّ سليم بعد ذلك الحجاز، وعاد إلى إستانبول التي أضحت منذ ذلك الوقت مقر الخلافة الإسلامية. واهتم بتجهيز أسطول بحري لمهاجمة جزيرة رودس، وجيش بري لمهاجمة الصفويين، لكن المنية وافته قبل أن يحقِّق هدفيه، حيث توفي في (شهر شوال عام ٩٢٦هـ/ شهر أيلول عام ١٥٢٠م)[٧] وتسيطر شخصيته على كل الأحداث الكبرى التي وقعت في عهده، واتخذه الشعب العثماني بطلاً وطنياً.

سليمان الأول: القانوني

٩٢٦ ـ ٩٧٤هـ/ ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦م

العلاقة مع الغرب الأوروبي

خلف السلطان سليمان الأول أباه السلطان سليم الأول. وما أن استقر على عرش السلطنة حتى عادت السياسة العثمانية تتجه نحو الغرب لتبدأ مرحلة أخرى من العلاقات المتجدِّدة مع أوروبا اتسمت بالتوسع في البلقان والبحر الأبيض المتوسط.

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور جـ ٥ ص ٦٠، ٦٩، ٧١، ١٢٣.
(٢) سعد الدين: جـ ٢ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٢.
(٣) ابن إياس: المصدر نفسه ص ١٢٤ ـ ١٢٥.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٤٣ ـ ١٤٧.
(٥) المصدر نفسه ص ١٧٤ ـ ١٧٦.
(٦) المصدر نفسه: ص ١٣٥.
(٧) المصدر نفسه: ص ٣٦٠. فريد بك ص ١٩٧.

كان السلطان قد علم بالمنافسة المريرة من أجل الفوز بتاج الأمبراطورية الرومانية المقدَّسة بين فرنسوا الأول ملك فرنسا وشارل الخامس ملك إسبانيا وهو من أسرة هابسبورغ، وقد فاز الثاني بهذا التاج. لكن السلطان لم يعترف مطلقاً بما آلت إليه الأوضاع في أوروبا، وبخاصة أن الأمبراطور شارل الخامس اتصف بالتعصب الشديد ضد المسلمين، لذلك كان بروز خطر اتحاد نصراني ضد العثمانيين قائماً بعد انتخابه. وفي المقابل، نشأت علاقات ودية بين الباب العالي وفرنسا دفعت هذه الأخيرة إلى مركز متقدم بين الدول الأوروبية في كل ما يتعلق بالسياسة الشرقية.

وعهد الأمبراطور إلى أخيه فرديناند ملك النمسا بمهمة الدفاع عن أوروبا الوسطى أمام الزحف العثماني المحتمل، وعليه، ستجد أوروبا بأكملها والشرق الأدنى نفسيهما في خضم الحرب. وبرزت المجر في أوروبا الشرقية كخصم تقليدي للعثمانيين بعد زوال الصرب والبلغار وبيزنطية.

وطرأ حادث أشعل نار الحرب الواسعة بين الطرفين، ذلك أن الملك لويس الثاني ملك المجر أقدم على قتل رسول السلطان الذي جاء لإعلامه بارتقائه العرش، ويطالبه بدفع الجزية المقترحة منه مقابل تجديد الصلح[١].

أثار هذا العمل حفيظة السلطان، فاستأنف الحرب ضد المجر، ونجح في فتح مدينة بلغراد (٩٢٧هـ/ ١٥٢١م)، وجزيرة رودس في العام التالي[٢]، وانتصر على الملك لويس الثاني في معركة موهاكس الشهيرة في عام (٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م) التي هلك فيها لويس الثاني نفسه، ودخل السلطان بعد انتهاء المعركة العاصمة بودا[٣].

جعلت وفاة لويس صهره فرديناند أقرب مطالب بالعرش المجري. والواقع أنه انتخب ملكاً على بوهيميا وعلى ما تبقَّى من بلاد المجر[٤] مما أدخله في صراع مع الأمير زابوليا أمير ترنسلڤانيا. وتمكَّن الأول من استعادة بودا، مما أثار حفيظة السلطان[٥]، فناصر الثاني على خصمه، وأعاد فتح بودا في عام (٩٣٥هـ/ ١٥٢٩م)[٦]

---

(١) فريد بك: ص ١٩٩.

(٢) صولاق زادة: ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩. تاريخ بجوي: جـ ١ ص ٢٥٥ ـ ٢٦٣. كلو، أندري: سليمان القانوني ص ٨٨ ـ ٨٩.

(٣) صولاق زادة: ص ٤٥٥. أوزتونا: جـ ١ ص ٢٧٠. كلو: ص ١٠٧. Shaw I p 91.

(٤) الشناوي، عبد العزيز: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ ١ ص ٢٧٨.

(٥) فريد بك: ص ٢١٥. أوزتونا: جـ ١ ص ٢٧٢.

(٦) صولاق زادة: ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩. سرهنك: ص ٨١. كلو ص ١١٧ ـ ١١٨.

وطرد الجيش الألماني منها وسلَّمها إلى حليفه زابوليا. ثم تابع زحفه باتجاه ڤيينا لمطاردة هذا الجيش وإبادته، فوصل إليها في (شهر محرم عام ٩٣٦هـ/ شهر أيلول عام ١٥٢٩م) وضرب عليها حصاراً مركَّزاً، لكنه اضطر إلى فك الحصار بعد تسعة عشر يوماً بفعل قلة المؤن، وطول خط الإمدادات، ودخول فصل الشتاء[(١)].

وجدَّد السلطان محاولته لفتح مدينة ڤيينا في عام (٩٣٩هـ/ ١٥٣٢م)، لكن الحملة لم تكن بأفضل من سابقتها، فقد صمدت قلعة گونز المجرية أمام حصار الجيش العثماني، ولم يتمكَّن السلطان من متابعة زحفه إلَّا بعد سقوطها مما أخَّر تقدمه، ثم إنه أضاع وقتاً آخر حين سار نحو الغرب في اتجاه أوستريا بدلاً من الزحف نحو ڤيينا مباشرة[(٢)].

وعمد الأمبراطور شارل الخامس إلى استخدام القائد الجنوي أندريا دوريا لمهاجمة السواحل العثمانية من البحر بهدف التخفيف من حدَّة الجبهة البرية، فعمل بنجاح على شواطىء المورة. ولم يلبث السلطان أن أضاع ثمن النصر الجزئي، فأمر الجيش بالعودة إلى إستانبول[(٣)]، وأعلن في العام التالي عن استعداده لعقد معاهدة صلح بناء على طلب فرديناند وُقِّعت في إستانبول في (شهر ذي الحجة عام ٩٣٩هـ/ شهر حزيران عام ١٥٣٣م)، اعترف ملك النمسا بموجبها بالوضع الراهن لكل من ممتلكات الفريقين المتنازعين، في حين اعترف السلطان بالمقابل بفرديناند ملكاً على بوهيميا وأرشيدوقاً على النمسا[(٤)]، ويبدو أن الأوضاع المستجدة في الشرق دفعت السلطان إلى قبول الصلح.

لكن الحرب استؤنفت في عام (٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م). وفي عام (٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م) توفي زابوليا، فاغتنمت النمسا هذه الفرصة وأغارت على ممتلكاته لانتزاعها من حماية الدولة العثمانية. أثار هذا التقدم حفيظة السلطان، فأرسل جيشاً بقيادة الوزير محمَّد صوقللي باشا لإخراج النمساويين من المجر، في حين خرج هو إلى بلغراد ليكون قريباً من مجرى الأحداث. نجح الوزير العثماني في دخول

---

(١) فريد بك: ص ٢١٦ ـ ٢١٧. كلو: ص ١١٩ ـ ١٢١. ديورانت، ول: قصة الحضارة مجلد ٦ جـ ٥ ص ١٠٤.

(٢) فريد بك: ص ٢١٨.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢١٨ ـ ٢١٩. أوزتونا: جـ ١ ص ٢٧٥.

Hammer, J: Histoire de L'Empire Ottoman. II pp 10-11.

(٤) ديورانت: المصدر نفسه ص ١٠٦. Ibid: pp 14-18.

العاصمة المجرية، ثم تبعه السلطان[1].

وحدث آنذاك أن اتفق سليمان الأول وفرنسوا الأول على مهاجمة الأملاك الأمبراطورية، فتقدَّم الأول باتجاه الغرب وفتح عدة مدن في المجر[2]، في حين هاجم الأسطول العثماني سواحل إيطاليا[3]. وفي عام (٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م) منح السلطان الغرب هدنة لمدة سبع سنوات لانهماكه بحرب الصفويين[4].

لم يركن آل هابسبورغ إلى الهدوء، ولما فقدوا الأمل باستعادة قلب المجر، بدَّلوا سياستهم تجاه الدولة العثمانية بحيث اقتصرت على اقتطاع ترانسلڤانيا من الحكم العثماني. وحاول فرديناند أن يضع يده على هذه المقاطعة في عام (٩٥٨هـ/ ١٥٥١م)، ولما علم السلطان بهذه المحاولة، جهَّز جيشاً وأرسله إلى بلاد المجر لإعادة الأمور إلى نصابها. لم تصمد الجيوش النمساوية أمام الجيوش العثمانية، واضطرت النمسا إلى عقد صلح براغ في (شهر رجب عام ٩٧٠هـ/ شهر شباط عام ١٥٦٣م)، اعترف فرديناند بموجبه بحكم العثمانيين لبلاد المجر ومولداڤيا، وتعهَّد بدفع جزية سنوية[5]. وأرسل السلطان في عام (٩٧٢هـ/ ١٥٦٥م) حملة بحرية لفتح جزيرة مالطة، لكن الحملة فشلت[6].

ونشبت القلاقل مرة أخرى في بلاد المجر بفعل تدخل مكسيميليان، ملك النمسا الذي خلف فرديناند، فاضطر السلطان للقيام بحملة تأديبية في (شهر شوال عام ٩٧٣هـ/ شهر نيسان عام ١٥٦٦م) على الرغم من مرض داء النقرس الذي ألَمَّ به، فحاصر مدينة سيجتوار الاستراتيجية في (شهر صفر عام ٩٧٤هـ/ شهر آب عام ١٥٦٦م)، وتوفي أثناء الحصار، لكن الجيش العثماني تمكَّن من فتح المدينة[7].

العلاقة مع الصفويين

كان السلطان سليمان الأول يتطلَّع منذ مدة إلى قيادة حملة ضد الصفويين ضمن الصراع المتنامي بين الطرفين، لتدعيم نفوذه في شرقي الأناضول استعداداً لضم مدينة بغداد التي استولى عليها الصفويون في عام (٩٣٦هـ/ ١٥٣٠م)[8]،

---

(١) فريد بك: ص ٢٣٦. حليم: ص ٩٢. كلو: ص ٢٦٨.

(٢) تاريخ بجوي: جـ ١ ص ٢٥١ ـ ٢٥٤. حليم: المصدر نفسه. سرهنك: ص ٩٢.

(٣) كولز، بول: العثمانيون في أوروبا ص ٩٣.

(٤) فريدبك: ص ٢٣٨ـ٢٣٩. كلو: ص ٢٠١ـ٢٠٢.

(٥) كلو: ص ٢٧٠.

(٦) فريد بك: ص ٢٤٩. أوزتونا: جـ ١ ص ٣٢٢.

(٧) تاريخ بجوي: جـ ١ ص ٤١٢ ـ ٤٢٣. Hammer: II pp 97-98.

(٨) إيڤانوف، نيقولاي: الفتح العثماني للأقطار العربية ص ٨٨. أوزتونا: جـ ١ ص ٢٤٠.

وهدَّدوا بشكل خطر الطرق التجارية بين الشرق وأوروبا.

تراجع الصفويون أمام الزحف العثماني الذي بدأ في عام (٩٤١هـ/ ١٥٣٤م)، وتخلَّى الشاه طهماسب عن الأرض على أمل الاحتفاظ بالجيش والدولة. وضمَّ السلطان العراق، ودخل مدينة تبريز عاصمة الصفويين وأبعدهم عن العالم العربي بشكل نهائي[١]، وبعد أن رتَّب الشؤون الإدارية للولايات المفتوحة عاد إلى إستانبول.

وجدَّد السلطان حملته ضد الصفويين في عام (٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م)، وذلك بفعل الدعاية الصفوية التي استمرت ناشطة لبثِّ المذهب الشيعي في شرقي الأناضول. وتمكَّن من دخول تبريز مرة ثانية بعد أن انسحب منها الشاه، وضمَّ بعض الولايات الشرقية، لكن الحملة لم تؤد إلى الهدف الحقيقي للسلطان، وهو مواجهة الشاه في معركة سافرة كبرى، والقضاء على الدولة الصفوية؛ لذلك استؤنفت الحرب في عام (٩٦٠هـ/ ١٥٥٣م)، وانتهت إلى اتفاق بين الطرفين. وتمَّ توقيع معاهدة أماسيا في (شهر رجب عام ٩٦٢هـ/ شهر أيار عام ١٥٥٥م)، وحصلت الدولة العثمانية بموجبها على ولاية قارص وقلعتها، وتمَّ تخطيط حدود الدولتين[٢].

العثمانيون في شمال إفريقية

ضم الجزائر

ضمَّ العثمانيون، في عهد السلطان سليمان الأول، شمالي إفريقية من ليبيا حتى مراكش نتيجة لإلحاح القوى المعنية هناك على العثمانيين أن يدخلوا في حمايتهم لتقوية الجهاد الإسلامي ضد خطر القوى الأوروبية النصرانية المتصاعد على ديار المسلمين في هذه المنطقة.

كانت الجزائر قد دخلت في تبعية الدولة العثمانية في عام (٩٢٥هـ/ ١٥١٩م) في عهد السلطان سليم الأول، بعد اصطدامات حامية مع الإسبان، وسلطان تونس الحفصي محمَّد السادس، وبقية بني زيان في تلمسان، الذين وقفوا ضد القوى الوطنية بقيادة خير الدين بربروسا، وأضحى هذا الرجل الحارس الأمامي للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، تسانده قوات عثمانية.

لم تعترف إسبانيا بضم الجزائر إلى السلطنة العثمانية، وحاولت استعادتها أكثر

(١) تاريخ بجوي: جـ ١ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٧. سرهنك: ص ١٠٢.

من مرة كان آخرها في عام (٩٥٨هـ/ ١٥٥١م)، لكنها فشلت في ذلك حيث تعايشت بعدها مع حقيقة فقدان هذه البلاد[١].

الصراع حول تونس

كانت تونس وطرابلس الغرب جزءاً من دولة الحفصيين التي كانت آخذة في التداعي في مطلع القرن السادس عشر. وحدث أن اعتلى الحسن الحفصي عرش تونس في عام (٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م) ومال إلى التعاون مع الإسبان، مما أدَّى إلى تدهور علاقته بالباب العالي. وأقنع خير الدين بربروسا السلطان سليمان الأول، الذي كان ينوي الدخول في حرب مع إسبانيا، بالسيطرة أولاً على تونس، ونجح في دخول العاصمة تونس على أثر انتفاضة شعبية ضد الحكم الحفصي، وهرب الحسن الحفصي باتجاه بجاية، واستنجد بالأمبراطور شارل الخامس. استجاب هذا الأمبراطوز لنداء الاستغاثة، فأبحر في (شهر ذي الحجَّة عام ٩٤١هـ/ شهر حزيران عام ١٥٣٥م) على رأس أسطول بحري، باتجاه الشواطىء التونسية ونجح في الاستيلاء على حلق الوادي، واحتل الجزء الشمالي الشرقي من البلاد، وعاد الحسن الحفصي إلى العاصمة[٢].

ونظَّمت المعارضة التونسية، بمساعدة النجدات العثمانية منذ (٩٤٨هـ/ ١٥٤١م)، حملات استهدفت أماكن وجود الحاميات الإسبانية، كما انهارت آنذاك سلطة الحسن الحفصي، واضطر الإسبان أخيراً إلى الجلاء عن مدن الساحل، واعترف السكان بسيادة الدولة العثمانية[٣].

ضمُّ طرابلس الغرب

استولت إسبانيا على طرابلس الغرب في عام (٩١٦هـ/ ١٥١٠م)، وقرَّر شارل الخامس اتخاذها مستعمرة إسبانية لتوطين الأوروبيين فيها. وتعرَّض الحكم الإسباني لهجمات المجاهدين بالتعاون مع الدولة العثمانية، فاضطر الإسبان إلى التخلي عن المدينة وسلَّموها إلى فرسان القدِّيس يوحنا الذين علَّقوا آمالهم على الأمير الحسن الحفصي، فأقاموا معه علاقة تحالف. غير أن هذا الأمير هُزم في أثناء الصراع على

(١) الشناوي: جـ ٢ ص ٩١٣. إيڤانوف: ص ١٠٥ ـ ١٠٦. Grammont, H. D: Histoire d'Alger sous la Domination Turque p 36.

(٢) الترِ، عزيز سامح: الأتراك العثمانيون في شمالي أفريقيا: ص ١١٨.

(٣) إيڤانوف: ص ٢٠٥ ـ ٢٠٩.

السلطة في ليبيا، ولم يتمكَّن الفرسان من إرساء قواعد حكم أجنبي فيها نتيجة المعارضة الشديدة من جانب السكان الذين استنجدوا بالسلطان العثماني، فأرسل الباب العالي أسطولاً بحرياً ظهر أمام المدينة وذلك في (شهر شعبان عام ٩٥٨هـ/ شهر آب عام ١٥٥١م)، وأنزل جنوده على الشاطىء، وأضحت طرابلس الغرب اعتباراً من هذا التاريخ ولاية عربية تحت السيادة العثمانية[١].

ضمُّ اليمن

ضمَّ العثمانيون اليمن إلى دولتهم في عام (٩٤٤هـ/ ١٥٣٨م). فقد أرسلوا إليها حملة عسكرية بقيادة سليمان باشا الخادم، مهمتها ضمُّ هذا البلد لوقوعه على طريق التجارة الشرقية، وتصفية الموقف هناك لصالح الحكم العثماني، والتفرغ بعد ذلك لمجابهة البرتغاليين في المحيط الهندي، والسيطرة على التجارة الشرقية.

وبعد أن وطَّد أقدامه في اليمن، انطلق سليمان باشا إلى سواحل الكجرات في بلاد الهند لمحاربة البرتغاليين، وعلى الرغم من بعض النجاحات الجزئية، فإنه فشل أمام ثغر ديو الحصين، كما قد تردَّت العلاقات بينه وبين الحكَّام المحليين؛ فاضطر إلى مغادرة المنطقة بعد بضعة أشهر من وصوله، وعاد إلى اليمن، ثم عيَّنت الدولة العثمانية عدداً من الولاة الذين ثبَّتوا الحكم العثماني في اليمن، وأمَّنوا لدولتهم طريقها الاقتصادي، ومكانتها التجارية، ونفوذها السياسي في المحيط الهندي[٢].

شخصية السلطان سليمان الأول

ترك السلطان سليمان الأول بصماته على مظاهر التقدم الثقافي والسياسي التي شهدتها الدولة العثمانية. لقد أطلق عليه الغرب لقب «العظيم»، لكن شعبه سمَّاه بـ «القانوني» أي جامع القوانين، بسبب مساهمته في تدوين وتنظيم القانون العثماني وتطبيقه بعدالة، وتناول هذا العمل التشريعي، بصفة خاصة، تنظيم الجيش، والإقطاع الحربي، وقوانين ملكية الأرض، والشرطة، والقضاء.

كان السلطان سليمان الأول ورعاً، متمسكاً بأهداب السنَّة، شاعراً، خطَّاطاً، يجيد اللغات الشرقية وبخاصة العربية، وشخصيته، كحاكم نموذجي، لا تقبل القياس

---

(١) Guiga, T: Dorouth Rais, Le Magnifique Seigneur de la Mer pp 94-96.

(٢) تاريخ بجوي: جـ ١ ص ٢١٩ ـ ٢٢٤. إيڤانوف: ص ١٣٢ . أوزتونا: جـ ١ ص ٣٢٨. البطريق، عبد الحميد: من تاريخ اليمن الحديث ص ٢٥ ـ ٢٧.

إلَّا مع شخصيات قليلة، وكان في أوروبا موضوعاً لروايات وتمثيليات عديدة، عظيماً في حجم تجهيزات جيوشه، وفي اتساع حملاته، وفي أعماله العمرانية، وفي قوة حكمه. إنه طوَّر الدولة العثمانية وسلَّمها إلى خلفه بدرجة التكامل لا يمكن قياسها مع تكامل أية دولة أوروبية خلال المدة نفسها.

كان السلطان سليمان الأول أجرأ من أنداده الأوروبيين في مجال التسامح الديني، وحالفه النصر في صراعه مع الغرب الذي استمر طوال حياته، وأدَّت الانتصارات التي حقَّقها إلى تغيير جوهري في مركز الدولة في الشؤون الدولية، وفقدت الدول الأوروبية كل أمل في إخراج العثمانيين من القارة.

أما في ميدان العمارة، فإن الثقافة العثمانية مدينة بصفة خاصة بالشيء الكثير لمواهبه، ونذكر في هذا المقام تشييده المساجد في العاصمة، منها مسجد السليمانية. وختمت بوفاته مرحلة من أزهى مراحل التاريخ العثماني بلغت فيها الدولة ذروة قوتها.

سليم الثاني

٩٧٤ ـ ٩٨٢هـ/ ١٥٦٦ ـ ١٥٧٤م

خلف السلطان سليم الثاني أباه السلطان سليمان الأول، وكان غير مؤهل لمواصلة سياسة والده التوسعية، ولا حتى المحافظة على مكتسباته أمام تضعضع الأوضاع الداخلية وضغط الأحداث الخارجية. لقد واجه في بداية حكمه تمرد الإنكشارية[١]، وتوقفت في عهده غارات العثمانيين على الأمبراطورية الرومانية المقدَّسة، وتجدَّدت الهدنة مع الصفويين والمجر وبولندة، كما تجدَّدت المعاهدات السابقة مع فرنسا وقد منحها السلطان امتيازات خاصة، وشنَّ حملة فاشلة في (أواخر عام ٩٧٦هـ/ ربيع عام ١٥٦٩م) على مدينة أستراخان الواقعة على مصب نهر الفولغا في بحر قزوين لوصل هذا النهر مع نهر الدون بهدف:

ـ وضع حد لامتداد روسيا من ناحية الجنوب، ومنعها من الاستيلاء على طريق التجارة والأسواق الكبرى، والهيمنة على تجارة البلدان الإسلامية، بالإضافة إلى فتح طريق الحج الذي أغلقته أمام الحجَّاج المسلمين.

ـ كسر الطوق البرتغالي حول أواسط آسيا.

---

(١) فريد بك: ص ٢٥٣.

ـ طرد الفرس من القوقاز وأذربيجان[1].

ويُعدُّ فتح جزيرة قبرص في عام (٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م) الإنجاز الوحيد الذي حقَّقه قبل أن تخسر البحرية العثمانية، ولأول مرة، أمام البحرية الأوروبية، المتمثِّلة بـ العصبة المقدسة، في معركة ليبانت بقيادة دون جوان في العام التالي[2]، لكن البندقية، التي ساهمت بنجاح العصبة المقدسة، ما لبثت أن عقدت الصلح مع الدولة العثمانية بفعل موت العصبة، والضغط العسكري التي تعرَّضت له، فتنازلت بمقتضاه عن جزيرة قبرص للعثمانيين[3]. وتوفي السلطان سليم في (شهر رمضان عام ٩٨٢هـ/ شهر كانون الأول عام ١٥٧٤م)[4].

مراد الثالث

٩٨٢ ـ ١٠٠٣هـ/ ١٥٧٤ ـ ١٥٩٥م

خلف السلطان مراد الثالث أباه السلطان سليم الثاني، وشهد عهده بداية التدخل البريطاني في الشؤون الشرقية، وبروز الصراع الأوروبي حول التدخل في الشؤون الداخلية للدولة، بالإضافة إلى الحركات الانفصالية في البلقان بشكل خاص، وذلك بفعل تراجع قوة الدولة، فيما أخذ العثمانيون في التقهقر والانسحاب خلف نهر الدانوب. وكثر، في غمرة هذه الأحداث الخارجية، عزل وتنصيب الصدور العظام، مما تسبَّب في تدهور الأوضاع الداخلية، وختمت بوفاته مرحلة القوة والتوسع التي شهدها التاريخ العثماني.

---

(١) أوزتونا: جـ ١ ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨. مصطفى: ص ١٤٤.
Lewis, B: The Emergence of Modern Turkey: p 25.

(٢) تاريخ بجوي: جـ ١ ص ٤٩٥ ـ ٤٩٩. ديل، شارلز: البندقية، جمهورية أرستقراطية ص ١٥٥.
Hammer: II p 187. Vernard, Marc: Le Monde et son Histoire V pp 414-417.

(٣) فريد بك: ص ٢٥٨. أوزتونا: جـ ١ ص ٣٧٦. Hammer: Ibid pp 141-142. De Testa: II p 361 Note 1.

(٤) تاريخ بجوي: جـ ١ ص ٥٠٣ ـ ٥٠٤.

الفَصْلُ الحَادِي عَشَر

العصر العثماني

٦٨٧ ـ ١٣٤٣هـ/ ١٢٨٨ ـ ١٩٢٤م

مرحلة الضعف والانحلال

١٠٠٣ ـ ١٣٤٢هـ/ ١٥٩٥ ـ ١٩٢٤م

مرحلة الضعف في القرنين السابع عشر والثامن عشر

تمهيد

أصيب البلاط العثماني والدوائر الحاكمة في الدولة بفساد شديد خلال المدة الواقعة بين وفاة السلطان سليمان القانوني وتولية السلطان مصطفى الرابع العرش في عام (١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م). فقد حكم خلال هذه المدة ثمانية عشر سلطاناً لم يكن أحد منهم على مستوى يؤهله لأن يمارس الحكم إلَّا بواسطة وزراء كانوا أحياناً مثالاً للفساد، وأحياناً أخرى مشفقينٍ على الدولة من الانهيار، كما كانوا يقومون بإصلاحات تعطي الدولة حيوية تمكنها من إدارة نفسها لعدة سنوات[١].

وكانت الانتكاسات التي لحقت بالدولة، في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، في المجر والكرج وأذربيجان، وقيام حركات التمرد في الأناضول وفي بلاد الشام؛ بمثابة شواهد واضحة على ما أصابها من وهن، وخلقت معركة ليبانت مناخاً مغايراً في أوروبا تجاه العثمانيين.

وشهدت الدوائر الحاكمة، لأول مرة، ثورات الفرق الإنكشارية وتدخلها في قتل وعزل السلاطين وتنصيبهم. وتولى المناصب العليا من لا تجربة له، وأضحى القضاء لا يسير إلَّا بالرشوة، وفسدت الذمة في الإدارة[٢]. وبدأت عوامل الانحلال

---

(١) نوار، عبد العزيز سليمان: الشعوب الإسلامية ص ١٥٣.

(٢) المرجع نفسه: ص ١٥٤.

تدب شيئاً فشيئاً في جسم الدولة إبان القرن الثامن عشر، فكثرت الثورات، وبرزت الحركات الانفصالية، وقوي أمراء الأطراف.

والواقع أن هذه العوامل كانت أثراً من آثار انتقال الدولة من سياسة الفتح والتوسع إلى سياسة السلام في القرن السابع عشر، ومن ثَمَّ انتقالها من سياسة الهجوم إلى سياسة الدفاع في القرن الثامن عشر.

أما في مجال العلاقات الخارجية، فإن أوروبا كانت تتقدم بخطى واسعة نحو التطور التقني والاقتصادي والاجتماعي. وواجهت الدولة في الشرق عدة عوائق لعل أهمها توقف الزحف العثماني باتجاه آسيا والهند، وبروز روسيا قوة مرهوبة الجانب. وشعر بعض السلاطين بما أصاب الدولة من ضعف، فحاولوا القيام بإصلاحات، لكنها كانت خجولة، واصطدمت بمعارضة الإنكشارية.

أوضاع الدولة العثمانية الداخلية

ثورات الإنكشارية

بدأت ظاهرة تدخل الإنكشارية في القضايا السياسية منذ عهد السلطان بايزيد الثاني، واشتدت في عهد خلفائه، وكان السلطان مراد الثالث أحد السلاطين الذين تصدوا لمشكلة الإنكشارية بعدما أدرك أنهم تجاوزوا اختصاصاتهم كمحاربين، وأضحوا مركز قوة خطير في الدولة، فاتخذ عدة إجراءات للحد من نفوذهم منها أنه:

- أمر بإلحاق عدد كبير من المجندين المسلمين الأحرار في فيالقهم بعد أن كانت مغلقة في وجه هؤلاء.
- سمح لهم بالزواج ليشغلهم بالحياة الزوجية.
- أجاز لهم ممارسة بعض الأعمال الحرفية، والاشتغال بالتجارة في أوقات السلم.

وعلى الرغم من هذه الإجراءات بقي ظلهم يثقل كاهل الدولة بمرتباتهم ونفقاتهم العسكرية، كما استمروا في مركز القوة.

وحقد السلطان عثمان الثاني (١٠٢٧ ـ ١٠٣١هـ/ ١٦١٨ ـ ١٦٢٢م)، على الإنكشارية لتدخلهم في شؤون الدولة، فثاروا عليه وعزلوه ثم أعدموه[١]. ولزم هؤلاء السكون في عهد السلطان مراد الرابع (١٠٣٢ ـ ١٠٥٠هـ/ ١٦٢٣ ـ ١٦٤٠م)

(١) أوزتونا: جـ١ ص ٤٦٠ ـ ٤٦٣.

بعد أن تخلَّص من بعض زعمائهم[1]. ومن بين أبرز الجرائم التي اقترفوها، أنهم قتلوا السلطان إبراهيم الأول (١٠٥٥ ـ ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٠ ـ ١٦٤٨م) بسبب موقفه العدائي منهم[2]، وعزلوا السلطان محمَّد الرابع (١٠٥٨ ـ ١٠٩٨هـ/ ١٦٤٨ ـ ١٦٨٧م)، وولُّوا أخاه سليمان الثاني (١٠٩٨ ـ ١١٠٢هـ/ ١٦٨٧ ـ ١٦٩١م) مكانه[3]. وثاروا على سياسة السلطان أحمد الثالث (١١١٥ ـ ١١٤٣هـ/ ١٧٠٣ ـ ١٧٣٠م) السلمية مع الدولة الصفوية، ثم عزلوه ونصَّبوا ابن أخيه محمود الأول (١١٤٣ ـ ١١٦٧هـ/ ١٧٣٠ ـ ١٧٥٤م)، ولم يكن له من السلطة إلَّا اسمها واستأثر قادتهم بالحكم[4]. ولما تولى السلطان مصطفى الثالث (١١٧٠ ـ ١١٨٨هـ/ ١٧٥٧ ـ ١٧٧٤م) عرش السلطنة، تجنَّب الاحتكاك بالإنكشارية حتى لا يصيبه ما أصاب أسلافه[5]. وقام الإنكشارية بحركة عصيان ضد الدولة في بلاد الصرب في عهد السلطان سليم الثالث (١٢٠٣ ـ ١٢٢٢هـ/ ١٧٨٩ ـ ١٨٠٧م) بسبب سياستها الصربية، وتمكَّنت السلطات المحلية من طردهم من هذه البلاد، بعد أن ارتكبوا أعمال السلب والنهب[6].

الإصلاحات الداخلية

نتيجة لمظاهر الضعف، شعر القيِّمون في الدولة، منذ القرن السابع عشر، بالحاجة إلى الإصلاح، ولكنهم لم يتمكَّنوا من الخروج عن إطار حركة التاريخ العثماني والثقافة الإسلامية، وقد عُزي سبب هذا الضعف إلى الابتعاد عن تطبيق الشريعة الإسلامية[7].

وابتداء من القرن الثامن عشر، أخذت وجهة الإصلاح تتجه نحو الاقتباس من الغرب الأوروبي مع المحافظة على الأصول العثمانية والإسلامية، فأرسل السلطان أَحمد الثالث السفراء إلى أوروبا للإطلاع على منجزات الحضارة الأوروبية، وانتقاء ما يصلح منها لحياة الشرق[8]. وتُرجمت في عهده بعض الكتب الغربية، وسُمح بإنشاء مكتب للطباعة[9].

(١) أوزتونا: ص ٤٦٩ ـ ٤٧٠. سرهنك ص ١٤٦ ـ ١٤٧.
(٢) سرهنك: ص ١٥٠.
(٣) فريد بك: ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤.
(٤) فريد بك: ص ٣١٨ ـ ٣٢٠.
(٥) الشناوي: جـ١ ص ٥١٩ ـ ٥٢٠.
(٦) فريد بك: ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤.
(٧) الشوابكة، أحمد فهد بركات: حركة الجامعة الإسلامية ص ٣٠.
(٨) مصطفى: ص ١٥٩.
(٩) فريد بك: ص ٣١٩.

وتركَّز الإصلاح منذ عهد السلطان محمود الأول على الجيش، فاستُقْدِمَ الخبراء العسكريون من أوروبا، وتمَّ تحديث فرق المدفعية، وبناء المصانع الحربية. وسرعان ما اندثرت هذه الإصلاحات خلال مرحلة السلام التي حظيت بها الدولة، إثر انهماك أوروبا بحرب الوراثة الإسبانية، وحرب السنوات السبع، لتنتعش من جديد على يد السلطان مصطفى الثالث.

لكن محاولات الإصلاح الجدِّية ابتدأت في عهد السلطان سليم الثالث، وشملت كافة قطاعات الدولة الإدارية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، وكانت بداية عهد جديد من الإصلاح والتغيير لإنقاذ الدولة من الأطماع الأوروبية والضغوط الاستعمارية.

لم يتردَّد هذا السلطان في الأخذ ببعض الأنماط الغربية بعد أن حصل على معلومات عن المؤسسات المدنية والعسكرية الأوروبية وأسباب تفوقها على العثمانيين. وجرى في عهده تنفيذ بعض الإصلاحات الضرورية لتقوية الجهاز العسكري. فشرع في إنشاء فرق عسكرية جديدة على الطراز الأوروبي بهدف الاستغناء في المستقبل عن الفرق الإنكشارية[١]. وكثرت في عهده البعثات العثمانية إلى أوروبا، وتحدث عن رغبته في إلغاء نظام الإقطاع، وعمد إلى توسيع الديوان، وأنشأ خزانة جديدة لسدِّ نفقات الإصلاح، وعرفت إصلاحاته كلها باسم «نظام جديد»[٢].

لكن النظام الجديد لقي معارضة من الإنكشارية، والأعيان، والعلماء، ونجح المعارضون في حمل السلطان على إلغائه[٣]، ثم تمادوا فعزلوه من منصبه، ونصبوا مكانه أخاه مصطفى الرابع (١٢٢٢ ـ ١٢٢٣هـ/ ١٨٠٧ ـ ١٨٠٨م). لم يُبد هذا السلطان قدراً يُذكر من قوة الشخصية، واستسلم لمطالب المحافظين.

ويبدو أن الإصلاحات اكتسبت أنصاراً أقوياء في بعض الولايات، فاستنكر مصطفى البيرقدار، حاكم سيلسترية، ما جرى من العودة إلى الماضي، فزحف نحو العاصمة. وحين علم السلطان بهذه التطورات خشي على نفسه، فانقلب على الإنكشارية، وعزل شيخ الإسلام. لكن البيرقدار أصرَّ على إعادة السلطان سليم الثالث إلى السلطة، فما كان من السلطان مصطفى الرابع إلَّا أن قتله. وأدَّت حادثة القتل إلى نتائج عكسية حيث ازداد الثائرون هياجاً، فأقدموا على عزل السلطان، وعيَّنوا أخاه محموداً الثاني مكانه[٣].

---

(١) مصطفى: ص ١٧٣. الشوابكة: ص ٣١. أوزتونا: جـ ١ ص ٦٤٨.

(٢) Lewis: pp 56, 58.

(٣) فريد بك: ص ٣٩٣.

المشكلات القومية

شهدت البلاد، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، محاولات من جانب قوميات البلقان للانفصال عن جسم الدولة. والواقع أن بذور المشكلة نبتت نتيجة عدم سعي الحكومة المركزية، حين فتحت هذه البلاد بعد معركة كوسوفو الشهيرة، في محو عصبيات الأمم المختلفة، وبذل الجهود في إضعاف لغتها وتقاليدها، والعمل على صهرها في بوتقة واحدة مع باقي الشعوب العثمانية، ولهذا ظلَّت الأُسس القومية لدى هذه الشعوب سليمة، وعندما نهضت، وتطلَّعت للانفصال، وجدت في قوميتها متانة كافية للصمود أمام القوات العثمانية.

ثار الصرب على الإدارة المركزية في عام (١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م) بزعامة جورج بتروفيتش الملقب بـ جورج الأسود. لم تسكت الدولة أمام هذا التحدي، وأرسلت الجيوش لقمع الثورة، إلَّا أن الحرب بين الجانبين كانت سجالاً.

أوضاع الدولة العثمانية الخارجية

العلاقة العثمانية ـ الصفوية

استمرت العلاقة المتوترة بين الدولتين العثمانية والصفوية خلال القرن السابع عشر. واستردَّ الشاه عباس الكبير مدن تبريز وڤان وشيروان وقارص. واضطرت الدولة العثمانية إلى توقيع اتفاقية سلام في عام (١٠٢١هـ/ ١٦١٢م) تخلَّت بموجبها عن المناطق التي فتحتها منذ عهد السلطان سليمان الأول[(١)]. وتمادى الشاه حين طمع في استرداد مزيد من الأراضي، إلَّا أنه فشل في ذلك واضطر إلى تجديد المعاهدة المذكورة، لكنه ظل يتحيَّن الفرص للانقضاض على المناطق التابعة للعثمانيين، وسنحت له الفرصة في عام (١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م) أثناء حصول اضطرابات داخلية على أثر اغتيال السلطان عثمان الثاني، ونجح في السيطرة على بغداد في العام التالي[(٢)].

واستعادت الدولة العثمانية زمام المبادرة في عام (١٠٣٥هـ/ ١٦٢٦م) على أثر وفاة الشاه عباس، فانتزعت همذان وبغداد، واضطر الصفويون إلى عقد معاهدة قصر

---

(١) بازوكي، رضا: تاريخ إيران أزمغول تاأخشارية ص ٣٢٨. أوزتونا: جـ ١ ص ٤٤٩.

(٢) هدايت، رضا قليخان: ملخصات تاريخ روضة الصفا جـ ٨ ص ٤٠٤. دحلان، أحمد زين الدين: الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية جـ ٢ ص ١٣٢.

شيرين في عام (١٠٤٩هـ/ ١٦٣٩م) التي تعدُّ من الأُسس التي قامت عليها معاهدات الحدود بين الجانبين فيما بعد، فتنازل الصفويون عن مدينة بغداد بينما تخلَّت الدولة العثمانية عن مدينة روان للصفويين(١).

تعرَّضت فارس في أوائل القرن الثامن عشر لغزوة مدمِّرة قام بها الأفغان، وأجبر محمود بن أويس، والي قندهار، الشاه حسين الصفوي على التنازل عن العرش(٢). أثارت هذه الأوضاع اهتمامات القيصر الروسي بطرس الأكبر، فاستغلها واستولى على طاغستان وقلاع دربند وباكو الغربية وعقد اتفاقاً مع الشاه طهماسب ابن الشاه حسين تعهد له بطرد الأفغان من إيران مقابل تنازل الصفويين عن ولايات قزوين وكيلان ومازندران وأستراباد(٣).

واستغلت الدولة العثمانية هذه الفوضى لتشارك في تقطيع أوصال الدولة الصفوية، فضمَّت أرمينية والكرج وهمذان وروان وتبريز(٤).

ونتيجة للصراعات الداخلية في إيران، اضطر الشاه أشرف، الذي قتل الشاه محمود في عام (١١٣٧هـ/ ١٧٢٥م)، أن يتحالف مع العثمانيين لمقاومة أطماع الشاه طهماسب، وهاجم هذا الأخير ممتلكات العثمانيين في إيران، فاستعاد تبريز وهمذان وكرمنشاه، لكنه مني بهزيمة قاسية في عام (١١٤٥هـ/ ١٧٣٢م) في توريجان، واضطر إلى توقيع معاهدة صلح تنازل بموجبها للعثمانيين عن كثير من الأراضي(٥).

ويبدو أن نادر شاه، أحد ولاة الفرس، عارض هذا الصلح، فعزل مولاه وأقام ابنه الرضيع عباساً مكانه، ونصَّب نفسه وصياً عليه وتسمَّى باسم طهماسب قولي، وهاجم ممتلكات العثمانيين. وجرت بين الطرفين حرب قاسية للفوز بالعراق، لكنه اضطر إلى عقد معاهدة تفليس مع العثمانيين في عام (١١٤٩هـ/ ١٧٣٦م) ليتفرغ لقمع ثورة قامت ضد حكمه في إقليم فارس، وأعادت هذه المعاهدة الأمور إلى ما كانت عليه قبل التوسع العثماني في إيران(٦).

وحاول نادر شاه أن يفرض المذهب الجعفري كمذهب سنِّي خامس، فطلب من

---

(١) Hammer: II pp 483-484, 489-490.

(٢) الكركوكلي، الشيخ رسول: دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ص ١٦.

(٣) البطريق، عبد الحميد، ونوار، عبد العزيز: التاريخ الأوروبي الحديث ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٤) تاريخ إسماعيل عاصم: ص ٤٥ ـ ٤٩. فريد بك: ص ٣١٨. سرهنك: ص ٢٠٦.

(٥) الكركوكلي: ص ٢٨. فريد بك: ص ٣٢١. سرهنك: ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٦) الكركوكلي: ص ٣٥. سرهنك: ص ٢٠٩.

الدولة العثمانية الاعتراف به، ولما رفضت ذلك شنَّ حرباً كبرى عليها في الجزيرة الفراتية، وحاصر بغداد واستولى على كركوك، وتقدم نحو الموصل، وأرضروم، واقتنع أخيراً رغم انتصاره في روان بوجوب إجراء تعديل على حدود بلاده مع العثمانيين على أساس المعاهدة الأخيرة، وكفَّ عن مطالبته بإقرار مذهبه الجديد[١].

العلاقة العثمانية ـ النمساوية والمجرية

كانت النمسا تستغل الفرص المتاحة للتوسع على حساب العثمانيين في أوروبا، فسيطرت على المجر في أوائل القرن السابع عشر، وأساءت معاملة كل من تعاون مع الحكم العثماني، فثار السكان على الحكم النمساوي، وساندتهم الدولة العثمانية. وفي عام (١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م) كان من مصلحة الطرفين العثماني والنمساوي الوصول إلى تفاهم بفعل تجدُّد الخطر الصفوي، كما أن النمسا خشيت من امتداد الفتوح الإسلامية في أوروبا. وانتهت مفاوضات الصلح بعقد اتفاقية زيتفاتوروك في (شهر رجب/ شهر تشرين الثاني) التي أعفت النمسا من دفع الجزية، ورسمت الحدود بين الدولتين[٢].

لكن النمسا ظلَّت عقبة أمام التوسع العثماني في أوروبا، وكان لا بد من تذليلها، فهاجم العثمانيون مناطق السيطرة النمساوية وفتحوا قلعة نوهزل، وانتشروا في مقاطعتي موراڤيا وسيليزيا[٣].

نتيجة لهذا التقدم العثماني، استنجد الأمبراطور ليوبولد بالدول الأوروبية، فتلقَّى مساعدة من فرنسا، لكن العثمانيين حقَّقوا انتصاراً على المتحالفين وفتحوا مدينة نوڤيجراد، وحصن سرڤار، وعبروا نهر رابا، واشتكبوا مع قوى التحالف في رحى معركة ضارية في سان جوتار في (شهر محرم عام ١٠٧٥هـ/ الأول من شهر آب عام ١٦٦٤م)، وعلى الرغم من انتصار المتحالفين غير الواضح، مال الطرفان إلى الصلح الذي تضمَّن انسحاب الجيوش العثمانية من إقليم ترانسلڤانيا، وتعيين أبافي حاكماً عليه تحت سيادة الدولة العثمانية، وتقسيم بلاد المجر بينهما[٤].

والواقع إن الحرب تجدَّدت بين الجانبين في عام (١٠٩٣هـ/ ١٦٨٢م)، فقد كانت الخصومة التقليدية بين ڤيينا وباريس أحد الأسباب التي ساهمت في تجدُّدها.

---

(١) الكركوكلي: ص ٧٥ ـ ٧٦.
(٢) تاريخ نعيما: جـ ١ ص ٤٥٥ ـ ٤٥٨.
(٣) أوزتونا جـ ١ ص ٥٠٦. فريد بك ص ٢٩٥. سرهنك: ص ١٧١ ـ ١٧٢.
(٤) فريد بك: ص ٢٩٧.

وتسارعت الأحداث السياسية باتجاه الصدام، حين تأجَّج الوضع الداخلي في المجر بفعل الثورة التي اندلعت ضد آل هابسبورغ، واقترح النبلاء المجريون وعلى رأسهم توكلي، على السلطان محمد الرابع إخضاع ما بقي من المجر تحت الحكم النمساوي، مقابل دفع جزية سنوية، فجهَّز السلطان جيشاً جراراً بقيادة الصدر الأعظم قرا مصطفى باشا لقتال الامبراطور، وذلك في (شهر جمادى الأولى عام ١٠٩٤هـ/ شهر أيار عام ١٦٨٣م)، وانضم إليه توكلي[١].

كان الجيش الأمبراطوري يتوقع الحصول على إمدادات من إسبانيا والبرتغال وبولندة، فتراجع متمهلاً إلى ڤيينا. وفي (شهر رجب/ شهر تموز) ظهر العثمانيون أمام المدينة وضربوا الحصار عليها، وكادت أن تسقط لولا وصول جيش أمبراطوري من ألمانيا، استطاع بالتعاون مع فرق بولندية من إنزال الهزيمة بالعثمانيين عند قاهلنبرغ، إحدى ضواحي ڤيينا، في (شهر رمضان/ شهر أيلول) واضطروهم إلى رفع الحصار عن العاصمة[٢].

كشفت معركة ڤيينا عن ضعف الدولة العثمانية، وكانت مؤشراً لمرحلة جديدة في علاقاتها مع أوروبا التي اتجهت إلى اتخاذ سياسة هجومية. فهاجمت سفن البندقية سواحل بلاد اليونان والمورة، واحتلَّت معظم مدنهما، كما استأنفت النمسا حملاتها لإخراج العثمانيين من المجر، فاستولت قواتها على بعض المدن منها بودين ونيش وأرلو، كما شنَّت هجوماً على بلغراد في (شهر شوال عام١٠٩٩هـ/ شهر أيلول عام ١٦٨٨م)[٣].

استغلت روسيا هذا الوضع المأساوي ودخلت على الخط السياسي وهي تطمع في الحصول على منفذ بحري يوصلها إلى الشرق. وحقَّق بطرس الأكبر حلمه بالاستيلاء على قلعة آزوف في شمالي البحر الأسود. ولم تنته سلسلة هذه الحروب إلَّا بتوقيع معاهدة كارلوڤيتز في (شهر رجب عام ١١١٠هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٦٩٩م) تنازلت الدولة العثمانية بموجبها عن كامل بلاد المجر وترانسلڤانيا للنمسا، وعن كامل بودوليا وأوكرانيا لبولندة[٤].

---

(١) جودت، أحمد: تاريخ جودت جـ ١ ص ٦١. فريد بك: ص ٣٠٠. كولز: ص ١٩١.
Stoye, J: The Siege of Vienna: P 41.

(٢) Barker, Th: Double Eagle and the Crescent Vienna's Second Siege and its Historical Setting pp 217-227.

(٣) فريد بك: ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣، ٣٠٥ ـ ٣٠٦. أوزتونا: جـ ١ ص ٥٤٧ ـ ٥٥٢.

(٤) فريد بك: ص ٣٠٨ ـ ٣١١. أوزتونا: جـ ١ ص ٥٧١ ـ ٥٧٨. سرهنك: ص ١٩١ ـ ١٩٢.

لم تركن الدولة العثمانية إلى المسالمة إلَّا بقدر ما كانت تحتاجه من وقت لالتقاط أنفاسها. وقد قرَّر السلطان أحمد الثالث استعادة الأراضي التي فقدها العثمانيون في المورة، فأعلن الحرب على البندقية، وفتح عدة مدن منها كورنثة وأرغوس. استنجدت هذه الأخيرة بالنمسا فتدخل الأمبراطور عندئذ في الحرب. وأحرز الأمير يوجين نصراً حاسماً في بيتر ڤاردن، واستولى على تمشغوار آخر الحصون العثمانية في المجر، وعلى أكثر إقليم البغدان، ومدينة بلغراد. لكن السياسة الإسبانية في إيطاليا ما لبثت أن اعترضت تقدمه الظافر، كما أن اختلاف الاتجاهات السياسية والدينية بين النمساويين والمجريين كان عاملاً آخر دفع الأمبراطور النمساوي إلى عقد معاهدة بساروڤيتز مع العثمانيين في (شهر رجب عام ١١٣٠هـ/ شهر حزيران عام ١٧١٨م)، تنازل الباب العالي بموجبها للنمسا عن بلغراد وعن كامل منطقتها إلى مصب نهر الدانوب، وتخلَّى البنادقة عن المورة[١].

وتعرَّضت الدولة العثمانية إلى مزيد من الهزائم في عهد السلطان سليم الثالث حيث فقدت معظم أراضيها أمام تقدم النمسا وروسيا، فاستولت الأولى على معظم أراضي الأفلاق والبغدان وبساربيا، وتوغل جنودها في بلاد الصرب وسيطروا على مدينة بخارست، في حين استولت الثانية على مدينة بندر[٢].

واضطرت النمسا أخيراً، بعد وفاة الأمبراطور في عام (١٢٠٤هـ/ ١٧٩٠م)، وتزايد الضغط الأوروبي عليها إلى إبرام معاهدة صلح مع الدولة العثمانية في مدينة زشتوي الواقعة على نهر الدانوب، التي نظَّمت أوضاع البلقان والعلاقات العثمانية ـ النمساوية[٣].

العلاقة العثمانية ـ الروسية

توضحت سياسة روسيا تجاه الدولة العثمانية منذ عهد بطرس الأكبر، وظلت الدوافع الاقتصادية والسياسية والدينية تحثها للسيطرة على المضائق والعاصمة العثمانية للوصول إلى البحر الأبيض المتوسط، إلَّا أن مشاريعها كانت تصطدم دائماً بمصالح الدول الأوروبية. ونجح بطرس الأكبر في توسيع رقعة حدود بلاده شمالي البحر الأسود، على الرغم من تراجع قواته عسكرياً أمام القوات العثمانية، وتنازله تباعاً عن بعض الأراضي الشمالية وبخاصة قلعة أزوف بموجب معاهدة فلكزن،

---

(١) أوزتونا: جـ ١ ص ٦٠١. سرهنك ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢) فريد بك: ص ٣٦٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٦٤ ـ ٣٧٠.

الموقعة في (شهر جمادى الآخرة عام ١١٢٣هـ/ شهر تموز عام ١٧١١م)، ومعاهدة أدِرنة الموقَّعة في (شهر جمادى الآخرة عام ١١٢٥هـ/ شهر تموز عام ١٧١٣م)(١).

استمر العداء بين الدولتين العثمانية والروسية بعد وفاة بطرس الأكبر في عام (١١٣٧هـ/ ١٧٢٥م)، وحقَّقت روسيا أولى نجاحاتها في عام (١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م) بموجب معاهدة بلغراد حيث تنازل العثمانيون لها عن ميناء آزوف(٢).

واستأنفت روسيا سياستها التوسعية في عهد كاترين الثانية مستغلة كل حادث إقليمي أو دولي لتحقيق مآربها. ودخلت الدولة العثمانية في جوٍّ الصدام معها بفعل تدخلها في المسألة البولندية في عام (١١٧٧هـ/ ١٧٦٤م)(٣).

تراجعت الجيوش العثمانية أمام الزحف الروسي، ودخل الروس في (أواخر عام ١١٨٣هـ/ أوائل عام ١٧٧٠م) ولايتي الأفلاق والبغدان، وعبروا نهر الدانوب، وسيطروا على بخارست، ثم نقلوا الحرب إلى بلاد اليونان لضرب العثمانيين على أكثر من جبهة. وحقَّقت بحريتهم انتصاراً واضحاً على البحرية العثمانية في خليج چشمة على ساحل آسيا الصغرى، وهدَّدت العاصمة إستانبول(٤). أما في الشمال، فقد استولت الجيوش الروسية على قلاع إسماعيل وكلي وبندر وآق كرمان، وأخضعت شبه جزيرة القرم(٥).

نتيجة لتوسع رقعة الحرب، خشيت الدول الأوروبية من الهيمنة الروسية على البلقان، وخضوع الدولة العثمانية لإرادتها، فتوسطت كل من النمسا وبروسيا بين الطرفين. وتعثَّرت المفاوضات التي جرت في بخارست بفعل اشتطاط روسيا بمطالبها، مما جعل استئناف العمليات العسكرية أمراً واقعاً، فأحرز العثمانيون في هذه المرحلة بعض الانتصارات، وأخرجوا الروس من البلقان في عام (١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م)(٦)، لكن هؤلاء أحرزوا انتصاراً مهماً في شملا إلى الغرب من ڤارنا في العام التالي، وأجبروا العثمانيين على توقيع معاهدة كوتشك ڤينارجي في (شهر

---

(١) تاريخ جودت: جـ ١ ص ٦٤ ـ ٦٦. فريد بك: ص ٣١٤ ـ ٣١٥. أوزتونا: جـ ١ ص ٥٩٧.

(٢) Hurewitz, J. C: The Middle East and North Africa in world politics, a documentary Record I p 71.

(٣) فريد بك: ص ٣٣٠.

(٤) تاريخ جودت: جـ ١ ص ٨٧ ـ ٨٨. Saul, N, E: Russian and the Mediterranean: P 8.
فريد بك: ص ٣٣٤ ـ ٣٣٦.

(٥) سرهنك: ص ٢٢٣.

(٦) كامل، مصطفى: المسألة الشرقية ص ٣٠، ٣٣ ـ ٣٤.

جمادى الآخرة عام ١١٨٨هـ/ شهر تموز عام ١٧٧٤م) حصلوا بموجبها على مكاسب كبيرة للغاية، وأنهوا السيطرة العثمانية على البحر الأسود[1]، كما سيطروا على بلاد القرم نهائياً بموجب معاهدة ياش الموقَّعة في (شهر جمادى الأولى عام ١٢٠٦هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٧٩٢م)[2].

العلاقة العثمانية ـ الفرنسية

حتَّمت سياسة فرنسا الخارجية، منذ عهد الملك فرنسوا الأول، أن تكون علاقتها بالدولة العثمانية وديَّة ومزدهرة، وكان إذا ساد هذه العلاقة بعض الفتور في أوقات متقاربة أَو متباعدة، فإنَّها كانت لا تلبث أن تزول. والواقع أنه كانت لفرنسا مطامع في الشرق فسعت إلى الانفراد بالحصول على امتيازات تجارية وسياسية. وتوصل الاقتصادي الشهير كولبير حين تولى زمام الأمور في فرنسا إلى نظرية، وهي أنه لا يمكن لتجارة فرنسا أن تنمو وتزدهر إلَّا عن طريق إضعاف منافستيها التجاريتين إنكلترا وهولندا، بالإضافة إلى التوسع خارج القارة الأوروبية، ورأى أن قطع العلاقات مع العثمانيين يشكِّل كارثة لفرنسا، وتمكَّن بدبلوماسيته من التوصل إلى نوع من التفاهم معهم في (آخر شهر صفر عام ١٠٨٤هـ/ شهر حزيران عام ١٦٧٣م)، مُنحت فرنسا بموجبه امتيازات جديدة[3].

وما إن وافى القرن الثامن عشر حتى بدأ نجم روسيا في السطوع في سماء السياسة الأوروبية، وأثارت سياستها التوسعية كل من الدولتين العثمانية والفرنسية، وقد توافقت مصالحهما في منعها من الوصول إلى المياه الدافئة.

وتزايد شعور الفرنسيين بالأخطار التي تواجه بلدهم وسلامة تجارتها الشرقية بفعل الاندفاع الروسي، وأجبرتهم حرب الوراثة النمساوية على التحالف مع الدولة العثمانية ليدعموا موقفهم العسكري أمام النمسا، ومقاومة النشاط الروسي المتزايد، ومجابهة أخطار التكتل الأوروبي الذي ظهر على أثر نشوب الثورة الفرنسية في عام (١٢٠٣هـ/ ١٧٨٩م). والجدير بالذكر أنه لم يغب عن أذهان رجال الثورة ما للبحر الأبيض المتوسط والبلاد الواقعة على شواطئه من أهمية كبرى في التجارة الشرقية،

---

(١) تاريخ جودت: جـ ١ ص ٣٩٨ ـ ٤١١. Hurewitz: I pp 54-61.

(٢) كامل: ص ٤٧. Marriot, J. A. R: The Eastern Question p 140. Creasy, E. S: History of the Ottoman Turks II pp 498-503.

(٣) صباغ: جـ ١ ص ١٦١ ـ ١٦٢. خوري وإسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي جـ ١ ص ١٧ ـ ١٨.

وتأمين المواصلات بين أوروبا والهند، لذلك صمَّموا على الدفاع عن الوجود الفرنسي في هذا الجزء من العالم، في الوقت الذي اشتدت فيه المنافسة بين إنكلترا وفرنسا.

وكانت مصر، الخاضعة اسمياً للدولة العثمانية، هي التي شخصت إليها أبصار الدولتين لوقوعها على طريق الهند، فعقدت إنكلترا اتفاقية مع حكامها المماليك في عام (١٢٠٨هـ/ ١٧٩٤م) مُنحت بموجبها امتيازات تجارية مهمة.

أثار توقيع هذه الاتفاقية حفيظة فرنسا، لا سيما وأن القنصل الفرنسي في القاهرة فشل في كسب ودِّ المماليك، فقرَّر قادة الثورة غزو هذا البلد ووضع يدهم عليه، فأرسلوا حملة عسكرية في (أواخر عام ١٢١٢هـ/ ربيع عام ١٧٩٨م) بقيادة نابليون بونابرت، لاحتلاله، ونجح القائد الفرنسي في النزول إلى البر، فاستولى على الإسكندرية، وهزم المماليك الذين تصدوا له، في معركة الأهرام الشهيرة، ودخل على إثرها مدينة القاهرة. وحتى يسترضي السكان والدوائر العثمانية، أعلن أنه لم يأت فاتحاً بل حليفاً للدولة العثمانية، لتوطيد سلطانها ومحاربة المماليك الثائرين. ولما علمت إنكلترا بهذه الحملة، أرسلت أسطولاً بحرياً اشتبك مع الأسطول الفرنسي في أَبي قير ودمَّره، فقطع بذلك الاتصالات والمواصلات بين نابليون وفرنسا.

أدرك نابليون أهمية تلك الضربة، وحاول أن يكيِّف وضعه في مصر، وحقَّقت الدبلوماسية البريطانية والروسية نجاحاً حين دفعتا الباب العالي إلى التحالف معها لحرب فرنسا، في الوقت الذي سعت فيه هذه الأخيرة، عبثاً، أن تطمئن الدولة العثمانية بأن نياتها سلمية، وأن المقصود بالهجوم هو إنكلترا[١].

ونتيجة لفشل سياسته الهادفة إلى إحداث شرخ بين الدولة العثمانية والمصريين، بدأ بونابرت في تنفيذ سياسة جديدة، فأرسل حملة إلى بلاد الشام، مستبقاً الهجوم الذي ينتظره من الشمال[٢]. وكان قد بلغته أنباء عن تقدم جيش عثماني باتجاه الحدود المصرية، فسيطر على فلسطين الجنوبية ووصل إلى عكا، وقد رفض حاكمها أَحمد باشا الجزار التعاون معه، فضرب الحصار عليها في (شهر شوال عام ١٢١٣هـ/ شهر آذار عام ١٧٩٩م)، لكنه اضطر إلى فك الحصار عنها

---

(١) شكري، محمود فؤاد: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ص ٧٠ ـ ٧٣، ١٢٣. خوري وإسماعيل: جـ١ ص ٩٦ ـ ١٠٠، ١٠٨ ـ ١٠٩. Hurewitz: I p 65.

(٢) فيشر، هربرت: تاريخ أوروبا في العصر الحديث: ص ٥٤.

والعودة إلى القاهرة بسبب تفشي الوباء بين جنوده، ومساعدة القائد الإنكليزي السير سدني سميث المدينة من البحر، ويقظة حاكمها[(١)].

واضطر نابوليون بعد ذلك إلى مغادرة مصر إلى فرنسا بسبب تردي الأوضاع في أوروبا تاركاً الجيش الفرنسي في مصر بقيادة كليبر.

سعى كليبر، فور تسلمه القيادة، إلى إجراء مفاوضات مع العثمانيين من أجل الوصول إلى شروط مناسبة لخروج الفرنسيين من مصر. وتمخضت المفاوضات عن توقيع اتفاقية العريش في (شهر شعبان عام ١٢١٤هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٨٠٠م)، لكن اعتراض إنكلترا على بعض بنودها، عطَّل وضعها موضع التنفيذ. ثم حدث أن اغتيل كليبر في (شهر صفر عام ١٢١٥هـ/ شهر حزيران عام ١٨٠٠م)، فتسلم القائد عبد الله منو قيادة القوات الفرنسية مكانه. وتعاونت الدولتان العثمانية والبريطانية لإخراج الفرنسيين من مصر، وتمكَّنت جيوشهما من الانتصار على منو في معركة الإسكندرية في (شهر ذي القعدة عام ١٢١٥هـ/ شهر آذار عام ١٨٠١م)، واستسلمت القاهرة لهما. وعملت إنكلترا على إجلاء الفرنسيين على سفنها في (شهر ربيع الأول عام ١٢١٦هـ/ شهر أيلول عام ١٨٠١م)[(٢)].

مرحلة الإصلاح والتغيير والتنظيمات في القرن التاسع عشر حتى صدور دستور عام ١٨٧٦

إصلاحات محمود الثاني

١٢٢٣ ـ ١٢٥٥هـ/ ١٨٠٨ ـ ١٨٣٩م

واجه السلطان محمود الثاني، في مستهل حياته السياسية، عدة أزمات خطيرة تمثَّلت بـ: قوة الإنكشارية والعلماء في الداخل، واشتداد العصبيات في الولايات، وظهور الحركة الوهابية في الحجاز، وتعرُّض الدولة للضغط الفارسي في العراق، ونشاط روسيا في إثارة قوميات البلقان. ولما كان عاجزاً عن التصدي لها، اتجه إلى تقوية أجهزة الدولة العسكرية والمدنية بإحداث إصلاحات تعطي الدولة قدرة على الصمود والاندفاع.

فعلى الصعيد العسكري، اعتمد التجنيد الإجباري في محاولة للاستغناء عن

(١) الترك، المعلم نقولا: ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية ص ٧٦، ٩٦ - ٩٧. خوري وإسماعيل: جـ ١ ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٢) الترك: ص ١٥٢ ـ ١٥٣، ١٦١ ـ ١٦٤.

استخدام المرتزقة، وجهَّز الجيش بالأسلحة الحديثة، ودرَّبه على أحدث الأساليب العسكرية الغربية. والتفت بعد ذلك إلى تحديث الفرق الإنكشارية لتتماشى مع الفرق العسكرية المستحدثة في الجيش، لكن هؤلاء رفضوا أي تغيير في أنظمتهم، فدبر لهم مذبحة في (شهر ذي القعدة عام ١٢٤١هـ/ شهر حزيران عام ١٨٢٦م) أبادهم فيها، ثم أصدر فرماناً ألغى فرقهم من جهاز الدولة العسكري، وخطاً شريفاً قضى بإنشاء جيش جديد وفقاً للنظم الأوروبية الحديثة، كما ألغى بعض الفرق العسكرية غير المنتظمة، فأضحى الجيش كله مؤلفاً من جنود منتظمين، ثم قضى على الجماعات المعارضة. ويسمي العثمانيون معركة القضاء على الإنكشارية بـ «وقعة خيرية»[(١)].

أما على الصعيد المدني فقد حقَّق إنجازاً مهماً في تطوير الجهاز الإداري لتعزيز سلطة الحكومة المركزية. فأعاد تنظيم العمل الحكومي، ووسَّع نطاق الأجهزة الحكومية، وأبطل عادة منح المناصب الحكومية كالتزامات أو إقطاعات، واستحدث نظاماً للتعيينات والترقيات والرواتب، وأصلح نظام التعليم الابتدائي الذي أضحى من مسؤولية الدولة، وأنشأ المدارس لتأهيل الطلاب للدخول في المستقبل إلى مختلف مدارس الجيش والبحرية والطب، وأنشأ نظام الحجر الصحي، وأرسل البعثات الدراسية إلى الخارج، وعمل على تغيير العادات القديمة بتطبيق العادات الأوروبية، فاستبدل العمامة بالطربوش، وتزيا بالزي الأوروبي، وأعاد تنظيم إدارة الولايات، وقام بأول إحصاء سكاني في عام (١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م)[(٢)].

فهل حقَّق السلطان محمود الثاني غاياته؟ أسارع إلى الإجابة بالنفي. ذلك أن هذه المحاولات التي نفَّذها، على الرغم من أهميتها، لم تؤد إلى استعادة الدولة قدرتها على الانتصار في صراعها مع أعدائها في الخارج، وإن مكَّنته من استعادة نفوذه وسلطته في الداخل، بدليل أنه فشل في القضاء على الحركات الانفصالية في البلقان، كما استعان بوالي مصر محمَّد علي باشا لإخضاع الوهابيين في الحجاز والقضاء على الثورة اليونانية، وعجز عن إخضاع واليه المصري عندما خرج عليه، ثم استسلم لمطالب الدول الأوروبية أثناء تدخلها لحل هذه المشكلات وفقاً لمصالحها، لكن إصلاحاته، شكَّلت الأساس لمشاريع خلفائه المصلحين. واحتلت فرنسا، في

(١) أوزتونا: جـ١ ص ٦٧٦ ـ ٦٧٧ مصطفى: ص ١٩٠. Lewis: pp 78-80. Shaw: II 29.

(٢) رافق، عبد الكريم: العرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦ ص ٣٧٩. عمر، عمر عبد العزيز: تاريخ المشرق العربي ١٥١٦ ـ ١٩٢٢ ص ٢٧١ ـ ٢٧٢. Lewis: Ibid p 83.

عهده، الجزائر في (شهر ذي الحجة عام ١٢٤٥هـ/ شهر حزيران عام ١٨٣٠م)، وقد شكّل سقوط هذا البلد علامة فارقة لتراجع الدولة العثمانية وبالتالي ضُعف هيبتها[1].

إصلاحات عبد المجيد الأول

١٢٥٥ ـ ١٢٧٧هـ/ ١٨٣٩ ـ ١٨٦١م

منشور الكلخانة

خلف السلطان عبد المجيد الأول السلطان محمود الثاني، وكان صبياً لم يبلغ الثالثة عشرة من عمره، وورث في مستهل حياته السياسية المشكلة المصرية بكل أبعادها وأخطارها وتشعباتها. فقد توغلت الجيوش المصرية بعيداً في عمق الأراضي العثمانية، مما وضع هذه المشكلة والمسألة الشرقية، وقضية التوازن الأوروبي بعامة، موضع البحث، والنظر. فتدخلت الدول الأوروبية مجدداً لإيجاد مخرج ملائم يرضي كافة الأطراف. واجتاز محمَّد علي باشا مأزق الخلع عن ولاية مصر بعد أن جلا عن بلاد الشام بموجب معاهدة لندن الموقعة في (شهر جمادى الأولى عام ١٢٥٦هـ/ شهر تموز عام ١٨٤٠م)[2].

وتوافقت اتجاهات السلطان مع ميول وزير خارجيته مصطفى رشيد باشا في إصدار دستور يحدِّد حقوق المواطنين الأساسية، ويلغي المساوىء الأكثر بروزاً في إدارة الدولة، ويكسب عطف كل من إنكلترا وفرنسا، ويأمن عدوان روسيا، ويحول دون قيام شعوب الدولة بالثورة عليها. وبعد أن أُعدَّتْ وثيقة الدستور، أُعلِنتْ في (٢٥ شعبان عام ١٢٥٥هـ/ ٣ تشرين الثاني عام ١٨٣٩م) في قصر كلخانة، ولهذا عرفت بهذا الاسم، وبدأ نتيجة ذلك عهد جديد يسمى عهد التنظيمات الخيرية العثمانية[3].

ويبدو أن هناك ترابطاً بين قبول السلطان بإصدار هذا المنشور والهزيمة العثمانية أمام القوات المصرية في نصيبين من جهة، ورغبة الدولة في كسب تأييد

(١) عبد الكريم: ص ٤١٠ ـ ٤١١، ٤١٦ الترز: ص ٦٥٠ ـ ٦٥١، ٦٥٤.

(٢) بازيلي، قسطنطين ميخائيلوفيتش: سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والاجتماعية: ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩، ٣٠٠. مصطفى كامل: ص ٩٩ ـ ١٠٠. فريد بك ص ٤٦٥.
Hurewitz: I pp 116-119.

(٣) الحصري، ساطع: البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٨٧. Davison, R. H: Reform in the Ottoman Empire p 38.

الدول الأوروبية لموقفها من المشكلة المصرية من جهة ثانية[١].

والحقيقة أن المنشور لم يتضمَّن أفكاراً جديدة، وحاول المزج بين القديم والحديث بهدف الوفاء بمطالب المصلحين دون استفزاز القوى المحافظة[٢]. ولقد كان للاعتبار المزدوج القاضي باسترضاء مشاعر الأمة الإسلامية، واكتساب عطف النصارى، أثره فيما تضمَّن من تناقض تمثَّل في تمجيد السنن الإسلامية بوصفها السبيل الوحيد الآيل إلى إنقاذ الدولة، ثم في إشارته إلى ضرورة الأخذ بالدساتير الحديثة. ومع ذلك، فقد شكَّل خطوة نوعية نحو الأخذ بالقوانين الوضعية حين قرَّر المساواة بين المسلم وغير المسلم، وبتوزيع نزيه وعادل للضرائب[٣]، وألغى المنشور ثلاثة من مساوىء العهود السابقة طالما عُدَّتْ ظالمة وهي الاحتكارات، والمصادرات، وتضمين جباية الضرائب في الولايات لمن يدفع ثمناً أعلى، أما عقوبة الموت فقد ربطت بالحكم الصادر بعد تحقيق قانوني، وحارب الفساد، والرشوة، ومنع شراء المناصب، وقرَّر حقوق الإنسان[٤].

واجه الخط في الخارج عاصفة من النقد، وسيلاً من التأييد وفقاً لمصلحة كل دولة. أما في الداخل فقد واجه معارضة قوية، وبخاصة في تلك الجهات التي تتجاوز فيها عصبيات مذهبية مختلفة، إسلامية ونصرانية، مثل جبال لبنان.

والحقيقة أن نجاح تطبيق معظم بنوده كان محكوماً عليه بالفشل، لأن الامتيازات الأجنبية المستغلة لتنفيذ النزعات الانفصالية استمرت ناشطة في مقابل استمرار تركيز سلطات الحكومة التي كان هدف المنشور الحد منها.

الخط الهمايوني: منشور التنظيمات أو الإصلاحات الخيرية

اتخذت المسألة الشرقية في أواخر القرن الثامن عشر شكلها الحديث، وبرزت مع بداية انحسار المد التوسعي العثماني عن أوروبا، ومع اتجاه العثمانيين المتزايد نحو فقدانهم تفوقهم العسكري أمام الدول الأوروبية.

وتُعدُّ حرب القرم (١٢٧٠ ـ ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٤ ـ ١٨٥٦م) من أهم مراحل المسألة الشرقية في العصر الحديث، وهي القضية الثانية التي واجهت السلطان عبد المجيد الأول بعد المشكلة المصرية. ومهما قيل في أسباب اندلاعها تبقى قضية

---

(١) Davison, R. H: Reform in the Ottoman Empire p 38.

(٢) فريد بك: ص ٤٨٠ ـ ٤٨٤. Hurewitz: I pp 113-116.

(٣) Davison: pp 39-40. (٤) الحصري: ص ٢٨. Ibid: p 40.

التوازن الأوروبي من خلال المسألة الشرقية، وتقسيم أراضي الدولة العثمانية في رأس هذه الأسباب.

وساندت كل من بريطانيا وفرنسا الدولة العثمانية في موقفها الرافض لتوثبات روسيا الطامعة في أراضيها، ونشطت الدبلوماسية طوال فترات الحرب لإيجاد مخرج ملائم لحلها على الرغم من انتصار الحلفاء، وقد انبثق أخيراً من خلال مؤتمر باريس المنعقد في (شهر جمادى الآخرة عام ١٢٧٢هـ/ شهر شباط عام ١٨٥٦م).

ونتيجة لتضارب مصالح الدول الأوروبية الفاعلة، وعلى الرغم من حالة الارتباك التي سادت الأوساط العثمانية المنهكة بفعل الحرب، منح المؤتمرون الدولة العثمانية أجلاً جديداً للبقاء على قيد الحياة، وأحيط المؤتمرون علماً بنوايا السلطان في إصدار فرمان لصالح القاطنين في أراضيه، والاعتراف بالمساواة التامة بين رعاياه على مختلف أديانهم ومذاهبهم[١].

وصدر الخط الهمايوني في (١٠ جمادى الآخرة عام ١٢٧٢هـ/ ١٨ شباط عام ١٨٥٦م) بتأثير دافعين:

الأول: ضغط الدول الأوروبية، وبخاصة بريطانيا وفرنسا، بعد حرب القرم التي طالبت بإصلاح وتحسين أوضاع النصارى في الدولة، حتى تقطع على روسيا سبل تدخلها مرة أخرى في شؤونها الداخلية، وتضمن، في الوقت نفسه، استمرار السلام في المستقبل[٢].

الثاني: اقتناع رجال الإصلاح في الدولة بضرورة إصلاح إدارتها وتجديدها على أساس اقتباس النظم الأوروبية دون مساس بالأحكام الشرعية.

أكَّد الخط على التعهدات التي منحها السلطان في منشور الكلخانة، لكنه أضاف إليها مبدأ هاماً يتعلق بامتيازات وحصانات لرعايا الدولة غير المسلمين، ومعاملتهم بشكل متساوٍ مع الرعايا المسلمين، مع إبقاء الحقوق والامتيازات الممنوحة لرؤساء الملل غير المسلمة، وألغى عبارات التحقير التي كانت تُلقى في خطب الجمعة ضد النصارى[٣].

والواقع أن السلطات العثمانية عجزت عن تطبيق مبدأ المساواة بين الطوائف بحذافيره، كما فُسِّر مضمونه من زوايا متعددة وفقاً لمصلحة الجماعات المستفيدة من

---

(١) Hurewitz: I pp 153-156.

(٢) Lewis: p 114. Davison: p 52.

(٣) مصطفى: ص ٢١٦. دائرة المعارف الإسلامية: جـ ٥ ص ٥٠١ ـ ٥٠٢. Davison: p 57.

أحكامه، لذلك ظلَّت الدول الأوروبية تستفيد من الأوضاع القلقة لبسط حمايتها على النصارى وتحريكهم من حين لآخر، مما أدَّى إلى وقوع الفتن في بلاد الشام وجبل لبنان[١].

هذا وقد صدرت، بعد الخط الهمايوني، مجموعة من القوانين التنظيمية تناولت المجتمع العثماني، أهمها، قانون الأراضي عام ١٨٥٨م، وقانون الولايات عام ١٨٦٤م، ومجموعة القوانين الجنائية والتجارية ١٨٦٠ ـ ١٨٦٣م[٢].

وتوفي السلطان عبد المجيد الأول في (شهر ذي القعدة عام ١٢٧٧هـ/ شهر حزيران عام ١٨٦١م)، وبويع لأخيه عبد العزيز من بعده.

عبد العزيز

١٢٧٧ ـ ١٢٩٣هـ/ ١٨٦١ ـ ١٨٧٦م

استهل السلطان عبد العزيز حكمه ببداية موفقة، وبدا أنه يعتزم اتباع خطى أسلافه في الإصلاح، حتى لا يعطي الدول الأوروبية حجة للتدخل في شؤون الدولة، فألغى تعدد الزوجات، واختصر جميع النفقات[٣]، لكن سرعان ما انقلب إلى مبذر يبدِّد أموال الدولة[٤]. أضف إلى ذلك، فقد وجد السلطان نفسه، منذ اعتلائه العرش، في ضيق مالي بسبب ما خلَّفه أسلافه من دين كبير. وعانت الدولة من مصاعب مالية متصلة الحلقات، فلجأ إلى الاستدانة من إنكلترا، واضطر مقابل ذلك إلى الموافقة على القبول بتعيين مراقبين بريطانيين لمراقبة وجوه الإنفاق. وبناء على اقتراح هؤلاء أُنشىء في إستانبول ديوان للمحاسبة، ومصرف للدولة، ولكن هاتين المؤسستين لم تستطيعا إصلاح مالية الدولة العامة إصلاحاً فعَّالاً لافتقارهما إلى الموظفين الأكفاء[٥].

شهد عهد السلطان عبد العزيز اضطرابات في البلقان، نتج عنها حصول الجبل الأسود على حكم إداري ذاتي[٦]، ونجاح الصربيين في إرغام الحاميات العثمانية على الانسحاب من صربيا[٧].

---

(١) Davison: pp 53, 55, 95.
(٢) نوار: ص ٩٤
(٣) Lewis: P 118. Davison: pp 110-111.
(٤) باتريك، ماري مايلز: سلاطين بني عثمان ص ٧٥ ـ ٧٦.
(٥) أوين، روجر: الشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي: ص ١٤٧ ـ ١٥٧.
(٦) فريد بك: ص ٥٣٤. سرهنك: ص ٣٣٦.
(٧) سرهنك: ص ٣٣٧.

ثم حدث أن عُزل السلطان عبد العزيز من قِبَل رجال القصر ومعظمهم من جماعة تركيا الفتاة التي أخذت بالظهور بدءاً من عام (١٢٧٦هـ/ ١٨٦٠م)، وذلك في (٥ جمادى الأولى عام ١٢٩٣هـ/ ٣٠ أيار عام ١٨٧٦م)، ورفع المتآمرون السلطان مراد الخامس إلى العرش[١].

مراد الخامس

١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م

عُرف عن السلطان مراد الخامس حبه للإصلاح، لكن صحته تدهورت قبل ذلك، فلم يكن بالرجل الذي يستطيع مجابهة الأحداث، فعُزل في (٧ شعبان/ ٣٠ آب) بعد ثلاثة أشهر من توليته، ورُفع أخوه عبد الحميد الثاني إلى العرش[٢].

تقييم حركة الإصلاح العثماني حتى آخر عهد السلطان عبد العزيز

صادفت حركة الإصلاح العثماني، أثناء التطبيق العملي، عدة عقبات أعاقتها عن الانطلاق باندفاع أهمها:

- قصور من قِبَل الأشخاص الذين حملوا لواء هذه الحركة.
- وقوف هؤلاء في منتصف الطريق، ولم يصلوا إلى نهايته.
- افتقارهم إلى الخبرة اللازمة لتنفيذ الإصلاح تنفيذاً سليماً.
- موقف المتشدِّدين الرافض.
- فشل الدولة في تنفيذ مضامين المرسومين الإصلاحيين اللذين أصدرتهما في عامي ١٨٣٩م و١٨٥٦م.
- اقترنت حركة الإصلاح باشتداد الأزمة المالية، واعتقدت الدول الأوروبية أن الدولة العثمانية فشلت في تنفيذ هذه الحركة، بل إنها غير جادَّة في المضي إلى نهايتها.
- كانت حركة الإصلاح الباب الذي مارست عبره الدول الأوروبية تدخلاً في شؤون الدولة الداخلية.

---

(١) سرهنك: ص ٣٤٩.

(٢) باتريك: ص ١٠٦. فريد بك: ص ٥٨٥ ـ ٥٨٦.

تنفيذ نظرية الجامعة الإسلامية
والمشروطية طيلة عهد عبد الحميد الثاني
١٢٩٣ ـ ١٣٢٧هـ/ ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩م

عبد الحميد الثاني والدول الأوروبية

استمرار الاضطرابات في البلقان

تولى السلطان عبد الحميد الثاني الحكم في ظروف استثنائية يكتنفها الظلام والقسوة. فقد كانت البلاد تمر في أزمات حادة، ومصاعب مالية كبيرة، وتشهد ثورات عاتية في البلقان، وتتعرَّض لمؤامرات سياسية بهدف اقتسام تركة الرجل المريض. وعاصر هذا السلطان الزحف الاستعماري الأوروبي في أشد مراحله في الوقت الذي كانت فيه الدولة تعاني الكثير من أسباب الاضمحلال، ووجد نفسه في جو مشبع بالثورة والاضطراب.

لقد تجدَّدت، في مستهل حياته السياسية، الثورات في البلقان، فتدخلت روسيا وأوعزت إلى أميري الصرب والجبل الأسود بإعلان الحرب على الدولة العثمانية، وقام العثمانيون للدفاع عن أراضيهم، وهزمت قواتهم الثوار، ولم يمنعهم من التقدم إلى بلغراد سوى إنذار روسي[١]. ثم تدخلت الدول الأوروبية بين الطرفين، ووافق السلطان تحت الضغط الروسي على تنفيذ هدنة لمدة شهرين اعتباراً من (شهر رمضان ١٢٩٣هـ/ شهر تشرين الأول عام ١٨٧٦م).

استاءت إنكلترا من التصرف الروسي وحاولت التخفيف من حدَّة الأزمة، فدعا وزير خارجيتها اللورد دربي إلى عقد مؤتمر للسفراء في إستانبول للبحث في تحسين أحوال الرعايا النصارى في البلقان عن طريق مقترحات جديدة للإصلاح، رأت فيها الدولة العثمانية مسّاً بسيادتها. وسعى السلطان إلى اجتناب هذا العدوان على سيادة الدولة، فمنح البلاد دستوراً، وأعلن في اليوم الأول لانعقاد المؤتمر في (٥ محرم ١٢٩٤هـ/ ٢٠ كانون الثاني ١٨٧٧م)، صدور المشروطية، فانفض المؤتمر دون أن ينجز شيئاً، لكن انفضاضه على هذا الشكل أدَّى إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية[٢].

---

(١) فريد بك: ص ٦١٥ ـ ٦١٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٦١٤، ٦١٦. كامل، مصطفى: ص ١٥٣ ـ ١٥٧. جرانت وتمبرلي: أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين جـ ٢ ص ١٧. باتريك: ص ١١٢.

الحرب العثمانية ـ الروسية ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م

أدركت روسيا قبل أن ينفض المؤتمر أن النتيجة لن تكون إيجابية، وأخذت تستعد للحرب دبلوماسياً وعسكرياً. فعقدت معاهدة مع النمسا في (أول محرم عام ١٢٩٤هـ/ ١٦ كانون الثاني عام ١٨٧٧م) لترتيب أوضاع البلقان، ومع بلغاريا في (شهر ربيع الآخر/ شهر نيسان) تسمح لقواتها بعبور الأراضي الرومانية للوصول إلى عمق الأراضي العثمانية، وأوفدت مندوبها أجناتيف إلى الدول الأوروبية الغربية لوضع ترتيبات مناسبة لقضية البلقان، وطالبت السلطان بتنفيذها[(١)].

رفض مجلس المبعوثان هذه الترتيبات، مما دفع روسيا إلى التدخل عسكرياً، وشاركتها رومانيا التي أعلنت استقلالها من جانب واحد في (الأول من شهر جمادى الأولى/ ١٤ أيار)[(٢)].

تقدمت القوات المتحالفة في البلقان أمام تراجع القوات العثمانية وسقطت المدن في أيديها. واقتربت القوات الروسية من مشارف إستانبول، فاضطر السلطان إلى طلب عقد هدنة، كما اضطرت روسيا من جانبها إلى الاستجابة لأنها كانت منهكة بفعل العمليات العسكرية، ونظراً لتدخل بريطانيا[(٣)].

ونتيجة للمفاوضات التي جرت بين الطرفين، العثماني والروسي، تمَّ توقيع معاهدة سان ستيفانو في (٢٨ صفر عام ١٢٩٥هـ/ ٣ آذار عام ١٨٧٨م)، تنازلت بموجبها الدولة العثمانية لروسيا عن قلعة قارص بأرمينية، وثغر باطوم المهم، ووافقت على إنشاء إمارة بلغارية مستقلة، ومنح رومانيا استقلالاً مع إعطائها ثلثي إقليم دوبروجا[(٤)].

وهكذا فقد نجحت روسيا في ترتيب أوضاع البلقان وفقاً لمصالحها، ففرضت كيانات سياسية نصرانية تدور في فلكها. بَيْدَ أن بريطانيا، وهي التي كان الباب العالي قد تخلَّى لها عن جزيرة قبرص مقابل ما أسدته إليه من مساعدة عسكرية؛ رفضت الاعتراف بهذه المعاهدة كما رفضتها النمسا وقوبلت بعاصفة من الاحتجاج من

---

(١) انظر هذه المطالب عند: فريد بك: ص ٦٢٠ ـ ٦٢١.

(٢) كامل: ص ١٥٩. Miller: p 373.

(٣) كامل: ص ١٥٩ ـ ١٦٢. فريد بك: ص ٦٣٤ ـ ٦٣٩. الشناوي: جـ ٢ ص ١٠٨٠.
Barnwell, R. J: The Russo-Turkish War: pp 462-480. Jelavich, B: The Ottoman Empire p 97.

(٤) انظر النص عند فريد بك: ص ٦٥٢ ـ ٦٦٤.

جانب دول البلقان. فاضطرت روسيا إلى أن توافق على إعادة النظر فيها في مؤتمر عُقد في برلين في (٢٢ جمادى الآخرة ١٢٩٥هـ/ ٢٣ حزيران ١٨٧٨م)، وانتهى إلى قرارات أعادت رسم خريطة البلقان من جديد بشكل يتعارض مع مصالح الدولة العثمانية. ففي أوروبا قُسِّمت بلغاريا الكبرى إلى ثلاثة أقسام هي:

- إمارة بلغاريا الجنوبية، وعاصمتها مدينة صوفيا، وقد منحت استقلالاً يكاد يكون تاماً.

- ولاية الروملي الشرقية، وتقع جنوبي جبال البلقان، وعاصمتها مدينة فيليبوليس، وُضعت تحت النفوذ العثماني مع إدارة داخلية مستقلة.

- مقدونيا وساحلها الجنوبي، أعيدتا إلى الدولة العثمانية.

وقضى المؤتمر بمنح رومانيا والجبل الأسود وبلاد الصرب استقلالاً تاماً على أن تتخلّى رومانيا عن بسارابيا لروسيا، وتحصل لقاء ذلك على منطقة دوبروجا، وقنعت اليونان بترضية إقليمية.

وفي آسيا تنازلت الدولة العثمانية عن أردهان وقارص وباطوم لروسيا، وعن مدينة ختر لفارس، واستعادت وادي الأكراد ومدينة بايزيد.

ولعل أهم قرارات المؤتمر خطراً هو منح النمسا حق احتلال البوسنة والهرسك وسنجق نوفي بازار.

أهم الأزمات التي واجهت عبد الحميد الثاني بعد مؤتمر برلين

تمهيد

كشفت قرارات مؤتمر برلين عن ضعف الدولة العثمانية، فاستغلت الكيانات السياسية والقومية هذا الضعف، وقامت بانتفاضات على الحكم المركزي بهدف الحصول على الاستقلال التام، وفي الوقت نفسه لم تنفك الدول الأوروبية تحيك الدسائس ضد الدولة، وتشجع القوميات على الثورة بهدف اقتطاع أجزاء أخرى من أملاكها. ولعل أهم الأزمات التي واجهت السلطان عبد الحميد الثاني بعد مؤتمر برلين هي:

احتلال بريطانيا قبرص

تنازلت الدولة العثمانية عن هذه الجزيرة لبريطانيا لقاء مساعدتها في مؤتمر

برلين، وتشكِّل هذه الجزيرة نقطة استراتيجية في الطريق إلى الهند[١].

احتلال فرنسا تونس

استاءت فرنسا من احتلال بريطانيا جزيرة قبرص، فعمدت إلى استرضائها حتى لا تنضم إلى المعسكر الروسي. أما بسمارك، فقد أراد أن تتلهّى فرنسا بتونس كي توجه نشاطها السياسي والعسكري خارج القارة الأوروبية، وكانت فرنسا تتطلع دائماً إلى احتلال تونس بهدف تأمين الحدود الشرقية للجزائر.

وهكذا، جعلت اتفاقية قبرص من تونس موضوعاً للمناقشة بحجة المحافظة على التوازن الدولي في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. وسرعان ما غضَّت فرنسا الطرف عن احتلال بريطانيا لجزيرة قبرص، وقبلت العرض البريطاني باحتلال تونس. وقد دخلتها القوات الفرنسية في (شهر جمادى الآخر عام ١٢٩٨هـ/ شهر أيار عام ١٨٨١م)[٢].

احتلال بريطانيا مصر

كان احتلال بريطانيا لمصر، إحدى نتائج مؤتمر برلين. وكانت بريطانيا قد حاولت أكثر من مرة احتلال هذا البلد ذي الموقع الاستراتيجي في الطريق إلى الهند. وابتداء من عام (١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م) زادت تدخلها في شؤونه الداخلية، فتصدَّى لها الخديوي إسماعيل. عندئذ لم تر بداً من إقناع السلطان عبد الحميد الثاني بإقالته، ولم يكن خلفه الخديوي توفيق إلَّا مجرد دمية في يد بريطانيا. وقد أدَّى استسلامه إلى نمو الشعور القومي، واندلاع الثورة العرابية، فتدخلت بريطانيا عسكرياً وقضت على الثورة، واحتلت مصر مدعية أنها فعلت ذلك باسم الخديوي توفيق وذلك في عام (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م)[٣].

ضمُّ الروملي الشرقية إلى بلغاريا

وضع مؤتمر برلين الروملي الشرقية تحت السيادة العثمانية على أن يحكمها حاكم نصراني منتخب. والواقع أن أليكو باشا، وهو أول حاكم لهذه الولاية، أضمر

(١) فريد بك: ص ٦٧٢. كامل: ص ١٧٧. الشناوي: جـ٢ ص ١١٠٥ ـ ١١٠٨. جرانت وتمبرلي: جـ٢ ص ٢٣.

(٢) كامل: ص ٢١٠ ـ ٢١١. صفوت. ص ٥٥.

(٣) كامل: ص ٢١٤ ـ ٢١٨. انظر فيما يتعلّق بتطور الأحداث في مصر: الرافعي، عبد الرحمن: الثورة العرابية والاحتلال الإنكليزي.

العداوة للعثمانيين، وسعى إلى ضمِّها إلى بلغاريا، وفعلاً نجحت القوى المعادية للعثمانيين في ضمِّها إلى بلغاريا تحت زعامة الأمير إسكندر باتنبرج[١].

المشكلة اليونانية

أزعج ضمُّ الروم‌للي الشرقية إلى بلغاريا اليونان، فقامت بمحاولة لتوسيع أراضيها على حساب العثمانيين بضمِّ جزيرة كريت والولايات العثمانية المتاخمة لحدودها الشمالية. كان من الطبيعي أن ترفض الحكومة العثمانية هذا التوجه، مما أدَّى إلى اندلاع الحرب بين الطرفين في عام (١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م)، هُزمت اليونان في هذه الحرب، فتدخلت الدول الأوروبية للحؤول دون انهيارها، وأجبرت السلطان على وقف القتال[٢].

الأزمة الأرمينية

كانت أرمينية مقسمة سياسياً بين ثلاث دول هي فارس وروسيا والدولة العثمانية. والواقع أن الثورة الأرمينية كانت من نتائج مؤتمر برلين غير المباشرة، بفعل أن الأَرمن لم يظفروا من هذا المؤتمر إلَّا بوعدين من الباب العالي هما إدخال الإصلاحات التي تستلزمها حالة أرمينية الواقعة تحت السيادة العثمانية، ومنح سكانها الأمن والاستقرار[٣]، مما شكَّل صدمة عنيفة للأرمن، فقاموا بانتفاضات شعبية، وأنشأوا جمعيات إرهابية راحت ترتكب المذابح بين المسلمين والأَرمن بهدف إثارة الرأي العام في أوروبا.

رأى العثمانيون أن القضية الأرمينية هي مسألة حياة أَو موت بالنسبة لهم، لأن الأَرمن كانوا يطالبون بالقسم الشرقي من الأَناضول ليقيموا عليه دولتهم، والأَناضول هو الموطن الأصلي للعثمانيين، وقلب دولتهم؛ لذلك واجهت الدولة العثمانية هذه الأعمال الإرهابية بحزم[٤]، وتدخَّلت الدول الأوروبية في هذه القضية تبعاً لمصالحها التي كانت متضاربة، مما حال دون إيجاد حل مناسب لها.

ثم حدث أن صعَّد الأَرمن عملياتهم الإرهابية، ونقلوها إلى العاصمة

---

(١) كامل: ص ٢٨٢. Miller: pp 412, 417. الشناوي: جـ ٤ ص ١٨٩٤.
Taylor, A. J. P: The Struggle for Mastery in Europe 1848-1918 p 306.

(٢) باتريك: ص ١٣٣. Miller: pp 436-438. (٣) فريد بك: ص ٦٩٦ ـ ٦٩٧.

(٤) كامل: ص ٣٢١ ـ ٣٢٤، ٣٢٩ ـ ٣٤٢. أستارجيان: ك. ل: تاريخ الأمة الأرمنية: ص ٢٩٠ ـ ٢٩٤، ٣٠١ ـ ٣٠٢.

إستانبول، وحاولوا اغتيال السلطان[١]، ومع ذلك فإنَّهم فشلوا في تحقيق هدفهم. في هذه الظروف الحرجة مال فريق من المعتدلين الأَرمن إلى العمل السياسي لعله يحقِّق رغبتهم في الاستقلال، فاستغلوا الجمعية السياسية العثمانية التي تأسَّست في باريس في عام (١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م) لمعارضة الحكم الحميدي، إلَّا أنهم فشلوا في ترويج أفكارهم التي عرضوها على المؤتمر[٢]، ثم تعاونوا مع جمعية تركيا الفتاة، واستطاعوا انتزاع قرار من مؤتمر باريس الثاني الذي انعقد في (شهر ذي القعدة عام ١٣٢٥هـ/ شهر كانون الأول عام ١٩٠٧م)، تركَّز على إسقاط النظام الحميدي، وقيام حكومة دستورية نيابية، آملين من خلال ذلك أن يحقِّقوا رغبتهم، كما شاركوا في الحياة السياسية إثر الانقلاب الدستوري في عام (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م)، لكن على نحو ضئيل يتناسب مع تعدادهم، وجدَّدوا انتفاضتهم عقب الانقلاب المضاد الذي قام به أنصار السلطان عبد الحميد الثاني، وكانت النتيجة إحداث مذابح عنيفة عمَّت منطقة كيليكية وامتدت إلى أذنة وطوروس[٣].

وسيستمر الأَرمن في جهودهم بعد العهد الحميدي لتحقيق آمانيهم القومية، إلَّا أن كل ما استطاعوا الحصول عليه، حتى قيام الحرب العالمية الأولى، هو نظام المراقبة الأوروبية على أرمينية[٤].

ذيول الأزمات السياسية التي واجهها عبد الحميد الثاني

نتيجة للتطورات السياسية والعسكرية التي شهدتها الدولة العثمانية بعد مؤتمر برلين، أدرك السلطان عبد الحميد الثاني أنه بحاجة إلى قوة أوروبية تقف إلى جانبه، لمقاومة مؤامرات إنكلترا وفرنسا وروسيا، واعتقد أن ألمانيا بقيادة القيصر ولهلم الثاني لا تبغي السيطرة والاحتلال بهدف الاستعمار، وكانت الدولة الألمانية تبحث آنذاك عن مجالها الحيوي فوجدته في الدولة العثمانية. رحَّب السلطان بسياسة التقارب مع ألمانيا، وزار القيصر الدولة العثمانية في عام (١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م)، وكان التعاون العسكري بين الطرفين أولى ثمراتها[٥].

---

(١) أستارجيان: المرجع نفسه ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧. Shaw: II pp 204-205. Miller: p 430.

(٢) برو، توفيق: العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ص ٦٣.

(٣) أستارجيان: ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩. Miller: p 431, Shaw: II p 281.

(٤) Emin, A: Turkey in the World War pp 53-58.

(٥) الشناوي: جـ ٣ ص ١٣٤٦. مذكرات الأميرة عائشة: ص ١١٢ ـ ١١٣، ١١٨. Ibid: p 39.

ولا ريب في أن أهم المشاريع السياسية التي نفَّذتها أَلمانيا في أراضي الدولة العثمانية، هي إنشاء طريق للمواصلات الحديدية بين أوروبا والدول العربية حتى الخليج العربي الذي أُطلق عليه اختصاراً طريق ب. ب. ب[1].

عبد الحميد الثاني والصهيونية

لعل الموقف الذي وقفه السلطان عبد الحميد الثاني من قضية هجرة اليهود إلى فلسطين وأطماعهم فيها، والصمود الذي أبداه تجاه جميع المحاولات التي بذلها زعماء الصهيونية، كافيان، في نظر العربي المسلم بخاصة والمسلمين بعامة، لتقييم دوره في الحفاظ على وحدة الأراضي الإسلامية على الرغم من المتاعب السياسية والعسكرية والمالية التي كانت تعاني منها الدولة العثمانية، والتي استغلتها الصهيونية لتنفيذ تهديدها بإسقاطه عن عرشه إذا لم يُبد تجاوباً مع الوعود والإغراءات اليهودية[2].

والواقع أن اليهود تطلعوا، على مرِّ العصور التاريخية، إلى فلسطين كأرض تجمع شتاتهم ويقيمون عليها دولة لهم متذرعين بادعاءات دينية وتاريخية، ونشطوا في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وتنادوا إلى تهجير اليهود المشتتين في أنحاء العالم إلى فلسطين، وطالبوا بإقامة دولة يهودية فيها.

وأبدى السلطان معارضة لهذه الخطوة، فرفض في عام (١٢٩٢هـ/ ١٨٧٦م) عروض حاييم غوديلا، شراء مساحات من الأراضي في فلسطين لإسكان المهاجرين اليهود فيها، وعلى الرغم من هذه المعارضة، لم تتوقف المحاولات اليهودية في إقناعه عن طريق الدول الأوروبية التي توافقت مصالحها مع المصالح اليهودية[3].

ونتيجة لازدياد شعور السلطان بالتحرك اليهودي، أبلغ اليهودي أوليفانت أن باستطاعة اليهود العيش بسلام في أية بقعة من أراضي الدولة العثمانية إلّا فلسطين[4]، واستمرت خلال ذلك الهجرات اليهودية البطيئة بشكل أو بآخر. وتحت ضغط الدول الأوروبية أصدر السلطان في عام (١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م) قراراً سمح لليهود بدخول فلسطين بهدف زيارة الأماكن المقدسة شرط ألا تتعدى إقامتهم فيها مدة

---

(١) مذكرات الأميرة عائشة: ص ١١٣. رافق: ص ٤٢٨.

(٢) بني المرجة، موفق: صحوة الرجل المريض ص ٢١٣.

(٣) المرجع نفسه: ص ٢١٦.

(٤) مانويل، فرانك: بين أميركا وفلسطين ص ٢٥.

شهر، زيدت بعد ذلك في عام (١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م) إلى ثلاثة أشهر[(١)].

وعلى الرغم من هذه الإجراءات المتخذة، فقد نجح اليهود في التسلل إلى فلسطين، وانكبُّوا على شراء الأراضي، وتأسيس المزارع، بفعل ضعف رقابة السلطات المحلية، مما دفع السلطان إلى إصدار قرار في عام (١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م) يحرم بموجبه بيع الأراضي الحكومية إلى اليهود[(٢)].

وبرزت في أواخر القرن التاسع عشر شخصية يهودية استطاعت قيادة الحركة الصهيونية والسير بها إلى تحقيق أهدافها، وأعني بهذه الشخصية تيودور هرتزل. لقد سعى هذا اليهودي إلى إيجاد وطن قومي لليهود في فلسطين، وإقامة الدولة اليهودية في ربوعها عن طريق بذل المال، حين أبدى استعداده لتقديم مساعدات مالية تنتشل السلطة العثمانية الغارقة في الديون، لكن السلطان رفض عروضه[(٣)].

ونظَّم هرتزل الحركة الصهيونية، وعقد المؤتمرات في بال لتحقيق أماني اليهود، ووضع الخطط الكفيلة بنجاح مساعيه، وكُتب على السلطان عبد الحميد الثاني أن يواجه بشكل جدِّي المؤامرات الصهيونية.

واجتمع الزعيم الصهيوني بالسلطان في (شهر محرم عام ١٣١٩هـ/ شهر أيار عام ١٩٠١م) لإقناعه بوجهة النظر الصهيونية مقابل أن يدفع اليهود مبلغ ثلاثة ملايين جنيه، لكن السلطان رفض هذا الطلب، ولم يكن ليستجيب لإغراءات الصهيونية المالية، وحسم الموقف حين قال بأنه لا يستطيع أن يتخلَّى عن شبر واحد من الأرض لأنها ليست ملكه، بل ملك للأمة الإسلامية[(٤)].

ومع أن هرتزل توفي في (شهر ربيع الآخر عام ١٣٢٢هـ/ شهر تموز عام ١٩٠٤م) إلَّا أن المحاولات الصهيونية ظلت مستمرة إلى أن نجحت في انتزاع ما يسمى بوعد بلفور في (١٧ من شهر محرم عام ١٣٣٦هـ/ ٢ من شهر تشرين الثاني عام ١٩١٧م) الذي وافقت بريطانيا بموجبه على تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين[(٥)].

والحقيقة أن السلطان عبد الحميد الثاني، على الرغم من أنه لم يتمكَّن من منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، إلَّا أنه نجح في الحد منها[(٦)].

---

(١) حلاّق، حسَّان علي: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧ ـ ١٩٠٩ ص ٩٦.

(٢) منسى، محمود صالح: تصريح بلفور ص ٨٤. (٣) يوميات هرتزل: ص ٣٤، ٤٥.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٥، ١٧٢ ـ ١٧٣. بني المرجة: ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٥) ولبم، غاري كار: أحجار على رقعة الشطرنج ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٦) الشناوي: جـ ٢ ص ٩٩٩.

عبد الحميد الثاني
ونظرية الجامعة الإسلامية

استيقظ الشعور الإسلامي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لإيجاد نوع من الرابطة بين أجزاء العالم الإسلامي، والتكتل لمواجهة موجات الاستعمار الأوروبي، فنشأت فكرة الجامعة الإسلامية. وقد دعت الظروف الداخلية والخارجية، وحالات الارتباك التي كانت تمر بها الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، لأن يتزعم دعوتها حيث وجد فيها خير علاج لما تعانيه سلطنته من أمراض وأوجاع، وسياجاً يحمي الدولة من الأخطار التي كانت تحيط بها، وأخذ على عاتقه تنفيذها، وعلّق عليها الآمال في إنقاذ الدولة.

ولكي تُثمر دعوته كان لا بد من أن يقرِّب إليه عدداً من الشخصيات الإسلامية والعربية لتدعمه في مسيرته، كان من بينهم جمال الدين الأفغاني، وعزت باشا العابد، وأبو الهدى الصيادي وغيرهم. لكن أفكار الأفغاني التحررية لم تلق تجاوباً من قِبل السلطان، كما ارتاب بنواياه بعد اغتيال شاه فارس ناصر الدين على يد أحد أتباعه. ونتيجة لذلك وقعت الوحشة بين الرجلين، ورفض السلطان السماح للأفغاني بمغادرة إستانبول[١]، كما أن الأول لم يستفد من مواهب الثاني بشكل يسمح بدعم حركة الجامعة الإسلامية، كما زيَّن له خصومه التخلص منه، إلّا أن الموت أراح الأفغاني من تلك الدسائس إذ توفي في (شهر شوال عام ١٣١٤هـ/ شهر آذار عام ١٨٩٧م)[٢].

ومن الوسائل الأخرى التي لجأ إليها السلطان عبد الحميد الثاني لدعم حركة الجامعة الإسلامية أنه اتجه إلى إحياء الخلافة الإسلامية، وحرص على أن يقرن اسمه بالألقاب الدينية مثل أمير المؤمنين، خادم الحرمين الشريفين وغير ذلك.

وحتى يكون قدوة للمسلمين، أضفى على حياته الخاصة مظاهر الزهد والتقشف، واهتم بممارسة الشعائر الدينية علانية، وأحاط نفسه بعلماء الدين، وأصدر المجلات والصحف لتقوم بدورها في الحقل الإعلامي وتوجيه الناس نحو سياسته الإسلامية، وخصَّص مبالغ من المال لإصلاح المساجد، وزاد من مرتبات علماء الدين وأئمة المساجد وموظفيها، واهتم بإقامة الاحتفالات الخاصة بالأعياد والمناسبات الإسلامية، وأدخل اللغة العربية على برامج الدروس في المعاهد. ولعل

---

(١) الشناوي: جـ ٣ ص ١٢١٣ ـ ١٢١٤.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٧ ص ١٠٠.

أروع منجزاته في دعم حركة الجامعة الإسلامية، إنشاؤه خط سكة حديد الحجاز من دمشق إلى المدينة المنورة في مطلع القرن العشرين بهدف خدمة الحجَّاج، وإيجاد وسيلة نقل عصرية.

والحقيقة أن حركة الجامعة الإسلامية صادفت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني نجاحاً تأرجح بين القوة والضعف، فكان لها صدى كبير في العالم الإسلامي، وشكّلت عامل دعم لموقف السلطان بوصفه ممثل المسلمين، ومن جهة أخرى، صادفت عدة عقبات أعاقت تحقيق الوحدة الإسلامية منها:

- صعوبة توحيد العالم الإسلامي الذي كان يمر آنذاك بحالة تفسخ وتخلُّف وجهالة.
- مقاومة الاستعمار الأوروبي الذي كان يسيطر على عدة أقاليم إسلامية.
- بروز دعوات رافضة لهذا التوجه الإسلامي في العالم العربي وفي تركيا نفسها، كحركة القومية العربية والحركة الطورانية[١].

عبد الحميد الثاني وسياسة الإصلاح

اشتهر السلطان عبد الحميد الثاني بأنه لم يكن يحبِّذ الحكم الدستوري بالمعنى الغربي، لأنه اعتقد أن أسباب هذا الحكم وتأثيراته لا تصلح أن تطبق في الولايات العثمانية لاختلاف ظروف حياة الرعايا العثمانيين عن حياة الأوروبيين، وعلى الرغم من ذلك فإنه رأى نفسه يأتي إلى العرش كأول سلطان دستوري في تاريخ الدولة العثمانية[٢].

والواقع أن الحياة الدستورية بمعناها الحديث في عهد السلطان عبد الحميد الثاني كانت تجربة فاشلة، ومرت بمرحلتين. بدأت المرحلة الأولى بصدور الدستور في (٥ محرم ١٢٩٤هـ/ ٢٣ كانون الثاني ١٨٧٧م)، تحت تأثير تكتل اتفاق الحمية بزعامة مدحت باشا الذي رأى أن الحكم الدستوري كفيل بوقف انهيار الدولة في ظل الظروف الخارجية التي كانت تمر بها، وقد أطلق عليه اسم المشروطية الأولى بفعل أنه قيَّد صلاحيات السلطان المطلقة.

وأبرز ما تضمَّنه الدستور أنه حدَّد الدولة وذكر عاصمتها، وبيَّن حقوق رعاياها

(١) الشناوي: جـ ٣ ص ١١٢٧.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد ص ٨٠. مصطفى: ص ٢٤١.

الذين يتمتعون بالحرية والمساواة أمام القانون، بالإضافة إلى حقوق السلطان وأسرته، وكفل حرية العبادة لغير المسلمين، وقرَّر حرية الصحافة، وأبطل المصادرات والتعذيب والسخرة، وانتقص كثيراً من سلطات الصدر الأعظم التنفيذية وأعطاها للسلطان[1]، وشكَّل مجلس العموم الذي يتكوَّن من مجلسي الأعيان والمبعوثان، بمشاركة السلطان، السلطة التشريعية. وجرت الانتخابات العامة، واجتمع مجلس المبعوثان في (شهر ربيع الأول عام ١٢٩٤هـ/ شهر آذار عام ١٨٧٧م) بغياب مدحت باشا الذي كان أول ضحاياه بعد أن عزله السلطان[2].

ثم حدث أن دُعي المجلسان للاجتماع في (شهر ذي الحجة/ شهر كانون الأول) على أثر نشوب الحرب العثمانية ـ الروسية؛ للنظر في شؤون الدولة، فأصدر قانوناً للانتخابات، وناقش الموازنة العامة. ونتيجة لنزول الكوارث العسكرية بجيوش الدولة في البلقان وشرق الأناضول، ظهرت في المجلس معارضة نيابية هدفها محاكمة المسؤولين عن هذه الكوارث، ثم اشتدت هذه المعارضة، وتمادت حتى تعدَّت الاتهامات فطالت شخص السلطان[3]. وفي (٩ صفر عام ١٢٩٥هـ/ ١٣ شباط عام ١٨٧٨م)، بلغت الأزمة بين السلطان والمجلس نقطة اللاعودة، مما دفع الأول إلى حل البرلمان في اليوم التالي، وأصدر أمراً بتعطيل اجتماعاته[4].

استمر هذا التعطيل مدة ثلاثين عاماً حين أصدر السلطان عبد الحميد الثاني بنفسه المشروطية الثانية في (٢٣ جمادى الآخرة عام ١٣٢٦هـ/ ٢٣ تموز عام ١٩٠٨م)، عقب التمرد الذي حدث ضد حكمه، لتبدأ المرحلة الثانية التي استمرت حتى (شهر رجب عام ١٣٣٨هـ/ شهر نيسان عام ١٩٢٠م)، حين حلَّ السلطان محمَّد السادس وحيد الدين البرلمان.

اقترنت هذه المرحلة بحدوث تطورات سياسية داخلية تمثَّلت بقيام أحزاب سياسية، وقع التنافس الحزبي بينها، وكثرة الانقلابات العسكرية، كان حكم السلطان عبد الحميد الثاني أول ضحاياها حيث أقدم حزب الاتحاد والترقي على خلعه في (شهر ربيع الأول عام ١٣٢٧هـ/ شهر نيسان عام ١٩٠٩م)[5].

---

(١) فريد بك: ص ٥٩١. الشناوي: جـ ٤ ص ١٧٦٣.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد: ص ٨١. فريد بك: ص ٥٩٣.

(٣) فريد بك: ص ٦٤٢. برو: ص ٤٤ ـ ٤٥. الشناوي: جـ ٤ ص ١٧٨٢.

(٤) نوري، عثمان: عبد الحميد ودور سلطنتي جـ ١ ص ٣٤٣ ـ ٣٤٦.

(٥) مذكرات الأميرة عائشة: ص ٢٣٥ ـ ٢٥١. باتريك: ص ١٤١ ـ ١٤٥.

مرحلة قيام الثورة
وإنهاء دور الخلافة الإسلامية

تولى السلطان محمَّد رشاد، (محمَّد الخامس) (١٣٢٧ ـ ١٣٣٦هـ/ ١٩٠٩ ـ ١٩١٨م) العرش خلفاً للسلطان عبد الحميد الثاني بمساندة الاتحاديين، والدولة في حالة احتضار بعد أن فقدت كثيراً من أراضيها في أوروبا، وسوس القوميات ينخر في جسمها، والخزينة فارغة، لكنها كانت ما تزال متماسكة.

واجهت الدولة في عهد السلطان محمَّد الخامس ثلاث أزمات خطيرة أدَّت إلى سقوطها وهي:

١ ـ احتلال إيطاليا لطرابلس الغرب في (شهر شوال عام ١٣٢٩هـ/ شهر تشرين الأول عام ١٩١١م)[١].

٢ ـ حروب البلقان (١٣٣٠ ـ ١٣٣١هـ/ ١٩١٢ ـ ١٩١٣م) حيث تجلَّت الصرب وبلغاريا واليونان ورومانيا دولاً عسكرية غازية، فتراجعت الجيوش العثمانية في كل مكان أمام تقدم جيوش عصبة البلقان، وكانت النتيجة اقتطاع كل الأقاليم الواقعة غرب خط يمتد بين إينوس على بحر إيجة وميديا على البحر الأسود، عن الدولة العثمانية[٢].

٣ ـ الحرب العالمية الأولى (١٣٣٢ ـ ١٣٣٧هـ/ ١٩١٤ ـ ١٩١٨م)، وقد دخلت الدولة الحرب إلى جانب أَلمانيا والنمسا وبلغاريا ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا[٣]، وانتهت بمأساة مفجعة، إذ خسر العثمانيون وحلفاؤهم الحرب، وخرجوا منها إثر هدنة مودروس. وتوفي السلطان محمَّد الخامس قبل انتهاء الحرب بشهر واحد، وخلفه محمَّد وحيد الدين، (محمَّد السادس) (١٣٣٧ ـ ١٣٤٠هـ/ ١٩١٨ ـ ١٩٢٢م)[٤].

كانت صفعة الخسارة قاسية وأليمة جداً، وأضحت الدولة العثمانية بعد التسوية قاصرة على تركيا، وسيطرت قوات الحلفاء على المضائق، وفرضت على تركيا معاهدة سيفر في (٢٥ ذي القعدة عام ١٣٣٨هـ/ آب عام ١٩٢٠م) التي سلخت الولايات العربية عنها. وحصلت اليونان بموجبها على جزر بحر إيجة، ومنطقة

(١) مصطفى: ص ٢٧٧. جرانت وتمبرلي: جـ ٢ ص ١٥٨.

(٢) Jelavich: II pp 99-100.

(٣) جرانت وتمبرلي: جـ ٢ ص ٢٢٥.

(٤) باتريك: ص ١٩٦.

تراقية، ومُنحت إزمير والأقسام الداخلية التابعة لها استقلالاً داخلياً تحت إشراف اليونان، ووُضعت منطقة أضالية تحت الإشراف الإيطالي[١]. ونتيجة لهذه المعاهدة أضحت اليونان على بُعد أميال من إستانبول.

وقَّع السلطان هذه المعاهدة، في حين رفضتها الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كمال الذي راح يخطِّط لإنقاذ تركيا، وتمكَّن بعد جهود مضنية واصطدامات مع اليونانيين من الانتصار، فاستعاد إزمير وتراقية، وطرد اليونانيين من ساحل آسيا الصغرى، وأضحىٰ نتيجة هذه النجاحات بطلاً قومياً، وبرز في الواجهة السياسية، فما كان من السلطان محمَّد السادس وحيد الدين إلَّا أن تنازل عن العرش[٢].

اعتلى السلطة بعد تنازل السلطان محمَّد السادس، السلطان عبد المجيد الثاني (١٣٤٠ ـ ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٢ ـ ١٩٢٤م)[٣]. تميز عهده بتنامي الفكر القومي التركي، وبسطوع نجم مصطفى كمال الذي أضحى الحاكم القوي والفعلي للبلاد. وفي (١٧ ربيع الأول عام ١٣٤٢هـ/ ٢٩ تشرين الأول عام ١٩٢٣م)، أعلنت الجمعية الوطنية الجمهورية التركية، وانتخبت مصطفى كمال رئيساً لها.

اعتقد مصطفى كمال أن بقاء زعيم ديني يلتف حوله المسلمون سيشكِّل نقطة التقاء الأفكار الرجعية، وآمال الرجعيين، فأوعز إلى الجمعية الوطنية باتخاذ قرار بإنهاء دور الخلافة، وفعلاً اتخذت الجمعية هذا القرار في (٢٣ رجب عام ١٣٤٢هـ/ ٣ آذار عام ١٩٢٤م)، وأخرج الخليفة من البلاد، وأَعلنت صيغة جديدة للدستور[٤].

---

(١) جرانت وتمبرلي: جـ ٢ ص ٢٩٩ ـ ٣٠١.
(٢) فيشر: ص ٥٧٨ ـ ٥٨٦.
(٣) حقي، إحسان: أواخر سلاطين بني عثمان، ذيل على كتاب تاريخ الدولة العلية لمحمَّد فريد بك ص ٧١٨.
(٤) المرجع نفسه.

ـ ملحق ـ

أحداث مهمة في التاريخ الإسلامي

ـ ولادة النبي محمد ﷺ	٥٧١م
ـ بدء الوحي	٦١١م
ـ بيعة العقبة الأولى	٦٢١م
ـ بيعة العقبة الثانية	٦٢٢م
ـ هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة	١هـ/٦٢٢م
ـ غزوة بدر	٢هـ/٦٢٤م
ـ غزوة أحد	٣هـ/٦٢٥م
ـ غزوة الخندق	٥هـ/٦٢٧م
ـ اتفاق الحديبية	٦هـ/٦٢٨م
ـ فتح مكة	٨هـ/٦٣٠م
ـ حجة الوداع	١٠هـ/٦٣١م
ـ وفاة النبي محمد ﷺ	١١هـ/٦٣٢م
ـ خلافة أبي بكر	١١ ـ ١٣هـ/٦٣٢ ـ ٦٣٤م
ـ معركة أجنادين	١٣هـ/٦٣٤م
ـ خلافة عمر بن الخطاب	١٣ ـ ٢٣هـ/٦٣٤ ـ ٦٤٤م
ـ فتح دمشق	١٤هـ/٦٣٥م
ـ معركة اليرموك	١٥هـ/٦٣٦م
ـ معركة القادسية	١٥هـ/٦٣٦م
ـ فتح المدائن	١٦هـ/٦٣٧م
ـ فتح بيت المقدس	١٦هـ/٦٣٧م
ـ معركة نهاوند	١٩هـ/٦٤٠م
ـ فتح مصر	٢٠هـ/٦٤١م
ـ خلافة عثمان بن عفان	٢٤ ـ ٣٥هـ/٦٤٤ ـ ٦٥٦م
ـ خلافة علي بن أبي طالب	٣٦ ـ ٤٠هـ/٦٥٦ ـ ٦٦١م
ـ وقعة الجمل	٣٦هـ/٦٥٦م
ـ وقعة صفين	٣٧هـ/٦٥٧م
ـ بداية الخلافة الأموية	٤١هـ/٦٦١م
ـ مأساة كربلاء	٦١هـ/٦٨٠م
ـ وقعة الحرة	٦٣هـ/٦٨٣م
ـ خروج عبد الله بن الزبير على الحكم الأموي	٦٣هـ/٦٨٣م
ـ انتقال الحكم الأموي من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني	٦٤هـ/٦٨٤م
ـ معركة مرج راهط	٦٤هـ/٦٨٤م
ـ القضاء على حركة المختار الثقفي	٦٧هـ/٦٨٦م
ـ الحجاج يقضي على ابن الزبير	٧٣هـ/٦٩٢م
ـ تعريب الإدارة والنقد على يد عبد الملك بن مروان	٨٤هـ/٧٠٣م
ـ بداية فتوح بلاد ما وراء النهر	٨٦هـ/٧٠٥م
ـ بداية فتوح بلاد السند	٨٩هـ/٧٠٨م
ـ فتح الأندلس	٩٣هـ/٧١٢م
ـ بداية عهد الولاة الأمويين في الأندلس	٩٥هـ/٧١٤م
ـ معركة بلاط الشهداء	١١٤هـ/٧٣٢م
ـ قيام الدولة العباسية	١٣٢هـ/٧٥٠م
ـ قيام الإمارة الأموية في الأندلس	١٣٨هـ/٧٥٦م
ـ قيام الدولة المدرارية في المغرب	١٤٠هـ/٧٥٧م
ـ قيام الدولة الرستمية في المغرب	١٤٤هـ/٧٦١م
ـ تأسيس مدينة بغداد	١٤٩هـ/٧٦٦م
ـ قيام الدولة الإدريسية في المغرب	١٧٢هـ/٧٨٨م
ـ قيام الدولة الأغلبية في طرابلس الغرب وإفريقية	١٨٤هـ/٨٠٠م
ـ نكبة البرامكة	١٨٧هـ/٨٠٣م
ـ قيام الدولة الطاهرية في خراسان	٢٠٥هـ/٨٢٠م
ـ قيام الدولة الطولونية في مصر	٢٥٤هـ/٨٦٨م
ـ قيام الدولة الصفّارية في فارس	٢٥٤هـ/٨٦٨م
ـ ثورة الزنج	٢٥٥هـ/٨٦٩م

- قيام الدولة السامانية ٢٦١هـ/٨٧٤م
- قيام الدولة الفاطمية في إفريقية ٢٩٧هـ/٩١٠م
- قيام الخلافة الأموية في الأندلس ٣٠٠هـ/٩١٢م
- القرامطة يأخذون الحجر الأسود من مكة ٣١٧هـ/٩٣٠م
- قيام الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ٣١٧هـ/٩٢٩م
- قيام الدولة البويهية في فارس ٣٢٠هـ/٩٣٢م
- قيام الدولة الأخشيدية في مصر ٣٢٣هـ/٩٣٥م
- قيام الدولة البويهية في العراق ٣٣٤هـ/٩٤٥م
- القرامطة يعيدون الحجر الأسود إلى مكة ٣٣٩هـ/٩٥١م
- قيام الدولة الغزنوية في بلاد الأفغان والبنجاب ٣٥١هـ/٩٦٢م
- تأسيس الجامع الأزهر ٣٦١هـ/٩٧٢م
- قيام دول ملوك الطوائف في الأندلس ٤٢٢هـ/١٠٣١م
- قيام الدولة السلجوقية في خراسان ٤٢٩هـ/١٠٣٨م
- دخول السلاجقة إلى بغداد ٤٤٧هـ/١٠٥٥م
- معركة مانزيكرت ٤٦٣هـ/١٠٧١م
- قيام دولة سلاجقة الروم ٤٧٠هـ/١٠٧٧م
- معركة الزلاقة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م
- بداية الحروب الصليبية ٤٩١هـ/١٠٩٨م
- سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين ٤٩٢هـ/١٠٩٩م
- قيام الدولة الزنكية ٥٢١هـ/١١٢٧م
- قيام الدولة الأيوبية ٥٦٩هـ/١١٧٤م
- ضمُّ صلاح الدين الأيوبي دمشق ٥٧٠هـ/١١٧٤م
- معركة حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م
- قيام الدولة المملوكية ٦٤٨هـ/١٢٥٠م
- سقوط بغداد بيد هولاكو ونهاية الدولة العباسية ٦٥٦هـ/١٢٥٨م
- معركة عين جالوت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م
- قيام الدولة العثمانية ٦٨٧هـ/١٢٨٨م
- المماليك يفتحون عكا ــ نهاية الإمارات الصليبية ٦٩٠هـ/١٢٩١م
- فتح القسطنطينية ٨٥٧هـ/١٤٥٣م
- سقوط غرناطة ــ نهاية الحكم الإسلامي للأندلس ٨٩٧هـ/١٤٩٢م
- قيام الدولة الصفوية في إيران ٩٠٧هـ/١٥٠١م
- معركة مرج دابق ٩٢٢هـ/١٥١٦م
- معركة الريدانية ٩٢٣هـ/١٥١٧م
- حصار ڤيينا ٩٣٦هـ/١٥٢٩م
- ظهور الدعوة الوهابية ١١٥٧هـ/١٧٤٤م
- نهاية الدولة العثمانية ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

أ ـ المصادر

- ابن الأبار، محمَّد بن عبد الله القضاعي:
  - **الحلة السيراء** ـ دار النشر للجامعيين، بيروت، ١٩٦٢.
- ابن أبي زرع:
  - **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** ـ الرباط، ١٩٨٠.
- ابن الأثير، أبو الحسن علي... الشيباني المعروف بالجزري:
  - **الكامل في التاريخ** ـ تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٧.
  - **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية في الموصل** ـ تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة.
- إدريس، عماد الدين بن الحسن بن عبد الله:
  - **تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب** ـ تحقيق محمَّد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥.
  - **عيون الأخبار وفنون الآثار، ج ٤ ـ ٦** ـ تحقيق مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٤.
- الأزدي، محمَّد بن عبد الله:
  - **تاريخ فتوح الشام** ـ مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٠.
- الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمَّد الفارسي:
  - **كتاب المسالك والممالك** ـ طبعة ليدن، ١٩٢٧.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين:
  - **مقاتل الطالبيين** ـ تحقيق أحمد صقر. مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ٢، ١٩٧٨م.
- الأنطاكي، يحيى بن سعيد:
  - **تاريخ الأنطاكي، المعروف بصلة تاريخ أوتيخا** ـ تحقيق عمر عبد السلام تدمري. جروس برس، طرابلس/ لبنان، ١٩٩٠.
- ابن إياس، محمَّد بن أحمد:
  - **بدائع الزهور في وقائع الدهور** ـ تحقيق محمَّد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.
- ابن أيبك، أبو بكر بن عبد الله الدوادار:
  - **كنز الدرر وجامع الغرر. ج ٦** ـ تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٦١ ـ ج ٨ تحقيق أولرخ هارمان، القاهرة، ١٩٧١ ـ ج ٩ تحقيق هانس لابرت رويمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٠.
- باتريك، ماري مايلز:
  - **سلاطين آل عثمان** ـ مؤسسة عز الدين للنشر، بيروت، ١٩٨٦.
- بازيلي، قسطنطين ميخائيلوفيتش:
  - **سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والعسكرية** ـ ترجمة يسر جابر، دار

الحداثة، بيروت، ط ١، ١٩٨٨.
- البغدادي، الحافظ أَبو بكر أَحمد بن علي الخطيب:
- **تاريخ بغداد أو مدينة السلام** - دار الكتب العلمية، بيروت.
- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمَّد:
- **الفرق بين الفِرق** - تحقيق محيي الدين عبد الحميد، مكتبة محمَّد علي صبيح. القاهرة.
- البلاذري، أَبو العبَّاس أَحمد بن يحيى بن جابر:
- **فتوح البلدان** - تحقيق رضوان محمَّد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١.
- **أنساب الأشراف** - تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٦.
- البلخي، أَبو زيد بن سهل:
- **كتاب البدء والتاريخ، المنسوب إلى مطهر بن طاهر المقدسي** - باريس ١٨٩٩ - ١٩٠٧.
- البلوي، أَبو محمَّد عبد اللَّه بن محمَّد... المديني:
- **سيرة أحمد بن طولون** - تحقيق محمَّد كرد علي، دمشق، ١٣٥٨هـ.
- البنداري، الفتح بن علي بن محمَّد الأصفهاني:
- **تاريخ دولة آل سلجوق** - دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٠.
- الترك، المعلم نيقولا:
- **ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية** - تحقيق ياسين سويد، دار الفارابي، بيروت، ١٩٩٠.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أَبو المحاسن يوسف:
- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، دار الكتب المصرية.
- الثعالبي، أَبو منصور عبد الملك:
- **يتيمة الدهر** - القاهرة، ١٩٣٤.
- الجهشياري، محمَّد بن عبدوس:
- **كتاب الوزراء والكتَّاب** - تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨.
- جودت، أَحمد:
- **تاريخ جودت، الجزء الأول** - ترجمة عبد القادر الدنا، بيروت، ١٣٠٨هـ.
- الجوذري، أَبو علي منصور العزيزي:
- **سيرة الأستاذ جوذر** - تحقيق محمَّد كامل حسين ومحمَّد عبد الهادي شعيرة، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٣٤.
- ابن الجوزي، شمس الدين بن يوسف بن قزاوغلي التركي المعروف بالسبط:
- **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، جـ ٨** - تحقيق دائرة المعارف، الهند.
- الجويني، عطا ملك:
- **تاريخ قاهر العالم** - ترجمة أحمد التونجي، دار الملاح، حلب، ١٩٨٥.
- ابن حبيب، الحسن بن عمر:
- **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه** - تحقيق محمَّد أمين وسعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتَّاب، القاهرة.
- ابن حجر، شهاب الدين أَبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني:
- **إنباء الغمر بأبناء العمر** - وزارة المعارف الهند، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.
- الحسيني، صدر الدين بن علي:
- **أخبار الدولة السلجوقية** - باعتناء عباس إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٤.

- حقي، إحسان:
- **ذيل على كتاب تاريخ الدولة العلية العثمانية لـ محمَّد فريد بك** ـ دار النفائس، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبد اللَّه ياقوت:
- **معجم البلدان** ـ دار صادر، بيروت، ١٩٧٩.
- الحميدي، أَبو عبد اللَّه محمَّد...
- **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس** ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة، المكتبة الأندلسية، ٣ تراثنا.
- الحميري، ابن عبد المنعم:
- **الروض المعطار في أخبار الأقطار، صفة جزيرة الأندلس** ـ القاهرة، ١٩٣٧.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمَّد:
- **العبر في ديوان المبتدأ والخبر... المعروف بتاريخ ابن خلدون** ـ دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٥٧.
- ابن خلكان، أَبو العباس شمس الدين... بن أَبي بكر:
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ـ دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨ ـ ١٩٧١.
- ابن خياط، خليفة أَبو عمرو... الملقب بـ شباب ونسبته العصفري:
- **تاريخ خليفة بن خياط** ـ تحقيق أكرم ضياء العمري، النجف، ط ١، ١٩٦٧.
- ابن دريد:
- **كتاب الاشتقاق** ـ طبعة وستنفلد، ١٨٥٤م.
- دحلان، أَحمد بن زين الدين:
- **الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية** ـ القاهرة، ١٣٢٣هـ.
- الدينوري، أَبو حنيفة بن داوود:
- **الأخبار الطوال** ـ مراجعة حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٨٨.
- الراوندي، أَبو بكر محمَّد بن علي:
- **راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية** ـ تعريب الشواربي، الصياد وحسنين، دار القلم، القاهرة، ١٩٧٠م.
- رشيد الدين، فضل الله بن عماد الدولة... الهمذاني:
- **جامع التواريخ، تاريخ المغول في إيران (تاريخ هولاكو) المجلد الثاني الجزء الأول** ـ ترجمة نشأت وهنداوي والصياد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٩٧٠م.
- السخاوي، شمس الدين محمَّد بن عبد الرحمن:
- **وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام** ـ تحقيق بشار معروف، عصام الحرستاني، أَحمد الخطيمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٩٥.
- سرهنك، الميرآلاي إسماعيل:
- **تاريخ الدولة العثمانية** ـ دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٨٨م.
- ابن سعد، محمَّد:
- **كتاب الطبقات** ـ دار صادر، بيروت.
- السلاوي، الناصري:
- **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** ـ الدار البيضاء، دار الكتب، ١٩٥٤.
- السمهودي، أَبو الحسن بن عبد اللَّه:
- **وفاء الوفا في أخبار دار المصطفى** ـ القاهرة، ١٣٢٦هـ.
- السهيلي، أَبو القاسم عبد الرحمن بن عبد اللَّه... الخثعمي:
- **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام** ـ مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أَبي بكر جمال الدين:

- **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة** ـ القاهرة، ١٣٢٧هـ.
- **تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين** ـ تحقيق محمَّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، القاهرة، ط ٤،، ١٩٦٩م.
- أَبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي:
- **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية** ـ القاهرة، ١٢٨٧هـ.
- أَبو شجاع، محمَّد بن الحسين الروذراوري:
- **ذيل كتاب تجارب الأمم لمسكويه** ـ طبعة أمدروز، ١٩٢١.
- الشهرستاني، أَبو الفتح محمَّد عبد الكريم:
- **الملل والنحل** ـ تحقيق عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة.
- الصوري، وليم:
- **تاريخ الأعمال المنجرة فيما وراء البحار** ـ نقله إلى العربية سهيل زكار. دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٩٠.
- ابن الصيرفي، أَبو القاسم علي بن منجب بن سليمان:
- **الإشارة إلى من نال الوزارة** ـ تحقيق عبد اللّه مخلص، بيت المقدس، ١٩٢٣، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩٣٣.
- الضبي، أَحمد بن يحيى بن أَحمد بن عميرة:
- **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس** ـ دار الكتاب العربي، ١٩٦٧.
- ابن طباطبا، محمَّد بن علي المعروف بابن الطقطقا:
- **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** ـ دار صادر، بيروت، ١٩٦٦.
- الطبري، أَبو جعفر محمَّد بن جرير:
- **تاريخ الرسل والملوك** ـ تحقيق محمَّد أَبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٠.
- ابن ظافر، جمال الدين علي:
- **أخبار الدول المنقطعة** ـ تقديم أندريه فريه، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩٧٢.
- ابن الطوير، أَبو محمَّد المرتضى عبد السَّلام... القيسراني:
- **نزهة المقلتين في أخبار الدولتين** ـ تحقيق أيمن فؤاد سيد، النشرات الإسلامية، شتوتجارت، ١٩٩٢.
- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد اللّه القرشي:
- **فتوح مصر والمغرب** ـ تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، ١٩٨١.
- **فتوح مصر وأخبارها**، ليدن، ١٩٢٠.
- ابن عبد ربه، شهاب الدين أَحمد الأندلسي:
- **العقد الفريد**، القاهرة، ١٣٤٦هـ/١٩٢٠م.
- ابن عبد الظاهر، محيي الدين:
- **تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور** ـ تحقيق كامل مراد، القاهرة، ط ١، ١٩٦٦.
- **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر** ـ تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط ٢، ١٩٧٦.
- ابن عِذارى، أَبو محمَّد عبد اللّه محمَّد المراكشي:
- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ـ الجزءان الأول والثاني** ـ تحقيق ج. س. ولان، وإ. ليفي بروفنسال. ليدن، ١٩٤٨. **الجزء الثالث**، دار الثقافة، بيروت.
- ابن عربشاه، أَبو العباس شهاب الدين أَحمد بن محمَّد الدمشقي:
- **عجائب المقدور في نوائب تيمور** ـ

تحقيق أَحمد فايز الحمصي، مؤسسة الرسالة، بيروت ط١، ١٩٨٦.
- ابن العبري، غريغوريوس الملطي:
- **تاريخ الزمان**-دار الشرق، بيروت، ١٩٨٦.
- ابن العديم، الصاحب كمال الدين عمر بن هبة الله:
- **زبدة الحلب من تاريخ حلب** - تحقيق سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، ط ١، ١٩٩٧.
- عماد الدين، إدريس الداعي المطلق:
- **عيون الأخبار وفنون الآثار** - دار الأندلس، بيروت، ١٩٩٦.
- ابن عمراني، محمَّد بن علي بن محمَّد:
- **الأنباء في تاريخ الخلفاء** - باهتمام تقي بنيش - مشهد ١٣٦٣ هـ. شمسي.
- الفارقي، أَحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق:
- **تاريخ ميافارقين** - تحقيق عبد اللطيف بدوي عوض، القاهرة، ١٩٥٩.
- أَبو عبيد القاسم بن سلام:
- **كتاب الأموال** - تحقيق محمَّد خليل هراس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٦.
- ابن الفرضي، أَبو الوليد عبد اللّه بن يوسف الأزدي:
- **تاريخ علماء الأندلس** - الدار المصرية، القاهرة، ١٩٦٦.
- أَبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمَّد:
- **المختصر في أخبار البشر** - دار الفكر - دار البحار، بيروت، ١٩٥٦.
- أَبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم:
- **كتاب الخراج** - دار المعرفة، بيروت.
- فريد بك، محمَّد:
- **تاريخ الدولة العلية العثمانية** - تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣.
- ابن قاضي شهبة، بدر الدين أَبو الفضل محمَّد... الدمشقي الشافعي:
- **الكواكب الدرية في السيرة النورية** - تحقيق محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١.
- القاضي النعمان بن محمَّد بن حيون:
- **رسالة افتتاح الدعوة** - تحقيق وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٠م.
- القرماني، أَحمد:
- **تاريخ سلاطين آل عثمان** - تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دار البصائر، دمشق، ١٩٨٥.
- ابن القطان،... ابن أَبي الحسن بن علي الكتامي:
- **نظم الجمان. جزء من كتاب** - تحقيق محمَّد علي مكي، الرباط.
- ابن القلانسي، أَبو يعلى حمزة بن أسد:
- **ذيل تاريخ دمشق** - تحقيق سهيل زكار، دار حسان، دمشق، ط ١، ١٩٨٣م.
- القلقشندي، أَحمد بن علي:
- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** - تحقيق محمَّد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.
- ابن القوطية، أَبو بكر محمَّد القرطبي:
- **تاريخ افتتاح الأندلس** - تحقيق عبد اللّه الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ط ١، ١٩٩٤.
- ابن قتيبة، أَبو محمَّد عبد اللّه بن مسلم:
- **الإمامة والسياسة** - دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧.
- كامل، مصطفى:
- **المسألة الشرقية** - القاهرة، ١٨٩٨م.
- ابن كثير، الحافظ عماد الدين أَبو الفدا إسماعيل... الدمشقي:
- **البداية والنهاية** - دار المعارف، بيروت، ط ٢، ١٩٧٧م.
- ابن الكردبوس:

- **تاريخ الأندلس** - معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٧١، تحقيق العبادي.
- الكركوكلي، الشيخ رسول:
- **دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء** - ترجمة موسى كاظم نورس، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمَّد السائب:
- **كتاب الأصنام** - دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م.
- الكندي، أبو عمر محمَّد بن يوسف:
- **الولاة وكتاب القضاة** - مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م، ونشر رفن جست، بيروت، ١٩٤٨م.
- **مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني** - تحقيق محمَّد حرب، دار القلم، دمشق، ط ٣، ١٩٩١م.
- ابن المأمون، الأمير جمال الدين أبو علي موسى:
- **أخبار مصر، نصوص من**، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٣.
- المبرد، أبو العباس محمَّد بن يزيد المعروف بالمبرد النحوي:
- **الكامل في اللغة والأدب** - دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٩م.
- المراكشي، عبد الواحد:
- **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** - تحقيق محمَّد سعيد العريان، القاهرة، ١٩٦٣.
- المسبِّحي، الأمير المختار عز الملك محمَّد... بن أحمد:
- **أخبار مصر، الجزء الأربعون** - تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٧٨.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي:
- **مروج الذهب ومعادن الجوهر** - تحقيق أسعد داغر، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٥.
- مسكويه، أبو علي أحمد بن محمَّد:
- **تجارب الأمم** - طبعة آمدروز، القاهرة، ١٩١٤ - ١٩١٩.
- المقري، شهاب الدين أحمد بن محمَّد المقري التلمساني:
- **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب** - تحقيق محمَّد محيي الدين عبد الحميد. دار الكتاب العربي، بيروت.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي:
- **السلوك لمعرفة دول الملوك** - تحقيق مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة.
- **شذور العقود في ذكر النقود** - النجف.
- **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا** - الجزء الأول: تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٧. الجزءان الثاني والثالث: تحقيق حلمي محمَّد أحمد، القاهرة، ١٩٦٧ - ١٩٧٣.
- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** - تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٨.
- **إغاثة الأمة بكشف الغمة** - تحقيق مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٧.
- ابن منظور:
- **لسان العرب** - طبعة دار صادر، بيروت.
- ابن منقذ، أسامة:
- **كتاب الاعتبار**.
- المنصوري، بيبرس الدوادار:
- **التحفة الملوكية في الدولة التركية** - تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ط ١، ١٩٨٧.

- مؤلف مجهول:
- **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم** - مدريد، ١٨٦٧.
- مؤلف مجهول:
- **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، المنسوب خطأ إلى ابن الخطيب** - تونس.
- ابن ميسر، تاج الدين محمَّد بن علي بن يوسف:
- **أخبار مصر، منتقى من** - تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨١.
- ابن النديم:
- **الفهرست** - تحقيق الشيخ إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ط ١، ١٩٩٤.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهَّاب:
- **نهاية الأرب في فنون الأدب** - الهيئة العربية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٣، ١٩٩٠ و١٩٩٢.
- ابن هشام، أبو محمَّد عبد الملك:
- **السيرة النبوية، من كتاب الروض الأنف للسهيلي** - مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
- الهمذاني، أبو محمَّد الحسن بن أحمد:
- **صفة جزيرة العرب** - نشر محمَّد بن عبد اللَّه بن بلهيدي النجدي، القاهرة، ١٩٥٣م.
- ابن واصل، جمال الدين أبو عبد اللَّه محمَّد بن سليم الشافعي:
- **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب** - تحقيق جمال الشيال، القاهرة، ١٩٥٣ - ١٩٥٧م.
- ابن يحيى، صالح:
- **تاريخ بيروت**، تحقيق كمال الصليبي وفرنسيس هورس، بيروت، ١٩٦٩م.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح:
- **تاريخ اليعقوبي** - تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م.

ب - المراجع:

- أرنولد:
- **الدعوة إلى الإسلام** - تعريب نبيه فارس ومحمود زايد، بيروت، ١٩٥٤.
- أستارجيان، ك. ل:
- **تاريخ الأمة الأرمنية** - الموصل، ١٩٥١م.
- أمين، أحمد:
- **ضحى الإسلام** - القاهرة، ط ١، ١٩٣٣.
- أوزتونا، يلماز:
- **تاريخ الدولة العثمانية** - ترجمة عدنان محمود سليمان، المجلد الأول، منشورات مؤسسة فيصل للتموين، إستانبول، ١٩٨٨م.
- أوين، روجر:
- **الشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي ١٨٠٠ - ١٩١٤** - ترجمة سامي الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م.
- إيڤانوف، نيقولاي:
- **الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦ - ١٥٧٤** - ترجمة يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٨م.
- بارتولد، فاميلي فلاديميروڤيتش:
- **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي** - ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت، ١٩٨١م.
- برو، توفيق:
- **العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ - ١٩١٤** - دار

طلاس، دمشق، ط ١، ١٩٩١م.
- بروكلمان، كارل:
- **تاريخ الشعوب الإسلامية** - تعريب نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٨م.
- البطريق، عبد الحميد:
- **من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧ - ١٨٤٠** - معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٩م.
- البطريق، عبد الحميد ونوار، عبد العزيز:
- **التاريخ الأوروبي الحديث** - دار النهضة العربية، بيروت.
- بني المرجة، موفق:
- **صحوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية** - مؤسسة صقر الخليج للطباعة والنشر، الكويت، ١٩٨٤م.
- بيضون، إبراهيم:
- **ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري** - دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩م.
- **الدولة العربية في الأندلس** - دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م.
- التر، عزيز سامح:
- **الأتراك العثمانيون في أفريقية الشمالية** - ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، ط ١.
- جرانت، أ. ج وتمبرلي هارولد:
- **أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين** - ترجمة محمَّد علي أبو درة ولويس إسكندر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٧م.
- جعيط، هشام:
- **الفتنة** - دار الطليعة، بيروت، ط ٣، ١٩٩٥م.
- حسن، إبراهيم حسن:
- **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي** - مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م.
- الحصري، ساطع:
- **البلاد العربية والدولة العثمانية** - دار العلم للملايين، بيروت، ط ٣، ١٩٦٥م.
- حلاق، حسان:
- **دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية** - دار النهضة العربية، بيروت، ط ١، ١٩٨٩م.
- خوري، إميل، وإسماعيل، عادل:
- **السياسة الدولية في الشرق العربي، الجزء الأول** - دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، ١٩٩٠م.
- **دائرة المعارف الإسلامية.**
- دايفز، كارل:
- **شارلمان** - ترجمة السيد الباز العريني، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٩م.
- الدوري، عبد العزيز:
- **مقدمة في تاريخ صدر الإسلام** - بيروت، ١٩٦٠م.
- دوزي، رينهارت:
- **المسلمون في الأندلس** - ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- ديورانت، ول:
- **قصة الحضارة** - الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- الرافعي، عبد الرحمن:
- **الثورة العربية والاحتلال الإنكليزي** - القاهرة، ١٩٤٩م.
- **عصر محمَّد علي** - النهضة المصرية، القاهرة، ط ٣، ١٩٥١م.
- رافق، عبد الكريم:
- **العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦** - دمشق، ط ١، ١٩٧٤م.
- رستم، أسد:
- **الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم** - منشورات المكتبة

البولسية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٨م.
- الرشيدي، سالم:
- **محمَّد الفاتح** - مكتبة الإرشاد، جدة، ط ٣، ١٩٨٩م.
- رضا، الشيخ رشيد:
- **تفسير القرآن الحكيم** - القاهرة، دار المنار، ط ٣، ١٣٧٣هـ.
- رنسيمان، ستيفن:
- **تاريخ الحروب الصليبية** - ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط ٢، ١٩٨١م.
- سالم، السيد عبد العزيز:
- **تاريخ الدولة العربية** - دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م.
- سيد، أيمن فؤاد:
- **الدولة الفاطمية في مصر** - الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢.
- شاكر، محمود:
- **التاريخ الإسلامي - الجزء الثالث - الخلفاء الراشدون** - المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٧، ١٩٩١.
- الشامي، أحمد:
- **الخلفاء الراشدون** - القاهرة.
- شعبان، محمَّد عبد الحي محمَّد:
- **الدولة العباسية - الفاطميون** - الأهلية للنشر والتوزيع، القاهرة.
- شكري، محمَّد فؤاد:
- **الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر** - دار الفكر العربي، القاهرة.
- الشناوي، عبد العزيز:
- **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها** - مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٤ - ١٩٨٦.
- الشوابكة، أحمد فهد بركات:
- **حركة الجامعة الإسلامية** - مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط ١، ١٩٨٤م.
- الصباغ، ليلى:
- **الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر** - مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٨٩م.
- طقوش، محمَّد سهيل:
- **تاريخ الدولة الأموية** - دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م.
- **تاريخ الدولة العباسية** - دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م.
- **تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام** - دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٩٩٩.
- **تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام** - دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.
- **العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة** - دار بيروت المحروسة، ط ١، ١٩٩٥م.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح:
- **الحركة الصليبية** - مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٣م.
- العبادي، أحمد مختار:
- **في التاريخ العباسي والأندلسي** - دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢.
- **في التاريخ العباسي والفاطمي** - دار النهضة العربية، بيروت.
- عبد اللطيف، عبد الشافي محمَّد:
- **العالم الإسلامي في العصر الأموي** - دار الوفاء، القاهرة، ط ١، ١٩٨٤م.
- عرموش، أحمد راتب:
- **الفتنة ووقعة الجمل - رواية سيف بن عمر** - دار النفائس، بيروت.
- العقاد، عباس:
- **الله جل جلاله** - دار المعارف مصر، القاهرة ط ٣، ١٩٦٠م.
- علي، جواد:
- **المفصل في تاريخ العرب قبل**

الإسلام ـ دار العلم للملايين، بيروت.
ـ عمر، فاروق:
ـ **طبيعة الثورة العباسية** ـ بيروت، ١٩٧٠م.
ـ عنان، محمَّد عبد اللَّه:
ـ **دولة الإسلام في الأندلس** ـ مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ١٩٧٠م.
ـ عيسى، رياض:
ـ **الحزبية السياسية منذ قيام الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية** ـ دمشق، ط ١، ١٩٩٢م.
ـ فلهوزن، يوليوس:
ـ **الدولة العربية وسقوطها** ـ ترجمة يوسف العش، دمشق، ١٩٦٢م.
ـ فيشر، هربرت:
ـ **تاريخ أوروبا في العصر الحديث** ـ ترجمة أحمد هاشم ووديع الضبع، دار المعارف، مصر، ط ٧.
ـ كريستنس، آرثر:
ـ **إيران في عهد الساسانيين** ـ ترجمة خشاب وعزام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٧م.
ـ كلو، أندري:
ـ **سليمان القانوني** ـ تعريب البشير بن سلامة، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٩١م.
ـ كوبرولي، محمَّد فؤاد:
ـ **قيام الدولة العثمانية** ـ ترجمة أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ١٩٩٣م.
ـ كولز، بول:
ـ **العثمانيون في أوروبا** ـ ترجمة عبد الرحمن عبد اللَّه الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.
ـ لويس، برنارد:
ـ **إستانبول وحضارة الأمبراطورية العثمانية** ـ ترجمة سيد رضوان علي، منشورات جامعة بنغازي.
ـ **العرب في التاريخ** ـ ترجمة حسن عابدين والنحراوي، القاهرة، ١٩٤٧.
ـ لينبول، ستانلي:
ـ **العرب في إسبانيا** ـ ترجمة علي الجارم، القاهرة، ١٩٦٣م.
ـ ماجد، عبد المنعم:
ـ **الحاكم بأمر الله الفاطمي الخليفة المفترى عليه** ـ القاهرة، ١٩٥٩م.
ـ مروة، حسين:
ـ **النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية** ـ دار الفارابي، بيروت.
ـ مصطفى، أحمد عبد الرحيم:
ـ **في أصول التاريخ العثماني** ـ دار الشروق، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٣م.
ـ ملحم، عدنان محمد:
ـ **المؤرخون العرب والفتنة الكبرى** ـ دار الطليعة، بيروت، ط ١، ١٩٩٨م.
ـ منسَّى، محمود صالح:
ـ **تصريح بلفور** ـ القاهرة، ١٩٧٠م.
ـ مؤنس، حسين:
ـ **تاريخ المغرب وحضارته** ـ العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٩٩٢م.
ـ الندوي، أبو الحسن:
ـ **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين** ـ مكتبة دار العروبة، القاهرة، ط ٥، ١٩٦٤.
ـ نوار، عبد العزيز سليمان:
ـ **الشعوب الإسلامية** ـ دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣م.
ـ هايد، ف:
ـ **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى** ـ ترجمة أحمد محمَّد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥ ـ ١٩٩٤م.
ـ يحيى، لطفي عبد الوهاب:
ـ **العرب في العصور القديمة** ـ دار النهضة العربية، بيروت.

ثانياً: المصادر والمراجع باللغات الإسلامية:

- ابن بيبي، ناصر الدين يحيى بن محمَّد:
- مختصر سلجوق نامة، المسمى: الأوامر العلائية في الأمور العلائية - تحقيق هوتسما، ١٩٠٢م (بالفارسية).
- بازوكي، رضا:
- تاريخ إيران أزمغول تا أفاشرية - چاب أول، تهران، ١٣٣٤ شمسي هجري (بالفارسية).
- باشي، منجم:
- صحائف الأخبار - إستانبول، ١٢٨٥هـ (بالتركية).
- بجوي، إبراهيم:
- تاريخ بجوي - مطبعة عامرة. إستانبول، صفر ١٢٨٣ هـ (بالتركية).
- زادة، صولاق:
- تاريخ صولاق زادة - إستانبول، ١٢٩٧هـ (بالتركية).
- زادة، عاشق باشا:
- عاشق باشا زادة تاريخي - إستانبول، مطبعة عامرة، ١٣٣٢هـ (بالتركية).
- سعد الدين، محمَّد:
- تاج التواريخ - إستانبول، ١٨٦٢ - ١٨٦٣م (بالتركية).
- عاصم، إسماعيل كوچك جلبي زادة:
- تاريخ إسماعيل عاصم - إستانبول، ١٢٨٢م (بالتركية).
- المستوفي، حمد الله بن أَبي بكر أَحمد بن نصر الله المستوفي القزويني:
- تاريخ گزيدة: نشر براون - بومباي، ١٣٢٨هـ (بالفارسية).
- نعيما، مصطفى:
- روضة الحسين في أخبار الخافقين، المعروف بتاريخ نعيما - مطبعة عامرة، إستانبول ١٢٨٣هـ (بالتركية).
- نوري، عثمان:
- عبد الحميد ودور سلطنتي. حيات خصوصية وسياسة سي - الآستانة، ١٩٠٩م (بالتركية).
- هدايت، رضا قليخان:
- ملحقات تاريخ روضة الصفا - ناصري جلا هشتم، ١٣٣٩ شمسي هجري (بالفارسية).

ثالثاً: المصادر والمراجع باللغات الأوروبية:

- Arnold, Sir Th. W:
  - **The Caliphate.** Oxford 1941.
- Babinger, F:
  - **Mahomet II le Conquerant Et son Temps 1432-1481.** Payot-Paris 1955.
- Barker, T. M:
  - **Double Eagle and the Crescent: Vienna's Second siege and it Historical Setting.** New york 1967.
- Brown, E. G:
  - **Literary History of Persia.** Camb. University 1955.
- Bury, J. B:
  - **A History of Later Roman Empire.** London 1923.
  - **A History of the Eastern Roman Empire.** London.
- **Camb Med History, Byzantine Empire.**
- **Camb History of Islam.**
- **Camb Med History. Vol IV.**
- Canard, M:
  - **Les Expeditions des Arabes contre Constantinople dans L'Histoire et dans la légende.** Journal Asiatique. London 1926.
- Chapman, C. E:
  - **A History of Spain.** New York 1931.

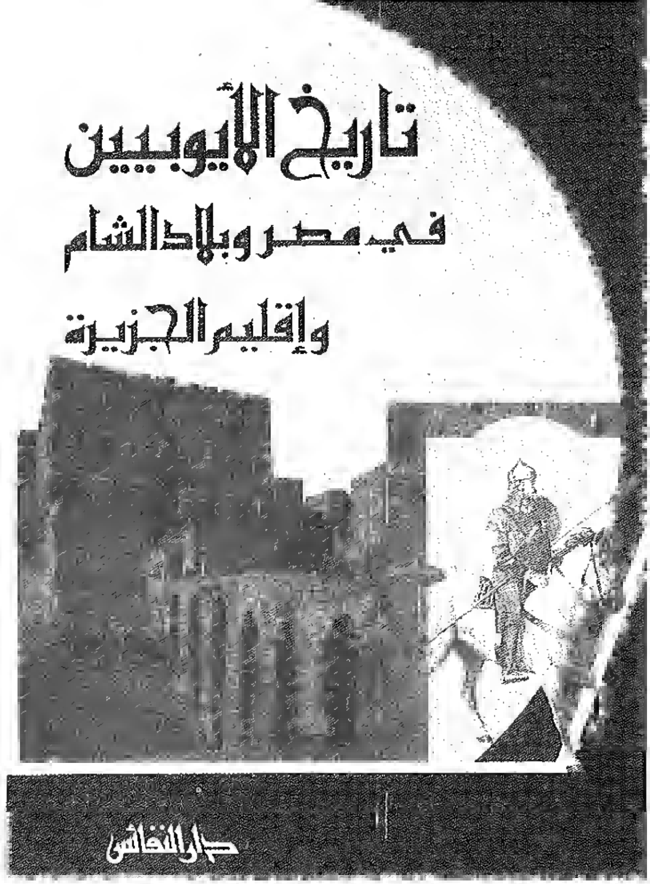
- Comnina, Anna:
  - **The Alexiad.** trans. by Elisabeth A. S. Dawes. London 1928.
- Creasy, E. S:
  - **History of the Ottoman Turks from the Beginning of their Empire to the present Time.** Khayat. Beirut 1961. Vol II, London 1878.
- Davison, R. H:
  - **Reform in the Ottoman Empire 1856-1876.** Princeton 1963.
- De Testa, T. D:
  - **Réveil de Traités de la porte Ottoman avec les puissances Etrangère.** Paris 1901.
- Diehle, C:
  - **Enrope Orientale de 1081 à 1453.** Paris 1945.
- Diehle, C et Marcais, G:
  - **Le Monde Orientale de 395 à 1081.** Paris 1936.
- Einhard:
  - **The Life of Charlemagne.** Michigan 1960.
- Fichenau H:
  - **Thc Carolingian Empire.** Oxford 1957.
- Finaly, G:
  - **History of the Byzantine Empire DC XIV to ML VII.** London 1908.
- Gibbons, H. A:
  - **The Foundation of the Ottoman Empire 1300-1403.** Oxford 1916.
- Grammont, H. D:
  - **Histoire d'Alger sous la Domination Turque 1515-1830.** Paris 1887.
- Grousset, R:
  - **Histoire de L'Armenie dès Origines à 1071.** Payot Paris 1947.
- Hammer, J:
  - **Histoire de L'Empire Ottoman.** Paris 1835-1846.
- Hurewitz, J. C:
  - **The Middle East and North Africa in world politics. A Documentary Record. I 1535-1914. II 1914-1956.** Princeton 1956.
- Inalçik, H:
  - **The Ottoman Economic Mind and Aspect of the Ottoman Economy Studies, in Economic History of the Middle East,** by M. A Cook. 1970.
- Jelavich, B:
  - **The Ottoman Empire. The Great powers and the straits Qnestion 1870-1887.** Indiana 1973.
- Kritovoulos:
  - **History of Mehmed the Conqueror.** Trans. by Charles, T. Riggs. Green wood. 1970.
- Lewis, B:
  - **The Emergence of Modern Turkey.** Oxford 1962.
- Marriot, J. A. R:
  - **The Eastern Question.** London 1965.
- Michel Le Syrienne:
  - **Chronique.** Ed by J. **B**, Chabot. Bruxelles 1899-1910.
- Miller, W:
  - **The Ottoman Empire and its Successors 1801-1927.** London 1966.
- Owman, Ch. W. Ch:
  - **A History of Art of war in the Middle Ages.** London 1924.
- Ostrogorsky, G:
  - **A History of the Byzantine States.** Trans. by Hussey. Oxford 1956.
- Philpy, H:
  - **The Empty Quarter.** In the Geographical Journal. 81.
- Pitcher, D. E:
  - **A Historical Geography of the Ottoman Empire from the Ear-**

liest times to the End of 16th century. Leiden 1972.

- Provençal, L:
  - **Histoire de L'Espagne Musulmane.** Paris 1950.
- Runciman, S:
  - **Charlemagne and palestine.** English Historical Review I. London 1953.
- Saul, N. E:
  - **Russian and the Mediterranean: 1797-1807.** Chicago-London 1970.
- Shaw, S. J:
  - **History of the Ottoman Empire and Modern Turkey. Vol I Empire of the Gazis, the Rise and Decline of the Ottoman Empire 1280-1808.** Camb 1988.
- Shaw, S. J and Kural, E:
  - **History of the Ottoman Empire and Modern Turkey. Vol II Reform, Rovolution and Repuhlic. The Rise of Modern Turkey 1807-1988.** Camb 1988.
- Stevenson, W. B:
  - **The Crusaders in the East.** Camb 1968.
- Stoye, J:
  - **The Siege of Vienna.** London. 1964.
- Theophanes:
  - **Chronographia. P.G.M. Tome CVIII.** Paris 1863.
- Vasiliev, A. A:
  - **History of the Byzantine Empire.** Madison 1973.
- Vernard, M:
  - **Le Monde et son Histoire. Tome V, XVI et XVII siècles.** Collection par Maurice Melau, France 1967.
- Wittek, P:
  - **The Rise of the Ottoman Empire.** Oxford 1955.
- Yazdi, A. Ch:
  - **Zafornama.** Eng. Trans. by Darley, London 1723.

فهرس الخرائط

فهرس الموضوعات


تاريخ الأيوبيين
في مصر وبلاد الشام
وإقليم الجزيرة
دار النفائس


تاريخ
سلاجقة الروم
في آسيا الصغرى
دار النفائس

- **من منشورات دار النفائس للمؤلف:**

- تاريخ الدولة الأموية.
- تاريخ الدولة العباسية.
- تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام.
- تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام.
- تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام.
- تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام.
- تاريخ الإسلام الوجيز (من عصر الرسالة إلى الانقلاب على الخلافة).
- تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى.
- تاريخ السلاجقة في بلاد الشام.

- **من منشورات دار النفائس التاريخية:**

- تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ محمد فريد، تحقيق: د. إحسان حقي.
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ د. محمد حميد الله.
- المدخل إلى التاريخ الإسلامي ـ د. محمد فتحي عثمان.
- محاسن الوسائل في معرفة الأوائل ـ محمد عبد الله الشلبي، تحقيق: د. محمد التونجي.
- الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ـ بسام العسلي.
- سلسلة شعب الجزائر ١/ ١٥ ـ بسام العسلي.
- سلسلة مشاهير الخلفاء والأمراء ١/ ١٠ ـ بسام العسلي.
- سلسلة مشاهير قادة الإسلام ١/ ١٥ ـ بسام العسلي.
- القادسية ـ أحمد عادل كمال.
- حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين ـ محمد بن عيسى بن كنان، ت: عباس صباغ.
- الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس هـ ـ د. محمد حسين شندب.
- قضية البوسنة والهرسك ـ الأرقم الزعبي.
- السلطة في بلاد الشام (في القرن الثامن عشر) ـ د. عبد الغني عماد.
- من أوراق الانتداب ـ زهير الشلق.
- الفتنة ووقعة الجمل (رواية سيف بن عمر الضبي الأسدي) ـ تصنيف: أحمد راتب عرموش.
- تاريخ فلسطين القديم ـ ظفر الإسلام خان.

ISBN 978-9953-18-064-9
9 789953 180649

رقم:408 - 02